أضواء على سير الأنبياء

الأنبياء الأولون

تقديم الدكتور فتحي النصري

عميد كلية الآداب - تونس

شارك في هذا العمل إلى جانب لجنة الترجمة

الدكتور علي المخلبي   الدكتور عيسى دياب

الأستاذة عواطف زويدي   الدكتور إكرام لمعي

الدكتور نور الدين الزويتني

بسم الله الرحمن الرحيم

أضواء على سير الأنبياء

الأنبياء الأولون

جميع الحقوق محفوظة
«للكلمة»

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات
أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال
دون إذن خطي مسبق من الناشر

الآراء الواردة في هذا الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات تتبناها الدار

ISBN: 978 - 0 -9566897 - 6 - 4

الفرات للنشر والتوزيع / الإدارة والتوزيع
رأس بيروت - شارع عبلا - بناية بخعازي - بيروت - لبنان
تلفاكس: 00961/1/750554
e-mail: alfurat@alfurat.com

أضواء على سِيَر الأنبياء

الأنبياء الأوّلون

تقديم الدّكتور فتحي النصري

عميد كلية الآداب - تونس

شارك في هذا العمل إلى جانب لجنة التّرجمة

الدّكتور علي المخلبي الدّكتور عيسى دياب

الأستاذة عواطف زويدي الدّكتور إكرام لمعي

الدّكتور نور الدين الزّويتي

تم هذا العمل الجليل بإشراف
منصور الذهبي و مظهر الملوحي

كلمة حول هذا الكتاب

الدكتور فتحي النصري

هذا كتاب في سير الأنبياء وتواريخ الأوّلين. ولمّا كان ظاهر القصص الديني قائما على الإخبار وباطنه هادفا إلى الاعتبار، فإنّ المؤلّف قد توخّى في عرض هذه القصص منهجا لم يحِدْ عنه. فهو يستهلّ كلّ قصّة بمدخل يجلي فيه دلالاتها ثمّ يعرض بعد ذلك الحكاية التي تروى في تفاصيلها الأساسيّة. وما تقديم المقاصد على المادّة الحكائيّة إلاّ لأنّ الحكاية ليست غاية في حدّ ذاتها بقدر ما هي مجاز يعبر من خلاله المؤمن الذي يتوجّه إليه المؤلّف إلى المقاصد التي ينبغي أن يقف عليها والمغزى الذي عليه أن يدركه. وقد يعرض المؤلّف مجدّدا أثناء سرد الحكاية أو إثرها إلى بعض هذه المقاصد لترسيخها لدى المتلقّي.

وقد حرص المؤلّف على صياغة هذه القصص بلغة واضحة بسيطة لا تكلّف فيها ولا تعقيد إذ كان الغرض من تأليفها التوجّه إلى المؤمن «العاديّ» في العصر الحديث لتبصيره بأمور دينه عسى أن يستعين بها على شؤون دنياه. غير أنّ ذلك لم يمنعه من الوفاء بمقتضيات التوثيق. فهو يحيل كلّ مرّة على مصادره التي استقى منها مادّته القصصيّة. وهي تشمل أساسا الكتب السماويّة الثلاثة التوراة والإنجيل والقرآن. وتتعدّى وظيفة الهوامش المتعدّدة هاجس ضبط الإحالة، إذ كثيرا ما تكون

موضع استطراد لرفع التباس أو توضيح مفهوم أو عقد علاقة بين وقائع الماضي وأحداث الحاضر.

ولمّا كان غرض المؤلّف إرشاد المؤمن إلى الجوهر الروحاني الملازم للقصّة الدينيّة فإنّ قراءة الوقائع التوراتيّة اتسمت بصبغة نقديّة تتعدّى الظواهر لتكشف عن منطقها الضمني وتضفي عليها معقوليّة. ومن ثمّة سعت هذه القراءة إلى توضيح الصبغة الرمزيّة لبعض الظواهر كطول أعمار الناس قبل الطوفان، وعمل المؤلّف على تنزيل الشعائر الدينيّة مثل تقديم الأضاحي والختان في سياقها الثقافي وفهم أبعادها الاجتماعيّة في ضوء العادات الشرقيّة حتّى يتسنّى تجاوز الظاهر إلى الحقيقة الباطنيّة الروحيّة. وفي سياق هذه القراءة وضّح المؤلّف المقصود من عبارات مثل «ظلّ الله» أو «شعب الله» أو «ميثاق الله»، وصحّح العديد من المفاهيم الواردة في الكتب السماويّة مبرزا معانيها الروحانيّة على غرار مفاهيم الإرث والخلاص والسلطة داحضا الفهم الحصري العنصريّ الذي قد يعلّقها بسلالة معيّنة دون غيرها أو يوظّفها لخدمة نزعات عنيفة أو ظلاميّة.

وفي الجملة فإنّ غاية المؤلّف الأخيرة من عرض سير الأنبياء وأحوال الماضين الإعلاء من شأن الإنسان وتعزيز القيم الإنسانيّة بحيث يتحقّق مفهوم الخلافة في الأرض بمعناه الأسمى.

أضواء على سِيَر الأنبياء

مقدمة لجنة التحرير

هذه باقة من «قصص الأنبياء الأولين» نقدمها للقارئ العربي في كتاب أسميناه «أضواء على سِيَر الأنبياء». وهدفنا حصول القارئ العربي على البركات التي حصل عليها قرّاء كثر على مر السنين. لقد كانت هذه السِّيَر للكثيرين ملاذًا في الضيق، ونورًا في الظلام، وهديًا في الضلال، وأملًا في اليأس، ومثالًا يُحتذى به في غياب القادة الحكماء، والمعلمين الفهماء.

جاء عدد من هذه السِّيَر في كتاب التوراة، وهو كتاب أساسي في الديانات الإبراهيمية الثلاث. وجاء عدد آخر منها في أسفار الأنبياء، والكتابات المقدسة الأخرى في الكتاب المقدس العبري، الذي دعاه المسيحيون «العهد القديم»، أي عهد الله مع قوم ميثاقه بواسطة النبي موسى، ونسبة إلى عهد الله بواسطة السيد المسيح، الذي دعاه المسيحيون «العهد الجديد». وقد لمّح القرآن الكريم إلى هذه الكتب في سياق كلامه عن «صحف الأولين».

تستند هذه السِّيَر، إذن، على النصوص الأصلية لكتاب التوراة، وأسفار الأنبياء، والكتابات المقدسة العبرية الأخرى. ونظرا لأهميتها كنصوص تأسيسية في الديانات الإبراهيمية، آلينا على نفوسنا أن نُظهر أيضا أهمية هذه السِّيَر للفكر المسيحي والإسلامي، ونُري كم هي مترابطة من حيث المعنى والرسالة.

لقد أتينا بالسِّيَر من النّصوص الأصليّة، وألحقنا بها نماذج من تعاليم صاحب السيرة وأقواله. حرصنا أن لا يتم اقتباس السِّيَر بصيغتها الحرفية من النصوص الأصلية، بل بترجمة للمعاني والأفكار الكامنة وراء الكلمات كما جاءت في اللغات الأصلية. وحرصنا أن تعكس الترجمةُ روحَ النصوص الأصلية، متجاوزة شكلها الجامد إلى معانيها المفعمة بالحيوية والمتميزة بفاعلية مستمرة. وحرصنا أيضًا، في الترجمة، أن نطبق تقاليد التأويل المتعارف عليها في كل من اليهودية والمسيحية والإسلام لأنّ هذه الديانات تنتمي إلى التراث الإبراهيمي وللحضارات السّاميّة وعندها تقاليد مشتركة. فعبّرنا عن تطلّع نصوص الوحي القديم ومعانيها إلى مقاصد الله السامية في الوحي، أي مجيء مُلْك المسيح الموعود به، وإقامته المملكة الإلهية التي وعدنا الله بها.

كان اعتمادنا الأساسي، في الترجمة، على النصوص العبرية الأصلية المتوفرة لدينا، واستعنّا أحيانًا بالترجمة السبعينية اليونانية القديمة، وبالترجمة الآرامية (الترجوم) للتوصل إلى المعنى الحقيقي للنصوص، واستعنّا أيضًا بشروحات العلماء والفقهاء اليهود والمسيحيين والمسلمين، ووضعنا كل ذلك في خدمة المعنى.

لقد أدخلنا في الكتاب، إلى جانب السِّيَر وتعاليم أصحابها، مجموعةً من المقالات العلمية، وذيّلنا نصوص السِّيَر والتعاليم الملحقة بها بملاحظات هامشية، وذلك من أجل شرح الخلفية الثقافية للأنبياء القدماء في زمنهم، وتوضيح أمور عديدة في قصص لا تنتمي إلى زمننا، والإجابة عن كثير من الأسئلة المطروحة، خاصة تلك التي سبّبها سوءُ فهمٍ للنص، أو تفسيرٌ شخصي ضيّق استُغِلَّ النصُّ فيه لأغراض سياسية تدخل في إطار الاستغلال السياسي للدين.

لقد تمت صياغة هذه السِّيَر بطريقة تكون فيها مفهومة للقرّاء العرب (دون العاديّين)، مع حرصنا الكبير على الأمانة للنصوص الأصلية. فتجنبنا المصطلحات الأجنبية الغريبة، والمصطلحات الدينية غير المعروفة أو المألوفة، وتوخينا استخدام أسماء مسيّقة لشخصيات معروفة على نطاق واسع. فعلى سبيل المثال، استخدمنا اسم «يونس» في قصة النبي المعروف باسم يونان. ونسبنا الاسم لمكانه قدر ما استطعنا، بدلاً من تقديم الأسماء بألفاظها العبرية، وذلك تماشيًا مع التقاليد العربية المعروفة.

نود أن نؤكد على ثلاث مسائل أساسية في هذا العمل: الأولى، رفضنا تأويل هذه النصوص بطريقة تخدم الفكر الصهيوني؛ والثانية، رفضنا استخدام هذه النصوص لتسويغ استعمال العنف؛ والثالثة، مركزية المسيح في هذه النصوص. ويمكننا دمج المسألة الأولى والثانية معًا.

ما يتعلق بالمسألتين الأولى والثانية، عندنا كل الوعي أن هذه النصوص استُغِلَّت استغلالًا سياسيًا على نطاق واسع، فاستُخدمت كـ«براهين إلهية» لاستعلاء شعب على سائر الشعوب، وللاعتقاد بأن الله اختار شعبًا لنفسه دون شعوب الأرض الأخرى. وتم، على أساس هذه النصوص، تبرير خوض حروب دموية سُفكت فيها دماء بريئة، وتسويغ اغتصاب أرض وتشريد شعب. نحن نستنكر هذه الأمور التي جرت على أساس هذه النصوص المقدسة وباسم الله. فالله المحبة هو أيضًا الحَكَم العدل الذي يأتي بالعدالة والمساواة، فنور محبته يعم المسكونة، ويشمل الشعوب. وحاشا له أن يدعم شعبًا يمارس فوقية على الشعوب، واستقواء على الضعفاء. حاشا لله أن يدعم مشاريعَ فيها ظلم واغتصاب حقوق، وإن تحققت باسمه زورًا وبهتانًا. إنّ كل الحروب وسفك الدماء التي جاءت في هذه النصوص صنعها الإنسان الشرير لا الله، حتى لو أسندها الإنسان إلى الله زورًا وبهتانًا. وليست المقاصد الإلهية، في هذه النصوص المقدسة، توزيع الأرض وخيراتها على الشعوب، فيخص بعض الشعوب بالقدر الأكبر منها، ويحرم شعوبًا أخرى من جزء قليل منها. وليست المقاصد الإلهية بناء مملكة أرضية قوية خص بها شعبًا معينًا. إن المقاصد الإلهية العليا هي تحرير الإنسان من ميوله الشريرة، وتحرير العالم من الشر المتمثل بالظلم والاغتصاب وانتهاك الحقوق، وتحويل الإنسان من النفس الشريرة إلى طبيعة خيّرة تتأصل فيها الخلقية الإلهية كخطوة أولى للدخول إلى عالم الله الأبدي. من أجل تحقيق هذه المقاصد الإلهية العليا أعلن الله عن ذاته للإنسان من خلال النصوص المقدسة التي هي مرجع قصص هذا الكتاب.

ما يتعلق بالمسألة الثانية، حرصنا كل الحرص أن يكون المسيح ورسالته محور هذه السِّيَر، وذلك إيمانًا منا بأن مقصد الله السامي في تاريخ الخلاص تحقق بمجيء

سيدنا المسيح. فهذه السِّيَر لم تُكتب لتكون حكايات مسلّية، أو نماذج أدبية، أو كاشفًا عن التاريخ والتقاليد. بل كُتبت بهدف تصوير تجليات الله في التاريخ، وخاصة مع قوم ميثاقه، ومرافقته لهذا القوم عبر جميع مراحل حياته، من الطفولة حتى الكهولة. وكُتبت أيضًا لإظهار أعمال الله العظيمة بالخلق، وعنايته الدائمة بمخلوقاته، وعمله المستمر وسط عباده الصالحين. إن نقطة وصول التاريخ هي تجلي الله وسط عباده الصالحين. وكأن التاريخ كله ينحو نحو السيد المسيح، ويتحقق به. فالمسيح الذي هو كلمة الله وروح من الله، حقق، بحياته وتعاليمه وأعماله ومواقفه وتضحيته بحياته وبعثه حيا، تجلي الله وسط قوم ميثاقه، كون الإنسان، الذي بذل محاولات حثيثة للوصول إلى الله، عجز عن الوصول إلى الله. وأمام عجز الإنسان، بادره بالمجيئ، وتجليه له، ليرافقه في كل ظروف حياته، فهو الرفيق الأعلى. لقد تجلّى الله بالمسيح ليحقق مقاصده السامية للبشرية جمعاء، وجل مقاصده نجاة الإنسان وتحوله إلى الخلقية الإلهية. لقد فتح لنا السيد المسيح طريقًا لإصلاح «النفس الأمّارة بالسوء»، والنجاة من دنيا الشر، والتأصّل بالخلقية الإلهية. بل وفتح لنا سيدنا المسيح بابًا للدخول إلى عالم الله في نهاية المطاف. لذلك، دأبنا، في هذه السِّيَر، على إيجاد أي تفصيل يمكننا من استحضار تعليم أو عمل أو موقف للمسيح بغية التعلم منه، والتغذي بروحانيته.

وأخيرًا، نُسلّم هذا العمل، «أضواء على سِيَر الأنبياء» للعناية الإلهية التي تشمل كل إنسان من أي عرق أو لون، وإلى أي دين انتمى. فعند الله تزول التفرقة وتبرز وحدة الانتماء إلى البشرية التي خلقها الله. وأملنا أن يستمتع القارئ بقراءة هذه السِّيَر العطرة، وأن يتعلّم منها الدروس القيّمة، وأن تكون له غذاءً روحيًا يقويه عند الهوان، وينير له السبيل في الظلمة، ويشد أزره عند مواجهة البلية.

الكمال لله تعالى. نقرّ بالنقص والضعف، ونرحب بملاحظات القراء الثمينة للتصحيح والتحسين.

عيسى دياب

المشترك في قصص الأنبياء
في الديانات الإبراهيمية

د. رمضان البرهومي

كينونة الإنسان في علاقته بالمقدّس ليست مجرّد افتراض أو تمثّل «يوتوبي» (utopian) منقطعة أوصاله عن التّراكم التّاريخي لمفردات تجارب المؤمنين في علاقتها بالمطلق الإلاهيّ، أو المنكرين له في الظّاهر والمصدّقين له في أعماق القلوب، وإنما تكمن هذه الكينونة في تعقّب أثر السّكينة واليقين في الكتب المقدّسة دون السّقوط في وهم السّجال بين أتباع الأديان، وفي تباين درجات تحقّق القداسة في ضوء المقارنة بين مفردات المدوّنة المقدّسة، وفي كلّ الأنسجة الدّينيّة، وما يقترن بها من قصص وأمثال تعكس تفاصيل علاقة الأنبياء وأتباعهم سواء من الأصفياء والمنحرفين بأقوامهم، وما توارثه أتباع الأنبياء من روايات لتلك التفاصيل تحوّل بدوره إلى سجلّ من الأمثال تعصف به التّأويلات المتلاحقة بيقينيّتها.

وبذلك تتكوّن مقامات من المعنى، تتقاطع فيها قصص الكتب المقدّسة وأمثالها، وتحدث جميعها رجّة في كيان المؤمنين بها. وغالبا ما تنبّهُ إلى اقتران النّبوّة عامّة بتحذير الإنسان من غواية الخطايا. وهو حال النّبيّ إرمياعليه السلام في توعّده لبني يعقوب بسبب خلعهم لميثاقهم مع اللّه بعد موت الملك يوشيا. وليست هذه حالة

خاصّة بإرميا فقط، وانّما هي القصّة المحور التي اخترقت كلّ الدّيانات. فلا يمكن لأتباع أيّ ديانة الادّعاء بصفاء إيمانهم من ارتباكات الرّدّة عن ميثاق الإيمان. وهذه حقيقة لا يخلو منها تاريخ الأنبياء وأتباعهم من الأحبار في اصطلاح العهد القديم أو الحواريّين في الإنجيل أو الصّحابة في الإسلام.

ونجد هذه الحقيقة في قصّة النبي إرميا في تحذيره من عوامل قابليّة السبيّ البابليّ سنة 587 ق.م، والّذي امتدّ 70 سنة زمن استعادة بني يعقوب التوبة وتحقق وعد اللّه في قيام عرش المسيح على المحبّة والعدل والصّفاء. وتدلّ هذه الإشارات التي تمتلئ بها قصص الأنبياء وحكايا الصالحين، وقد وردت في كتاب النّبيّ إرميا، على علاقة السّماء بالأرض أي علاقة الله بالإنسان وكيفية تواصل السّماء بالأرض في الديانات وقصص الوحي، وبمعنى أوضح كل ما كان يخص به الله أنبياءه من غيب.

وهنا يستوقفنا خطاب اللّه لأنبيائه ورسله إلى الأرض ومنهم أنبياء العهد القديم. قال الله لإرميا عليه السلام: ((إنّا جعلنا لك الوحي على اللّسان واليوم أعطيناك لتبلّغ كلّ الأمم والشعوب منتهى السّلطان، وتخبرهم أنّ لبعضها الدّمار والخسران ولبعضها الآخر النّشأة والعمران)) [كتاب النبي إرميا 1: 9-10].

وهو ما يعني اقتران العمران في الكون بالتّوبة والعمل الصّالح في السّياق الأخلاقيّ وما يحيل إليه من معاني الاستقامة والتّقوى وهو ما تكرّر في نداء النبي إرميا إلى بني يعقوب. وهو النّداء الإلاهيّ ذاته في كلّ مفردات مدوّنة الوحي المقدّس، إذ يقول المسيح عليه السلام: ((لأنّه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضا)) [الإنجيل، عن متّى 6: 21]. وهو المعجم الأخلاقي نفسه في إشارات قرآنيّة عديدة مثل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ١٣٥ ﴾ [النّساء: 135].

هو الوحي: حكمة وأمثال، يخترق دوائر الزّمن وحدوده باتّجاه بناء مشروع اللّه

في الكون، ألا وهو الإنسان دون أدنى درجة من الرّيب. والحكمة الإلهيّة هي الغالبة حتّى ولو بعد حين على النّحو الّذي تخبرنا به قصص الأنبياء وأمثالهم في الأديان الإبراهيمية، من جهة اقترانها بانتظار الأنبياء لعدالة الرّبّ في الأرض، ولذلك كان النّبيّ إرميا مثلا في مقام المبشّرين بنور استئناف بناء بيت المقدس بعد خرابها في مرحلة السّبي البابلي.

والتّاريخ في قصص الأنبياء هو مجال لتحقيق سموّ المؤمن ورقيّه في مقامات التّجلّي الرّبانيّ بأعماله هو فقط، لا بأعمال أسلافه أو أخلافه. ومثال ذلك عندما أنكر النّبيّ إرميا الموروث من الأمثال الشّائعة ومنها مثلا: «أكل الآباء الحصرم فضرست أسنان الأبناء». وردّ النبي إرميا على قولهم: «بل يموت كلّ واحد بما جنت يداه من إثم وبلاء» [كتاب النبي إرميا 31: 29-30]. وابتغاء لهذا المقصد المشترك في تاريخ النّبوّات والرّسالات، نبّه أيّوب عليه السلام إلى ضرورة التّطهّر والاستغفار، فلن تشفع لهم نبوّته الّتي لم تعصمه من لعنة الحياة ومظالمها وحرمته من عدالة الغيب وأبديّة السّعادة.

إنّ قصص الأنبياء ليست إلاّ تجارب يتقاطع فيها السّماويّ في غيبيّته والمطلق مع الأفق الإنسانيّ المحكوم بنواميس الكون وحتميّة النّهاية. ولذلك تتماهى محن النبي إرميا مع ابتلاءات النّبيّ أيّوب وما أنشده من لعنة ليوم ميلاده، فكان عاشقا للموت رمز السّكينة ومجاورة الملوك العظام الراحلين.

والحقيقة أنّ مثل هذا الانشداد إلى عالم الغيب واليقين في سموّه المطلق، هو محور قصص الأنبياء في كلّ الكتب المقدّسة المنتسبة إلى الدّيانات السّماويّة، وكذلك أسفار حكماء الشّرق القديم: زردشت، بوذا، وكونفيشيوس. إنّها حكمة النّبوّة المتعالية على الفعل الإنسانيّ الشرير في الكون والسّعي بأمر اللّه ووحيه إلى تنقيتها من كلّ أسباب الدّنس والخطيئة. إنّ قصص الأنبياء ودون استثناء تثبت لنا عجائبيّة التّداخل في سيرهم بين قيم الخير والفضيلة من جهة، وبين النّكوص إلى الآدميّة وما تقتضيه من عجز ونقص من جهة أخرى. وهو ما نقف على تفاصيله في قصص الأنبياء أمثال أيّوب ودانيال وأشعيا وغيرهم من أنبياء العهد القديم.

واليوم، توجد حاجة ملحّة إلى الانفلات من دوّامة صراع الأديان الإبراهيمية وعدم التنكر إلى أنّ كلّ هذه الأديان تنبثق من أفق نورانيّ واحد. وإنّ تحمّل أمانة تبليغ هذه الرسالة للإنسانيّة تمّ بفضل الذين خصّهم الرّبّ بشروط النّبوّة لتنزيل تعاليمه في الأرض. إنّ مقصد الدّيانات والنبوّات مدار هذا المصنّف وما يتيحه من أضواء على سير الأنبياء وما يكشف عنه من انسجام بين الأديان وتكامل في جوهرها رغم الانحراف في تاريخ أتباعها.

د: رمضان البرهومي

المعهد العالي للحضارة الإسلامية

جامعة الزّيتونة

تونس

ما هي التوراة؟

تعني كلمة التوراة في اللغة العبرية الأصلية «تعليم» أو «هداية». وتستعمل هذه الكلمة بشكل عام في بعض السياقات بمعنى «تعليم»، لكنّها تشير في أغلب المواطن في كتب الأولين إلى كتاب الوحي (التوراة) الذي أنزله الله على النبي موسى في جبل سيناء. وتحتوي توراة النبي موسى على خمسة أسفار (أو كتب)، وهي سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية. وتُعرف أيضا باسم «شريعة موسى». وحجم محتوى التوراة تقريبا كحجم محتوى الإنجيل أو القرآن.

ويطلق اليهود اسم التوراة في بعض الأحيان على مجمل كتب الوحي التي جاء بها الأنبياء الأقدمون، ويسمونها في بعض الأحيان باسم تناخ. وتنقسم كتب الوحي عندهم إلى ثلاثة أجزاء: التوراة (أي الأسفار الخمسة للنبي موسى)، وصحف الأنبياء، والكتابات. وقسم الكتابات يحتوي على مزامير النبي داود وأمثال النبي سليمان وبقية أسفار الحكمة. وتقسيم التناخ (أو العهد القديم) إلى ثلاثة أجزاء يعود إلى زمن السيد المسيح، الذي أشار إلى هذا التقسيم كما يلي: ((كُنتُ قد أنبأتُكُم عِندَما كُنتُ بَينكُم بأن ما جاءَ عنّي في تَوراةِ موسى وكُتُبِ الأنبياءِ والزَّبورِ لا بُدَّ أن يَتحَقَّقَ)) [انظر الإنجيل، لوقا 24: 44].

واليوم، يميّز اليهود التوراة عن غيرها من كتب الوحي، فيقولون إنّ النبي موسى

تلقاها على جبل سيناء مباشرة لأن النبي موسى كليم الله. بينما اعتقد اليهود قديما أنّ الوحي المباشر إلى النبي موسى يتضمّن الوصايا العشر فقط.

ويطلق بعض الناس اسم التوراة على الأقسام الثّلاثة من التناخ (ويسمّى عند المسيحيين بالعهد القديم)، بينما نفضّل أن نسمّيها هنا بكتب الأوّلين لكي نميّز بين توراة النبي موسى وبقية الأسفار (قارن بسورة الشعراء، الآية 196).

صفات التوراة:

تعتبر التوراة حجر الأساس لبقية الأسفار في العهد القديم أي كتب الأولين لأنها تشتمل على 613 وصيّة لبني يعقوب حسب ما ذكره الحاخامات. وتحتوي على سجل تاريخ العالم منذ خلقه إلى زمن اختيار إبراهيم نبيا، كما تحتوي على كلّ القصص التي تتعلّق بذريته المختارين في الزمن الذي يليه. وتأتي بقية الأسفار في العهد القديم على أساس هذه الوصايا في التوراة ولتوضّح أيضا مقاصد الله من خلالها.

وفي القديم ذهب علماء اليهود إلى تلخيص كل الوصايا في التوراة لكي يكشفوا مضمونها ومقاصد الله فيها. وفي بعض الأحيان لخّصوها في خمس وصايا، وفي أحيان أخرى أقلّ من ذلك بكثير. ونرى هذا عند سيدنا عيسى المسيح أيضا عندما سأله أحد علماء التوراة: ما هي أهمّ الوصايا التي جاءت في التوراة؟ ((فأجابَهُم قائلاً: «أحِبَّ اللهَ رَبَّكَ بكُلِّ قَلبِكَ وبكُلِّ نَفسِكَ وبكُلِّ عَقلِكَ»، فتِلكَ هي الوَصيّةُ الأعظَمُ والأهَمّ، والوَصيّةُ الثّانية مِثْلُها وهي: «أحِبَّ جارَكَ كَما تُحِبُّ نَفسَكَ». وعلى هاتينِ الوَصيّتينِ يَقومُ كُلُّ ما في التَّوراةِ وكُتُبِ الأنبياءِ مِن وَصايا»)) [الإنجيل، متّى 22: 37-40]. وتجدر الإشارة إلى أنّ المسيحيين اليوم يرتّبون أسفار العهد القديم بترتيب يختلف عن الترتيب الذي نصفه هنا.

صحف الأنبياء:

تمثل كتب الأنبياء القسم الثاني من العهد القديم، وفيها سجلّ تاريخ بني يعقوب من زمن يوشع بن نون إلى زمن تدمير الجيش البابلي لمدينة القدس وبيت

الله. وتتضمّن أيضا قصص دخول الأسباط إلى الأرض في سفر يوشع، وقصص زمن الحكام المناصير في سفر القضاة، ويروي السفران الأول والثاني للنبي صموئيل تاريخ تأسيس مملكة بني يعقوب. فالملك طالوت (شاول) كان أول ملك عليهم، وجاء من بعده الملك داود عليه السلام. ويحتوي السفران الملوك الأول والثاني على تاريخ خلافة النبي سليمان، وبعد وفاته انقسمت مملكته إلى قسمين: مملكة السامرة في الشمال (أي مملكة إسرائيل أو مملكة أفرايم) ومملكة يهوذا في الجنوب. ومن بين هذه الأسفار تأتي أسفار بعض الأنبياء ومنهم أشعيا وأرميا وحزقيال، و12 سفرا قصيرا لغيرهم من الأنبياء.

الكتابات:

يسمّى الجزء الثالث من العهد القديم بالكتابات عند اليهود ويحتوي على أسفار متعددة ومختلفة، وسُمّي هذا الجزء بالزبور في عصر السيد المسيح، لأنّ السفر الأول من هذا القسم هو كتاب الزبور أي مزامير النبي داود. ويحتوي أيضا على مراثي النبي إرميا، ونشيد الإنشاد للنبي سليمان، وبعض أسفار الحكمة بما فيها سفر الأمثال للنبي سليمان وسفر النبي أيوب وسفر الخطيب الحكيم (أي سفر الجامعة).

ويشتمل قسم الكتابات أيضا على كتب تاريخية مثل سفر راعوث المؤابية وسفر عُزير (عزرا) وسفر نحميا وسفر إستير وسفري أخبار الأيام الأول والثاني وهما عبارة عن سجلات رسمية لمملكة يهوذا. وآخر أسفار هذا القسم هو كتاب النبي دانيال ويضمّ أحداثا وقعت في زمنه وكل الرؤى التي رآها.

أهمية كتب الأولين (العهد القديم):

إنّ أهمية كتب الأنبياء الأولين تتجلّى في كشفها عن مقاصد الله لخلقه، حيث يباركهم ويعيدهم إلى المقام القريب الذي حظي به آدم وحواء في البدء لكنهما خسراه. فكان مقصد الله تعالى في خلقه هو إعادتهم إلى الصلة الحميمة معه باختيار النبي إبراهيم وذرّيته حتى يكونوا رحمة للعالمين، وحتى يمنح الله جميع الأمم

بركاته عبر إبراهيم. ورغم كلّ هذا، زاغ بنو إسرائيل عن مقاصد الله الرحيمة في كثير من الأحيان، فأرسل تعالى أنبياءه لكي يعاتبوهم ويرشدوهم إلى مسؤوليتهم، غير أنّهم ظلّوا في تقصيرهم. فكان من الضروري أن يرسل الله إليهم منقذا ليكون حكما عادلا على عباده المخلصين ويأتي برسالة النجاة إلى كل العالم.

كيف قرأ السيد المسيح التوراة

مقاصد الله في كتب الأوّلين

كيف نستطيع أن نفهم أهمية التوراة والزبور وغيرهما من كتب الأولين رغم كل القضايا الشائكة التي يجدها القارئ المعاصر؟

يمكن أن نرى بشكل جليّ منهجية السيّد المسيح بخصوص هذه الكتب في موعظته على الجبل، إذ يقول عليه السلام مرات عديدة: «لقد سمعتم أنه جاء في الوحي... أمّا أنا فأقول لكم...» وفي كلّ مرّة يقتبس من كتب الأنبياء الأولين ثم يقول عكس ما قالوا أو يغيّر تفسير كلامهم (انظر الإنجيل، متّى الفصل 5). وعلى سبيل المثال يعلّم السيّد المسيح أتباعه أنه ينبغي عليهم أن يحبّوا أعداءهم بدل الانتقام وتطبيق مبدإ «العين بالعين» كما جاء في التوراة. وفي هذا السياق قال قبل ذلك بأنه لم يأت ليلغي التوراة وغيرها من كتب الأنبياء كما زعم المتشدّدون بل ليتمّم مقصدها (متّى 5: 17). فقد أتمّ مقصد الكتب حين أشار إلى مقاصد الله الحقيقيّة الخاصّة بالإنسانيّة في هذه الوصايا الإلهيّة.

التوراة في بيئتها الزّمنيّة

شكّلت شريعة النبيّ موسى قفزة كبيرة إلى الأمام في زمانها، فقد كانت ردّة فعل الناس آنذاك ضدّ من يعتدي عليهم أقوى وأعنف، فإذا ضرب أحدهم

شخصا ما فقد يردّ المضروب بقتل الضارب انتقاما لنفسه، لذلك أنزل الله في التوراة بعض الضوابط لانتقام المعتدى عليه ضد المعتدي، فمبدأ العين بالعين اعتبر خطوة إلى الأمام بالنسبة إلى وحشيّة زمانه. أمّا السيّد المسيح من خلال تعاليمه في موعظته على الجبل، فقد قلب نظام القصاص الذي جاءت به التوراة وأبدله بنظام آخر هو نظام عدالة الإصلاح المبني على مبدإ محبّة الأعداء الذي جاء ليكون أساسا له.

إن الانتقام غير المحدّد الذي نراه قبل نزول التوراة جاء ذكره في التوراة أيضا. إذ نجد وصفا لانتشار المعصية والخطايا بين ذريّة آدم عليه السلام، ففي الجيل السادس بعد قابيل جاء ذكر رجل اسمه لامك ادعى لنفسه لا حق الانتقام فقط ولا حتى حق الانتقام 7 أضعاف شأن قابيل بل قرّر أن ينتقم لنفسه 77 مرّة وليس هذا مجرّد تعبير لتحديد عدد المرّات التي سينتقم فيها بل هو تعبير مجازي يعبّر لامك من خلاله أنّ انتقامه سيكون غير محدود على كل من يعتدي عليه (التوراة، سفر التكوين 4: 24).

قراءة السيد المسيح للتوراة

أمّا السيّد المسيح فيقلب المعادلة تماما، فعندما سأله الحواري صخر كم يجب عليه أن يسامح أخاه المؤمن فهل سبع مرّات كافية؟ فأجاب السيّد المسيح ملمّحا إلى قول لامك وقال: «ليس 7 بل 77 مرّة»، ومعنى هذا أن السيّد المسيح يعبّر ضمنيّا أنه يجب ألاّ يكون سعي الناس إلى الانتقام بلا حدود بل يجب أن يكون سعيهم إلى المسامحة بلا حدود.

لم يكن السيّد المسيح مهتمّا بالدفاع عن النصوص شأن المتشدّدين من اليهود بل بالدفاع عن الناس، فكثيرا ما خالف قوانين الحاخامات المتعلّقة بالشريعة لأنّه لمس المصابين بالبرص وغيرهم من المنبوذين وشفى المرضى يوم السبت وأعلن مغفرة ذنوب المرأة المتهمة بالزنى. ولم يتحمّل السيّد المسيح أذى الناس باسم الدين، فأخذ قادة اليهود ينظرون إليه على أنّه كافر مخالف للشريعة. فقد اختلف نهج السيّد المسيح التفسيري عن منهج المتشدّدين من اليهود اختلافا كبيرا. فبالنسبة إلى

المتشدّدين الولاء لكتاب الله يعني الخضوع لما جاء فيه دون سؤال، بينما رأى السيّد المسيح أن الولاء لكتاب الله يعني البحث عن مقاصده وتحقيقها في سبيل محبّة الناس المحتاجين ودعمهم.

ويمكن أن نرى لمنهجيّة السيّد المسيح في البحث عن مقاصد الكتاب المقدّس أصولا كما في كتب الأنبياء الذين كانوا كثيرا ما يتحدّون التنفيذ الحرفي للشريعة، فعلى سبيل المثال يقول النبيّ أشعيا إن الله لا يرضى بقرابين شعب ميثاقه ومناسباتهم واحتفالاتهم الدينية رغم أن الله نفسه أنزل الوصايا بهذه العادات (انظر كتاب النبي أشعيا 1: 11-15). اتجه الله برسالته على لسان أشعيا إلى أن يحثّ الناس على الرأفة لأنّ بني إسرائيل آنذاك كانوا يمارسون العنف والظلم (انظر الآية 15 و17 من الفصل الأوّل من كتاب أشعيا). وعلى المنوال نفسه فقد خالف السيّد المسيح كل القوانين التي تبدو غير رحيمة بل لقد اعتبر مخالفة تلك القوانين واجبة عليه.

تعدّد الأصوات في كتب الأوّلين

العهد القديم ليس كتابا يخاطبنا بصوت واحد يحتوي نظرة موحّدة تجاه الله والحياة، ولكنه يحتوي على تصوّرات متعدّدة لله وللحياة، ونجد فيه وجهات نظر كثيرة يناقض بعضها بعضا أحيانا. والحوار الرئيسي في العهد القديم ما بين تصوّر أغلبيّة الناس الذين يميلون إلى الخضوع دون سؤال وبين تصوّر آخر يميل إلى البحث في مقاصد الله. ويمكن أن نرى مثالا عن التصوّر الأوّل في النصوص التي يأتي فيها أمر الله بإبادة سكّان مدن ومناطق كاملة، وفي النص الذي أمر فيه النبي إبراهيم بذبح ابنه، وفي هذه الأحوال قد يعتبر البحث في مقاصدها خطيئة لأنّ الملك طالوت خسر كرسيّ المملكة لأنه لم يطع الأمر بإبادة أعدائه (انظر كتاب النبي صموئيل 1: 15). ونجد التصوّر الثاني على سبيل المثال في سؤال النبي موسى والنبي إبراهيم عندما طلبا من الله ألاّ يهلك الناس (التوراة سفر الخروج: 32: 7-14، وسفر التكوين 18: 25). فقد سعى كلاهما إلى تحقيق رحمة الله فألحّ النبي إبراهيم على ألاّ يبيد الله سدوم وعمورة إذا وجد فيهما الصالحون، وطلب

موسى من الله ألاّ يبيد كل بني إسرائيل بخطإ بعضهم. ولم يتوقّفا عند الأمر الذي أخبرهما به الله.

ويمكن أن نجد مثالا عن الخضوع دون سؤال في النظام الشرعي المتكوّن من الجزاء والعقاب كما نراه في البركات واللعنات المذكورة في التوراة (سفر التثنية، فصل 28). فبعض العقوبات المذكورة والمرتبطة بعدم الخضوع مخيفة. وهذا التصوّر مبني على القول بأن من يمرض أو من يقع ضحية للعنف كان في الأصل قد أخطأ في حق الله، في حين أن الثريّ أو المنتصر في معركة هو في الأصل صالح أكرمه الله بالثراء أو النصر، ولكن يمكن أن نرى في كتاب الزبور (المزامير) بعض الأقوال التي تبحث عن مقاصد الله التي تتضارب مع التصوّر الأوّل فعلى سبيل المثال نجد في المزامير في مرّات عديدة شكوى من أن الصالحين يعانون من الظلم في حين أن الأشرار يفلحون في حياتهم.

السعي ضد الخضوع دون سؤال

يمثّل النبي أيوب أقوى تحدّ لموقف الخضوع دون سؤال فبينما يلازم أصدقاء أيّوب الموقف الموجود في سفر التثنية الفصل 28 يتبع النبي أيّوب موقف كتاب المزامير، وفي النهاية يمدح الله موقف النبي أيّوب ويدين موقف أصدقائه (انظر كتاب النبي أيّوب 42: 7). ولكنّنا لا نجد النبي أيّوب والمؤمن في كتاب الزبور رافضين لصحّة الخضوع دون سؤال أو لنظام الجزاء والعقاب فهما يشكوان لله عدم تنفيذ هذه المبادئ ولا يعبّران عن رفضهما لها. فلم يتقدّما إلى درجة طلب الرحمة والمحبّة لأعدائهما بل طلبا إنزال غضب الله عليهم تحقيقا للعدالة.

فقد تحدّى الأنبياء كما رأينا في بعض الأحيان التفسير الجامد لما جاء في الشريعة دعّموا إجمالا نظام الجزاء والعقاب الذي نراه في سفر التثنية، أمّا بالنسبة إلى السيّد المسيح فهو يتّفق مع الأنبياء في تحدّيهم لبعض متطلبات الشريعة ولكنّه يرفض لومهم لضحايا الظلم حينما يرون أنّهم يستحقّون ذلك العقاب بسبب خطاياهم فهو يرفض مثلا أن يقول إن مرض إنسان ما يعكس إدانة الله له بل ينسب هذا المرض إلى الشيطان (انظر الإنجيل، لوقا: 11: 17-20).

المعاناة والتحرير

وهناك استثناء للوم ضحية الظلم في نص عن النبي أشعيا الذي يصف عبد الله المرتضى ولكنّه رغم ذلك يعاني من الظلم والعنف (كتاب النبي أشعيا 53: 7-8) فالسيّد المسيح يتقبّل بعض النصوص من كتب الأنبياء الأوّلين ويطبّقها على رسالته ودعوته إلى الانضمام إلى المملكة الربّانيّة بينما يسكت عن بعض النصوص الأخرى أو يعيد تفسيرها كما نرى ذلك في الكلام الذي يبدأ: «أمّا أنا فأقول لكم».

وفي العشاء الأخير ربط السيّد المسيح بين آلامه الوشيكة وتضحيته بحياته وبين قصّة خروج بني يعقوب من مصر وعيد الفصح في التوراة، فقد أشار إلى تحرير الناس من العبوديّة في هذه النصوص ولكنّه يسكت عن الإبادة الجماعيّة التي سُجِّلت في زمن دخولهم إلى أرض الميعاد. ويمكن أن نرى أيضا أن قصّة تحرير بني إسرائيل في التوراة تمّت من خلال إنزال آفات فظيعة وعنيفة على المصريّين بينما رفض السيّد المسيح العنف كليًا، إذ رفض أن يساير الذين أرادوه أن يكون منقذا ملكا يقود ثورة ضد الرومان بل اختار طريق معاناة الآلام على أيدي الرومان ونفّذ خروجا جديدا من العبوديّة بهذه الطريقة الجديدة.

وقد قاوم النبي إلياس قائدا وثنيّا وجنوده الخمسين بطلب نزول صاعقة من السماء تهلكهم وذلك ليبرهن على أنّه مرسل من الله (انظر كتاب الملوك الثاني، الفصل 1). ولكن عندما اقترح الحواري صخر (بطرس) ورفيقه يوحنّا العمل نفسه استجابة لعدم استقبالهم في قرية سامريّة نهرهما السيّد المسيح ومنعهما من ذلك (انظر الإنجيل، لوقا 9: 54-55)، وهنا لمّح السيّد المسيح إلى أن أسلوب النبي إلياس لم يكن طريق الله فاختار السيّد المسيح بعض الروايات من العهد القديم وسكت عن روايات أخرى، ونجد صورة واضحة عنده إذ اتفق مع القصص التي دفعت الناس إلى الرأفة والمحبّة ولم يختر القصص الأخرى التي ركّزت على العنف. ولذلك كان ما فعله السّيّد المسيح قائما على النّظر في المقاصد الشرعيّة والتكوينيّة للوجود الإنساني.

التّحريف والوحي الإلهي

المقدّمة

«إنّ الكتاب المقدّس خليط من الحقائق والأباطيل، قد صيغت عبر مراحل زمنيّة متتابعة.» هكذا يلخّص المؤلّف بسّام داود عجك موقفَه تجاه مسألة التّحريف.[1] ومن المؤسف أنّ هذه النظرة تعكس موقف العديد من المسلمين اليوم، علماء وشعبًا. وربّما تعلّقت هذه المسألة بشكل أساسيّ بموضوع الوحي الإلهي والفرق بين المفهوم المسيحي والإسلامي لهذه المسألة. ولن نتطرّق هنا إلى موضوع الوحي والإعلان، ولكنّنا سنركّز على مسألة التّحريف دون سواها، بدءًا من ورودها في بعض آيات القرآن الكريم، وذهابًا إلى كيفيّة فهم هذه الآيات لدى المفسّرين المسلمين الأوّلين والتّابعين، وصولا إلى ورودها في عدد من الكتابات الإسلاميّة الجدليّة والحواريّة خاصّة حتى القرن الرابع عشر للميلاد. ويتمثّل ما اكتشفناه –وهو ما ننوي إظهاره هنا– في أنّ عبارة «التّحريف» القرآنيّة لم تُفهَم، في معظم الأحيان، بمعنى «تحريف اللّفظ»– أي تبديل الكلمات– في فترة ما قبل القرن الحادي العشر للميلاد.

(1) **عجك**، بسّام داود، *الحوار الإسلامي المسيحي: المبادئ – التاريخ – الموضوعات – الأهداف*، دار قتيبة، (مكان الإصدار مجهول)، 1998، ص 338.

بل فَهِم المسلمون العبارة بأنّها تشير إلى «تحريف المعنى»، أي التّحريف بالتّفسير أو التّأويل، وهو الإساءة في فهم نصٍّ أدبيّ معيّن. ويتبيّن من دراسة أدبيّة دقيقة للنّصوص الإسلاميّة الحواريّة والجدليّة مع المسيحيّين واليهود أنّ المفهوم الإسلامي لعبارة «التّحريف» بما هو تحريف لفظي دخل على الفكر الإسلامي تحديدًا ابتداءً من القرن الحادي عشر للميلاد، في كتابات العلاّمة الظّاهري ابن حزم الأندلسي. وجدير بالذّكر أنّ تلك الفترة تتناسب مع بداية الحروب الصليبيّة التي شنّجت العلاقات الإسلاميّة-المسيحيّة بشكل لم تتخطّاه الديانتان إلى يومنا هذا. ومن هنا فإنّ هذا المقالَ يدعو القارئَ المسلم خاصّة إلى إعادة النّظر في الموقف الإسلامي المعاصر، الذي ينحصر في المفهوم الأوّل للتّحريف كـ«تحريف لفظيّ». ويسعى هذا المقال كذلك إلى تشجيع المنتمين إلى الدّيانتَيْن المسيحيّة والإسلاميّة على التّحاور في مسألة فهم الكتاب المقدّس وتفسيره بهدف إزالة العوائق وسوء الفهم بينهما، التي تؤدّي إلى التعصّب الدّيني، في حين أنّه ينبغي على الحوار الدّيني أن يقرّب بين البشر ويرفعهم إلى مستويات روحيّة وفكريّة ووجدانيّة عُلْيا من خلال التبادل البنّاء.

«التّحريف» في مفهوم مفسّري القرآن الكريم

يَرِد فعل «حرّف» أو أحد مشتقّاته أربع مرّات في ثلاث آيات من نصّ القرآن. بالإضافة إلى تلك الآيات الصّريحة، نجد أيضًا آيتَين إضافيّتَيْن، إحداهما تتّهم من ﴿يكتبون الكتاب بأيديهم﴾، والأخرى من ﴿يلوون ألسنتَهم بالكتاب﴾. وسنورِد تلك الآيات، وننظر أوّلاً في كتابات أهمّ مفسّري القرآن الكريم من المسلمين، الكلاسيكيّة منها، كتفاسير الطّبري والرّازي والجلالين والزّمخشري والطبرسي والطوسي والفيض الكاشاني، والحديثة منها، كتفاسير رشيد رضا وسيّد قطب و*التّفسير الوسيط* الذي أصدره بعض علماء الأزهر، والتفسير الكاشف لمحمد جواد مغنيّة، وتفسير روح البيان للبروسوي، دون إغفال تفاسير أخرى مختلفة.

في الآية الأولى: **﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**[1]

(1) سورة البقرة: آية 75

يفهم المفسّرون المسلمون فعل «حرّف» في هذه الآية بمعنى: تغيير الكلمة عن معناها، أي تأويلها على الخطإ عمدًا بعد فهمها على وجهها الصّحيح.(1) ويتّفق أكثرهم على أنّ الآية تشير إلى اليهود الذين تأوّلوا كلام الله على غير تأويله الصّحيح، بعد أن فهموه على وجهه الصّحيح.(2) ويشير المفسّرون إلى واقعتَيْن تاريخيّتَيْن متوازيتَيْن قام فيهما اليهود بهذا العمل المكروه، أولاهما عندما استلم قادة اليهود كلام الله من النبي موسى، وثانيتهما عندما سمعوا كلام الله من نبيّ الإسلام على عهده. فيُذكَر في الحالتيْن أنّ فئة من اليهود أساءت إلى كلام الله الذي سمعته عندما أساءت تفسيره فحرّفت تطبيقه. وتشير هذه الآية إلى يهود المدينة على عهد النبيّ، وإلى أنّهم اتّبعوا نفس أسلوب اليهود على عهد النبي موسى.(3) وتفسير عبارة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ هو أنّ اليهود أضلّوا الشعب لا عن سهوٍ، بل «مِن بعد ما فهموه وضبطوه بعقولهم ولم يبق لهم شبهة في صحّته».(4) فالإعلان بالوحي جاء إعلانًا حسنًا، ومن ثمّ، تمّ التّحريف

---

(1) راجع: **الطبرسي**، أبو علي الفضل بن الحسن، *مجمع البيان في تفسير القرآن*، دار مكتبة الحياة، طبعة جديدة ومصححة، بيروت، لبنان، الجزء الأول، ص ص 316 ـ 318؛ انظر أيضا **الطبري**، *جامع البيان في تأويل القرآن*، تحقيق أحمد ومحمود شاكر، مؤسسة الرسالة، 1420هـ/ 2000م، ج 2، ص 245–256، الأخبار 1328–1332.

(2) **الطوسي**، أبي جعفر محمد بن الحسن، *التبيان في تفسير القرآن*، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، المجلد الأول، ص ص 312 ـ 314؛ ويقول ابن كثير في هذه الآية: «﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ أي: يتأولونه على غير تأويله ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله. وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: 13] انظر **ابن كثير**، ابو الفداء القرشي، *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق سامي بن محمّد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، 1420هـ/ 1999م، ج 1، ص 307.

(3) راجع: **مغنية**، محمد جواد، *التفسير الكاشف*، دار الجواد، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1981م، الجزء الأول، ص ص 131 ـ 132.

(4) راجع: **البروسوى**، إسماعيل حقى، (قده)، *تفسير روح البيان*، دار إحياء التراث العربي، الطبعة السابعة، بيروت، لبنان، 1985م، المجلد الأول، ص ص 166 ـ 167؛ وممّا هو متواتر في كتب التفسير عن هذه الآية: «وقال السدي: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي أنهم أذنبوا. وقال ابن وهب: قال ابن زيد في قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ قال: التوراة التي أنزلها الله عليهم

في تأويله عمدًا. ويشير المفسّرون إلى أنّ ذلك التّحريف لم يتمّ في كلام الله نفسه، بل فيما أضافه بعض هؤلاء اليهود على الكلام الذي سمعوه عن الله فيما بعد.[1] ويمكن أن يتلخّص فهم المفسّرين المسلمين لهذه الآية بما يلي: «أنّ مجموعة من بني إسرائيل حين عادوا من جبل الطّور قالوا: سمعنا أنّ الله قال لموسى: اعملوا بأوامري قدر استطاعتكم، واتركوها متى تعذّر عليكم العمل بها».[2] ففي كلّ التّفاسير التي تصفّحناها، لم يفهم المفسّرون كلمة «تحريف» في هذه الآية الأولى بمعنى «تبديل الكلام»، بل بمعنى تضليلِ مَنْ سَمِعَهُ من خلال سوء وضعه في سياقه وفساد تأويله.

في الآية الثانية: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.[3]

يربط العديد من المفسّرين للقرآن مسألة التّحريف في هذه الآية بقساوة قلوب اليهود.[4] فقد قست قلوب اليهود نتيجة إبعاد الله إيّاهم عن رحمته تعالى، عقوبة لهم على «نقضهم ميثاقهم»، وهذا الإبعاد هو ما يفسّر، حسب المفسّرين، عبارة

يحرّفونها يجعلون الحلال فيها حرامًا، والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقًا؛ إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب، فهو فيه محق، وإن جاءهم أحد يسألهم شيئًا ليس فيه حق، ولا رشوة، ولا شيء، أمروه بالحق، فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾» (البقرة: 44) انظر **ابن كثير**، ج 1، ص 308. وواضح أن ما نُسب إلى اليهود هنا يتعلق بفهمهم وتأويلهم للكتاب ولا يتعلق بألفاظ الكتاب لأن الإقرار بثباتها بيِّن.

(1) راجع: **الكتكاني**، السيد هاشم بن السيد سليمان بن سيد إسماعيل بن سيد عبد الجواد الحسيني البحراني التوبلى، *البرهان في تفسير القرآن*، تهران در جابخانه آفتاب، بطبع رسيد، المجلد الأول، ص 115.

(2) راجع: **الشيرازي**، ناصر مكارم، *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل*، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1992م، المجلد الأول، ص ص 238 ـ 240.

(3) سورة المائدة: آية 13.

(4) **الألوسي**، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، 1985م، الجزء السادس، ص ص 89 ـ 90.

«لعنّاهم».[1] ويستخرج البعض[2] معنى التحريف في هذه الآية من عبارة ﴿ونسوا حظًّا﴾. ويشير المفسّرون إلى أنّ النّسيان يأتي نتيجة المعصية. فاليهود، بسبب عصيانهم، قست قلوبهم فسقطت أشياء عديدة من التوراة عن حفظهم. فيُفهم «التّحريف»، في هذه الآية، بمعنى ضُعف قدرة اليهود العصاة على حفظ التوراة، فيتركونها ويكتمون منها صفات محمّد، لا بمعنى التبديل أو التغيير في النصّ. ويفسّر البعضُ الآخَر من المفسّرين «التّحريف» هنا بأنّه كتم اليهود لذكر محمّد في توراتهم بمعنى التبديل، ممّا يقترب من مفهوم التّحريف اللّفظي.[3]

في الآية الثالثة: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يُحْزِنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**. يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا. وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ. لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ. وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.[4]

يتّفق المفسّرون في تفسيرهم للقرآن بأنّ هذه الآية تتعلّق بطلبِ فئاتٍ من اليهود من نبيّ الإسلام أنْ يحكم على بعض الأمور الّتي حصلت بينهم. فبعث بعض اليهود إلى محمّد وطلبوا منه أنْ يُقرّ في مسألة الدّيّة بين قبيلتيْن منهما.[5] وينقلُ البعضُ

(1) راجع **الزمخشري**، جاد الله محمود بن عمر، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*، الجزء الأول، ص ص 614 ـ 616؛ **والشيرازي**، ناصر مكارم، *الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل*، مؤسسة البعثة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1992م، المجلد الثالث، ص ص 569 ـ 572.

(2) **الفيض الكاشاني**، المولى محسن، *تفسير الصافي*، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1982م، الجزء الثاني، ص 21.

(3) *القرآن الكريم وبهامشه تفسير الجلالين*، دار إحياء علوم الدين، دمشق، سورية، ص 144.

(4) سورة المائدة آية 41.

(5) كذا في **الألوسي**، أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان، 1985م، الجزء السادس، ص ص 135 ـ 140. وانظر أيضًا **الفيض الكاشاني**، المولى محسن، *تفسير الصافي*، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، 1982م، الجزء الثاني،

مِن روايةٍ أخرى بأنّ نبيّ الإسلام سُئل عن حالة زنى، فأعْطى قادةُ اليهود التّعليماتِ لمرؤوسيهم بأنْ يقبَلُوا كلام محمّدٍ إذا اتّفق مع تقاليدهم الشّرعيّة البعيدة عن النصّ التوراتي الأصليّ، وأن يرفضوا حكمه إذا كان مناقضًا له. فاتهام القرآن اليهود بالتحريف في هذه الآية ترمي إلى بيان تلاعبهم بشريعة توراتهم. فشريعة التوراة واضحة في مسألة الزّنى وهو عقاب الرّجم.[1] فكان اليهود، على أيّام محمّد، قد ابتعدوا عن هذا التعليم واتّبعوا تقاليدهم بدلاً منه، ففضّلوا الجلد على الرّجم. وعندما أرجعهم نبيُّ الإسلام إلى شريعتهم، رفضوا فَتْواه لقساوة قلوبهم ونقضًا لكتابهم. والإشارة هنا أيضا صريحة إلى أن التحريف هو تحريف معنى التوراة وليس تحريف نصّها.

في الآية الرابعة: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا **يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ** وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا **لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ** وَطَعْنًا فِي الدِّينِ. وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.[2]

يقول المفسّرون في هذه الآية إنّها تشير إلى اليهود أيضًا، وهم الّذين وصلوا في جرأتهم في مواجهة نبيّ الإسلام إلى أن أساؤوا الأدب تجاهه وتحدّوه كما يتّضح من الآية. وفي مسألة التّحريف، يشيرون إلى أنّ اليهود توصّلوا إلى «أن يحرّفوا الكلام عن المقصود به»، أي أنّهم أوّلوا عبارات التوراة «بغير المقصود منها».[3] ويضيف

ص ص 35 ـ 37.

(1) *القرآن الكريم وبهامشه تفسير الجلالين*، دار إحياء علوم الدين، دمشق، سورية، ص ص 149 ـ 150.

(2) سورة النساء: آية 46

(3) **قطب**، سيد، *في ظلال القرآن*، دار الشروق، الطبعة الشرعية السابعة، القاهرة، مصر، 1978م، المجلد الخامس، ص ص 675 ـ 676؛ ويبدو ما جاء في جامع الطبري شديد الدلالة على أن أمر التحريف يتعلق بالمعاني لا بالألفاظ يقول الطبري: «أما تأويل قوله: "يُحَرِّفون الكلِمَ عن مواضعه"، فإنه يقول: يبدِّلون معناها ويغيِّرونها عن تأويله.» انظر **الطبري**، *جامع البيان*، ج 4، ص 436. وراجع أيضًا **القرطبي**، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، *الجامع لأحكام القرآن*، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1965م، الجزء الخامس، ص ص 242ـ 244، وأيضًا لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، *التفسير الوسيط للقرآن*

بعض مفسّري القرن العشرين بأنّ هذه الظّاهرة ليست فقط ظاهرة يهوديّة، بل إنّ «في زماننا هذا من محترفي دين المسلمين من ينافسون -في هذه الخصلة- اليهود».[1]

فمن الواضح هنا أنّ المقصود هو تحريف المعنى لا تبديل اللّفظ.

في الآية الخامسة: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ **يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً. فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2]

هذه الآية الخامسة هي الآية التي يُخرِج منها المفسّرون معنى تحريف اللفظ أكثر منه في أيّ آية أُخرى. وأكثرهم يربط عملية كتابة اليهود للتوراة ونسبها إلى الله بعمليّة تبديل صفات نبيّ الإسلام الحقيقيّة بصفات خاطئة أضافوها إلى توراتهم. ففي الطوسي: «أحبار اليهود كانت غيّرت صفة النبيّ (ص) ليوقعوا الشكّ للمستضعفين من اليهود».[3] وفي الطبرسي: «كتابتهم بأيديهم أنّهم عمدوا إلى التوراة وحرّفوا صفة النبيّ».[4] ويشير مغنية إلى أنّ «الافتراء عليه [أي على الله]، وعلى نبيّه من أعظم المعاصي وأشدّها عقاباً وعذاباً».[5] ويروي البروسوي أنّ اليهود، عندما كانوا

الكريم، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1973م، طبعة 1994م، الحزب الخامس، ص ص 822 ـ 823.

(1) **قطب**، سيد، المرجع نفسه.

(2) سورة البقرة: آية 79

(3) **الطوسي**، أبي جعفر محمد بن الحسن، *التبيان في تفسير القرآن*، مرجع سابق، ج 1، ص ص 321 ـ 323.

(4) **الطبرسي**، أبو علي الفضل بن الحسن، *مجمع البيان في تفسير القرآن*، مرجع سابق، ج 1، ص ص 325 ـ 328؛ ويقول ابن كثير في هذا مبيّنا الاختلاف بين ما يقوله اليهود وبين ما عندهم: «يخبر تعالى عن اليهود ... أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد صلى الله عليه وسلم ليشتروا به ثمنا قليلا من حطام الدنيا ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي يودّون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع.» **ابن كثير**، *تفسير القرآن العظيم*، ج 2، ص 323.

(5) **مغنية**، محمد جواد، *التفسير الكاشف*، دار الجواد، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1981م، ج 1، ص ص 133 ـ 135.

يسألون أحبارهم عن صفات محمّد، «قرأوا عليهم ما كتبوا فيجدونه مخالفاً لصفته عليه السّلام، فيُكذّبونه».[1] ففي ذلك، يقول الكتكاني، قال الله: «﴿**فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ من هذه الصّفات المحرّفات المخالفات لصفة محمّد».[2] ورغم اتّهام المفسّرين لليهود بهذه التّهمة، فإنّهم لا يسحبونها على كلِّ نصِّ التوراة ولا على جميع نسخها، بل يتّهمونهم بالافتراء على نبيّ الإسلام كلّما سألهم المسلمون عن صفات نبيّهم في كتابهم. فالتّحريف اللّفظي هنا يحمل معنى التّحريف الشّفهيّ أكثر من معنى التّحريف المكتوب بمفهومه الحرفيّ.

في الآية السادسة: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً **يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ** لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3]

يطيل المفسّرون في هذه الآية في تفسيرهم لمعنى «ليّ اللّسان». فيفسّره البعض بمعنى «يحرّفون الكلم ويعدلون به عن القصد»، أي تحريف المعنى، «عناداً عن الحقّ وميلاً عنه إلى غيره».[4] ويضيف البعض بأنّ هذه الآية من القرآن «نزلت في اليهود

(1) **البروسوى**، إسماعيل حقى، (قده)، *تفسير روح البيان*، مرجع سابق، ج 1، ص ص 167 ـ 169.

(2) **الكتكاني**، *البرهان في تفسير القرآن*، مرجع سابق، ج 1، ص ص 118 ـ 119.

(3) سورة آل عمران: آية 78.

(4) **القرطبي**، *الجامع لأحكام القرآن*، مرجع سابق، المجلد الرابع، ص 121؛ يقول الطبري: «قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: وإنّ من أهل الكتاب = وهم اليهود الذين كانوا حَوالي مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهده، من بني إسرائيل... «يلوون»، يعني: يحرِّفون، «ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب»، يعني: لتظنوا أن الذي يحرّفونه بكلامهم من كتاب الله وتنزيله. يقول الله عز وجل: وما ذلك الذي لوَوْا به ألسنتهم فحرّفوه وأحدثوه من كتاب الله. ويزعمون أن ما لووا به ألسنتهم من التحريف والكذب والباطل فألحقوه في كتاب الله «من عند الله»، يقول: مما أنزله الله على أنبيائه «وما هو من عند الله»، يقول: وما ذلك الذي لووا به ألسنتهم فأحدثوه، مما أنزله الله إلى أحد من أنبيائه، ولكنه مما أحدثوه من قِبَل أنفسهم افتراء على الله. يقول عز وجل:»ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون»، يعني بذلك: أنهم يتعمدون قِيلَ الكذب على الله، والشهادة عليه بالباطل، والإلحاقَ **بكتاب الله** ما ليس منه، طلبًا للرياسة والخسيس من حُطام الدنيا» **الطبري**، *جامع البيان*، ج 6، ص 535–536.

والنّصارى جميعًا»، الذين يسحبون من تفسيرهم لكتبهم العقائدَ الدينيّةَ الخاطئةَ.[1] وهنا أيضًا يشير البعض إلى أنّ هذه الظاهرة ليست فقط عند اليهود، بل أيضًا عند غيرهم من رجال الدّين «حين يفسدون»، الّذين «يؤوّلون نصوص كتابهم، ويلوونها ليًّا، ليصلوا منها إلى مقرّرات معينة، يزعمون أنّها مدلول هذه النصوص ... بينما هذه المقرّرات تصادم حقيقة دين الله في أساسها».[2] ويتابع بعض المفسّرين المعاصرين على نفس النحو من التّفسير، مشيرين إلى أنّ اليهود كتبوا كتابًا آخر «وجعلوا يلوون ألسنتهم بقراءته يوهمون النّاس أنّه من التوراة»، بعد أن جعلوا من دينهم هوية قومية وقاوموا كلّ غريب حاول أن يقترب من دينهم. فيضيف البعض أنّه «هكذا يفعل أشباههم من المسلمين اليوم» أيضًا. ويدلّ ذلك الكلام أنّ المقصود من ليّ اللّسان هنا ليس التّحريف اللّفظي بل خطأ تأويل النّص وإخراج عقائد غير صحيحة منه. حتّى أنّ البعض «قد يحرّفون القرآن بالتأويل لتأييد تقاليدهم وبدعهم أو يعرضون عنه اعتذاراً بأنهم غير مطالَبين بأخذ دينهم منه بل من كلام العلماء».[3]

التّحريف في مفهوم الكتّاب المسلمين قبل القرن الحادي عشر للميلاد

عندما نلتفت إلى النصوص الإسلاميّة والعلميّة الأخرى غير التفسيريّة، وبعضها حواريّة، يستوقفنا أنّ مواقف علماء المسلمين تجاه الكتاب المقدّس لم تنحصر في مسألة التّحريف، بل إنّ بعض هذه المواقف عكست انفتاحًا غير عاديّ تجاه موثوقيّة تلك النصوص. وإليكم ثلاثة أمثلة من القرن التّاسع للميلاد. يستشهد المؤرّخ اليعقوبي، بنصّ الكتاب المقدّس بكثافة، مستخدمًا نصوص الإنجيل كمراجع تاريخيّة موثوقة. ويستخدم القاضي ابن قتيبة نصوص الكتاب المقدّس ليحسم ما بين الأحاديث الصحيحة وغير الصحيحة في كتابه الشهير *كتاب تأويل مختلف الحديث*،

(1) لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، *التفسير الوسيط للقرآن الكريم*، مرجع سابق، الحزب الثالث، ص ص 603 ـ 604.

(2) **قطب**، سيد، *في ظلال القرآن*، مرجع سابق، المجلد الأول، ص ص 418 ـ 419.

(3) **رضا**، محمد رشيد، *تفسير المنار*، المجلد الثالث، ص ص 344 ـ 345.

فيعطي تلك النصوص مكانة رفيعة في علم الحديث. ويستشهد الإمام القاسم ابن إبراهيم الرسّي (وهو مؤسّس الزيديّة في اليمن) من الإنجيل، من أوّل سبعة فصول بالوحي الذي سجّله متّى بكثافة، مستخدمًا الأسلوب القرآني. ولا مجال هنا لسرد النّماذج العديدة لتلك المقاربات البنّاءة، بل إليكم فقط نموذج واحد من *كتاب الردّ على النصارى* للقاسم الرسّي، وهو ذكر لـ«الصّلاة الربّانيّة» التي علّمها السيد المسيح لأتباعه (من متّى 6: 9-13):

ولكن، إذا صَلَّيْتم، فَلِلّه وحده فصَلّوا،

وإذا حَكَمْتُم في أرضه بِحُكْم، فاعدُلوا وقولوا:

ربّنا الذي في السماء، تقدّس اسمُك وحِكْمَتُك،

وعَظُمَ مُلْكُك وجَبَروتك.

أَظْهِر حُكْمَك في أَرْضك،

كَما أَظْهَرْتَه في سمائك.

وارْزُقْنا طعام فاقة يَوْمِنا.

واغْفر لَنا سالِفَ جرمِنا،

كما نَغْفر لِمَن ظَلَمَنا.

واعْفُ عَنّا برحمتك وإن أجرَمْنا.

ولا تَبْتَلِنا، ربّنا، بالبلاء،

وخَلِّصْنا مِن مَكارة الأسواء.

فإنّ لَكَ المُلْكَ والقُدْرة،

ومِنْك الحُكْمَ والمَغْفِرة،

أَبَدَ الآبِدينَ،

ودَهْرَ الدّاهِرين.[1]

(1) حقّق هذا النص وقدّم له:
di Matteo, Ignazio, in "Confutazione contro I cristiani dello zaydita Al-Qâsim b. Ibrâhîm". *Rivista degli Studi Orientali* (Rome) 9 (1922): 301-364.

أمّا في ما يتعلّق بمسألة التّحريف، فنكتشف تطوّرًا واضحًا عند علماء المسلمين إذا قارنّا بين فترة ما قبل القرن الحادي عشر وما بعده. وقد تميّز القرن التاسع، كما أشرنا، بمواقف منفتحة كموقف اليعقوبي وابن قتيبة والقاسم الرسّي. بل إنّنا لا نجد في نصّ جدليّ كـ*كتاب الردّ على النّصارى* لابن ربّان الطبري (وهو نصرانيّ اعتنق الإسلام، وهو غير محمّد ابن جرير الطّبري)، ادّعاء التّحريف اللّفظي ضدّ المسيحيّة. بل ما نجده هو الإشارة إلى «أوجه من التناقض والكبائر ... في شريعة إيمانهم» – أي في قانون الإيمان المسيحي الذي يذكره الطبري كاملاً – ويذهب إلى تفسير «الكلمات التي تأوّلوها بخلاف معانيها» وإلى ذكر «التحريف والفساد الموجود فيه» – أي في التأويل المسيحي لكتابهم. وفي كتاب آخَر للكاتب نفسه بعنوان *كتاب الدّين والدولة*، يجادل الطبري من يقول بأنّ في القرآن أباطيل، فيقول: «إن لم يَسُغْ (أي لم يجُزْ) ذلك في التوراة والإنجيل وفيمن حَضَرَهما، فذلك غير سائغ في القرآن وحَمَلَتِهِ أيضًا».[1]

أمّا في القرن العاشر، فنظرنا في كتابَيْن مهمَّيْن، وهما *كتاب الإعلام بمناقب الإسلام* لأبي الحسن العامري و*كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل* لأبي بكر ابن الطيّب الباقلاّني، فلم نجد فيهما شيئًا عن تحريف اللّفظ. بل يتّهم العامري رجال دين اليهود والنصارى بتحريف معاني الرموز في كتبهم خوفًا من فقدان مناصبهم إذا اعترفوا بنبوّة محمّد.[2] وأمّا الباقلاّني، فكلُّ ما يذكره في التحريف هو ما يختصّ بترجمة اليهود الفاسدة لتوراتهم من العبريّة إلى العربيّة.[3]

التّحريف في مفهوم الكتّاب المسلمين بعد القرن الحادي عشر

يظهر التحوّل الشاسع في موقف المسلمين من مسألة التّحريف في القرن الحادي

(1) **الطبري**، علي، *كتاب الدين والدولة* (حقّقه وترجمه ألفونس مينجانا)، مانشستر، 1923، ص 35.

(2) **العامري**، أبو الحسن محمّد، *كتاب الإعلام بمناقب الإسلام* (حقّقه عبد الحميد غراب)، القاهرة، 1967، ص 202.

(3) **الباقلّاني**، أبو بكر محمّد ابن الطيّب، *كتاب تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل* (حقّقه الأب ريتشارد مكّارثي)، بيروت، 1957، ص 181.

عشر، وبالتّحديد ابتداءً من كتابات ابن حزم الأندلسي وبالأخصّ في *كتاب الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِحَل*. ويتناول ابن حزم في هذا الكتاب الواسع نصَّ الكتاب المقدّس في كلّ أجزائه وبالتفصيل، مشيرًا إلى «التناقضات» و«الاختلافات» والأمور التي –في مفهومه– «تتنافى مع منطق العقل». ويجدر الذّكر بأنّ *كتاب الفصل في المِلَل* لا ينحصر في نقد الكتاب المقدّس وديانتَيْ اليهود والنصارى فقط، بل يذهب إلى هدم جميع المواقف الدينيّة والملل الإسلاميّة وغير الإسلاميّة التي لا تلتزم بموقِف مذهبه «الظّاهريّة». ففي موقف ابن حزم الأندلسي نجد هذا التحوّل الجذري من ادّعاء «تحريف المعنى» ضدّ اليهود والنصارى إلى الادّعاء عليهم بـ«تحريف لفظيّ» لكتبهم.

ولقد اعتنق أكثر الكتّاب المسلمين من بعده الموقف ذاته من الكتاب المقدّس، خاطفين التبادل الإسلامي المسيحي من عالم التّحاور في التفسير إلى عالم المجادلة في موثوقيّة النصوص الكتابيّة. هذا ما نجده، مثلا، في *شفاء الغليل في التبديل* لأبي المعالي الجُوَيْني في أواخر القرن الحادي عشر، وفي الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة *لشهاب الدين القرافي في القرن الثالث عشر*، وفي هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن *قيّم الجوزيّة في القرن الرابع عشر*.

أين يقف المسلم والمسيحي اليوم من هذا الموضوع؟

فما هو موقف المسلمين اليوم من تهمة التحريف ضدّ اليهود والمسيحيّين؟

أكثر المسلمين اليوم يعتنقون فكرة «تحريف اللفظ»، وهي التهمة التي توارثها المسلمون عبر الأجيال منذ ابن حزم. ومن الواضح أن هذا الموقف لا يترك للحوار البنّاء مجالاً، لأنّه يلغي الأساس الكتابي للتبادل الإسلامي المسيحي في المجالَيْن العقائدي واللاهوتي. وهدف هذا المقال كان الإشارة إلى مواقف أخرى بنّاءة اعتنقها أهم علماء المسلمين خاصّة قبل القرن الحادي عشر. وبذلك نرغب أن نقدّم إلى القارئ المسلم نماذج في الحوار في هذا الموضوع غير النموذج المتشدّد المنتشر اليوم.

ولنختم قولنا بموقف مَن سُمِّيَ بـ«شيخ الإسلام، بحر العلوم وصدر القروم، الناسك، العابد، الزاهد» تقي الدين أحمد بن تيميّة، الذي تمكّن من تخطّي موقف «تحريف اللفظ» المتشدّد، رغم أنّه عاش في القرن الرابع عشر. ففي كتابه *الجواب*

الصحيح لمن بدّل دين المسيح، وكما يشير عنوانه، يتّهم النصارى بتبديل دين السيد المسيح من خلال تأويلهم الخاطئ لكلامه. ولا شك أنّه كان يعرف كتابات ابن حزم والجويني والقرافي، وكان شيخ ابن قيّم الجوزيّة في دمشق. ولكنّه رغم علمه للموقفَيْن الإسلاميّيْن المحتملَيْن، تحريف اللفظ وتحريف المعنى، قد امتنع من أن يلتزم صراحة موقف تحريف اللفظ. فكان ابن تيمية رجل حوار وعلم أن الموقف المتشدّد يقتل الحوار. فبيّن موقفه في الكلام التالي: «فَعُلِم أن التوراة التي كانت موجودة بعد خراب بيت المقدس وبعد مجيء بختنصر وبعد مبعث المسيح وبعد مبعث محمد فيها حكم الله، والتوراة التي كانت عند يهود المدينة على عهد رسول الله وإن قيل إنه غُيِّرَ بعض ألفاظها بعد مبعثه فلا نشهد على كل نسخة في العالم بمثل ذلك فإن هذا غير معلوم لنا وهو أيضا متعذر بل يمكن تغيير كثير من النسخ وإشاعة ذلك عند الأتباع حتى لا يوجد عند كثير من الناس إلا ما غير بعد ذلك ومع هذا فكثير من نسخ التوراة والإنجيل متّفقة في الغالب إنما تختلف في اليسير»[1]

ولكنّه ركّز نقده على تهمة تحريف المعنى، كان موقفه هنا حتميًّا:

> «وإذا عُرِفَ أنّ جميع الطوائف من المسلمين واليهود والنصارى يشهدون أنه قد وقع في هذه الكتب تحريف وتبديل في معانيها وتفاسيرها وشرائعها، فهذا القدر كافٍ.»[2]

ونختم بالقول بأنّ هناك فرقا أساسيًا في الأصل بين مفهوم المسيحيّين لكتبهم ومفهوم المسلمين. إذ يركّز المسيحيّون على أنّ الكتاب المقدّس يشير إلى السيد المسيح، وهو نفسه كلمة الله الأزليّة. وأكثرهم لا يتمسّك بمفهوم للوحي الكتابي بمعنى «التنزيل» كما يعتقد المسلمون في كتابهم. بل الكتاب المقدّس شهادة موثوقة، أَوْحى بها الله لرُسُله ليقود الإنسان إلى معرفته تعالى. وينبغي على أهل الإيمان أن يسعَوْا إلى التّحاور والتّبادل البنّاء في كلّ وقت من خلال سَعْيِهِم إلى اكتشاف المعاني العميقة والمُغنِية في هذه الكلمة المكتوبة.

(1) **ابن تيميّة**، *الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح*، تحقيق د.علي حسن ناصر ود.عبد العزيز إبراهيم العسكر ود. حمدان محمد، دار العاصمة، ط 1، الرياض، 1414هـ، ج 2، ص 419.

(2) المرجع نفسه، ج 2، ص 413.

ملاحظة:

الرجاء من الباحثين والمؤرّخين وعلماء الدّين إن كان لديهم مخطوطات للتّوراة والزّبور والإنجيل تُثبت خلاف ما لدينا الآن، فليخرجوها إلى النور.

رؤية في عصمة الأنبياء

بقلم الدكتور أحمد مشرقي[1]

يرتبط موضوع عصمة الأنبياء بموضوع النبوّة من حيث هي رسالة إلهية إلى البشر من جهة، ومن حيث هي نظرية عامّة في الاتصال من جهة أخرى.

وإذا كان البحث في النبوّة في الأديان الإبراهيمية مدخلا لدراسة الاختلاف بينها، فإنّ موضوع العصمة أيضا لا يقل أهمية، نظرا للاختلافات القائمة بين اليهودية والمسيحية والإسلام في فهم العصمة وتصوّرها. وسنتناول في هذا المقال مظاهر الاختلاف بين الأديان الإبراهيمية في مفهومها للعصمة، ثمّ سنوضّح هذا الاختلاف لعلّنا نتوصّل – من وراء ذلك – إلى تقديم رؤية في عصمة الأنبياء لنساهم بها في إثراء هذا البحث.

إنّ أوّل ما يطالعنا في مواقف الأديان الإبراهيمة الثلاثة بخصوص موضوع الأنبياء هو اختلافها في مفهوم العصمة وفي تصوّرها. فبعض كتب الأنبياء الأولين تعرض سيرة أنبياء بني إسرائيل وقد امتزجت تصرّفاتهم بأنواع شتّى من «الخطايا» و»الرذائل»، مثل العراء والزنى وشرب الخمر حتّى السّكر. وتؤكّد التوراة الشريفة وغيرها من كتب الأنبياء الأولين أن هذه التصرّفات قد حصلت فعلا، ولكنها لم تحدث في لحظات تلقّي الوحي من الذات الإلهية.

(1) أستاذ علم الأديان المقارن – تونس

ولا يختلف موقف أسفار الإنجيل عن الموقف السابق بحكم تبنّي المسيحية لأسفار العهد القديم (أي كتب الأنبياء الأولين) وما جاء فيها. وينسب الإنجيل الشريف العصمة للسيد المسيح دون بقية الأنبياء، ويؤكّدها باعتبار أنّ عيسى المسيح هو الكائن المعصوم عن الخطايا بحكم طبيعته المميزة.

أمّا الإسلام فقد اهتمّ علماؤه بموضوع عصمة الأنبياء لارتباطها بمسألة جوهريّة من مسائل النبوّة في الإسلام، وهي مسألة الأسوة والقدوة في المجال الأخلاقي التي وردت في القرآن: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: 90].

وإلى جانب هذا الاختلاف بين الأديان الثلاثة في موقفها من العصمة، توجد اختلافات أخرى في هذا الموضوع بين المذاهب والطوائف داخل كل ديانة.

ويمكن أن نشير في هذا المجال إلى الانقسام الذي عرفته الكنيسة المسيحية بسبب الاختلاف في هذه المسألة، إذ تمسّكتْ الكنيسة الكاثوليكية بالقول بعصمة البابا، في حين رفضته الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والحركة البروتستانتية (لوثر وكالفن)، ولكن الكنائس كلها تأخذ موقفا واحدا تؤكّد فيه عصمة السيد المسيح، بما أنه بمثابة الذبيحة التي تقدّم من أجل مغفرة الخطايا والذنوب فيجب أن تكون بلا عيب. كذلك كان السيد المسيح بحسب الإيمان المسيحي بلا عيب وبلا ذنب، حيث اعتمدت الكنائس على ما جاء في الإنجيل بخصوص السيد المسيح باعتباره الذبح العظيم، وفسّرت قوله عليه السلام: ((إنّ الشَّيطانَ الّذي يَسودُ هذِهِ الدُّنيا قادِمٌ إليّ ليَقتُلَني، وما لهُ عليّ مِن سُلطانٍ)) (انظر يوحنّا 14: 30) أي أنه لا يستطيع أن يجد فيه أي معصية.

وقام جدال داخل الكنيسة الكاثوليكية ذاتها حول فهم عصمة البابا والكنيسة، حين خالف اللاهوتي المعاصر هانس كونغ Hans Kung الموقف الرسمي للكنيسة الكاثوليكية حيث قال إنّ عصمة البابا والكنيسة لا تمنعهما من الوقوع في الخطأ.[1]

(1) انظر هانس كونغ في دائرة المعارف الكاثوليكية، باريس، 1970–1992 م، ص 631.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الموقف الإسلامي تجاه العصمة، فاتفاق العلماء المسلمين حول عصمة الأنبياء لم يمنعهم من الاختلاف حول طبيعتها ومجالاتها ومقتضياتها.

ولعلّ العامل الأساسي الذي ساهم في إثارة الخلاف في الفكر الإسلامي حول هذه المسألة هو النص القرآني ذاته، إذ تشير آيات كثيرة إلى ما يمكن أن نعتبره من الأخطاء أو الخطايا التي جاء ذكرها في سيرة الأنبياء:

* فلقد جاء في سورة طه أن آدم عصى ربّه [طه: 121]

* وأنّ نوحا قد غلّب مبدأ النَسب الدموي على مبدأ النسب الديني [هود: 45-47].

* وأنّ إبراهيم لم يقل الحقيقة مرّتين: في المرّة الأولى عندما قال لفرعون مصر إنّ سارة أخته والحال أنها زوجته، وفي المرّة الثانية عندما قال لقومه إنّ الذي حطّم الأصنام هو كبيرها [الأنبياء: 63]، وأنّه دعا ربّه في موطن آخر أن يغفر له خطيئته [الشعراء: 32].

* وأنّ يوسف همّ بامرأة العزيز بعد أن همّت به [يوسف: 24].

* وأنّ موسى قضى على أحد المصريّين [القصص: 5].

* وأنّ محمّدا (ص) قام بأعمال استوجبت العتاب واللّوم والمغفرة من الله تعالى [الأنفال: 67-68، التوبة: 43، عبس: 1-11].

وقد دفع هذا الأمر العلماء المسلمين إلى التساؤل حول طبيعة عصمة الأنبياء: هل هي ملكة نفسية ذاتية يجدها النبي في ذاته دون جهد منه؟ أم هي صفة نفسيّة تكون في البداية غير راسخة ثمّ تصير تدريجيًا ملكة راسخة وصفة ثابتة؟ أم هي هبة إلهية يهبها الله للنّبي عند تكليفه بالنبوّة، فتكون ضمن أفعال الله لا أفعال النّبي؟

والذي انتهى إليه العلماء المسلمون القدامى، أنّ الملكات ومن بينها

العصمة يمكن أن تكتسب بالصبر والمجاهدة، لكنّها لا يمكن أن تكون صفات ذاتية قائمة في النفس، لأنّ ذلك يتناقض مع مبدأ التكليف.[1] أي أن العصمة يمكن أن تكون ملكة لكنّها لا تترسّخ إلا بعد مجاهدة ومكابدة في الطريق التي رسمها الله للنّاس.

ولا يجوز أن تكون العصمة – تبعًا لذلك – ملكة ذاتية قائمة في جبلّة النّبي وطبيعته لأنّها تكون – في هذه الحالة – دافعة إلى الأفعال، ويتعطل حينها التكليف.

والحاصل عند جميع العلماء المسلمين القدامى، إجماعهم على عصمة الأنبياء مع جواز السّهو والنّسيان. ونجد من بين الباحثين المعاصرين من يذهب إلى التمييز بين عصمة الرسالة (النبوّة) وعصمة الرسول كإنسان، تمهيدا لإثبات العصمة فيما يتعلّق بالرسالة. والملاحظ أنّ الطرق التي اعتمدها الباحثون في هذه المسألة لم تخرج في جملتها عن تأويل النصوص الدينيّة ذات الصّلة بموضوع العصمة، خدمة للمواقف الإيمانية الرّسميّة: الدّينيّة أو المذهبيّة.

ونرى من جهتنا أن تُطرح هذه المسألة طرحًا آخر، وأن يُنظر إليها من زاوية أخرى، ويكون ذلك في ضوء معطيات تاريخ الأديان.

والذي يشرّع لمثل هذا الطرح كون العصمة من مسائل النبوّة – وأنّها – تبعاً لذلك – مرتبطة بتاريخ النبوّات ارتباطاً وثيقاً، شأنها في ذلك شأن الوحي والشريعة والمعجزات. وعرفت ظاهرة النبوّة أيضا مراحل كثيرة تدرّجت في أثنائها وتطوّرت، كذلك شأن العصمة.

ويشير تاريخ النبوّات إلى أنّ كل نبيّ كان يعبّر عن مرحلة نبوّته وعمّا تنطوي عليه تلك المرحلة من قيم وأعراف وثقافة.

ويتجلّى ذلك في مستوى الملاءمة بين المراحل التاريخية للنبوّات والشرائع

(1) التهانوي، كشّاف اصطلاحات الفنون، دار صادر للطباعة والنشر، ص 1047

التي جاء بها الأنبياء، وكذلك في مستوى الملاءمة بين الآفاق المعرفية للأقوام الذين ظهرت فيهم النبوّات، وبين نوع المعجزات التي أيّد الله بها أنبياءه.

ولا يوجد مانع في العقل والنّقل من أن تشمل فكرة الملاءمة مسألة العصمة، بل إنّ منطق التاريخ ومنطق التدبير الإلهي يقضيان بهذا التلاؤم والتوافق.

ويظهر من قراءة النصوص الدينيّة في الأديان الثلاثة أنّ القيم الأخلاقيّة والأعراف الاجتماعية لم تكن متساوية في القيمة والأهميّة بين المجتمعات التي ظهرت فيها النبوّات المختلفة.

ويحدث ألاّ يعير نبيّ من الأنبياء أهميّة خاصّة لقيمة ما، ويغلّب عليها قيمة أخرى مسايرة لمقتضيات النبوّة في ذلك العصر.

ولهذا السبب وُجد أنبياء غلب على سلوكهم الجدل مثل النبي إبراهيم، وأنبياء كانت لهم صفة الملك مثل داود وسليمان، وأنبياء كانت لهم صفة القوّة مثل النبي موسى، وأنبياء كانت لهم صفة الفضيلة مثل السيد المسيح ومحمّد(ص).

وكأن كلّ نُبوّة كانت تتميز بخصائص معيّنة هي من مستلزمات وظائفها ومشروعها.

ولهذا قال أحد الباحثين المعاصرين إنّ العصمة تجوز أن تنتفي في مرحلة (نبوّة الملك) أو (نبوّة القوّة). أمّا في مرحلة النبوّة \ القدرة التي يجيء فيها النبيّ «ليتمّم مكارم الأخلاق» وليكون «أسوة حسنة» فإنّه لا يجوز في مثل هذه النبوّة العصيان الأخلاقي أو الوقوع في الخطيئة.(1)

وفي الإنجيل الشريف يرد ذكر الخطيئة غالباً مرتبطا بدعوة السيد المسيح للخطاءين من أجل أن يتوبوا. كما جاء في الإنجيل أنّ السيد المسيح لم يأت في الحقيقة إلاّ من أجل الخطائين (مرقس 2: 17)، حتى يعودوا إلى السير في طريق الله، وهو الطريق الذي يتعلّم فيه الإنسان كيف ينتصر على أخطائه وآثامه، أي أن ينتصر

(1) **حنفي**، حسن، التراث والتجديد، الجزء الرابع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، 2001، ص 193

على جوانب النّقص في كيانه من خلال التجربة والمحاولة والتسليم الكليّ للذات الإلهية، وأن الانتصار يأتيه بسبب نصرة عيسى له.

ويمكن أن تُفهم أخطاء الأنبياء المذكورة في النصوص الدينية ضمن إطار تربوي، ويكون ما وقع فيه الأنبياء من أخطاء بمثابة دروس تعليميّة للناس، ومناسبات للإرشاد والتوجيه انطلاقاً من مواقف يتنابُ النبيّ فيها ما يتناب سائر البشر من حالات السّهو والنسيان والانفعالات والخطإ في التحليل والإساءة في التقدير، ثمّ يأتي درس التصحيح والتعليم والتوجيه من عند الله تعالى.

ذلك هو منهج الوحي في التّعليم والإرشاد والهداية. وهو منهج يبدأ بتأكيد بشرية الأنبياء الذين ينطبق عليهم قانون التكليف والجزاء على ما ارتكبوا مثل سائر البشر، إلاّ أنّ ما يميّزهم في الحقيقة هو التصحيح الفوري الذي يأتيهم مباشرة من الله تعالى بحكم استمرارية التواصل بينهم وبين الله عن طريق الوحي. فتكون «الأسوة» التي تشير إليها الآيات القرآنية أسوة مستمدّة من كون النّبيّ أوّل من يستجيب للرسالة.

وتشير جملة المواقف التي وقفها الأنبياء في هذا المجال كونهم في مقام الأسوة يعدّلون من سلوكهم ويعملون على السعي إلى الطريق التي يريد الله من عباده أن يسلكوها، حتى يتسنّى لهم تحقيق النموّ الروحي والمعرفي في ظلّ رعاية الله وحفظه.

- عاتب الله آدم وحواء بسبب العصيان، حتى يبيّن أن البشر خطاؤون وأن خير الخطائين التّوابون والمستغفرون.
- عاتب الله نوح بسبب جهله بمعايير النجاة والخلاص، فظنّ أنّ النجاة تتحقّق بالقرابة الدمويّة فأتاه التصحيح القاضي بأنّ النجاة لا تكون إلاّ بالصّلاح (هود: 46).
- أمّا إبراهيم فقد جاءه التعليم والتوجيه وهو في مقام السؤال والبحث عن الاطمئنان بعد حصول الإيمان، وذلك حين دار هذا الحوار بينه وبين ربّه.

وقد جاء الجواب الإلهي حاملا دلالة تربويّة مفادها أنّ الحقيقة نصل إليها من خلال أدلة مختلفة ومتنوّعة، منها الوجداني، والعقليّ، والعينيّ الذي يطلب المشاهدة والمعاينة. والنفوس المتطلعة للمعرفة عليها أن تستزيد ولا تتزيّد وأنْ تشكر ولا تنكر.

- وجاء في سورة الحديد (الآية 63)، أنّ النبي إبراهيم قد وقع في الكذب حين حطّم الأصنام إلا الصّنم الكبير ثمّ أخبر قومه بأنّ الذي حطّمها هو كبير الأصنام. وبالعودة إلى سياق هذه القصّة ينجلي البعد التربوي في سلوك النبي إبراهيم الذي قدّم المقصد وهو السخريّة من عبادة الأصنام إثباتاً للتوحيد على صفة الصّدق في القول (وهو الاعتراف بفعلته).
- أمّا لوط عليه السلام فقد عبّر في نصوص العهد القديم ونصوص القرآن الكريم عن عجزه ويأسه من إصلاح زوجته وقومه، وما كان منه في هذه الحال إلا أن آوى إلى ﴿ركن شديد﴾ [هود: 80]، أي أنّه توكّل في الأخير على الله.
- أمّا ما وقع للنبي يوسف في قصّته مع امرأة العزيز التي ﴿همّت به وهمّ بها﴾ [يوسف: 24]، فإنّ ظاهر النصوص يوحي بوقوع وشيك ليوسف في الخطيئة وهو ما يتنافى (لو وقع) مع العصمة. ومهما كانت حُجج المثبتين للعصمة وحجج النافين لها، فإنّ هذه القصّة تؤكد الطبيعة البشريّة للأنبياء، إذ تصوّر النبي يوسف في حالة من حالات البشر، وهي حالة «الهمّ» التي تأتي بعد حالات الهواجس والخواطر وحديث النفس. إلاّ أنّ النبي يوسف لم يتجاوز حالة الهمّ إلى حالة العزم والتصميم لأنّه – حسب الآية القرآنيّة – ﴿رأى برهان ربّه﴾.

ويعلّق أحد الباحثين على ذلك متسائلا عن سبب عدم وقوع يوسف في الخطيئة، ويجيب أنّ ذلك لا يعود بالدرجة الأولى إلى العصمة، بل إلى التدريب المستمرّ للنفس على المقاومة، وهو تدريب كان يمارسه يوسف منذ صغره.

- وجاء في سورة الضحى قول الله تعالى موجّها الخطاب إلى نبيّه محمّد (ص). ويرجّح أنّ الضلال المقصود هو ضلال الطريق إلى الله. كما ورد في نصوص قرآنية أخرى ذكر مواقف كثيرة يلوم فيها الله نبيّه محمّد (ص) بسبب خطإ في تقدير ما. ويُفهم من جميع هذه النصوص أنّ النبي من واجبه الاجتهاد، وقد يخطئ في الاجتهاد، لكن منهج الوحي الإلهي في التربية يقضي بضرورة التصحيح والتعديل.

ومن المعلوم أنّ الناس في جميع العصور يحتاجون لهداية الله وعونه لتحقيق النجاة والفوز والخلاص. ولا يتحقّق ذلك إلاّ بالمكابدة عبر التجربة والمحاولة، لأنّ الخطأ راسخ في طبيعة الإنسان. ويقتضي تفادي الوقوع في الخطإ تدريبا متواصلا ينمو فيه إحساس الناس بالخير والحق والعدل تدريجيّا، فيندفعون إلى كلّ ذلك بعفويّة وتلقائيّة.

وتقرّ النصوص الدينيّة بصيغ مختلفة أنّ الله قريب من الناس حتّى من الخطائين منهم، وأنّه – تعالى – يُقبل إليهم بالرّحمة والعناية والمغفرة ما داموا مقبلين عليه سعياً وكدحاً في سبيله تعالى.

إنّ الله تعالى يبادر بقطع نصف المسافة نحو عباده ثمّ يدعوهم إلى قطع النّصف المتبقّي منها، وهكذا يكون لقاؤهم مع الله تعالى.

إنّ الله على استعداد دائما لنجدة الإنسان وإعانته على تحقيق النصر على عدوّه السّاكن في داخله، أي على نفسه الأمّارة بالسّوء.

إنّ العصمة صفة أو ملكة يحتاجها الأنبياء في تبليغ الوحي، لكنّهم خارج الوحي يصبحون مثل سائر البشر قادرين على ممارسة الفضيلة دون حاجتهم إلى العصمة.

- إنّ مركزيّة الفكر المسيحي بالنسبة إلى انتصار الإنسان على الشر لا يمكن أن ينبع من ذاته، بل هو فعل في الإنسان. وهذا الانتصار حسب اعتقاد المسيحيين يتمثل في أنّ الله يخلق في توبة الإنسان النصوح رادعاً أخلاقياً ومقياساً روحياً، حتى يفعل ما هو خير وجليل ومرضي لله سبحانه وتعالى.

يقول القديس أوغسطين: «كان آدم قادرا قبل خطيئته على عدم الخطأ، فكيف يكون بنوه بعد ذلك غير قادرين على الخلاص من الخطيئة؟».

وإذا كان آدم قد أخطأ فإنّ أبناءه مدعوون إلى تحقيق الكمال بالسير في طريق الله – رغم أنّهم بشر– أسوة بالأنبياء الذين فتحوا أمام الإنسانيّة بوّابة الأمل على مصراعيها، فكانوا لنا طريقا منيرا نحو الرحمة والخلاص قبل كلّ شيء وبعده.

مفهوم الشّريعة ومقاصدها

تحتلّ مسألة الشريعة من حيث المكانة والأهمية مقاما بارزا في العالم المعاصر، ليس فقط لدى العرب المسلمين، بل لدى كلّ أتباع الدّيانات الإبراهيمية. وفي الحقيقة يمرّ العالم العربي بأزمة لذلك تختلف المذاهب والجماعات فيما يتعلّق بدور الدّين والشريعة في حياتنا اليوم.

وذكر الصحفي التركي مصطفى أكيول في هذا الشأن: «إن كان بمقدور العالم الإسلامي المعاصر أن يتخلّص من هذه الأزمة، فهذا لابدّ أن يكون نتيجة وفود أفكار جديدة ورؤى جديدة، ولابد للأفكار الجديدة على هذا المنوال أن تتوافق مع القيم المتأصّلة في الإسلام. فلا يمكن إذن أن تكون مجرّد أفكار علمانيّة أو مجرّد تجديد لأفكار دينيّة قديمة، فكلّ هذه الأفكار القديمة نشأت في عصر لم يكن فيه المسلمون تحت وطأة هذه الأزمة المعاصرة».[1]

أمّا المسيحيّون واليهود فعليهم أن يواجهوا حقيقة الوصايا الرّهيبة المنسوبة إلى الله في التوراة وغيرها من كتب الأوّلين، إذ جاءت في التوراة أوامر تنصّ على إعدام الزناة (التوراة، سفر اللاّويين 20: 10) والفاسقين (اللاّويين 21: 9) وغيرهم

(1) Akyol, Mustafa. The Islamic Jesus: How the King of the Jews Became a Prophet of the Muslims. New York: St. Martin’s Press, 2017, p.202

من الذين ارتكبوا خطايا جنسيّة. وجاءت أيضا وصيّة بإعدام من يعمل يوم السبت حتّى وإن كان ما يقوم به مجرّد جمع الحطب (سفر الخروج 35: 2–3 وسفر العدد 15: 32–36). غير أنّ أفظع الوصايا هي الوصايا المتعلّقة بإعدام الأبناء. وإذا كان أولاد العائلة كسالى أو عاقين أو سكارى أو أكولين أو إن ضرب أحدهم والديه كان من المفروض إعدامه رجما (سفر التثنية 21: 18–21 وسفر الخروج 21: 15 وسفر اللاويين 20: 9).

وأصرّ بعض الباحثين المسيحيّين على أنّ هذه الوصايا معقولة وسليمة، ولكن أكثر المؤمنين المخلصين في زمننا يشعرون أن هذه الأبعاد في شريعة التوراة هي متوحّشة ومرفوضة، فعلينا أن نتأمّل بعناية ونبحث في كيفية قراءة هذه النّصوص وتفسيرها في عالمنا المعاصر، علما وأنّ العديد من المؤمنين وظّفوها لتبرير عمليّات الظلم والعنف في عصرنا.

مقاصد الشريعة

إنّ أحسن السبل لفهم الأبعاد المريعة للشّريعة تكون من خلال النظر في المفهوم الذي طوّره الباحثون في العصور الوسطى، إذ أبرزوا ظواهر وصايا الشّريعة ومقاصدها العميقة. علما وأنّ مقاصد الله لا تكون إلاّ في سبيل حفظ حياة البشر وكرامتهم.

وأوّل مسلم أثار الحديث حول هذه المقاصد هو الإمام الشاطبي في القرن الثّامن للهجرة (القرن 15 م) ثم طوّرها العالمان محمد الطّاهر بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة وعلال الفاسي في كتاب يحمل العنوان نفسه.

ويؤكّد القرآن الكريم هذه الشّرائع المختلفة التي تمّ تنزيلها في مختلف الأزمان: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: 48].

يمكننا أن نرى في التوراة وغيرها من كتب الأنبياء الأوّلين عمليّة التطوّر، فالله برحمته وصبره أبعد النّاس بمنهج متدرّج عن وحشيّتهم وجهلهم وارتقى بهم إلى

مفاهيم متطوّرة سامية. وأكّد اللاّهوتي المسيحي غريغوريوس النزينزي (عاش في القرن الرّابع للميلاد) أن الله خاطب النّاس في العصور القديمة بواسطة بعض الأبعاد من ثقافتهم الخاطئة وكشف من خلالها عن صفاته الحميدة ومقاصده، بما أنّ الناس غير قادرين على تقبّل الحقيقة دون استخدامها. وقال النزينزي في هذا الشأن إنّ الله يشبه الطبيب الحكيم الذي يخلط العصير الحلو بالدّواء المرّ الذي لا يمكن للمريض تجرّعه وحده. ومع مرور الزّمن استطاع النّاس أن يتركوا من حضاراتهم عناصر لا تتوافق مع مقاصد الله العليا.(1)

كتب الحاخام ناثان كاردوزو بطريقة متشابهة قائلا: «التوراة في الحقيقة هي بمثابة تنازل ربّاني، وينظر إليها المستمعون من خلال عقليّتهم وقيمهم في تلك الفترة. لذلك فالتوراة غير شاملة بمعنى أنّها تسمح بقوانين أو تصدرها مع أنّها بعيدة عن المثالي. ولكنّ هذه القوانين كانت الأفضل في زمن نزولها على الشعب اليهودي، وفي بعض الحالات لم يكن قصد الله تطبيق هذه القوانين بالمعنى الحرفيّ».(2)

والله بمحبّته للنّاس لا يكشف عن ذاته إلاّ بما يراه متوافقا مع ما يستطيع هؤلاء تحمّله. وبصبره العظيم يتحمّل سوء فهم عباده لصفاته والصورة المشوّهة التي يتناقلونها عنه تعالى، وهي صورة مخالفة للطفه ورحمته على العالمين. وعندما يصبح لديهم اتّساع أكثر للإدراك يكشف الله لهم عن ذاته شيئا فشيئا. فلنتأمل الآن بعض الأمثلة بخصوص هذا المبدأ في الشريعة اليهودية.

العدالة بالقصاص

جاء في التوراة في قصّة آدم وحواء أن قابيل قتل أخاه هابيل، وأوحى الله أن يكون عقاب من يؤذي قابيل سبعة أضعاف عقاب قابيل. وبعد مرور الأجيال اختار لامك،

(1) Nazienzus, Gregory. *Nicene and Post-Nicene Fathers, Second Series: Volume VII, Cyril of Jerusalem, Gregory Nazianzen.* Edited by Philip Schaff and Rev. Henry Wallace, Cosimo Classics, 2007, page 326.

(2) Cardozo, Rabbi Dr. Nathan Lopes. “The Deliberately Flawed Divine Torah.” *TheTorah.com*, thetorah.com/the-deliberately-flawed-divine-torah/, accessed May 1, 2019.

وهو أحد ذريّة قابيل، أن ينتقم لنفسه واجتاز كلّ الحدود في رغبته للانتقام، فقال: ((إِنْ كَانَ يُنْتَقَمُ لِقَابِيلَ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ، فأنا سأنْتَقِمُ لِنَفْسِي سَبْعَةً وَسَبْعِينَ مرّة)) [التوراة، سفر التكوين 4: 24]. ويرى الباحثون أنّ لامك أشار بالرّقم 77 كناية إلى الانتقام بلا حدود، إلاّ أنّ الله عندما أنزل الشّريعة إلى النبي موسى وضع حدّا للانتقام من خلال الوصيّة ((عَيْنًا بِعَيْنٍ، وَسِنًّا بِسِنٍّ)) [سفر الخروج 21: 23-25]. ولم تكن هذه الوصيّة مقصد الله النّهائي للبشريّة، إذ قصد أن يأتي بالنّاس إلى أخلاق أسمى، كما نرى في تعاليم السيّد المسيح (الإنجيل، متّى 18: 21-22). (لمزيد من المعلومات في هذا الشأن، انظر مقال «كيف قرأ السيد المسيح التوراة» في هذا المجلد).

الأضاحي والقرابين

اعتقدت الشعوب الوثنيّة في الشرق الأوسط القديم زمن نزول التوراة أن آلهتهم تتمتّع برائحة إحراق الذّبائح التي يقدّمونها لها وكانوا يشعرون أنّهم بهذه الطريقة يطعمون آلهتهم، وهكذا سقطوا في إذلالهم الأخلاقي ووصلوا إلى حد تقديم أضاحي بشريّة إلى الآلهة التي عبدوها. وكان تقديم الأضاحي البشريّة عادة منتشرة في زمن النّبي إبراهيم، وقد طلب الله من إبراهيم أن يذبح ابنه قربانا له تعالى وهي فرصة أراد من خلالها الله أن يعلم إبراهيم وبقية العالمين أنّه لا يريد من عباده الذبائح البشرية ولا يطلبها.

وفوق ذلك شاء الله أن يسمح لبني يعقوب أن يعبدوه باتّباعهم العادة السائدة لإحراق الأضاحي وتقديم قرابين من الزيت والحبوب، ولكنّه نهاهم عن تقديمها لغيره تعالى، وكتب غريقوريوس النزينزي في هذا الشأن: «لقد بتر الله الصنم ولكنه ترك الأضاحي».[1] وقال الفقيه اليهودي ابن ميمون أمرا شبيها، عندما أشار إلى أن التوراة وضعت حدودا للعادة القائمة في تقديم الأضاحي، لكنّ الله احتفظ بها لكي يرتقي بالشعب اليهودي تدريجيّا ويبعدهم عن الممارسات الوثنية. وأكّد ابن ميمون أنّ الله بهذه الطريقة سمح للنّاس أن يقدّموا الأضاحي والقرابين لكي يتعامل معهم حسب ضعفهم البشري.[2]

(1) النزينزي، المرجع نفسه.

(2) بن ميمون، موسى. دلالة الحائرين، الجزء 3، الفصل 32.

لذلك سمح الله لبني يعقوب أن يستمرّوا في هذه العادة لكي يعبدوه بطريقة مألوفة، وسمح باستمرارها لقيمتها الرّمزيّة والتعليميّة، فهي تشير إلى حقائق روحانيّة أعظم لا بدّ أن تأتي فيما بعد. ونستطيع أن نرى أن ممارسة الأضاحي كانت مؤقّتة من خلال كلام الله على لسان النّبي هوشع‌عليه السلام: ((إنّ التّراحم بين النّاسِ أفضل عندي من تقديم الأضاحي، ومعرفة الله خير من إحراق الأضاحي والقرابين)) [كتاب النّبي هوشع 6: 6]. وأوحى الله على لسان النبي أشعيا‌عليه السلام كما يلي، يقول الله تعالى: ((ما لي وكل هذه الأضاحي والقرابين؟ كفّوا عن تقديم هذه العجول والخرفان والتيوس، لا تسحبوها إليّ مطلقا ولا تحرقوها، فهي لا ترضيني)) [كتاب النّبي أشعيا 11: 1]. ويؤكد القرآن هذه الحقيقة إذ جاء فيه: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ [الحجّ: 37].

العبوديّة

تعتبر التوراة أنّ العبوديّة أمر مسلم لا جدال فيه بين بني يعقوب، لأنّ المجتمع لم يصل في نموه إلى درجة يمكنه أن يتخلى عنها بسهولة. فنجد في التوراة قوانين تجعل العبوديّة أفضل أخلاقيّا بما فيها الأحكام التي تفرض تحسّن أحوال العبيد وتمنع المساوئ الصّارخة في النّظام. وكتب الحاخام ناثان كاردوزو في هذا الشأن: «عندما تطوّر الشعب في نموّه إلى مرحلة حيث لا حاجة له بالقوانين المتعلّقة بالأضاحي والعبوديّة، فحينئذ يتمّ إلغاء هذه القوانين كلّية، ولو فرضنا أنّ الله أنزل التوراة في مرحلة متأخرة من نمو الشعب الروحاني، فلا حاجة إذن لهذه القوانين».[1] وكان مقصد الله للبشريّة أن يمحو هذه العادة على الإطلاق، ولكن هذا لن يحدث إلاّ في وقت متأخّر من تطوّره الرّوحاني. وربّما يذهب القارئ المعاصر إلى أنّ الله كان راضيا بالعبودية، لكنّ الله في الحقيقة تحمّل سوء فهم الناس لمقاصده في هذا الموضوع. وعندما ورد ذكر العبوديّة في الكتب السماويّة كان ذلك انعكاسا لتخلّف البشر ووحشيّتهم. فالعبوديّة لا تعبّر عن إرادة الله الذي يريد تحرير النّاس من هذا الفكر الظالم.

(1) كاردوزو، المرجع نفسه.

تعدّد الزوجات

ورد في التوراة وتحديدا في قصّة خلق آدم وحواء أنّ الله قصد للرجل أن يقترن بزوجة واحدة وأن يكوّن معها عائلة جديدة (سفر التكوين 2: 22–25). ولكن بعد عصيان آدم وحواء سرعان ما أخذ الناس يمارسون تعدّد الزوجات، وانتشرت هذه العادة بين الناس. فالله تنزّل إلى الضعف البشري في هذا الشأن. ونحن نعلم أن الأنبياء مثل إبراهيم وداود وسليمان وغيرهم(عليهم السّلام) تزوّجوا أكثر من زوجة، لكن الله لم يعالج هذه القضية في عصرهم، وربّما علم تعالى أنّ النهي عن تعدّد الزوجات قد يؤدّي إلى الأذى أكثر منه إلى الخير في تلك الفترة. وفي الوقت نفسه أوحى الله بقوانين وأحكام تحدّد ممارسة الزنى والطلاق وذلك لقساوة قلوبهم كما قال السيد المسيح (انظر الإنجيل، متّى 19: 8).

روح الشريعة

وصف الحواري بولس الشريعة بـ«الوصي» الذي يحمي المؤمنين إلى حين مجيء المسيح المنتظر عليه السلام. وكان الناس في ذلك الوقت مقيّدين تحت حراسة الشريعة إلى حين حلول الزمن الذي فيه يكونون متهيئين لقبول ((طريق الإيمان هذا)) [انظر رسالة بولس إلى أحباب الله في غلاطية 3: 23].

وكتب المفكر محمد عبدو بطريقة مشابهة عن هذا الموضوع:

«تأويل نزوله (أي السيد المسيح) وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسرّ رسالته على النّاس، وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرّحمة والمحبّة والسّلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسّك بقشورها دون لبابها. وهو حكمتها وما شرّعت لأجلها. فالمسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة، ولكنّه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر ألفاظ شريعة موسى عليه السلام، ويوقفهم على فقهها والمراد منها، ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحرّي كمال الآداب، أي ولمّا كان أصحاب الشريعة الأخيرة [الإسلام] قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبّرا عن رأيه وفهمه، وكان ذلك مزهقا لروحها

ذاهبا بحكمتها كان لابدّ لهم من إصلاح عيسوي يبيّن لهم أسرار الشريعة وروح الدين وأدبه الحقيقي».[1]

الفهم الحرفي للنص يؤدّي إلى الموت أمّا الرّوح فتعطي الحياة

يتجلّى لبّ الشريعة في حوار دار بين السيد المسيح عليه السلام وعالم الشريعة، فجاء في الإنجيل: ((قال فَقيهٌ بالتَّوراةِ: «أيُّها المُعَلِّمُ، ما هي أهمُّ وَصيّةٍ جاءَت في التَّوراة؟» فأجابَهُم قائلاً: «أحِبَّ اللهَ رَبَّكَ بكُلِّ قَلبِكَ وبكُلِّ نَفسِكَ وبكُلِّ عَقلِكَ»، فتِلكَ هي الوَصيّةُ الأعظَمُ والأهَمّ، والوَصيّةُ الثّانيةُ مِثْلُها وهي: «أحِبَّ جارَكَ كَما تُحِبُّ نَفسَكَ». وعلى هاتينِ الوَصيّتينِ يَقومُ كُلُّ ما في التَّوراةِ وكُتُبِ الأنبياءِ مِن وَصايا»)) [الإنجيل، متّى 22: 35– 40].

وعلّم الحواريّون النّاس على المنهاج نفسه، قائلين إن الإنسان إذا أحبّ الله وأحبّ الآخرين فقد حقّق الشريعة بأكملها بما أنّ المحبّة ((تَحقيقُ مُقتَضيات الشَّريعةِ)) [الرسالة إلى أحباب الله في روما 13: 10]. يسمّي الحواري يعقوب المحبّة بـ((الوَصيّة المَلَكيّة العُظمى)) [رسالة الحواري يعقوب 2: 8]، وليس هذا مجرّد اتّباع ظواهر شريعة التوراة كما زعم المتشدّدون من اليهود، إذ كان السيّد المسيح على استعداد أن يعدّل بعض القوانين في الشّريعة، بل كان مستعدًا إلى رفض بعضها إذا تطلّب ذلك مبدأ المحبّة وأعلن أنّ الإنسان الذي يريد أن يسعى إلى روح الشّريعة ينبغي أن يتحرّر من أحرف الشّريعة (أي ظواهرها) أو يرفضها (انظر الرسالة الثانية إلى أحباب الله في كورنتوس 3: 6).

وأكد الحواريون أن الشريعة لا تتحقّق إلاّ بالمحبّة: ((لا تُنقِصوا مِن حقِّ النّاسِ، فإنّ أعظَمَ حَقٍّ عليكُم هو مَحبّتُكم لبَعضِكم بَعضٍ. فإن أحبَبتُم جيرانَكُم فقد عَمِلتُم بالشَّريعةِ كُلِّها. فالوَصايا الّتي أُنزِلَت على النَّبيِّ موسى مِن قَبيلِ: «لا تَزنِ ولا تَقتُلْ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار، الجزء الثالث. (مصر، دار المنار 1954م 1367\هـ.) ص 317

ولا تَسرِقْ ولا تَحسُدْ» وسِواها مِن الوَصايا، يُمكِنُ جَمعُها في وَصِيّةٍ واحِدةٍ: «أَحبِب جارَكَ كَما تُحِبُّ نَفسَكَ». إنّ الّذينَ يُحِبُّونَ جيرانَهُم لا يَقربونَهُم بسُوءٍ ولا يَضُرُّونَهم. كذلِكَ شأنُ مَحبَّةِ الآخَرينَ إنّها تَحقيقُ مُقتَضيات الشَّريعةِ)) [الرسالة إلى أحباب الله في روما 13: 8-10].

وجاء في الإنجيل أيضا: ((إنَّ شَرعَ النَّبيِّ موسى لَيسَ إلاّ ظِلَّ البَرَكاتِ المُنتَظَرةِ وصُورةً لها، لا الحَقيقَةَ ذاتَها. لذلِكَ لَم تَستَطِع أضاحي الأَحبارِ الّتي يُقَدِّمونَها بِاستِمرارٍ حَولاً بَعدِ حَولٍ كَما نَصَّت على ذلِكَ شَريعةُ بَني يَعقوبَ أن تَجعَلَ النّاسَ مِن الواصِلينَ الأَطهارِ)) [رسالة العبرانيين 10: 1]. فتضحية السيّد المسيح بحياته وحدها تجعل الناس منذورين لله (انظر رسالة العبرانيين 10: 10، 14).

كلمة الله النّهائية

إنّما المحبّة التي تحقّق الشريعة ينبغي أن تُشرح وتتجّسد بين النّاس، فالسيّد المسيح عليه السلام هو كلمة الله الأزليّة التي ألقاها إلى مريم فأصبحت إنسانا. لذلك رأى الحواريون أنّ سيدنا عيسى إنّما هو كلمة الله النهائيّة وفيه نرى المحبّة وتحقيق مقاصد الشريعة. ورأوا أنّ سيدنا عيسى بمثابة نهاية مسار الشّريعة بل هو نهاية مسار الكتب المقدّسة عموما. وأكّدوا أنّ الكتب المقدسة هي كلام الله، وهي جميعا تشير إلى كلمة الله النّهائية ألا وهي السيّد المسيح. ويخلُص الحواريون إلى أنّ الكتب المقدّسة وما تحتويه من الشريعة هي النص الثانوي الذي يدفعنا إلى النص الأساسي، ألا وهو سيدنا عيسى المسيح. إذ قال واحد من حوارييه في الرسالة إلى العبرانيين أنّ السيد المسيح ((نورُ جَلالِهِ تَعالى، والتَّعبيرُ الصَّدوقُ عن ذاتِهِ)) [رسالة العبرانيين 1: 3].

مفاهيم الشعب المختار وأماكنه وأوقاته المقدّسة

هناك بعض المسائل في التوراة وغيرها من كتب الأوّلين قد تسبّب القلق وربّما الاشمئزاز لدى القارئ المعاصر عندما يتصفّحها لأوّل مرّة. ونحن نعلم أنّ الله موجود في كلّ مكان، فكيف يمكن أن يكون القدس المكان الوحيد الذي يتقبّل فيه الله العبادة؟ وكيف يمكن أن يكون شعب واحد بمقام «شعب الله المختار» وهو وريث للأرض؟ وكيف فضّل الله هذا الشعب عن بقية الشعوب – علما وأنّ التوراة تؤكد أنّ هذا الشعب ليس أعظم من أيّ شعب آخر على الأرض؟ وجاء في التوراة: ((إنَّ اللهَ فَضَّلَكُمْ وَاخْتارَكُمْ، لا لأنَّكُمْ تَفوقونَ سائرِ الشُّعُوبِ عَدَدًا، فأَنْتُمْ أَقَلُّ الأُمَمِ عَدَدًا)) [سفر التثنية 7: 7].

إنّ هذه المسائل في التوراة تتعلّق بأمور محلّية تخصّ شعب بني يعقوب (بني إسرائيل)، إذ تقدّم صورة عن الله وكأنه إله قبليّ ينتمي إلى مكان معيّن لا إلى ربّ العالمين. فكيف نستطيع إذن أن نفهم التوراة وغيرها من كتب الأوّلين؟ يقول السيد المسيح عليه السلام أن لا حرف ولا نقطة من التوراة ستزول (الإنجيل، متّى 5: 18). ويقول الحواري بولس إنّ ((التّوراةَ كِتابٌ صالِحٌ، وكُلُّ وَصاياها مُقَدَّسةٌ مُستَقيمةٌ وطاهِرةٌ)) [رسالة روما 7: 12]. ويؤكّد القرآن الكريم هذا القول أيضا إذ جاء فيه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44].

ولكي تتوضّح لنا هذه الأمور يجب علينا أن نفهم المسار الرئيسي لروايات الكتب السماوية، ومقاصد الله فيها، تلك التي تتجلّى فقط مع ظهور المسيح المنتظر وكشفه للمملكة الربّانية التي وعد الله بها أنبياءه الأوّلين، وتحديدا يجب أن نفهم مهمّة النّبي إبراهيم عليه السلام ورسالة الله التي أوكلها إليه وإلى أمّته من أجل تطوير مقاصده تعالى، ألا وهي حلول بركاته على جميع الأمم وشفائه وإصلاحه من أجل عالمنا المنكسر، بسبب معاصينا وذنوبنا.

«الشعب المختار»

إنّ المفتاح لفهم مقاصد الله هو وعوده الأولى التي منحها إلى النبي إبراهيم عليه السلام حين اختاره في البداية من بين أفراد عائلة وثنية ليكون أبا للمؤمنين، أي أوّل إنسان في أمّة جديدة يقيمها الله على الأرض. وأوحى الله إلى إبراهيم: ﴿فإني جاعل من نسلك أمة عظيمة، وأباركك وأرفع اسمك عاليا بين الناس، وتكون بركة على العالمين. ومن يدعو لك بالبركات أباركه، ومَن يدعو عليك باللعنات أتبعه بلعنة الملعونين. وبك تحلّ بركاتي على أمم الأرض أجمعين﴾ [التوراة - سفر التكوين 12: 2-3]. هكذا إذن اختار الله أن يبارك النبي إبراهيم وذرّيته الذين سيصبحون أمّة عظيمة. فالله لم يختر إبراهيم ليكون عابدا له فحسب، فلو اختاره على هذا الأساس، لكان خيارا عشوائيا لا يختلف عن تصرفات الآلهة الوثنية القبلية التي قامت مقام مناصير مدنها وشعوبها. فالله اختار النبي إبراهيم لهدف أسمى وهو أن يكون وسيلة بركاته تعالى لكل شعوب العالم.

ويختلف وعد الله للنبي إبراهيم والميثاق الذي أقامه معه لاحقا عن العلاقات القائمة بين الشعوب الوثنية وأربابها في نقطة محورية. إذ منح الله ميثاقه للنبي إبراهيم دون أن يشترط منه ومن نسله شيئا. وفي الاعتقاد الوثني طلبت الآلهة القبلية أمورا كثيرة من عبّادها، ولكنّ الله في ميثاقه مع النبي إبراهيم لم يفرض عليه ولا على عباده شروطا أو طلبات، وإنّما اقتصرت الشروط على ذاته تعالى فقط.

ولكن بعد 430 سنة أقام الله ميثاقا جديدا مع النبي موسى عليه السلام وبني إسرائيل، وبذلك لم يلغ الله الميثاق الأساسي الأوّل الذي قطعه مع النبي إبراهيم. ووضّح

الحواري بولس هذا الأمر إذ كتب: ((لقد أقامَ اللهُ مَعَ النَّبيِّ إبراهيمَ ميثاقًا، فكَيفَ لتَوراةِ النَّبيِّ موسى وقد أُنزِلَت بَعدَ ذلِكَ بأربَعِ مِئةٍ وثَلاثينَ سَنةً تَقريبًا أَن تُلغيَ ذلِكَ الميثاقَ؟ هذا يَعني إبطالَ وَعدِ اللهِ!)) [غلاطية 3: 17]. فكيف نستطيع إذن أن نفهم التوراة وتحديدا الشريعة فيها التي نزلت على النبي موسى، وفيها القوانين المعقّدة المتعلّقة بالأضاحي في بيت للعبادة الذي لم يختلف كثيرا عن المعابد الوثنية في الشرق الأدنى القديم؟ وكيف نفهم قوانين الشريعة المتعلّقة بالأيام المقدّسة ويوم السبت وأحكام الطعام الحلال وتحريمه التي أنزلها الله لكي يجعل بني يعقوب مميزين عن بقية الأمم؟ وكيف نفهم استلاءهم على أرض مقدّسة كونهم «شعب الله المختار»؟ وماهي الغاية من هذه التفاصيل في الشريعة؟ أوليست هذه الأحكام بمثابة خطوة إلى الوراء مقارنة بميثاق الله مع النبي إبراهيم؟

إذا نظرنا نظرة ضيّقة إلى شريعة موسى، بغض النظر عن مقاصد الله في التاريخ، فإنّ هذه الأحكام والقوانين لا تبدو منطقيّة. ولكن قصد الله من هذه الأحكام أن تكون إجراء مؤقتا، وتقوم وصيّا على أمّة الله وتحميهم حتى حلول زمن مجيء المسيح الموعود. وبما أنّ هذه الأحكام كانت موجّهة إلى شعب معيّن في مكان خاص وزمان خاص، لذلك لا تبدو منطقيّة في نظرنا. ويشرح الحَواري بولس هذا الأمر قائلا: ((هل تَعلَمونَ لِماذا أُنزِلَتِ التَّوراةُ على النّاسِ؟ أنزَلَها اللهُ، بَعدَ وَعدِهِ للنَّبيِّ إبراهيمَ لِحِمايةِ النّاسِ مِنَ المَعاصي والخَطايا. وإنَّها لَباقيةٌ حتّى يأتيَ سَليلُ النَّبيِّ إبراهيمَ السَّيِّدُ المَسيحُ المَوعودُ للنّاسِ)) [غلاطية 3: 19]. لقد علّم السيد المسيح أن التوراة أُنزلت بسبب ضعف قومهم وتعنّتهم (الإنجيل، متّى 19: 8)، ولكنها كانت تشير إلى مقاصد الله من أجل الرحمة والمحبة التي سيسعى إليها الناس ضمن أمّة منوّرة بنوره تعالى.

إضافة إلى ذلك، يجب أن ننتبه إلى أن جماعة الإيمان لم تختلف عن الأمّة أو عن الشعب ككيان سياسي لفترة طويلة في التاريخ البشري (أي لا فرق عندهم بين الديانة والانتماء إلى الشعب). وكانت هذه الحقيقة تنطبق على كلّ الديانات والشعوب في زمن الأنبياء الأوّلين، وبالتالي نرى كثيرا من الخصوصيات الشعبية المتعلّقة بسيرة الإيمان، مثل الارتباط بأرض معيّنة والالتزام بعادات خاصّة.

«الشعب المختار» وقوانين المأكل والمشرب

اتّبعت شعوب كثيرة في القديم قوانين خاصّة تتعلّق بتحريم المأكل والمشرب وتحليلها. واتّبعت بعض مدارس الفلاسفة قوانين مميّزة للمأكولات. واعتبرت شعوب الشرق الأوسط عامّة لحم الخنزير أمرا مبغضا، شأن بني يعقوب وآل فينيقيّة وبعض الشعوب السوريّة والكهنة في ديانات مصر. ولكنّ شعوبا أخرى مثل اليونانيين لم تمانع في أكل لحم الخنزير.

ويرى بعض الدارسين أنّ الله أمر بني يعقوب في التوراة باتّباع قوانين مميّزة للمأكل كوسيلة تجعلهم يتميّزون عن بقيّة الشعوب، وبسبب هذه التقاليد الغريبة ازدرتهم في أحيان كثيرة الشعوب المجاورة مثل اليونانيّين.

وعلّم السيّد المسيح النّاس مقصد هذه القوانين مشيرا إلى أهمية ما نتعلّمه عن النجاسة من قوانين المأكولات قائلا: ((أمّا ما يَخرُجُ مِن الفَمِ فهو بَوحُ القَلبِ، وبِسَبَبِهِ يَطهُرُ الإنسانُ أو يَنجُسُ. ومَكمَنُ الشَّرِّ في البَواطِنِ: كالقَتلِ والزِّنى والفِسقِ والسَّرقةِ وشَهادةِ الزُّورِ والنَّميمةِ)) [الإنجيل، متّى 15: 18-19]. وبمعنى آخر نستطيع أن نتعلّم من قوانين المأكولات عن النجاسة في أبعادها الخارجيّة والماديّة ولكنّ مقصد الله من النّجاسة التي يجب أن نتجنّبها هي نجاسة القلب والنوايا.

أماكن مقدّسة: أرض الميعاد

وردت في القرآن إشارة إلى أن الله وعد بني إسرائيل بالأرض، ولكن لا توجد آية تشير إلى اسم تلك الأرض. ونرى في سورة المائدة (الآيات 20-26) ذكرا للزمن الذي أمر الله فيه النبي موسى عليه السلام أن يقود شعبه إلى الأرض غير مبال بالأخبار السلبيّة حول تلك الأرض التي حمّلها إليه بعض المرسلين المكتشفين للأرض. وشدّ النّبي موسى عزيمة قومه قائلا: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: 21]. ويشير القرآن بـ«الأرض المقدّسة» و«كَتَبَ اللهُ لكُم» إلى أنّ الله جعل صلة بين هؤلاء القوم القدامى وتلك الأرض.

فكيف نستطيع أن نفهم أنّ تلك الأرض ستُكتب لبني إسرائيل في ذلك الحين؟ هل هذا عطاء أبدي؟ أم أنّ معنىً آخر يتوارى خلف هذا الوعد؟ لكي نفهم معنى الوعد بالأرض ينبغي أن ننظر إليه في سياق أوسع. وفي التوراة يبدو جليّا أنّ الله ائتمن الأرض لبني يعقوب ولكنّ هذا الائتمان ليس دائما وغير مشروط، فعلى سبيل المثال نقرأ في التوراة: ((وتوجّهوا بالدُّعاءِ إِلَى اللهِ ولا تتّخِذُوا لَهُ شُرَكاءَ مِن أربابِ الأُمَمِ الّذينَ جاوروكُم. فإن فَعلتُم ذَلِكَ احتدَمَ غَضَبُهُ تَعالى عَلَيكُم ويُبيدُكُم مِن الأرضِ. إنّ اللهَ رَبّكُم اختارَ أن يَتَجلّى بَينكُم، وإنّهُ لا يُجيزُ شُرَكاءَ لَهُ ولا أندادَ)) [سفر التثنية 6: 14-15]. وزيادة على ذلك يوجد في الفصل 28 من سفر التثنية ذكر مطوّل للبركات الموعودة لبني يعقوب عندما يطيعون الله، وذكر اللّعنات التي ستطاردهم عند عصيانهم. ومن بين العقاب الذي سيلقونه أن يبيدهم الله من الأرض بواسطة بعض الأوبئة والبلايا وأن يشتّتهم بين شعوب الدنيا (سفر التثنية 28: 15-68).

وأعطى الله الأرض لبني يعقوب كوسيلة لكي يتمّم من خلالها وعده تعالى للنبي إبراهيم: ((وبِكَ تحلُّ بَركاتِي عَلَى أُمَمِ الأَرضِ أَجمَعينَ)) [التوراة، سفر التكوين 12: 3]. وجاء تأكيد لهذا المبدإ في القرآن حيث ورد عن النبي إبراهيم والأرض: ﴿وَنَجَّيۡنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71].

حذّر كثير من الأنبياء بني يعقوب أنّ عصيانهم لله يؤدّي إلى طردهم من الأرض، وقال النّبي إرمياعليه السلام أن فترة عقاب السّبي ستمتدّ 70 سنة. فعندما حصل سبي بني يعقوب فعلا في سنة 586 ق.م. وسكنوا في بلاد بابل، أكّد النبي دانيالعليه السلام أنّ سبيهم في بابل كان بسبب كبائر شعبه. ولكن الله سيجعلهم يعودون من سبيهم. غير أنّنا نرى هنا تغييرا لافتا للانتباه، إذ جعلهم الله يعودون من السّبي حقا ولكنه لم يعد لهم استقرارهم والسلطة السياسية التي كانوا يتمتّعون بها من قبل، فظلّوا قابعين تحت سطوة بعض الدول القويّة حتى زمن السيد المسيح الذي جاء ليقيم بشكل كلّي مملكة النبي داود المنهدمة. ولكنه أقامها بتأسيس مملكة لا تنتمي إلى هذه الدنيا، مملكة لا تحوز جيوشا ولا نفوذا دنيويّا بل هي مملكة أفرادها يعانون الآلام في سبيل الآخرين، ولا يسعون إلى قتال أعدائهم وذبحهم. إنّ الدعوة إلى الانضمام إلى المملكة الربّانية قائمة إلى الآن أمام الناس من كلّ الأمم.

أماكن مقدّسة: بيت الله ونظامه للأضاحي

إنّ بيت الله الذي جاء الأمر بتدشينه في التوراة يشبه في تصميمه معابد الشرق الأدنى القديم عند الوثنيين. وساد الاعتقاد عند الوثنيين بتعدّد الآلهة حيث سيطر كلّ إله على أراض معيّنة وحمى سكانها وأشرف عليهم. وفُرض على العبّاد بدورهم عبادتها ولكن هذه الآلهة لم تحظ بسلطان خارج حدود بلادها الخاصّة.

واختار الله أن يتجلّى للنبي إبراهيم وأن يتعامل مع الناس بدءا من أسس مفاهيمهم المحدودة وصولا إلى الحقائق المتقدّمة. فالله لا يحتاج إلى أضاح، لكنّه أمر عباده أن يقدّموها كإجراء مؤقّت تعبيرا عن ولائهم له بطريقة مألوفة، وهذا العمل يؤدّي بهم إلى المفاهيم المتقدّمة والمتعلّقة بالمملكة الربّانية. فالنّبي سليمان على سبيل المثال دعا الله حين دشّن بيت الله في القدس قائلا: ((ولكن أيُعقل أن يسكن الله على الثرى؟ يا مَن وسع عرشك السّماوات، فكيف يتّسع لك هذا المبنى؟)) [كتاب الملوك الأوّل 8: 27]. وأوحى الله على لسان النّبي هوشع قائلا: ((أُريدُ مِنكُم الوَفَاءَ لا تَقديمَ الأضاحِي وأُريدُ مِنكُم أن تَكونُوا العارِفينَ بِذَاتي ولا تَتَقرّبوا إليّ بإحراقِ قَرابينِكُم)) [كتاب النّبي هوشع 6: 6].

ويبدو واضحا من كتابات الأنبياء القدامى أنّه لا قيمة لحرم بيت الله ونظامه المتعلّق بالأضاحي والقرابين إن لم تكن مرفوقة بالطّاعة والتقوى والسلوك على صراطه المستقيم. ويؤكد القرآن هذه الحقيقة إذ جاء فيه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحجّ: 37]. لقد حذّر النّبي إرميا قومه قائلا: ((لا تطمئنّوا إلى الّذين يخدعونكم، إنّهم لواهمون! فما أنتم في أمان سالمون، وإنّهم لكاذبون إذ يردّدون: «نحن في مأمن لأن بيت الله هنا! بيت الله هنا! بيت الله هنا!» ولكنّي لن أرحمكم إلاّ إذا تبتم إليّ مُنيبين، وأصلحتم أعمالكم وأقمتم العدل فيما بينكم صادقين. فلا تجوروا على الغريب والأرملَة واليتيم! ولا تَسفِكوا الدّم البريء القويم! ولا تعبدوا الأصنام فتجنوا على أنفسكم خاسرين. وحين تتوبون تستمرّون على هذه الأرض التي ائتمنتُ عليها آباءكم الأوّلين)) [كتاب النبي إرميا 7: 4-7].

وأصرّ النّبي أشعياﷺ على هذه الحقيقة حين قال: ((أمّا الآن يا حُكّام القدس ويا من فيها تقيمون، ها أنتم كقوم لوط الآثمين! فاصغوا لما أمركم به ربّ العالمين! يقول الله تعالى: «ما لي وكل هذه الأضاحي والقرابين؟ كفّوا عن تقديم هذه العجول والخرفان والتيوس، لا تسحبوها إليّ مطلقا ولا تحرقوها، فهي لا ترضيني. ومَن أوهمكم أنّكم إذا قمتم بتلك الشعائر عبدتموني؟ فلا تدوسوا حرمي المقدّس ولا تقربوني! كفّوا عن تقديم باطل القرابين، والبخور الّذي تحرقونه أثناء صلواتكم فبتقديمه تبغضونني! وحتّى شعائر احتفالات بزوغ الأهلّة ويوم السبت وصيام النوافل، كلّها زيف وكذب مهين! إنّكم ترتكبون الآثام، ثمّ تحتفلون بالمواسم والأعياد، وأنا لا أُطيق نفاق العباد! نعم، كرهتُ فواتح شهوركم وأعيادكم، إنّها بغيضة إليّ كريهة، لا أنظر إليها ولا إلى من بها يحتفلون!)) [كتاب النّبي أشعيا 1: 10–14].

ونرى في الإنجيل الشّريف أنّ حرم بيت الله ونظام الأضاحي والقرابين التّابعة له كان مقصدها أن تشير إلى ما سيفعله الله في المستقبل، إذ سيقيم بيتا لا بأيدي العمّال. فكشف السيد المسيح هذا الأمر لامرأة سامريّة عندما سألته عن المكان الصحيح لعبادة الله فقال: ((تيَقَّني يا سَيّدَتي مِمّا سأقولُ لكِ، سيأتي وَقتٌ لا فَرقَ فيهِ بَينَ أن تَكونَ عِبادةُ اللهِ الأبِ الصَّمَدِ في القُدسِ أو على هذا الجَبَلِ أو في أيِّ مَكانٍ آخَرَ! وقد حانَ هذا الوَقتُ الّذي سيَعبُدُ فيهِ النّاسُ اللهَ ويُمجِّدونَهُ في كُلِّ مَكان، وهؤلاء هُمُ الّذينَ اصطَفاهُمُ اللهُ الأبُ الرَّحمنُ مِن بَينِ عِبادِهِ، وهُمُ الّذينَ يَتَقَرَّبونَ إليهِ تَعالى مُنقادينَ بروحِهِ وحقِّهِ. ألاَ إنّ اللهَ يَسَعُ السَّماواتِ والأرضَ وعِبادتُهُ الحقُّ لا تَقتَصِرُ على مَكانٍ. أنتُم أهلَ السّامرة لا تَعرِفونَ اللهَ الّذي تَعبُدونَهُ حقَّ مَعرِفتِهِ، أمّا نَحنُ بَني يَعقوبَ فنَعرِفُهُ، ومِنّا يَخرُجُ المُنقِذُ المُنتَظَرُ)) [الإنجيل، يوحنا 4: 21–24].

وأقرّ الحواري بولس الحقيقة نفسها عندما خاطب المؤمنين الذين أقبلوا على الإيمان بالله والسيد المسيح من خلفيّة وثنيّة، فكتب إليهم قائلا: ((فأنتُم مِن الآنَ لم تَعُودوا أجانِبَ غُرَباءَ، بل صِرتُم إخوةً في أُمّةِ اللهِ، ودَخَلتُم أهلَ بَيتِهِ تعالى، الّذي جَعَلَ أساسَهُ الحَوارِيّينَ والأنبياءَ، في حينَ جَعَلَ سَيِّدَنا عيسى المَسيحَ حَجَرَ الزّاويةِ المَتينَ! ونَحنُ المؤمنينَ بِهِ أصبَحنا مُترابِطينَ كحَجَرِ البِناءِ، فبِتكاتُفِنا نَصيرُ بيتًا مُقَدَّسًا

للمَولى. وها أنتُم أيُّها الأغرابُ قد أصبَحتُم بسَيِّدِنا المَسيحِ جُزءًا لا يَتجَزأُ مِن صَرحِ اللهِ الّذي تَحِلُّ فيهِ رُوحُهُ تَعالى)) [رسالة أفاسوس 2: 19-22].

أوقات مقدّسة: يوم السبت والمواسم والأعياد

نظرت الشعوب الوثنيّة في حوض البحر الأبيض المتوسّط قديما إلى اليهود كأناس غريبي الأطوار بسبب عاداتهم وتقاليدهم، وإحدى هذه العادات الجديرة بالذكر هنا تتمثل في تخصيص يوم واحد للرّاحة خلال الأسبوع. ونظر أكثر الوثنيّين إلى اليهود بأنّهم كسالى بسبب امتناعهم عن العمل يوم السبت، ولكن هذه العادة كانت مميّزة استنادا إلى ما جاء في التوراة حيث أراد الله تعالى أن يحمي بني يعقوب ويجعلهم ذوي قدسيّة أمامه، أي منذورين له ومختلفين عن بقيّة الأمم.

وفي التوراة يرتبط يوم السبت كيوم للراحة بإنهاء الله عملية الخلق. فعندما أنزل الله الوصايا العشر إلى بني يعقوب في جبل سيناء وردت بينها هذه الوصية: ((ووقّروا اليوم السّابع واحفظوا قُدسيته. إنّ لديكم في الأسبوع ستّة أيّام فيها تعملون، واليوم السّابع يوم عُطلة مخصّص لله ربّكم، لا عمل فيه، فاسكنوا فيه وبنوكم وبناتكم وخدمكم ودوّابكم والغريب المقيم بينكم واستريحوا. إنّ الله خلَقَ السّماوات والأرض والبحار وما فيها في ستّة أيّام، ثمّ توقّف عن عمل الخلق في اليوم السابع وسكن على العرش. كذلك صار اليوم السّابع عند الله يومًا مميّزًا ومقدّسًا)) [سفر الخروج 20: 8-11]. وفهم الناس في العالم القديم أنّ الله سكن لكي يبدأ حكمه في الكون، بعد أن نظّم كلّ المخلوقات فيه نظاما صحيحا لكي تخدمه وتمجّده. وجاءت هذه الحقيقة في القرآن إذ يقول: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54].

يعتمد الكتاب المقدّس فكـرة السّكون أو الراحة لكي يشير إلى أنّ الله منح داود عليه السلام الرّاحة من أعدائه حتى يملك دون تحدّ من أحد (انظر الكتاب الثاني للنبي صموئيل 7: 1). وفهم النّاس في زمن النّبي موسى عليه السلام أنّ الكلمة العبريّة التي تقابل السّكون أو الرّاحة تعني السّكن أو الاستقرار في بلاد كنعان. ولكن لا بنو يعقوب

ولا ذرّيتهم سيطروا على تلك الأراضي بأكملها، ولا حتى النّبي داود(عليه السلام). ومع مرور القرون، كان الرّومان يتحكّمون بأرض فلسطين زمن سيدنا عيسى(عليه السلام)، فاعتقد اليهود أنّ ترميم مملكة داود وميعاد السّكينة المنتظر سيحلاّن في الأيّام الأخيرة للعالم فقط.

وورد تأكيد لهذه الحقيقة في كتابات الحَواريّين، حيث جاء ذكر أنّ السّكينة الحقّ أو الاستقرار دون تحدّيات من الأعداء سيأتيان للصّالحين الذين يتّبعون خطى السيد المسيح (انظر الرّسالة إلى العبرانيين، الفصلين 3 و 4).

أمّا بالنسبة إلى الأعياد الوطنيّة والمواسم التي أعطاها الله لبني يعقوب، فيمتلئ كلّ منها بإيحاءات رمزيّة وبكنايات. وفهمها حواريو السيد المسيح على هذا المنحى أيضا. فأهميتها لا تكمن في تلقاء نفسها، بل في الواقع المنتظر عند حلول المملكة الربّانية الموعودة التي أشارت إليها.

ختام

عندما نتدبّر العادات الغريبة والتفاصيل الدّقيقة في التوراة وغيرها من كتب الأوّلين، يبدو واضحا لنا أنّه لا يمكن إدراكها بمنأى عن بقيّة الكتب السّماوية، بل ينبغي أن تُفهم في ضوء مقاصد الله التي أوحى بها أوّلا إلى النّبي إبراهيم(عليه السلام)، وهي أنّه سيبارك العالم كلّه من خلال ذرّيته(عليه السلام). ومع قدوم الأنبياء لاحقا، أوحى الله إليهم أنّ مقاصده في الكون هي إرساء السّلام والقسط والعدل والاستقامة على يدي المسيح الملك المنتظر والمملكة الربّانية التي تثبّتها. أمّا بالنسبة إلى ما جاء قبل السيد المسيح فنرى وصفا له في الإنجيل: ((إنَّ شَرعَ النَّبيِّ موسى لَيسَ إلاّ ظِلَّ البَرَكاتِ المُنتَظَرةِ وصُورةً لها، لا الحَقيقَةَ ذاتَها)) [رسالة العبرانيين 10: 1]. وجاء في الإنجيل أيضا: ((وأحبارُ بَني يَعقوبَ يَخدِمونَ في المِحرابِ الأَقدَسِ داخِلَ بَيتِ اللهِ، وهو ظِلٌّ وصُورةٌ لبَيتِ اللهِ الحَقيقيِّ في السَّماءِ)) [رسالة العبرانيين 8: 5].

ثقافة أهل الشرق في التوراة

بقلم الدكتور أحمد المشرقي[1]

كثيرة هي الدراسات التي تناولت كتب الأنبياء الأولين بالدّرس، وخصوصا منها سفر التكوين في التوراة الذي يتصدّرها موقعا وأهمية.

لكن تلك الدّراسات وجهّت اهتمامها في الغالب إلى البحث في تحديد البنية اللغوية لسفر التكوين وتاريخ تدوينه وما تضمّنه من قصص الخلق وأخبار الأوّلين. وارتأينا من جهتنا أن نركّز في دراستنا لسفر التكوين (أو جزء منه) على جانب آخر لم يلق حظا كبيرا لدى الدارسين، ألا وهو الجانب الثقافي، وتحديدا الثقافة الشرقية.

ولذلك سننظر في سفر التكوين، باعتباره وثيقة تاريخيّة نحاول من خلالها تحديد بعض الملامح الثقافية لمنطقة الشرق انطلاقا من شخصية إبراهيم وشخصية لوط(عليهما السّلام) كما ظهرتا في التوراة.

النبي إبراهيم عليه السلام وثقافة أهل الشرق

تتبوّأ شخصية النبي إبراهيم مكانة مرموقة في منطقة الشرق وثقافته وأديانه.

ويُثبت التاريخ الدّيني وجود علاقات بين النبي إبراهيم عليه السلام وأهل الشّرق طبعت ثقافة المنطقة، وأثّرت فيها كما لم يؤثر فيها أيّ عامل آخر.

(1) أستاذ علم الأديان المقارن، جامعة الزيتونة - تونس

وتتّفق النصوص الدينيّة في الأديان الكتابيّة الثلاثة (اليهودية، المسيحيّة، الإسلام) على خصوصيّة العلاقة التي تربط بين إبراهيم(عليه السلام) ومنطقة الشرق، وإن اختلفت هذه النصوص في تحديد المجالات الجغرافية التي تحركت فيها هذه الشخصيّة.

ويشير سيد محمود القمني إلى الأهميّة الدينيّة التي تحظى بها شخصية النبي إبراهيم في الأديان الكتابية الثلاثة بقوله:

«إنه عند العبريّين أهمّ الآباء الأوائل للشعب العبري، وهو أب لسلسلة من الأبناء كانوا جميعا ذوي علاقة حميمة بالإله ... وهو عند المسيحيّين لا يقل رتبة عنه عند اليهود، لأنّ الإنجيل (متّى) يقرّر أن إبراهيم هو الجدّ الأعلى لعيسى المسيح. ولقد أشار السيد المسيح إلى الانتماء الإبراهيمي في الإنجيل وهو يحاور اليهود (انظر الإنجيل، يوحنّا 8: 31–59) وقد ذكّرهم في هذه المحاورة رؤية إبراهيم له حين قال: ﴿لقد تَشَوَّقَ أبوكُم إبراهيمُ أن يَرى يَومَ مَجيئي، فرآهُ وابتَهَجَ ابتِهاجًا عَظيمًا﴾. وهنا يرمز إلى الذبح العظيم الذي قُدم من الله فداء لابنه، وكان هذا الذبح رمزا لذبيحة الله للعالم أجمع ألا وهو عيسى المسيح. وبالتالي فإنّ إبراهيم أب لكل المسيحيّين.»

وهكذا ترسّخ في أذهان أهل الكتاب ووجدانهم أنّ إبراهيم هو «جدّهم الأعلى» ورمز عقائدهم الدينيّة.

لكنّ الذي يهمّنا في هذا البحث بدرجة أولى هو ما تضمّنته سيرة النبي إبراهيم من عناصر ثقافية نقدّر أنها كانت المرجع في تقاليد أهل الشرق وعاداتهم وثقافاتهم. ونبدأ أوّلاً بالنظر في الصّفات التي وُصف بها النبي إبراهيم في سفر التكوين.

جاء في الفصل 14 من سفر التكوين، أن النبي إبراهيم(عليه السلام) كان زعيما وله «موالين مدرّبين» على القتال (14: 14)، وكان يقودهم بنفسه في الحروب بمهارة وشجاعة (14: 15) وذلك لنصرة بني قومه (14: 13–16). ومن شيمه التي يذكرها سفر التكوين: الوفاء بالعهد، إذ كان يحرص على إرضاء حلفائه، ويحافظ على مصالحهم

(14: 13–24)، وكذلك الشّهامة والحلم إذ كان يقتحم المخاطر، ويعفو عند المقدرة (14: 24). إنّ دارس سفر التكوين لا يعدم المقاطع التي تتضمّن مواقف من سيرة إبراهيم وتؤكد الصّفات السّابقة، وتبرزها في مواقف كثيرة من حياته. وجاء في التكوين (13: 5–12) ما يفيد أنّ النبي إبراهيم وابن أخيه لوط كانا يعيشان متجاورين في مكان واحد وزمن واحد، ولمّا اشتدّ خصام بين رعاة مواشيهما اتّفقا على الافتراق. وتظهر شخصية إبراهيم في هذا المقطع بكامل الشّهامة والحلم والإيثار، عندما بادر باقتراح الجلاء المشترك عن مكان الإقامة تحاشيا للخصام بين الرّعاة، وطلب من ابن أخيه لوط أن يختار أوّلا المكان الذي سيرتحل إليه ويقيم فيه.

لا شك في أنّ هذه الصّفات التي جاءت مقترنة بالنبي إبراهيم في سفر التكوين هي صفات تميّز الشخصيّة الشرقية بوجه عام. فالشهامة والشجاعة والحِلم والإيثار والتكافل العائلي، كلّها صفات تُعدّ من الخصال الحميدة التي يقتضيها العرف في البيئة الشرقية، حتّى تكاد تتحوّل فيها هذه الصّفات إلى طبائع وسجايا. والذي يدلّ على «الخصوصيّة الشرقيّة» لتلك الصّفات هو صعوبة ترجمتها إلى لغة غير سامية (أي غير شرقية). وهذا ما أشار إليه المستشرق لويس غرديه حين حاول شرح صفة «الحلم» للقارئ الغربي: تارة بالإشارة إلى معنى الكبرياء والإحساس بالكرامة، وتارة أخرى بقوله: «الحِلم هو قوّة البدوي النفسيّة»، وذلك قبل أن يعترف في النهاية بصعوبة ترجمة هذه العبارة ترجمة دقيقة إلى لغة أوروبية.

أمّا اقتران تلك الصّفات الشرقية بشخصية النبي إبراهيم في نص التوراة، فقد أضاف إلى قيمة الشخصية الاجتماعية قيمة دينيّة وأخلاقية، وذلك بحكم السّلطة التي ما انفك يمارسها النموذج الإبراهيمي في خيال أهل الشرق ووجدانهم.

وتتجلّى أهمية هذه العلاقة بين النبي إبراهيم(عليه السلام) والأعراف الاجتماعية في منطقة الشرق القديم في عناصر ثقافية أخرى لعل أبرزها الضيافة والكرم. ومن المعلوم أنّ الضيافة عند أهل الشرق ليست مجرّد عرف أو عادة أو تقليد كغيره من التقاليد، بل ترتقي لديهم إلى مقام «الواجب الاجتماعي المقدّس». ويعلّل لويس غرديه الطّبع

القدسي للضّيف لدى العرب بارتباط ذلك «بالشروط الأوّلية للحياة البدوية» التي تضع الإنسان في أحيان كثيرة وحيدا في «أرض بلا طريق أو ماء».

والعلاقة بين الضيافة والنبي إبراهيم وطيدة في النّصوص الدينيّة الكتابية، ووردت إشارات إلى ذلك في سفر التكوين (الفصل 18) وفي القرآن الكريم (سورة الحجر 51-53 والذاريات 24-30)، حتّى شاع لدى الكثير من المؤمنين «أنّ إبراهيم كان أوّل من قدّم ضيافة».

جاءت قصّة ضيوف النبي إبراهيم في التوراة على النحو التالي:

((وفي أحد الأيام وبينما كان النبي إبراهيم(عليه السلام) جالسًا في مدخل بيت الشعر عند بَلّوطات مَمْرا، تجلّى الله له في الهجيرة. فنظر النبي إبراهيم ورأى ما يشبه ثلاثة رجال واقفين أمامه. وعندما رآهم قام مسْرعًا من مدخل خيمته لاستقبالهم، ورحّب بهم وانحنى إلى الأرض احترامًا لهم وقال: «يا سيّدي، هل تشرّفني بقبول دعوتي؟ أرجوكم، لا تذهبوا دون زيارتي. دعني أُقدّم لكم قليلا من الماء تغسلون به أرجلكم، وتفضّلوا استريحوا تحت هذا الشجر. إنّ ساعة زيارتكم لعبدكم المتواضع هي ساعة مباركة! فدعوني أقدّم لكم لقمة خبز تسندون بها قلوبكم، ثمّ تواصلون مسيرتكم». فأجابوه: «حسنًا، ليكن كما قلت». فأسرع إبراهيم(عليه السلام) إلى زوجته سارة داخل الخيمة قائلا: «هيّا أَسرعي واعجني ثلاث كيلات من أفضل الدقيق واخبزيها». ثمّ أسرع(عليه السلام) إلى القطيع، واختار واحدًا من أفضل العجول، وأعطاه لأحد الخدم فسارع بتجهيزه. وعندما حضر الطعام، قدّم النبي إبراهيم زبدة ولبنًا والعجل الذي طبخه(عليه السلام) لضيوفه، فأكلوا وهو واقفٌ يخدمهم تحت الشجرة)) [سفر التكوين، 18: 1-8].

تتضمن هذه الرّواية من التوراة عناصر أساسيّة تعكس أهميّة الضيافة في البيئة الشرقية من أهمّها:

* **الحركية التي أحدثها قدوم الضيوف إلى بيت إبراهيم** الذي تحوّل بيته في لمح البصر من بيت كان يخيّم عليه السكون والهدوء والاسترخاء (كان إبراهيم جالسا في باب الخيمة وامرأته في داخلها) إلى بيت يعج بالحركة:

-- يستقبل ضيوفه «ركضا».

-- يعود إلى الخيمة «مسرعا» ليخبر زوجته «بالحدث السعيد».

-- يأمرها «بالإسراع» في إعداد الطعام.

-- «يركض» إلى البقر ليأخذ عجلا... وخادمه «يسرع» في ذبحه وطهيه وإعداده.

※ طريقة استقبال إبراهيم لضيوفه:

وهي طريقة تكشف عمّا يستشعره الرجل الشرقي إزاء ضيوفه من مشاعر الاحترام والتبجيل والتعظيم والإيثار والتواضع، إلى حدّ تتحوّل فيه الضيّافة من مرتبة الواجب الاجتماعي إلى مرتبة الفريضة الدينية.

يدلّ على ذلك ما جاء في النص من مواقف مثل:

-- انحنائه إلى الأرض عند استقباله لضيوفه.

-- إسراعه في خدمة ضيوفه وكأنه خادم أمام سيّده ((يا سيّدي، هل تشرّفني بقبول دعوتي؟ أرجوكم، لا تذهبوا دون زيارتي)).

-- وقوفه في تواضع إلى جانبهم وهم يأكلون.

أمّا قصة ضيوف النبي إبراهيم في النص القرآني فقد جاءت على النحو التالي:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (28)﴾ [الذاريات: 24-28].

والمقارنة البسيطة بين نص التوراة ونص القرآن تفيد اتّفاق النّصين على قصّة الضيافة، لكنّها في المقابل توقفنا على اختلافات بسيطة، «لشعائرها» الإبراهيميّة وعلى التفاصيل الدقيقة بينهما، تلك التي لا تمسّ في شيء من جوهر الموضوع المتمثل في أهميّة الضيافة في ثقافة أهل الشرق، باعتبارها واجبا اجتماعيّا مقدّسا

اقترن في النصوص الدينيّة بشخصيّة إبراهيم أوّلاً ثمّ بشخصيات دينيّة أخرى لعلّ من أهمّها شخصية لوط.

لوط(عليه السلام) بين واجب الضيافة وفضيلة الشّرف

نفهم من الرواية السابقة التي تضمّنها سفر التكوين (الفصل 18) أنّ الضيوف الثلاثة كانوا في الحقيقة ثلاثة ملائكة (أو مَلَكين مع الله)، وأنهم تجلّوا لإبراهيم في هيئة ثلاثة رجال، وأنّهم انقسموا بعد نهاية الضيافة إلى قسميْن: قسم أول مثّله كبيرهم الذي بقي مع النبي إبراهيم(عليه السلام)، وقسم ثان مثّله المَلكان اللذان ذهبا إلى مدينة سدوم حيث يعيش لوط مع قومه.

وعند وصولهما هرع لوط(عليه السلام) لاستقبالهما بطريقة تذكّرنا بتلك التي استقبل بها النبي إبراهيم ضيوفه، إذْ يستعيد لوط «الشعائر» ذاتها التي مارسها النبي إبراهيم مثل: الانحناء والتّواضع والإسراع في خدمة الضيوف وغيرها...

يقول النص:

((وعند المساء أقبل الملاكان على سَدوم. وكان لوطٌ(عليه السلام) جالسًا عند بوّابة المدينة، فما إن رآهما حتّى قام لاستقبالهما، وانحنى إلى الأرض احترامًا لهما. وقال: «يا سيِّدَيَّ، أرجو أن تنزلا ضيفين في بيت عبدكما، ففيه تغسلان أرجلكما وتقضيان الليلة، وفي الصباح الباكر تمضيان في طريقكما». فأجابا: «بل نبيتُ في الساحة». وألحّ لوط عليهما كثيرًا حتّى رافقاه ودخلا بيته، فطبخ لهما وليمةً وخبزا فطيرا فأكلا)) [سفر التكوين 19: 1–3].

ولا يحتاج الأمر ههنا إلى بيان نقاط الالتقاء بين تجربة لوط وتجربة عمّه إبراهيم من قبله في أمر الضيافة ومكانتها ومستلزماتها. إلاّ أنّ ما يستوقف النّاظر في تجربة لوط(عليه السلام) حقيقةً، هو ما جاء بعد ذلك في التوراة من عناصر جديدة يجدر التوقف عندها.

تقول التوراة:

﴿وقبل أن يناما جاء رجال سَدوم جميعًا، شُبّانًا وشيوخًا، وأحاطوا بالبيت من كلّ جهة، ونادوا لوطًا(عليه السلام): «يا لوط، أين الرّجلان اللّذان نزلا عندك الليلة؟ أخرجهما إلينا حتّى نعاشرهما». فخرج إليهم لوط(عليه السلام) وأغلق الباب وراءه وقال: «يا إخوتي، لا ترتكبوا هذا الإثم العظيم. إنّ لي صبيّتين، وإنّي لأبذلهما لكم فافعلوا بهما ما تشتهون، أمّا هذان الرجلان فلا تسيئوا إليهما لأنّهما ضيفان في حِمَى منزلي»﴾ [التكوين 19: 4-8].

نفهم من هذا النّص أنّ الضيافة في تجربة لوط ذات قيمة، تبلغ درجة من القداسة تفوق قيمة الشرف والعرض، ويدلّ على ذلك أنّ لوطا كان مستعدّا للتضحية بقيمة العرض في سبيل المحافظة على قيمة الضيافة وهنا يطرح السّؤال الذي لا مفرّ منه:

أيّ القيمتين أرفع وأوْلَى في ثقافة أهل الشرق: الضيافة أم الشرف؟

يبدو أن الجواب عن هذا السؤال لن يكون سهلاً، لأنه يتطلب معرفة واسعة بثقافات أهل الشرق القديم وتقاليده. ومن جهتنا سنحاول توسيع مجال البحث في هذه المسألة بالنّظر فيها من زاوية أخرى، وذلك من خلال نصّ ديني آخر له صلة بالثقافة الشرقية، وهو النصّ القرآني الذي وثّق أيضا تجربة لوط مع ضيفه.

جاء في سورة هود:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ (77) وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (78) قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾[هود: 77-79].

نلاحظ - بدءًا - أن الرواية القرآنية تتضمّن تقريبا العناصر نفسها التي تضمّنتها الرواية التوراتية وهو ما يجعلها كذلك في مواجهة ذلك السّؤال الذي طرحناه من قبل: أيّ القيمتيْن أوْلى في عرف الرجل الشرقي: الضيّافة أم الشرف؟

يبدو أنّ المفسّرين المسلمين قد وجدوا حلّا لهذا الإشكال مستندين كعادتهم إلى التأويل:

فلقد فسّر الزمخشري (1075–1144 م) ما جاء في النّص القرآني على لسان لوط «هؤلاء بناتي»

بكون لوط أراد أن يقي ضيوفه ببناته وفي ذلك غاية الكرم والتبجيل، وأراد بقوله ذاك أن «هؤلاء بناتي فتزوّجوهن».

واستدلّ به من ذهب إلى جواز تزويج المسلمات من الكفار في العهد النّبوي، ورأى الزمخشري أنه يجوز أن يكون لوط (عليه السلام) قد عرض بناته على قومه «مبالغة منه في تواضعه لهم وإظهاراً لشدة امتعاضه ممّا أوردوا عليه طمعا في أن يستحيوا منه ويرقّوا له إذا سمعوا ذلك فيتركوا ضيوفه».

- أمّا ابن كثير (1300–1372 م) فيذهب إلى تأويل كلمة «بناتي» بـ «نسائكم»، ويصبح – تبعا لذلك – قول لوط يعني أنّ لوطا يرشد قومه إلى نسائهم. ويستدلّ ابن كثير على صحّة هذا التأويل بدليليّن قرآنيين:
- الأوّل: ما جاء على لسان لوط في سورة الشعراء حين توجّه إلى قومه قائلا: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166)﴾[الآية 165 والآية 166].
- الثاني ما جاء في سورة الأحزاب حيث يقدّم النبي باعتباره أباً لأمّته وقومه، فتكون نساؤهم بمثابة بنات له: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الآية 6].

وحاصل ذلك أن المفسّرين المسلمين ذهبوا إلى أنّ لُوطاً عرض على قومه النّساء (من بناته أو بناتهم) عرض نكاح لا عرض سفاح، وبذلك لم يكن حلّ الإشكال

الذي طرحته النّصوص الدّينيّة قائماً عندهم على أساس المفاضلة بين قيمتيْ الشرف والضيَافة، بل كان الحلّ بالمحافظة على الفضيلتَيْن معاً باعتبارهما قانونيْن مقدّسيْن لدى أهل الشرق.

ولا نحسب أنّ هذا الحلّ يتناسب مع ما جاء في نصّ التوراة، وذلك لصعوبة تأويله على نحو تأويل القرآن كما ورد أعلاه. من ذلك أنّ الصيغة التي استعملها لوط في نص التوراة عندما عرض بناته هي صيغة يعسر إخراجها عن معناها الظاهر، ومن ذلك قول لوط: ((إنّ لي صبيّتين، وإنّي لأبذلهما لكم فافعلوا بهما ما تشتهون)) [التكوين 19: 8].

ويفيد النص أن لوطا يتحدّث عن بنتيْن (صبيّتيْن) لم يمسسهما رجل من قبل، وأنّه ينسبهما إليه تحديداً ((لي صبيّتين))، وإنهما كانتا في داخل بيته حين كان يخاطب قومه، وغير ذلك من التحديدات التي لا تترك مجالاً للتأويل.

وفي هذه الحال، لا مناص إذن من الاحتفاظ بالمعنى الظاهر لنص التوراة مع ما يترتّب على ذلك من نتائج خطيرة تتّصل بموقف لوط الحائر بين واجب الضيافة وفضيلة الشرف في بيئة شرقية من جهة، وتتّصل أيضا بالحلّ الذي انتهى إليه من خلال الحسم في الأمر بالتضحية بقانون الفضيلة لفائدة الواجب الاجتماعي المقدّس (الضيافة).

إنّ هذا الموقف لا يُفهم حسب رأينا إلّا في إطار التّصورات الدينيّة اليهوديّة وملابسات التاريخ اليهودي كما جاءت في الكتاب المقدّس، إذ تتبوّأ الضيافة في هذا الكتاب مقاما دينيّا مرموقا، عُدَّتْ - بمقتضاه - من الأحكام الدينيّة، واعتبرها قاموس الكتاب المقدّس «فضيلة من فضائل الديانة» التي أمر بها الله.

وتعود الأهميّة الدينيّة للضيافة في التوراة إلى تاريخ الشعب اليهودي، فصورة الضّيف الباحث عن مأوى وملجإ وحماية تذكّر شعب بني يعقوب بوضعيّات تاريخيّة سابقة كان فيها هذا الشعب غريباً بين الأمم ومستعبدا فيها.

وجاء في سفر اللاويين من التوراة قول الله: ((إِذَا أَقَامَ عِندَكُمْ غَرِيبٌ فِي بِلادِكُمْ، فَلا تَظْلِمُوهُ. بَل يَجِبُ أَن تُعَامِلُوا الْغَرِيبَ الْمُقِيمَ عِندَكُم كَمُوَاطِنٍ، وَتُحِبَّهُ كَنَفسِكَ، لأَنَّكُمْ كُنتُم غُرَبَاءَ فِي مِصرَ. أَنَا اللهُ رَبُّكُم)) [اللاويين 19: 33-34].

ولذلك كان من الواجبات الدينيّة في الأحكام اليهودية أن يُستَقبَل الضّيف بكل تبجيل واحترام، وأن يُبذل في سبيل حمايته كلُ جهد، وأن تُقدَّم من أجل سلامته كلّ تضحية مهما عظمت. ولتأكيد «أحكام الضيافة» في الدّيانة اليهودية عمد من سجلوا الأسفار المقدّسة إلى تعضيدها بقصص ومواقف من سيرة الآباء والأنبياء والصالحين، وهي قصص ومواقف تبرز الضيافة باعتبارها واجباً اجتماعياً وفضيلة دينيّة لا يجوز التهاون في شأنها.

ولعلّ الأولوية التي كانت للضيافة على حساب الشّرف في نص التوراة الذي تناولناه سابقا، تدخل في سياق بيان هذا المعنى. ويدلّ على ذلك ما وقفنا عليه في تجربة لوط السابقة، وفي روايات أخرى تضمّنها الكتاب المقدّس مثل قصة الشّيخ الصالح الذي ضيّف رجلاً لاويّا، ولمّا بلغ ذلك مسامع البنْياميّين أحاطوا ببيت الشيخ طالبين منه إخراج الضيف، فرفض ذلك قائلاً لهم: ((لا يا إِخوَتِي. لاَ تَرتَكِبُوا هَذَا الْعَمَلَ الْمُشِينَ، فَالرَّجُلُ ضَيفِي وَقَد دَخَلَ بَيتِي. هاهي ابنَتِي الْعَذرَاءُ وَمَحظِيَّتُهُ، فَدَعُونِي أُخرِجُهُما لَكُم فَتَمَتَّعُوا بِهِمَا وَافعَلُوا مَا يَحلُو لَكُم، وَلَكِن لاَ تَرتَكِبوا هَذَا الْعَمَلَ الْقَبِيحَ بِهَذَا الرَّجُلِ)) [سفر القضاة 19: 23-24].

وما أشبه جواب هذا الرّجل الشيخ بجواب لوط(عليه السلام) الذي سبق أن توقفنا عنده في سفر التكوين (19: 8)، إذ يؤكد مثل سابقه حكم الضيافة في اليهوديّة.

وقد شهد هذا الحكم في المسيحية تطوّراً آخر إذ جعل السيد المسيح الضيافة شهادة على حسن الإيمان، واعتبر حضور الضّيف بمثابة حضور المسيح نفسه (متّى 25: 34-40). ذلك هو حكم الضيافة في الكتاب المقدّس وذلك هو السياق الذي تُفهم في إطاره المقابلة بين الضيافة والشّرف. وإذا ثبت من خلال نصوص التّوراة والأعراف الشرقية أنّ الضّيافة قيمة دينيّة فضلاً عن كونها قيمة اجتماعية، فإنّه لا يعرف

على وجه التحقيق ما إذا كان الأمر كذلك بالنّسبة إلى قيمة الشّرف والعرض، هذا على الأقل ما يُوحي به ظاهر نصوص التوراة وغيرها من كتب الأوّلين، وهو ما يذهب إليه أيضا بعض الباحثين العرب المعاصرين مثل هشام جعيط الذي يقول: «إننا لا نعرف أبداً فيما إذا كانت قيم العرض والشّرف الخاصّة بالمرأة ناتجة عن الإسلام أو عن العروبة البدويّة القديمة أو عن تلاقي كلتا الأخلاقيتيْن، فإذا كان العرب قبل الإسلام وبعده حريصين جدّاً على هذه النّقطة فإننا نعلم أنّ القريشيين لم يقبلوا في البداية بمنع الزنى مثلا».

أمّا طيّب تيزيني فإنّه يذهب إلى تغيّر مدلول العرض لدى العرب، فهو تارة يكتسب مدلولاً أخلاقياً أو اجتماعيا على المرء أن يصونه ويدافع عنه بكلّ الأسلحة، وتارة أخرى يكتسب العرض (مُمَثّلا في المرأة) مدلولا إخْصابِيّاً وفق الذهنية الأسطوريّة عند العرب، فلقد كانت هذه الذهنية تجيز «التضحية بالبنات» سواء بتقديمهن هباتٍ للآلهة أو لسيّد القبيلة أو قرابين للآلهة. فهل تكون هذه الذّهنيّة الشّرقيّة الأسطورية التي أجازت التضحية بالبنات هي التي يُفهم في إطارها جواز التّضحية بعرضهّن حفاظاً على قداسة الضيّافة؟

ومهما يكن من أمر فإن دراسة سفر التّكوين تسمح بإثارة هذه القضيّة من جهة، وبالوقوف على النتّائج التالية:

-- أهمّية نص التوراة باعتباره مصدراً هاماً من مصادر ثقافة الشّرق القديم، لِمَا تضمّنه هذا النّص من عَرض للعادات والتقاليد والتصّورات الدينيّة والاجتماعيّة التي تعكس إلى حدّ كبير الذهنية الشرقية آنذاك.

-- أهمية الدور الذي أدّته الشخصيات الدينيّة الكبيرة (مثل إبراهيم ولوط) ثمّ الأسباط والقبائل العبرانيّة بعد ذلك في استلهام التراث الثقافي لمنطقة الشرق ثمّ تخزينه ونشره بحكم حركة الارتحال والهجرة بين المراكز الحضاريّة القديمة الأكثر تمثّلاً لثقافة الشّرق (مثل مصر والشام وكنعان وآشور وبابل...).

وقد أطلق بعض الباحثين على هذا الدوّر مصطلح «الحمل الثقافي» أو «الحمل التاريخي».

-- قيمة الدّلالة الثقافية لشخصيّة النبي إبراهيم في منطقة الشّرق، إذ تَبَيَّنَ أنّ البحث في سيرة إبراهيم هو – في معنى من المعاني- بحث في تراث أهل الشرق وثقافتهم. وأغلب الظّن أنّ ذلك يعود إلى السّلطة المرجعيّة التي تمثّلها شخصيّة النبي إبراهيم في أديان الشرق وثقافته وفي مخيال أهل الشرق ووجدانهم.

-- متَانة العلاقة القائمة بين الأديان الإبراهيمية الثلاثة وثقافة أهل الشرق. ويتصوّر الغرب أنّ هذه الثقافة هي مصدر البدع والخرافات، والحال أنّها الأصل في ثقافة الغرب والمهد الذي حَضَن المسيحيّة قبل أنْ تتغرّب.

العادات الشرقية واليهودية القديمة

حدثت قصص الأنبياء الأقدمين في عالم يختلف كثيرا عن عالمنا المعاصر. فالأنبياء كانوا ينطقون لغة تختلف عن لغتنا وهي اللغة العبرية وأحيانا الآرامية. وعاشوا آلاف السنين قبل زماننا فلا يجب علينا أن نتفاجأ عندما نشعر أن عاداتهم غريبة أو صعبة الإدراك. وفي هذا المقال سنشرح أهمية بعض هذه العادات والتقاليد.

تمزيق الثياب

مزّق الناس ثيابهم ليعبروا بطريقة قويّة عن حزنهم. فالنّبي أيّوب عليه السلام مزّق ثوبه عندما بلغه الخبر بأنّ أولاده العشرة لقوا حتفهم بعد أن سقط عليهم البيت إثر عاصفة (سفر النبي أيوب 11: 18– 20). ومزّق النبي يعقوب ثوبه عندما جاءه أبناؤه بقميص ابنه يوسف الملطّخ بدم كاذب (سفر التكوين 37: 33– 34).

وجاء في الكتاب المقدّس ذكر لبعض الأحداث فيها مزّق النّاس ثيابهم غضبا واحتجاجا على الكفر، إذ مزّق الحواريّان بولس وبرنابا ثيابهما عندما كانا يتنقلان في البلاد الوثنية للدّعوة حين اعتبرهما النّاس إلهين وحاولوا أن يعبدوهما بعد إجراء معجزة الشفاء على أيديهما. وكان تمزيق ثيابهما بمثابة رفض قاطع لهذا العمل الشنيع (انظر سيرة الحواريين 14: 8– 18).

وكشف النبي يوئيل مقصد الله من هذه العادة حين قال: ((يا أيّها النّاسُ مَزِّقوا قُلوبَكُم لا ثِيابَكُم، عُودُوا إِلَى اللهِ رَبِّكُم لأَنَّهُ حَنونٌ رَحيمٌ حَليمٌ ومُحِبٌّ جِدًّا، وهو كَثيرُ الرَّأفةِ فَلا يُريدُ أن يُرسِلَ عَلَيكُم العِقابَ)) [كتاب النبي يوئيل 2: 13].

ارتداء الخيش والجلوس على الرّماد

جاء في قصّة النبي يونس ما يلي: ((وعِندَما بَلَغَت رِسالةُ النّبيّ يُونِس مَلِكَ نِينَوى، قامَ عَن عَرشِهِ وخَلَعَ عَنهُ حُلّتَهُ المَلِكيّةَ ولَبِسَ بدلها خيشًا وجَلَسَ على الرّمادِ)) [كتاب النبي يونس 3: 6–7]. وكان الناس يمارسون عادة نزع ملابسهم المريحة وارتداء الخيش بدلها لكي يثبِتوا إذلال أنفسهم، وكثيرا ما رشّوا الرّماد على أجسادهم أو جلسوا على الرّماد من شدّة الندم أو توبة إلى الله .

غسل القدمين

تنقّل النّاس قديما من مكان إلى آخر حفاة في أغلب الأوقات، وفي بعض الأحيان كانوا يرتدون النعال. وكانت الطرقات في ذلك العصر كثيرة الغبار، لذلك كان النّاس في حاجة إلى غسل أقدامهم قبل الدّخول إلى المنازل. وسادت العادة أن يقدّم المضيف لضيفه ماء حتى يغسل به قدميه قبل أن يدخل الدّار، وفي بعض الأحيان يُكلَّف خادمٌ أو أحد أهل البيت ليقوم بغسل قدمي الضيف.

وورد في التوراة كيف رحّب النبي إبراهيم عليه السلام بزوّاره الثلاثة وكانوا ملائكة على هيئة بشر. وقدّم النبي إبراهيم لضيوفه ماء ليغسلوا أقدامهم قبل أن يناولهم العشاء (انظر سفر التكوين 18: 4–5).

وعلى المنوال ذاته غسل السيد المسيح أقدام حوارييه أثناء عشائه الأخير معهم قبل أن يضحّي بحياته. لكنّ الحواري بطرس صُدم بهذا الفعل ووبّخ سيّدنا المسيح. فهذا العمل كان عادة ما يقوم به أدنى الخدام درجة، وشعر الحواري بطرس أنّ سيّدنا عيسى أرفع من أن يقوم بهذه المهمّة، إلاّ أن السيّد المسيح أخبرهم جميعا:

((هَل أدرَكتُم ما فَعَلتُ بكُم؟! إنَّكُم لَتَدعونَني بالمُعَلِّمِ السَّيِّدِ، وإنَّكُم لعَلى حقٍّ في هذا، لأنَّني سَيِّدُكم ومَولاكُم ومُعَلِّمُكم. ولئن كُنتُ، وأنا السَّيِّدُ المُعَلِّمُ، قد غَسَلتُ أرجُلَكُم، فعليكُم أنتُم أيضًا أن تَقوموا بذلِكَ فيما بَينكم، وإنّما فَعَلتُ ما فَعَلتُ لأكونَ لكُم قُدوةً تَقتَدونَ بها فتَقومونَ بخِدمةِ بَعضِكُم. والحَقَّ الحَقَّ أقولُ لكُم: لا عَبدَ أعظَمُ مِن سَيِّدِهِ، ولا رَسولَ أعظَمُ مِن مُرسِلِهِ. فإن أدرَكتُم تِلكَ الحَقيقةَ وعَمِلتُم بها، فهَنيئًا لكُم)). [الإنجيل، يوحنا 13: 12-17].

المسح بالزّيت

يمسح بالزيت قديمًا لثلاثة أهداف رئيسيّة :

أوّلا: لتقديم الرّاحة لشخص ما أو مداواته.

ثانيا: لتكريم شخصٍ، وكثيرا ما مسح النّاس ضيوفهم فرحًا بهم .

ثالثا: يُعتبر المسح بالزيت وسيلة تجعل شخصا معيّنا منذورا لله. فاليهود كانوا يمسحون بالزيت على رأس الملك أو الحبر أو النبي عند تنصيبه، ولذلك كان النّاس يسمّون ذلك الشخص «مسيحا» أي «ممسوحا» ومعناه المختار. والله عزّ وجلّ سمّى سيّدنا عيسى بالمسيح لأنّه اصطفاه وعيّنه ليكون الملك المرتجى من نسل داود، أي الحَكَم العادل المختار فيستوي على عرشه باعتباره النبي الموعود به الذي يفدي بنفسه الآخرين وهو سيّد كلّ البشر.

تقديم الأضاحي والقرابين

اتّبع بنو اسرائيل العادة المنتشرة بين شعوب الشرق الأدنى القديم حيث قدّموا أضاحي وقرابين أثناء عباداتهم. وتورد التوراة (سفر اللاّويين) عددا من النّصوص وفيها قوانين مفصّلة تتعلّق بكيفيّة تقديم الأضاحي والقرابين.

وقدّم النّاس قرابين من الحبوب والمشروبات إلاّ أنّ الأضاحي كانت أهمّ شأنا عندهم. وتصنّف الأضاحي إلى ثلاثة أنواع :

أوّلا: ذبح القربان وإحراقه كاملًا إكرامًا لله .

ثانيا: إحراق جزء من الأضاحي التي تقدّم لله تكفيرا عن الذنوب وإعطاء الجزء الآخر للحبر حتّى يأكله مع غيره من رجال الدين.

ثالثا: إحراق جزء من أضحية التصالح والتّقارب فيما بينهم (وتدعى أحيانا قرابين السّلام) وتقديمها لله، أمّا الجزء الثّاني من الذبيحة فيقع طبخه وتناوله خلال عشاء بهيج بمعيّة غيرهم من المؤمنين في الحرم الشّريف لبيت الله.

وسادت عادة حرق الأضاحي كقربان للآلهة بين الشّعوب الوثنيّة في الشرق الأدنى القديم، وجاء ذكر هذه العادة في النصوص الأوغاريتية والحثيّة والأكاديّة كعبادة قام بها الوثنيّون. فلماذا يتمّ إحراق هذه الذّبائح بأكملها؟ يعتبر الباحثون أنّ العبّاد الوثنيين قدّموا جزءا من الأضحية في البداية، وعبر مجرى التاريخ قدّم الناس لآلهتهم من الذبيحة بشكل تصاعدي إلى أن أصبحت كامل الذّبيحة تُوهب لآلهتهم وتُحرق لها ولم يعد للعابد فيها نصيب. وبما أنّ عادة تقديم الأضاحي انتشرت بين شعوب الشرق الأوسط، فقد سمح الله لعباده المخلصين أن يستمرّوا في ممارسة هذه العادة شرط أن يقدّوا الأضاحي له وحده دون الأصنام والأوثان. وفي قصّة النبي موسى نستطيع أن نرى كيف تقرّب المؤمنون إلى الله بتقديم الأضاحي وإحراقها بأكملها.

وأدرك الأنبياء الذين جاؤوا بعد نزول الشريعة على النبي موسى(عليه السلام) أنّ الله أصدر أحكاما تتعلّق بالأضاحي والقرابين وأنّ مقاصد الله من هذه الشرائع أسمى ممّا أدركه الناس في زمن النبي موسى. وأعلن النبي هوشع وحي الله على لسانه: ((إنّ التَّراحُمَ بَينَ النّاسِ أفضَلُ عِندي مِن تَقديمِ الأضاحي)) [كتاب النبي هوشع 6: 6].

وعلّم السيّد المسيح وحواريّوه الوحي الّذي أتى به النبي هوشع وغيره من الأنبياء بخصوص هذا المبدإ لأنّهم اعتبروا نظام الأضاحي الكهنوتي وسيلة مؤقّتة. لذا ورد في الإنجيل: ((إنَّ شَرعَ النَّبيِّ موسى لَيسَ إلاّ ظِلَّ البَرَكاتِ المُنتَظَرةِ وصُورةً لها، لا الحَقيقَةَ ذاتَها. لذلِكَ لَم تَستَطِعْ أضاحي الأَحبارِ الّتي يُقَدِّمونَها بِاستِمرارٍ حَولاً بَعدِ حَولٍ كَما نَصَّت على ذلِكَ شَريعةُ بَني يَعقوبَ أن تَجعَلَ النّاسَ مِن الواصِلينَ الأَطهارِ)) [رسالة العبرانيين 10: 1].

وجاء أيضا في السّياق نفسه: ((فأوقَفَ اللهُ تَقديمَ الذَّبائحِ الحَيوانيّةِ حَسَبَ النِّظامِ القَديمِ، ليُقيمَ النِّظامَ الجَديدَ على أَساسِ تَضحيتِهِ عليه السلام. وأتَمَّ اللهُ مَقصِدَهُ بِتَضحيةِ سَيِّدِنا المَسيحِ بحَياتِهِ فِديةً مَرّةً واحِدةً، فأصبَحنا لِلهِ مِنَ المَنذورينَ)) [رسالة العبرانيين 10: 9-10].

الختان

انتشر تقليد ختان الذكور في منطقة البحر الأبيض المتوسّط وفي الشرق الأدنى ابتداء من 3000 سنة قبل الميلاد أو ربما قبل ذلك. ولكن اختلفت تفاصيل هذا التقليد بين الشعوب، إذ أجرى المصريّون الختان منذ القديم شأن الشعوب السّامية غرب آسيا مثل بني اسرائيل وشعب عامون وشعب مؤاب وشعب أدوم الذين مكثوا جميعا في منطقة الضفّة الشرقيّة لنهر الأردن، غير أنّ بعض الشعوب السّامية في بلاد الشرق لم يتّبعوا هذه العادة، مثل الأشوريين والبابليين والأكاديين ولا حتّى وثنيي بلاد فلسطيا وشعوب بلاد اليونان التي انحدر منها أهل فلسطيا. أمّا بالنسبة إلى الشعوب التي أجرت الختان فاعتبرته بمثابة طقوس المرور الذي تجعل من المختون رجلا راشدا في المجتمع.

وجاء ذكر الختان في التوراة للمرّة الأولى في سياق إقامة ميثاق الله مع النبي إبراهيم، إذ أمر الله النبي إبراهيم وكلّ الذكور من أهل بيته أن يختتنوا كعلامة للميثاق (انظر سفر التكوين 17: 10-11). وقد ارتحل النبي إبراهيم قبل ذلك الحدث من بلاد الرّافدين حيث لم يمارس شعبه الختان، غير أنّ النبي إبراهيم لم يستغرب من أمر الله بختانه بعد انتقاله إلى كنعان (أي فلسطين) حيث انتشرت هذه العادة.

ومن الجدير بالذكر أنّ الله أوصى النبي إبراهيم وذرّيته أن يختنوا أولادهم خلافا للعادة بين المصريّين. واختلفت هذه العادة عند بني يعقوب في تفاصيلها عن الشعوب الأخرى تطبيقا لما أمرهم به الله.

وكتب الحواري بولس أنّ الختان عادة ظاهريّة ينبغي أن تعكس حقيقة روحانية باطنية، فقال: ((فالاِنتِماءُ إلى أُمَّةِ اللهِ لا يَتِمُّ حَسَبَ ظاهِرِ الشّخصِ ولا لأنّهُ يَهوديٌّ أو خُتِنَ خِتَانًا جَسَدِيًّا، بَل يَنتَمي إلى أُمَّةِ اللهِ مَن أخلَصَ قلبُهُ للهِ. ولَيسَ ما تَفرِضُهُ التّقاليدُ عن الختان ختانا حَقيقيًّا، كَلاّ! بَلِ الخِتانُ أن يَتَطَهَّرَ قَلبُ الإنسانِ بِرُوحِ اللهِ طَهارَةً رُوحِيَّةً. ومَن كانَ طاهِرًا طُهرًا رَبّانيًّا، فقد يَغفَلُ عَنهُ النّاسُ ولكنّهُ عِندَ اللهِ يَكونُ مَرضيًّا)) [رسالة روما 2: 28-29].

أسماء اللّه في كتاب التكوين في التوراة

بقلم الدكتور رياض قسيس

قال السيد المسيح عليه السلام: ((يا اللهُ، أَيُّها الأبُ الرَّحمنُ، تَمَجَّدَ اسمُكَ في عُلاك!» فجاءَهُ صَوتٌ مِنَ السَّماءِ يُدَوِّي: قد مَجَّدتُهُ فيما مَضى، وسأمَجِّدُهُ فيما سيأتي)) [الإنجيل، يوحنّا 12: 28].

وجاء في القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

إن معرفة أسماء الله والدعاء بها تقودنا إلى معرفة وثيقة بذاته تعالى، وبالتالي تساعدنا على النمو في الإيمان. انطلاقا من هذا الأمر جاءت هذه الدراسة التي تهدف للتعرف إلى أسماء الله المستعملة في الكتاب الأوّل من التوراة الشريفة، أي كتاب التكوين، ومقارنتها مع أسماء الله الحسنى المعروفة عند المسلمين.

أهمية «الاسم» في الكتابات القديمة

ليس الاسم مجرّد مجموعة من الأحرف يتمّ تركيبها لتطلق بشكل عشوائي على شخص ما أو شيء ما، وإنّما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بذلك الشخص أو الشيء. وبهذا الارتباط يهدف الاسم إلى تحقيق نوع من التمايز بين الأشخاص أو الأشياء. ويظهر هذا المفهوم للاسم في الكتابات القديمة كما في الملحمة البابلية «إينوما إليش»

حيث تزامن إطلاق الاسم مع ترتيب خلق الكون. ونقرأ في التوراة عن قصّة الخلق: ((وقَدَّمَ اللهُ أمامَ آدَمَ كُلَّ الحَيواناتِ والطُّيُورِ الّتي خُلِقتْ مِن تُرابٍ مِثلَهُ، حَتّى يَختار لَها أسماء)) [التكوين 2: 19].

ويتماثل ما جاء في هذا النص مع ما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31)﴾ [البقرة: 30، 31].

وعندما أحضر الله حواء إلى آدم، أطلق عليها اسماً وأنشد قائلا: ((هذِهِ عَظمٌ مِن عِظامي ولَحمٌ مِن لَحمي. هذِهِ اسمُها مُنذُ الآن امرأةٌ، لأنّها مِن امْرِئٍ أُخِذتْ)). وجاء أيضا: ((وسَمَّى آدَمُ زَوجَتَهُ حَوَّاءَ لأَنَّها أُمُّ كُلِّ حَيّ مِن البَشَرِ)) [التكوين 2: 23 و 3: 20]. اعتقد القدامى أنّ الشخص الذي يعرف اسم شخص آخر أو يطلق عليه اسما يحصل بذلك على قدر من السلطة على ذلك الشخص. فالله تعالى يعطي الكواكب أسماء لأنه خالقها (كتاب الزبور، مزمور 147: 4، انظر أيضا سفر التكوين 32: 29-30، وكتاب النبي أشعيا 43: 1). وفي الشرق الأدنى القديم كانت معرفة اسم أحد الآلهة تفيد أن العابد له الحق في استخدام قوة ذلك الإله. وفي كثير من الديانات يتمّ تكرار اسم أحد الآلهة بهدف استدعائه للحضور حتّى يلبّي رغبة الداعي. وقد حرّمت التوراة الشريفة في الوصايا العشر مثل هذا الاستعمال «السحري» لاسم الله (الخروج 20: 7).

من ناحية أخرى، كان الاسم في الشرق الأدنى القديم يشير إلى هوية الشخص ويكشف شخصيته. وفي قراءتنا للتوراة نلاحظ ارتباط معنى الاسم بالشخص الذي يطلق عليه ذاك الاسم. فاسم إسحق يتضمن معنى الضحك، وهو الأمر الذي فعلته سارة عندما أعلمها الملاك بأنها ستحبل بابن (التكوين 17: 17 و19؛ و18: 12)، واسم يعقوب يعني المتعقب، لأنّه تعقّب شقيقه العيص (التكوين 27: 36) إلى آخره... وما نزال في الوقت الحاضر نطلق الأسماء على أولادنا وبناتنا تيّمنًا بالرجال العظام

والنساء الفاضلات والأنبياء الكرام، راجين أن تكون حياة أولادنا مليئة بالصفات الحميدة التي كانت تميّز تلك الشخصيات. ومن الصعب جدا أن نتخيّل عالما لا وجود فيه لأسماء الأشياء أو الأشخاص. وإذا أطلقت على الأشياء والأشخاص أسماء فمن الطبيعي أيضا أن يكون لله تعالى أسماء تعكس صفاته الربانية وتميّزه عن مخلوقاته.

ما هي أسماء الله في التوراة؟

جاء في كتاب معجم أسماء الله الحسنى لمؤلفه سيد أحمد محسب مرسي: «لقد انفرد القرآن دون التوراة ودون الإنجيل بتنزيل أسماء الله وصفاته لنتبيّن مسألة الكشف عن الذات الإلهية والذات الربانية...»[1] ويميز المؤلف في كتابه بين ثلاثة أنواع من الأسماء الحسنى لله تعالى: الأسماء الثنائية مثل السميع البصير؛ الأسماء الفردية مثل المهيمن؛ الأسماء الرمزية مثل «أ.ل.م.». إن الأسماء الرمزية غير موجودة في التوراة، أمّا الأسماء الفردية فهي متوافرة فيه. أمّا بالنسبة إلى الأسماء الثنائية ففي التوراة ما يعرف بالأسماء المركبة.

إيل:

يعتبر اسم «إيل» من أقدم الأسماء التي تشير إلى الألوهية بشكل عام، وقد ورد هذا الاسم مرارا عديدة في النصوص القديمة للشعوب السامية. ويشير الدارسون إلى أنه في النصوص الأوغاريتية التي تمّ اكتشافها في رأس شمرا (شمال سوريا). ويطلق هذا الاسم على الخالق أو على الإله الأعظم بين الآلهة الأخرى. أمّا في التوراة فقد ورد هذا الاسم عندما بنى النبي يعقوب مذبحا لحرق الأضاحي وتقديمها ودعاه مقام «إيل» إله إسرائيل (التكوين 33: 20). وبسبب الصفة العمومية في الإشارة إلى الألوهية في اسم «إيل»، يتمّ في التوراة إضافة صفة أو كلمة أخرى إلى الاسم كما في حادثة إنقاذ الله لهاجر وإسماعيل، ﴿فنادَت هاجرُ اللهَ الّذي أوحى إليها: «أنتَ

(1) (بيروت: المكتبة الثقافية، 1993، ص 5)

البَصيرُ» [أنتَ إيل رئي]. لأنّها قالَت: «في هذا المَكانِ أَبصَرتُ تجليّاتِ اللهِ البَصيرِ»)) [التكوين 16: 13]، أو في حادثة تجلّي الله للنبي يعقوب وكشفه تعالى عن ذاته: ((أنا اللهُ [إيل] وقد تَجَلّيتُ لَكَ في بَيت إيل)) [التكوين 31: 13]. (انظر أيضا في التوراة، التكوين 35: 7 والتثنية 5: 9).

إلوهيم:

تستهل التوراة بالقول: ((في البَدءِ خَلَقَ اللهُ [إلوهيم] السَّماواتِ والأرضَ)) [التكوين 1: 1]. لغويًا ترتبط كلمة «إلوهيم» بكلمة «إيل» وانتهاؤها بـ«يم» التي تفيد صيغة الجمع، وتُطلق في بعض الأحيان للتشريف والتعظيم. وتختلف ترجمتها في التوراة العربية بما يتوافق مع السياق والقرينة. ونعرض على القارئ الكريم بعض الأمثلة:

أ – صيغة الجمع الحقيقي (إلوهيم بمعنى آلهة): ((آلِهَة [إلوهيم] المِصرِيّينَ)) [الخروج 12: 12]؛ ((الآنَ عَلِمتُ أنَّ اللهَ أعظَمُ مِنْ جَميعِ الآلَهَةِ [إلوهيم])) [الخروج 18: 11]؛ ((اسجُدُوا للهِ يا جَميعَ الآلِهَةِ [إلوهيم])) [كتاب الزبور، مزمور 97: 7].

ب – صيغة المفرد (إلوهيم بمعنى الله الواحد الأحد): يشكّل الإيمان بوحدانية الله الدافع الرئيسي لترجمة كلمة «إلوهيم» بـ «الله». وهذا ما نجده في آيات عديدة من التوراة. وهذا الاسم «إلوهيم» أصبح في التوراة مرادفا إلى حد ما لاسم «يهوه»، الأمر الذي نلاحظه بوضوح بالغ في كتاب الزبور (المزامير). وإذ يرد اسم «يهوه» مئات المرات في هذا الكتاب نجد اسم «إلوهيم» مرادفا لاسم «يهوه» في كثير من المزامير وخاصّة فيما يعرف بـ «المزامير الإلوهيمية» (من مزمور 42 إلى مزمور 83).

يهوه:

يختلف الباحثون في تحديد مصدر اسم «يهوه»، فمنهم من يعتقد أنه مشتق من جذر عربي يفيد معنى الهواء، وأن إله العاصفة كان قد عُرف بهذا الاسم. ويعتقد البعض الآخر أنه اختصار لاسم «يائو» الذي كان سائدا في بابل القديمة. ويعتقد

آخرون أن اسم «يهوه» مشتق من الجذر العبري «هـ ي ي» أو «هـ و ي» أو «هـ ي هـ» أي «كان، يكون» ومن الممكن ترجمته بـ «الكائن» أو «الواجب الوجود» أو «القيوم». وعلى الرغم من أهمية معرفة معنى الاسم لغويا، فلا بد من معرفة ماذا أراد الله تعالى أن يعلن للبشرية من جراء إعلانه عن هذا الاسم وأيضا ماذا عنى هذا الاسم للأشخاص الذين عرفوه واستعملوه.

يعتبر اسم «يهوه» اسما خاصّا لله تعالى، وهو أمر يتجلّى بكلّ وضوح في التوراة: ((وبَنى النَّبِيُّ إبراهيمُ مَذبَحًا آخَرَ لحرق القرابين إكرامًا للهِ [يهوه] وفي جِوارِهِ تعبّد وكان من الساجدين)) [التكوين 12: 8، انظر أيضا 13: 4 و 26: 25]. ويعلن الله عن اسمه للنبي موسى(عليه السلام): ((وأوحَى اللهُ إلى النَّبِيِّ مُوسَى أن يُخبِرَ بَني يَعقوبَ: «إنّ اللهَ [يهوه] رَبَّ آبائِكُم الأَوَّلينَ، رَبَّ إبراهيمَ وإسحَقَ ويَعقوبَ، أجل إنّ الله هو الذي أرسلني إليكم». قالَ اللهُ تَعالى: «هذا هو اسمي إلى الأبَدِ، بهذا الاسم ارفعوا ذكري جِيلاً بَعدَ جِيلٍ)) [التوراة، سفر الخروج 3: 15].

إن الإشارة إلى مفهوم الكينونة في اسم «يهوه» لا ينبغي أن تُفهم كإشارة إلى كائن جامد بل يجب فهمها على أنّها تدلّ على الله الحيّ الذي يتدخّل في تاريخ الشعوب وخاصّة في تاريخ عباده المخلصين. فما فعله الله تعالى في الماضي يستطيع أن يفعله في الحاضر وما يفعله في الحاضر يستطيع أن يقوم به في المستقبل. إن هذا التصوّر لأعمال الله تعالى ينبغي أن يمنحنا الثقة في حياتنا بينما نواجه متغيرات الحياة ومتاعبها.

لقد أدرك العبرانيون منذ القديم قداسة اسم «يهوه» فامتنعوا عن استعماله في أحاديثهم العادية، وتجنّبوا النطق به عند تلاوة نصوص التوراة وغيرها من كتب الأنبياء الأولين. وكان القارئ لهذه النصوص يستعيض عنه بكلمة «أدوناي» ومعناها «مولاي» أو «ربّي»، ويستعمل في بعض الأحيان الكلمة العبرية «هاشيم» ومعناها «الاسم» وما زال هذا التقليد جاريا في الأوساط اليهودية إلى يومنا هذا.

تؤكد التوراة على وحدانية يهوه: ((اللهُ [يهوه] هُوَ الواحِدُ الأحَدُ، فأحبّوا اللهَ رَبَّكُم بِكُلِّ قُلوبِكُم وأنفُسِكُم وقُدراتِكُم)) [التوراة، التثنية 6: 4-5]. إنّ يهوه الواحد الأحد لا يقبل وجود آلهة أخرى سواه: ((لا تَتَّخِذوا مِن دُوني أربابًا لها تَخضَعونَ. ولا تَصنَعوا صَنَمًا يُشبِهُ أحَدَ الكائِنات، في المِياهِ أو في الأرضِ أو في السَّماواتِ)) [الخروج 20: 3-4]. ويوصي يهوه القوم بأن يهدموا جميع أماكن العبادة الوثنية وأن يمحوا كلّ أسماء الآلهة (التثنية 12: 1-3) فالله لا يقبل من عباده أن يعبدوا آلهة أخرى ولا ترديد أسمائها مع اسمه تبارك وتعالى. فاسمه وحده تعالى يستحقّ كلّ الكرامة والإجلال والتعظيم. ويضع القائد يشوع بن نون، خلف النبي موسى(عليه السلام) تحدياً أمام القوم قائلا: ((فَاختَارُوا لَكُمُ اليَومَ مَن تَعبُدُونَ... أَمَّا أَنَا وأهلُ بَيتي فنَعبُدُ اللهَ)) [كتاب يوشع 24: 15، ومن المستحسن قراءة كامل الفصل الرابع والعشرين]. هنا لا بد من الإشارة إلى أن القرآن الكريم يذكر الله «الواحد» أكثر من عشرين مرة، ولكن لا يرد هذا الاسم الخاصّ، يهوه، لله في القرآن الكريم.

العليّ العظيم:

يرد اسم «إيليون»(يعني «العليّ العظيم») أربع مرات في المقطع الذي يصف لقاء الملك صادق (أو ملكيصادق) ملك شاليم بأبينا إبراهيم(عليه السلام)، وفيه يصرّح النبي إبراهيم قائلا: ((فأجابَهُ النَّبيُّ إبراهيمُ: «لقد أَقسَمتُ باللهِ العليّ العظيم، خالق السَّماواتِ والأرضِ)) [التكوين 14: 22]. وفي هذه المرّات الأربع يترافق الاسمان «العليّ العظيم» مع كلمة «الله» أو تعبير «الله مولاي» [أدوناي يهوه]. بينما يشير اسمان «العليّ العظيم» إلى السمو والعظمة والرفعة، وتشير كلمة «الله» وتعبير «الله مولاي» إلى الإلوهية.

ذكر القرآن الكريم الله تعالى بـ «العليّ» 6 مرّات وبـ «المتعالي» مرة واحدة. ويرادف تعبير «مالك السماء والأرض» في فحواه مضمون كلمة «العليّ». جاء في القرآن الكريم: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: 44].

إنّ معرفتنا لله بـ«العليّ العظيم» و«خالق السماوات والأرض»، ينبغي أن تقودنا إلى مواقف أربعة. أولا، تشعرنا بالأمان إذ ندرك أنّ الله في الأعالي وهو في موقع السيادة والهيمنة والسلطان. والله تعالى هو البصير بكلّ ما نواجه في حياتنا من ظروف وأحداث. ثانيا، إن هذه المعرفة تحثّنا على العبادة والخشوع والسجود لهذا الإله العظيم خالق السماوات والأرض ومالكها. ثالثا، تبعث فينا هذه المعرفة شعورا بالمسؤولية نحو مخلوقات الله حتّى نعتني بها. إنّ اهتمام المؤمن بالطبيعة وبالشؤون البيئية نابع من إدراكه أن الله هو مالك الأرض. رابعا، عندما اختبر إبراهيم(عليه السلام) معرفة الله العليّ العظيم خالق السماوات والأرض، علم أن الله تعالى مالك الكون وما فيه، وما هو إلا وكيل مؤتمن على ممتلكاته تعالى. ولذلك قرّر أن يعطي الآخرين من ماله وممتلكاته (التكوين 14: 20). ما أجمل العبارة التي تزيّن مداخل بعض الأبنية في الشرق الأوسط: «الملك لله وكالة (فلان الفلاني)». ليت هذه العبارة تخرج عن كونها عادة جارية لتصبح حقيقة فاعلة في حياتنا وتصرفاتنا اليومية!

اللّه الصمد:

في بئر السبع دعا إبراهيم(عليه السلام) ((بِاسمِ اللهِ الصَّمَدِ)) [التكوين 21: 33]. إنّ هذا الاسم في العبرية هو «إيل عولام»، ويشير إلى الملك القدّوس الذي يفوق المكان والزمان. فالله تعالى أبدي لا نهاية له ولا أحد بعده، وقد أعلن لنا عن ذاته في بداية التوراة بأنه في البدء كان موجودا فهو «الأوّل»، ومن خلال هذا الاسم «الله الصمد»، يعلن لنا أنه هو «الآخر». والاسمان «الأوّل» و»الآخر» من أسماء الله الحسنى كما هو معلوم.

القويّ المتين:

قال الله تعالى لأبينا إبراهيم(عليه السلام): ((أنا اللهُ القويّ المتين. اسلُكْ بكلّ إخلاصٍ في صِراطي المُستَقيمِ)) [التكوين 17: 1، انظر أيضا التكوين 43: 14، و 49: 25]. إن الكلمة المترجمة إلى «القويّ المتين» هي «شدّاي» في اللغة العبرية. ليس من اليسير

إدراك أصل اشتقاق هذه الكلمة، ولكن يجمع الباحثون أن الجذر السامي لهذه الكلمة يفيد معنى القدرة أو الشدة. والجدير بالذكر أنه في القرآن الكريم يرد هذان الاسمان من أسماء الله الحسنى «القويّ المتين» عدّة مرات.

عندما أعلن الله تعالى عن ذاته بأنه «الله القويّ المتين» كان إبراهيم(عليه السلام) ابن تسع وتسعين سنة، وقد خطّ الشيب رأسه وحطّ اليأس من أمله بأن يُرزق بولد من زوجته سارة. وههنا يجدّد الله وعوده الصادقة لإبراهيم، وتقوم هذه الوعود على أساس قدرة الله لإتمامها، فالله القويّ المتين لا يعسر عليه أمر، ويستطيع تعالى أن يصنع ما يشاء فهو «القويّ» و«المقتدر». هل نثق بقدرة الله عندما نواجه متاعب الحياة وظروفها وأحيانا مآسيها؟ من ناحية أخرى، وأمام قدرة الله ومعونته، على الإنسان أن يسير وفق وصاياه تعالى: ((أنا اللهُ القويّ المتين. اسلُك بكلّ إخلاصٍ في صِراطي المُستَقيم))، وإذ نسير أمامه فإنه يستطيع تعالى أن يمدّنا بالقوة الكافية لنتمكّن من السير قدما في طريق الخير والاستقامة والصلاح. ما أعظم فضل الله! إنّه تعالى لا يطلب منا أمرا لا نستطيع القيام به، ويمدّنا بالعون من جوده لتحقيق ما يطلبه منا.

العزيز:

يصف النبي يعقوب(عليه السلام) الله تعالى بأنه «العزيز» (التكوين 49: 24)، والكلمة في اللغة العبرية هي «أبير» وتفيد معنى «القدرة» أو «القوّة» (انظر أيضا: مزمور 132: 2، كتاب النبي أشعيا 1: 24، 49: 26، 60: 16). وهي كلمة قد تطلق على الأشخاص والحيوانات عندما يهدف المتكلم إلى إضفاء صفة القوّة على ما يريد وصفه (انظر على سبيل المثال أشعيا 34: 7). ولكن في بعض الأحيان عمد بعض العلماء الذين سجّلوا نصوص التوراة الشريفة إلى تكرار حرف الباء في الكلمة لتصبح «أببير» عند الإشارة إلى غير الله تعالى.

إنّ اسم «العزيز» هو أحد الأسماء الحسنى التي وردت 59 مرّة في القرآن الكريم، كما في الآية التالية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: 4].

المهيب:

يرد هذا الاسم في هذه الآية: ((ولَو لم يَكُن يُؤيّدُني اللهُ الّذي عَبَدَهُ جَدي إبراهيمُ، اللهُ المهيب الذي يتّقيه أبي إسحَق، لكُنتَ صَرفتَني فارغ اليدين)) [التكوين 31: 42]. ويلاحظ الباحث الفرنسي أندريه ليمر، أن اسم «مهيب» أو «هيبة» كان منتشرا في الشرق الأدنى القديم. ويشير هذا الاسم إلى أمرين. أوّلا، إن الله يطلب من عباده المؤمنين أن يهابوا اسمه، بمعنى أن يجلّوه ويحترموه. ولا ينبغي أن نساوي بين مفهوم المهابة ومفهوم الخوف والرعب. فالمؤمن يهاب الله تعالى بدافع الحب والامتنان لعظمته وعنايته ومحبّته للإنسان. ثانيا، إن الله تعالى يزرع الرعب في قلوب أعداء المؤمنين والمؤمنات، وبذلك يحفظهم بعيدا عن شرور أعدائهم (انظر كتاب النبي صموئيل الأوّل 11: 7).

وفي ختام هذه الدراسة، أقترح على القارئ الكريم أن يقوم بالأمرين التاليين. أوّلا، التأمل والتفكير الهادئين في كل من أسماء الله الواردة أعلاه، حتى تنغرس هذه الأسماء في قلبه، وبذكر الله تطمئن القلوب. ثانيا، محاولة تطبيق معنى كل اسم ومدى تأثيره على حياته الشخصية وعمله ومجتمعه. فهنيئا لك إن قمت بهذا الفعل.

إسماعيل(عليه السلام) والعرب القدامى

بقلم الأستاذ الدكتور طوني معلوف

إسماعيل(عليه السلام) والعرب

من المتعارف عليه بشكل عام في الشرق الأوسط أنّ الأصول العرقيّة للعرب القدامى تعود بشكل رئيسي إلى ثلاث سلالات توراتية. القبائل التي سكنت جنوب شبه الجزيرة العربية تعود جذورها إلى قحطان (التوراة، سفر التكوين 10: 26- 29). وتعود جذور سكان وسط الجزيرة العربيّة وشمال الحجاز إلى النّبي إبراهيم(عليه السلام) من خلال زوجته قطورة (انظر التوراة، التكوين 25: 1- 6). وينحدر الذين سكنوا القسم الشمالي من شبه الجزيرة العربيّة والمعروفة بالصحراء السّورية العربيّة إلى إسماعيل(عليه السلام) (انظر التكوين 25: 12- 18). ويتعرّف المؤرّخون القدامى من يونانيين ويهود ورومان أنّ التّمازج بين هذه المجموعات الثلاث أدّى إلى إبراز إسماعيل كشخصيّة رئيسيّة في تقليد العرب.

هكذا يردّ أقدم ذكر لكلمة «عربي» في نَصّ آشوري يصف معركة الملك شلمنصر الثّالث في قرقر شمالي حماة ضدّ تحالف من القوى الغربيّة، وذلك خلال السّنة السّادسة لملكه (853 ق. م.). وتشمل قائمة خصوم هذا الملك «جنديبو» (بالعربية جندب). وجاء أول ذكر واضح للعرب في التوراة كاسم علم جماعي في

كتاب النبي إرميا (إرميا 25: 24)، وذلك في الفترة الواقعة من 627 إلى 586 ق. م. ويشير النّبي إرميا(عليه السلام) إلى «ملوك العرب»، وربّما كان يقصد قادة القبائل العربية الشماليّة (الشيوخ)، ويتضمن ذلك قادة القبائل الإسماعيليّة.

إسماعيل(عليه السلام) في التوراة

يتميّز إسماعيل(عليه السلام) وأمّه هاجر ببعض الصّفات التي لا يحظى بها غيرهما من الشخصيّات في الكتاب المقدّس. فقد كان إسماعيل على سبيل المثال أوّل طفل في الكتب السماويّة يسميه الله قبل مولده (التكوين 16: 11). وكانت هاجر المرأة الأولى في التوراة التي وعدها الله بتكاثر نسلها (انظر التكوين 16: 10).

ويلمح الوحي الموجه إلى هاجر ما أوحى به الله إلى السيّدة مريم أمّ السّيّد المسيح، كما جاء في الإنجيل. وتُظهر قصّة إسماعيل في التوراة أن الله يهتم بالجميع، ويعاملهم بعدالة. ولكن كيف اشترك الإسماعيليون في البركة الإلهية الّتي وعد الله بها النّبي إبراهيم؟ يمكننا الإجابة عن هذا السؤال من خلال معالجة بعض الجوانب الهامّة التي تظهر في قصّة إسماعيل في سفر التكوين في التوراة (الفصل 16، 21)، وهي: إسماعيل والسيادة الإلهية، إسماعيل تعويض لهاجر، إسماعيل وإسحق، أخيراً، إسماعيل والصحراء.

إسماعيل(عليه السلام) والسيادة الإلهية

تمثّل قصّة إسماعيل في التوراة صورة للسيادة الإلهية على الحياة الإنسانيّة. وتبدأ قصّته بالوعد الإلهي بأن يجعل النّبي إبراهيم أمّة عظيمة يفترض فيها أن تكون واسطة البركة الإلهيّة للعالم (التكوين 12: 2). لكنّ النّبي إبراهيم وساره لم يدركا كيف يحقق الله وعده لهما، إذ لم يرزقا أولاداً، وأنّهما أصبحا طاعنين في السن. وقد نسبت سارة ذلك لقدر الله قائلة بأنّه هو الذي اختار أن لا يرزقها أولادا (التكوين 16: 2). وكان يحقّ للمرأة المتزوجة حسب قانون ذلك الزمان، إذا ثبت بعد مدّة أنّها عاقر، أن تؤمن لها نسلا من خلال خادمتها. ويشهد على وجود هذه العادة، العديد من

الأقوال المنقوشة لدى الأمم المختلفة في الشرق الأوسط، على مدى فترة ألفي عام. وقرر النبي إبراهيم وسارة على هذا الأساس اللجوء إلى هاجر كأم بالنيابة.

ولا يوجد في هذه القصة للنبي إبراهيم وسارة في سفر التكوين أي شجب لهذه المحاولات لكسب وريث لهما. والجدير بالذكر أن الله لم يخبر إبراهيم بأن الوعد سيتحقق من خلال سارة إلاّ عندما بلغ إسماعيل الثّلاثة عشرة من عمره. هكذا يضع هذا التّفصيل من قصّة هاجر جهود الإنسان الطبيعيّة على نقيض مع التدخل الإلهي. ولأن ولادة سيدنا إسماعيل ترمز إلى المجهود البشري فذلك يجعل ابن هاجر عاجزا عن تتميم مقاصد الله بالنجاة. لكن من جهة أخرى توضح ولادة سيدنا إسحاق التي حصلت بتدخل مباشر من الله بأن النجاة تأتي بفضل الله فقط.

سيدنا إسماعيل تعويض لهاجر

ورغم أنّ مولد إسماعيل(عليه السلام) لم يكن الوسيلة المطلوبة لإتمام وعد الله للنّبي إبراهيم، إلاّ أن الله بعث البركة الإلهية لهاجر وأحفادها. وأصبحت هاجر بالرّغم من الظروف السيئة التي مرّت بها، موضع الاهتمام الإلهي وأداة للرحمة والبركة العظيمة. واستجابة لرسالة التعزية التي نقلها لها الملاك (التكوين 16: 9–12)، غدت هاجر المرأة الوحيدة في التوراة التي أصبغت اسما على الله، وهو «إيل رئيه» أي «الله البصير». وكان الله سميعا إلى استغاثات هاجر (التكوين 16: 11). وإنّ الله هو السميع على الدوام. فعندما سمع صراخ عباده في العبودية في مصر (التوراة، سفر الخروج 2: 23 و 24)، دعا الله في الحال النّبي موسى أن يذهب لينقذهم من هذا الوضع (الخروج 3: 1 إلى 4: 31). بشكل مماثل لم يكن سماع الله لاستغاثات هاجر له سماعا جامدا بل كان فعّالا، وبنفس الطريقة سيتمّ من خلال إسماعيل تغيير ظروف هاجر التعيسة تحت العبودية.

أمّا موضوع النّظر إلى سيدنا إسماعيل كتعزية لأمّه فهو عنصر قوي ليعلم الملاك عن مولده (انظر التكوين 16: 10– 12). أوّلا، لأن اسم إسماعيل يعني الله يسمع، وفي هذا إشارة إلى العناية الإلهية الرحيمة بأمّ إسماعيل وأحفادها من بعدها. ونجد

ثانيا ثلاث خصائص تصور ابنها إسماعيل (الآية 12). وقد أسيء فهم هذه الخصائص في كثير من الأحيان، واعتبرت عوامل سلبية في رسالة الملاك لهاجر. لكن المقصود بهذه الخصائص تقديم التعزية لهاجر بطريقة ما. لذا تمثّل هذه الخصائص إشارة إلى فكّ عبودية هاجر وتبشيرها بما بشّرت به.

وتقول النبوءة بأنّ إسماعيل سيكون إنسانا كالحمار الوحشي، وهذا لا يعني أن يكون الجدّ الأكبر لجنس من المتوحشين كما يذهب البعض. فالمخلوق المشار إليه هنا هو الفراء السوري، (جمع: أفراء)، وهو حيوان قد انقرض في أكثر مناطق الشرق الأوسط. فلقد كان الفراء له مكانة خاصّة ومحط إعجاب في الشرق الأدنى القديم. وقد جاء وصف لهذا الحيوان في كتاب النبي أيوب (كتاب النبي أيوب 39: 5-8). لقد نُظم في الفراء شعر جميل، وكان يُنظر إليه بالحسد بسبب الحريّة التي يتمتع بها في طبيعة الصحراء القاسية. وورد في ديوان الحماسة لأبي تمام أن الفراء كان لقبا لشيخ القبيلة. ونرى الأسلوب نفسه في الأسماء التي أُعطيت لأسباط بني إسرائيل (سفر التكوين 49). فقد سُمي يهوذا بالشبل الأسد، ويسّاكر بالحمار الضخم، ودان بالأفعى أو الثعبان المجلجل، ونفتالي بأنثى الغزال الطليقة، وبنيامين بالذئب. كما يشير الأصل العبري إلى أن النّبي يوسف عليه السلام يمكن تصويره أيضا بالفراء. وليست هذه التشابيه الحيوانيّة سيئة أو جيدة في حدّ ذاتها، ولكن ما قد يجعلها كذلك هو ما يرمز إليه الحيوان المشبّه به للمجتمعات العربية البدويّة القديمة. أمّا الحريّة التي سيتمتع بها إسماعيل في التّجول في الصحراء والعيش فيها فتقدم العزاء لهاجر أمّه إذ تخرجها من العبوديّة إلى الحريّة.

ويستمرّ الإعلان عن إسماعيل عندما يذكر: ((يده على كلّ واحد ويد كلّ واحد عليه)). وتذكرنا الإشارة إلى اليد بالآيات 6 و 9 التي تتحدث عن هاجر تحت يد سارة. مما يشير إلى علاقة تظهر فيها القوة. إنّ الأمّ الجارية الّتي لا تملك قوّة، يمكن أن تتعزى في أن ابنها سوف تكون له القوّة التي يستطيع أن يقاتل بها من أجل الحفاظ على حريته. ورغم أن الكثيرين سيحاولون إخضاعه ((يد كلّ واحد عليه)) إلاّ أنّه سيتمكن دائما من الحفاظ على حريته ((يده فوق كلّ واحد)). إنّ إسماعيل الّذي يشبه الفراء الذي

يعشق الحريّة (إنسانا وحشيا) سوف يقاتل للحفاظ على حريته. ويعكس هذا القول حياة القبائل البدوية في الصحراء. إن تجولهم المستمر بدون نظام قانوني ثابت وقانون مدني واضح وضعهم في حالة صراع مع بعضهم بعض. وعاشوا في حالة توتر مستمر بينهم وبين الحضر في الشرق الأدنى الذين كانوا يخافون غارات البدو (انظر كتاب النبي أيوب 39: 7). وهكذا يظهر لنا التاريخ بأن القبائل العربيّة لم تخضع لسيطرة شعوب غريبة أخرى، وظلت بالتالي محتفظة بأصولها العرقية القديمة.

ويشير الإعلان الثالث الخاص بإسماعيل إلى أنه ((سيسكن أمام وجه جميع إخوته))، ويقصد بذلك أنه سيعيش في جوارهم. ويأتي ذكر هذا الموضوع في مرحلة لاحقة من سفر التكوين حيث يذكر أن إسماعيل سكن أمام جميع إخوته أو في جوارهم (التكوين 25: 18). ويذكرنا الكلام حول إسماعيل في هذا المكان بعناصر من تجربة هاجر. فقد هربت من وجه سارة [الآيات 6 و 8] لأنّ حضورها في بيت النّبي إبراهيم كان تحديا مستمرا لمكانتها كزوجة. ورغم ندم سارة على قرارها بدفع هاجر إلى إبراهيم، فإنّ عليها وعلى نسل إسحق معها العيش دائما مع إسماعيل وأحفاده، وعلى مقربة منهم! لقد اختار الله أن يباركهم وأن يستجيب لصراخهم. ولقد حصل أبناء إسماعيل على البركة التي أراد الله أن يشترك فيها الجميع ولا يعني ذلك بالضرورة حتميّة العداء بين الشعبين.

وليس غريبا في ضوء هذا الإعلان المثلّث الأجزاء أن تشعر هاجر بالدهشة أمام التجلّي الإلهي العجيب لها، وأن تسمّي الله الذي خاطبها «الله البصير». فهي الجارية في البيت، والآن كأمّ بلا قوّة هاربة في الصحراء، وجدت تعويضا من الله، الّذي وعدها بأن ابنها سيكون حرّا وقويّا، ويسكن وسط أقاربه حسب الإرادة الإلهية. إنّ النسل الإسماعيلي هو تذكير لبني إسرائيل بأن البركة الموجودة في وعد الله المعطى للنبي إبراهيم، ليست محصورة بخط واحد من النسل. إنّ العهد الإلهي الذي قطعه الله لنسل إسحق، لا يتقرّر بقرابة الدّم أو علامة الختان فقط، اللتين تشملان أيضا إسماعيل (التكوين 17: 23-25)، ولكنّ التمتّع بهذا العهد لا يحصل إلاّ بالإيمان.

إسماعيل وإسحق(عليهما السّلام)

وبولادة إسحق، تبدأ قصّة تحديد طبيعة العلاقة بين إسماعيل وإسحق. فقد عمّ الفرح والسرور في البداية، وتمّ الاحتفال بفطام إسحق في الثّالثة من عمره لأنّه اجتاز مرحلة الطفولة الخطرة، وأصبح الأمل في المستقبل مضمونا أمامه. ولكنّ إسماعيل لا يزال تحت سقف بيت إبراهيم، وهذا يخلق تنافسا طبيعيا حول امتيازات البيت والميراث.

ولا يمكن التوفيق بين مقصد الله لإسماعيل ومقصده لإسحق طالما أنّهما يعيشان متنافسين تحت سقف واحد. لذا شاء الله لهاجر أن ترحل مع إسماعيل إلى الصحراء لكي يعيشا تحت ظلّ عنايته. فهذا الخروج من البيت يحرّر الابنين، ويجعلهما يحقّقان مصيرهما على التّوالي. وبينما كان لإبراهيم ميراث غامض وقد تعيّن سابقا لإسحق (التكوين 12: 7؛ 13: 15، 17؛ 17: 10-14). لكن الله يملك الكثير ليعطي لكلّ واحد من أبنائه (التكوين 17: 20).

وهكذا طلب الله من إبراهيم بأن يطيع سارة، وأعطاه سببين لذلك. أوّلا، سينتشر اسم إبراهيم تاريخيا من خلال نسل إسحق (التكوين 21: 12)؛ ثانيا، ستكون ذرية إسماعيل مباركة أيضا من الله (16: 12؛ 17: 20). وتظهر هذه الآيات أن موافقة الله على طلب سارة لا تعني ضمنيا أي حكم على إسماعيل أو هاجر. وبشكل مشابه فإن أبناء قطورة زوجة إبراهيم الثانية صُرفوا لاحقا من بيت أبيهم، دون أي نزاع سابق مع إسحق (التكوين 25: 6).

تظهر القصّة في الفصل 21 من سفر التكوين كيفيّة تحقيق ما سبق أن أعلنه الله عن إسماعيل وإسحق في الفصلين 16 و17 من التكوين. ويصف الفصل السابع عشر من سفر التكوين العهد الخاص الذي سوف يقطعه الله مع إسحق بالإضافة إلى وصفه لعلامة الختان. وتجدر الملاحظة بأنّه في هذا الفصل الهام والأساسي بالنسبة إلى إيمان الشعب اليهودي، نرى كيف يؤكد الله لإبراهيم بأن إسماعيل له مكانته المميّزة أيضا. واستجابة لصلاة إبراهيم، اللهمّ اجعل إسماعيل في ظلّك من المرتضين، أي في ظلّ بركة الله الروحيّة والماديّة (التكوين 17: 18)، يتعهّد الله بأنْ يبارك إسماعيل وأن يحافظ على استمرارية نسله وأن تخرج منه أمّة عظيمة من اثنتي

عشرة قبيلة (التكوين 17: 20). وهكذا فعهد الله مع إسحق لا يستبعد إسماعيل عن عنايته. فإسماعيل يشترك بطريقة خاصّة بالبركة التي يعدها الله للجميع. إنّ علامة العهد في جسد إسماعيل، تظهر اشتراكه مع إبراهيم في البركة التي يريد الله توفيرها لجميع الناس من خلال عهده مع شعب معين. وبينما تعطي التقاليد العربية الموجودة في التوراة مكانا خاصّا لإسحق بالنسبة إلى إسماعيل، فإنها لا تزال تقدّم صورة إيجابية لإسماعيل ضمن خطّة الله. فقصّة إسماعيل الواردة في سفر التكوين مليئة بالمعاملات الإلهية الرحيمة، وتعكس محبّة الله لجميع عياله دون محاباة.

إسماعيل(عليه السلام) والصحراء

عندما صرف إبراهيم هاجر وإسماعيل إلى الصحراء (التكوين 21: 8-21)، يغدو المشهد مهيّئا لأحداث تاريخ القبائل الإسماعيلية اللاحق. ويظهر إبراهيم اهتمامه بأمته وابنه البكر بتوفير الطعام والماء لهما، وينهض مبكرا لكي يجنبهما حرّ النهار (التكوين 21: 14). ويستعمل الكاتب في نص القصّة عبارة «صرفها»، إذ أنّ فعل «صرف» ألطف بكثير من الفعل «طرد» الذي استعملته سارة في طلبها. وهذا يتّفق مع البركة التي أعطاها إبراهيم لهما. أمّا هاجر فتسير في برية بئر السبع دون وجهة محدّدة، وفي النهاية ينفد الماء منها. وبعدما ينهكها التعب تفقد الأمل في بقاء إسماعيل حيا. وأقل ما يمكن أن تعمله، هو أن تضع ابنها في ظل شجرة. ولسخرية القدر تعطي الجارية المستعبدة حريّتها أخيرا بالرغم من إرادتها، لكن تترك في مواجهة خطر الموت في الصحراء. لقد استبدلت العبودية التي رافقتها وسط دائرة البركة بحريّة في أرض مملوءة شوكا وحسكا.

ومثلها مثل الإنسان الذي طرد من جنّة عدن، كانت هاجر تعتمد بصورة كليّة على نعمة الله. ونجد في قصّة هاجر مرّة أخرى بئر ماء في الصحراء مع أنّها لم تلاحظ البئر إلاّ بتدخل من العناية الإلهيّة. وإذ سمع الله لصراخ الغلام بيّن مرّة أخرى أنّه حريص على الاسم الذي أعطاه لإسماعيل (16: 1). وبالرّغم من عدم ذكر هذا الاسم في الفصل 21 من سفر التكوين مطلقًا إلاّ أنّ ملاك الله يؤكد الحقيقةَ من وراء الاسم مرة ثانية، فقد ((سمع الله صوت الولد)) [التكوين 21: 17].

يوجد تبيان هامّ في القصّة بين ملاك الله الّذي ينادي «من السماء» والله الّذي «مع الغلام» في حياة الصحراء. فالحضور الإلهي الملازم لإسماعيل يحلّ محلّ الظهور الإلهي له من السماء. وإن دلّ ذلك على شيء فهو دليل قاطع على أن انفصال إسماعيل عن إسحق ليس دينونة أو حرمانا له، إنّما هو وسيلة لتحقيق البركة الموعودة لإسماعيل. وفي سياق ذات الموضوع نرى أنّ التركيز بين الفصل 16 من التكوين والفصل 21 يتبدل من هاجر إلى إسماعيل (قارن 16: 10 مع 21: 13، 18). ففي الوقت الذي يؤكد الفصل 16 من سفر التكوين على المرأتين، فإن الفصل 21 يركز على الابنين. هكذا نقرأ في البداية عن اهتمام سارة بمصلحة إسحق (التكوين 21: 1–12). ثمّ نقرأ عن اهتمام هاجر بإسماعيل، وأمانة الله الظاهرة في حمايته وتدبير أموره (21: 12–21). ويصوّر النص مصلحة المرأتين كأنهما تعتمدان بشكل رئيسي على مصلحة ابنيهما. وتتم في النهاية إزالة المنافسة من بيت إبراهيم حسب الإرادة الإلهية، فالمرأة العاقر سارة كرّمت، كما تمّ رفع شأن هاجر أيضا!

السيد المسيح وذريّة إسماعيل

إنّ ارتباط الحكماء الآتين من بلاد العرب بالمسيح عليه السّلام (انظر الإنجيل، متّى، الفصل 2) يتّفق مع شهادة التوراة الواضحة التي تشير إلى وجود صلات وثيقة بين الشعوب المختلفة التي انحدرت من إبراهيم (عليه السلام). وتحتلّ الصحراء العربيّة مع مصر مكانا هامّا في قصّة النّبي يوسف وفي المحافظة على عائلته. كذلك الأمر بالنّسبة إلى قصّة النّبي موسى الذي عاش في أحضان العائلة الملكيّة المصريّة. وقد تمّ اختياره ليقود قومه من مصر عبر الصحراء. كما أن نبوءات العودة بعد السّبي تضع أحفاد إبراهيم العرب في المكان الأول بين غير اليهود في دعوة الله وافتقاد بقية الأمم (راجع كتاب النبي أشعيا 42: 6–7، 10، 11؛ 60: 1–7).

إن المبايعة للمسيح التي أعلنها الحكماء الآتون من بادية العرب يمثّل انقلابًا لما حدث في البداية عندما غادر سيدنا إسماعيل وأبناء قطورة بيت أبيهم إبراهيم إلى المشرق. والأهمّ من ذلك أنّ هذا الحدث يدعم القصد الإلهي الأساسي الّذي أعلنه للنبي إبراهيم، بأن جميع النّاس سيحظون من خلاله بالبركة الإلهية.

المملكة الربّانية والخلافة الروحانية

المكانة الأصلية للبشرية

عندما أوحى الله إلى نبيه موسى بالتوراة عاش الوثنيون في شعوب وقبائل، وعبدوا آلهة والأوثان، وكانت هذه الآلهة حسب اعتقادهم تهيمن على الذين يعبدونها وتحميهم وتحارب أعداءهم من الشعوب الأخرى وآلهتهم التي يعبدونها أيضا.

وحظي كلّ ملك من هذه الشعوب بمكانة مرموقة، إذ كان يتوسّط بين شعبه والإله الذي يعبدونه. واعتبر النّاس الملك «ابنا للإله» أو «صورة الإله»، فاعتبر المواطنون أنّ ملكهم يفوقهم شأنا إلى درجة كبيرة. وجاء في التوراة وحي مفاده أنّ الله خلق الإنسان على صورته (سفر التكوين 1: 26). ولكنّ المفسّرين يجمعون على أنّ هذا التعبير مجازي ويشير إلى السلطة والحكم. وفي العالم القديم زعم الملوك أنّهم ظلّ الله في الأرض، بينما أوحى الله تعالى أنّ هذه الميزة ميّز بها كلّ البشرية، ابتداء من آدم(عليه السلام). وبذلك تكون جميع البشرية خلفاء الله في الأرض كما جاء في سورة البقرة، الآية 30، وسورة الأنعام، الآية 165.

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ القرآن يستخدم كلمة «خليفة» (والجمع خلفاء أو خلائف) ليس كإشارة إلى نظام سياسي قائم بين المسلمين بل لتعريف مكانة البشر بشكل عام. وجاء هذا واضحا في القرآن بخصوص آدم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 33-30].

ويعلن القرآن أيضا أنّ ذرّية آدم تتمتّع بهذه المكانة: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: 165]. وكلّ الناس يمتلكون هذه الميزة حتى غير المؤمنين منهم، كما جاء في آية أخرى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [فاطر: 39].

وكتب الصحفي التركي مصطفى أكيول عن فكرة الخلافة قائلا: «إنّ مفهوم الخليفة الذي ورد في القرآن مفهوم روحانيّ يجعل النّاس في مقام خاص بين مخلوقات الله، وليس من العجب أن المفسرين المسلمين الأوائل ميّزوا بين فكرة الخلافة الروحانية وبين المؤسّسة السياسية المسماة بالخلافة التي رأسها في البداية صحابة الرسول المقرّبون، ولكن سرعان ما استولى على الخلافة الملوك الحكّام بالوراثة».[1]

لهذا السبب، يميّز بعض الدارسين بين خلفاء الرسول والخلافة الروحانية المشار إليها في القرآن. ونركّز في هذا المقال على مفهوم الخلافة الروحانية.

حكم الملوك والطغيان

خلق الله آدم وحواء وذرّيتهما وجعلهم خلائف له تعالى، ورغم ذلك عصوا ربّهم (انظر البقرة: 121). ومع مرور الوقت انتشر الإثم والفساد بين صفوف كلّ

(1) أكيول، مصطفى، عيسى الإسلامي (نيو يورك، دار ساينت مارتن 2017)، ص 210.

البشر. وفي الجيل الثالث بعد نوح(عليه السلام) نشأ الطغيان والحكم المتجبر كما نرى في قصّة نمرود (التوراة، سفر التكوين 10: 8). ومع أنّ الله خلق النّاس أحرارا مكرّمين إلاّ أنّ الطغاة شرعوا في اختطاف النّساء عنوة فظلموا شعوبهم بطرق متعدّدة.

عاش كثير من الأنبياء الأولين في ممالك وهم مواطنون عاديّون مع أنّهم حظوا بسلطان روحاني كبير كونهم على صلة برب العالمين، ومن بين هؤلاء الأنبياء نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السّلام). وفي قصّة النبي يوسف(عليه السلام) جعله الله في المرتبة الثانية في مصر بعد فرعون، ولكنّه اتّخذ هذه المكانة من أجل الحصول على نجاة آل يعقوب وكلّ الشعب المصري. فقال النبي يوسف لإخوته: ((والآنَ لا تَأسفوا وَلا تَلومُوا أنفُسَكُم عَلَى ما فَعلتُم، فاللهُ أرسَلَنِي أَمامَكُم لأحفظ حَياتَكُم)) [التوراة، سفر التكوين 45: 5].

عندما أخرج النبي موسى(عليه السلام) بني يعقوب من مصر وعدهم الله بسلطة على بلاد كنعان، غير أنه لم يعطهم مَلِكًا أو حاكما سياسيا، بل منحهم الله الأنبياء والأحبار لكي يرشدوهم إذ قصد الله أن يكون تعالى الملك الوحيد لقومه، وله يخضعون، وأراد من عباده أن يكونوا قدوة في هذا المجال للشعوب المجاورة.

بنو إسرائيل وكيف رفضوا الله ملكا عليهم

في زمن النبي صموئيل(عليه السلام) استولى على بني إسرائيل خوف من الشعوب الوثنية المجاورة التي مثلت تحدّيا لهم، فرأوا أن بإمكان ملك جبّار أن يحميهم من أعدائهم فقالوا: ((نَصِّبْ عَلَيْنَا مَلِكاً، فَنكُونَ كَسَائِرِ الشُّعُوبِ، لَنَا مَلِكٌ يَقْضِي بَيْنَنَا وَيقُودُنَا وَيُحَارِبُ مَعَارِكَنَا)) [كتاب النبي صموئيل الأوّل 8: 19–20]. أمّا الله فأوحى إلى صموئيل(عليه السلام): ((لَمْ يَرْفُضُوكَ أَنْتَ بَلْ إِيَّايَ يرَفُضُونَ، لِكَيْ لَا أَملِكَ عَلَيهِم)) [كتاب النبي صموئيل الأوّل 8: 7].

والله أعطاهم الملك طالوت (أي شاول) لكي يحكمهم، ولكنّه تعالى حذّرهم من المساوئ التي تحلّ عليهم بوجود ملك يحكمهم، فالملك يجبرهم على دفع

الضّرائب للخزانة الملكيّة ويسخّر أبناءهم للجيش، ولكن مع مرور الوقت رفض الملك طالوت أن يطيع أمر الله، فنزع منه الله المملكة واختار شخصا آخر يسعى إلى مرضاته تعالى ألا وهو داود(عليه السلام)، ووعد الله النبي داود أن يجعل المملكة الربّانية عند ذرّيته وأنّ أحدا منهم سيملك على المملكة إلى الأبد ويحكم بالعدل والقسط على هذه الخلافة.

وفي زمن السيّد المسيح انتظر الشعب اليهودي بتلهّف حلول المملكة الربّانية الموعودة، ولكنّهم زاغوا عن المفهوم السليم لهذه المملكة بتحمّسهم الوطني وبغضهم للأمم الأخرى في العالم. وكانوا يعتقدون أنّ المسيح المرتضى سيأتي لكي يهزم الرّومان المكروهين الذين احتلّوا بلادهم وسيجعلهم يسيطرون على بقية الأمم ويكونون سادة للعالم.

واختلفت شتّى مذاهب اليهود في فهمهم للوعد بالمملكة الربّانية، أي الخلافة الروحانية، فبينما تضرّع أفراد حزب المتشدّدين (أي الفرّيسيين) بحماسة أن تحلّ تلك المملكة قريبا، سعى حزب المتحمّسين أو الغيورين إلى المقاومة العسكرية في مواجهة الرومان لتمهيد الطريق لمجيء المسيح الموعود وحكمه المجيد.

المعنى الحقيقي للخلافة

علّم السيد المسيح الناس أن المملكة الربّانية الموعودة لم تأت وفق توقّعاتهم، فالحاكم المنتظر (المسيح الملك) في الحقيقة كان بينهم وهم لا يعلمون، إذ جاء في الإنجيل: ((وسألَ المُتَشَدِّدونَ سَيِّدَنا عيسى(عليه السلام) ذاتَ يومٍ قائلينَ: «مَتى تَظهَرُ المَملَكةُ الرَّبّانيّةُ؟» فأجابَهُم: «لا يَسبِقُ ظُهورَ مَملَكةِ اللهِ دلائلُ مَنظورةٌ، تُمَكِّنُ مِن القَولِ إنّها هُنا أو هُناكَ، فالمَملَكةُ الرَّبّانيّةُ حاضِرةٌ أمامَكُم الآنَ!)) [الإنجيل، لوقا 17: 20-21].

إنّ سيدنا عيسى هو المسيح المنتظر وأنزل الله الوحي بخصوصه إلى غيره من الأنبياء في بني إسرائيل، بالإضافة إلى ما جاء في الإنجيل. وكلّ هذا الوحي يؤكّد أنّه وريث الخلافة الروحانية، المعروف أيضا بالمملكة الربّانية، إنّما هو سيدنا عيسى بن

مريم. فالسيد المسيح يحقّق نبوءات الأنبياء الأقدمين المتعلّقة بالخلافة على خطى النبي داود، ويأتي المسيح بعصر جديد حيث تصبح الخلافة العامّة التي وكّلها الله للبشريّة خلافة روحانيّة شأن التي استلمها النبي إبراهيم.

ولكن كيف نستطيع أن نفهم ما جاء عن مملكة بني إسرائيل أي خلافتهم؟ هناك العديد من المواقف التفسيريّة في هذا الموضوع ولكن من المرجّح أنّ المملكة الدنيويّة لبني يعقوب في بلاد الشام كانت مجرّد ظلّ أو صورة نرى من خلالها مقاصد الله الواردة في التوراة، حيث جاء أنّ الله تعالى قد سخّر للإنسان هذه الأرض وجعلها تحت تصرّفه (انظر سفر التكوين 1: 26). وهذا كان أمر الله في البداية لآدم وحواء.

والمبادئ المتعلّقة بالمملكة الربّانية التي جاء بها السيد المسيح ليست مبادئ يستوعبها أهل الدنيا. وقد بيّن السيد المسيح أنّ من بين تلك المبادئ أنّ أهل المملكة أي خلائف الله يدعون بالخير لأعدائهم، ويعاملونهم بطريقة حسنة ويغلبون الشرّ بفعل الخير.

ويطبّق مصطفى أكيول هذه الفكرة على الحياة في العالم المعاصر إذ يقول:

«وفي العالم الإسلامي اليوم رغبة قويّة وتلهّف كبير لمجيء المملكة الربّانية، ويسمّونها الخلافة. ويعتقد بعض المسلمين أنّ هذا النظام الديني الإسلامي للحكم يهزم صفوف الرومان الجدد وعملاءهم ويطردهم، وهكذا يحلّ المجد على الأمّة. ويتمنّى بعض المسلمين إقامة الخلافة كمدينة فاضلة على المدى البعيد. وهؤلاء يمكن تسميتهم بالمحافظين. أمّا غيرهم فينشغلون بهذه الأمنية ويسعون إليها من خلال العمل السياسي ويلقّبون بتيار الإسلام السياسي. ولابدّ من ذكر الأقلية الصغيرة التي اختارت القتال العسكري ويُعرفون بلقب الجهاديين. ومن بين هؤلاء الجهاديين قامت فئة متطرّفة منهم بإعلان خلافة في سنة 2014، وهي جماعة داعش، وتعتبر الأغلبيّة السّاحقة من المسلمين أنّ هذه المبادرة متطرّفة للغاية».[1]

(1) أكيول، ص ص 206-207.

ويلاحظ أكيول وجود الاختلافات بين شتّى جماعات المسلمين بالنسبة إلى ضرورة الخلافة في العالم المعاصر، فيلحّ بعضهم على إعادة تأسيس خلافة الرّسول كفريضة وواجب ديني. ولكنّ أكيول يقول إنّ القرآن صوّر الخلافة «كمفهوم روحاني يجعل النّاس في مقام خاص بين مخلوقات الله» واتّفق على ذلك مفسرو القرآن الأوائل. ويقول أكيول: «لم ير المفسّرون المسلمون الأوائل علاقة بين هذه الفكرة الروحانية وبين المؤسسة السياسية الملقّبة بالخلافة».[1] ويرى أيضا أنّ مفهوم الخلافة الروحاني في القرآن يقترب إلى حدّ كبير من تعاليم السيد المسيح بخصوص المملكة الربّانية.

وخلُص أكيول إلى ما يلي: «لذا من الممكن للمسلمين اليوم أن يتركوا إصرارهم على إقامة الخلافة ككيان سياسي، وبدلا عن ذلك أن يكونوا خلائف في الأرض على أجمل صورة، كونهم أفرادا يحظون بالصّفات والمسؤوليّات التي وكّلهم الله بها. فمن الممكن للمسلمين أن يعتقدوا إذن أنّ الخلافة ليست موجودة هنا أو هناك ولكنّها حاضرة في أعماقهم».[2]

(1) أكيول، ص. 210

(2) المرجع نفسه.

مفهوم الإرث والوارثين في الكتب السماوية

يُعتبر مفهوم الإرث الروحاني وورثته عنصرا مشتركا في كتب الديانات الإبراهيمية، رغم قلّة الدّارسين لهذا الموضوع. وفي هذا المقال سننظر في بعض النقاط المتقاربة في الكتب السماوية وتصورها لهذا المفهوم، وسننظر كيف سنفهمه في سياق مقاصد الله لإعطاء بركات لجميع أمم العالم.

مفهوم الإرث في القرآن

يشير القرآن إلى الإرث الرّوحاني: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: 10-11]. وفي سورة الأنبياء يؤكد القرآن على وجود هذا المفهوم في الكتب السماوية التي سبقته ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: 105]. وعلّق الدكتور وليد صالح على هذه الآية قائلا: «الاقتباس من هذه الآية في الزبور في غاية الأهمية للفكر الديني في القرآن. وفي هذا الاقتباس هناك صدى في آيات قرآنية أخرى حيث جاء ربط بين الإرث والصلاح».

رغم أهمية مفهوم الإرث، إلا أنّ كثيرا من الناس أساؤوا فهمه عبر العصور. وفهم بنو يعقوب اصطلاح «وراثة الأرض» في البداية بطريقة حصرية وعنصرية، فرأوا

أن ميثاق الله يجب أن ينتقل بطريقة بشرية من الوالد إلى ذريته، أمّا في كتب الأولين فترد قصّة تصحّح هذه الفكرة الخاطئة وهي قصة راعوث المؤمنة المؤابية. وتروي هذه القصة ما حدث لامرأة غريبة تتقي الله وكيف رحّب بها الناس لكي تنضم إلى جماعة الإيمان، فأصبحت هذه المرأة وريثة بمعنى روحاني، وأكرمها الله باختيارها سلفا للنبي داود(عليه السلام) وبعد داود للسيد المسيح(عليه السلام). وحصلت على هذا الامتياز رغم كونها مؤابية، إذ تنصّ التوراة أنّ الشعب الموآبي منبوذ من أمّة الله إلى الجيل العاشر، ونرى في هذه القصّة كيف جعل الله بمقاصده الكريمة إيمانها يتفوّق على الشكليات أو القوانين الخاصة ببني يعقوب في التوراة.

وقد يفهم آخرون من اصطلاح «وراثة الأرض» أنه يعني الاستيلاء على قطعة معينة من الأراضي والسيطرة على سكانها. وفسّر كثير من القراء التوراة على هذا المنوال، كما فهم كثير من المسلمين الأوائل الكلمات في القرآن التي تشير إلى الأرض أعلاه، أنها تشير إلى الهيمنة العسكرية والسياسية.

لابد من شرح هذا المفهوم بطريقة مختلفة جدا، فالقرآن يدل بشكل صريح على الإرث باعتباره إرث فردوس كما نرى في الآية التالية: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: 74].

الإرث الروحاني للنبي إبراهيم(عليه السلام)

كان النبي إبراهيم(عليه السلام) أول من نال وعدا بالأرض لذريته من بعده. فجاء في التوراة ((وتجلّى الله للنبي إبراهيم وأوحى إليه: هذه الأرض تكون لنسلك اللاحقين)) [التوراة، سفر التكوين 12: 7].

وأصرّ حواريو السيد المسيح أن الوعد بوراثة الأرض المعطى في البداية للنبي إبراهيم ينبغي أن يفهم بطريقة روحانية، وكتب الحواري بولس: ((فلَستُم بَعدَ الآنَ عَبيدًا، بل أنتُم أهلُ بَيتِ اللهِ، ووَرَثَةُ بَركاتِهِ تَعالى)) [الرسالة إلى أحباب الله في غلاطية 4: 7]. وجاءت إشارة قبل هذه المقولة بقليل مفادها أنّ البركة المشار إليها

هي بركة الله التي منحها للنبي إبراهيم: ((حَتّى يُنعِمَ اللهُ ببَرَكاتِهِ على المؤمنينَ بِهِ مِن كُلِّ الأُمَمِ، وَعدًا مِن اللهِ لسَيّدِنا إبراهيمَ، وعلى أساسِ الإيمانِ بالسَّيِّدِ المَسيحِ نَحظى بهِبةِ رُوحِ اللهِ وَفقًا لِما جاءَ في وَعدِهِ تَعالى)) [غلاطية 3: 14]. ويوجد تلميح لبركات الله على النبي ابراهيم في صلوات المسلمين اليومية عندما يطلبون من الله أن يصلّي على محمد وآله كما صلّى على إبراهيم وآل إبراهيم. وفي هذا نقطة التقاء بين المسلمين وبين أهل الكتاب.

الإرث الروحاني والنبي داود

كما رأينا أعلاه جاءت إشارة إلى كتاب الزبور في سورة الأنبياء، وفي المزمور الذي اشارت سورة الأنبياء إليه وردت فيه فكرة الوراثة خمس مرات:

﴿إنّ الأشرار يُستأصلون والّذينَ عَلَى اللهِ يَتّكِلونَ فالأرض يَرِثونَ﴾ [الآية 9]، و﴿أمّا الوُدَعاء فيَرِثونَ الأرضَ ويَنعَمونَ بِسَلامٍ عَميم﴾ [الآية 11]، و﴿إنّ اللهَ عليمٌ بأيّامِ الرّاشِدينَ، وَميراثُهُمْ يَدُومُ إِلَى أَبَدِ الآبدين﴾ [الآية 18] و﴿الَّذِينَ يُبَارِكُهُمُ اللهُ يَرِثُونَ الْأَرْضَ، وَالَّذِينَ يَلْعَنُهُمْ يُنْزَعُونَ مِنْهَا﴾ [الآية 22] و﴿المُخلِصونَ يَرِثُونَ الْأَرَضَ، وَيَسكُنُونَ فِيها إِلَى الأَبَدِ﴾ [الآية 29].

وكل هذه الجمل في المزمور 37 تعبر عن رؤية واحدة للوراثة. وتعتبر المزامير تأملا روحيا في وعود الله للنبي إبراهيم والوراثة لمن اتّبعوا نهجه في الإيمان.

العلاقة بين الإرث والخلافة

يشير الدكتور وليد صالح إلى أن جذر كلمة و-ر-ث يأتي بشكل متوازي في القرآن مع جذر لكلمة خ-ل-ف. ويضيف أنّ هذه الفكرة تتجلّى بوضوح في الآية التالية: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمۡ وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِى ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [النور: 55].

وكلمة خليفة في القرآن تنطبق أولا على آدم كونه خليفة الله في الأرض (انظر البقرة: 30) وعلى النبي داود ثانيا (ص: 26) وعلى كل البشرية ثالثا (الأنعام: 165).

وتقول التوراة إنّ آدم احتلّ هذا المنصب كخليفة الله: ((وأعطى الله الإنسان سلطة على السمك والطير وكل الحيوانات. نعم جعله مسؤولا على الأرض وعلى كل من فيها. وهكذا أصبح الإنسان خليفة الله في الأرض)) [سفر التكوين 1: 26-28]. أمّا بخصوص النبي داود(عليه السلام) فقد جاء عنه في كتاب الزبور: ((اسأل نورثك الأمم، والأرض بأكملها، ومن عليها)) [المزمور 2: 8].

الإرث الروحاني وسيدنا عيسى المسيح(عليه السلام)

وقدم السيد المسيح خلاصة حول المفهوم الروحاني للإرث الذي جاء في الكتب السماوية عندما قال: ((هَنيئًا للوُدَعاء مِن النَّاسِ، لأنّهُم وَرَثةُ الأرضِ)). وهذا القول للسيد المسيح هو بمثابة شعار لرسالته ولخطابه الافتتاحي الذي اعتبره بعض الدارسين خطابا عن أخلاق أهل المملكة الربانية (انظر الإنجيل، متّى 5: 1- 12) ويتجلّى في هذا الخطاب المفهوم الروحاني السليم للإرث كما جاء على لسان السيد المسيح(عليه السلام).

وورد ذكر آخر لمفهوم الإرث في تعاليم السيد المسيح في الإنجيل في هذه الآيات:

وتابَعَ سَيِّدُنا عيسى(عليه السلام) حَديثَهُ قائلاً: ((وعِندَ مَجيءِ سَيِّدِ البَشَرِ في هَيبتِهِ تُرافِقُهُ كُلُّ المَلائكةِ، سيَجلِسُ على عَرشِهِ المَجيدِ حَيثُ تَجتَمِعُ أمامَهُ جَميعُ الأُمَمِ، ويَبدأُ في الفَصلِ بَينَ العُصاةِ والمُطيعينَ كَما يَفصِلُ الرّاعي خِرافَهُ عن جِدائِهِ، فيَجعَلُ الخِرافَ عن يَمينِهِ والجِداءَ عن شِمالِهِ، ثُمّ يَلتَفِتُ إلى المُطيعينَ الواقِفينَ عن يَمينِهِ ويُقولُ لهُم: «إليّ يا مَن أنعَمَ عليهِم اللهُ أبي الصَّمَدُ، خُذوا نَصيبَكُم في المَملكةِ الرَّبّانيّةِ المُعَدّةِ لكُم مُنذُ خَلَقَ اللهُ العالَمينَ، وذلِكَ لأنّني كُنتُ جائعًا فأطعَمتُموني، وعَطِشًا فسَقَيتُموني، وغَريبًا فآويتُموني، وعارِيًا فكَسَوتُموني، ومَريضًا فعُدتُموني، وسَجينًا فزُرتُموني». ويُسَلِّمُ عليهِ الأتقياءُ قائلينَ: «يا سَيِّدَنا، كَيفَ ذلِكَ؟! متى رأيناكَ جائعًا فأطعَمناكَ، وعَطِشًا فسَقيناكَ، وغَريبًا فآويناكَ، وعاريًا فكَسوناكَ، ومَريضًا فعُدناكَ، وسَجينًا فزُرناكَ؟» فيُجيبُهُم المَسيحُ المَلِكُ قائلاً: «الحَقَّ أقولُ لكُم، عِندَما فعلتم ذلك

كلَّهُ مَعَ أتباعي، حتّى مَن كانَ مِنهُم مُحتَقَرًا، فكأنّكُم فَعَلتُم ذلِكَ كُلِّهِ مَعي)) [الإنجيل، متّى 25: 31–40].

ويعلّم سيدنا المسيح هنا بطريقة مفصّلة عن صفات ورثة بركات الله، وتجدر الإشارة إلى وجود تقارب بين هذه الكلمات للسيد المسيح وبين الكلمات الواردة في حديث قدسي.(1)

وقال حواريو السيد المسيح في كتاباتهم إنّ الإرث الموهوب للنبي إبراهيم انتقل إلى النبي داود ثمّ انتقل هذا الإرث مع الزمن إلى سيدنا عيسى بن مريم ألا وهو المسيح المنتظر والوريث النهائي لعرش المملكة الربانية. لكنّ السيد المسيح عليه السلام لم يتّبع نموذج النبي داود الذي سعى في حكمه إلى أساليب عسكرية من أجل إقامة القسط والعدالة، في حين أنّ سيدنا المسيح وصف حكمه بأنه لا ينتمي إلى هذه الدنيا (انظر الإنجيل، يوحنا 18: 36). وأظهر السيد المسيح الطاعة المطلقة لله إلى درجة الموت، وهكذا استحقّ المسيح كل الاستحقاق أن يرث المملكة الربانية.

ولكي نفهم طبيعة هذا الإرث الذي يوصف موصوف أيضا ببركة النبي إبراهيم يجب أن نشرع في البحث انطلاقا من آدم وننظر في طبيعة خلافته. إنّ جميع عناصر الخلق تعبّر عن صفات الله بطريقة ما، ولكن آدم وذريته يعبرون عنها بطريقة أعمق (انظر سورة الروم، الآية 30). ومثل عيسى عند الله كمثل آدم (انظر آل عمران: 59)، وإنه جاء رحمة من الله (مريم: 21). وبطريقة متشابهة يطلق الحواريون على سيدنا المسيح لقب «آدم الأخير» و«رُوحِ اللهِ وهو مَن سيُحيي أَرواحَنا». عندئذ يمكننا أن نستوعب كل التعابير المحيرة التي تتعلق بالبنوّة في كتب الأولين بما أنّها تشير إلى

(1) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ. يَا ابْنَ آدَمَ: اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي. يَا ابْنَ آدَمَ: اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي" رواه مسلم

الإنسان الذي يعبّر عن صفات الرحمان كما الابن الذي يعبّر عن صفات والده، ويأتي هذا التعبير ذاته عن آدم في الإنجيل (انظر الإنجيل، لوقا 3: 38). فالإرث الرباني من هذا المنطلق يعني أنّ المؤمنين يمكنهم الحصول على تأييد الروح الإلهية لكي يكملوا مهمّة آدم أي الخلافة التي أوكله الله بها، وأن يكونوا مجتمعا يعكس صفات الله المجيدة بعون روحه تعالى.

خاتمة

هناك عدد من الأشخاص والجماعات في أيامنا يسيئون فهم كثير من المفاهيم الإلهية الواردة في الكتب السماوية مثل الإرث والخلافة والسلطة، ويوظفونها في سبيل توجهات عنيفة وظلامية، سواء في مجال السياسة أو الدين. لذا من الضروري إدراك المفهوم السليم للإرث الربّاني الذي يتعلق في عمقه بصنع السلام والسعي إلى المصلحة العامة بين أمم العالم.

التّنزيه والتّشبيه في الكتب السّماوية

تتّفق كتب الوحي في الدّيانات الإبراهيميّة في وصف الله ربّا متعاليًا منزّها فوق الكون الذي خلقه، فلا شبيه له بشيء مادّي يستطيع الإنسان أن يراه أو يلمسه أو يصوّره، وهذا وفقا لما جاء في القرآن الكريم: ﴿لَا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103] و﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾[الإسراء: 43]. وأكّد النبي أشعيا(عليه السلام) هذه الحقيقة في الكتاب المقدّس: ((يا أيّها الناسُّ اعلِموا أنّ اللهَ لا شَريكَ لَهُ وأنّهُ مُنَزّهٌ عَن كُلِّ الأصنامِ)) [كتاب النّبي أشعيا: 40: 18].

مفهوم التّنزيه

لقد شرح الإمام الغزالي مفهوم التّنزيه في كتاب إحياء علوم الدّين:

«إنَّهُ (أي الله) أَزَليٌّ لَيسَ لوجُوده أوّلٌ وليسَ لوجُودِهِ آخِرٌ. وإنّه ليسَ بجَوهر يَتحيَّزُ بَل يَتعالى ويَتقَدَّسُ عن مُنَاسَبَةِ الحوادِثِ وإنَّه لَيسَ بِجِسم مُؤَلّفٍ مِن جَواهِرَ، وَلو جَازَ أنْ يُعتقَدَ أنَّ صانِعَ العَالَم جِسمٌ لَجازَ أنْ تُعتقَدَ الأُلوهيّةُ للشَّمْسِ والقَمرِ أو لشَيءٍ آخرَ من أقسَامِ الأجسَام فإذًا لا يُشْبهُ شَيئًا ولا يُشبِهُه شيءٌ بل هوَ الحيُّ القيّومُ الذي ليس كَمثْلِهِ شَيءٌ وأنّى يُشْبهُ المَخْلوقُ خالقَه».

وخلافا لهذا الكلام عن تنزيه الله نجد في حديث قدسيّ كلمات الله كما يلي: «كنتُ كنزًا مخفيًا فأحببتُ أن أُعرف فخلقتُ الخلق لكي أُعرف»[1]. فإذ نقرّ بمبدإ تنزيه الله لا بدّ أن نطرح هذا السؤال: بما أنّ الله يتعالى وينزّه عن كلّ ما خلقه، فكيف يكون بصلة بالبشر الفانين أو يتقرّب من مخلوقاته الفانية؟ ونعلم أن الله يبعث الملائكة أو يبعث نوره أو جلاله أو كلماته لكي يوحي إلى النّاس ولكن الكتب السّماوية تحتوي على بعض الآيات يصعب علينا إدراكها من هذه النواحي.

فيتقرّب كلّ من القرآن والتوراة بوصفهما لقصّة النّبي موسى في طور سيناء عندما طلب(عليه السلام) أن يرى الله جهرا، فجاء في سورة الأعراف طلب النّبي موسى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143]. ووردت رواية مشابهة في التوراة حيث قال النبي موسى ((أَرِنِي جَلاَلَكَ)) [سفر الخروج 33: 18].

واستجابة لطلب النبي موسى ذكر النّصّ القرآني أنّ الله تجلّى للجبل. فما الّذي جعل الجبل يتحوّل إلى تراب عندما ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾؟ ولماذا يؤكّد بعض المفسّرين أنّ جلال الله هو الذي تجلّى للجبل في حين أن القرآن يؤكّد أن ربّه تجلّى؟ وكيف من الممكن أن يخاطب الله النبي موسى مباشرة إذ جاء في القرآن ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: 164].

ونستطيع أن نرى في التوراة أيضا أنّ الله يتعامل مع البشريّة بطرق مختلفة، فهناك آيات تذكر أنّ الله تجلّى لبعض الأنبياء، وفي مواطن أخرى يذكر النّصّ أنّ الله خاطب النّاس مباشرة شأن آدم وحواء ونوح، وفي حالات أخرى أرسل الله ملاكا كما نرى في قصّة هاجر التي وردت في سفر التكوين. وفي بعض الحالات يظهر ملاك الله ويرافق ظهور الملاك وحي الله وكأنه كلام مباشر من الله للنبي (انظر قصّة النبي إبراهيم في الفصل 18 من سفر التكوين). ونرى في التوراة أيضا أنّ النّبي يعقوب تصارع مع كائن غيبي يشبه إنسانا وفي النهاية اكتشف(عليه السلام) أنّ ذلك الكائن كان ملاكا (انظر سفر التكوين الفصل 32). ووردت العديد من التفاسير

(1) بحار الأنوار: 87/ 199 ب 12 ح 6 (بيان).

حول هذه الأحداث الغريبة، ومن الممكن أن نعتبر أن متلقّي الوحي رأى ملاكا بينما سمع صوت الله.

مفهوم التشبيه

تأتي في الكتب السّماوية بعض الأوصاف للذّات الإلهيّة قد تثير التعجّب، فالقرآن مثلا ذكر﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [الفتح: 10] و﴿جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56] و﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾[الرحمن: 27، والقصص: 88]. وجاء في القرآن أيضا ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾[الفجر: 22]. بينما نعلم أنّ الله موجود في كلّ مكان. ويذكر القرآن أيضا أنّ الله استوى على العرش [الأعراف: 55، الحاقة: 17، وغيرهما من الآيات]. وكلمة «عرش» تأتي في السّياقات التي تتعلّق بالملوك في الدّنيا [النمل: 23]. ويرى أكثر العلماء المسلمين أنّ هذه الآيات هي من المتشابهات، ويشرحها الكثير من المفسّرين بالتأويل أي التفسير المجازي شأن الإمام الغزالي.

ووردت بعض الآيات في التوراة التي تذكر على المنوال نفسه «يد الله» «عين الله» «أصبع الله» «فم الله»و«قدمي الله». ولكن في سياق التوراة وغيرها من الكتابات اليهودية يبدو جليّا أنّ هذه التعابير هي مجازية ولا تفي بأي معنى ماديّ أو بيولوجي. وهذا ما قاله مفسّرو التوراة من اليهود ومن ترجم معاني هذا الكتاب، فعلى سبيل المثال جاء في التوراة أنّ النّبي موسى قال لبني إسرائيل: ﴿لِأَنَّ اللهَ أَخْرَجَكَ مِنْ مِصْرَ بِيَدٍ قَدِيرَةٍ﴾ [سفر الخروج 13: 9]، ولكنّه من الواضح في السّياق أنّ معنى هذا التعبير يتمثّل في أنّ الله أخرج بني يعقوب من مصر من خلال الآفات الرّهيبة التي أنزلها، ولذا جاء الفقيه اليهودي سعيد بن يوسف الفيومي، المعروف بسَعديا جاؤون (القرن 4 للهجرة \ القرن 10 للميلاد) بترجمة عربيّة لهذه الجملة حيث كتب: «بقدرة شديدة».

ووردت في كتاب الزّبور بعض الآيات التي تعبّر عن قدرة الله وحمايته للنّاس باستعمال الصخر أو الترس مجازيا (انظر كتاب الزّبور، المزمور 18: 2).

ومن الواضح أنّ الكتب السّماوية تتضمّن بعض التّشابيه التي يمكن للإنسان استيعابها مثل تلك التي تصف أعمال الله وصفاته الحميدة. فمع أنّ الله يفوق الأبصار والإدراك البشري، فالله يرسل الوحي ويتنزّل إلى قدرتنا البشرية لكي نفهم الحقائق الأساسيّة عن ذاته تعالى. ويشير ابن العربي إلى «ذات الذات» الإلهية التي لا يستطيع الإنسان أن يدركها، بينما يذكر أيضا «الذات الأسمى»، أي الذات الإلهية الموصوفة بصفات نستطيع أن نفهمها بمعرفتنا البشريّة ومنطقنا.

التشبيه في ترجمات الكتاب المقدس

انتقد الجاحظ (القرن 3 للهجرة \ القرن 9 للميلاد) ترجمات التوراة الواردة في أيامه قائلا إنّها عويصة على القارئ حتّى يقرأها وركيكة الأسلوب، فذكر: «إنّ القوم إنّما أتوا من قلّة المعرفة بوجوه الكلام، ومن سوء الترجمة، مع الحكم بما يسبق إلى القلوب. ولعمري أن لو كانت لهم عقول المسلمين ومعرفتهم بما يجوز في كلام العرب، وما يجوز على الله، مع فصاحتهم بالعبرانية، لوجدوا لذلك الكلام تأويلا حسنا، ومخرجا سهلا، ووجها قريبا.»[1]

ورغم انتقاد الجاحظ الشديد، سعى بعض المفسّرين والمترجمين من اليهود أن يترجموا معاني التوراة بلغة عربيّة سلسة ومفهومة، وقدّموا في ترجماتهم تفاسير لبعض السّياقات الملتبسة، واتّبعوا في ذلك مسار آباءهم الذين ترجموا معاني التوراة ابتداء بالترجمة اليونانية التي تسمّى الترجمة السبعينية وهي أوّل ترجمة للتوراة وغيرها من كتب الأنبياء، أي العهد القديم. وخلال تطوير الفكر الدّيني عند اليهود رأوا أن محتوى الوحي في الكتب المقدسة يؤكّد أنّ الله منزّه فوق مخلوقاته، ففسّروا كتب الوحي استنادا إلى هذه الحقيقة. والآن سننظر في بعض الأمثلة لتفسيرهم على هذا النّحو.

الصنف الأوّل من النّصوص في التوراة يشير إلى أعضاء من الجسم البشري.

(1) من كتابه «الرد على النصارى».

فالحاخام سعديا سعى إلى تحديد قصد الكناية المشار إليه في النص، فجاء مثلا في النص التوراتي كلمات تقابل ما يلي: ((سَاءَ عَمَلُهُ هَذَا فِي عَيْنَي الرَّبِّ)) [سفر التكوين 38: 10]. بينما جاء في ترجمة سعديا ((ساء عند الله)). وفي سياق آخر في التوراة هناك تعبير في اللغة العبرية يقابل ما يلي: ((بِكُلِّ مَا يَخْرُجُ مِنْ فَمِ ٱلرَّبِّ يَحْيَا ٱلْإِنْسَانُ))، أمّا سَعديا فترجم معاني هذه الآية كما يلي: ((بل على جميع قول الله يعيش)) [سفر التثنية 8: 3].

وهناك نوع ثان من التشابيه وفيه أفعال تشير إلى الحركة، وبما أنّ الله موجود في كل مكان، وهو لا يتقيّد بمكان واحد فمن الممكن للمفسّر أن يرى في هذا التشبيه إشارة إلى تجلّيات الله. فجاء في نص التوراة العبري كلمات تقابل ما يلي: ((وَنَزَلَ ٱلرَّبُّ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ)) (سفر الخروج 19: 20). وجاء في ترجمة سعديا الفكرة نفسها كما يلي: ((إذ تجلّى ملاك الله على جبل سيناي)). وعبّر عالم يهودي آخر اسمه يافث بن علي عن محتويات هذه الآية إذ كتب: ((ونزل جلال ربّ العالمين)). ووردت آية قرآنية على هذا المنحى تقول: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: 210]. ويرى المفسرون المسلمون أن هذه الآية لا تعني أن الله ينتقل من مكان إلى آخر أو أنه موجود في مكان واحد.

وهناك نوع آخر من التشابيه وفيه بعض الأفعال التي تشير إلى البصر أو العلم أو السّمع. وبما أنّ الله يعلم كلّ شيء فقد جاء في التوراة العبرية آية تقول: ((وَرَأَى اللهُ أَنَّ النُّورَ حَسَنٌ)) (سفر التكوين1: 4)، بينما جاء في ترجمة سعديا أن الله ((عَلِمَ أنَ النّورَ جَيّدٌ)). وفي النصوص الإسلامية توجد تعابير مشابهة لذلك. إذ جاء في سفر التكوين ما يقابل: ((وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الأَرْضِ)) [التكوين 6: 5]. وقد يفهم القارئ من هذا التعبير أنّ الله لم يلاحظ شرّ الإنسان حتّى تلك اللّحظة. أمّا القرآن فيتجاوز مشكلة هذا التعبير إذ يأت باسم وليس بفعل: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف: 19]. وجاء في التوراة في قصّة آدم الكلمات التالية من الله: ((فَنَادَى اللهُ آدَمَ وَقَالَ: أَيْنَ أَنْتَ؟)) [سفر التكوين 3: 9]. ولكنّ السؤال يأتي بشكل أوضح ضمن حديث قدسي حيث قال الله: «يَا آدَمُ، أَفِرَارًا مِنِّي؟».

خلاصة

في الفترة التي امتدت بين القرن الثاني والقرن الرابع للهجرة (ما بين القرن السّابع والقرن العاشر للميلاد) أقرّت المعتزلة أنّه من الضروري أن نعتبر تعابير قرآنية من قبيل «يد الله» كمجاز يشير إلى قدرة الله وهيمنته، بينما قالت الأشعريّة في ما بعد إنّه من الواجب على المرء أن يتقبّل حقيقة ما يأتي في التشبيه «بلا كيف». ورأينا هنا كيف اختلف اليهود والمسيحيون فيما بينهم أيضا حول كيفيّة تفسير الكتب المقدّسة وترجمتها. فيواجه المؤمنون المنتمون إلى الدّيانات الإبراهيمية الثلاث إشكاليات متشابهة في تفسير التشابيه في الكتب السّماوية فلابدّ من قراءة هذه الكتب بقلوبنا وعقولنا على حدّ سواء حتّى نستوعب المقاصد الإلهية في هذه النصوص المقدّسة.

مفهوم الميثاق أو العهد الإلهي

ذكرت التوراة وغيرها من كتب الأولين عدة مرات أنّ الله أقام ميثاقا أو عهدا مع بعض الأنبياء. ولابد من البحث في معاني هذه المواثيق الإلهية ضمن إطار مقاصد الله الكبرى للبشرية. ومن أهم المواثيق في الكتب السماوية، تلك التي أقامها الله مع النبي نوح وإبراهيم وموسى وداود (عليهم السّلام)، بالإضافة إلى الميثاق الجديد الذي ذكره النبي إرميا(عليه السلام) في نبوءاته.

وتحتل فكرة الميثاق مكانة بارزة في الديانات الإبراهيمية. فالقرآن مثلا يشير عدة مرّات إلى ميثاق أقامه الله مع الأنبياء أو مع أقوامهم كما جاء في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ [الأحزاب: 7]. وأيضا في سورة آل عمران: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران : 187]، وفي سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[البقرة : 83].

وفي التوراة يقيم الله ميثاقا مع النبي نوح ومع إبراهيم وذريته ومع قوم موسى، كما يقيم ميثاقا مع النبي داود في كتاب الزبور (المزامير). ولكي نفهم طبيعة هذه المواثيق بطريقة شامله نحتاج أن ننظر إلى كيفية استعمال لغة الميثاق في عصر الأنبياء الأوّلين وإلى الأفكار التي تتعلّق بالميثاق مثل محتوياته وواجباته. ويرى العديد من

الباحثين أنّ المواثيق التي تمّ وصفها بالتفصيل في التوراة تتشابه كثيرا مع مواثيق أخرى قديمة عثر عليها علماء الآثار. ومن بين تلك المواثيق القديمة ما وُجد في كتابات الحثّيين وسكّان بلاد الرّافدين القدامى. ولابد من النظر فيها لتسليط الضوء على هذه المفاهيم القديمة.

ومن المتعارف عليه تحديدا أنّه يوجد صنفان مختلفان من الميثاق: أوّلا الميثاق الذي يفرض واجبات على الناس مثل واجبات طرف مغلوب على أمره نحو طرف آخر أقوى منه، مثل الواجبات التي تقدمها مملكة مغلوبة نحو مملكة انتصرت عليها. وينصّ هذا الميثاق على معاقبة الطرف المخالف له في حال عدم تنفيذه لواجباته. أمّا الصنف الثاني من المواثيق فيصف منح الحقوق أو الامتيازات في أغلب الأوقات ويخصّ شخصا معيّنا وأهله مقابل إخلاصه في خدمة شخص آخر. ويُسمّى الصنف الثاني ميثاق الوعد، أمّا الصنف الأوّل فيُسمّى ميثاق الواجبات.

ميثاق الله مع نوح(عليه السلام)

وترد الإشارة الأولى إلى الميثاق في التوراة بخصوص النبي نوح(عليه السلام) بما أنه كان مخلصا لله ومطيعا له، إذ بنى سفينة لنجاته مع بعض أفراد عائلته وأنواع مختلفة من الحيوانات. وأعلن الله عن ميثاق، فلن يدمّر الأرض مرّة أخرى بطوفان، وستستمرّ فصول السنة ومواسم الحصاد دون انقطاع. ويأتي ذكر عنصر هام يتعلّق بهذا الميثاق وهو علامة ميثاق الله أي قوس القزح الذي بعثه الله في السماء. فأقام الله هذا الميثاق عن طريق الوحي الموجّه للنبي نوح وأيضا إلى ذريته ويشمل كلّ المخلوقات. ولسائل أن يسأل عن وجود واجبات في هذا الميثاق. بالطبع توجد بعض الواجبات الأخلاقية التي فرضها الله على البشر، بما فيها منع سفك الدّماء وأكل اللحم الذي يحتوي على الدم. ووصف العلماء اليهود هذه الواجبات فيما بعد بوصايا النبي نوح وعددها سبع. واعتبروها مفروضة على كل البشرية باختلاف فرائض أخرى في الشريعة اليهودية التي تنطبق على اليهود وحدهم. ويفترض بعض الباحثين وجود ميثاق قبل ذلك

مع أبينا آدم رغم أنّنا لا نجد ذكرا لميثاق مع آدم في التوراة أو الزبور. ويعتقد بعض المسيحيين بوجود هذا الميثاق. وفي التوراة يرد تعبيران بالنسبة إلى تدشين الميثاق، الأوّل هو إقامة الميثاق، والثاني هو قطع الميثاق وقد جاء في أغلب الأوقات. وبما أننا نجد عبارة إقامة الميثاق فيما يخصّ النبي نوح وكل البشرية، فمن المحتمل أنّ هذا الميثاق تجديد لميثاق يسبقه.

ميثاق الله مع إبراهيم(عليه السلام)

أما بخصوص النبي إبراهيم فتشير التوراة أكثر من مرّة إلى أنّ الله قد قطع ميثاقا معه وعلامة هذا الميثاق مع النبي إبراهيم كان الختان. ومن الممكن أن ننظر إلى هذا الميثاق باعتباره ميثاقا للوعد وقد منحه الله مقابل وفاء إبراهيم لله وإخلاصه له، ولأنه كان مستعدّا لتقديم ابنه ذبيحا لله عندما أمره الله تعالى بذلك. ومحتوى هذا الميثاق هو الوعد الربّاني بأنه تعالى سيمنحه عددا كبيرا من الذرّية وأرضا يسكن فيها وأن يكون إبراهيم بركة للعالمين، ولكن تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الوعد الأخير ذُكر قبل إقامة الميثاق مع إبراهيم كما جاء في التوراة. فهل نستطيع أن نفهم وعد الله للنبي إبراهيم بأن يرزقه بذرّية كثيرة وأن يعطيه ميراثا عظيما إنّما يقصد منه أمورا روحيّة؟ وهذا الأمر يحتاج إلى كثير من التأمل ولكن من الجليّ أنّ ذرّية النبي إبراهيم أصبحوا مع قدوم السيد المسيح كثيرين جدا من خلال إيمانهم، وصاروا يفوقون عدد الذين ينحدرون من نسل النبي إبراهيم. وتكشف التوراة في وصف ميثاق إبراهيم أنّ ميثاق الوعد ربما يحتوي على ميراث. وقال الحواري بولس موضحا ميثاق الله مع النبي إبراهيم إنّ الله وعد إبراهيم وذرّيّته بأنّهم ورثة الأرض بأكملها. ونجد فكرة مشابهة في سورة الأنبياء، الآية 105: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

ميثاق الله مع موسى(عليه السلام)

الميثاق الذي أقامه الله مع النبي موسى يتّصف في أكثر أبعاده بميثاق الواجبات.

فالله بدوره كان وفيا للنبي إبراهيم الذي اصطفاه، وأخرج قوم موسى من مصر وخلّصهم من طغيان فرعون. فكان هذا الميثاق بمثابة وسيلة لقوم بني يعقوب ليعبّروا عن إخلاصهم لله وطاعتهم له تعالى. فالميثاق يحتوي على الشريعة لكي يتّبعوها. ويأتي وصف مكان العبادة بالتفصيل وعليهم أن يبنوه. وعلامة الميثاق (وتدعى شهادة الميثاق أيضا) هو صندوق الميثاق الذي يحتوي على بعض الأشياء التي جاء ذكرها في القرآن: ﴿يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ [البقرة: 248].

مع أنّ هذه الآية القرآنية تتعلّق بالملك طالوت لكنّها تشير إلى عنصر آخر لبعض المواثيق الإلهية ألا وهي السلطة أو الملك.

ميثاق الله مع داود (عليه السلام)

لننظر الآن في ميثاق الله مع النبي داود، ففي كتاب الزبور، جاء خبر مفاده أنّ الله أقام ميثاقا مع داود ((ربّي أما كانَ وَعدُكَ حَقّا: «لَقَد عاهَدتُ الّذي اصطَفَيتُ، أنا الّذي أَقسَمتُ لِداوُدَ عَبدي: باقٍ إلى الأبَدِ نَسلُكَ، وجِيلاً فَجيلاً على العرش أحفَظهم»)) [المزمور 89: 3-4].

ومن الواضح أنّ هذا الميثاق ينضمّ إلى مواثيق الوعد وهو مبني على اصطفاء الله للنبي داود واستجابة داود وإخضاعه له. فلا وجود لواجبات فرضت على النبي داود كما لا توجد علامة معيّنة في هذا الميثاق ولكنّ الأهمّ هو محتوياته، ولابد أن ننظر إلى صلة هذا الميثاق بميثاق الله مع النبي إبراهيم. هل هو الميثاق نفسه أو ربما تطوير لميثاق إبراهيم وما يحتويه من وعود؟ نرى في المزمور الثاني من كتاب الزبور محتوى ميثاق الله مع النبي داود وكيف أوحى الله أنّه ميراث منه تعالى. قال تعالى: ((اسأَلْ نُورِثْـكَ الأُمَمَ والأَرضَ بِأَكمَلِها، وَمَن عَلَيها)) [المزمور 2: 8]. فهل نفهم هذا الوعد بطريقة مادية؟ وهل من الممكن أن نفهمه ونفسره بطريقة روحانية؟ واضح أننا يمكن أن نرى في هذه الآية وعدا بالملك للنبي داود كما جاء في الآية القرآنية عن الملك طالوت، ولكن هل المقصود من هذه الآيات الهيمنة الدنيوية أم هو ملك يضطلع به الأنبياء؟

ومع مرور قرون من الزمن، تساءل أنبياء بني اسرائيل عن استمرارية ميثاق الله مع قوم موسى، إذ رأوا أنّ قومهم جحدوا هذا الميثاق وخالفوه مرّة تلو الأخرى كما ورد في كتب الأوّلين. فهل يكون الله وفيا لهذا الميثاق رغم جحودهم؟ وماذا سيفعل الله تعالى ردا عليهم؟ نستطيع أن نرى في نبوءاتهم كيف شعروا بتردّد داخلي شديد كما أورد ذلك أحد المفسرين. ويأتي على ألسنتهم وحي من الله كيف أنّه تعالى سيقيم ميثاقا جديدا وينقشه على قلوب المؤمنين. وقال النبي حزقيال (ذو الكفل) أنّ هذا الميثاق الجديد سيكون مثل إحياء رفات عدد كبير من الأموات.

ويجدر بنا أن نسأل كيف تختلف لغة المواثيق في الديانات الإبراهيمية عن وصف المواثيق في الديانات الأخرى في القديم؟ يبدو أنها تختلف اختلافا كبيرا، إذ فهم أتباع الدّيانات الوثنية الميثاق بطريقة هرمية حيث فرض الملك والكهان هيمنة إلههم أو صنمهم، وكان الملك يمثّل الصنم بين العباد أمّا عامّة الناس فكان عليهم تقديم الأضاحي والالتزام بقوانين العبادات، أمّا في الديانات الإبراهيمية فيشير ذكر الميثاق إلى رغبة الله في الصلة بينه وبين المؤمنين وهي صلة تتّصف بالثقة واليقين. ويستطيع العباد أن يعرفوا من خلال الميثاق وفاء الله ومحبته، ويمكن لكلّ مؤمن أن يختبر هذه الصّلة الحميمة المباركة.

ميثاق السيد المسيح

وفي النّهاية علينا أن ننظر إلى ميثاق السيد المسيح عليه السلام، هل هو ميثاق جديد؟ وما علاقة هذا الميثاق بمواثيق إبراهيم وداود وموسى (عليهم السّلام)؟ عندما جاء الملاك جبريل ليبشّر العذراء مريم بولادة ابنها أعلن لها: ((يولّيه الله عرش سلفه النّبي داود)) [الإنجيل، لوقا 1: 32]. ونرى في هذا الإعلان كيف حظي السيد المسيح بالملك الذي منحه الله للنبي داود.

وهل يكون هذا الملك بمثابة السّلطة الدنيوية، به يطغى ويظلم الناس؟ كلاّ! فالسيد المسيح يشرح بطريقة واضحة طبيعة الملك الذي حصل عليه هو وأتباعه الذين شاركوه في ميثاقه: ((أما تَعلَمونَ أنّ مَن يُهَيمِنُ على الأُمَمِ رُؤساؤُها، وأنّ مَن

يَتَسلّطُ عليها عُظماؤها؟! فلا يَكونُ هذا فيكُم، ألا إنّ العَظيمَ فيكُم مَن خَدَمَ قَومَهُ، ومَن أرادَ مِنكُم أن يَكونَ سَيِّدًا فلْيَكُن عَبدًا لجَميعِ النّاسِ، لأنّهُ حَتّى سَيِّدُ البَشَر، إنّما جاءَ لا لِيَخدِمَهُ النّاسُ، بل ليَقومَ هو بخِدمتِهِم وليُضَحِّيَ بحَياتِهِ ليَفديَ الكَثيرينَ مِنهُم)) [الإنجيل، مرقس 10: 42–45].

أليس هذا الملك هو الملك نفسه الذي أعطاه الله لأبينا آدم؟ إنّه الخلافة التي منحها الله لآدم لكي يعتني بكلّ ما خلقه الله. أليس الملك على هذا النحو بركة للأمم كما وعد النبي إبراهيم من خلال ميثاقه معه؟ أجل، وإنه عمارة خلق الله من خلال الوراثة الإلهية والميثاق الجديد بواسطة طاعتنا له الناتجة عن روح الله التي حلّت في قلوبنا.

عبقرية الفكر الديني في كتاب النبي يونس

بقلم الدكتور أديب عوض

كتابُ النبي يونس كتاب عقائدي بامتياز، وقد نقله إلينا واحد من أهم المفكّرين في المجال الديني وفي تاريخ العالم. وهذا الكتاب لا يتعدّى الصفحات الثلاث ونصف في الكتاب المقدّس، لكن عبقريّة هذا الكتاب تكّمن في أسلوبه القصصي المكثّف لتوضيح عقيدة محوريّة شمولية لم ينفرد بها وحده، وإنّما شكَّل أساسَ عقيدة كل الأنبياء الأوّلين وشرْحًا للمَبْدَإ الّذي نراه في قول السيد المسيح لنيقوديموس، أحد علماء التوراة (انظر الإنجيل، يوحنا الفصل الثالث).

إنّ موضوع كتاب النبي يونس هو: الله ربُّ الجميع (انظر يوحنا 3: 16)، وكل شعوب الأرض هم شعب الله (انظر الإنجيل، متى 9: 3 ولوقا 8: 3)؛ وعلى هذا الأساس يختصر كتاب النبي يونس، بصفحاته الثلاث ونصف، رسالةَ الأنبياء جميعًا قبل ظهور السيد المسيح.

ويتجلّى بكلّ وضوح في هذا الكتاب فكر عقائدي عبقري، لا يخضع لقانون زماني أو مكاني من أجل إيصال رسالةٍ إيمانية مقنعة؛ لذلك فإنّ قارئ القصّة يؤخَذ بجدّية النص في سرده، ويشعر بقوة سلاسته، وأن ما يقرأه قد حدث فعلا!! إن هذه القصّة مليئة بالحقائق العقائدية التي تهدف إلى مواجهة نظريات عقائدية سادت في تلك الفترة، ولكن القارئ قد يؤخذ بظاهرها ولا ينفذ إلى عمقها.

قال الله تعالى: ((يا يونس اذهب إلى نينَوى، المدينة العظمى، وأخبر أهلها بأنّي سأدمّرها تدميرا، إنّي كنت بما يقترفونه من شرور سميعا بصيرا)) [كتاب النبي يونس، 1: 2]. صحيح أن الأنبياء الأوّلين تكلّموا عن الله كسلطانٍ، باعتباره ربّ الجميع، الأمم والقبائل والشعوب. لكنّ كتاب النبي يونس ينفرد بإشارته الواضحة إلى أنّ الله يراقب الأمم ويريد توبتها. لماذا يهتمّ الله بتوبة شعبٍ وثني؟ إنّ كلّ الأنبياء تحدّثوا عن اهتمام الله بتوبة بني إسرائيل، ولكنّنا نرى في هذا الكتاب أنّ الله يهتمّ بتوبة كل شعوب الأرض. ونينوى هي المدينة العالميّة التي تضمّ خليطاً من كلِّ الشعوب والألسنة؛ وهي مقرّ السلطة.

تبدأ قصّة النبي يونس، إذن، بتحدٍّ صارخ لكل ما اعتقده بنو إسرائيل من أن اهتمام الله بالأمم ينحصر في إدانتهم - لا في نجاتهم. لكنّ الله هنا يبغي توبةَ نينوى ونجاتها بدافع الشفقة (انظر كتاب النبي يونس 4: 11).

إنّ من سجل الوحي في كتاب النبي يونس هو المفكّر الديني الكبير والفريد الذي ينطق بالعقائد الإلهية الحقيقية ، وهو -في الآن ذاته- بطلُ القصّة الذي يجسّد شعب بني إسرائيل الأناني المتمرّد على الله، والرافض أن يكون الله ربَّ الجميع، محباً لهم، ومريدا الخير للجميع.

دعا الله النبي يونس أن يذهب إلى نينوى، ولكن هذه الدعوة لم تَرُقْ له، خصوصاً أنّه يعرف في قرارة نفسه أن الله ((رحمن رحيم)) [4: 2]، ويريد النجاة لجميع النّاس، ويدعوهم إلى معرفة الحقّ فيُقبلون.

إنّ النبي يونس يعلم علم اليقين أنَّ الله لا يريد الموتَ لمن ارتكب خطئية...

لذلك، قرّر أن يفرّ إلى مكان لا يوجد فيه الله، إلى مكان ليس لله سلطان عليه ... فهرب إلى حيث يحكم إلهٌ آخر - إلى مملكة الإله بوزيديون ... حيث المياه، ولا يمكن لله أن يطال بطلَنا؛ فاستراح ونام مطمئنًا في جوف السفينة (1: 5)؛ فارتاح من لجاجةِ الله.

وفي اختبارِ العاصفة الهوجاء يُطلِعنا النّبي يونس باعتباره مفكرًا لاهوتيًا على حقائق إيمانية أساسيّة:

1 – سلطان الله سلطانٌ مطلق على كل الكون، وهو –لا الإله بوزيديون– يتحكّم بالمياه والأعماق؛ لذلك جعل لله يونس العبراني يقرّ بهذه الحقيقة: ((الله وهو ربّ العالمين، خالق البحر والبرّ)) (انظر كتاب النبي يونس1: 9)؛ وجعل البحّارة الوثنيين يقرّون بذلك أيضا (1: 16).

2 – الله الذي هو ربّ البحر والبرّ، يتحكّم في أعماقِ البحار وما يدور فيها. وهو الّذي يوجّه حركات البحار بحسب مقاصده الصالحة: ((وأرسل الله حوتًا عظيمًا)) [1: 17].

3 – الله لا ينتقم من المتمردين عليه ، بل يجد لهم سبيلاً حتّى يعودوا إلى صوابهم.

4 – في جوف أعماق البحار يسمع الله مَن دعاه: ((وإن نزلتُ إلى الأرض السفلى، فأنت هناك يا الله)) [الزّبور، مزمور 139: 8]، ((وإنّي للخلاص من دركات الموت بك أستعين، وأنت يا ربّ لصوتي سميع عليم)) [كتاب النبي يونس 2: 1].

ويتضمّن الفصل الثاني من كتاب النبي يونس دعاء وجّهه إلى الله من جوف الحوت؛ وهو دعاء يفيض في عمقه بالحقائق الإيمانيّة الراسخة.

إن المهمّ في هذه القصة أن الله يعيد النبي يونسَ إلى دعوته الأولى التي قابلها بالتمرّد؛ فيقبل بها هذه المرّة ويتجه نحو نينوى. ولا يفوتُ النبي يونس أن يُبرزَ حقيقةً إلهية ناصعة، وهي أن نينوى هي مدينة عظيمة لله [كتاب النبي يونس 3: 3][1]. نعم، إنّ الله يعتبر نينوى مدينة عظيمة، ويريدها مخلصة له وتائبةً إليه تعالى.

وعند وصول النبي يونس إلى نينوى؛ نادى للتوبة وقبل أن يُتمّ ثُلثَ مناداته، آمن أهل المدينة كلّها، وعلى رأسهم الملك. وأمر الملك بأن يتوب النينويّون عن الشّرّ والظلم اللّذين يمارسونهما ... فتاب الله عليهم وعدل عن حكم إدانته للمدينة [3: 4–3].

(1) أوردنا هذا التعبير حرفيا كما جاء في النص العبري.

في الفصل الرابع، (الآيات 1-3)، يُبرز النبي يونس باعتباره بطل القصّة موقفَ بني إسرائيل العنصري من محبّة الله للعالم. فاغتاظ بنو إسرائيل لأن الله قَبِلَ توبة الأغراب. وبنو إسرائيل - وإن كانوا يعرفون أن الله رحمن رحيم، طويل الإمهال، توّابٌ حليم، ولا يريد الشرَّ للبشر، إلّا أنّ النبي يونس كره حياته (في إشارة إلى بني إسرائيل) بسبب موقف الله هذا، وفضّل الموت على الحياة.

وتتضمّن الآية 4 سؤالا مهمّا، هو في الواقع سؤال يونس اللاهوتي لبني إسرائيل: هل من حقّكم أن تصوّروني كارهاً لغيركم من الأمم؟ هل من حقّكم أن تسجنوني في زنزانة عنصريتكم؟ هذا هو معنى سؤال الله: ((بأيّ حق تحتجّون على ما أفعل؟)).

أمّا حادثة «اليقطينة» ففيها يتجلّى اللاهوت الحقيقي، ومحبّة الله الشاملة. نلاحظ أن الله يعيد السؤال مرّة أخرى: ((بأيّ حق تحتجّون على ما أفعل؟)) [آية 9]؛ لكن السؤال الأهمّ هو: ((كيف لا أرحم مدينة نينَوى العظيمة بسكانها المائة والعشرين ألف أو يزيدون، وكلّ دوّابها؟ إنّ أهلها في عماهم يتخبّطون ولا يميزون طريق الشمال عن طريق اليمين)).

1 - فكيف لا أرحم مدينة نينوى إذن؟

هذه لغة لا يحبّها بنو إسرائيل، لأن شفقةَ الله يجب أن تنحصر فيهم، بينما النقمة للأغراب. بهذا السؤال يدين يونس اللاهوتي المفهومَ الإسرائيلي لعلاقة الله معهم ومع العالم.

2 - شفقةُ الله على المكان تقوم على محبّته لمخلوقاته من إنسانٍ وحيوان، وإخلاصه تجاههم. وما أروع ذكر الدوّاب هنا، وأشدَّ دلالتها!

فبنو إسرائيل «فرضوا» على الله أن يكره الإنسان الآخر؛ وألصقوا به تهمة العنصرية والحقد والسادية عندما قالوا بأن الله كان يأمرهم -عندما يدخلون مدينةً- بقتل كل نفس بحدّ السيف، بما في ذلك البهائم! هنا يونسُ اللاهوتي يُظهر لهم تحويرَهم لمقاصد الله، إذ يكون رضوان الله لا بموت الأغراب، بل بحياتهم وتوبتهم، ولا يرضى بقتل الحيوان، بل بالحفاظ عليه.

في يوحنا 3: 16 يقول السّيد المسيح لنيقوديموس بأن الله أحبّ العالم، ويستخدم الحواري يوحنا كلمة «كوزموس» – أي الكون. فنجاة الله هي نجاة كونية، لا تنحصر في شعبٍ، ولا في أمّةٍ، ولا في مدينة، ولا في عالمٍ ... بل الله وسع الكون – الكوزموس. كم كانَ ربُّ بني إسرائيل صغيراً في اعتبارهم!! يذكّرني هذا بكتابٍ صغير باللغة الإنجليزية قرأتُه عندما كنت طالباً جامعياً، وعنوانه يتضمّن ما معناه «صورتك عن الله صغيرة للغاية».

3 – لاحظوا عبارة «لا يعرفون»، ألا يذكّرنا هذا بقول الحواري بولس في رسالته الخالدة إلى جماعة المؤمنين في مدينة روما؟ ((أيُعقلُ أن يَطلبَ النّاسُ عَونَ السّيّدِ المَسيحِ، وهم لا يؤمنونَ بِهِ؟ وكيفَ يؤمنونَ بِهِ ولم يَسمعوا عَنهُ؟ وكَيفَ يَسمَعونَ ولم يُخبرهُم أحدٌ عنه؟))

ولكن جاء كلام الله على لسان النبي يونس بهذا المعنى: يا بني إسرائيل؛ لقد اخترتكم لتكونوا دعاة باسمي في هذا العالم. اختياري هو اختيار خدمة – لا اختيار امتياز. فإن لم يعرفْني العالم، فإني سأعاقبكم أنتم على عدم إيمانهم. هذا تماماً ما أوحى الله به على لسان النبيّ حزقيال (ذو الكفل): ((وَحَيْثُ أَنَّكَ لَمْ تُنْذِرْهُ، فَهُوَ يَهلَكُ فِي شَرِّهِ، وَلا أَذْكُرُ مَا عَمِلَهُ مِنْ صَلاحٍ، وَلَكِنَّكَ تَكُونُ مَسْئُولا عَنْ هَلاكِهِ)) (انظر سفر النبي حزقيال 3: 20)، وجاء أيضاً: ((فَعِندَمَا أَقُولُ لِلشِّرِّيرِ: أَيُّهَا الشِّرِّيرُ، عِقَابُكَ الْمَوْتُ، وَلَكِنَّكَ لا تُحَذِّرُهُ لِيَرْجِعَ عَنْ سُلُوكِهِ، فَهَذَا الشِّرِّيرُ يَهْلِكُ فِي شَرِّهِ، وَلَكِنَّكَ تَكُونُ مسؤولا عَنْ هَلاكِهِ)) [كتاب النبي حزقيال 33: 8].

إنّ الله سيجعل من لم يحذّر عامل الشرّ مسؤولا عن هلاكه. وهنا جاء عتاب الله الموجّه إلى النّبي يونس بطل القصّة (الذي يرمز إلى بني إسرائيل): «لأنهم لا يعرِفون، سأجعلكم مسؤولين عن جهلهم». هنا تتجلّى ذروة التعليم الإلهي إلى كلّ مَن آمن بالله تعالى.

إشكالية العنف

إشكالية العنف في الكتاب المقدّس

يشعر الكثير من القراء المعاصرين بقلق شديد تجاه بعض الأوامر التي تنسب إلى الله والتي نجد لها أثرا في التوراة وغيرها من كتب الأولين. ونذكر على سبيل المثال ما جاء في كتاب النبي صموئيل الأوّل بشأن أمر الله بخصوص شعب بني عماليق: ((امح كل شيء من الوجود... لا ترحمهم، اقض عليهم جميعا... حتى الأطفال والرضع)) (انظر كتاب النبي صموئيل الأول 15: 2– 3).

وقد لقيت مثل هذه الفقرات الكتابية رواجا بين عدد كبير من الناس الذين قاموا بتوظيفها في كثير من الأحوال لتبرير سفك الدماء باسم الله، مثلما حصل في الحروب الصليبية وعبر مراحل التاريخ الأمريكي حيث استخدم القساوسة المسيحيين هذه النصوص في خطاباتهم لتبرير إبادة الهنود الحمر.

وفي سبيل الدفاع عن الكتاب المقدّس يشعر كثير من المسيحيين أنه من الضروري أن يدافعوا عن هذه الفظائع أو يبرّروها. ولكن هل من الضروري فعلا أن يدافع أحد عن العنف باسم الله ويبرّره لكي يظل مخلصا لكتاب الله؟ في الحقيقة هناك خيار أفضل يمكن أن نجده عندما نتعلّم كيفية قراءة كتب الأنبياء الأوّلين على منوال قراءة الحواري بولس لها.

اهتداء بولس إلى الإيمان بالسيد المسيح

وكي نصل إلى هذا الغرض من المهمّ أولا أن نفهم كيف اهتدى الحواري بولس إلى الإيمان بالسيد المسيح، وهو إيمان ترك به موقفه الديني الذي تميز بحماس شديد وعداوة عنيفة تجاه الأغراب. كان بولس في البدء عضوا غيورا من الطائفة اليهودية المتحمسة (الفريسيّين)، كما كان يضطهد الجماعات من أتباع السيد المسيح بكل قسوة، إذ اشترك في رجم اسطفان حتى الموت، وقد كان اسطفان من أوائل أتباع السيد المسيح (انظر سيرة الحواريين 7: 54- 58).

ولكن بعد أن تجلّى السيد المسيح له بطريقة خارقة، اعترف أن ما اقترفت يداه في الماضي من عنف باسم الله لم يكن في الحقيقة من الإخلاص لله وإنما كان إثما كبيرا في حقّ الله. فتاب بولس لا عن انتمائه إلى الديانة اليهودية ولا عن الإيمان بالتوراة وغيرها من كتب الأنبياء الأولين، بل تاب عن موقفه التفسيري العنيف لهذه الكتب السماوية. ثم اعتنق مفهوما يختلف جذريا عمّا كان يؤمن به من قبل.

كيف عالج الحواري بولس العنف في كتب الأوّلين

اقتبس بولس في رسالته إلى أحباب الله في مدينة روما وفي الفصل الخامس عشر تحديدا، بعض الفقرات التي وردت في كتب الأولين ليشرح كيف يمكن لغير اليهود أن: ((يمجّدوا الله على رحمته)) بسبب بشارة السيد المسيح (انظر الآية 9). وتعتبر التفاصيل التي حذفها بولس من هذه الفقرات فائقة الأهمية (انظر الجمل في الخط المائل هنا وقد حذفها بولس عندما اقتبس من هذه النصوص).

((*أفني الذين يبغضونني*، يستغيثون ولا نصير *لهم ولا مجيب، يدعون الله فلا يستجيب لهم... الله ينتقم لي ويخضع الشعوب تحت سلطاني* ... لذلك أحمدك بين الشعوب يا رب واسبّح بحمد اسمك)) [كتاب الزبور، مزمور 18: 41 – 49].

((تهلّلي أيّتها الأمم مع قوم ميثاقه *لأنه سينتقم لدماء عباده الصالحين ويثأر من أعدائه ويصفح عن أرضه وعن قومه*)) [التوراة، سفر التثنية 32: 43].

في هذه السياقات سكت الحَواري بولس عن كلّ العبارات التي تدلّ على العنف الموجّه ضدّ الأغراب، وقام باقتباس هذه الآيات بهدف إعلان رحمة الله للأغراب في حقّ السيد المسيح، وهذا يكون بمثابة إعادة التعريف بكيفية النجاة: فبدل أن تعني النجاة أن الله سينقذ بني إسرائيل من قبضة أعدائهم من خلال الانتصار العسكري (كما نرى في مزمور 18 أعلاه)، يرى بولس أن النجاة تعني إعادة خلق الناس بواسطة السيد المسيح، وتشمل هذه النجاة كل النّاس.

يقتبس بولس في موطن آخر في رسالته إلى أحباب الله في روما (روما 12: 19- 21) من التوراة وتحديدا من سفر التثنية (الفصل 32)، حيث جاء قول الله: ((لي حَق القصاص وحدي)) وهذا حتى يثبت أن علينا نحن كبشر لا السعي إلى الانتقام بل العمل «لكي نغلب الشرّ بالخير». ولكن من الجدير بالذكر هنا أن هذه الكلمات المأخوذة من التوراة كانت في سياقها الأول بمثابة الاحتفال بالانتقام: ((لي حق القصاص وحدي إني أنا سأجازي... سهامي تسكر من الدماء وسيفي يأكل اللحم من دم القتلى الأسرى ورؤوس قادة العدو)). لقد وظّف بولس الآن هذه الآيات التي كانت في البدء تحثّ الناس على الانتقام والعنف، لكي يدعوهم إلى محبّة أعدائهم.

إن التأويل على هذا النحو بنزع العنف الموجود في السياق الأوّل قد يصدم بعض القراء المعاصرين، لأنهم تعوّدوا على التفسير القائم على التاريخ الأصلي واللغة الأصلية للنص. ولكن الحواري بولس كان في الحقيقة مطلعا على السياق الأصلي لهذه النصوص شأن كل من قرأ رسائله. ولم يفسر بولس الكتاب المقدس بطريقة عشوائية، بل رأى أن الله تحمّل بلطفه وصبره الفهم الخاطئ لصفاته والصورة المشوهة التي تناقلها عباده عنه. واعتقد القدامى أنّ رب العالمين يشبه الآلهة المتوحشة التي عبدها جيرانهم الوثنيون. إنّ الله هو أرحم الراحمين سبحانه وتعالى عمّا يتصوّرون.

وهذا يبدو واضحا في رسالته إلى أهل روما (3: 10- 18) حيث يصور بولس حالة البشر الزائغة عن الله، ويجمع بعض الفقرات من كتاب الزبور وغيره من كتب الأنبياء الأولين. فالمزامير الثلاثة الأولى التي يقتبس منها تدعو في سياقها الأصلي

إلى القضاء العنيف على غير اليهود، إضافة إلى كونها كانت تميّز بكلّ وضوح ما بين الأشرار والصالحين اليهود، ولكن الحواري بولس كان ينوي أن يشير إلى فكرة مختلفة تماما عن المعنى الأصلي لهذه الآيات من الزبور. بل كان يعني في الحقيقة عكس المعنى الموجود في المزامير، إذ الواجب الذي علينا هو ألاّ نطلب نزول غضب الله وإدانته للآخرين لأننا جميعا خطّاؤون، ونحن بحاجة ملحّة لرحمة الله.

ويخلص الحواري بولس إلى أنه على وعي حين أظهر في هذه الفقرات مقاصد الله التي تختلف عن المعنى الظاهر: ((إنّ هذِهِ الأقوالَ هي مِن كُتُبِ الأنبياءِ. وكَما تَعرِفونَ، فإنّ أهلَ الكِتابِ تَحتَ حِمايتِهِ. فَقَصدُ الكِتابِ أن يَرُدَّ أعذارَ النّاسِ وما يَحتَجّونَ بِهِ، يَهودًا كانوا أم مِن سائرِ الشُّعوبِ، وأن يُبَيِّنَ لهُم أنّ قِصاصَ اللهِ يُطَبَّقُ على كُلِّ البَشَرِ)) [روما 3: 19]. في الواقع يقول الحواري بولس بما معناه: نحن الآن على علم أن هذه الكلمات في البدء كانت تقصد الأغراب والأجانب، ولكن في الحقيقة ما تقوله التوراة موجّه إلينا نحن أهل الكتاب. ففي الواقع هذه الآيات تخاطبنا نحن، ونحن لسنا أفضل منهم».

القراءة على ضوء مقاصد الله

ولا نرى هنا أنّ بولس يقوم بتأويل لا يقيم وزنا للسياق، وإنّما يشير إلى مقصد الله لهذه المزامير، ويبين أن طلب الانتقام والعنف من الله يصل إلى تحقيقه الصحيح عند اعترافنا أننا جميعا مذنبون وأننا جميعا نحتاج إلى رحمة الله.

نستطيع أن نجد الأسلوب نفسه في رسائل بولس بأكملها، فلم يبحث الحواري بولس عن إشارات عن السيد المسيح في كتب اليهود القديمة فحسب، وإنما اكتشف رحمة الله المخفية في هذه النصوص من أجل بيان طريق سيدنا عيسى وهو طريق يتغلّب فيه الخير على الشرّ، فهي بشارة فضل الله على البشر. كما أثّر السيد المسيح في بولس وهداه إلى طريق الله المسالم، فإنّ بولس بدوره يفهم نصوص الأوّلين ضمن مقاصد الله العليا وضمن منهجه الذي يقوم على المحبّة ونبذ العنف.

قد يفهم القارئ من كلّ هذه الأمور أن أمامنا روايتين متضاربتين: الإنجيل من ناحية ويحتوي رسالة المحبّة، ومن الناحية الأخرى التوراة وغيرها من كتب اليهود الأولين التي تحثّ الناس على العنف باسم الله. ولكن هذا الاستنتاج بسيط للغاية ولا يصيب الهدف. طبعا نستطيع أن نجد في التوراة بعض النصوص التي تدعم العنف، ولكن في الآن نفسه نستطيع أن نجد نصوصا أخرى تدعم الرحمة والرأفة تجاه الأغراب. يشير خبير التوراة ولتر بروقمان Walter Brueggemann إلى هذه الروايات المتضاربة كأنها شهود في محكمة فكلّ منها تدّعي أنها على حق وكلّ منها تدّعي أن لديها سلطة علينا.

نرى على سبيل المثال رواية تطلب الناس إلى الخضوع المطلق لأوامر نُسبت إلى الله مثل الأمر بإبادة الناس في كتاب النبي صموئيل الأول، الفصل 15. ولكن في مواطن أخرى يمكننا أن نرى صورة مخالفة ففي كثير من الأحيان نرى أبطال كتب الأولين وهم يحتجّون على العنف المنسوب إلى الله وينوحون عليه ويتساءلون حوله. وردت رواية احتجاجية على هذا المنوال في تحدي النبي إبراهيم: ((يا اللهُ مُنزّهٌ أنتَ عن هذا، وأنت فوق الناس الحَكَم العادل الذي لا يجور)) [التوراة، سفر التكوين 18: 25]. كما نرى الرواية الاحتجاجية التي يطلب فيها النبي موسى من الله ألاّ يعامل بني يعقوب بعنف (التوراة، سفر الخروج 32: 7- 14). ونرى احتجاجا مثل هذا في ثنايا المزامير وفي غيرها من كتب الأنبياء الأولين.

القراءة على خطى السيد المسيح

وبهذه الطريقة يخطو الحواري بولس خطوات مولاه السيد المسيح. ويمكننا أن نرى أنّ سيدنا عيسى اتّبع هذا المنهاج في بيت العبادة في قرية الناصرة عند بداية دعوته، حين قرأ من الفصل 61 من كتاب النبي أشعيا، وهذا النص كان يفهمه اليهود حينذاك كنبوءة تخصّ المسيح المنتظر: ((رُوحُ اللهِ عليّ، فقد اختارَني لأُبَشِّرَ المَساكينَ، وأُعلِنَ فَكَّ أسرِ المُقيَّدينَ، وأجعَلَ العُميَ مُبصِرينَ، وأُنصِفَ جَميعَ المَظلومينَ، وأُعلِنَ زَمَنَ حُلولِ الرِّضى مِن رَبِّ العالَمينَ)) [انظر لوقا 4: 18- 19].

لقد اختار سيدنا عيسى عمدا أن يحذف الجملة الأخيرة من هذه الفقرة من كتاب النبي أشعيا: ((ويوم قصاص ربّنا)). وهنا كان جمهور السيد المسيح من اليهود ينتظرون بتلهّف أن يسمعوا هذه الكلمات النهائية لأنها تعني أنّه قد ظهر من أجل قيادة ثورة ضد الاحتلال الروماني. ولكن في الواقع لم يكن هذا ضمن مقاصد الله، وعندما أكّد السيد المسيح دعوة الله إلى كلّ الأمم حتى غير اليهود الأغراب، انفعل اليهود بدورهم كردّة فعل على كلامه.

وتجدر الإشارة هنا، أنّ سيدنا عيسى أكّد بكل وضوح أنّ كلّ كتب الأنبياء الأوّلين جاءت وحيا من عند الله، كما أوضح أنّ كلّ كتاب جاء ليشهد له (انظر الإنجيل، يوحنا 5: 39- 45، لوقا 24: 5- 7). ورغم ذلك، يتجلّى بكل وضوح في كثير من هذه المواطن أنّ الله برحمته وحلمه كان صبورا وتحمّل ظلم الناس حين وصفوه بصفات وحشية ترتبط بالأصنام والآلهة التي عبدها الوثنيون.

لقد اهتدى بولس إلى طريق السيد المسيح المسالم وترك العنف الديني، وكان إيمانه الجديد هذا العدسة التفسيرية التي من خلالها كان يقرأ كلّ الكتب السماوية. وهكذا صار بإمكانه أن يقيّم الروايات المتضاربة فيها رافضا طريق العنف ساعيا إلى رحمة الله باعتبارها المقصد الأقصى في كلّ الكتب السماوية.

أخضع اليهود المتشدّدون الوحي إلى قراءة شكلية ولكن سيدنا عيسى نظر دائما إلى مقصدها، ألا وهو إقامة المحبّة (انظر الإنجيل، متّى 22: 37- 40). فلا تعتبر من منهاج الله تلك الأعمال التي لا تؤدي إلى المحبّة وإلى الإحسان إلى المحتاجين حتّى وإن كانت أعمالا تستند على قراءة دقيقة لكلمات كتب الأنبياء الأولين، لأنّها في الواقع ليست هدف تعاليم كتاب الله.

هناك تيار جديد في مجال دراسات الكتاب المقدس، وهو معروف باسم «النظرة الجديدة إلى بولس»، ويساعد علماء الكتاب المقدس ليفهموا ما كان يقصده الحواري بولس عندما انتقد الشريعة اليهودية، إذ لم يرفض الحسنات كسبيل إلى إرضاء الله، ولكن الحواري بولس اتّبع السيد المسيح حين فهم أن مقصد التوراة وكلّ

الشرائع المستنبطة منها هو الرأفة وعدم مراعاة شكليات التوراة الدقيقة، أي بمعنى أدقّ لم يرفض بولس الشريعة نفسها لأنّه أدرك أن مقصدها إقامة المحبّة، فرفض منهاجا تفسيريّا للشريعة يؤدي إلى الضرر والتعصّب.

إن اهتداء بولس بمثابة ترك التعصب الديني، أي لم ير فيه رفض دينه أو رفض التوراة بل رفض تفسيره العنيف لهما. ومع مرور الوقت أدرك بولس أن ذنبه الكبير كان باشتراكه في أفعال عنيفة وتبريره لها من منطلق ديني لأنه كان منساقا بتشدّد ديني ورغبة قويّة لحماية طهارة شعبه وإيمانه.

ختام

أمّا نحن، فعندما نسعى إلى فهم سليم للآيات العنيفة في التوراة، نستطيع أن نقاوم المواقف العنيفة التي في دواخلنا ونتبيّن «أن الخط المفصلي بين الخير والشرّ يمرّ وسط قلب كلّ إنسان» على حد قول الكاتب الروسي سولسينيتسن Solzhenitsyn. وربّما نستطيع أن نرى في المزامير التي تدعو إلى إبادة الأعداء ميولنا إلى تمني إبادة خصومنا بسبب النفس الأمارة بالسوء في دواخلنا، ونجد في الحين ذاته في الغضب والبشاعة التي تظهر في هذه المزامير أنه بإمكاننا أن نعبر عن مشاعرنا لله بكلّ صراحة.

إنّ هذه البشارة السارة مهمّة جدّا لنا، نحن الذين نقف مشدوهين أمام العنف المذكور في التوراة وغيرها من كتب الأنبياء الأولين. فمقاصد الله الحقيقية التي تتضمنها هذه الكتب هي مقاصد الرحمة والسلام التي يكشفها السيد المسيح، والقلق تجاه الكتاب المقدّس قد لا يكون إعلان الشك بل يأتي عن إخلاص: إخلاص للكتاب وإخلاص لله الذي أوحى بالكتاب.

نقد الصهيونية على ضوء مقاصد الله

يعالج هذا المقال مسألة أساسية طرحها القراء المعاصرون تتعلّق بالتوراة وغيرها من كتب الأنبياء الأولين. والسؤال المركزي هو: هل يوجد دليل راسخ في الكتاب المقدس والفكر الديني يؤيد المشروع الصهيوني؟ وهل يستند الشعب اليهودي في سيطرته على الأراضي المقدسة اليوم وفي تأسيسه لدولة إسرائيل على مرجعية دينية مقدسة كتحقيق لنبوءات الأنبياء؟ هل سيطرة اليهود على هذه الأراضي من مقاصد الله؟

الإجابة على كل هذه الأسئلة هي النفي طبعا. وخلافا للموقف الصهيوني، نجد في الكتاب المقدس أسبابا لنقد هذه الأيديولوجيا ورفضها بسبب ما تحتويه من تكفير وشر. ونرى أنه من الضروري أن نعي أن النظرة الصهيونية إلى الأرض لا تفي بدعوة الأنبياء وبالرسالة التي جاء بها السيد المسيح. سنبحث في كل هذه المسائل انطلاقا من ستة مواضيع أخذت من الكتب السماوية. ولجميع هذه المواضيع أهمية في حد ذاتها، ولكن لكل واحد أهميته كحلقة في الفكر المنطقي المسترسل المبني على مجرى تاريخ الأنبياء ونزول الوحي.

1 ـ علاقة الميثاق القديم بالميثاق الجديد

تقوم الصهيونية في الأصل على قاعدة خاطئة، لأن مناصريها لم يفهموا حقيقة

الميثاق بين الله وإبراهيم عليه السلام ولا مقصده، ولم يقدّروا العلاقة بين الميثاق القديم الذي جاء به إبراهيم وموسى (عليهما السّلام) وبين الميثاق الجديد الذي جاء به السيد المسيح عليه السلام . ولم يدركوا كيفية تحقيق الميثاق الجديد وما جاء في الميثاق القديم ولا كيف ألغى الميثاق الجديد بعض ما جاء في الميثاق القديم. ومن الضروري أن نقرأ كل كتب الوحي على ضوء مقاصد الله التي كشف عنها السيد المسيح. ومن الخطإ أن نفهم تعاليم السيد المسيح بطريقة عكسية بإخضاعها لمحتويات التوراة وغيرها من كتب الأنبياء الأولين.

رأى حواريو السيد المسيح هذا الأمر جليا، إذ كتب الحواري بولس إلى المؤمنين في مدينة كولوسي عن الأهمية النسبية لتفاصيل شريعة النبي موسى: ((فلا تَسمَحوا إذَن لِلنّاسِ أن يَحكُموا عَليكُم ويُلزِموكُم باتّباعِ تَقاليدَ دينيَّةٍ هَمُّها المَأكَلُ والمَشرَبُ والاحتِفالُ بِأعيادِ بَني يَعقوبَ أو فاتِحِ الشَّهرِ أو يَومِ السَّبتِ، وهذِهِ التَّقاليدُ لَيسَت سِوى ظِلٍّ يُشيرُ إلى الحَقيقةِ المُنتَظَرةِ، ألا وهْيَ حَقيقَةُ السَّيِّدِ المَسيحِ)) [كولوسي 2: 16 – 17].

وتوجد إشارة مشابهة في الرسالة إلى العبرانيين: ((إنَّ شَرعَ النَّبيِّ موسى لَيسَ إلاّ ظِلَّ البَرَكاتِ المُنتَظَرةِ وصُورةً لها، لا الحَقيقَةَ ذاتَها. لذلِكَ لَم تَستَطِع أضاحي الأَحبارِ الّتي يُقَدِّمونَها بِاستِمرارٍ حَولاً بَعدِ حَولٍ كَما نَصَّت على ذلِكَ شَريعةُ بَني يَعقوبَ أن تَجعَلَ النّاسَ مِن الواصِلينَ الأَطهارِ)) [الرسالة إلى العبرانيين 10: 1].

وفي الميثاق القديم جاء الوحي من عند الله في أغلب الأحيان في شكل تلميحات ورموز وتشابيه ونبوءات. أما في الميثاق الجديد الذي أتى به السيد المسيح فيصل هذا الوحي إلى مقصده من خلال تحقيقه في الواقع. فلابد أن نرى تفاصيل الميثاق القديم كرموز، تعبّر عن حقائق روحانية مطلقة كُشفت فيما بعد. وهذا المبدأ ينطبق أيضا على وعود الله المتعلقة بالأرض، فهي مجرد تلميحات وتشبيهات ورموز ونبوءات كانت تشير إلى مقاصد الله في المستقبل، ولم تشمل شعبا واحدا صغيرا أي اليهود بل شملت كل النّاس كما كشف لنا ذلك سيدنا عيسى المسيح بطريقة جلية نهائية.

2 ـ معنى الميثاق الإبراهيمي

يبدأ الميثاق الإبراهيمي في التوراة من الفصل الثاني من سفر التكوين وليس من الفصل 12 من السفر نفسه كما يدّعي أنصار الصهيونية. بدأ هذا الميثاق عندما خلق الله جنة عدن، وكانت هذه الجنة موضعا يتمتع فيه الناس بنيل بركات الله الوفيرة وبالصلة الحميمة به تعالى. فهنا نجد أول إشارة إلى الأرض في الكتاب المقدس ولكن الناس خسروا أرض الجنة عندما عصوا ربهم. ورغم ذلك جاء تلميح إلى الآخرة في كلمات وعد الله إلى النبي إبراهيم بخصوص الأرض: ((أوحى الله إلى إبراهيم قائلا: انطلق من بلدك وأهلك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك)) [سفر التكوين 12: 1].

واتصفت هذه الأرض في الكتاب بأنها: ((أرض واسعة تفيض لبنا وعسلا)) [سفر الخروج 3: 8] وفلسطين أرض جميلة لاريب ولكن الوحي لم يؤكد لليهود بأن لهم الحقّ في امتلاك بعض الأراضي في الشرق الأوسط بطريقة دائمة وأبدية، بل تضمّن الوحي إشارة إلى العودة إلى الجنة في المستقبل. فمنذ البداية كان من الضروري أن ينتظر الناس كشف مقصد الله من هذا التلميح في الميثاق القديم عند حلول الميثاق الجديد وعندها يتحقّق هذا الوعد. فالأرض في الميثاق القديم لم تكن هدف الوحي في حد ذاته.

وفي ثنايا كتابات الحواريين، في الرسالة إلى المؤمنين العبرانيين الفصل 11 نعلم أن النبي إبراهيم لم يستول على أرض الميعاد بل كان ينتظر: ((المَدينةِ المُقَدَّسَةِ الأبَديّةِ، وهي مَدينةُ ثابِتةُ الأُسُسِ، تِلكَ الَّتي أنشأها اللهُ وبَناها)) (الآية 10). ولا تعني هذه الآية أن الأرض مجرّد رمز أو غير حقيقية بل بالعكس هذه المدينة المقدسة الروحانية هي الحقيقة النهائية المطلقة. فالمدينة الأبدية المقدسة عند الله، وهي مدينةٌ التي كان ينتظرها الآباء الأولون، وهي ليست مجرد وهم ولا أمنية غامضة، بل هي الحقيقة الربانية المنتظرة التي نطمح إليها الآن في ظلّ ما نعيشه من ظروف صعبة.

وهذا التفسير للميثاق الإبراهيمي هو التفسير الوحيد الصحيح بالنسبة إلى

المؤمنين. ويجدر بنا أن نذكر هنا أن الأرض لم تكن ملكا لبني إسرائيل حسب التوراة وإنما الأرض ملك لله وحده. فالأرض المقدسة لا يمكن أن تباع أو تشترى، ولا يمكن أن تعطى للآخرين بشكل نهائي، ولا يمكن أن تسرق أو تنتزع من أصحابها كما حدث في الأراضي المحتلة منذ 1967، ولا يمكن أن تكون هذه الأرض تحت تصرّف إسرائيل من أجل أهدافها القومية، بل إنّ بني إسرائيل هم أنفسهم تحت تصرف مقاصد الله. فاليهود مجرد نزلاء في أرض الله: ((وَالْأَرْضُ لَا تُبَاعُ بِطَرِيقَةٍ نِهَائِيَّةٍ. لِأَنَّ الْأَرْضَ لِي، وَأَنْتُمْ غُرَبَاءُ عِنْدِي مُقِيمُونَ)) [التوراة، سفر اللاويين 25: 23].

فلابد أن نفهم وعد الله للنبي إبراهيم بخصوص الأرض، فهو وعد يرتبط ارتباطا متينا بميثاق الله الموهوب لكل الشعوب وبركاته لهم. فلا يصحّ لأحد أن يلحّ على تفسير الوحي حسب مبتغاه، أيّ أن الناس من أصل يهودي يحقّ لهم ملكية الأراضي الفلسطينية دون غيرهم وإلى الأبد. وهذا يخالف طبعا ما جاء في وعد الله للنبي إبراهيم، ويخالف أيضا تحقيق الوعد في العهد الجديد للسيد المسيح.

3 ـ المتطلبات الأخلاقية في ميثاق الله

كان الائتمان على الأرض مشروطا دائما، ولم يكن أبدا دون شروط كما يدّعي أنصار الصهيونية. فخلال تيه بني يعقوب في الصحراء حذرهم الله مرات عديدة كما يلي: ((لَا تَتَنَجَّسُوا بِكُلِّ هَذِهِ الأَعْمَالِ الْمُشِينَةِ لأَنَّ بِها تَنَجَّسَتِ الشُّعُوبُ الَّتِي سَأَطْرُدُهَا مِنْ أَمَامِكُمْ، فَقَدْ تَنَجَّسَتْ بها الأَرْضُ، لِهَذَا سَأُعَاقِبُ الأَرْضَ بِذَنْبِهَا فَتَتَقَيَّأُ سُكَّانَهَا. أَمَّا أَنْتُمْ فاحفَظُوا فَرَائِضِي وَأَحْكَامِي، وَلا تَقْتَرِفُوا شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الرَّجَاسَاتِ، الْمُوَاطِنُ وَالْغَرِيبُ الْمُقِيمُ فِي وَسَطِكُمْ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ. لأَنَّ جَمِيعَ هَذِهِ الرَّجَاسَاتِ قَدِ ارْتَكَبَهَا أَهْلُ الْبِلادِ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَجَّسَتِ الأَرْضُ. فَلا تُنَجِّسُوا الأَرْضَ بِارْتِكَابِكُمْ إِيَّاهَا، لِئَلّا تَتَقَيَّأَكُمْ كَمَا تَقَيَّأَتِ الأُمَمَ الَّتِي قَبْلَكُمْ)) [سفر اللاويين 18: 24 – 28].

عندما نتأمل في هذه الآيات وننظر في التصرفات الوحشية والقمعية والعنصرية التي تمارسها إسرائيل، يتأكد لنا أن الله سيرسلهم إلى السبي من جديد ولا يعيد لهم أمجادهم القديمة كما يزعمون ويتمنون. أمّا بالنسبة إلى معاملة الغرباء فقد ورد في

كتب الأولين 36 مرة تحذير من الله بأن اليهود ينبغي عليهم معاملة الغرباء والنزلاء برأفة، وعليهم أن يتذكروا تجاربهم عندما كانوا غرباء في مصر: ((لَا تَضْطَهِدِ الْغَرِيبَ وَلَا تُضَايِقْهُ، لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي مِصْرَ)) [التوراة، الخروج 22: 21]. وقال الله لموسى: ((إِذَا أَقَامَ فِي أَرْضِكُمْ غَرِيبٌ فَلا تَظْلِمُوهُ، وَلْيَكُنْ لَكُمُ الْغَرِيبُ الْمُقِيمُ عِنْدَكُمْ كَالْمُوَاطِنِ. تُحِبُّهُ كَمَا تُحِبُّ نَفْسَكَ، لأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غُرَبَاءَ فِي أَرْضِ مِصْرَ. فَأَنَا اللهُ رَبُّكُم)) [سفر اللاويين 19: 33 – 34].

إنّ العبرة من قصة تحرير بني يعقوب من عبودية فرعون – وهي قصة يرويها اليهود في كل عيد فصح – هي تذكيرهم بضرورة التحرر من الاستعلاء وظلمهم للآخرين. وفي كتاب الزبور أوصاهم الله بضرورة الاتّكال على وعوده لكي يرثوا الأرض، وترد الوعود المتعلقة بالأرض دائما في سياق يوضّح أنها وعود بالإقامة المشروطة وليست بامتلاكهم الأبدي للأرض. فالأرض أمانة الله عند المستقيمين والأمناء لا غير كما وعد الله..

ونادى النبيان إرميا ودانيال(عليهما السّلام) بضرورة توبة بني يعقوب أفرادا وجماعات قبل عودتهم من سبيهم إلى الأرض. فلا يأتي وعد الأرض لبني يعقوب دون شروط بل يأتي دائما مشروطا بالتوبة والإيمان والطاعة. فعندما يزعم أنصار الصهيونية أن الأرض حق من حقوق إسرائيل بصرف النظر عن تصرفاتهم، فهذا يتناقض مع تعاليم الأنبياء الأساسية.

والآن هناك تحدّ أمام أنصار الصهيونية: فإن كانوا يعتمدون مثلا على بعض الآيات من سفر التكوين حتى يزعموا أن الأرض لهم، فكيف يتجاهلون آيات التوراة في سفر الخروج والوصايا ((لا تقتل)) و((لا تسرق)) و((لا تحسد))؟ إن كانوا يؤمنون بالتنبؤات في الوحي المتعلقة بما سيحدث في المستقبل، فكيف لا يؤمنون أيضا بالعدالة التي طالب بها الأنبياء؟ ويرى كثير من اللاهوتيين الفلسطينيين وغيرهم من اللاهوتيين أن سياسة إسرائيل في تهويد الضفة الغربية والقدس الشرقية هي سياسة تضاهي سرقة الملك أخاب الشرير كروم نابوت (انظر هذه الحادثة في قصة النبي إلياس كما وردت في كتاب الملوك الأوّل، الفصل 21).

4 ـ الأرض في تعاليم سيدنا عيسى المسيح

يبدو غياب التعاليم الخاصّة بالأرض بارزا في الإنجيل وفي أولويات سيدنا عيسى عليه السلام. ولكن نجد أربع إشارات إلى الأرض في الإنجيل وكلها إشارات غير مباشرة. وأقوى هذه الإشارات جاءت في موعظة السيد المسيح على الجبل. ويقتبس عليه السلام في الإنجيل (متّى 5: 5) من مزامير النبي داود: ((هَنيئًا للوُدَعاء مِن النَّاسِ، لأنّهُم وَرَثةُ الأرضِ.)) [المزمور 37: 11]. هنا يشير سيدنا عيسى إلى إرث الأرض الذي وعد به الله الودعاء، إنما يجعله يشمل الكرة الأرضية، فكلمة الأرض في لغة الإنجيل الأصلية تشير أيضا في ترجمة التوراة باللغة اليونانية إلى الأرض المقدسة. ولكن في سياق هذه الموعظة يجب أن تفهم كلمة «الأرض» بأنها لا تعني الاستلاء على أرض فلسطين مطلقا، حتى وإن أصرّ أحدهم أن المشار إليه بهذه الكلمة أرض فلسطين، فهذه الأرض أمانة بين يدي كل عباد الله الصالحين. وهذا وفقا لما جاء في القرآن حيث ورد عن النبي إبراهيم والأرض: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء، الآية 71].

بما أن مفهوم الأرض كان عنصرا أساسيا عند اليهود في عصر السيد المسيح، لذلك كان سكوته عن ذكر الأرض مقصودا. ورغم ذلك أشار سيدنا عيسى مثل غيره من الأنبياء الذين سبقوه إلى دمار القدس كعقاب من الله للشعب اليهودي (انظر الإنجيل، لوقا 19: 41 – 44) وخلافا لما قاله الأنبياء الأقدمون، لم يقل سيدنا المسيح إنّ اليهود سيعودون إلى الأرض من جديد، بل تنبأ بحلول المملكة الربانية اعتمادا على عبارات مستندة إلى رؤية النبي دانيال لسيد البشر آتيا أمام الله الأزلي ليستلم سلطانا ملكيا منه تعالى (انظر الإنجيل، متّى 24: 30 –31، ولوقا 21: 25 – 28)، وقارن أيضا كتاب النبي دانيال (7: 13 – 14). ولابد أن يكون سيدنا عيسى قد تعمد عدم الحديث عن إرث الأرض المقدسة بينما كان يتحدث كثيرا عن العالم بأجمعه، فتحدث عن العالم 78 مرة في الإنجيل.

5 ـ الأرض في تعاليم الحواريين

يبدو أن حواريي السيد المسيح فهموا الوعد بالأرض بطريقة تشبه ما فهمه غيرهم من اليهود في ذلك العصر، إلى حين انبعاث سيدنا عيسى حيا من الموت. فقبل ذلك الحدث كانوا ينتظرون بلهفة أن يتدخل الله بشكل حاسم في تاريخ البشرية ويعيد السلطة السياسية إلى اليهود في أرض الميعاد. وينعكس هذا المفهوم في قول اثنين من أتباع السيد المسيح وهما في طريقهما إلى قرية عمواس، إذ قالا: ((وكانَ أملُنا فيهِ كَبيرًا إذ تَوَسَّمنا فيهِ المَلِكَ المُنقِذَ الّذي يَكونُ على يَدَيهِ تَحريرُ بَني يَعقوبَ)) [لوقا 24: 21].

وكانت هذه الفكرة سائدة أيضا في أذهان الحواريين عندما سألوا السيد المسيح قبل صعوده إلى السماء: ((يا مَولانا، هل أنتَ عازمٌ على تَحريرِنا وإحياءِ مَملكةِ بَني يَعقوبَ في زَمَنِنا هذا؟)) [سيرة الحواريين 1: 6]. فسيدنا عيسى في إجابته لهم صحّح توقعاتهم المتعلقة بالمواقيت كما صحّح أولوياتهم: ((لَيسَ لكُم أن تُحاطوا عِلمًا بأُمورٍ كهذِهِ، فاللهُ الأبُ الرَّحمنُ وَحدَهُ يُقدِّرُ المَواقيتَ والأزمان. بل عِندَ تَجَلّي رُوحِ اللهِ القُدّوسِ عليكُم، تَحظَونَ بِالقُوّةِ والسُّلطانِ، فتكونونَ لي شُهودًا في القُدس، وفي مَناطقِ يَهوذا والسّامرةِ، وسائرِ أصقاعِ الأرضِ)) [سيرة الحواريين 1: 7–8].

لقد أعاد السيد المسيح في ذلك الوقت تعريف معنى المملكة الربانية، وبالتالي معنى الاصطفاء من عند الله. وتوسع المملكة الربانية إلى أصقاع الأرض يعني بالضرورة غربة الحواريين عن الأرض المقدسة وتركهم القدس الشريف. لذلك أرسلهم الله إلى أنحاء العالم ولم يأمرهم بالعودة مرة أخرى. وبعد حلول روح الله على الحواريين في عيد الخمسين بدأوا في توظيف المصطلحات المتعلقة بالأرض الواردة في التوراة وكتب الأنبياء الأولين بطريقة جديدة.

فالحواري بطرس الصخر مثلا، لم يكتب عن ميراث أرض فلسطين بل كتب ما يلي: ((أنّنا سنَرِثُ الكَنزَ المَحفوظَ لنا في السَّماءِ، بَعيدًا عنِ التَّلَفِ والفَسادِ والبِلى)) [رسالة بطرس الأولى 1: 4] كما أخبر الحواري بولس أتباع السيد المسيح في مدينة

أفاسوس، وأكثرهم انحدروا من عائلات وثنية: ((والآن ها أنا أُفارِقُكم وأترُكُكم برِعايةِ اللهِ وبِحِمايةِ الرِّسالةِ بفَضلِهِ تَعالى، فإن عَمِلتُم بهذِهِ الرِّسالةِ فستَثبُتونَ على إيمانِكُم وتَحصُلونَ على مِيراثِكُم باعتِبارِكُم مِن عِبادِ اللهِ الصّالحينَ)) [سيرة الحواريين 20: 32].

كل الأدلة تشير إلى أن الحواريين اعتبروا أن اليهود لم يستمروا على الحق في امتلاك الأرض المقدسة، كما اعتبر الحواريون أن استلاء اليهود على تلك الأرض ليس عنصرا مهما أو أساسيا في مقاصد الله تجاه العالم. وفي أفكار الحواري بولس التي كانت توضح مقاصد الله التي كشفها السيد المسيح، فقدت أرض الميعاد كل أهمية بالنسبة إلى مقاصده تعالى.

6 ـ مستقبل اليهود وغيرهم من الشعوب

انتظر الحواري بولس مستقبلا مجيدا لبني يعقوب. وأكّد في رسالته الموجهة إلى المؤمنين في روما أن الله لم يرفض اليهود نهائيا، وتعنتهم تجاه رسالة السيد المسيح وقتي. فقال: ((فبَنو إسرائيلَ لهُم الحقُّ في الانضِمامِ لأهلِ بَيتِ اللهِ، وقد تَجَلّى اللهُ لَهُم فقَدَّمَ إليهِم العُهودَ، والشَّريعةَ والعِبادةَ الحقَّ والوُعودَ. وكانوا مِن نَسلِ الأنبياءِ الأوّلينَ، ومِنهُم يَنحَدِرُ السَّيِّدُ المَسيحُ. فليَتَبارَكِ المُتَعالي فَوقَ العالَمينَ إلى أَبَدِ الآبِدينَ، آمين)) [الرسالة إلى المؤمنين في روما 9: 4 –5].

وهنا امتنع الحواري بولس عن ذكر أمر واحد في هذه القائمة، فلم يصر على أن الأرض المقدسة لهم. وفي الواقع لم ينكر بولس أفكار أسلافه عن هذه الأرض بل جعلها شاملة للأرض بأكملها. وعندما فسر بولس وعود الله للنبي إبراهيم في التوراة قال: ((وَعَدَ اللهُ النَّبيَّ إبراهيمَ ووَعَدَ نَسلَهُ أن يَجعَلَهُم وَرَثةً للعالَمِ)) [الرسالة إلى المؤمنين في روما 4: 13].

والآن يحق لنسل النبي إبراهيم أن يرثوا الكون كله وليس أرض الميعاد فقط. واعتبر الحواري بولس أن أبناء إبراهيم هم المؤمنون من اليهود ومن غير اليهود، أي كل من أصبح من الصالحين من خلال إيمانه برسالة سيدنا المسيح. فالوعد المتعلق

بالأرض المقدسة صار وعدا يشمل كل العالم. ويمكننا أن نفهم الآن أنّ الإشارات إلى الأرض في الكتب السماوية تشير في الحقيقة إلى العودة إلى الجنة والحصول عليها.

ختام

تطور الوحي عبر مراحل التاريخ وانتقل من الوحي بالرموز إلى الوحي الذي يشير إلى الواقع، وارتقى من التلميحات الغامضة إلى الكشف الواضح. وفي الماضي كان الله يتعامل مع البشر ضمن أقاليم معينة تحت أشكال الميثاق القديم، ولكنه في الميثاق الجديد يحقق هذه الإشارات المادية والرمزية حتى يشمل الكون بأكمله. والآن يقوم السيد المسيح حَكَما عادلا من المدينة المقدسة الأبدية ويمد بسلطانه من الله تعالى على أرجاء العالم. ومن الكفر أن نعود إلى الأشكال الوقتية والمحدودة في الميثاق القديم: ((لَقَد أَبلَغَنا اللهُ تَعالى بِالميثاقِ الجَديدِ، وهذا يَعني أنّهُ جَعَلَ الميثاقَ الأَوَّلَ قَديمًا، فَلا بُدَّ أَن يَزولَ القَديمُ)) [الرسالة إلى العبرانيين 8: 13].

لا يمكن أن يخضع ما هو حقيقي واضح إلى الظلال والرموز، والله يجعل هذه الظلال تفقد أهميتها وقيمتها بمقاصده ومشيئته تعالى. لقد حل علينا النور وهلّ بمجيئ سيدنا عيسى المسيح، والآن لدينا الاختيار بين مذهبين: المذهب الأوّل يستند على رموز الميثاق القديم، ويستند الثاني على الوقائع حسب الميثاق الجديد. فالفكر الصهيوني ينحصر على اليهود في الأرض المقدسة ولا يشمل كل الشعوب ضمن مقاصد الله الشاملة. إنه لاهوت دموي يتعلق بملحمة «هرمجدون» ولا يؤدي إلى العدالة والسلام والتصالح التي يضمنها الميثاق الجديد الذي نادى به سيدنا عيسى المسيح.

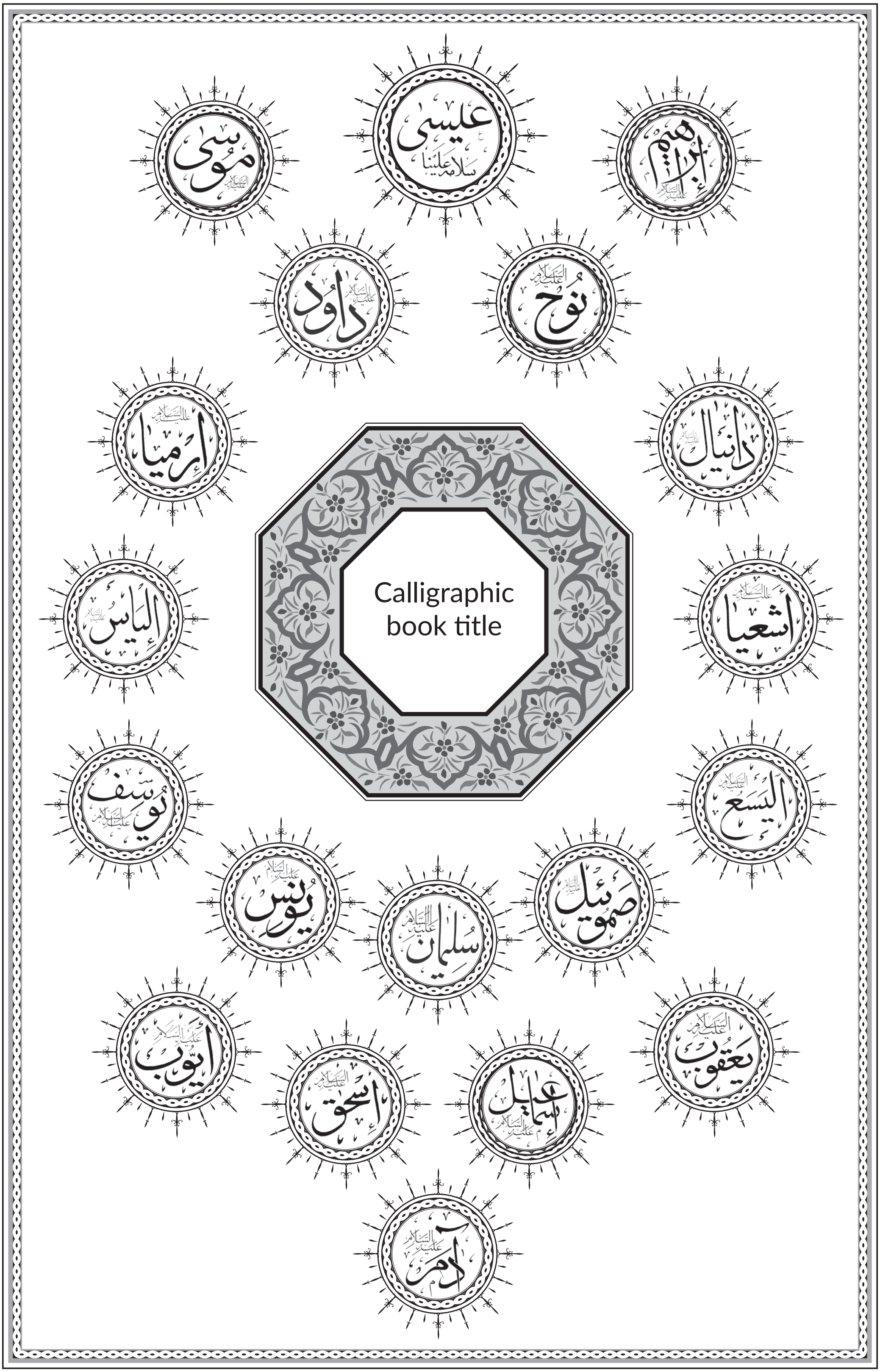

موسی
عیسی
إبراهیم
داود
نوح
إرمیا
دانیال
Calligraphic book title
إلیاس
أشعیا
یوسف
الیسع
یونس
سلیمان
صموئیل
أیوب
إسحق
إسماعیل
یعقوب
آدم

الخلق

قصّة الخلق

مدخل إلى قصّة الخلق

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ *[سورة ق: 38]*

لقد اختار الله أن يخبر عن الكون منذ بدايته وحتى نهايته من خلال الوحي الذي أنزله على أنبيائه (عليهم السّلام). ووردت قصّة الخلق في البداية في التوراة ثمّ جاءت في الكتب السماويّة التي تلتها، واستندت هذه القصة في تفاصيلها إلى ما جاء في التوراة. وتجدر الإشارة إلى أن الله أنزل وحيا وجّهه إلى بني يعقوب انطلق فيه من المعتقدات والمفاهيم السائدة في عصرهم ومحيطهم الذي عاشوا فيه. لقد فهم بنو يعقوب الله ربّهم وصفاته الحميدة اعتمادا على ما آمن به النّاس في ذلك المحيط. وكانت لديهم معتقدات كثيرة مشتركة مع غيرهم من الأمم في العالم القديم. ولم يخطر ببالهم أن يشكّكوا في معتقداتهم حيث لم توجد معتقدات بديلة في عصرهم.

وهذا لا يعني أنّ بني يعقوب قد قلّدوا أفكار الآخرين أو تبّنوها وإنّما كانت لديهم كثير من المعتقدات المنتشرة في العالم في عصرهم. وأكّد الله بعض هذه المعتقدات، وترك البعض الآخر دون تعليق، بينما عالج معتقدات أخرى منتقلا بالنّاس خطوة تلو الأخرى بعيدا عن المفاهيم المشوّهة للذات الإلهية ومتّجها إلى أفكار أسمى.

ومن بين هذه المعتقدات عند بني يعقوب اعتقادهم المتعلّق بنشأة العالم وشرح أسباب الأحداث الطّبيعية فيه. وفي سفر التكوين الذي هو فاتحة التوراة جاء الوحي ليخاطب الناس بمفاهيمهم ومعتقدات مألوفة لديهم حتى يعالج الأسئلة الأولى التي طرحها القدامى، فمثلا لم يدرك بنو يعقوب أنّ النّجوم هي في الحقيقة مثل الشمس وأنّ الأرض هي كروية الشكل تدور في مدارها في الفضاء وأنّ الشمس تبعد عن الأرض أكثر من القمر. كما آمنوا أنّ السّماء شيء جامد لا يتكوّن من غازات بل اعتقدوا أنّها عبارة عن حجاب أو سقف يتوارى خلفها الله والكائنات الغيبية، وتصوّروا أيضا أن السماء سد منيع يمنع الأمطار من الهطول على الأرض، ولكن الله ترك هذه التصوّرات حتى يكتشف العلماء حقيقتها على مرّ العصور.

ويرى بعض المفسّرين المعاصرين أنّه من الضروري تفسير كتاب التكوين للناس وكأنّه يتضمّن محتويات الاكتشافات العلمية الحديثة أو ما يستند عليها. ولكن هذا المنهج الذي اتّبعه هؤلاء المفسّرون يجعل من التوراة تحتوي على أشياء دخيلة عليها، لأنّ التوراة في الأصل خاطبت أناسا عاشوا في ذلك العصر لا في هذا العصر. وهناك خطر في هذا المنهج التفسيري، حيث تتطوّر نظريات العلوم الطبيعيّة وتتغيّر باستمرار شأن مفاهيمها للكون. فإذا افترضنا مثلا أنّ الله أنزل الوحي بالعودة إلى مفاهيم العلوم الطبيعيّة، فهذا يعني أنّ الوحي مرتبط بعلم مرحلة معيّنة من التاريخ، وبالتالي لا يُفهم الوحي إلا لمن عاصر تلك الفترة. أمّا بالنسبة إلى من سبق تلك الفترة، فيصعب عليه فهم محتوى الوحي، بينما يبدو الوحي قديما ومثيرا للاستهزاء لكلّ من لحق تلك الفترة.

أمّا بخصوص القرّاء المعاصرين فإنّ إقبالهم على الكتاب المقدّس يرتبط عادة بطرحهم لأسئلة كثيرة. ولكنّ نص التوراة لا نتوقّع منه أن يحمل إجابات على أسئلتهم المعاصرة، ولا يمكن إخضاعه لمفاهيم القراء المعاصرين لأنّ الله أنزل الوحي في التوراة لأسباب تتعلّق بالناس في ذلك العصر. وهذا لا ينفي أنّ التوراة لا تحظى بأهمية فائقة لدينا بل علينا أن نفهمها كنص قديم يخاطب القدامى الّذين يختلفون عنّا

في طرق متعدّدة من تفاصيل حياتهم. إنّ هذا هو المقصد الأساسي الذي أراده الله من خلال التوراة، لذلك علينا فهمها على هذا الأساس ولا يجب علينا أن نوظّف هذا النص لخدمة أهداف غريبة عنه، سواء كانت ثقافية أو حضارية أو سياسية.

أمّا بالنسبة إلى قرّاء التوراة القدامى، فمن أهمّ المسائل الملحّة لديهم هي هدف خلق الكون لا أصله المادّي. ومع أنّ كثيرا من قرّاء التوراة يحاولون فهم قصّة الخلق على أنّها قصّة تروي أصل الكون المادّي، يرى العديد من الباحثين في التوراة اليوم أنّه من المستحسن أن ننظر إلى قصّة الخلق في سفر التكوين باعتبارها وصفا لنشأة وظائف الكون. ويرى هؤلاء الباحثون في هذه القصة أنّها تصف تدشين الكون كبيت لعبادة الله على مدى سبعة أيام. ويخصّص الله عناصر الكون المختلفة ووظائفها لمصلحة البشريّة وغيرها من المخلوقات ليصبح الكون كلّه في النهاية لتمجيد الله وتسبيحه.[1] وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في الآية التالية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: 54].

(1) انظر جون ولتن، العالم الضائع للفصل الأول من سفر التكوين.
Walton, John. The Lost World of Genesis One: Ancient Cosmology and the Origins Debate. Downers Grove, IL: Intervarsity Press. 2009.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة الخلق

خلق السّماوات والأرض[1]

في البدء، عندما خلق الله السّماوات والأرض، كانت الأرض بلا شكل تعمّها الفوضى، ويهيمن عليها الظلام وتغطّي المياه أعماقها. وسرت نفحات روح الله على وجه المياه. وبكلمة من الله تعالى أمر النّور «كن» فيكون.[2] ورضي الله عن هذا النّور وفصل بينه وبين الظّلام. وسمّى النّور نهارًا والظّلام ليلا. وختم الله هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الأوّل من الخلق.[3]

وفي اليوم الثّاني، وبكلمة منه، خلق الله تعالى السقف المرفوع[4] ووزّع المياه فوقه وتحته في أماكنها المناسبة. ثمّ أحدث الله فراغا تحت هذا السقف المرفوع وسمّاه جوًّا. وختم الله هذا اليوم بهبوط اللّيل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الثّاني من الخلق.

---

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 1: 1–31.

(2) يذكر الإنجيل الشريف أنّ كلمة الله الأزلية صارت إنسانا، والمقصود بها السيد المسيح. ويؤكد الطبري هذه الحقيقة في تفسيره للآية 45 من سورة آل عمران، ويقتبس من ابن عبّاس الذي أكّد أيضا هذه الحقيقة.

(3) انظر سورة فاطر: 13.

(4) انظر سورة الطور: 5 وسورة الأنبياء: 32.

وفي اليوم الثّالث أمر الله المياه أن تتجمّع في مكان واحد لتظهر اليابسة. وسمّى اليابسة أرضًا وسمّى المياه بحارًا. ورضي الله عن الأرض والبحار. وبكلمة منه تعالى خلق في الأرض كلّ أنواع النبات وأشجار الفاكهة في هذه الدّنيا، والنبات الذي يحمل بذورًا على أنواعه، وكلّ شجر يحمل ثمارًا ذات بذورٌ لتأتي بمثلها وتتكاثر. ورضي الله عن هذه المخلوقات أيضًا. وختم سبحانه وتعالى هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الثّالث من الخلق.

وفي اليوم الرّابع، وبكلمة من الله، ظهرت الأفلاك في قبّة السّماء لتضيء الأرض وتميّز بين ضياء النّهار وظلام الليل، وقدّرها منازِل لحساب المواسم والأعياد والأيّام والسنين وضبط الليل والنّهار. وتمّ هذا كلّه بأمر منه تعالى. وسخّر الله من الأفلاك، الشمس لضبط النّهار والقمر[1] لضبط اللّيل ومعهما أضاف النّجوم.[2] ورضي سبحانه وتعالى عن جميع هذه المخلوقات. وختم الله هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الرّابع من الخلق.

وفي اليوم الخامس خلق الله بكلمة منه السّمك وكل أنواع الحيوانات التي تعيش في الماء، من صغيرها إلى عظيمها، فملأت البحار. وخلق الله الطّيور بأنواعها لتملأ السّماء، ورضي تعالى عن هذه المخلوقات أيضًا، وباركها وأمرها أن تتكاثر. وأمر سبحانه وتعالى السّمك أن يملأ البحار، والطّيور أن تملأ الجوّ. وختم الله هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم الخامس من الخلق.

وفي اليوم السّادس خلق الله بكلمة منه كلّ أنواع الحيوانات التي تعيش على الأرض، من بهائم ووحوش وزواحف وحشرات، وتمّ هذا بأمر منه تعالى. ورضي الله عن جميع هذه المخلوقات.

وفي الأخير خلق الله الإنسان وقال: «ها إنّنا نخلق الإنسان ليكون ظِلّنا في

(1) نلاحظ أنّ النص في اللغة الأصلية يتجنّب ذكر اسم الشمس واسم القمر ويطلق عليهما "النور الأكبر" و"النور الأصغر"، وربّما يعود السبب لكون الاسمين يرتبطان بإلهَي الشمس والقمر. وهذه الإشارة تدلّ على أنّ الشمس والقمر هما نورين لا أكثر خلقهما الله.

(2) انظر سورة العنكبوت: 61، وسورة الإسراء: 12.

الأرض،[1] ذكرًا وأنثى نخلقه». وأعطى الله الإنسان سلطة على السّمك والطّير وكلّ الحيوانات. نعم، جعله مسؤولا على الأرض وعلى كلّ من فيها. وهكذا أصبح الإنسان خليفة الله في الأرض. وبارك الله الإنسان وأمره أن يتكاثر ويملأ الأرض.[2] وأخبر الله الإنسان أنّه قد سخّر له هذه الأرض وجعلها تحت تصرّفه بما فيها من أسماك البحار وطيور السّماء وكلّ الحيوانات التي تدبّ على الأرض. وأخبره تعالى: «لقد وهبتك جميع النّباتات التي تحمل بُذورًا على سطح الأرض، وكل الأشجار التي تحمل فاكهة، لتكون لك طعامًا.[3] ووهبتُ العشب الأخضر طعامًا للحيوانات والطّيور». ثمّ عاين الله كلّ مخلوقات الأرض من إنسان وحيوان ونبات ورضي عن خلقه جميعًا، لأنّ كلّ ما خلقه تمّ في أحسن تقويم.[4] وختم الله هذا اليوم بهبوط الليل وبزوغ الفجر، وهكذا انقضى اليوم السّادس من الخلق.[5]

خاتم أيّام الخلق[6]

وهكذا خلق الله السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام.[7] وفي اليوم

(1) جاء في ترجمات أخرى لهذه القصّة أنّ الله خلق الإنسان «على صورته»، ولكنّ المفسّرين يجمعون على أنّ هذا التعبير مجازي ويشير إلى السلطة والحكم. وفي العالم القديم اعتبر الملوك أنفسهم ظلّ الله في الأرض، بينما أوحى الله تعالى أنّ هذه الميزة خصّ بها كلّ البشرية، ابتداء من آدم(عليه السلام). وبذلك تكون البشرية جمعاء خليفة الله في الأرض كما جاء في سورة البقرة: 30، وسورة الأنعام: 165.

(2) انظر سورة الروم: 20.

(3) لم يسمح الله للبشر بأكل اللحوم إلا بعد الطوفان، شرط أن يأكلوه خال من الدماء.

(4) انظر سورة السجدة: 7.

(5) انظر سورة غافر: 64.

(6) استنادا إلى كتاب التكوين 2:1–4.

(7) اختلف الدارسون حول تحديد نوعية زمن الأيام الستّة. فمنهم من رأى أنّ زمن هذه الأيام يُقاس بالزمن الميقاتي الذي نعرفه، وهناك من رأى أن هذه الأيام رمزية وتشير إلى فترات طويلة من الزمن تفوق كثيرا الزمن الذي نعرفه. بينما رأى آخرون أنّ هذه الأيام ليست أيّاما فيها خلق الله كلّ شيء من عدم، بل هي فترة حدّد فيها الله كلّ شيء في الكون إلى أن يكون بمثابة بيت مقدّس لتعظيمه وعبادته تعالى.

السّابع توقّف الله عن عمل الخلق كلّه، ثمّ استوى على العرش[1](٦). وهكذا صار اليوم السّابع يومًا مميّزًا عند الله ومقدّسًا، إذ فيه أتمّ عمليّة الخلق.

وهذه هي مراحل خلق الكون من سماوات وأرض وما بينهما.

(1) عبارة «استوى» هنا، تعوّض بمصطلح «استراح» في ترجمات أخرى، لارتباط المصطلح الأصلي بمعنى مجازي والمقصود به الاستقرار والسكينة وبداية الحكم، كما نرى في كتاب النبي صموئيل الثاني، 7: 1، حيث ترد إشارة إلى أن الله «أراح داود» من أعدائه وكيف استقرّ عليه السلام على العرش. وهنا سكن الله ليبدأ حكمه في الكون، بعد أن دبّر كل العناصر فيه ونظّمها من أجل خدمته وتمجيده. انظر مثلا سورة الفرقان: 59، وسورة الأعراف: 54.

قصّة آدم عليه السلام وحواء
قصّة قابيل وهابيل

مدخل إلى قصّة آدم وحواء

﴿فَقُل□نَا يَٰٓـ□َـادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَو□جِكَ فَلَا يُخ□رِجَنَّكُمَا مِنَ ٱل□جَنَّةِ فَتَش□قَىٰٓ﴾ [سورة طه: 117]

آدم وحواء هما شخصيتان أساسيتان في الديانات الإبراهيمية الثلاث لأنهما أوّل من خلق الله من البشر. واسم آدم في اللغة العبرية يعني الإنسان بينما اسم حواء مشتق من كلمة حياة. ولم ترد أيّ إشارة في قصة آدم وحواء هنا إلى مكان دفنهما، بينما أشارت إلى عمر آدم عند وفاته إذ عاش 930 سنوات (انظر سفر التكوين 5: 5).

جاء في قصّة خلق آدم وحواء أنه تمّ خلقهما كظل الله، ويقابل تعبير ظل الله في التوراة تعبير صورة الله. وهذا التعبير مجازي يشير إلى السلطة والحكم من عند الله. وفي العالم القديم اعتبر الملوك أنهم ظل الله في الأرض بينما أكّد الله في التوراة أنه منح هذه الميزة لكل البشرية رجالا ونساء ابتداء من آدم، لذا فإنّ الناس جميعا بلا تفرقة هم خلفاء الله في الأرض كما تؤكد ذلك سورة البقرة أيضا، الآية 30، وسورة الأنعام الآية 165.

خلق الله أوّل امرأة من جسد رجل، وهذا يعني ((أنهما باقترانهما يؤلفان عائلة جديدة ويصبحان واحدا)) [التوراة، سفر التكوين 2: 24]. لهذا السبب فإنّ

ولاء أحدهما نحو الآخر يجب أن يكون أقوى من ولائهما لوالديهما. واقتبس السيد المسيح من هذه الكلمات في التوراة حين تكلّم عن مسألة الزواج والطلاق قائلا: ((باقترانهما يصبحان واحدا، فما جمعه الله لا يفرّقه إنسان)) [الإنجيل، متّى 19: 6].

وهناك موضوع آخر جدير بالذكر في سفر التكوين، وهو صلة الربط بين آدم والأرض ونراه في استعمال الكلمتين آدم وأديم وما يجمعهما من مشترك لغوي. فعندما عصى آدم وحواء الله لحقت بالأرض لعنة. ومنذ ذلك الوقت كان آدم(عليه السلام) مجبرا على العمل بجهد لكي يكسب رزقه، وربّما كانت هذه اللعنة سببا في الغربة بين البشر والأرض. وأخبر الله آدم بعقابه، إذ سيأكل طعامه ((بجهد جهيد)) [التكوين 3: 17]. وستلقى حواء عقابا موازيا لِما سيحلّ على آدم إذ ستلد ((بجهد جهيد)) [التكوين 3: 16]. ورغم هذا العقاب الذي أرسله الله على آدم وحواء، يحقّق الله وعده في النهاية بحلول المملكة الربانية ((فلا لَعنةَ تُلاحِقُ أهلَ هذِهِ المَدينةِ المَحروسة بَعدَ الآنَ)) [كتاب الرؤيا 22: 3]. وقد أوحى الله على لسان النبي أشعيا ((فيسكن الذئب مع الخروف ويرقد النمر مع الجدي ويكون العجل والخروف في أمان مع الأسد ويقودهم جميعا طفل صغير...وفي جبل الله المقدّس لا شيء يؤذي ولا شيء يضرّ لأنّ الأرض ستمتلئ بالعارفين بالله امتلاء البحار ماء)) [كتاب النبي أشعيا 11: 6، 9].

ونرى إشارة إلى خطيئة آدم وحواء في القرآن حيث جاء فيه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [سورة طه: 121]. ونستطيع أن نفهم عاقبة عصيان آدم وحواء بطرق متعددة، فمثلا كتب الحواري بولس ما يلي: ((كان آدم أول من أذنب من الناس، ففتح باب الإثم على الدنيا، ونتج عن ذلك الموت، وسرى الهلاك إلى كل الناس لأنهم خطاؤون جميعا)) [رسالة بولس إلى أحباب الله في روما 5: 12]. ويذكر بعض الباحثين الذلّ الذي حلّ على آدم وحواء وكيف لحق بكلّ ذريّتهم مع أنّهم لم يرتكبوا الخطيئة ذاتها التي ارتكبها آدم وحواء.

وعندما استمع آدم وحواء إلى وسوسة الحيّة (وجاء تفسيرها في الديانات الإبراهيمية بأنها رمز الشيطان) غلبتهما بحيلها وفتحا بابا لتأثير الشّيطان عليهما ولأذاه

عليهما وعلى نسلهما. وأوحى الله أنه سيجعل عداوة بين الحيّة والمرأة، ((وسيسحق نسل المرأة رأس الحية)) وبين نسلها وبين ما ينحدر من الحيّة. أمّا بالنسبة إلى نسل حواء فقال الله إنّ نسلها سيسحق رأس الحية. ويؤكّد الحواري بولس إتمام هذا الوعد بخصوص السيّد المسيح إذ قال: ((واللهُ الّذي يَهبُ السّلامَ، سيَجعَلُ الشَّيطانَ تَحتَ أقدامِنا قَريبًا)) [الرسالة إلى أحباب الله في روما 16: 20]. وجاء هذا تحقيقا لوعد الله المتعلّق بحواء ونسلها.

وبعد مرور قرون من الزمن، وعند عودة بني يعقوب من سبيهم في بلاد بابل حيث أرسلهم الله عقابا على ذنوبهم، أخذوا ينظرون إلى أنفسهم كأنّهم جميعا بمثابة آدم الثاني. فكما عصى آدم ربّه ثم طُرد من الجنة كذلك عصى بنو يعقوب الله وطُردوا من أرض الميعاد. أمّا في الإنجيل فنستطيع أن نرى كيف تتطوّر هذه الفكرة، ولكنّ السيد المسيح هنا بمثابة آدم الجديد لكن بطريقة مختلفة. فالسيد المسيح أطاع الله وبطاعته جعل أمّة الله تعود إلى الجنة. وكتب الحواري بولس بهذا الخصوص ما يلي: ((فلقد جاءَ في التَّوراةِ: «فكانَ آدمُ، الإنسانُ الأوَّلُ، كائِنًا حيًّا». أمّا سَيِّدُنا عيسى فهو بمَثابةِ آدمَ الأخيرِ ورُوحِ اللهِ وهو مَن سيُحيي أَرواحَنا.. وهكذا تَرَونَ أنّ الجِسمَ الدُّنيويَّ يأتي أوّلاً، أمّا الجِسمُ النّورانيُّ فيأتي لاحِقًا، وإنّ آدمَ، الإنسانَ الأوَّلَ، أرضيٌّ مِن تُرابٍ، أمّا السَّيِّدُ المَسيحُ، الإنسانُ الثّاني، فهو مِن السَّماءِ)) [رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنتوس 15: 45–47].

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة آدم وحواء

خلق آدم وحواء[1]

عندما بدأ الله خلق السّماوات والأرض، لم يكن في الأرض شجر ولا عشب، لأنّ الله لم يرسل بعد مطرًا ليسقي الأرض ولم يخلق الإنسان بعدُ ليفلَحها. وإنّما كانت عيون الماء تفيض من جوف الأرض فتسقيها. وخلق الله الإنسان من أديم الأرض، من تراب خلقه،[2]٨) ونفخ فيه من روحه، فأصبح آدمﷺ إنسانا ينبضُ بالحياة. وجعل الله سبحانه وتعالى بستانا خصيبا في الأرض ناحية عدن من جهة الشرق، وفيه وضع تعالى الإنسان الذي خلقه. وكان هذا البستان جميلا جدّا، مليئا بكلّ أنواع الأشجار، ما حسُن مَنظرها وما لذّ مأكلها. وهذا المكان بمثابة جنّة الله في الأرض، تتوسّطه شجرتان، شجرة الخلد ومَن يأكل منها يعيش أبدًا، وشجرة معرفة الخير والشرّ. ويجري من عدن نهرٌ يسقي الجنّة، ويتفرّع إلى أربعة أنهار. فيشون اسم النّهر الأوّل، ويمرّ بأرض الحَويلة الغنيّة بأجود أنواع الذّهب والصّمغ الفوّاح وحجر

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 2: 4–25.

(2) يذكر الطبري في تفسيره أن بعض العلماء أكّدوا ما يلي: "ومن ثم سمي آدم لأنه خُلق من أديم الأرض". انظر أيضا سورة ص الآية 71 وسورة الروم الآية 20.

العقيق. وجيحون اسم النّهر الثّاني، ويمرّ بأرض كوش.[1] ودجلة اسم النّهر الثّالث، ويجري شرق أشّور. والفرات هو اسم النّهر الرّابع.

وجعل الله سبحانه وتعالى آدمعليه السلام في هذه الجنّة الخصبة ليعتني بها ويحميها، وأمره:[2] «لك أن تأكل من كلّ شجر الجنّة، إلّا شجرة معرفة الخير والشرّ، إنّك إن تأكل منها تلقى الهلاك لا محالة».[3]

ثمّ قال اللهُ: «لا خير في بقاء هذا الإنسان وحيدًا. سأَخلق له نظيرا يؤنسه ويشاركه حياته». وقدّم الله أمام آدمعليه السلام كلّ الحيوانات والطّيور التي خُلقتْ من تراب مثله، حتّى يختار لها أسماء.[4] ففعل ذلك، ولم يكن من بين كلّ هذه المخلوقات من يؤنس آدم ويشاركه حياته. فأغشاه الله في سُبات عميق وأخرج من جنبه ضلعًا وملأ مكان الضلع لحمًا. وجعل الضلع امرأة وأعطاها لآدم لتكون له زوجة ورفيقة. فقال آدمعليه السلام:

«هذه عظمٌ من عظامي،
ولحمٌ من لحمي.
اسمُها منذ الآن امرأةٌ،
لأنّها مِن امْرئٍ أُخِذتْ».

لهذا السّبب يترك الرّجل أمّه وأباه ليقترن بزوجته، فيؤلفان عائلة جديدة وباقترانهما يُصبحان واحدًا.

وكان آدم وحوّاء لمّا خلقهما الله عريانين، لم يعرفا ذلك ولا كانا على حياء منه.

(1) يبدو أنّ اثنين من هذه الأنهار الأربعة، فيشون وجيحون، لم يعد لهما وجود. ويعتقد بعض الباحثين أنّ جنّة عدن كانت تقع في المنطقة التي صارت مع مرور الوقت الخليج العربي، وأنّ النهرين المذكورين كانا يصبّان في هذه المنطقة.

(2) ذكر الطبري في تاريخه أن أبا ذر وهو أحد الصحابة، قال: قلت، يا نبي الله، أنبيًا كان آدم؟ قال: "نعم، كان نبيًا، كلّمه الله قبلا".

(3) قارن سورة البقرة: 35.

(4) انظر سورة البقرة: 31.

عصيان آدم لربّه[1]

وكانت الحيّة أشدّ الحيوانات الّتي خلقها الله مكرًا، وفي أحد الأيّام تكلّم الشّيطان على لسان الحيّة فقالت لحوّاء: «هل نهاكما الله حقًّا من أن تأكلا من شجر الجنّة؟» فردّت عليها حوّاء: «كلاّ، إنّا قادران أن نأكل من كلّ أنواع شجرها هنا، إلاّ الشّجرة الّتي تتوسّط الجنّة فقد نهانا الله عن ثمارها وأمرنا قائلا: «إيّاكما أن تـأكلا من ثمرها، بل لا تلمساها، إنّكما إن فعلتما ذلك تصبحان من الهالكين». فقالت الحيّة: «لن تهلكا! إنّ الله عليمٌ أنّكما حين تأكلان من ثمر الشّجرة تنفتح بصيرتكما وتصبحان ذا نفوذ تميّزان الخير من الشرّ». وصدّقت حوّاء كلام الحيّة، وعندما نظرت إلى الشّجرة ورأت أنّ ثمرها طيب المذاق شهي المنظر، وأرادت من أكله الحكمة، فقطفت ثمرا وأكلت منه، وأعطت زوجها فأكل بدوره.[2] وما إن أكلا حتّى تفتّحت بصيرتهما وعلما أنّهما عريانان فغطّيا نفسيهما بورق التّين.[3] وهبّت رياح عاتية، وسمعا وَقْعَ صوت الله في الجنّة[4] فقاما مسرعين وحاولا الاختباء بين الأشجار. فنادى العليم القدير آدمﷺ: «يا آدم أتختبئ منّي؟» فأجاب آدم: «إنّي، يا ربّ، سمعتُ صوتك في الجنّة فخفتُ واختبأتُ لأنّي عريان». وقال الله العليم البصير: «ألا تخبرني كيف عرفت أنّك عريان؟ هل أكلت من الشّجرة التي نهيتك عنها؟»[5] فأجاب آدمﷺ: «كلاّ إنّما حوّاء المرأة التي خلقتها لي، أطعمتني من فاكهة الشّجرة، فأكلتُ».

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 3 :1–24.

(2) انظر سورة طه: 121.

(3) انظر سورة الأعراف: 22.

(4) يذكر الباحث جيفري نيهاوس أنّ الكلمات التوراتية التي تُرجمت غالبا بـ«ريح النهار» تعنى «رياح العاصفة» على مثال المعنى في اللغة الأكدية القديمة. وبما أنّ الله اختار أن يتجلّى وسط العاصفة في كثير من الأوقات، فمن المستحسن ألاّ نفهم النص العبري هنا بأنّ آدم وحواء سمعا «صوت الله وهو يتمشّى» بل سمعا «وقع» أو «صدى» صوت الله.

(5) كان الله عليما أن آدم أكل من الشجرة، ورغم ذلك سأله تعالى توبيخا له. ونجد هذا المعنى أيضا في سورة طه، الآية 16، حين يسأل الله النبي موسى عما يكون في يمينه، وطبعا لا يحتاج الله هنا أيضا إلى توضيح من النبي موسى.

وسأل الله حوّاء: «ماذا فعلتِ؟» فردّت حوّاء: «إنّها الحيّة! خدعتني وجعلتني آكل من الشّجرة!» فقال الله سبحانه وتعالى للحيّة:

«من أجل ما فعلتي،
أنت ملعونة من بين كلّ الكائنات،
على بطنك تزحفين ومن التّراب طول حياتك تأكلين
وأقيم عداوة بينك وبين المرأة
وبين نسلها وفصيلتك
هو يسحق رأسك
وأنتِ عقبه تلدغين».

ثم قال الله لحوّاء: «لأنّك فعلتي ما طلبَت منك الحيّة وما أطعتي كلامي،
فليكوننّ حملك ألمًا شديدًا
ولتلقينّ حين تلدين جهدًا جهيدًا
ولتكوننّ رغبتك في التحكّم في زوجك عظيمة،
ولكنّه هو الّذي يتحكّم فيك».[1]

وقال الله لآدم عليه السلام:

وأنت يا آدم ما كان لك أن تعصي وصيّتي،
ولكنّك اتّبعت كلام زوجتك وأكلت من الشّجرة الّتي نهيتك عنها.

(1) بعد مجيء السيد المسيح، قال الحواريون للمتزوّجين ألّا يسعوا إلى تسلّط أحدهما على الآخر، بل عليهما احترام مكانة بعضهما بعض، ولذلك لا يتقيّد أتباع السيد المسيح بما جاء في هذه الكلمات.

وبسببك تحلّ على الأرض لعنةٌ
وبجهد جهيد لتأكلنّ طعامك من الأرض طول حياتك،
فإنّها لن تنتج لك ثمار فقط
بل ستنبت لك الأشواك أيضًا.
وستأكل من تعبك وعرق جبينك
إلى أن تعود إلى أديم الأرض الذي منه خُلقت،
لأنك من تراب وإلى التّراب تعود».

وسمّى آدم زوجته حوّاء لأنّها أمّ كلّ حيّ من البشر.

واتّخذ الله لآدم وحوّاء ثوبين من جلد ليسترهما.[1] وكان الله عليما أنّ الإنسان صار مثله يعرِفُ الخير والشرّ، فقال: «إيّاه الآن أن يقترب من شجرة الخلد أيضًا، إنّه إن يأكل منها يحيى إلى الأبد».

لذلك أخرجهما الله من الجنّة الخصبة، وأرسل آدم عليه السلام إلى الأرض التي خُلق منها ليزرعها. وبعد أن أخرجهما الله من الجنّة، أقام سبحانه وتعالى على الطّريق المؤدّية إلى شجرة الخلد عددا من الملائكة المقرّبين[2] ومعهم سيف يشتعل نارًا ينتقل من جهة إلى أخرى ليحرسوها.

(1) انظر سورة الأعراف: 26.
(2) ويُعرف هؤلاء الملائكة في ترجات أخرى بـ"كروبيم" وهم مجموعة من الملائكة حملة العرش.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة قابيل وهابيل

قابيل يقتل أخاه هابيل[1]

وحملت حواء من آدم(عليه السلام) وأنجبت له ولدًا وسمّياه قابيل. وقالت: «إنّ الله رزقني فأنجبت الإنسان الّذي وعد الله به!» ثمّ رُزقت بولد آخر وسمّته هابيل. وبعد أن كبر الولدان أصبح هابيل راعيًا للغنم، وأصبح قابيل فلاّحًا. وذات يومٍ قدّم كلّ من قابيل وهابيل قربانًا لله إكراما له تعالى، فقدّم قابيل من ثمار الأرض، واختار هابيل أحسن أبكار الغنم التي يملكها وذبحها وقدّمها قربانًا لله.

فرضي الله تعالى عن هابيل وقبل قربانه، ولم يرض عن قابيل ولم يقبل قربانه.[2] واستشاط قابيل غضبًا وأصبح وجهه عابسًا. فحذّره الله قائلا: «لماذا أنت غاضب

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 4: 1–16.

(2) لا توجد إشارة واضحة في هذا النص توضّح لماذا لم يرض الله عن هدية قابيل. لكن الواضح في الأمر أن الله يعرف نوايا البشر وهو على يقين أن قابيل لم يكن يرغب في تقديم هدية ذات قيمة لله. وفي التوراة يوجد نوعان من التقدمة لله هما الحبوب والذبيحة، ولذلك فإن الله كان يعرف نوايا قابيل في التقدمة التي اختارها له. فقابيل لم يفعل الصواب ولم يقدّم هدية تليق بجلال الله، لذلك حذّره الله بأن يكبح ردة فعله ويسيطر على عواطفه.

ووجهك عابس؟ لو أنك فعلت الصواب لرضيتُ عنك. ولكن إن رفضتَ الصواب، فالرغبة في ارتكاب الشرّ مثل حيوان مفترس ينتظر أن يهجم عليك، وهو في لهفةٍ للهيمنة عليك، وعليك أن تبادر بالهيمنة عليه».

ومرّت أيام وطلب قابيل من هابيل أن يصحبه إلى الحقل، ولمّا وصلا هجم قابيل على أخيه وقتله.[1] فأحدث دمه بِرَكًا في الأرض، فجاء قولُ الله إلى قابيل: «أخبرني، أين أخوك هابيل؟» فردّ قابيل: «هل أنا حارس لأخي حتّى أعرف أين هو؟» فردّ قولُ الله: «ما هذا الذي ارتكبته؟! إنّ دم أخيك يصرخ إليّ من الأرض وقد وصلني صوته! والآن أنت مغضوب عليك في الأرض التي فيها سفكت دم أخيك بيديك. ومن الآن فصاعدًا، فإنّك لن تجني ممّا زرعتَ ثمرًا، وستكون طريدًا شريدًا في الأرض كلّها».

فأجاب قابيل: «إنّ ذنبي أكبر من أن أتحمّله، وإنّه لوزرٌ فوق طاقتي!» طريدا شريدا في الأرض جعلتني، ويسعى إلى قتلي كلّ من وجدني، لأنّك أبعدتني عن هذه الأرض وحجبت عنّي وجهك».

فجاء قول الله مرّة أخرى: «لا، بل يكون عقاب من يقتلك بسبعة أضعاف عقابك».[2] ووضع الله علامة على قابيل حتّى لا يقتله من يعثر عليه. وهكذا خرج قابيل من حيث تجلّيات الله وأقام في أرض نود –أي بلاد الضياع– شرق عدن.

نسل قابيل[3]

وتزوّج قابيل ورُزق بولد وسمّاه حَنوك وكان في تلك الأثناء يبني مدينة فأطلق عليها اسم حَنوك على اسم ابنه. وحَنوك أنجب عِيراد، وعِيراد أنجب مَحويل، ومَحويل

(1) يخبر اليعقوبي في تاريخه: «قرّب قابيل من بين زرعه وقرّب هابيل أفضل كبش في أغنامه لله، فقبل الله قربان هابيل ولم يقبل قربان قابيل، فازداد نفاسة وحسدا وزيّن له الشيطان قتل أخيه فشحده بالحجارة حتّى قتله».

(2) هذه الفكرة تكشف أن الله يعرف مدى فظاعة الجريمة التي ارتكبها قابيل. ولكن من الوهلة الأولى يظهر للقارئ أن الله قد حمى المجرم (القاتل)، لكن الحقيقة أنّ الله أراد أن يمنع جرائم أخرى قد لا تنتهي مع وجود الثأر.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 4: 17–24.

أنجب مَتوشِيل، ومَتوشِيل أنجب لامِك. وتزوَّج لامِك امرأتين إحداهما تُدعى عادة والأُخرى صِلَّة. فولدت عادةُ يابال وهو أوّل مَن سكن الخيام ورعى المواشي، واسم أخيه يُوبال وهو أوّل مَن عزف بالعود والمزمار. وأنجبت صِلَّة ولدا اسمه توبال قابيل، وهو أوّل مَن اشتغل بصناعة النّحاس والحديد، وكان لديه أُختٌ اسمها نِعمَة.

وقال لامِك لزوجتَيه:

أصغيا لِكلامي جيّدًا. إن جرحني رجلٌ سأقتله،

حتّى وإن ضربني ولدٌ سأقتله!

فإن كان يُنتقَم لقابيل سبعة أضعاف،

فأنا سأنتقم لنفسي سبعة وسبعين مرّة». [1]

نسل شيت[2]

وبعد مدّة حملت حوّاء مرّة أخرى وأنجبت ولدًا سمّته شيث، وقالت: «الحمد لله، لقد عوّضني الله ورزقني ولدًا بدل هابيل الذي قتله قابيل». وأنجب شيث ابنًا وسمّاهُ أَنوش. وفي ذلك الوقت بدأ عامّة الناس في عبادة الله.

(1) قال الله إنّه يجازي من يؤذي قابيل سبعة أضعاف، ولكن لامك قال إنه سينتقم لنفسه ولن يترك الأمر لله. ويعتقد الباحثون أن لامك استخدم الرقم 77 هنا بطريقة مجازية لكي يشير إلى الانتقام بلا حدود. والله أوحى للنبي موسى بوضع حد للانتقام عندما أنزل الوصية «العين بالعين والسن بالسن» (التوراة، الخروج 21: 23-25). ولكن الله قصد أن يرفع البشر إلى أخلاق أسمى من ذلك. فالسيد المسيح عندما سأله أتباعه كم مرة يسامح المؤمن أخاه المؤمن إن أخطأ بحقه، فاستعمل الرقم نفسه 77 الذي قاله لامك، وبهذه الطريقة لمح إلى أن المؤمن عليه أن يسامح بلا حدود، كما ادّعى لامك أن لديه الحق أن ينتقم بلا حدود. وموقف لامك المتوحّش يختلف بشكل جلي عن مقاصد الله السامية التي علّمها السيد المسيح للناس (انظر الإنجيل، متّى 18: 22).

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 4: 25-26.

قصّة النبي نوح عليه السلام

مدخل إلى قصّة النّبيّ نوح

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [سورة يونس: 73]

جاء النّبي نوح(عليه السلام) في الجيل العاشر بعد سيدنا آدم(عليه السلام). وجاء أوّل ذكر للنبي نوح والطّوفان في التوراة، ثمّ ذُكرت هذه القصّة في الكتب السّماوية اللاّحقة مع شرح لأهميّتها وإضافة لبعض التفاصيل.

ونرى في قصّة النّبي نوح كيف انتشر الفساد بين الناس في العالم بعد الخطيئة الأولى لآدم وحواء، إلى درجة أنّهم ((مَلأوا الأرضَ فَسادًا وظُلمًا)) [التكوين 6: 11]. وفي النهاية عاقب الله كلّ من ارتكب إثما مع أنّه صبور حليم. وذكرت الكتب السّماوية التي جاءت بعد التوراة، أنّ النّبي نوح نادى في قومه أن يتوبوا كما ذكر الحواري بطرس: ((النَّبيُّ نوحٌ الّذي كانَ يَدعو إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ)) [رسالة الحواري بطرس الثّانية 2: 5]. ورغم دعوته لم يستجب قومه له كما نرى في سورة نوح ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا (٥) فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا﴾ [سورة نوح: 6-5]. وتحتوي هذه القصّة عبرة مهمّة إذ يأتي إعلان الله بخصوص الإنسان بعد الطّوفان أنّ ((ميول قلبه شرّيرة منذ الطفولة)) [التكوين 8: 21].

وترد قصّة الطّوفان الكبير الذي عمّ العالم في عدّة أساطير قديمة شأن ملحمة

قلقامش وملحمة أتراهاسيس. وجاءت كلتا القصّتين في اللّغة الأكادية في القرن الثّامن عشر قبل الميلاد أو ربّما قبل هذا التاريخ. ونجد قصّة الطّوفان في قصّة زيوسودرا البابليّة من القرن السّابع عشر قبل الميلاد أو ربما قبل هذا التاريخ، ونجدها أيضا في كتاب أفلاطون المسمّى بتيميوس. ولم يكترث الرّواة القدامى برواية التّفاصيل العلميّة المتعلّقة بالطّوفان بل سعوا إلى بيان سبب حدوث طوفان على هذا النّحو. وفي إحدى القصص الوثنيّة في اللغة الأكادية على سبيل المثال، يرد شرح مفاده أنّ الطّوفان حلّ على النّاس بسبب إزعاجهم لإله الطّقس أو الجو بكثرة الضجّة التي أحدثوها على الأرض. وحاول بنو يعقوب أن يفسّروا سبب حدوث هذا الطّوفان. ولكنّ قصّة الطّوفان في التوراة تبيّن أنّ الله تعالى يختلف عن تصوّر الوثنيّين لآلهتهم. فالعبرة من قصّة الطّوفان عندهم إذن تعود إلى عبرة قصّة أبينا آدم، ألا وهي أنّ عصيان الله يؤدّي إلى الهلاك.

ويأتي ذكر الطّوفان ضمن قائمة قديمة لأسماء الملوك السّوماريين. وتفصل هذه القائمة التّاريخ إلى قسمين، قسم ما قبل الطّوفان وقسم ما بعد الطّوفان. وتمتّع ملوك ما قبل الطّوفان بأعمار طويلة للغاية، بينما عاش ملوك ما بعد الطّوفان أعمارا أقصر بكثير. ويرد في التوراة الاختلاف نفسه في أعمار النّاس الذين عاشوا زمن ما قبل الطّوفان وما بعده. ويرى الباحثون أنّ الأعمار الطّويلة المذكورة لشخصيات ما قبل الطّوفان ليست أعمارهم الحقيقيّة وإنّما وردت لأهداف رمزيّة.

لم ترد في التّوراة قصّة ابن نوح المتمرّد الذي مات غرقا، بل جاء ذكر لابن رابع للنبي نوح اسمه كنعان في تفسير يهودي يعود إلى القرن العاشر للميلاد (ميدراش دي بيركي رابي اليعازر). ويقول بعض المفسّرين المسلمين أنّ هذا الابن يدعى يام أو كنعان ويؤكّدون أنّه الابن المذكور في القرآن.

وبعد نزول النّبي نوح عليه السلام ومن معه من السّفينة بنى مذبحا، ثمّ ذبح بعض الحيوانات المقبولة للذبح وأحرقها قربانا لله. وجاء هنا أوّل ذكر في الكتاب المقدّس من بعد زمن هابيل لهذه العادة القديمة. وفي ثقافات الشرق الأدنى القديم، كان شائعا بين النّاس أن يعبدوا آلهتهم من خلال إحراق ذبائح قربانا للآلهة. وقد سمح الله لعباده

الصّالحين أن يستمرّوا في ممارسة هذه العادة كإجراء مؤقت، وطالبهم تعالى بذبح الحيوانات باسمه وألاّ يقدّموها للأصنام شأن الوثنيّين. وكان مقصد الله من هذا الأمر أن يهتدي بنو يعقوب مع مرور العصور إلى مفاهيم متطوّرة للعبادة.

وبعد أن قدّم النّبي نوح قربانا لله، أقام الله تعالى ميثاقا معه، وفيه وعد من الله أنّه لن يدمّر الأرض بالطّوفان مرّة أخرى. ويرى كثير من الدّارسين أنّ شروط هذا الميثاق وقوانينه تنطبق على كلّ البشرية ابتداء من النّبي نوح وذرّيته. ووعد الله أيضا أنه سيخفّف عاقبة خطيئة آدم وحواء قليلا ويريح البشرية من خلال النبي نوح. وتنبّأ لامك والد النبي نوح بهذه الراحة (انظر سفر التكوين 5: 29). ويأتي تحقيق هذا الوعد في ميثاق الله مع النبي نوح (انظر التكوين 8: 21 و22) ولكن البشر خالفوا شروط هذا الميثاق فيما بعد، كما ذكر النبي أشعيا (كتاب النبي أشعيا 24: 5)، لذلك فإنّ تخفيف عواقب اللعنة لم يستمر كثيرا.

لقد فهم كثير من الناس سفينة نوح كرمز للنجاة، وخاصّة ما جاء في الإنجيل الشريف: ((أمهَلَهُمُ اللهُ بِصَبرِهِ عِندَما رَفَضوا طاعتَهُ أثناءَ بِناءِ سَفينةِ النَّجاةِ الّتي نَجا بواسِطتِها عَدَدٌ قَليلٌ مِن النّاسِ، لا يَتَجاوزُ الثَّمانيةَ، وبِالماءِ كانَت نَجاتُهُم. وهذا رَمزٌ للّذينَ يَتَطَهَّرونَ بِهِ صِبغةً مِن اللهِ، إنّهُ الماءُ الّذي أنتُم بِهِ الآنَ ناجونَ، وهذا لا يَعني غَسلَ الجِسمِ لتَنظيفِهِ، وإنّما هو عَهدٌ نُقيمُهُ مَعَ اللهِ بِضَميرٍ نَقيّ)). [رسالة الحواري بطرس الأولى 3: 20 و21].

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النبي نوح(عليه السلام)

الأجيال بين آدم ونوح[1]

رُزق آدم عليه السلام في سن مئة وثلاثين سنة بابن يُشبِهُهُ كثيرًا وسمّاه شيثًا.[2] وبعدها أنجب غيره من البنين والبنات. وبلغ مجموع السنوات الّتي عاشها آدم عليه السلام تسع مئة وثلاثين سنةً.[3] ورُزق شيث بأنوش عندما بلغ مئة وخمس سنين وبعدها أنجب غيره من البنين والبنات. وتوفّي شِيث عندما بلغ تسع مئة واثنتي عشرة سنة.

ورُزق أنوش بقينان عندما بلغ تسعين سنة وبعدها أنجب غيره من البنين والبنات. وكان مجموع السنوات الّتي عاشها أنوش تسع مئة وخمس سنين.

ورُزق قينان بمَهلَلِيل عندما بلغ سبعين سنة وبعدها أنجب غيره من البنين

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 5: 3–32.

(2) يقول اليعقوبي: «ووقع آدم على حواء فحملت وولدت غلاما بعد أن أتى له مائة وثلاثون سنة فسمّاه شيثا، فكان أشبه ولد آدم بآدم».

(3) جاء في أدبيات الحضارات القديمة مثل الحضارة السومارية ذكر لملوك فاقت أعمارهم مئات السنين بل آلاف السنين، لكن بعد الطوفان عاش الناس أعمارا عدد سنواتها معقول ومألوف لدى الناس اليوم. ونلاحظ أن شعوبا كثيرة في القديم، بما في ذلك بني إسرائيل، اعتقدت أن الطوفان مثّل مرحلة فاصلة في التاريخ قسمته إلى مرحلة ما قبل الطوفان وما بعده.

والبنات، وتوفّي قينان عندما بلغ تسع مئة وعشر سنين. ورُزق مَهلَليل بيارِد عندما بلغ خمسًا وستين سنة وبعدها أنجب غيره من البنين والبنات. وتوفّي مَهلَليل عندما بلغ ثماني مئة وخمسًا وتسعين سنة.

ورُزق يارِد بإدريس عليه السلام[1] عندما بلغ مئة واثنتين وستين سنة وبعدها أنجب غيره من البنين والبنات. وتوفّي يارِد عندما بلغ تسع مئة واثنتين وستّين سنة. وسلك إدريس عليه السلام نهج الله، ورُزق بمَتوشالِح عندما بلغ خمسًا وستّين سنة وبعدها أنجب غيره من البنين والبنات. وكانت كلّ أيّام إدريس عليه السلام ثلاث مئة وخمسًا وستّين سنة، وفيها سلك نهج الله، ثُمّ توارى لأنّ الله رفعه إليه.[2]

ورُزق مَتوشالِح بلامِك عندما بلغ مئة وسبعًا وثمانين سنة وبعدها أنجب غيره من البنين والبنات. وتوفّي مَتوشالِح عندما بلغ تسع مئة وتسعًا وستّين سنة.

ورُزق لامِك بنوح عليه السلام عندما بلغ مئة واثنتين وثمانين سنة، وسمّاه نوحًا لأنّه قال: «سيُريحنا عن أعمالنا وعن شقائنا في الأرض الّتي أتبعها الله بلعنة». وبعدها أنجب غيره من البنين والبنات. وتوفّي لامِك عندما بلغ سبع مئة وسبعًا وسبعين سنة.

وبعد أن بلغ نوح عليه السلام من العمر خمس مئة سنة أنجب سام وحام ويافث.

بداية الطغيان[3]

لمّا تكاثر النّاس على الأرض، ورُزقوا ببنات، رأى بنو الأشراف أَنّ بنات العامّة

(1) يؤكد اليعقوبي أنّ النبي إدريس هو من يُعرف عند البعض باسم أخنوخ: «وأوحى الله عزّ وجلّ إلى نوح في أيام جدّه أخنوخ - وهو إدريس النبي - وقبل أن يرفع الله إدريس».

(2) انظر الآيتين 56 و57 من سورة مريم: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 6: 1-4. هذا العنوان هو مقدمة للطوفان الذي سيرسله الله ليدمر الأرض، لأنه تعالى رأى أن الشر قد انتشر بين الناس وطغى، فالحكام مثلا اتخذوا من بنات العامة زوجات لهم كما أرادوا ودون موافقتهنّ، وهنا نلاحظ سيطرة الحكام ونفوذهم على عامة الناس. فالحاكم رمز للشر والغطرسة التي يمارسها على عامة الناس. وسنرى مثالا من الحكم الطاغي في حكم نمرود الذي يأتي ذكره في الفصل العاشر من سفر التكوين.

جميلات فاتّخذوا منهنّ زوجات قسرًا كما طاب لهم. وقال الله: «إنّي جاعلٌ أجلا محدّدا لحياة الإنسان في الأرض، فهو بشرٌ وأيّامه لا يجب أن تدوم إلى الأبد، ولن تتعدّى مئة وعشرين سنة». وفي تلك الأيام، أنجبت بنات العامة من الحكّام شديدي البأس أولادًا أصبحوا في ما بعد حكّامًا متجبّرين ذوي شأن كبير.

انتشار الشرّ[1]

ورأى الله أنّ شرّ البشر قد انتشر في الأرض، واستمرّ الإنسان في ميوله وأفكاره الشريرة، فاستاء الله من الإنسان الّذي خلقه على الأرض وبدّل مقصده تجاهه. وقال الله: «سأمحو من وجه الأرض الإنسان الّذي خلقتُه والحيوانات والزواحف وطيور السّماء، لأنّي غيّرت مقصدي تجاههم». أمّا نوحٌ عليه السلام فقد حظي بمرضاة الله.

سيرة النبي نوح[2]

كان نوحٌ عليه السلام صالحًا وهو الوحيد الّذي عُرف بالاستقامة في زمانِهِ، باتّباعه نهج الله. وأنجب النبي نوح ثلاثة بنين، هم سامٌ وحامٌ ويافثُ. ورأى الله أنّ البشر قد ملؤوا الأرض فسادًا وظلمًا، وعمّ الفساد حياة كُلّ فرد، فأوحى الله إلى نوحٍ عليه السلام: «لقد قضيتُ أن أُنهي حياة البشر، لأنهم ملؤوا الدنيا ظلمًا. سأُمحوهم من الحياة. واصنعْ لنفسك بوحينا سفينةً من جيّد الخشب واجعل فيها غُرفًا، واطْلِها بالقار من الداخل والخارج. وليكُنْ طولُها ثلاث مئة ذراعٍ، وعرضُها خمسين ذراعًا، وارتفاعها ثلاثين ذراعًا. واجعل للسفينة نافذة يكون بينها وبين السّقف ذراعٌ واحدةٌ، واجعل في جانبها بابًا، وليكن في السفينة طبقاتٌ سُفلى ووُسطى وعُليا. وإنّي أُرسل المياه طوفانًا على الأرض لأُبيد كلّ ما يوجد من كائنات حيّة تحت السماء، إنّ كلّ ما على الأرض هالكٌ. وسأقيم ميثاقي معك، فتدخل السفينة أنت وبنوك وزوجتك وزوجات بنيك. ولتحمل من كل كائن حيّ زوجين اثنين: ذكرًا وأنثى، وليَبقَيا معك على قيد الحياة. خذ اثنين

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 6: 5–8.

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 6: 9–22.

من كلّ نوع من الطيور ومن كلّ نوع من الحيوانات ومن كلّ نوع من الزواحف ـ إنّها آتيةٌ كُلُّها إليك طواعية لتنجو. وخذ معك من كلّ طعام يُؤكل وخزّنْهُ ليكون غذاءً لكم.

وأطاع نوحٌ عليه السلام ربّه واستجاب لِما أمره به تعالى.

بداية الطوفان[1]

وبعد الانتهاء من بناء السفينة، أوحى اللهُ إلى نوح عليه السلام: «يا نوح اركب السّفينةَ مع جميع أهل بيتك، إنّي لأراك على وجه الأرض صالحًا مستقيمًا من دون الناس. فخذ معك من كلّ نوع من الحيوانات التي تُذبح سبعة أزواج،[2] وخذ من كلّ نوع من بقية الحيوانات اثنين، ذكرًا وأنثى. واحمل معك من كلّ نوع من الطيور سبعة أزواج حتّى لا يُباد جنسها من الأرض. إنّي مرسل بعد سبعة أيام مطرًا على الأرض يدوم أربعين يومًا بلياليها، فأمحو من سطحها كلّ كائن حيّ خلقتُهُ.» وأطاع نوح عليه السلام ربّه واستجاب لأُمره تعالى.

وكان نوحٌ عليه السلام قد بلغ ستّ مئة سنةٍ حين حلّ طوفان المياه على الأرض. ودخل نوحٌ عليه السلام السّفينة مع زوجته وبنيه وزوجاتهم لينجوا من مياه الطوفان، وأقبلت على نوح طواعية كلّ الحيوانات والطيور والزواحف الّتي اختارها وركبت السفينة أزواجًا، ذكرًا وأنثى، كما أمر الله نوحًا. وبعد سبعة أيّام غمرت مياه الطوفان الأرض.

وبلغ النبي نوح عليه السلام من العمر ستّ مئة سنة، وفي اليوم السّابع عشر من الشّهر الثاني، انفجرت من تحت الأرض ينابيع المياه العميقة وانفتحت مزاريب السّماء. وانهمر المطر على الأرض أربعين يومًا بلياليها.[3] وفي اليوم ذاته دخل النبي نوحٌ السّفينة مع زوجته وبنيه وزوجاتهم. ودخل معهم من كلّ نوع من الحيوانات والزواحف والطيور أزواجًا ذكرًا وأنثى ثمّ أغلق اللهُ باب السفينة.

وتدفّقت المياه على الأرض أربعين يومًا، ورفعت المياه الغزيرة السفينة فوقها،

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 7: 1-24.
(2) انظر المقال في هذا المجلد بعنوان: «العادات الشرقية اليهودية القديمة».
(3) انظر سورة القمر: 12-11.

وازداد ارتفاع المياه ازديادًا فغطّى كلّ الجبال الشاهقة في كلّ أنحاء الأرض. وارتفعت المياهُ خمسة عشر ذراعًا فَوق الجبال فغطَّتها وماتت كلّ الكائنات الحية الموجودة على الأرض من بهائم ووحوش وطيور وزواحف وحتّى البشر.[1] ومحا اللهُ من سطح الأرض كلّ كائن حيّ، ولم يبقَ غير النبي نوح عليه السلام والّذين معه في السفينة.[2]

نهاية الطوفان[3]

وحفظ الله وعده مع النبي نوحٍ عليه السلام بأنّ ينجّيه مع كلّ من معه في السفينة، بما في ذلك الحيوانات. فأرسل ريحًا على الأرض، ونقُصَ مستوى المياه. وانسدّت ينابيع الأرض وأُقفلت مزاريب السّماء، وانقطع هطول المطر. وتراجعت المياهُ عن الأرض شيئًا فشيئًا حتّى نقُصت، وبعد مرور خمسة أشهر من بداية الطوفان استقرّت السّفينة على جبال أرارات.[4] وبعد شهرين ونصف، نقصت المياه أكثر فظهرت رؤوس الجبال.

وبعد أربعين يومًا فتح نوحٌ عليه السلام النافذة الّتي صنعها في السّفينة وأرسل الغراب فأخذ يروح ويجيء إلى أن جفّت المياه عن الأرض. ثمّ أرسل نوح الحمامة حتّى تستكشف سطح الأرض، فلم تجد مكانًا تستقرّ عليه، لأنّ المياه ما زالت تغطّي كلّ الأرض. ولمّا عادت، مدّ النبي نوح يده وأدخلها إلى السفينة. وبعد سبعة أيّام أرسل الحمامة من جديد، فعادت إليه في المساء وفي فمها ورقة زيتون خضراء، فعلم نوحٌ عليه السلام أنّ المياه على الأرض تراجعت. وبعد سبعة أيّام أرسل الحمامة مرّة أخرى، ولكنّها لم تعُد إليه.

(1) لماذا هلكت كل هذه الحيوانات عندما حلّ العقاب على البشر بسبب ذنوبهم؟ لقد جعل الله البشر خلائفه على الأرض بما فيها من كائنات، وعندما عصى الإنسان ربّه وجحد لطفه تعالى، حل دمار على الأرض وما فيها لأنّ الإنسان مسؤول عنها. وعلى الطريقة نفسها، عندما ينجو البشر ستنجو معهم كل الحيوانات (انظر كتاب النبي أشعيا 11: 6-9).

(2) انظر سورة الشعراء: 119-120.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 8: 1-14.

(4) ورد ذكر هذه المنطقة في الكتابات الأشوريّة القديمة، وهي المنطقة المجاورة لبحيرة وان في شرق تركيا.

وبعد عشرة أشهر ونصف من بداية الطوفان، وتحديدا لمّا كان عمر النبي نوح ست مئة وواحد، نقصت المياه كثيرًا عن الأرض. فرفع عليه السلام غطاء السفينة، فلاحظ أنّ سطح الأرض بدأ يجفّ. وبعد مرور شهرين آخرين جفت المياه تمامًا على سطح الأرض.

الخروج من السفينة[1]

وأوحى الله إلى نوح عليه السلام قائلا: «اخرج أنت وزوجتك وبنوك وزوجاتهم من السّفينة[2] وأطلق في الأرض كلّ أنواع الحيوانات والطيور والزواحف الّتي معك، حتّى تتوالد وتكثر وتزيد. فخرجوا جميعًا من السفينة وخرجت معهم الحيوانات بأصنافها.

وبنى نوحٌ عليه السلام مذبحًا من الحجر لحرق قرابين بعض الحيوانات والطيور المقبولة للذبح، وأحرقها هناك بأكملها قربانًا لله.[3] فقبلها الله برضى، وأطلق عهدًا: «لن أنزع بركتي عن الأرض مرّة أخرى بسبب الإنسان، مع أنّ ميول قلبه شريرةٌ منذ الطفولة. ولن أهلك كلّ حيّ كما فعلتُ.

فما دامت الأرض باقية،
فالزّرع والحصاد،
والبرد والحرّ،
والصّيف والشّتاء،
واللّيل والنّهار،
لا ينقطع دورانها أبدًا.»

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 8: 15–22.

(2) انظر سورة هود: 48.

(3) الهدف العام من الذبائح في العالم القديم هو استرضاء الآلهة التي عبدوها واستعطافها بهدايا الطعام والشراب. ولكن المختلف هنا أن النبي نوح أراد أن يعبّر عن شكره لله بإحراق الذبيحة ليؤكد أن الله لا يجوع ولا يحتاج أن يأكل فأحرق الذبيحة. وهذا التعبير يختلف عن بقية الشعوب التي كانت تعتقد أنّ آلهتهم تحتاج إلى الأكل والشراب فعلا لأنها تشعر بالجوع.

ما بعد الطوفان: ميثاق الله[1]

وبارك الله في النبي نوح عليه السلام وفي بنيه قائلا: «تكاثروا وعمّروا الأرض. وستخافكم جميع الحيوانات والطيور والزواحف وأسماك البحر وترهبُكم. إنّا جعلناكم عليها خلائف. ولتكن كلّها منذ الآن طعامًا لكم، كما كان النبات الأخضر سابقًا طعامًا. ولكن لا تأكلوا لحمًا يقطر دمًا، لأنّ الدم هو الحياة. أمّا دماؤكم المسفوكة، فإنّي أُحاسب عليها كلّ حيوان، وأُحاسب كلّ إنسان على حياة أخيه. فمَن يسفك دم الإنسان، يُسفك دمُهُ، إنّي خلقت الإنسان حتّى يكون ظلّي في الأرض.[2] فتكاثروا وتوالدوا وعمّروا الأرض وسيطروا عليها».

وأوحى الله إلى نوحٍ عليه السلام وبنيه: «ها أنا أقيم الآن ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم، ومع كلّ كائن حيّ خرج معكم من السفينة، من بهائم ووحوش وطيور. نعم، أُقيم ميثاقي معكم، فلن تُبيد المياه جميع الأحياء مرّة أخرى، ولن أرسل طوفانًا آخر ليخرّب الأرض». وأضاف تعالى: «ولأضعنّ علامة على الميثاق الّذي أُقيمه بيني وبينكم، وبيني وبين كلّ كائن حيّ معكم عبر الأجيال: ها هو قوس قزح في السّحاب، علامة الميثاق بيني وبين الأرض. فعندما أرسلُ السحاب على الأرض، ويظهر قوسُ قزح، فليكن هذا تذكيرًا أنّي حافظ أمين للميثاق الّذي بيني وبينكم وبين كلّ كائن حيّ. فلن تتحوّل المياه إلى طوفان يبيد الأحياء. ومتى ظهر القوس في السحاب، كان علامة على أنّي حافظ للميثاق الأبديّ».

وأوحى الله إلى النبي نوحٍ: «هذه هي علامة الميثاق الّذي أقمتُه بيني وبين كلّ كائنات الأرض».

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 9: 1–17.

(2) روى البخاري (6227) ومسلم (2841) عن أبي هريرة: "خلق الله آدم على صورته". انظر أيضا الهامش في سفر التكوين، 1: 26).

النبي نوح وبنوه[1]

وعاش النبي نوحٌ عليه السلام بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنةً، وبلغ عدد السنوات التي عاشها عليه السلام ألف سنة إلاّ خمسين.[2]

وخرج نوحٌ عليه السلام من السفينة مع أبنائه سام وحام ويافَث. وكان لِحام ابن اسمه كَنْعان. وكنعان هو جدّ الكنعانيّين. وانحدر كلّ سكّان الأرضِ من أبناء نوح الثلاثة.[3]

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 9: 28–29، 18–19.

(2) انظر سورة العنكبوت: 14.

(3) انظر سورة البقرة: 213، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾. رأى كثير من مفسّري القرآن أنّ هذه الآية تشير إلى الفترة ما بين آدم عليه السلام والنبي نوح عليه السلام.

الشُّعوبُ مِن ذرِّيَّةِ النَّبيِّ نوح عليه السلام وانتشارُها بعدَ الطّوفانِ

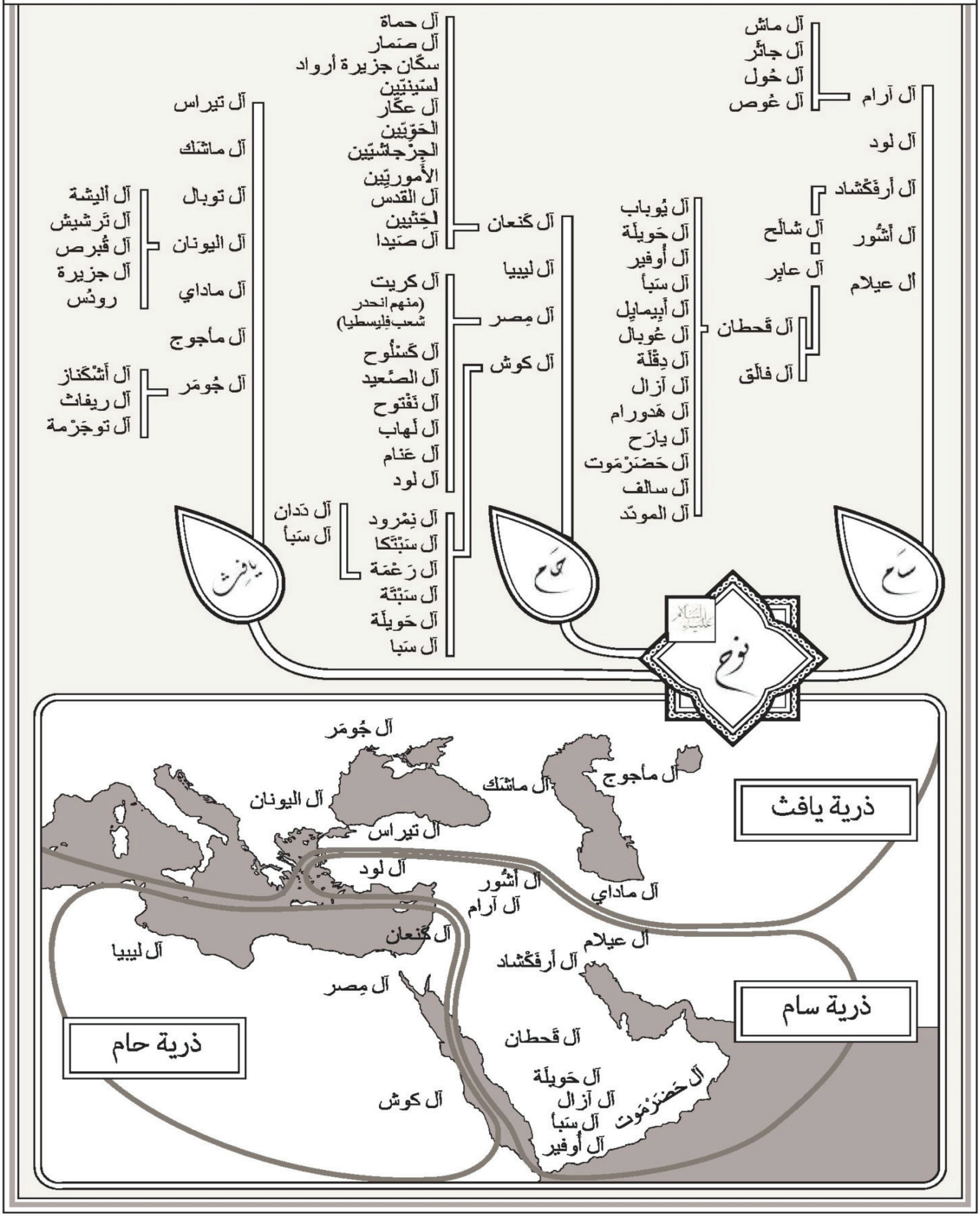

انتشار ذرية النبي نوح بعد الطوفان[1]

هذه ذرية أبناء النبي نوح: سام وحام ويافِث، وأنجبوا أولادا بعد الطوفان. ومن يافِث انحدرت الشعوب في سواحل البحر: شعوبُ جُومَر ومأجوج وماداي واليونان وتوبال وماشَك وتيراس. ومن جومَر انحدرت شعوبُ أَشْكَناز وريفات وتوجَرْمة. وانحدر من الشعب اليوناني شعبُ أَليشَة وتَرْشيش وقُبرص وجَزيرةِ رُودُس. ومن بني اليونان تفرّع سكّان سواحل البحر الأبيض المتوسّط حسب قبائلهم وشعوبهم ولغاتهم.

ومن حام انحدر شعبُ كوش ومِصر وليبيا وكَنْعان. ومن شعب كوش انحدرت الشعوبُ المجاورة للبحر الأحمر، وهم سَبا وحَويلَة وسَبْتَة ورَعْمَة وسَبْتَكا. ومن شعب رَعْمَةَ انحدر شعبُ سَبأ ودَدان. ومن شعب كوش انحدر نِمْرودَ الّذي أصبح حاكما متجبّرا في الأرض، وكان صيّادًا قديرًا[2] بإذن الله، لذلك يقول المثل: «إنّه كنمرود، الذي كان صيّادًا قديرًا بإذن من الله». واحتوت مملكته في البداية على مدن البلاد البابلية: بابِل وأَرَك وأَكّد وكَلْنة. وامتدّت أراضيه إلى أَشّور وبنى نِينَوى ورَحوبوت عَير وكالَح، ومدينة رَسَن العظيمة الواقعة بين نينوى وكالَح. ومن شعب مصر انحدرت قبائل لود وعَنام ولَهاب ونَفتوح وقبائل الصَّعيد وكَسلوح وجزيرة كريت، وانحدر شعب فِليسطيا من جزيرة كريت. وانحدر من شعب كَنعان أهل صَيدا والحِثّيين، والوثنيون الذين سكنوا قديما في مدينة القدس، والأَموريّون والجِرْجاشيّون الّذين جاوروهم، وفي ساحل بلاد الشام الحَويّون وسكّان عكّار والسّينيّون، وسكّان جزيرة أرواد وبلاد صَمار وحَماة. وانتشرت بعد ذلك قبائل الكَنعانيّين. فامتدّت حدود كنعان من صَيدا إلى غزّة مرورًا بجَرار، ثمّ إلى لاشَع مرورًا بِسَدوم وعَمورة وأَدمة وصَبويم وهي مدن تقع بجوار البحر الميت. وتنحدر هذه الشعوب جميعًا من حام حسب بلادهم وشعوبهم وقبائلهم ولغاتهم.

---

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 10: 1–32.

(2) في القديم أمر بعض الملوك مثل فراعنة مصر وملوك أكّاد أن توضع لهم صور في قصورهم وهم بصدد صيد بعض الحيوانات المفترسة. وهكذا صوّروا أنفسهم على أنهم أقوياء وقادرون على حماية شعوبهم من خطر الحيوانات المفترسة وما يشبهها.

وسام هو أخو يافث الأكبر، وقد أنجب أيضًا أولادًا. وتنحدر منه جميع عشائر بني عابِر. وذرّيّة سام هم: شعوب عيلام وأشّور وأَرفَكْشاد ولود وآرام. ومن آرام تنحدر شعوب بلاد عُوص وحُول وجاثَر وماش. وأنجب أَرفَكشاد شالَح وشالَحُ أنجب عابِر. وأنجب عابِر ولدين، اسم الأوّل فالَق ومعناه قاسم، لأَنّ الأرض انقسمت في أَيّامه. واسم الثاني قَحطان. وانحدر من قَحطان شعوب المودّد وسالف وحَضَرْمَوت ويارَح وهَدورام وآزال ودِقْلة وعوبال وأَبيمايل وسَبأ وأُوفير وحَويلة ويُوباب. واستقرّوا جميعا في منطقة الجبال الشرقية الواقعة بين ميشَع وسَفار. وتنحدر هذه الشعوب جميعًا من سام حسب بلادهم وشعوبهم وقبائلهم ولغاتهم. إنّ هذا عرضٌ للشعوب التي انحدرت من أبناء نوح عليه السلام حسب تفرّع سُلالاتهم، ومنهم تفرّقت بقية الشعوب في الأرض بعد الطوفان.

برج بابل[1]

وكان أهل الأرضِ يتكلمون لغة واحدة ويتواصلون فيما بينهم بها. ولمّا رحلوا من المشرق وجدوا سهلا في بلاد بابل، فأقاموا هناك. وقال بعضهم لبعض: «تعالوا نصنع طوبًا ونجفّفه بالنار». فاستخدموا الطّوب بدل الحجارة، وألصقوها بعضها ببعض بالقار بدل الطّين. وقالوا: «تعالَوا نَبنِ لنا مدينة وبرجًا تبلغ قمّته إلَى السّماء.[2] فنرفع شأننا بين الناس فلا نتشتَّتُ على وجه الأرض كلّها».[3]

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 11: 1–9.

(2) صمم أهل بابل المعبد على شكل هرم يحتوي على مدارج اعتقادا منها أن بإمكانهم تسهيل نزول آلهتهم إلى الأرض. وهذا الاعتقاد يختلف تماما عن تعامل الله مع البشر، إذ يتجلّى الله برحمته للبشر ولا ينتظر منهم تسهيل حلوله بينهم. انظر مثلا قصّة ظهور الملائكة إلى النبي يعقوب، سفر التكوين الفصل 32.

(3) لقد بارك الله الإنسان وأمره أن يكثر ويملأ الأرض. ولم تكن غاية الله تفريق الناس وتشتيتهم، لكنهم اجتمعوا حول الشر وأرادوا تحدي الله ببناء برج يصل إلى عرش السماء، فكان اجتماعهم من أجل الشر والسوء لذلك بددهم الله. وكان هاجس الإنسان دائما صنع اسم له يرفع مقامه، والله لم يعارض هذه الرغبة بل اعتبرها مشروعة بطرق معينة كالنسل مثلا، لكن هذه الرغبة قد تقود الإنسان إلى الشر.

وبينما كان بنو آدم يبنون المدينة والبرج تجلّى الله فقال: «إنّهم شعب واحد، ويتكلّمون لغة واحدة! وما فعلوه ليس إلاّ بداية، ولن يصعب عليهم أمر ينوون فعله! سأتجلّى هناك وسأبلبل ألسنتهم، حتّى لا يفهم بعضهم لغة بعض». وهكذا شتَّتهم الله على وجه الأرضِ كلّها، فكفّوا عن بناء المدينة. ولهذا سُميت بابل، لأنّ الله بلبل ألسنة النّاس جميعًا في هذا المكان، وشتَّتهم على وجه الأرض كلّها.

نسل آدم وحواء إلى النبي نوح عليه السلام

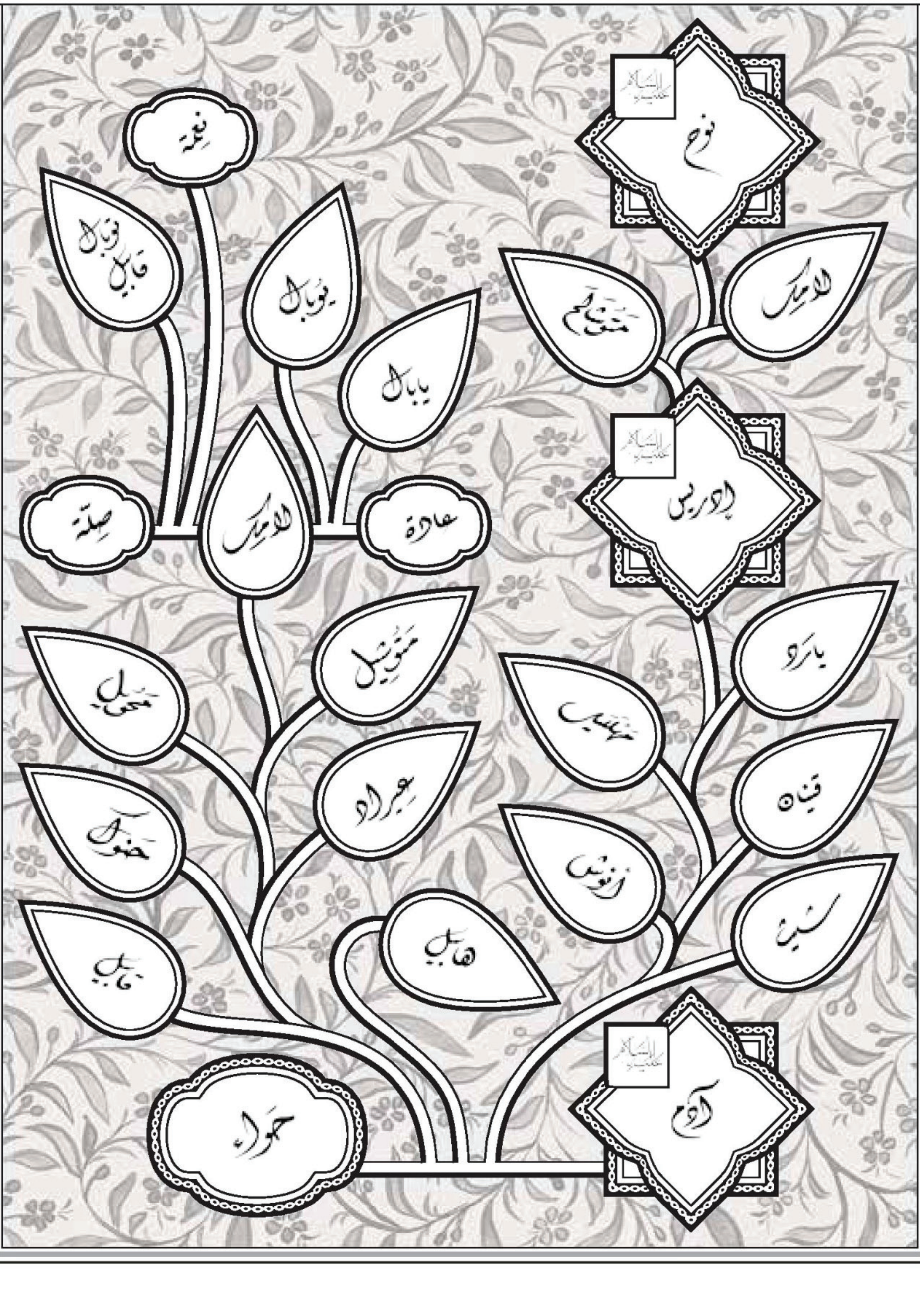

أيوب عليه السلام

قصّة النبي أيوب عليه السلام

مدخل إلى قصّة النبي أيّوب (عليه السلام)

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 83]

تعتبر قصّة النّبي أيّوب (عليه السلام) من أهمّ القصص في تاريخ البشريّة. وهي قصّة تروي حكاية رجل تقيّ صالح ثريّ أصابته ابتلاءات جرّدته من صحّته ونسله وممتلكاته. وتحوّل الصبر الذي تحلّى به النبي أيّوب خلال هذه المحن مضرب أمثال إذ يقال صبر أيّوب.

وعاش النبي أيّوب في بلاد عوص، التي تقع في الجهة الشمالية من شبه الجزيرة العربية، أي في ما يُعرف اليوم بدولة الأردن. ويتضمّن كتاب النبي أيّوب العديد من الكلمات والعادات التي تشبه بشكل كبير بعض الكلمات في اللغة العربية إضافة إلى العادات المنتشرة بين الشعب العربي. وتوضّح الترجمة القديمة لسفر أيّوب في اللغة اليونانية (أي الترجمة السبعينية) هذه العلاقة حيث تشير إلى أنّ زوجة النبي أيّوب كانت عربية.

وفي هذه القصّة يستطيع القارئ أن يفهم أن ابتلاءات النبيّ أيّوب تحدث ضمن إطار قصّة كبرى، إذ يزعم الشيطان أنّ النّبي أيّوب لا يعبد الله إلاّ بسبب ما ناله من بركات الله وحمايته. أمّا الله فيؤكّد إخلاص عبده أيّوب له. واستجابة لما قاله

الشيطان رفع الله حمايته عن النّبي أيّوب وسمح للشيطان أن يسلب ثرواته وأبناءه وصحّته بشرط ألاّ يقتله. ورغم كل ما عاناه النّبي أيّوب(عليه السلام) لم يلعن الله بل لعن يوم مولده. ومع أنّه عليه السلام تعذّب من حالته المريرة لكنّه لم يتّهم الله بالظلم.

وجاء لمواساة النّبي أيّوب ثلاثة أصدقاء، ثم لحقهم شخص رابع، فحاولوا إقناعه بأنّه قد أذنب وهو يستحق كلّ المعاناة التي حلّت به. وقال أحدهم ويدعى بلداد، إنّ أبناء أيّوب لقوا حتفهم وزعم أنّهم مذنبون واستحقّوا العقاب. ويرد في مواطن عديدة في الكتاب المقدّس أنّ الأشرار يلقون عقابهم في هذه الدنيا، بينما ينال الصّالحون البركات. فمثلا جاءت آية في كتاب الأمثال تقول: ((لعنة الله تطارد بيوت الأشرار وبركاته تحلّ على بيوت الأبرار)) [كتاب الأمثال 3: 33]. ومن الجدير بالذكر أنّ إحدى المصائب التي أصابت النّبي أيّوب أنّ الشيطان ضربه ((بقروح مؤلمة غطّت جسمه من أسفل قدمه إلى قمّة رأسه)). وهذه المصيبة هي تحديدا ما توعّد الله به في التوراة عقابا لكلّ من يجحد وصاياه (سفر التثنية 28: 35). لهذا السبب أصرّ أصدقاء النّبي أيّوب على أنّه أذنب بحقّ الله لا ريب وينبغي أن يعترف بذنبه حتى يتخلّص من معاناته.

ولكن النّبي أيّوب رفض نصائحهم وظلّ مصمّما على براءته، وطلب من الله معرفة سبب ما حلّ عليه من ابتلاءات. وفي نهاية القصّة تجلّى الله للنّبي أيّوب وأصدقائه في زوبعة ولكنّه تعالى لم يُجب على الأسئلة الرئيسية التي طرحها النّبي أيّوب. وبقي النّبي أيّوب صامتا وخضع لحكمة الله التي كانت تفوق إدراكه. وعاتب الله أصدقاء النّبي أيّوب الثلاثة وأمرهم أن يطلبوا من أيّوب أن يتشفّع لهم حتّى ينالوا المغفرة لجهلهم، ومن ثمّ أعاد الله أيّوب إلى شأنه الأوّل ورزقه سبعة بنين وسبع بنات.

ويبدو من سفر النّبي أيّوب في الكتاب المقدّس أنّ النّبي أيّوب لم يكن على علم بتحدّي الشّيطان وكيف استجاب الله له. ولكنّ أيّوب عليه السلام اعتمد على حكمة الله، وجازاه الله على هذا الاعتماد. ونرى في سورة الأنبياء بخصوص النّبي أيّوب: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا

وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [سورة الأنبياء: 84]. وتبيّن قصّة النّبي أيّوب أهميّة الاتّكال على الله حتّى في الظروف الوخيمة حين لا يمكننا أن نفهم مقصد الله ممّا نمرّ به، وحتّى عندما لا تنسجم ظروفنا مع ما ندركه من صفات الله وتعاليم كتابه تعالى، فالإدراك البشري لله محدود لا ريب، وينبغي علينا أن نتّكل على الله لا أن ندرك كلّ ما يفعله في الكون.

لقد أصبح النّبي أيّوب قدوة للمؤمنين. وكتب الحواري يعقوب عن النّبي أيوب عليه السلام: ((إخواني، اِقتَدوا بالأنبياءِ الّذينَ تَحَمَّلوا الضِّيقَ والعَذابَ مِنَ الأشرارِ حينَ أتوا بِرسالةِ اللهِ، وكانوا في ذلِكَ مِنَ الصّابِرينَ! واصبِروا مِثلَهُم، فما أعظَمَ هَناءَ الصّابِرينَ! أما سَمِعتُم بصَبرِ النَّبيِّ أيُّوبَ رَغمَ ما واجَهَهُ مِن كَربٍ، وكَيفَ استَجابَ اللهُ لهُ في النِّهايةِ؟ لأنّ اللهَ بعِبادِهِ رَحمنٌ رَحيمٌ)) [رسالة الحواري يعقوب 5: 10 و11].

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النبي أيّوب ﷺ

الشيطان يحاول الإيقاع بالنبي أيّوب[1]

كان النبي أيُّوب ﷺ يقطن في بلاد عُوص، وكان نزيهًا مستقيما بين الأنام، يخشى الله وينأى عن الآثام. وكان له ثلاث بنات وسبعة أبناء. وكان ذا مال وثراء: له سبعة آلاف رأس من الغنم، وعدد هائل من الخدم، وثلاثة آلاف من النوق والجمال، وخمس مئة زوج من البقر والثيران، وخمس مئة حمار وأتان. وكان أيّوب أعظم من في المشرق من الرجال.[2]

ودأب أبناء النّبي أيّوب على إقامة المآدب في بيوتهم، وكلّ واحد منهم له دور معلوم، وكانوا يستدعون أخواتهم الثلاثة فيكنّ معهم في حفلة مرحين. وأحيانًا

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 1: 1–12.

(2) قال ابن كثير في كتابه لقصص الأنبياء: «قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلا كثير المال، من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي والأراضي المتسعة بأرض الثنية من أرض حوران». وحكى ابن عساكر: «أنها كلها كانت له، وكان له أولاد وأهلون كثير. وكان ذا مال وثراء: «إنّ له سبعةَ آلاف رأس من الغنم، وعددا هائلا من الخدم، وثلاثة آلاف من النوق والجمال، وخمس مئة زوج من البقر والثيران، وخمس مئة حمار وأتان. كذلك وكان أيّوب أعظم من في المشرِق من الرجال». **ابن كثير**، أبو الفداء، *قصص الأنبياء*، تحقيق مصطفى عبد الواحد، مطبعة دار التأليف، القاهرة، 1388هـ/ 1968هـ، ج 1، ص 361.

تستغرق هذه الحفلات أيّاما، وعند انقضاء الاحتفال يدعو النبي أيّوب أبناءه في الصباح حتّى يشاركوه شعائر التطهّر، فيطلب من الله الغفران لهم، ويقدّم القرابين والأضاحي. وكان أيّوب حريصا على ذلك، لأنّه كان يخشى أن يذنب أحد أبنائه لهوا ويكفر بالله العظيم سهوًا.

وأمر الله الملائكة في الملإ الأعلى أن يحضروا إليه، وأمر الشيطان أن يكون معهم بين يديه. وقال الله للشيطان وهو به عليم: «أخبرني مِن أين أتيت؟» فأجابه الشيطان: «كنتُ في أنحاء الأرض أجول وأدور، أترصّد ما يحدث فيها من أمور». فسأله الله وهو العليم بما في الصدور: «هل رأت عيناك في العالمين عبدا كعبدي أيّوب نزيهٍ قويمٍ؟ إنّه لا نظير له بين الناس في التقوى، يخشى ربّه الكبير، وينأى عن الشرور». فأجاب اللعين المغرور: «وهل يتّقي أيّوب مولاه بلا مقابل؟ ألست تقيم حوله جدارا يحميه، ويحمي أهله وبنيه، وكلّ ممتلكاته وأراضيه؟ لقد جعلتَهُ متألّقا في كلّ ما يأتيه! وملأتَ الأرض بمواشيه! وإنّي يا الله لعلى يقين، أنّك لو مسستَهُ بضرّ فيما يملك ليكفرنّ بوجهك الكريم!»

وقال الله: «إنّك مسلّط على أيّوب، فألحق بما يملك الأذى، وإيّاك أن تمسّ جسده بالبلى».(1) ثمّ انسحب اللعين من الملإ الأعلى.

النبي أيّوب يخسر كل ما يملك(2)

وكان أبناء النبي أيّوب وبناته في بيت ابنه الأكبر يحتفلون، وإذا بأحد خدمه يدخل على أيّوب ويخبره بواقعة جليلة: «يا مولاي، كنّا نحرث الحقول بالثيران

(1) ذكر الطبري في تاريخه: «وكان – فيما ذكر – عن وهب بن منبه في الخبر الذي حدثنيه محمد بن سهل بن عسكر البخاري، قال: حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم أبو هشام، قال: حدثني عبد الصمد ابن معقل، قال: سمعت وهب بن منبّه يقول: إن إبليس لعنه الله سمع تجاوب الملائكة بالصلاة على أيوب، وذلك حين ذكره الله تعالى وأثنى عليه، فأدركه البغيُ والحسد، فسأل الله أن يسلِّطه عليه ليفتنه عن دينه، فسلَّطه الله على ماله دون جسده وعقله.» **الطبري**، أبو جعفر، *تاريخ الرسل والملوك*، دار التراث، بيروت، ط 2، 7831هـ، ج 1.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 1: 13–22.

وكانت الدواب ترعى على مقربة منّا، فإذا بنو سبإ يهاجموننا ويأخذونها ويقتلون بسيوفهم كلّ الفلاّحين والرّعاة، ونجوتُ أنا لأخبرك بهذه المأساة!»

وما إن أنهى الأوّل كلامه حتّى أقبل خادم آخر وقال: «يا مولاي، إنّ الله أنزل صاعقة فأحرقت جميع الغنم وأحرقت الرّعاة، ونجوتُ أنا لأخبرك بهذه المأساة!»

وما إن أكمل الثاني خبره حتّى أقبل خادم آخر وقال: «يا مولاي، غزتنا ثلاث عصابات من الكَلدانيّين، فنهبوا الجمال وقتلوا بسيوفهم الرّعاة، ونجوت أنا لأخبرك بهذه المأساة!»

وما إن أنهى كلامه حتّى أقبل خادم آخر وقال: «يا مولاي، كان بنوك وبناتك في بيت أخيهم الأكبر يحتفلون، فهبّت عليهم عاصفة عنيفة من جهة الصحراء، فاجتاحتهم في البيت وتصدّعت الأركان، فسقطت عليهم الجدران، وفقد جميعهم الحياة، ونجوت أنا لأخبرك بهذه المأساة!»

فشقّ النبي أيّوب ثوبه وحلق شعر رأسه من شدّة حزنه، وارتمى على الأرض خاشعًا ساجدًا لربّه، وقال:

"عريانا من بطن أمي خرجت، وأرحل عن الدنيا وأنا عريان. الله الّذي أعطى وهو الّذي أخذ، يا نفسي كبّري وسبّحي الرحمن". [1]

ورغم كلّ المصائب التي حلّت على أيّوب عليه السلام، فإنّه ظلّ على تقواه، ولم يَنسب سوءا إلى مولاه.

(1) قارن بهذا الحديث: "حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي عُثْمَانَ، عَنْ أُسَامَةَ، قَالَ كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ وَعِنْدَهُ سَعْدٌ وَأُبَىُّ بْنُ كَعْبٍ وَمُعَاذٌ أَنَّ ابْنَهَا يَجُودُ بِنَفْسِهِ. فَبَعَثَ إِلَيْهَا " لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلِلَّهِ مَا أَعْطَى، كُلٌّ بِأَجَلٍ، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ". **البخاري**، أبو عبد الله محمّد، *صحيح البخاري*، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط 1، 1422هـ، ج 8، ص 123، الحديث رقم 6602.

الشيطان يحاول الإيقاع بالنبي أيّوب ثانية(1)

ودعا الله الملائكة أن يكونوا في الملإ الأعلى ماثلين، وأمر الشيطان بالحضور. فسأل الله الشيطان وهو به عليم: «من أين أتيت؟» فأجابه الشيطان: «كنتُ في أنحاء الأرض أجول وأدور، وأترّصد كلّ ما يحدث فيها من أمور». فسأله الله مرّة أخرى: «ماذا رأيت في أيّوب عبدي؟ فلا نظير له في الأرض نزاهة وتقوى، إنّه يخشى الله ربّه وينأى عن الشرور، إنّه بتقواه متمسّك لا يلين، مع أنّك ألححتَ عليّ دون سبب أن أسمح لك بأن تصيبه بالأذى». فأجاب الشيطان: «إنّه عن تقواه لربّه لا يحيد، لأنّه لم يُبتلَ في جسده، فالمرء يضحّي بكلّ عزيز حتى يحفظ حياته! فأنزلِ البلاءَ على جسمه، وسترى أنّه لن يظل تقيّا، وأنّه سيكفر بك أمام العالمين!»

فقال الله للشيطان: «إنّا جعلنا لك عليه سطوةً، فافعل بجسده ما تريد من البلاء، ولكن إيّاك أن يصيبه على يديك الفناء».

وانسلّ الشيطان من الملإ الأعلى، وضرب النبي أيّوب بالقروح، فغطّت كامل جسمه من أسفل قدمه إلى قمّة رأسه الجروح. ودفعه ألمه حتى جلس في الرّماد وأخذ يَحُكّ ببعض الخزف تلك القروح لعلّ ذلك يخفّف وجع ما فيه من جروح.

فقالت له زوجته: «يا أيّوب، أما ترى ما أصابك من البلاء، أما زلت تدعو الله وتتّقيه؟ اكفر به ومت لعلّك تستريح!»

إلاّ أنّ أيّوب عليه السلام قاطع كلامها وقال: «اسكتي! إنّ ما تنطقين به لهو الجهل الصريح! أنقبل من الله الخيرات والعطايا، ولا نقبل منه إن أرسل علينا البلايا؟» وكان أيّوب للّه تقيّا، وعلى بلائه صبورا، ونزّه اللهَ أن يكون بما أنزله عليه ظالما أو شرّيرا.

أصدقاء النبي أيّوب يزورونه(2)

وكان للنبي أيّوب ثلاثة أصدقاء وهم: أليفاز التّيمانيّ وبِلداد الشّوحيّ وصوفَر النّعماتيّ. ولمّا سمعوا بما أنزل على صديقهم من بلاء وعذاب، عزموا على زيارته

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 2: 1–10.
(2) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 2: 11–13.

ليواسوه. ولمّا من بعيد أبصروه، كادوا ألاّ يعرفوه، فبكوا وشقّ كلٌّ منهم ثوبه، وفوق رؤوسهم ذرّوا التراب. ثمّ جلسوا أرضًا إلى جانبه عليه السلام سبعةَ أيّام بلياليها صامتين لما رأوه من هول المصاب.

شكوى النبي أيّوب[1]

ثمّ تكلّم النبيّ أيّوبُ (عليه السلام) أخيرا ولعن اليوم الّذي فيه وُلِد.[2] وأنشد: «يا ليت يوم مولدي معدوم، وليتني هلكت في ميلادي، وليلة تكوّني المشؤوم مظلمة بغير نور ينادي! يا ليتني أمحوه، آه ليتني، ليلٌ يطبقه ظلام حالك السوادِ. يا ليتني في لحظة خروجي، خرجت ميتا فما كان ميلادي! لو لم يكن لكُنتُ في رحاب السلامِ، أهنأ في السّكون والرقادِ، في صحبة الملوك والعظام، بعد ما حال كلّ ما شيّدوه إلى الرمادِ. لا فرق في الأموات، بين الصغير والكبير، والعبد حين يسكن القبور، ينفكّ من تجبّر الأسيادِ. هلاّ يموت كلّ من ينتظر الردى، فالموت كنز للمعذّبين في الورى، وفيه يلقون الفرح والسعادة. الفرحون بالفناء يرون فيه بهجة المرادِ. لكنّني في تعبي وضيقي، لا أعرف الراحة منكسر الفؤادِ».[3]

ردّ أليفاز الأوّل على النبي أيّوب[4]

وهنا بادر أليفاز التّيمانيّ وقال للنبي أيوب: «أتصبر على قولي ونصحي؟ لأنّي أعجز عن كتم بَوحي! كثيرون كنتَ لهم مرشدا، كثيرون قوّيتهم يا أيّوب. وأرشدتَ

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 3: 1–5، 11، 13–14، 19، 21–22، 26.

(2) جاء في تفسير جامع البيان للطبري، في التفسير الذي يخص سورة الأنبياء الآية 83: "قال أيوب صلى الله عليه وسلم: رب لأي شيء خلقتني؟ لو كنت إذ كرهتني في الخير تركتني فلم تخلقني! يا ليتني كنت حيضة ألقتني أمي! ويا ليتني مت في بطنها فلم أعرف شيئا ولم تعرفني! ما الذنب الذي أذنبت لم يذنبه أحد غيري؟ وما العمل الذي عملت فصرفت وجهك الكريم عني؟ لو كنت أمتني فألحقتني بآبائي فالموت كان أجمل بي". **الطبري**، *جامع البيان في تأويل القرآن*، تحقيق أحمد محمّد شاكر، مؤسّسة الرسالة، ط 1، 1420هـ/ 2000م، ج 18، ص 487 و498.

(3) انظر سورة ص: 41.

(4) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 4: 1–9، 17–19، 5: 7–11، 16–18.

من ضلّ منهم بعيدا، كثيرون أبعدتَهم عن حضيض التراب! فكيف تئنّ الآن لهول البلاء، وتنهار حين يمسّك سوء العذاب؟ أنت التقيّ القويّ. إنّ الأمر هيّن، توكّل على الله وادعه، وإنّ ربّك لمُجيبٌ للدّعاء!

كيف لبريء أن يلقى البلاء والعذاب!؟ وكيف لنزيه أن يموت كالخاسرين؟ لقد علّمَتْني الحياة بأنّ الّذين لآثامهم يبذرون، والشقاء يغرسون، سيجنون إثما وشقاء إذا أقبلوا يحصدون. سيفنيهم الله كلّ الفناء بنفخة ريح البلاء، ويعصفهم بلظى غضب حارق ويهلكهم، إنّهم لهالكون.

هل الإنسانُ محميّ من الآثام، هل المخلوق أمام ربّه معصوم؟ ألستَ ترى أنّ الله لا يأتمن ملائكة السماء، ويعاتب رسله على الأخطاء، فكيف حال البشر الذين خلقهم من طينٍ وماء، أولئك الّذين حياتهم هباء في هباء؟ ألا ينالون كما العثّ الفناء؟

يجلب الإنسان لنفسه الشقاء، ذاك أمر محتّم من القضاء، كالطيور التي خُلقت لتطير. لو أني ابتليت مثلك لدعوت في خشوع ورضى الله القدير، ورفعتُ إليه تعالى كلّ الأمور. إنّ الله لذو آيات ونعم على العالمين، ومعجزاته لا تحدّ ولا تعدّ! هو الذي يغيث الأرض بالأمطار، ويسكب على الحقول الماء المدرار. يرفع المستضعفين إلى المراتب العُلى، وينصر النائحين البؤساء.

إنّه رجاء العزّة لكلّ من يحيى في احتقار، يكسر أنياب كلّ شرّير جبّار، فهنيئا لمن يعاتبه اللهُ العظيم! يا أيّوب، ارضَ بما كتبه عليك القوّيّ المتين! إنّ الله هو النافع الضار، المنتقم الشافي المعافي.»

النبي أيّوب يردّ على أليفاز[1]

فأجاب أيّوب(عليه السلام): لو وضعتم ما أصابني في كفّة الميزان، لرجحَتْ على رمال البحر، فاعذر اندفاعي في الهذيان!

يا ليت الله يستجيب لدعائي، ويحقّق رجائي، يا ليته يدمّرني ويمزّقني أشلاء

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 6: 1-3 8-10، 13-15، 24-25.

أشلاء، عندها فقط يأتي فرحي وعزائي، رغم مصائبي وابتلائي. إني ما جحدت كلام القدّوس الرحمن.

حقّا إنّي منهكٌ وخارت قواي، وعجزت عن القيام بشؤوني، حقّا لا وليّ لي الآن ولا نصير. وإن زاغ تعيس مثلي عن تقوى الله، ألا يكون في حاجة إلى معروف من الأصدقاء؟

وأنتم أيّها الإخوان متقلّبون، فأنتم لحظة المسرّات كوادٍ يفيض في الشتاء، ولحظة الضيق أنتم كوادٍ جفّ في البيداء.

أرشدوني إلى الصواب فأكتفي به. أروني أين كان ضلالي وتقصيري! ما أقسى قول الحقّ، ولكنّ لومكم خاوٍ من الحق، بل إنّه هباء.»

النبي أيّوب يستغيث الله[1]

"ألا إنّي عليل سقيم، ومن جلدي تنفجر القروح كالسموم، والدود على جسمي كالغطاء. يا ربّ، حياتي نفخة هيّنة، وعيوني لن ترى بعد الآن الخير المرتجى. فإن أخطأتُ فما ظلمتُك أيّها الرقيب على البشرية جمعاء. لم أنزلت عليّ سخطك فصرت عاجزا حتّى عن حمل نفسي؟"

ردّ بلداد على النبي أيّوب[2]

فجاءه جواب بلداد الشّوحي: «هلاّ كففتَ عن هذا الكلام؟ إنّ أقوالك كالريح العاصف! أيكون الله جائرا؟ أينحرف الحَكَم العادل عن الحقّ الكاشف؟ لا ريب أن أبناءك خطّؤون جاحدون فأنزل عليهم العقاب القاصف!

فإنْ تُبتَ وطلبتَ وجه القدير وخضعت لمشيئته، وصرتَ النقيّ الطاهر، فالله يتوب عليك لا ريب، ويعيدك إلى مقامك السالف.

وإيّاك إيّاك أن تجحد بالله الجليل، إنّ من يجحد به يفتح على نفسه أبواب الفناء التالف، كالنبات الذي يصيبه الذبول، قبل أوان قطافه المأمول.»

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 7: 5، 7، 20.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 8: 1–6، 12–13.

النبي أيّوب يرفع شكواه إلى الله(1)

قال أيّوب(عليه السلام): «سئمتُ الحياة، ورفعتُ إليك بكلّ ما في نفسي من مرارة الكلام. أنت يا ربّ صوّرتَني، وبيدك صنعت جسمي بالتّمام. إنّك الآن تسحقني وتحوّلني إلى حطام. فكنت جنينا، وفي بطن أمّي كالجبن أتى من حليب الأنعامِ، كسوتَ إهابي ولحمي بفيض عطائك وصيّرتني كتلة من عصب وعظام. رحمة منك وهبتني الحياة، وأمّنت روحي بكلّ حنانِ. فإن كنتُ يا ربّ ضيّعتُ حقّك بالذّنب، فويلي ثُمّ ويلي! وإنّي يا ربّ بريء، ورغم ذلك لا أستطيع أن أرفع رأسي من الذلّ، فكيف أرفعه من ثقيل الهوان؟ أنت كنت رقيبي، فإن أخطأتُ فعلا، فبعقابك أرضى جزاء هذا العصيان!»

صوفر يردّ على النبي أيّوب(2)

فأجابه صوفَر النّعماتيّ: «أتدرك أسرار الله؟ هل يبلغ علمك عظمة ربّ البرايا؟ إنّ أسرار الله أبعد من السماء، فلن تلمس لها مدارا، وهي أعمق من القبر، فلن تبلغ لها قرارا! وسعَتْ حكمته البرّ والبحر وما فيهما من أكوان. فإن تبتَ إلى الله، اطمئن قلبك لما فيه من يقين، ونعمتَ بسلام وأمان. حينها تستريح في أمان الموقنين، وما أكثر عندئذ الذين على عونك يقبلون.»

ردّ النبي أيّوب على صوفر(3)

وانبرى أيّوب(عليه السلام) قائلا: «كيف تحسبون أنكم من العظماء، وأن الحكمة تفنى يوم ترحلون؟ ولستُ أدنى منكم إنّي مثلكم أفهم ما تأتون. والكلّ يدرك ما تقولون! إني عبد الله بريء نزيه، ولكنّ أصحابي منّي يسخرون. إنّ المطمئنّين للمبتلى محتقرون، ويحسبون أنّ بلاءه له جزاء، ألا ساء ما يزعمون. فكلّ اللّصوص مطمئنّون، ومن يغيظون الله يهنئون، وكأنّ أيديهم فوق يد الله، هذا ما يدّعون!

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 10: 1، 8، 10–12، 14–15.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 11: 1، 7–9، 18–19.

(3) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 12: 1–7، 9–10.

فاسألوا الأنعام وطيور السماء، واسألوا أسماك البحر، كلّ سيخبرك بالحقّ المبين. إنّ الله بيده أرواح المخلوقين، وإنّها تعلم علم اليقين، أنّ الله خالق العالمين.

ردّ أليفاز الثاني على النبي أيّوب[1]

فقال أليفاز: «عذاب هي كل أيام الأشرار، وللطغاة سنوات قصار. تملأ آذانهم رهيب الأصوات، يخشون، في زمن السّلم، الهجمات والغزوات. لا نجاة لهم من الظلمات، بالسيف يموت كلّ جبّار. وتنهش جسده النسور والأطيار. إنّه على يقين أن يومه العصيب أوانه قريب. لذلك تلفّه الغموم والشجون، كأنّه يرقب في ارتعاشة المهزوم، طاغية آخر يعلن عليه الهجوم. لأنّه أعلن الكفر وعصى الله القويّ المتين، وتحدّى الله الجبّار العظيم. قد بادر الشرّير الله بالتكبّر، ورفع في وجهه أسلحة قويّة.

رغم أنّ جسمه بالشحم مكتنز مترهّل، يعجز عن الحركة الفتيّة، سيحلّ بمدن المتكبّرين الخراب، فيأوون إلى بيوت مآلها التراب. أموالهم تفنى وثرواتهم إلى البلى، وآثارهم تمحى ويلحقهم النسيان. لا نجاة لهم من ظلمات الردى، كأنّهم شجرة يأكلها اللهيب والدخان، يهلكهم الجبّار بنفخة من اللظى.»

ردّ النبي أيّوب على أليفاز[2]

"كثيرا ما سمعتُ منكم هذا الكلام، وإنّكم تعزّونني ولكنّكم تتعبونني! ألا تنتهون من هذا الكلام السقيم، لماذا تثرثرون؟ لو أنّكم ابتليتم مثلي لما قلتُ ما تقولون! وما نمّقتُ حديثي وما سخرتُ كما تسخرون. بل شدّدتُ من عزمكم وخفّفتُ من حزنكم، ولكن أوّاه أوّاه كآبتي لا تزول، إن تكلمتُ أو تركت الفضول. إنّي ألبس الخيش حزينا، وأجلس على التراب مقهورا مهينا. احمرَّتْ من البكاء عيناي، وأحيطتْ بالسّواد جفناي، وما ارتكبَتْ ظلما يداي، وما رأيتُ في صلاتي شوبا مشينا. فإن هلكتُ، فلا تستري يا أرض مصابي، ولا تكتمي من أجل العدل نحيبي وعذابي!

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 15: 20–30.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 16: 2–6، 15–21.

إنّ لي شاهدا في عُلاه، ولي من يحميني في أعالي سماه. وليت أصحابي من أجلي يشفعون، إنّي بالله أستعين، وعيناي تذرفان الدمع السخين. ليت لي عند الله شفيعا، يدعو لي كما يدعو الخليل لخليله.»

النبي أيّوب يطلب الإنصاف من الله[1]

"ربّ أنصفني، إنّي بريء، وانصرني فليس لي من دونك نصير، إنّهم منّي يسخرون وعلى وجهي يبصقون لأنّك أنزلت عليّ البلاء النكير. إن جسمي هزيل، وتورّمت عيناي من البكاء المرير!"

بلداد يردّ على أيّوب مرّة ثانية[2]

فأتاه جواب بلداد الشوحيّ: «حتّام هذا الكلام والنّكير؟ تعقَّلْ يا أيّوب قبل أن ينطلق منك اللسان! لم ترانا بهائم لا تعي وأغبياء لا يفقهون؟ كلّ يلقى جزاء ما اقترفت اليدان، وأهل الشرّ كالمصباح ينطفئون. إنّ بيوتهم كانت تشعّ نورا، وها أنّ نورهم ظلام في ظلام. إنّ كلّ النّاس من الشرق إلى الغرب من مصير أهل الشرّ يرتعبون، وفي خوفهم يرتجفون. نعم، هو ذاك مصير الآثمين، ومآل الذين بالله لا يكترثون».

النبي أيّوب يردّ على بلداد[3]

فردّ عليه أيّوب (عليه السلام): «إلى متى يا قوم تعذّبونني؟ وبهذا الكلام المؤلم تسحقونني؟ فلئن ضللتُ فهذا شأني، وإن رغبتم فاعتزلوني. إنّكم عليّ تتكبّرون، وتقولون إنّ ما أعانيه من الآلام، دليل على آثامي. إنّ الله ابتلاني، وألقى حياتي في حبال البلايا، ها أنا أصرخ من الضرّ الذي مسّني،[4] ولا سميع ولا مجيب، وأطلب العون ولا نصير ولا قريب! أبعد الله عنّي إخواني وهجرني معارفي وأقراني، أهلي تركوني وتخلّى

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 17: 3، 6، 7.
(2) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 18: 1–3، 5–6، 20–21.
(3) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 19: 1–2، 4–7، 13–14، 16، 20، 25–27.
(4) انظر سورة الأنبياء: 83.

الأصحاب عني. أدعو خادمي فلا يعير جوابا، أنهك الهزال جسمي، إني على يقين أنّ شفيعي حيّ لا يدركه الفناء، فإن أصاب جلدي الرّدى وحلّ به البلاء، فإن جسمي سيرى الله القدّوس، وإنّ شوقا عميقا يأخذني إلى هذا اللقاء حيث أنعم برؤية الله.»

صوفر يردّ على النبي أيّوب مرّة ثانية[1]

وقال صوفَر النَّعماتيّ: «يا أيّوب، قد دفعني كلامك إلى الضيق، ولا بدّ أن أجيب! لحقني من لومك ما أهانني، فأسمعتك بالردّ القريب، إنّك لا ريب تعلم علم اليقين أنّ ربّهم يُطعم الأشرار شديد العقاب، وفي بطونهم يأكلون نار العذاب. إنّ هذا مصير الآثمين، والمآل الذي قدّره الله القويّ المتين.»

النبي أيّوب يردّ على صوفر[2]

أجاب أيّوب(عليه السلام): «اصغو إليّ، فسماعكم إلى ما أقول يعزّيني. حين أذكر مصابي يأخذني الخوف وترتعد أطرافي. لماذا يعيش الآثمون حتى يغزوهم الشيب ويشيخوا، ومع الأيّام قوّة يزدادون؟ ويفرحون بأولادهم وهم يكبرون، ونسلهم يمتدّ فتسرّ العيون. بيوتهم آمنة وهم من ضربات الله مبعدون. في خير يعيشون وبكرامة يُدفنون، ويمشي في جنازاتهم جمع من الناس غفير، وعند الدفن ما أكثر الحاضرين! فكيف إيّاي تعزّون بكلام عقيم؟ ما قولكم إلاّ كذب مبين!»

أليفاز يجادل أيّوب مرّة ثالثة[3]

فقال أليفاز التّيمانيّ: «أتحسب أنّ الله يحتاج عباده؟ ما نفع الحكيم إلاّ نفسه! إن الله غنيّ عن العالمين! كلاّ! إنّ الشر الذي اقترفتَهُ قد ارتفع وطغى، وذنوبك بلغت عنان السماء!

أتراك يا أيّوب، أخذتَ من الفقير ثيابه عن دَين حان تسديده وأتى، فتركتَهُ عاريا

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 20: 1-4، 23، 29.
(2) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 21: 1-2، 6-9، 13، 33-34.
(3) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 22: 1-2، 5-14، 21-28.

بين الورى؟ أو حَرمتَ العطشان من الماء، والجائع من رغيفك المحلّى، أو ظننت أنّ لك أن تأخذ الأرض غصبا، وتحتلّها تكبّرا ورهبا؟ كأنّي بك قد صرفتَ الأرامل دامعات، وسحقت في اليتامى الأمنيات. لكلّ ذلك أنت في الشرك والقيود، تفاجئك المصائب والخطر الشديد! إنّك في الظلام والعمى، قد غمرتك البلايا كسيول الماء.

سبحان الله المجيد، إنّه على أبعد الأفلاك رقيب عتيد غير أنّك قد زعمتَ أنّ الله عنّا في حجاب، وفي عليائه لا يرى! فكيف له أن يديننا؟ وما يفصله عنا كثيف السّحاب، وأنّه في أقاصي السماء استوى. يا أيّوب، أَسلِمْ أمرك لله، وكن من الموقنين، يأتِك الفلاح والسلام. يا أيّوب اتّبع هداه، وفي قلبك كن لشرعه من الحافظين. فإن تُبتَ عن آثامك إلى الجبّار المتين، وأبعدتَ الفساد عنك تكُ من المفلحين، أبعد عنك شهوة الذهب، بل ارمِه في اليمّ العميق. واجعل الله الجبّار كنزك الذي لا يُرى، فهو أعلى من الذهب والفضّة وأبهى! فلينشرح قلبك بالعليّ الجبّار، وارفعْ إليه وجهك في عزّة واقتدار. وتضرّعْ إليه إنّه المجيب يسمع ويرى. وأوف له ما نذرت من النذور. فلا ريب، عندئذ، أنّ الله يوفّقك لما تحبّ وترضى، ويشرق على كلّ دروبك النور.»

بلداد يردّ على أيّوب للمرّة الثالثة[1]

فقال بِلداد الشّوحيّ: «لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العزيز الجليل، مدبّر الأمر في علاه» فكيف يحظى الإنسان برضى الله الجميل، ويصبح طاهرا من ذنوبه وخطاياه؟»

النبي أيّوب يدافع عن نفسه للمرّة الأخيرة[2]

فقال أيّوب(عليه السلام): «أين الحكمة؟ ترى أين يحظى بها الإنسان ويلقاها؟ وكيف يدرك فهمها ويراها؟ هل تظنّون أنّ للحكمة ثمنا يحدّها؟ إنّما هي في خشية الله العظيم، وفي اعتزال الشرّ وترك حبائل الأثيم.

يتنابني لأيّامي الخالية الحنين، والله يرعاني إنّه بي رحيم. فعندما سرتُ في

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 25: 1–2، 4.
(2) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 28: 12، 15، 28، 29: 2–3، 31: 7–8، 35–36، 13: 23.

طريقي ما همّني الظلام، فنور ربّي كان رفيقي الكريم، فمضيتُ في صراطه المستقيم.

فإن حدتُ عن سبيل الخير والبهاء، ولوّثت يداي بالآثام والعيوب، فليكن جزائي أن أزرع الدروب والحقول، ويأكل العباد ما جمعتُ من محصول! يا ربّ هل تسمعني؟ يا ليتك تسمع شكواي، وتعلن براءتي علم اليقين! وإن أعلنتَ براءتي، فسأضعها على رأسي كتاجٍ مستديم!

يا قوم إنّكم لي منكرون، تزعمون أنّي أتيتُ الخطايا والذنوب! أفلا تدلّونني عليها حتى عنها أتوب؟»

تدخّل الفتى أليهو[1]

وتوقّف الرّجال عن جدال النبي أيّوب إذ كان على يقين من أنّه بريء من الذنوب.

فغضب منه من بين الحضور فتى اسمه أليهو البوزيّ الغضب العظيم، لأنّه امتنع عن الاعتراف بخطاياه، وأنّ ربّ العالمين محقّ حين بالعقاب يلقاه. واستشاط على أصحاب أيّوب، إذ عجزوا عن إفحامه بشتّى الأساليب، وأخطأوا حين اتّهموه. والتزم الفتى أليهو الصمت بينما كان القوم يتجادلون -فهو أصغرهم سنّا- والصغير ينصت للمسنّين. ولكنّه اهتزّ غضبا، حين رأى رفاق أيّوب يعجزون عن إقناعه بإثمه المبين.

وقال: «أنا أصغركم سنّا، لذلك بقيتُ صامتا، تقديرا لمكانتكم وتبجيلا. لأنّي ظننتُ أن الحكمة تصدر عمّن عمّر طويلا. ولكن الحكمة ليست حكرا على المسنّين. أَوليتُكم انتباهي، فرأيت أنّكم عن إفحام أيّوب مردودون وعن ردّ حججه عاجزون! ولكني لن أجادله بأسلوبكم، ولن أردّ عليه بحججكم الواهية. لن أراعي في الردّ أي إنسان، أجل، لن أتملّق ذا نفس فانية!»

أليهو يجادل النبي أيّوب[2]

"يا أيّوب، أنتَ قُلتَ إنّك نقيّ ومن كلّ ذنب بريء، طاهر من الآثام، بل زعمتَ

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 32: 1-7، 9، 12، 14، 21.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 33: 9-10، 12-14، 26، 36: 5-12، 15، 37: 23-24.

أنّ الله اتّخذك عدوّا من بين الأنام. ولكنّك مخطئ في ما تقول! ألستَ تعلم أنّ الله أعظم من الإنسان؟ لماذا تشكو ربّك وتُردّد بين النّاس: "الله لا يسمعني، ولا يستجيب لدعائي، إنّي أشعر بالخذلان". إن الله يخاطبنا مرّة تلو الأخرى، ولكن الناس عن كلامه غافلون. أمّا الإنسان إذا تاب ودعا ربّه، فيتقبّله ويرضى عنه ويعيده إلى مقام الصالحين.

إنّ الله عليّ كبير، لكنّه لا يهمل الضعيف، فيا لجبروته العظيم، ويا له من خالق حكيم رحيم! يكسر شوكة الأشرار، وينصف المستضعفين. يرعى الصِّدِّيقين، ويجعلهم مع الملوك إلى الأبد يعتلون.

فإذا وقع بعض الناس في البلاء المبين، وقُيِّدوا بالحبال وصاروا أذلاّء صاغرين، يخبرهم ربّهم بما ارتكبوه، وبجحودهم في حقّه وبما أذنبوه. يحذّرهم فإذا هم سامعون، وينبّههم فإذا هم عن الإثم تائبون. فإن أصغوا إلى ربّهم وأَطاعوه، قضوا أيّامهم في النعيم، وطالت أعمارهم في فلاح كريم. فإن هم عصوا ربّهم وتحدّوه، هلكوا بحدّ السّيف، وكانوا أثَمَةً جاهلين. إنّ الله يبتلي الناس بالضيق حتّى تتفتّح أبصارهم، فيتوبوا إليه منصتين.

إنّ الله القويّ المتين، لا تدرك الله التصوّرات ولا الأفكار، وما هو للعبيد بظلاّم أو قهّار. فلا عجب أن يهابه البشر الفانون، أو يلمح جلاله كلّ الحكماء المتبصّرين.»

الله يعاتب نبيّه أيّوب[1]

وفي عاصفة هوجاء جاء القول الفصل من الله الجليل، واستجاب لنبيّه أيّوب العليل: «كيف يشكّ أحدكم في مقصدي، كيف تقولون كلاما جاهلا جاحدا؟ فتشجّع وشدّ عزيمتك! وأجب عن سؤالي: هل كنتَ موجودا حين وضعتُ للأرض أسسا وحدودا؟ أخبرني إن كنتَ على ذلك شهيدا! أتدرك من قرّر للأرض طولا وعرضا، ومن وضع للأرض مقاييسها تحديدا؟ ما أساس قواعدها، ومَن أقام حجر زاويتها؟

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 38: 1–7، 19، 21.

فغنّت كواكب الصبح الصريح، وهتفت الملائكة فرحين، بالكلام الفصيح. أتعلم مصدر النّور والدّيجور؟ هل تظنّ أنّك بكلّ هذه الأمور عليم؟ هل تراك ولدت قبل خلقها؟ هل أنت العليم الخبير؟!»

النبي أيّوب يخضع لله[1]

وقال الله العليّ القدير: «أنا الله القويّ الجبّار، أتراه يفلح من يجادل العظيم القهّار؟ أجب أيّها المشتكي! تكلّم يا من يعترض على حكم المتين الجبّار!»

فقال النبي أيّوب: «وكيف أجيب وأنا يا ربّ عبدك الضعيف؟ وإنّي لأمتنع عن الكلام منذ الآن ولن أضيف. إنّ قولي ليقينٌ، ولا فائدة ترجى من هذا الكلام العقيم.»

وأوحى الله إلى النبي أيّوب وحيا جديدا في عاصفة هوجاء: «تشجّع يا أيّوب وكن شديدا! وإنّي سائلك فلتجب جوابا مفيدا. هل تراني غير عادل ظلوما؟ أم تريد أن تنقُض حُكمي فتبدو صاحب حقّ؟ أتحسب أنّك في قوّة القويّ العتيد؟ وأنّ صوتك كصوت الله يُرعد كالرعود؟ فتحلّى يا أيّوب بحُلّة العزّة والبهاء، وتزيّن بالإكرام والجلال! أخرج ما بداخلك من غضبٍ وشحناء، والقه على كواهل المتكبّرين. انظر إلى المتغطرسين وأذلّ رقابهم، وحَطِّم الأشرار حيث يقفون! اطمِرْهم في التّراب جميعا، واحبسهم في دركات الموت والفناء. فإن قدرتَ على هذا فأنت القويّ المتين، قادر على إنصاف نفسك من كلّ ابتلاء!»

فأجاب النبي أيّوب في خشوع: «أعرف يا ربّ أنّك المولى القدير، ولا يعجزك أمر العباد. سألتني يا ربّ هل يشكّ العبد في أنّ ربّه حكيم، وأنّ مقاصده من علمه المكين، فيرسل كلاما من الإدراك خاليا. نعم يا ربّ تكلّمتُ عن أمر صعب المنال، وقلت يا ربّ: إنّي سائلك فامنحني جوابا عن سؤالي. كنتُ أسمعك بأذنيّ فيما مضى، وها أنا الآن أرى جلال تجلّيك للورى. وها نفسي أضعها أمامك، وها أنّي أفترش التراب والرماد!»

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 40: 1-14، 42: 1-6.

الله يعاتب أصدقاء أيّوب الثلاثة[1]

ثمّ بعد أن أوحى الله إلى أيوب ما أوحى، نزل عتاب ربّ السّماء على أليفاز: «إنّي عليك وعلى رفيقيك ساخط غاضب، إنّ ما قلتموه عنّي غير صائب، وإنّ عبدي أيّوب لذو رأي سديد. والآن خُذوا قرابين سبعة ثيرانٍ وسبعة كباش، واقصدوا عبدي أيّوب واجعلوها قربانًا تكفّرون به عن ذنبكم العظيم. وسيتضرّع أَيّوب بالدعاء الرشيد، ولأجله أعفو عنكم، إنّكم بما قلتم من الباطل حمقى أغبياء، ولم تنبسوا بالحكمة كما فعل أيّوب حين أصابه البلاء».

وفعل أليفاز التّيمانيّ وبِلداد الشّوحيّ وصُوفَر النِّعماتيّ ما أمرهم الله به، فاستجاب الله لطلب النّبيّ أيّوب، وأنزل عليهم العفو والرّضى. وحين فرغ النبي أيّوب من الدعاء، أعاد الله عليه جاهه، ومكانته وضاعف له أملاكه التي امتلكها قبل نزول القضاء.[2]

الله يعيد للنبي أيّوب شأنه[3]

ثمّ أقام النبي أيّوب وليمة لكلّ إخوته وأخواته وكلّ معارفه السابقين. فأكلوا معه في داره وعزّوه وعن كلّ البلايا الّتي أنزلها اللهُ به واسوه. وأهدى له كلّ واحدٍ منهم قطعة من الفضّة وخاتمًا من ذهب.

وبارك الله النبي أيّوب وهو شيخ وأعطاه ما لم يعطه في أوّل حياته. فكان له أربعة عشر ألف خروف، وستّة آلاف جمل، وألف زوج من البقر، وألف أتان. ورزقه الله سبعة بنين وثلاث بنات، وسمّى الأولى يَمامة، والثّانية قِرفة، والثّالثة كَحلاء. وكانت بناته أجمل النساء، ووهبهنّ أبوهُنّ نصيبا من الإرث كما أورث إخوتهنّ من العطاء. وعاش أيّوب(عليه السلام) من بعد الابتلاء مئة وأربعين سنة، رأى فيها أبناءه وأحفاده إلى الجيل الرّابع. ثمّ توفّى النبي أيّوب(عليه السلام) شيخا متنعّما ذاكرا الله، ويا له من حسن الختام.

(1) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 42: 7–10.

(2) انظر سورة الأنبياء: 84–83.

(3) استنادا إلى كتاب النبي أيّوب 42: 11–17.

قصّة إبراهيم إسماعيل وإسحق

عليهم السلام

مدخل إلى قصّة إبـراهيم وإسماعيل وإسحق (عليهم السّلام)

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة العنكبوت: 27]

يُعتبر النبي إبراهيم (عليه السلام) شخصا رئيسيا في الديانات السماوية، ويطلق عليه اليهود «أبانا إبراهيم»، بينما يسميه المسيحيون «أبانا في الإيمان» (انظر الإنجيل، روما 4: 16-17) ويقول المسلمون إنّ الإسلام هو ملّة إبراهيم. ويُعتبر النبي إبراهيم قدوة للمؤمنين في أخلاقه وإيمانه وأعماله. وحظي (عليه السلام) بصلة قريبة بالله على أساس ثقته به تعالى كما جاء في التوراة: ((آمن إبراهيم بوعد الله فحسبه تعالى مرضيا)) [التوراة، التكوين 15: 6]. وبناء على هذه الصّلة القريبة الحميمة يُدعى النبي إبراهيم «خليل الله» (انظر كتاب النبي أشعيا 41: 8 وكتاب أخبار الأيام الثاني 20: 7 وسورة النساء: 125).

وما يميّز النبي إبراهيم تشفّعه مع الله من أجل مدينتي سَدوم وعَمورة الشرّيرتين، بسبب وجود بعض الصّالحين فيهما وتحديدا ابن أخيه لوط (انظر التكوين 18: من 16 إلى 33، وسورة هود: 74).

وجاء في التوراة موضوع هام يتعلّق بمنح الله وعده للنبي إبراهيم بأن يباركه

وذرّيته وأن يقيم ميثاقه معه، ولن تنحصر هذه البركة في إبراهيم وآل إبراهيم فقط، بل اختار الله ذرّيَّته لتكون وسيلة بركات الله لجميع الأمم (انظر التوراة، سفر التكوين 12: 1-3). وتتحقّق هذه البركات بشكل نهائي من خلال السيّد المسيح. ويمكننا الحصول على حلول روح الله فينا حسب وعده تعالى ومن خلاله عليه السلام (انظر الإنجيل، غلاطية 3: 14).

ويبرز وعد الله بخصوص الأرض للنبي إبراهيم وذرّيته في نص التوراة، ولكن الأرض لم تكن إلاّ وسيلة يفيض الله من خلالها بركاته على النّبي إبراهيم، ومن خلاله إلى العالمين. ولكن مع الأسف ركّز بنو يعقوب مع مرور الزمن على استيلائهم على الأرض، ولم يفهموا أنّ مقاصد الله هي أسمى من استيلائهم على قطعة أرض، فعاتب اسطفان وهو أوّل شهيد من صفوف أتباع السيّد المسيح أبناء شعبه اليهود لقصر نظرهم، إذ لم يتبصّروا أنّ الله هو رب كل البلاد وجميع الشعوب (انظر خطبته الواردة في سيرة الحواريين الفصل السابع).

وجاءت ولادة إسماعيل عليه السلام كما يلي: لم تستطع سارة أن تنجب أولادا فأصرّت على إبراهيم طالبة منه أن يتّخذ هاجرا أمّا لأولاده بدلا منها. وحسب القوانين في ذلك العصر، كان من حقّ الزوجة العاقر أن تحصل على ذرّية من خلال جاريتها. وتؤكد بعض الكتابات المنقوشة الموجودة في بلاد الشرق الأدنى هذه العادة على امتداد 2000 سنة قبل الميلاد. فالله لم يؤاخذ إبراهيم وسارة على هذا الفعل، بل أنعم على هاجر وإسماعيل فضلا كبيرا، وحظي إسماعيل بكونه الولد الأوّل في الكتب السماوية الذي سمّاه الله قبل ولادته (التكوين 16: 11)، بينما كانت هاجر المرأة الوحيدة في الكتاب المقدس التي حصلت على وعد الله بتزايد ذرّيتها (التكوين 16: 10)، وهي الوحيدة التي ألقت اسما على الله فقالت إنّه «الله البصير».

وعندما بلغ إسماعيل الثالثة عشر من عمره، اكتشف إبراهيم أنّ وعد الله في الميثاق سيتحقّق من خلال سارة. وكانت ولادة إسماعيل عليه السلام وسيلة حلول بركات الله على هاجر وذرّيتها، مع أنّ ولادته لم تؤد إلى تحقيق وعود الميثاق الموجّهة إلى

إبراهيم. ورغم ظروف هاجر العويصة حصلت على عناية إلهية خاصّة وعلى وعود من الله بأنّه سيباركها وذرّيتها كثيرا.

وتذكر التوراة أنّ الله أمر النبي إبراهيم بتقديم ابنه إسحق ذبيحا، وورد هذا الحدث المشهور في القرآن دون ذكر الابن الذي قدّمه (سورة الصافات، الآيات 100-111). واختلف الباحثون والمفسّرون المسلمون بخصوص هويّة الابن الذي قدّمه النّبي إبراهيم. ويقول اليعقوبي في تاريخه: «أمره الله أن يذبح ابنه، فالرّواية تختلف في إسماعيل وإسحق، فيقول قوم إنه إسماعيل لأنّه الذي وضع داره وبيته وإسحق بالشام، ويقول قوم إنّه إسحق لأنّه أخرج أمّه معه وكان يومئذ غلاما وإسماعيل رجل قد وُلد له».

ونستطيع أن نرى إحسان الله الموجّه إلى كل من إسماعيل وإسحق، إذ أصبح إسماعيل أبا لاثني عشر ولدا، كذلك شأن إسحق الذي صار أيضا أبا لاثني عشر ولدا عن طريق ابنه يعقوب. وصار أبناء يعقوب الآباء الأوّلين للأسباط، أي عشائر بني يعقوب الاثني عشر.

نسل سام ابن نوح عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام

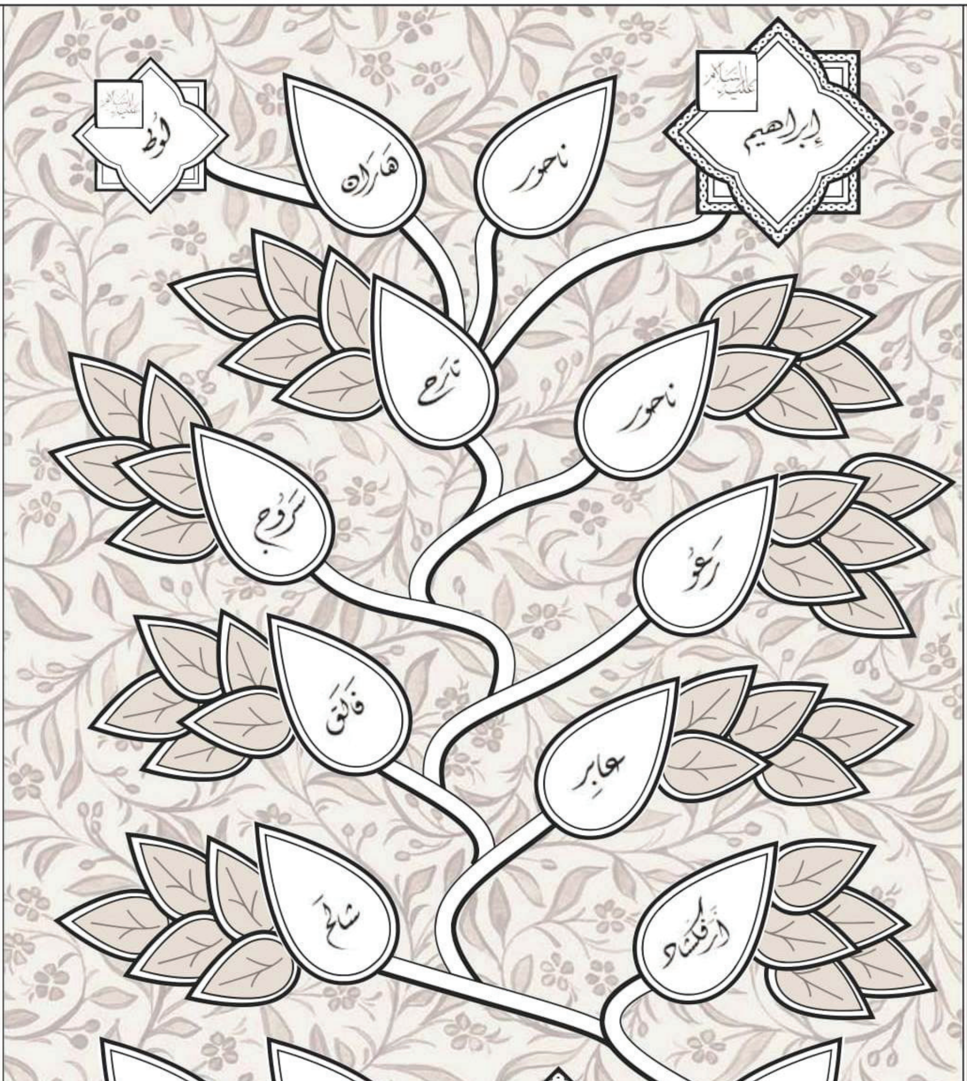

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة إبراهيم إسماعيل وإسحق (عليهم السّلام)

نسب النبي إبراهيم عليه السلام[1]

هذه ذرية أبناء تارَح: أنجب تارَحُ أبْرام (إبراهيم عليه السلام) وناحور وهاران. وأنجب هارانُ لوطًا عليه السلام. وتوفّي هاران قبل أبيه تارح في أرض ميلاده في أُور الكَلدانيّين في بلاد الرافدين. وتزوّج كلٌّ من إبراهيم وناحور. وكان اسم زوجة إبراهيم سارة واسم زوجة ناحور مِلْكة بنت هاران، وأختها يِسْكة. وكانت سارة عاقرًا لا تقدر على الإنجاب.

وأخذ تارح[2] إبراهيم وسارة وحفيده لوطًا بن هاران، وخرجوا معًا من أور الكَلدانيّين وتوجّهوا إلى بلاد كنعان. لكنّهم عندما وصلوا إلَى حاران، استقرّوا فيها. وتوفّي تارح هناك لمّا كان عمره مئتين وخمس سنين.

دعوة الله لإبراهيم عليه السلام[3]

وأوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام قائلا: «انطلق من بلدك وأهلك وبيت أبيك إلى الأرض التي أُريك. فإني جاعل من نسلك أمة عظيمة،[4] وأباركك وأرفع اسمك

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 11: 27–32.

(2) ذُكر تارح في القرآن الكريم باسم آزر (انظر الأنعام: 74).

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 12: 1–20.

(4) (انظر سورة النحل: 120.

عاليا بين الناس، وتكون بركة على العالمين. ومن يدعو لك بالبركات أباركه، ومَن يدعو عليك باللعنات أتبعه بلعنة الملعونين. وبك تحلّ بركاتي على أمم الأرض أجمعين».

وكما أوحى الله إليه رحل النبي إبراهيم، وذهب معه لوط عليه السلام مع الراحلين. وحين ترك النبي إبراهيم مدينة حاران كان قد بلغ من العمر الخامسة والسبعين. وأخذ معه زوجته سارة وابن أخيه لوط، وحملوا كلّ ممتلكاتهم ورافقهم في رحلتهم بعض سكّان حاران الذين صاروا إلى أهل بيته منضمّين. واتّجهوا جميعًا نحو أرض كنعان، وهي بلاد فلسطين.

ولمّا وصلوا أرض كَنعان بدأ النبي إبراهيم ومن معه يتجوّلون، إلى أن بلغوا مدينة شَكيم،[1] فنصبوا خيامهم عند بَلّوطة المُعلِّم. وفي تلك الفترة كان الكَنعانيّون في تلك البلاد يقطنون.[2]

وتجلّى الله للنبي إبراهيم وأوحى إليه: «هذه الأَرض تكون لنسلك اللاحقين». فبنى عليه السلام مذبحًا من الحجر لحرق القرابين، إكرامًا للهِ في المكان الّذي ظهرت فيه تجليات الله ربّ العالمين. وانتقلوا من هناك إلى الجبل شرق بيت إيل،[3] ونَصبوا خيامهم بين بيت إيل غربًا وعاي شرقًا. وبنى النبي إبراهيم مذبحًا آخر لحرق القرابين إكرامًا للهِ وفي جواره تعبّد وكان من الساجدين. ثُمّ تابع إبراهيم سفره تدريجيًّا نحو صحراء النقب في جنوب فلسطين.

وحدثت مجاعة في بِلاد كنعان، فالتجأ إبراهيم عليه السلام إلى مصر ليعيش فيها فترة من الزمن لأنّ المجاعة جعلتهم في شديد الأحوال. ولمَّا أصبح على مشارف بلاد مصر قال لزوجته سارة: «أعرف أنكِ فائقة الجمال، ومتى رآك المصريون سيقولون: إنها

(1) كانت مدينة شكيم تقع بجوار مدينة نابلس الواقعة في الضفة الغربية اليوم.

(2) انظر سورة الأنبياء: 71.

(3) يعتقد بعض الباحثين أن بيت إيل كانت تقع 5 كيلومترات شمال رام الله في الضفة الغربية حيث موضع قرية بيتين اليوم.

زوجته فلنقتله ونأخذها في الحال!» لهذا السبب قولي لهم إنك أختي،[1] فيُحسنون معاملتي بسبب اهتمامهم بكِ فأنجو بحياتي من الزوال».

وعندما وصلوا إلى مصر أعجب المصريون بجمال سارة كما توقّع النبي إبراهيم. ورآها بعض حاشية فرعون فمدحوها أمامه فأُخذت إلى قصر فرعون. وبسببها أحسن فرعون إلى النبي إبراهيم فحصل على خدم وجَوارٍ وأغنام وأبقار وجمال ودوابّ. ولكنّ الله ضرب فرعون وأهل بيته بأمراض خطيرة بسبب سارة زوجة النبي إبراهيم.[2] فاستدعى فرعونُ النبي إبراهيم وقال له بشدّة: «لماذا لم تخبرني أنّها زوجتك؟ لماذا فعلتَ بي هذا العمل المُشين؟ ولماذا ادّعيتَ أنّها أختك حتّى أنّي أخذتُها زوجة لي؟ والآن، خذ زوجتك واذهبوا جميعا من هنا آمنين». وأمر فرعونُ رجاله أن يُرافقوا النبي إبراهيم وزوجته وكلّ ما يملك إلى خارج تلك الأقاليم.

إبراهيم ولوط (عليهما السّلام) يفترقان[3]

ورحل إبراهيم عليه السلام مع زوجته ولوط من مصر بعد أن أخذ كل ما يملكه وتوجّه نحو صحراء النقب.[4] وأصبح النبي إبراهيم غنيًا جدًا بما يملكه من ذهب وفضّة

(1) كتب الطبري في تاريخه عن هذا الحدث: «وكانت سارة من أحسن الناس فيما يقال، وكانت لا تعصى إبراهيم في شيء، وبذلك أكرمهم الله عز وجل، فلما وصفت لفرعون ووصف له حسنها وجمالها أرسل إلى إبراهيم، فقال: ما هذه المرأة التي معك؟ قال: هي أختي وتخوف إبراهيم إن قال هي امرأتي أن يقتله عنها». وجاء في صحيح مسلم: «لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله قوله إني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وواحدة في شأن سارة فإنه قدم أرض جبار ومعه سارّة وكانت أحسن الناس فقال لها إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي...» الطبري، التاريخ، ج 1، ص 244. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، رقم 2371.

(2) ليس العقاب الذي أنزله الله على الملك بسبب سارة بما أنها زوجة للنبي إبراهيم بل قصد الله من تصرّف النبي إبراهيم هذا، وضع حدود لتصرف الملك الذي يأخذ ما يريد عادة باستغلال سلطته ونفوذه.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 13: 1–18.

(4) الطريقة التي اغتنى بها النبي إبراهيم تدعو إلى الحيرة والتساؤل: فكيف لنبي أن يقبل بكل هذه

وأنعام. وانتقل من مكان إلى آخر، وانطلق من النَّقَب إلى أن وصل بيت إيل، حيث نصب خيمةً لَه كما فعل في سابق الأيّام، في المكان الذي أقام فيه محرقة لتقديم القرابين وصلّى وتعبّد الرّحمن.

وأصبح لوط عليه السلام أيضًا غنيًا بما يملكه من خيام وأبقار وأغنام. وبسبب كثرة ما يملك إبراهيم ولوط من قطعان، ضاقت عليهما الأرض ولم يعد باستطاعتهما أن يقيما معًا في انسجام. ونشب نزاعٌ بين رعاة مواشي كليهما. وفي تلك الفترة كان الكنعانيون والفِرزيون يقيمون في تلك البلاد أيضًا. فقال النبي إبراهيم للوط: «لا أريد أن يحدث بيني وبينك نزاعٌ، ولا بين رعاتي ورعاتك فنحن أخوَان. ويمكنك أن تختار أي مكان لك في الأرض، فإن اتّجهت شمالا اتّجهتُ يمينا وان اتّجهت يمينا اتّجهتُ شمالا وهكذا يبتعد الطرفان».

وتلفّت لوط عليه السلام حوله فَرأى غور نهر الأُردنّ قُرب مدينة صُوغَر،[1] وكانت هذه المنطقة مراعيَ وبساتين، تشبه جنّة الله على الأرض أو بلاد مصر الخصبة. وكان ذلك قبل الخراب الّذي أنزله الله على عَمورَة وسَدوم. فاختار لوطٌ عليه السلام لنفسه كلّ غور الأردنّ ورحل شرقًا مع رجاله ومواشيه، وانفصل بهذا عن إبراهيم. وفي أرضِ كنعان استقرّ النبي إبراهيم، ونقل لوطٌ خيامه إلى جوار سَدوم، حيث اختار في مدن الغور أن يقيم. وكان أَهل سَدوم بسبب هول الذنوب التي يرتكبونها في حق الله آثمين.

وبعد انفصال إبراهيم عليه السلام عن لوط أوحى اللهُ إليه: «تطلَّعْ من المكان الّذي أنت فيه، وانظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا. سأجعل كلّ هذه الأرض الّتي تراها، ملكًا لك ولنسلك إلى أبد الآبدين. وأكثر نسلك وأجعله كتراب الأرض لا يستطيع أحد عده. قم وتجوّل في كل أرجاء الأرض، لأنّي وهبتها لك». فانتقل النبي إبراهيم ومن معه

الممتلكات مع أنه كان يرغب فقط في النجاة بنفسه والمحافظة على سارة زوجته، ولا نجد أي اعتراض منه لرفض هذه الممتلكات التي قدمها له فرعون كي لا تحل عليه اللعنة بل قبل بها دون تردّد.

(1) وكانت هذه المدينة تقع قرب البحر الميت من الجهة الجنوبية.

إلى بَلّوطات مَمْرا قُرب مدينة حَبرون[1] ونصبوا خيامهم هناك، حيث بنى إكرامًا لله مذبحا لتقديم القرابين.

النبي إبراهيم يحرّر لوطا من الأسر[2]

واندلعت في تلك الأيام حرب في منطقة البحر الميت ومحيطه حيث استقرّ لوطﷺ.

وأُسِر لوطٌ الّذي كان يسكن في مدينة سدوم بعد أن أُخِذت كل ممتلكاته. وكان عمّه النبي إبراهيم حينها يقيم عند بَلّوطات مَمرا فجاءه أَحد رجال لوط الذي نجا وأخبره بكلّ ما جرى. ومَمرا الأَموريّ قريب أَشكول وعانِر، وكان جميعهم حلفاء إبراهيم العبرانيّﷺ. فلمّا علم النبي إبراهيم بأسر ابن أخيه، جمع كل الموالي المدرّبين على القتال والذين في بيته مولودين، وكان عددهم ثلاث مئة وثمانية عشر، وتبِع جيش العدو شمالاً حتّى لحق به في مدينة دان في الجولان. وأثناء الليل، قسّم إبراهيمﷺ رجاله، وأطبقوا على العدو من كلّ اتجاه، فهزموه وأخذوا يطاردونه حتّى حُوبة شمال دمشق. واسترجع النبي إبراهيم بهذا ابن أخيه لوطًاﷺ وأملاكه والنساء وغيرهم من الأسرى وكل الغنائم التي سلبت منهم.

وفي وادي شَوَى، المعروف أيضًا بوادي الملك، خرج ملك سَدوم لاستقبال النبي إبراهيم عند عودته منتصرًا على كَدَرلَعَومَر والملوك الّذين حاربوا معه. وقدَّم الملك صادِق، ملك مدينة ساليم الّذي كان حَبرًا لله العليّ العظيم، خبزًا وشرابًا لإبراهيم، ودعا له بالبركات قائلا: «مباركٌ إبراهيم من الله العليّ العظيم، خالق السّماوات والأرضِ، وتبارك اللهُ العليّ العظيم الّذي جعل أَعداءك بين يديك صاغرين». فأعطاه النبي إبراهيم العُشر من كلّ الغنائم الّتي حصل عليها. فأجابه ملك سَدُوم قائلا: «احتفظ بالغنائم وأعطني المعتوقين من الأَسرى». فأجابه النبي إبراهيمُ: «لقد أَقسمتُ بالله العليّ العظيم، خالق السّماوات والأرض، أن لا آخذ شيئًا

(1) وكانت هذه المدينة تقع قرب مدينة الخليل في الضفة الغربية.

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 14: 1، 12–24.

من أملاكك، مهما كانت قيمته، حتّى لو كان خيطًا أو رباط نعل، لئلاَّ تقول: أنا أغنيتُ إبراهيم. إنّي لن أقبل منك غير ما أكله رجالي. أمّا الحلفاء الّذين حاربوا معي، عانِر وأَشْكول ومَمْرا، فمن حقّهم أن يأخذوا نصيبهم كاملا».

عهد الله للنبي إبراهيمعليه السلام[1]

وبعد ذلك تجلّى اللهُ لإبراهيمعليه السلام وأوحى إليه: «لا تخف يا إبراهيم. أنا أحميك وأُدافع عنك، ولك عندي أجرٌ عظيم».[2] فقال النبي إبراهيم: «يا الله، يا ربّ، ما نفع كل هذا الخير الذي تعطيني إياه وأنت لم ترزقني ولدًا يرث بيتي، ولا وريث لديّ غير أَليعازَر الدمشقيّ». وأضاف النبي إبراهيم قائلا: «ما رزقتني يا ربّ نسلا وإنّ ربيب بيتي هو وريثي». فأوحى إليه الله مرّة أخرى: «لن يرثك أَليعازَر، بل يرثك ابنك الذي تُنجبُهُ من صلبك». وأخذهُ إلى خارج الخيمة قائلا: «أنظر إلى السّماء وعُدّ النّجوم إن استطعت ذلك». وأضاف: «هكذا يكون نسلك». فآمن النبي إبراهيم بوعد الله، فحَسَبَهُ تعالى مَرضيًّا. وأوحى إليه: «أَنا اللهُ الّذي أخرجك من أُور الكَلْدانيّين في بلاد الرافدين أهبك هذه الأرض مُلكًا لك». فقال إبراهيمعليه السلام: «اللهُمّ، كيف لي أن أتيقّن أنّي مالكها؟» ولاتمام الميثاق أمره الله بما يلي:[3] «احمل معك إلى هذا المكان بقرةً وعنزةً وكبشًا عمر كلّ منها ثلاث سنوات، ويمامةً وحمامة». فأتى النبي إبراهيم بهذه الحيوانات كلّها وذبحها وقدّمها لله، ثم شطرها شطرين، ووضع كلّ شطر منها مقابل الشطر الآخر. لكنّه ترك اليمامة والحمامة فلم يشقّهما. وبعد حين، أَخذت الطّيور

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 15: 1-21.

(2) انظر سورة آل عمران: 172.

(3) شعائر هذا الميثاق هي من العادات التي شاعت في تلك الفترة: وتنصّ على ضرورة شطر الذبيحة إلى شطرين ومرور المتعاهدين بينهما، كرمز لإبرام المعاهدة ومن يرفض اتباع هذه شروط تحل عليه اللعنة فيكون مصيره مثل مصير الذبيحة المشطورة. لكن الله لم يطلب من النبي إبراهيم العبور بين شطري الذبيحة هنا بل جعل النار تعبر بينهما كرمز له تعالى لأن طرفي المعاهدة غير متكافئين (الله والنبي إبراهيم). والله لا يحتاج إلى إبرام هذه المعاهدة وإنما أجراها مع سيدنا إبراهيم بهذه الطريقة ليجعله يصدق بها.

الجارحة تنقضّ على الذبائح، فزجرها النبي إبراهيم. وعند غروب الشمس، استسلم ﷺ لنوم عميق، وحلّ عليه ظلامٌ كثيف مخيف. فأوحى إليه الله في المنام: «اِعلمْ أَنّ نسلك سيتغرّب في بلاد ليست بلادهم، فيستعبدهم أهلها ويذلّونهم أربع مئة سنة. ولكنّي أُعاقب أهل تلك البلاد الّتي تستعبدهم ويخرج نسلك بأملاك كثيرة. أمّا أنت فتموت بسلام بعد عمر طويل وتُدفن بحُسن الخاتمة. وفي الجيل الرابع يعود نسلك إلى هذه الأرض! لأنّ شر الأَموريّين لا بدّ أن يطغى ويبلغ مداه».

وعندما غابت الشمس وحلّ الظلام، أرسل الله دخانًا كثيفًا ونارًا تشتعل من شيء شبيه بكانون،(1) فعبر الدخان والنار بين الذبائح المصطفّة المشطورة نصفين. وفي ذلك اليوم أقام اللهُ مع النبي إبراهيم ميثاقًا ثم أوحى إليه: «أهبُ لك ولنسلك هذه الأرض(2) الّتي تمتدّ من وادي العَريش على حدود مصر إلى نهر الفرات الكبير، يعني البلاد التي تسكنها الشعوب الوثنية.

ولادة إسماعيل ﷺ(3)

ولم يكن لسارة زوجة إبراهيم ﷺ أولاد. فطلبت من زوجها: «لقد حرمني الله من الولادة فادخل على جاريتي المصرية هاجر لعل الله يرزقني منها بنينا».(4) فسمِع النبي

(1) يرمز الدخان والنار إلى حضور الله، ويشيران إلى الزمن الذي يتجلّى فيه الله في صحراء سيناء لبني يعقوب وهم تحت قيادة النبي موسى، فتجلّى الله لهم في شكل عمود من نار تارة وعمود من دخان تارة أخرى لكي يرشدهم إلى طريقهم في الصحراء بعد أن أنقذهم من العبودية في مصر.

(2) بمقاصد الله يتحقق وعده تعالى لذرية إبراهيم من خلال المملكة الربانية الموعودة لكل من يؤمن بالله بحق السيد المسيح. فالمؤمنون موصوفون بأبناء إبراهيم بالإيمان. انظر المقال بهذا الخصوص في هذا المجلد تحت عنوان: "مفاهيم الشعب المختار وأماكنه وأوقاته المقدسة".

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 16: 1–16.

(4) ذكر اليعقوبي في تاريخه هذا الحدث قائلا: "وكان لسارة جارية يقال لها هاجر، فوهبتها لإبراهيم فوقع عليها فحملت وولدت إسماعيل، وإبراهيم يومئذ ابن ستّ وثمانين سنة". واكتشفت كتابات أثرية من عصر النبي إبراهيم في مدينة نوزي شمال العراق. وتصف هذه الكتابات حالات شبيهة بحالة سارة، إذ سادت في ذلك الوقت عادة تقضي بأن تلد الجارية ولدا لسيدتها، ويكون الولد قانونيا لهذه السيدة.

إبراهيم كلام زوجته. وأخذت سارة جاريتها المصرية هاجر، وقدّمتها لزوجها إبراهيم عليه السلام لتكون زوجة له. وحدث هذا الأمر بعد عشر سنوات من إقامة النبي إبراهيم في بلاد كنعان. وعاشر إبراهيم عليه السلام هاجر فحبلت. ولمّا رأت أنّها حاملٌ، بدأت تحتقر سيّدتها. فقالت سارة للنبي إبراهيم: «لقد ظلمتَني في هذا الأمر! أنا جعلتُ جاريتي بين يديك. فلمّا رأت أنّها حامل، بدأت تحتقرني. إنّ الله سيُنصفني ويظهر من منّا على حق». فَأجابها إبراهيم عليه السلام: «إنّها جاريتُكِ وهي تحت تصرّفك. افعلي بها ما شئت». فأذلّتها سارة إذْلالاً وهربت هاجر من سارّة.

وسارت هاجر في الطريق الّتي تؤدّي إلى شور،[1] وتوقّفت في الصحراء عند عين ماء. وهناك أتاها ملاكٌ. فقال لها: «مِن أين جئتِ يا هاجر، وإلى أين تذهبين؟» فقالت: «أنا هاربة من سيّدتي سارة». فقال لها الملاك: «قال الله تعالى: اِرجعي إلى سيّدتك واخضعي لها. أنا سأُكثِّر نسلك، فلا يُعَدُّ من الكثرة». ثُمّ أضاف الملاك قائلا: «أنتِ الآن حاملٌ ستلدين ولدًا، وعليك أن تسمّيه إسماعيل، أيّ «الله سميعٌ» لأَنّ الله سمع دعاءك حين استغثتِ به تعالى.[2] وسيكون إسماعيل حرًّا مثل حصان جامح، يعادي الجميع والجميع يعادونه، ويعيش مُجاورًا لكلّ إخوته».[3] فنادت هاجرُ اللهَ الّذي أوحى إليها: «أنت البصير». لأنّها قالت: «في هذا المكان أَبصرتُ تجلّيات الله البصير». ومع مرور الزمن حفر الناس بئرًا في هذا المكان، وسمّوها «بئر الحيّ البصير» نسبة إلى ما قالته هاجر. وتقع بين قادِش وبَرَد.

(1) تقع منطقة شور على الأرجح في الصحراء في اتّجاه الشرق من دلتا نهر النيل، بمحاذاة الطريق الساحلي بين فلسطين ومصر.

(2) تشبه بشرى الملاك هنا بشرى الملاك جبريل للعذراء مريم التي حدثت بعد مئات السنين حيث قال: ((ستحملين بطفل تلدينه وتسّمينه عيسى)). فرضيت كلتا المرأتين بوعد الله، وهكذا صارتا سببا للبركة على العالمين.

(3) المخلوق المشار إليه هنا يكون الفراء السوري، (جمع: أفراء)، وهو حيوان قد انقرض في أكثر مناطق الشرق الأوسط. فلقد كان الفراء له مكانة خاصة ومحط إعجاب في الشرق الأدنى القديم. وقد جاء وصف لهذا الحيوان في كتاب النبي أيوب (39: 5–8). لقد نُظم في الفراء شعر جميل، وكان يُنظر إليه بالحسد بسبب الحرية التي يتمتع بها في طبيعة الصحراء القاسية. ويتميز هذا الحيوان بين غيره من الحيوانات البرية بأنه موضوع لعديد من القطع الشعرية البدوية المشهورة. وورد في ديوان الحماسة لأبي تمام أن الفراء كان لقبا لشيخ القبيلة.

وهكذا عادت هاجر إلى إبراهيمعليه السلام، وولدت له ابنًا وسمّاه إسماعيل. ولمّا أنجبت هاجر إسماعيل كان النبي إبراهيم يبلغ من العمر ستًّا وثمانين سنةً.

ميثاق الله ووعده للنبي إبراهيم(1)

وعندما بلغ النبي إبراهيم من عمره تسعًا وتسعين، تجلّى الله له وأوحى إليه: «أنا الله القويّ المتين. اسلُك بكلّ إخلاصٍ في صراطي المستقيم. فأعطيك ميثاقي وأرزقك نسلا كثيرا». وانحنى إبراهيمعليه السلام على وجهه ساجدًا، وأوحى اللهُ إليه من جديد: «هذا عهدي معك: أجعلك أبًا لأُمم كثيرة،(2) ولذلك أغيّر اسمك، فلا يكون اسمك بعد الآن أبرام بل إبراهيم.(3) وأكثّر نسلك ومنهم أجعل أُممًا وملوكا، وأقيم ميثاقي معك ومع نسلك من بعدك، جيلا بعد جيل. هذا هو الميثاق الأبدي معك: فأكون ربّك وربّ نسلك من بعدك إلى الأبد. وأُعطيك أرض كنعان كلّها، الأرض الّتي تسكن فيها غريبا الآن، إنّها لك ولنسلك مُلكًا أبديًّا، وأنا ربّكم جميعًا».

ثمّ أوحى الله إلى إبراهيمعليه السلام: «إنّ عليك أن تُخلص لهذا الميثاق، أنت ونسلك جيلا بعد جيل. وإنّ علامة إخلاصكم للميثاق أن تختنوا كلَّ ذَكَر منكم.(4) وعلى مرّ الزمن، يُختَنُ كلُّ ذكر منكم وهو ابن ثمانية أيّام، سواءٌ كان من أبنائكم أو خدمكم، إنّ هذا واجب عليكم جميعًا. فيكون لديكم علامة في أجسامكم عهدًا لميثاقي الذي يدوم إلى الأبد. أمّا الذّكَر الّذي يرفض أن يُختن، فيُقْصى عن قومه لأنّه خالف ميثاقي».

وأوحى اللهُ إلى النبي إبراهيم أيضًا: «سأغيّر اسم زوجتك فلا يكون ساراي بعد

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 17: 1–27.

(2) انظر سورة البقرة: 124، والرسالة إلى أحباب الله في روما 4: 16–17.

(3) أبرام يعني «الأب رفيع المقام» بينما إبراهيم يعني «أب لكثيرين».

(4) الختان المذكور هنا هو ختان مادي علامة على انتماء ذرية النبي إبراهيم إلى ميثاق الله. غير أنّ مقصد الله منه الإشارة إلى حقيقة روحانية أسمى. وكتب الحواري بولس في هذا الشأن: ((لَيسَ ما تَفرِضُهُ التّقاليدُ عن الختان ختانا حَقيقيًّا، كَلاّ! بَلِ الخِتانُ أن يَتَطَهَّرَ قَلبُ الإنسانِ برُوحِ اللهِ طَهارَةً رُوحيَّةً. ومَن كانَ طاهِرًا طُهرًا رَبّانيًّا، فقد يَغفَلُ عَنهُ النّاسُ ولكنّهُ عِندَ اللهِ يَكونُ مَرضيًّا)). [روما 2: 29].

الآن بل سارة.[1] وأباركها وأرزقك ابنًا منها. نعم، سأباركها فتكون أُمًّا لأمم ويأتي منها ملوك شعوب». فانحنى النبي إبراهيمُ على وجهه ساجدًا وضحك وقال في نفسه: «كيف أُنجب ابنًا وقد بلغتُ مئة سنة؟ وكيف تلد سارة وهي في التسعين مِن عمرها؟» وقال إبراهيم عليه السلام لله: «اللهمّ اجعل إسماعيل في ظلك من المرتضين». فأوحى اللهُ إليه: «بل ستلد لك سارة ابنًا وعليك أن تسمّيه إسحق. وسأقيم ميثاقي معه، ميثاقا أبديًّا له ولنسله من بعده. أمّا إسماعيل فقد سمعتُ دعاءك من أجله، وسأباركه وأُكثّر ذريته، فيُنجب اثني عشر أميرا[2] وأجعل نسلَه أُمّةً عظيمةً. وستنجب لك سارة بعد عام من الآن ولدًا اسمه إسحق ومعه أقيم ميثاقي». وعندئذ انتهت التجلّيات ومعها الوحي.

وفي اليوم نفسه ختن إبراهيم ابنه إسماعيل(عليهما السّلام) وكلّ الذكور سواء المولودين في بيته أو الخدم، كما أمره اللهُ. وخُتن النبي إبراهيم في سن تسع وتسعين سنة وابنه إسماعيل في سن الثالثة عشرة. وهكذا خُتن الأب والابن في اليوم نفسه، كما خُتن كلّ الذكور المولودين أو الوافدين على بيت النبي إبراهيم.[3]

(1) يدلّ تغيير الاسم قديما على أن الله اختار هذا الشخص لينتمي إليه. والاسمان «سارة» و«ساراي» يعنيان «أميرة».

(2) إنّ وعد الله إلى النبي إبراهيم هنا بأن يجعل كل واحد من أنباء إسماعيل الاثنا عشر نقيبا أو أميرا على عشيرته، يقترب كثيرا من الوعد الذي سيحلّ على النبي يعقوب فيما بعد بأن يجعل كل واحد من أبنائه الاثني عشر نقيبا على أسباط بني إسرائيل. انظر أيضا سورة المائدة: 12.

(3) انظر المقال في هذا المجلد: «العادات الشرقية واليهودية القديمة» ما يتعلّق بالختان.

ذرية إسماعيل عليه السلام

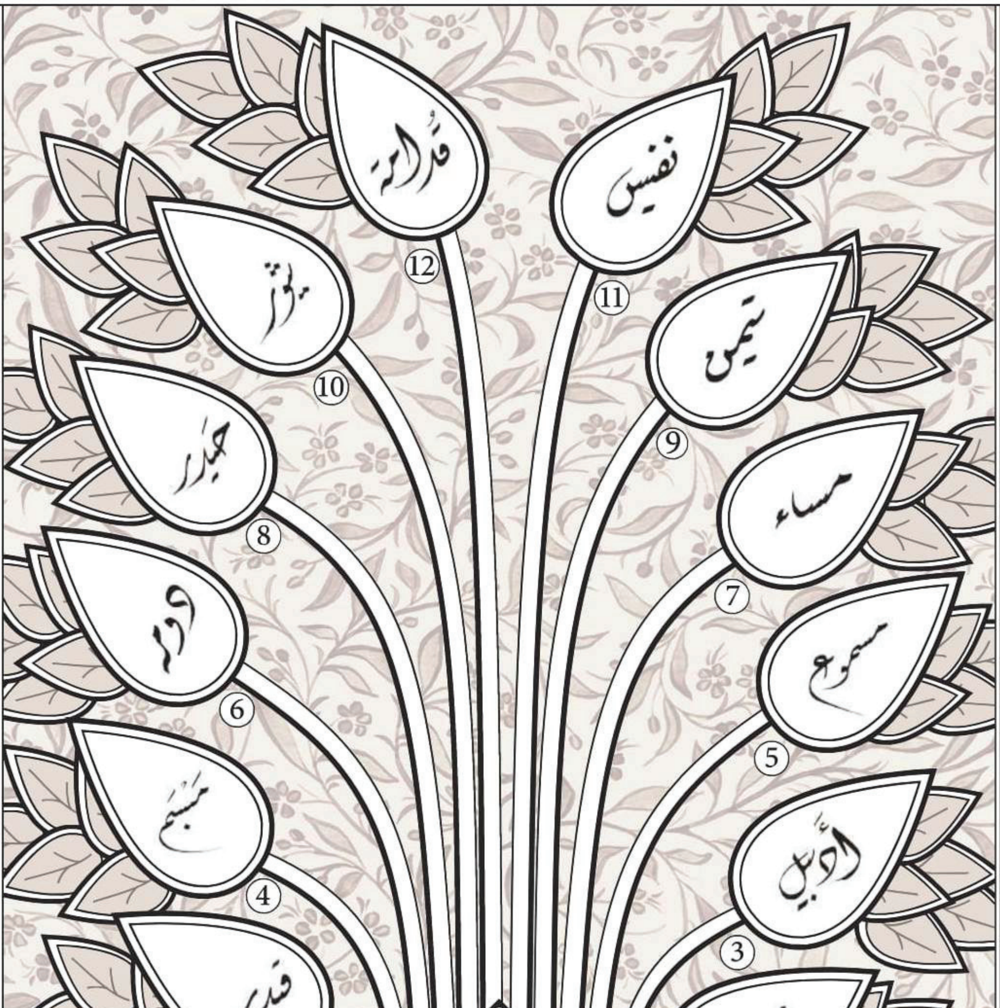

هؤلاء هم أبناء إسماعيل عليه السلام وقد أصبحوا فيما بعد أمراء لقبائلهم الاثني عشر، وهي مسجّلة وفقًا للمكان الذي يقيمون فيه وسُميت حسب أسمائهم.

وعد الله بولادة إسحق عليه السلام[1]

وفي أحد الأيام وبينما كان النبي إبراهيم عليه السلام جالسًا في مدخل خيمته عند بَلّوطات مَمْرا، تجلّى الله له في الهجيرة. فنظر النبي إبراهيم ورأى ما يشبه ثلاثة رجال واقفين أمامه. وعندما رآهم قام مسْرعًا من مدخل خيمته لاستقبالهم، ورحّب بهم وانحنى إلى الأرض احترامًا لهم وقال: «أيّها السادة، هل تشرّفونني بقبول دعوتي؟ أرجوكم، لا تذهبوا دون زيارتي. دعني أُقدّم لكم قليلا من الماء تغسلون به أرجلكم،[2] وتفضّلوا استريحوا تحت هذا الشجر. إنّ ساعة زيارتكم لعبدكم المتواضع هي ساعة مباركة! فدعوني أقدّم لكم لقمة خبز تسندون بها قلوبكم، ثمّ تواصلون مسيرتكم». فأجابوه: «حسنًا، ليكن كما قلت». فأسرع إبراهيم عليه السلام إلى زوجته سارة داخل الخيمة قائلا: «هيّا أَسرعي واعجني ثلاث كيلات من أفضل الدقيق واخبزيها». ثمّ أسرع عليه السلام إلى القطيع، واختار واحدًا من أفضل العجول، وأعطاه لأحد الخدم فسارع بتجهيزه. وعندما حضر الطعام، قدّم النبي إبراهيم زبدة ولبنًا والعجل الذي طبخه عليه السلام لضيوفه، فأكلوا[3] وهو واقفٌ يخدمهم تحت الشجرة. ثمّ سألوه: «أين زوجتك سارة؟» فأجابهم: «إنّها هناك في الخيمة». فقال أحدهم: «سأعود إليك في السنة القادمة في مِثل هذا الوقت وتكون سارة قد انجبت ابنًا». وكانت سارة في الخيمة تتابع الحديث الّذي يدور بينهما. وكان النبي إبراهيم طاعنًا في السنّ وزوجته سارة تجاوزت سنّ الإنجاب. فضحكت سارة في نفسها وقالت: «كيف أَتنعّم بهذه المُتعة بعدما عجزتُ وشاخ زوجي؟» فأوحى الله على لسان رسوله إلى النبي إبراهيم: «لماذا ضحكت سارة وقالت: هل ألد وأنا عجوزٌ؟ ألا تعلمان أنّ اللهَ على كل شيء قدير؟ سأُعود إليك في هذا الوقت من السنة القادمة، وسارة قد أنجبت ابنًا». فأنكرت سارة لأنّها خافت قائلة: «ما ضحكتُ». أمّا الرسول فقال: «لا، بل ضحكتِ».

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 18: 1–33.

(2) انظر المقال في هذا المجلد: ”العادات الشرقية واليهودية القديمة“.

(3) ذكر بعض المفسرين اليهود أن الملائكة أبدوا أنهم أكلوا من الطعام فقط. وجاء في القرآن أن هؤلاء الملائكة لم يأكلوا من المائدة (انظر سورة هود: 70).

ثمّ نهض الضيوف واتّجهوا نحو مدينة سَدوم، ورافقهم إبراهيم﵇ ليودّعهم. فأوحى الله: «لا يجوز أن أُخفي عن إبراهيم ما سأفعله، لأن أُممًا عظيمة وقويّة ستنحدر منه وبه أبارك جميع شعوب الأرض. لأنّي اخترتُه ليرشد بنيه وأهل بيته من بعده أن يسلكوا الصراط المستقيم، ويعملوا صالحا وعدلا، حتّى أفي بما وعدتُهُ به».

ثمّ أوحى الله إلى إبراهيم﵇: «إنّي سميعٌ لاستغاثة الناس إليّ بسبب ظلم أهل سَدوم وعَمورة. وإنّ معاصيهم صارت خطيرة جدًّا. ولذلك سأُتجلّى هناك لأسبر أغوارهم وأمتحنهم ليكون برهانًا عليهم.[1] لا بدّ أن أمتحنهم». وأرسل الله رسولان توجّها من هناك إلى سَدوم، في حين ظلّ النبي إبراهيم في خشوع في حضرة مقام ربّه. واقترب إبراهيم﵇ وقال: «هل تُهلك الصّالح بفساد الطّالح؟ ربَّما كان في المدينة خمسونَ صالحًا، هل تُهلكُها كلَّها ولا تصفح عنها من أجلِ الخمسين صالحًا فيها؟ حاشا يا ربّ، أَن تُميت الصّالح مع الشّرّير، فتعامل الصّالح كالشّرّير. مُنزّهٌ أنت عن هذا، وأنت فوق الناس الحَكَم العادل الذي لا يجور.» فأوحى اللهُ: «إن وجدتُ خمسين صالحًا في سَدوم صَفحتُ عن المدينة كلّها إكرامًا لهم». فتوسّل﵇: «إنّي أتجاسر فأكلّم ربّي ومولاي، مع أنّي مجرّد تراب ورماد. ربّما نقص الخمسون صالحًا خمسة، فهل تُهلك كلّ المدينة للخمسة الناقصين؟» فأوحى إليه تعالى: «لا أُهلكها إن وجدتُ هناك خمسة وأربعين». فتضرّع النبي إبراهيم: «فإن وجدتَ يا مولاي أربعين فقط!» فأجابه: «لا أُهلكها إكرامًا للأربعين». فقال﵇: «لا يغضب مولاي، بل اسمح لي أن أتكلّم، فإن وجدتَ ثلاثين فقط!» فأجاب تعالى: «لا أُهلكها إن وجدتُ هناك ثلاثين صالحا». فتضرّع النبي إبراهيم: «إنّي أَتجاسرُ فأكلّم المولى! لنفرض أنّك وجدتَ عشرين فقط!» فأجاب: «لا أُهلكُها من أجل العشرين». فقال النبي إبراهيم: «لا يغضب مولاي فأتكلّم لآخر مرّة: وإن وجدتَ هناك عشرة؟» فأوحى إليه: «لا

(1) الله لا يحتاج إلى برهان أو دليل ليستظهر به أمام أهل سدوم وعمورة – لأنه يعلم مدى فسادهم في الأرض – فالله يريد من النبي إبراهيم أن يتضرع من أجل أهل سدوم وعمورة وليؤكد للنبي إبراهيم أيضا وجود سبب لتدمير المدينتين.

أُهلك المدينة إكرامًا للعشرة الصالحين».[1] وأَنهى الله الوحي، فعاد إبراهيم إلى خيمته.

عقاب قوم لوط[2]

وعند المساء أقبل الملاكان على سَدوم. وكان لوطٌ عليه السلام جالسًا عند بوّابة المدينة، فما إن رآهما حتّى قام لاستقبالهما، وانحنى إلى الأرض احترامًا لهما. وقال: «يا سيِّدَيَّ، أرجو أن تنزلا ضيفين في بيت عبدكما، ففيه تغسلان أرجلكما وتقضيان الليلة، وفي الصباح الباكر تمضيان في طريقكما». فأجابا: «بل نبيتُ في الساحة». وألحّ لوط عليهما كثيرًا حتّى رافقاه ودخلا بيته، فطبخ لهما وليمةً وخبزا فطيرا فأكلا. وقبل أن يناما جاء رجال سَدوم جميعًا، شُبّانًا وشيوخًا، وأحاطوا بالبيت من كلّ جهة، ونادوا لوطًا عليه السلام: «يا لوط، أين الرّجلان اللّذان نزلا عندك الليلة؟ أخرجهما إلينا حتّى نعاشرهما». فخرج إليهم لوط عليه السلام وأغلق الباب وراءه وقال: «يا إخوتي، لا ترتكبوا هذا الإثم العظيم. إنّ لي صبيّتين، وإنّي لأبذلهما لكم فافعلوا بهما ما تشتهون، أَمّا هذان الرجلان فلا تسيئوا إليهما لأنّهما ضيفان في حِمَى منزلي».[3](٢) فأجابوه: «افسح الطريق!» ثمّ قالوا: «جاء هذا الرجل غريبًا، وها هو الآن يريد أن يتحكّم فينا! لنفعلنّ الآن بك أسوأَ ممّا نفعل بهما!» ودفعوا لوطًا عليه السلام إلى الوراء وتقدّموا ليكسروا الباب. غير أَنّ الملاكين مدّا أيديهما واجتذبا لوطًا عليه السلام إلى داخل البيت، وأغلقا الباب بإحكام. وضربا بالعمى الرجال الّذين على الباب، صغارًا وكبارًا، فارتدّوا عن اقتحام الباب.

وقال الملاكان للوطٍ عليه السلام: «هل لك أقرباء في هذه المدينة؟ أخرجهم منها، سواء كانوا أصهارك أم بنيك أم بناتك أم غيرهم من أحبابك. إنّا مهلكو هذه المدينة برمّتها عمّا قريب، لأنّ الشّكاوى تعاظمت ضدّ أهلها وبلغت حدّا أنّ الله أرسلَنا لندمّرها.»

(1) (٩) قارن سورة العنكبوت: 31–32.

(2) (١) استنادا إلى كتاب التكوين 19: 1–29.

(3) (٢) كان لوط عليه السلام واقعا بين وطأة حماية بناته من جهة، وبين وطأة حماية الضيفين ومتطلبات الضياقة من جهة أخرى. انظر في هذا الشأن المقال في هذا المجلّد: "ثقافة أهل الشرق في التوراة" وأيضا سورة الحجر: 71.

فأسرع لوطٌ عليه السلام إلى خطيبي ابنتيه وقال: «أسرعا واخرجا من هنا، إنّ الله مخَرّب المدينةَ.» فظنّ صهراه أنّه يمزح. وعند طلوع الفجر، أخذ الملاكان يلحّان على لوط عليه السلام: «أسرع الآن وفرّ بزوجتك وبنتَيْك اللّتين هنا، لابدّ أن تهربوا حتّى لا تهلكوا عندما يحلّ العقاب على الظالمين.» وعند تردّد لوط عليه السلام، أمسك الملاكان بيده وأيدي زوجته وبنتيه، وأخرجاهم من المدينة سالمين، لأَنّ الله أشفق عليهم. وما إن خرجوا من المدينة حتّى قال أحد الملاكين: «اهربوا وانجوا بحياتكم! ولا تلتفتوا وراءكم ولا تتوقّفوا في واد الغور كلّه! اهربوا إلى الجبل لئلاّ تهلكوا!» فقال عليه السلام: «لا يا سيّدي. قد رضيتَ عن عبدك وغمرتَني بلطفك فأنقذت حياتي. وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل، فقد يلحقني ما سيحلّ على مدينة سدوم من عقاب فأموت. ولكن اُنظر إلى تلك القرية الصغيرة، إنّها قريبة من هنا، فاسمحْ لي أن أهرب إليها وأنجو بحياتي». فقال له الملاك: «حسنًا، سأحقّق طلبك فلا أدمّر تلك القرية. لكن عليك أن تهرب إليها بسرعة لأنّي لا أقدر أن أفعل شيئًا حتّى تصل إليها». وبسبب هذه الحادثة سُميت القرية صُوغَر فيما بعد.

وما إن وصل لوط عليه السلام إلى صُوغَر حتّى بزغت الشمس. فأمطر الله على سَدوم وعَمُورَة من السماء نارًا وحجارة من كبريت مشتعل.[1] وأهلك المدينتين وكل المدن والقرى في المنطقة بسكّانها، وأحرق كلّ النّباتات أيضا. أمّا زوجة لوط، فلم تكترث إلى إنذار الملاك وعصت والتفتت خلفها فصارت عمود ملح.[2]

وفي صباح اليوم التالي، قام النبي إبراهيم ومضى إلى المكان الّذي وقف فيه في حضرة الله. ونظر عليه السلام نحو سَدوم وعَمُورَة في الغور فرأى الدخان الكثيف يتصاعد منهما مثل دخان الأتون. واستجاب الله لطلب النبيّ إبراهيم، وأنقذ لوطًا إذ أخرجه قبل حلول الكارثة الّتي أهلكت مدن الغور.[3]

(1) انظر سورة النمل: 58.
(2) يؤكد اليعقوبي هذا الحدث في تاريخه: "وكانت امرأة لوط فيهم [في أهل سدوم وعامورة] فمسخت ملحا، فما بقي منهم مخبر."
(3) انظر سورة الأنبياء: 74.

ولادة إسحق عليه السلام[1]

وأنعم الله على سارة كما وعد، فحملت وأنجبت ابنًا لإبراهيم عليه السلام في شيخوخته، في الوقت الّذي حدّده وحي الله. وسمّى النبي إبراهيم ابنه من سارة إسحق، ومعناه «ضحك». وختن النبي إبراهيم ابنه إسحق في اليوم الثامن من عمره تطبيقًا لِما أمره الله به. وحين رُزق إبراهيمُ بإسحق (عليهما السّلام) كان عمره مئة سنة. وقالت سارة: «لقد أضحكني الله، وكلّ مَن يسمع بهذا الخبر يضحك معي». وقالت: «مَن كان يتوقّع أني سأَرضع لإبراهيم بنين وهو شيخ؟ ها قد أنجبت له ابنًا!»

وعد الله لهاجر[2]

بمناسبة فطام إسحق، أقام النبي إبراهيم وليمة عظيمة إكرامًا له. ورأت سارة أن إسماعيل ابن هاجر المصرية يسخر من ابنها إسحق، فقالت للنبي إبراهيم: «أَطْرِدْ هذه الجارية وابنها! لا يرث ابن هذه الجارية مع ابني إسحَق». وانزعج النبي إبراهيم من هذا الكلام كثيرًا، لأنّ إسماعيل عليه السلام ابنه أيضًا. فأوحى الله إليه: «لا تنزعج بشأن ابنك وجاريتك. واعمل بما تقوله لك سارة، فمِن إسحق ينحدر الورثة وبهم أحقق وعدي لك. ومن إسماعيل أجعل أمّة عظيمة لأنّه ابنك أيضًا».

وفي الصباح الباكر أخذ إبراهيم عليه السلام خبزًا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر ووضعهما على كتفها وأطلقها هي وابنها، فمضت تهيم على وجهها في صحراء بئر السبع. وعندما فرغ الماء من القربة، تركت ابنها عليه السلام تحت شجرة صغيرة ومضت تراقبه وهي جالسة على بعد رميتي قوس (حوالي مئة متر) لأنّها قالت في نفسها: «لا أستطيع أن أتحمّل رؤية ابني وهو يموت أمامي». وأجهشت بالبكاء. وسمع الله إسماعيل عليه السلام يستغيث، فهتف ملاكٌ من السماء لهاجر وأوحى إليها: «لا عليكِ يا هاجر! لا تخافي، لأنّ الله سمع صوت الولد وهو ينادي من حيث ألقي! والآن انهضي وخذي ابنك وشدّي بيده، فالله سيجعل من نسله أمّة عظيمة». وفتح اللهُ بصيرة هاجر فرأت بئر

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 21: 1–7.

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 21: 8–21.

ماء، فهرولت إليها وملأتِ القربةَ ماءً وسقتِ ابنهاعليه السلام. وكان الله مع إسماعيلعليه السلام خير معين. ومع مرور الزمن كبُر الصّبيُّ وأقام بصحراء فاران، وأصبح صيادًا ماهرًا في الرماية بالقوس والسهام. وزوّجته أُمُّهُ بنتا من أرض مصر.

إبراهيمعليه السلام وابنه ذبيحة الله[1]

وبعد مرور سنوات على هذه الأحداث امتحن الله نبيه إبراهيم، فأوحى إليه: «يا إبراهيم!» فقال: «لَبّيكَ». فأوحى إليه تعالى: «خُذ إسحَق وريثك الوحيد[2] الّذي تحبّه واذهب إلى أرض مُوريّة، واذبحه هنا[3] واحرقه كأضحية على جبل أدُلّك عليه».[4] فأسرج النبي إبراهيم دابته في الصباح الباكر وقطع حطبًا لإحراق الأضحية كلّها لله،[5] ثمّ أخذ ابنه إسحَقعليه السلام واثنين من خدمه واتّجه إلى الموضع الّذي دلّه الله عليه. وفي اليوم الثالث نظر النبي إبراهيم أمامه، فلاح له المكان من بعيد، فقال لخادمَيه: «انتظرا هنا مع الدابّة. سأذهب مع ابني لنعبد الله هناك ثمّ نعود إليكما». وحمل النبي إبراهيم عليه السلام النار والسّكّين، بعد أن وضع الحطب على كاهل ابنه إسحقعليه السلام، واتّجها معًا إلى قمة الجبل. فالتفت إسحَقعليه السلام إلى أبيه قائلا: «يا أبي!» فأجابه إبراهيم: «نعم يا بُنيّ». قال: «هذه النّار في يدك والحطب على كاهلي، فأين كبش الأُضحية؟» فأجابه إبراهيم عليه السلام: «الله يتولّى أمر كبش الأضحية يا ولدي». وتابعا سيرهما معًا. ولمّا وصلا إلى الموضع الّذي حدّده الله لإبراهيم، بنى من الحجر مذبحًا لإحراق القربان لله، ورتّب

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 22: 1–19.

(2) يُعتبر إسحقعليه السلام وريث النبي إبراهيم الوحيد بعد إطلاقه لهاجر وابنها إسماعيل.

(3) في زمن النبي إبراهيم ساد معتقد أن الآلهة تطلب القرابين والذبائح ليس من الحيوانات فقط بل من البشر أيضا. واعتقد النبي إبراهيم مثلهم. لكن الله أراد أن يكشف له أنه تعالى لا يقبل فدية من البشر بل قدم بديلا عنهم، وفي ذلك تتجلى حكمة الله وعظمته.

(4) يقول اليعقوبي في تاريخه: ”أمره الله أن يذبح ابنه، فالرواية تختلف في إسماعيل وإسحق، فيقول قوم إنّه إسماعيل لأنّه الذي وضع داره وبيته وإسحق بالشام، ويقول قوم إنه إسحق لأنه أخرج أمّه معه وكان يومئذ غلاما وإسماعيل رجل قد ولد له“. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ج 1، ص 23.

(5) لماذا إحراق الذبيحة؟ انظر المقال في هذا المجلد: ”العادات الشرقية واليهودية القديمة“.

عليه الحطب، وربط ابنه إسحَق عليه السلام، وفي المذبح وضعه فوق الحطب على الجبين.[1] ومدّ النبي إبراهيم يده ليذبح ابنه ومسك السِّكّين. فهتف ملاكٌ من السّماء: «إبراهيم، يا إبراهيم!» فأجابه: «لَبَّيك!» فتابع الملاك قائلا: «لا تمدّ يدك إلى ابنك ولا تؤذيه أبدًا. لقد عرفتُ الآن أنّك تخاف ربّك، فما تردّدتَ أبدًا وقدّمتَ ابنك وريثك الوحيد قربانا لله». ثمّ أجال النبي إبراهيم النظر حوله فرأى وراءه كبشًا عالقًا بقرنيه بين الشُّجَيرات، فأقبل عليه وأخذه وذبحه وأحرقه قربانًا لله بدل ابنه اسحَق عليه السلام. وسمَّى النبي إبراهيم ذلك الموضع «جبل المُدبّر الوهّاب». والناس إلى يومنا هذا يضربون المثل القائل: «يهب الله على جبله ويدبّر».[2] وهتف الملاك للنبي إبراهيم مِن السّماء ثانيةً: «قال الله تعالى: أقسم بجلالتي،[3] لَأنّك أطعتني ولم تبخل عليّ بابنك وريثك الوحيد، فإنّي بلا ريب أُباركك بالرعاية والحماية، وأُكثر نسلك، ليكون في كثرته كالنّجوم، أو كرمال الشّاطئ لا يُعدُّون، وأنصر نسلك على مدن أعدائهم، ولأنك أطعتني فإنّي أباركك يا إبراهيم وبفَضلِ نَسلِكَ ستحلّ تلك البركات على أمم الأرض أجمعين».[4]

وعاد النبي إبراهيم بعد ذلك إلى خادمَيهِ، واتّجهوا جميعًا إلى بئر السبع، حيث أقام إبراهيم.

---

(1) انظر سورة الصافات: 103.

(2) جاء في كتب يهودية لاحقة أنّ هذا الجبل، أي جبل موريّة، كان فيه بيدر لرجل يُدعى أُرنان، وأن النبي سليمان بنى بيت الله وحرمه المقدس في هذا الموضع حيث قُدّمت الأضاحي والذبائح (انظر كتاب أخبار الأيام الثاني 3: 1). وسُمّي هذا الجبل فيما بعد جبل تصيون الذي أُقيمت فوقه مدينة القدس، وفي هذه المنطقة تحديدا ضحّى السيد المسيح بحياته على الصليب. ويرى بعض المفسّرين أن المثل المذكور هنا يتحقق في منح النجاة من خلال السيد المسيح.

(3) تؤكد عبارة ''أقسمت بجلالتي''، في اللغة العبرانية مضمون القول ومقصده.

(4) هنا توضيح لمقاصد الله من وراء وعده الذي وعد به النبي إبراهيم، أي أنّ نسله سيكون سبب بركات لكل أمم الأرض. أمّا الشعب اليهودي فقد قصّر في تنفيذه لهذه الدعوة، وحلّت هذه البركات في النهاية على كل الأمم من خلال السيد المسيح المنتظر.

نسل ناحور أخي إبراهيم عليه السلام

وفاة سارة ودفنها[1]

وعاشت سارة مئةً وسبعًا وعشرين سنة وتوفّيت في قرية أربع، وهي التي تُعرف بحَبرون، في أرض كنعان. وبكى إبراهيم عليه السلام سارة وحزنها. وترك جثمانها مُسَجًّى وتوجّه إلى الحِثّيّين وهم من سكّان تلك الأرض، وقال لهم: «أنا غريب ونزيل بينكم. اِسمحوا لي بشراء قطعة أرض لأجعلها قبرًا أدفن فيه زوجتي الّتي فارقت الحياة». فأجابه الحِثّيّون: «اسمع أيّها السيد، لقد جعلك الله أميرًا رفيع المقام بيننا، فادفن زوجتك في أفضل قبورنا، لا أحد منّا يمنع مدافنه عنك لتدفن فيه زوجتك». فانحنى إبراهيم عليه السلام احترامًا للحِثّيّين أهل تلك الأرض وقال لهم: «وإذ أنتم مستعدّون لمساعدتي على دفن زوجتي، فإنّي ألتمس منكم أن تطلبوا من عَفرون بن صُوحر أن يبيعني مغارة المَكفيلة[2] التي يملكها وأنا مستعد أن أشتريها بثمنها كاملا، لتكون من الآن مدفنًا لأهلي في أراضيكم». وكان عَفرون الحثّيّ جالسًا مع بقية الحِثّيّين يسمع النبي إبراهيم، فأجابه أمام جميع الشيوخ الحاضرين في المجلس أمام بوابة المدينة: «لا يا سيّدي، اسمع ما سأقول. إنّي أُعطيك الحقل والمغارة الّتي فيه هدية مني إليك، وإنّ قومي على هذا شاهدون فادفنْ زوجتك الراحلة».

فانحنى النبي إبراهيم أمام أهل تلك الأرض، وقال لعَفرون على مسمع من أهلها: «أرجوك يا عفرون بن صوحر أن تسمعني، خذ ثمن الحقل كاملاً، اقبله مني حتّى أدفن زوجتي هناك». فأجاب عَفرون إبراهيم عليه السلام: «أرجوك يا سيّدي أن تصغي إليّ. هذه الأرض تساوي أربع مئة قطعة من الفضّة، لا قيمة لهذا المال أمام ما بيني وبينك! ادفنْ زوجتك فيها». فقبل النبي إبراهيم عليه السلام عرض عَفرون، ووزن له أربع مئة قطعة من الفضّة حسب الوزن المتعارَف عليه بين التجّار. وكان شيوخ الحِثّيّين شهودًا على ما دار بينهما.

واشترى النبي إبراهيم حقل عَفرون في المَكفيلة قُرب بلوطات مَمْرا، بما فيه

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 23: 1–20.

(2) ''المكفيلة'' كلمة سامية تعني ''مزدوجة'' للدّلالة على أن المغارة كانت تتكون من كهفين.

من مغارة وشجر. وأصبح مُلكًا له بشهادة شيوخ الحِثّيّين وكلّ من جاء إلى بوّابة المدينة.[1] وهكذا دفن إبراهيمعليه السلام زوجته سارة في مغارة حقل المَكفيلة قرب بلوطات مَمْرا، وهي حَبرون في أرض كنعان. وانتقل الحقل والمغارة من مِلكيّة الحِثّيّين إلى النبي إبراهيمعليه السلام ليكونا مدفنًا لأهله.[2]

زواج النبي إسحق[3]

وأصبح إبراهيمعليه السلام شيخًا هرمًا يتمتّع ببركة من الله في كُلّ شيء. وقال النبي إبراهيم لكبير خدم بيته الّذي كان وكيلاً على أملاكه كلّها: «أقسم لي قَسمًا مغلظًا بالله ربّ السّماوات والأرض، أن لا تأخذ زوجةً لابني إسحَق من بنات الكنعانيّين الّذين أقيم بينهم،[4] بل اذهب إلى أرضي وإلى عشيرتي واختر منهم زوجة له». فقال له الخادم: «ربّما رفضت الفتاة مرافقتي إلى هذه الأرض، فهل أعود واصطحب ابنك إلى الأرض الّتي جئتَ منها؟» فقاطعه النبي إبراهيم قائلاً: «إيّاك أن تأخذ ابني إلى هناك! فالله ربّ السماوات والأرض أرسلني من بيت أبي ومن مسقط رأسي لأقيم في هذه البلاد، وأوحى إليّ بهذا الوعد: «لنسلك أُهب هذه الأرض،» وإنّي على ثقة أنّ الله سيُرسل ملاكه أمامك ليدُلّك على زوجة ابني. وإنْ رفضت الفتاة أن ترافقك إلى هنا تكون أَنت في حل من القسم الذي قسمته لي، واحذر في كل الأحوال أن تأخذ ابني إلى تلك البلاد.» فأقسم الخادم لمولاه إبراهيمعليه السلام أن يُطيع كل أوامره.

---

(1) تدلّ تفاصيل هذه القصة على ملكية النبي إبراهيم لهذا الحقل، وفي ذلك إشارة إلى بداية تحقيق وعد الله لإبراهيم بأن يملك هو وذريّته كل أرض كنعان. وتجدر الإشارة إلى أن السيد المسيح لم يملك شبرا من الأرض ودُفن في قبر لغيره. واعتقد بنو يعقوب أنّ هويتهم باعتبارهم "شعب الله المختار" ترتبط بامتلاكهم لهذه الأرض. ولكن في الحقيقة أمّة الله لا تنحصر في أرض معيّنة ولا بامتلاكها لأرض بعينها.

(2) تقع هذه المغارة في مدينة الخليل في الضفة الغربية، وتُعرف اليوم بالحرم الإبراهيمي، وتحته بعض المغارات وفيها دُفن إبراهيم وسارة، وإسحق ورفقة، ويعقوب وليئة، وفق السجلّات التاريخية.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 24: 1–38.

(4) على الأرجح طلب إبراهيمعليه السلام هذا القسم من خادمه لأنّ الكنعانيين كانوا يعبدون الأصنام ويرتكبون الفواحش، فلم يرغب أن يزوّج ابنه من بنات كنعان.

وأخذ الخادم عشرة من إبل النبي إبراهيم محمّلةً بأنواع شتى من الهدايا الثمينة واتّجه إلى بلاد آرام الّتي تقع ما بين النّهرين في سوريا، حيث يسكن ناحورُ أخو النبي إبراهيم. وبعد رحلة طويلة، وعند الغروب وصل الخادم إلى مشارف البلدة وأناخ جماله على مقربة بئر، وتزامن ذلك مع موعد خروج النساء للتزوّد بالماء. فتوجّه بالدعاء إلى الله: «اللّهُمّ يا مَن يعبدك مولاي إبراهيم، أَتوسّل إليك اليوم أن تيسّر أمري وتحسن إليه. أنا واقفٌ الآن بجانب البئر، وها أن بنات البلدة مقبلات لجلب الماء، اللهمّ يا ربّي دلّني بإشارة منك على زوجة ابن سيّدي إبراهيم، ها أَنا سأطلب من إحداهن أن تسقيني من جرّتها، فإذا قالت: تفضّل يا سيّدي واشربْ وسأسقي جمالك أيضا، كانت تلك إشارة منك على أنّها من اخترتها لعبدك إسحَق. وبذلك أتيقّن أنّك حقّقت وعدك لمولاي».

وما كاد يفرغ مِن دعائه حتّى شاهد رِفْقَة ابنة بتوئيل ابن مِلْكَة زوجة ناحور أخ إبراهيم، تقبل وجرّتها على كتفها. وكانت رِفقة رائعةَ الجمال، عذراء لم يمسّها رجل. وحين ملأت جرّتها من البئر أسرع إليها الخادم وقال: «أرجوك، اسقيني شربة ماء مِن جرّتك». فقالت: «تفضّل يا سيّدي اِشرب». وفي الحال أنزلت جرّتها من كتفها وسقتْه. ولمّا شرب قالت له: «سأسقي جمالك أيضا حتّى ترتوي». وأفرغت جرّتها في الحوض وظلّت تملؤه ماءً إلى أن شربت كل الجمال، وكان الخادم يراقبها في صمت وإمعان ليتأكّد إن كان الله قد وفَّقه في مهمّته.

ولمّا شربت الجمال قدّم الرجل لِرِفقة خُزامةً من ذهب وسوارين كبيرين من ذهب وقال لها: من يكون أبوك؟ وهل في بيته مكان نبيت فيه؟» فقالت له: «أنا بنت بَتوئيل ابن مِلْكة وناحور». وأضافت قائلة: «عندنا مكان تبيت فيه وكثيرٌ من التّبن والعلف لجمالك». فركع الرجل وسجد لله وقال: «تبارك اللهُ الّذي يعبده مولاي إبراهيم، إنّه لم يتخلَّ عن كرمه ووفائه له، فهداني في طريقي إلى بيت إخوته».

فأسرعت رِفقة إلى بيت أُمّها وأخبرتها بكلّ ما حصل لها. وعندما رأى أخوها لابان الخُزامةَ والسوارين في يد أُخته وعلم بما دار بينها وبين الرجل، خرج مسرعًا إلى البئر، فوجد الرجل واقفًا هناك عند الجمال. فقال له: «تفضّل يا مَن باركه الله،

لماذا تقف خارجًا؟ لقد رتّبتُ لك مكانا في البيت وهيّأتُ للجمال مبيتًا!» ورافقه الخادم، وعند الوصول إلى البيت أنزل خدم لابانُ الأحمال عن الجمال وجهّزوا مكانًا تبيت فيه وقدموا لها العلف، وأحضروا ماء للضيوف ليغسلوا أرجلهم.

وحين وضعوا الطّعام أمام الضيوف قاطعهم خادم النبي إبراهيم قائلا: «لن آكل حتّى أُخبركم بمهمّتي». فأجابه لابان: «أخبرنا إنّا لك مصغون». فقال: «أنا خادم إبراهيم، قد أنعم الله عليه بنعم كثيرة فأصبح غنيًّا. لقد أنعم عليه تعالى بأغنام وأبقار وفضّة وذهب وعبيد وجواري وجمال ودواب. وأنجبت له زوجته سارة ابنًا رغم تقدّمها في السن، فجعله مولاي إبراهيم وريثًا لجميع ماله. واستحلفني قائلا: لا تتّخذ لابني زوجةً من بنات الكنعانيّين الّذين أقيم في أرضهم، بل عليك أن تذهب إلى عشيرتي وتختار منها زوجةً لابني.

إسحق عليه السلام يطلب يد رفقة[1]

وقد جئتُ اليوم إلى البئر وتوجّهت بالدعاء إلى الله: «اللّهُمّ يا من يعبدك مولاي إبراهيم، أتوسّل إليك أَن توفّقني في المهمّة الّتي جئتُ من أجلها. إنّي واقفٌ عند البئر، والفتيات مقبلات عليها، وإنّي سأطلب من إحداهنّ أن تسقيني من جرّتها، فإن أجابتني: «تفضّل، اشربْ، وسأسقي جمالك أيضا،» علمتُ أن هذه الفتاة هي من يريدها الله لابن مولاي.»

وما كدت أنْهِي الدعاء في قلبي حتّى خرجت رِفقةُ وجرّتها على كتفها، فنزلت إلى البئر لتملأها ماء. فقلتُ لها: أرجوك يا فتاة، اسقيني شربة ماء. فأسرعت وأنزلت جرّتها، وقالت: «تفضّل، اشربْ، وسأسقي جمالك أيضًا.» فشربتُ، بينما تولّت هي سقاية الجمال. فسألتُها: من يكون أبوك؟ فقالت: «أنا بنت بَتوئيل بن مِلْكَة وناحور». فوضعتُ الخُزامة في أنفها والسّوارين في يديها، وركعتُ ساجدًا لله الّذي يعبده مولاي إبراهيم وسبّحتُ بحمده لأنّه هداني السبيل السوي لأختار زوجة لابنه من عشيرته. فإن كنتم مخلصين لمولاي إبراهيم وتظهرون له الوفاء، أخبروني الآن إن كنتم تقبلون ابنه زوجًا لابنتكم، وإن كنتم لا تقبلون بذلك فأخبروني حتّى أرى لي

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 24: 42–54.

وجهةٌ أخرى». فأجاب لابانُ وبَتوئيلُ: «لقد صدر هذا الأَمر من الله، فلا يمكننا أن نُعقِّب على ما أمر الله به! هذه رفقةُ أمامك، خُذها معك لتكون زوجةً لابن مولاك كما أمر الله». فلمّا سمع خادم النبي إبراهيم كلامهم سجد لله تعالى شُكرًا. وقدم لِرفقة ثيابًا وحليا من ذهب وفضّة، وأهدى أخاها وأُمّها تُحفًا ثمينةً.

وأكل الجميع وشربوا وباتوا ليلتهم. وقال الرجل في الصباح: «دعوني أَعُدْ إلى مولاي».

زواج إسحق ورفقة[1]

فصرفوا رفقةَ صحبة مُرضعتها وخادم النبي إبراهيم ورجاله. وطلبوا من الله أن تحلّ البركة على رفقة أختهم قائلين: «فليكثر الله ذريتك حتّى يصيروا أُلوفًا مُؤلَّفةً، وليجعل نسلكِ يستولي على مدن أَعدائهم».

فركبت رِفقة ومرضعتها وبعض جواريها الجمال وتبِعْنَ الرّجل ومضوا جميعًا.

وكان النبي إسحَق في تلك الفترة يقيم بصحراء النَّقب في جنوب كنعان، بمكان قريب من بئر الحي البصير. وذات مساء، وبينما كان إسحق عليه السلام يتجوّل في الحقل، رأى موكبًا من الجمال يقبل نحوه. وعندما رأت رفقة إسحَق عليه السلام نزلت عن الجمل. وسألتِ الخادمَ: «مَن يكون هذا الرجل القادم ليستقبلنا؟» فأجابها: «هو مولاي إسحَق». فأخذت رفقةُ البُرقع وسترت وجهها. وروى الخادمُ للنبي إسحَق كلّ ما جرى له، فأدخل إسحَق عليه السلام رفقة إلى خباء أمّه سارة وتزوّجها، وأحبّها. أمّا رفقة فقد كانت خير عزاء بعد فقدان أُمّه.

إرسال أبناء هاجر وقطورة إلى الشرق[2]

وقبل وفاة النبي إبراهيم، قدّم لأبنائه من زوجتيه هاجر وقَطورة عطايا، ثمّ أرسلهم بعيدًا إلى البلاد التي تقع شرقًا، وجعل ابنه إسحق وريثه.[3]

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 24: 59–67.

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 25: 5–6.

(3) كان الرجل في عصر النبي إبراهيم يتمتّع بحق يجعله يختار ابنا واحدا من إحدى زوجاته ليكون وريثا له، حتى وإن كان هذا الوريث آخر أبنائه من كلّ زوجاته. لذلك جعل النبي إبراهيم إسحق وريثه الوحيد، وفي المقابل أبدى محبّته لبقية أبنائه فأعطاهم هدايا ثمينة. ولم ينقطع الإخوة عن بعضهم بل تواصلت علاقاتهم إذ دفن إسماعيل وإسحق أباهما إبراهيم معا.

ذرية إبراهيم عليه السلام من قطورة

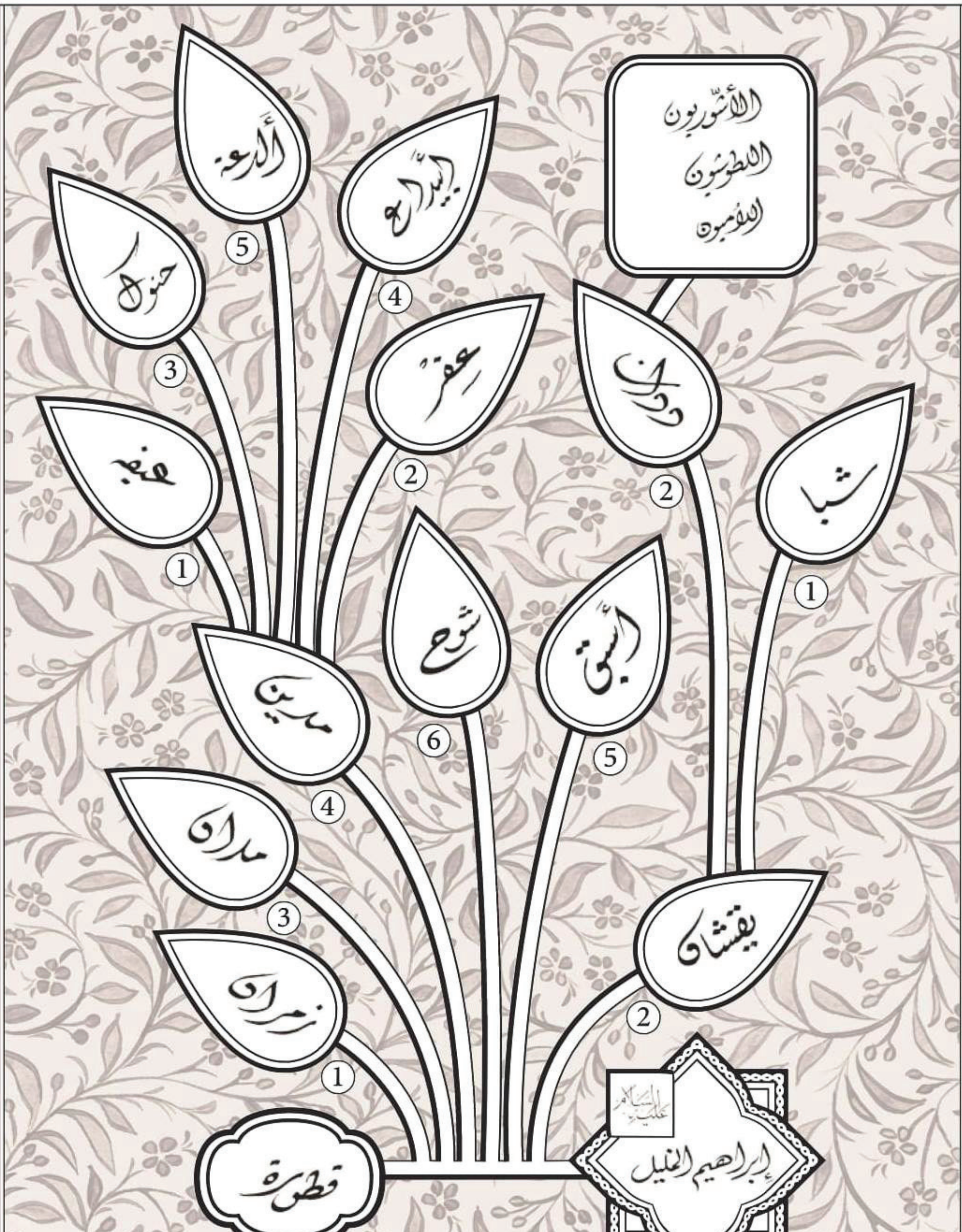

وفاة إبراهيم عليه السلام[1]

وعاش النبي إبراهيم مئة وخمسًا وسبعين سنة. ثمّ توفّي شيخا بحُسن الخاتمة وانضمّ إلى أسلافه الراحلين، فدفنه ابناهُ إسحَق وإسماعيل (عليهما السّلام) في مغارة المَكفيلة قُرب مَمْرَا، في حقل عَفرون بن صوحَر الحثِّيّ، وهو الحقل الّذي دفن فيه النبي إبراهيم زوجته سارة، إذ اشتراه مِن الحِثّيّين. وبعد ذلك بارك الله إسحَق عليه السلام الّذي عاد ليقيم عند بئر الحيّ البصير.

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 25: 7-11.

قصّة النبي يعقوب عليه السلام

مدخل إلى قصّة النّبي يعقوب

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ﴾
[سورة الأنبياء: 72]

يُرفع شأن النبي يعقوب كثيرا في الدّيانات الإبراهيمية لكونه أحد الأنبياء والرّسل الأوّلين في الإيمان التوحيدي. وكثيرا ما يأتي ذكره مرفوقا بذكر إبراهيم وإسحق للإشارة إلى هذه الحقيقة كما نرى في سورة يوسف ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ [سورة يوسف: 38].

يعقوب هو ابن إسحق وزوجته رفقة وهو حفيد النبي إبراهيم، وعمّه إسماعيل وهو يصغر أخاه التوأم العيص. ورزق النبي يعقوب باثني عشر ابنا من زوجتيه ليئة وراحيل ووصيفتيهما بلحة وزلفة اللتين أصبحتا من زوجاته أيضا. وأبناؤه هم: رأوبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ودان، ونفتالي، وجاد، وأشير، ويسّاكر، وزبولون، ويوسفعليه السلام وبنيمين. ولا نجد ذكرا لبنات يعقوب في التوراة باستثناء ابنته دينا.

أقام الله ميثاقا مع النّبي إبراهيم وأكّده فيما بعد لابنه إسحق وحفيده يعقوب على التوالي. وأعطى الله أيضا وعودا عظيمة لإسماعيلعليه السلام تشبه إلى حد كبير وعود الله في الميثاق الذي أكّده الله لإسحق. وأظهر الله فضله الكبير للنّبي يعقوب إذ رعاه

وحفظه، فهو ﴿لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [سورة ص: 47]. وتجدر الإشارة إلى ذكر الملاك الذي أرسله الله حتى يتصارع مع يعقوب ولكن الملاك لم يغلب يعقوب. لذلك أعلن الملاك أن الله منحه لقب إسرائيل ومعناه أمير الله.

يحتلّ النّبي يعقوب مكانة مرموقة بما أنّ أبناءه الاثني عشر أصبحوا أسلافا لعشائر بني يعقوب وهم الأسباط، ويسمّى هذا الشعب أيضا آل يعقوب وبنو إسرائيل. وصار اسم كل هذه العشائر الاثني عشر بأسماء أبناء يعقوب.

وبسبب مجاعة كبيرة حلّت على بلاد كنعان وهي لبنان وفلسطين التجأ النّبي يعقوب إلى مصر مع أبنائه وأهل بيته عند دعوة ابنه يوسف عليه السلام الذي أصبح واليا على مصر. وبقي يعقوب في مصر 17 سنة، وتوفي وعمره 147 سنة. وأعاد النّبي يوسف رفات يعقوب إلى فلسطين حيث دفن في مأتم ضخم رافقه فيه العديد من الوجهاء المصريين. وهو مدفون في مغارة المَكفيلة التي تقع فيما يعرف الآن بالحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل إلى جانب إبراهيم وسارة وإسحق ورفقة وزوجته الأولى ليئة.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النبي يعقوب عليه السلام

نسل إسحق عليه السلام[1]

وهنا سجلّ نسل النبي إسحَق وهو ابن إبراهيم عليه السلام. وعندما بلغ أربعين سنة تزوّج من رِفقة بنت بَتوئيل أُخت لابان، مِن بلاد آرام الّتي تقع في بلاد الرّافدين في سوريا. وتضرّع النبي إسحَق إلى الله من أجل زوجته رِفقة لأنَّها كانت عاقرًا، فاستجاب الله لدعائه، وحبِلت رفقة بولدين. وتصارع الولدان في بطنها فقالت: «ما الذي يحدث لي؟» وسألَت الله أن يدلّها. فأوحى الله إليها: «في بطنكِ أُمّتان،[2] ومنكِ يتفرّع شعبان، شعب يقوى على الآخر، والكبير يخضع للصغير».[3]

فلمّا أنجبت التوأمَين خرج الأوّل يميل لونه إلى الحُمرة[4] تغطّيه فَروة شعر، فسمّوه العيص. ولحق به أخوه وكانت يده قابضة على عَقب العيص، فسمَّوه

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 25: 19–28.

(2) يشير هذا الوحي إلى العداوة التي ستكون بين الأخوين خلال حياتهما، وأيضا إلى العداوة بين ذريتهما، فكان شعب أدوم (ذرية العيص) وشعب بني يعقوب في عداء كما تذكر التوراة.

(3) كانت رفقة من بين النساء اللواتي تقبّلن الوحي من عند الله حسب الكتب السماوية، شأن مريم أمّ المسيح وهاجر أمّ إسماعيل.

(4) كلمة "أسمر" تدل في التوراة على معنيين: أسمر، أحمر. والحروف المكوّنة لهذه الكلمة يشبه صوتها كثيرا اسم أدوم الذي هو اسم آخر للعيص وذريته الأدوميين.

يعقوب.[1] وكان إسحَق عليه السلام قد بلغ الستِّين حين أنجبت له رِفقة التوأمين.

وكبُرَ الولدان، وأصبح العيص صيَّادًا ماهرًا يحبّ البراري، في حين ظلّ يعقوب عليه السلام مُسالمًا يلزم الخيام. وأحبّ إسحَق العيص لأنّه استطاب صيده، في حين أحبت رفقةُ يعقوبَ عليه السلام.

العيص يتنازل عن امتيازاته كابن بكر[2]

وصادف أن طبخ يعقوب عليه السلام طبيخًا، ولمّا عاد العيص مِن البادية منهكا مِن الجوع قال للنبي يعقوب: «أطعمني مِن هذا الأُدم، إني أتضوّر جوعًا». لذلك قيل له أَدوم. فقال له يعقوب عليه السلام: «إن كنتَ تتنازل لي عن امتيازاتك باعتبارك الابن البكر، أُعطيك من هذا الطبيخ». فأجاب العيص: «إنّ الموت ليتربّص بي، فماذا أستفيد من هذه الامتيازات؟» فقال النبي يعقوب: «أقسم لي أولاً». فأقسم وتنازل ليعقوب عن امتيازاته كابن بكر.[3] فأعطى النبي يعقوب العيص خبزًا وطبيخًا مِن العدس، وبعد أن أكل وشرب انصرف العيص دون أن يبالي بخسارة امتيازاته كابن بكر.[4]

النبي إسحق يطلب بركة الله على ابنه يعقوب[5]

ولمّا تقدّم إسحَق عليه السلام في السنّ وكَلّ بصره، استدعى ابنه الأكبر العيص، وقال له: «يا بُنيّ» فأجاب: «نعم يا أبي؟» فقال عليه السلام: «لقد صرتُ شيخًا كما ترى ولا أعرف متى

(1) اسم يعقوب يشترك مع كلمة عقب في الجذر. ويوجد تعبير مجازي في التوراة: "قبض على عقبه" أي أخضعه.

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 25: 29–34.

(3) استغل النبي يعقوب الظرف عندما كان أخوه العيص خائرا من الجوع وساومه في امتيازاته كابن بكر، فاستخفّ العيص بهذه الامتيازات المحمّلة وعودا وبركات من الله امتدّت من جده إبراهيم. انظر سورة الصافات: 113.

(4) لقد كشف الله لرفقة أنّ الابن البكر سيخضع للابن الأصغر كما جاء أعلاه في هذه القصّة. فالله اختار أن تنتقل بركاته ووعوده لا عن طريق البكر كما جرت العادة بين الناس في ذلك العصر، بل عن طريق الابن الأصغر. وهكذا يشير الله إلى أن اختياره وبركاته لا يتقيّدان بعادات البشر وتوقّعاتهم.

(5) استنادا إلى كتاب التكوين 27: 1–40.

أموت. خُذ أدوات الصّيد: سهامك وقَوسك، واخرجْ إلى البرّيّة وتصيَّد لي صيدًا، وجهِّز لي طعامًا شهيًّا كما أشتهي وأحضره إلي لآكل منه، فأنت ابني البكر وعليّ أن أطلب لك بركة من الله قبل أن أموت».(1)

وسمعت رفقة النبي إسحق عندما طلب من ابنه العيص ما طلب. فلمّا خرج العيص إلى البرّيّة ليصطاد صيدًا لأبيه، قالت رِفقة لابنها يعقوب عليه السلام: «سمعتُ أباك يقول لأخيك العيص: جئني بصيد وجهّز لي أطعمةً لآكل منها وأطلب لك بركة من الله في محضره تعالى قبل وفاتي. والآن يا بُنّي، أَصْغ إليّ جيّدًا واعملْ بما أُوصيك به. اِذهب إلى الغنم وخُذ لي منها جديَيْن مِن خيرة المعز، لأجهّزهما أطعمةً لأبيك كما طلب. فتقدّم أنت الطعام إليه ليأكل منها ويطلب لك بركة الله قبل وفاته».(2)

فقال يعقوب عليه السلام لأُمّه رِفقة: «ولكنّ أخي العيص رجل أشعر وأنا رجل أملس. ماذا لو جسّني أبي فوجدني مخادعًا؟ ألا ينزل عليّ لعنة لا بركة؟» فقالت له أمّه: «فلتتنزّل اللعنة عليّ يا بُنّي لا عليك، أصغ لكلامي واذهب وأحضر لي الجديَيْن.» فجاء بهما إلى أُمّه، فجهزّت الأطعمة الّتي يشتهيها أبوه. وأخذت رِفقة أفخر ثياب ابنها العيص الموجودة عندها في البيت، وألبستها ليعقوب ابنها الأصغر، وكست يديه والجانب الأملس مِن عنقه بجلد المعز. وناولت رِفقة ابنها يعقوب عليه السلام الأطعمة الّتي جهّزتها والخبز، فدخل على أبيه وقال: «يا أبي»، فأجابه: «نعم، مَن أنت يا بُنيّ؟» فقال له النبي يعقوب: «أنا العيص ابنك البكر، وقد فعلتُ كما طلبتَ، قم واجلس وكلْ من صيدي ثمّ ادعُ لي بالبركة». فقال له إسحَق عليه السلام: «كيف وجدتَ صيدًا بهذه السرعة يا بُنّي؟» فأجابه: «الله ربّك وفّقني ويسّر لي». فقال له: «تعال، اقتربْ منّي لأَجسَّك يا

(1) ظنّ النبي إسحق أنّ العيص ابنه البكر هو من يجب أن يرث بركات الله التي أعطاها لأبيه إبراهيم عليه السلام. ولا وجود لإشارة واضحة إن كان إسحق يعلم بما أوحاه الله إلى رفقة بأن الابن البكر سيخضع للابن الأصغر. وقد سبق أن تنازل العيص عن امتيازاته كابن بكر إلى يعقوب ولم يخبر أباه بذلك، بل فضل أن يخفي استخفافه ببركات هذه الامتيازات.

(2) ربّما تذكّرت رفقة ما جاء في الوحي قبل ولادة يعقوب والعيص، بأنّ البكر سيخضع للأصغر، فاتّفقت مع يعقوب على حيلة لكي تضمن له الحصول على امتيازات الابن البكر بما في ذلك البركات كما جاء في وعد الله.

بُنّي، فأتأكّد إن كنتَ فعلاً العيص ابني». فتقدّم يعقوب إلى إسحَق أبيه، فجسّه وقال: «الصوت صوت يعقوب، ولكنّ اليدَين يدا العيص». ولم يعرفه لأنّ جلد الماعز غَطّى يديه فأصبحتا مثل يديْ أخيه العيص. فعزم على طلب بركة من الله له قائلاً: «هل أنت حقًّا ابني العيص؟» فأجابه: «نعم». فقال عليه السلام: «إذن قدِّم لي يا بُنّي من صيدك لآكُل وأطلب بركة الله لك». فقدّم له الطعام فأكل، وأعطاه شرابًا فشرب. وقال له إسحَق عليه السلام: «اقترب مني وقبّلني يا بُنّي». فتقدّم وقبّله، فشمّ النبي إسحَق رائحة ثيابه ودعا له بالبركة قائلا:

"ها رائحة ابني

كرائحة حقلٍ باركه الله

يعطيك الله مِن ندى السماء

ومِن خير الأرض

فيضًا مِن الحنطة والشراب!

لتخدمك شعوبٌ

وتنحني أمامك!

سيّدًا تكون لإخوتك،

وأبناء أُمّك ينحنون أمامك.

ومَن يدعو عليك باللعنات يتبعه الله بلعنة،

ومن يدعو لك بالبركات يمنحه الله بركة!

وما إن فرغ إسحَق عليه السلام مِن كلامه، وخرج ابنه يعقوب من عنده، حتّى عاد أخوه العيص من الصّيد. فجهّز بدوره أطعمةً وأحضرها لأبيه قائلا: «تفضّل يا أبي، كُلْ من صيدي، واطلب لي بركة من الله». فقال له أبوه: «مَن أنت؟» قال: «أنا العيص ابنك البكر». فارتعش إسحَق عليه السلام ارتعاشًا شديدًا وقال: «فمَن الّذي صاد صيدًا وجاءني به قبلك إذن، فأكلتُ منه كلّه قبل أن تجيء وطلبتُ له بركة؟ نعم، طلبت له البركة

فحلّت عليه البركة!» فلمّا سمع العيص كلام أبيه صرخ عاليًا بمرارة قائلا: «وأنا يا أبي؟ ادْعُ لي يا أبي بالبركة أيضًا!» فأجابه: «سبقك أخوك ومكر بي وأخذ بركتك». فقال العيص: «يعقوب! يعقوب يتعقّبني بالحيلة! استغفلني مرّتين، وأخذ مكانتي. في المرّة الأولى أخذ امتيازاتي كابن بكر، وها هو الآن يأخذ بركتي. أبي هل احتفظتَ لي ببركة غيرها؟» فأجابه إسحَق عليه السلام: «إنّي جعلته سيّدًا عليك، وجعلتُ جميع إخوته خدّامًا له وأمددته بالحنطة والشراب، فماذا تبقّى لك يا ابني؟» فقال العيص: «أعندْك بركة واحدة فقط يا أبي؟[1] أرجوك يا أبي ادعُ لي بالبركة أنا أيضًا!» وأجهش العيص بالبكاء. فأجابه أبوه عليه السلام:

"ها مسكنُك يكون في أرض قاحلة
لا يهطل عليها ندى السّماء.
بسيفك تعيش وأخاك تخدم
ولكن حين تثور عليه تكسر عن عنقك نيره».[2]

يعقوب عليه السلام يهرب من أخيه العيص[3]

ونما الحقد في قلب العيص بسبب البركة التي أخذها منه النبي يعقوب، فقال في نفسه: «قريبًا يموت أبي، وبعد أيام الحداد سأقتل أخي يعقوب». فبلغ رِفقةَ كلام العيص، فاستدعت يعقوب عليه السلام وقالت له: «أخوك ينوي قتلك. والآن اسمعْ كلامي يا بُنّي، اُهرب حالاً إلى أخي لابان في حاران، وأقم عنده أيّامًا قليلةً حتّى يهدأ غضب

(1) اعتقدت الشعوب القديمة وجود آلهة على كل بلد وعلى كل شعب، وفكرة الإيمان بوجود إله كوني واحد بدأت تنمو شيئا فشيئا لدى الأنبياء وغيرهم من البشر. ونحن على يقين أن بركة الله لا تنقطع ولا تحد، أمّا إسحق فاعتقد أنه لا يمكنه طلب بركة أخرى لأن في ذهنه أن بركة الله محدودة وتوهب مرة واحدة.

(2) هيمن بنو يعقوب على ذرية العيص أي الشعب الأدومي فترة طويلة من الزمن، ولم يحققوا استقلالهم إلاّ في عصر الملك يهورام أحد أحفاد النبي سليمان، وبهذه الطريقة تحققت نبوّة إسحق.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 27: 41–46.

أخيك. ومتى سكن غضبه ونسي ما فعلتَه به، أبعث إليك لتعود إلى هنا. إنّي لا أُريد أن أفقدكما أنتما الاثنين في يوم واحد!»

وقالت رِفقة لإسحَق عليه السلام: «البنات الحِثّيّات ومنهنّ زوجات ابني العيص جعلوني أكره حياتي، فإن اتّخذ يعقوب زوجة من بنات الكنعانيين أيضًا، فالموت يكون لي خيرًا من الحياة، فخير لي أن أموت».

النبي يعقوب عند لابان[1]

فاستدعى إسحَق يعقوب ودعا له بالبركة من الله وأوصاه قائلا: «إيّاك أن تتزوّج بإحدى بنات الكَنعانيين، بل اذهبْ إلى بلاد الرافدين إلى دار جدّك بَتوئيل، وتزوّج من إحدى بنات خالك لابان. فليبارك اللهُ القويّ المتين مسعاك ويرزقك بأبناء كثيرين، وليكثرهم ليصبحوا شعوبًا عديدين. ويعطِك أنت ونسلك البركة الّتي أعطاها لإبراهيم، فتكون البلاد التي وهبها الله لإبراهيم التي تعيش فيها الآن غريبًا، مُلكًا لك.»[2]

وأرسل إسحَقُ يعقوب، فمضى إلى شمال بلاد الرافدين، حيث يقيم لابان ابن بَتوئيل الآراميّ، أخو رِفقة أُمّ يعقوب والعيص. وبلغ العيص أنّ إسحَق عليه السلام طلب من الله بركة ليعقوب وأرسله إلى بلاد الرافدين ليتزوّج بامرأة من هناك، وأنّه حين دعا له أوصاه قائلا: «إيّاك أن تتزوّج بإحدى بنات الكنعانيين». وأنّ يعقوب عليه السلام أطاع والديْه وذهب إلى بلاد الرافدين. فلمّا تيقّن العيص أن أباه إسحَق عليه السلام لا يَرضى بالزواج من بنات كَنعان ذهب إلى إسماعيل عمّه عليه السلام، وتزوّج بإحدى بناته إلى جانب زوجتيه، وهي مَحْلَة بنت إسماعيل بن إبراهيم وأخت نابت.

أمّا النبي يعقوب عليه السلام فغادر بئر السبع متّجهًا إلى حاران، ووصل عند الغروب إلى موضع رأى أن يبيت فيه، فأخذ حجرًا من حجارة الموضع ووضعه تحت رأسه ونام. وفي المنام جاءته رؤيا وفيها رأى سُلّمًا يمتدّ من الأرض إلى السماء، وملائكة

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 28: 1–22.

(2) انظر المقال في هذا المجلد: «مفاهيم الشعب المختار وأماكنه وأوقاته المقدسة».

الله تصعد عليه وتنزل. وتجلّى الله في أعلى درجة من السُلّم وأوحى إليه: «أنا الله ربّ أبيك إبراهيم وربُّ إسحَق! الأرض الّتي تستلقي عليها الآن أهبها لك ولنسلك. وأجعل نسلك كتراب الأرض لا يستطيع أحد عدّه، وسينتشر غربًا وشرقًا وشمالاً وجنوبًا، وستنعم بك وبنسلك شعوب الأرض كلّها ببركاتي،[1] وها أنا معك، أحفظك أينما اتّجهتَ. وإنّي لَرَادك ذات يوم إلى هذه الأرض،[2] فلا أتخلّى عنك حتّى أفيَ لك بكلّ ما وعدتُك به».

فأفاق النبي يعقوب من نومه وقال: «إنّ الله في هذا المكان حقًّا، وأنا لم أعلم ذلك!» فخاف وقال: «ما أعظم هيبة هذا الموضع وأرهبه! ما هذا إلاّ بيت الله، وباب السّماء!»[3]

وفي الصّباح الباكر أخذ يعقوب عليه السلام الحجر الّذي وضعه تحت رأسه ونصبه عمودًا تذكاريًّا، وصبّ عليه زيتًا كعلامة تميّز هذا المكان.[4] وكان هذا المكان يدعى لوز لكنه غيّر تسميته إلى بيت إيل.[5]

ونذر النبي يعقوب لله قائلاً: «إن كان الله معي حافظا وحاميا في رحلتي هذه،

---

(1) كان النبي يعقوب يتوقع أن الله سيباركه مع نسله لكن الجديد في الوحي أن الله بارك كل شعوب الأرض.

(2) انظر المقال «مفاهيم الشعب المختار وأماكنه وأوقاته المقدسة» في هذا المجلد. تحققت هذه النبوءة ولا نتوقع أنها ستتم مرة أخرى أو بطريقة مشابهة. انظر سفر التكوين، الفصل 31.

(3) تتحقق رؤيا النبي يعقوب في مجيء السيد المسيح، الذي أشار إلى نفسه مخاطبا أتباعه كما يلي: ((هل آمنتَ بي لمُجَرّدِ أن أخبَرتُكَ أنّني رأيتُكَ تَحتَ شَجَرةِ التِّينِ؟ سَوف تَشهَدُ ما هو أعظَمُ مِن ذلِكَ وأبهَى! الحقَّ أقولُ لكُم، سترَونَ السَّماءَ في رُؤيا وقد انشَقَّت ومَلائكةَ اللهِ صاعدةٌ هابِطةٌ على سَيِّدِ البَشَر)) [الإنجيل، يوحنّا 1: 50–51].

(4) ساد تقليد في الشرق الأدنى القديم أن ينصب الناس أعمدة تذكارية تذكّرهم بأحداث هامة، وسكب النبي يعقوب الزيت على العمود كرمز لطهارة هذا المكان وقدسيته.

(5) كشف الله في هذه القصة لبني يعقوب كيف رضي الله عن جدهم النبي يعقوب وتقبّله رغم ضعفه وزلاته. وتشرح القصة أيضا كيف تغيّر اسم إحدى أهم مدنهم من "لوز" إلى "بيت إيل". وتقع بيت إيل 5 كيلومترات شمال رام الله في الضفة الغربية حيث موضع قرية بيتين اليوم.

ورزقني مأكلاً وملبسًا، وأعادني سالمًا إلى دار أبي، سأتّخذه ربًّا لي دون شكّ! وسأجعل من موضع هذا الحجر الّذي نصبتُهُ عمودًا تذكاريًّا، مكانًا لعبادة الله، وسأقدّم له عُشر كلّ ما يرزقني به تعالى».

لقاء يعقوبعليه السلام براحيل[1]

وغادر يعقوبعليه السلام ذلك الموضع ومضى في رحلته إلى أرض المشرق. ورأى في طريقه حقلاً فيه بئر يغطّي فمها حجر ثقيل وتحيط بها ثلاثةَ قطعان من الغنم الرابضة تنتظر الرّعاة ليسقوها. وكان من عادة الرعاة أن يجمعوا القطعان كلّها هناك ويُدحرجوا الحجر عن فم البئر، فيسقوا الغنم ويعيدوا الحجر إلى موضعه. فَسألهم النبي يعقوب قائلا: «مِن أين أنتم يا إخوتي؟» فأجابوا: «من حاران». فقال لهم: «هل تعرفون لابان حفيد ناحور؟» فأجابوا: «نعم، نعرفه». فقال لهم: «هل هو بخير؟» أجابوا: «هو بخير، وانظر راحيل ابنته مقبلة الآن مع الغنم». فقال لهم: «لا يزال النهار طويلاً، ولم يحن بعد وقت تجميع المواشي، فلماذا لا تسقون الغنم وتعيدونها إلى المرعى؟» فأجابوه: «لا يمكننا فعل ذلك حتّى تجتمع كل القطعان فنسقيها».

وبينما هو يحادثهم أقبلت راحيل مع أغنام أبيها لابان. فراحيل راعية لغنم أبيها. فلمّا رآها يعقوب مع أغنام خاله لابان سارع نحو البئر ودحرج الحجر عنها وسقى الأغنام. وقبّل يعقوبعليه السلام راحيل وبكى من شدّة الفرح، وأخبرها أنّه ابن عمّتها رِفقة، فأسرعت وأخبرت أباها لابان. فلمّا علم لابان بخبر قدوم يعقوب ابن أخته سارع للقائه فعانقه وقبّله وجاء به إلى بيته. وأخبر يعقوبُعليه السلام لابان بكلّ ما جرى له في رحلته، فأجابه لابان: «أنت حقًّا مِن لحمي ودمي، فأقم عندي». فأقام النبي يعقوب عنده.

زواج يعقوبعليه السلام[2]

وبعد مرور شهر، صارح لابانُ يعقوبَعليه السلام قائلا: «لا يصحّ أن تخدمني مجّانًا

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 29: 1–14.
(2) استنادا إلى كتاب التكوين 29: 15–30.

لأنّك قريبي. أخبرني ما هي الأجرة الّتي تريدها؟» وكان للابان ابنتان، اسم الكبرى لَيئة واسم الصّغرى راحيل. وكانت لَيئة ساحرة العينين، أمّا راحيل فكانت حسناء وقوامها فتّان. فأحبّ يعقوب عليه السلام راحيل، وصارح لابان قائلاً: «أخدمك سبع سنين إن كنتَ تزوّجني راحيل ابنتك الصغرى». فقال لابان: «أن تكون زوجتك أفضل مِن أن أُزوّجها لرجل آخر. فأقمْ عندي». فخدمه النبي يعقوب سبع سنين مقابل أن يفوز براحيل، ولأنّه كان مولعا بحبّها فقد بدا له أن هذه المدّة مرّت بسرعة.

وبعد مضي الوقت المحدّد، حان موعد زواج يعقوب عليه السلام براحيل، فقال للابان: «لقد انقضت المدّة الّتي اتّفقنا عليها، فدعني أتزوّج راحيل». فدعا لابان كُلّ الجيران وأقام لهم وليمةً، وعند هبوط الليل أخذ لابان ابنته لَيئة بدل راحيل وزفّها إلى يعقوب عليه السلام فعاشرها.[1] وأعطى لابان جاريته زِلْفة لابنته لَيئة. فلمّا طلع الصباح عرف النبي يعقوب أنّها لَيئة، فقال للابان: «ماذا فعلتَ بي؟ أما خدمتُك لتزوّجني راحيل؟ فلماذا خدعتني؟» فأجاب لابان: «ليس من عادتنا أن نزوّج البنت الصغرى قبل الكبرى. أَتمم أُسبوع زواجك، وبعد ذلك نزوّجك الصغرى أيضًا شرط أن تخدمني سبع سنين أخرى». فوافق يعقوب عليه السلام وبعد أُسبوع تزوّج راحيل أيضًا.[2] وأعطى لابان جاريته بِلْهة لراحيل. وتزوّج النبي يعقوبُ راحيل وأحبّها أكثر من لَيئة، ومن أجلها عاد للابان فخدم عنده سبع سنين أخرى.

بنو يعقوب[3]

ورزق الله ليئة أولادًا عندما رأى أنّها غير محبوبة، أمّا راحيل فجعلها عاقرًا. وعندما أنجبت ليئة ابنها الأول سمّتْه رَأوبين (ومعناه: انظروا ابني)، لأنّها قالت: «رأى

(1) توقع سيدنا إسحق الخديعة من بني كنعان فأرسل ابنه ليختار زوجة له من عشيرته لكنه خُدع أيضا وبدل السبع سنوات أمضى 14 سنة وبدل الزوجة تزوج اثنتين وهذا يؤكد أنه لا وجود لشعب أفضل من شعب.

(2) قبل نزول شريعة التوراة كان الرجل يتزوّج بأختين في الآن نفسه. وبعد نزول التوراة نهت الشريعة عن هذه العادة.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 29: 31–35.

الله عنائي، والآن سيحبّني زوجي». وبعد فترة أنجبت ابنها الثاني، وسمّتْه شِمعون (ومعناه: سميعٌ) لأنّها قالت: «سمع الله أنّي غير محبوبة، فرزقَني ولدًا آخر». وأنجبت ابنها الثالث وسمّتْه لاوي. لأنها قالت: «الآن يُلْوَى قلب زوجي نحوي، لأنّي ولَدتُ ثلاثة أولاد». وأنجبت ولدًا رابعًا، سمّتْه يَهوذا (ومعناه: الحمد)، لأنّها قالت: «هذه المرّة أحمد الله». وبعدها توقّفت عن الإنجاب.

يعقوب يُرزق بمزيد من الأولاد[1]

ولمّا رأت راحيل أنّها لم تنجب ليعقوب عليه السلام غارت من أُختها والتمست منه قائلة: «سأموت إن لم تعطني أولادا!» فاغتاظ يعقوب عليه السلام على راحيل قائلا: «إنّما الأولاد من الله، لا منّي! هو الّذي حرمكِ الإنجاب». فأجابته: «اتّخذ جاريتي بِلْهة زوجةً لك، ومن خلالها أرزق أنا أيضًا بأولاد». وهكذا قدّمت راحيل جاريتها بِلْهة زوجةً ليعقوب، فأنجبت له ولدًا. فقالت راحيل: «حكم الله لصالحي! نعم، سمع دعائي ورزقني ولدًا». وسمّتْه دان (ومعناه: حَكَمَ). وأنجبت جارية راحيل ولدًا ثانيًا، فقالت راحيل: «صارعتُ أُختي صراعًا عظيما وغلبتُ». وسمّتْه نَفتالي (ومعناه: مصارعتي).

وفي الآن نفسه رأت لَيئة أنّها توقّفت عن الإنجاب، فزوّجت جاريتَها زِلفة ليعقوب عليه السلام. فأنجبت له ولدًا، فقالت لَيئة: «جيّد! كم أنا محظوظة!» وسمّتْه جاد. وبعد ذلك ولدت زِلفةُ ولدًا ثانيًا ليعقوب عليه السلام، فقالت لَيئة: «يا لفرحي وسروري، ستُهَنّئني جميع النساء». وسمّتْه أشير (ومعناه: سعادة).

وفي أحد أيّام حصاد الحنطة خرج رَأوبين إلى الحقول فوجد بعض نبات اللُّفّاح فجاء به إلى أُمّه لَيئة. فقالت راحيل لِلَيئة: «أعطيني من لفّاح ابنك». فقالت لها: «أما كفاكِ أن أخذت زوجي؟ هل تأخذين لُفّاح ابني أيضًا؟»[2] فقالت راحيل: «إذا أعطيتني

---

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 30: 1–24.

(2) اللفاح هو نبتة من فصيلة البطاطا، جذورها تشبه جسم الإنسان وثمرتها تشبه حبّة الطماطم. وظنت النساء قديما أن هذه النبتة تعمّق العشق بين الزوجين وتهب الخصوبة، لذلك تنافست نساء يعقوب في استعمالها في طعامه.

لُفّاح ابنك، ينام يعقوب عندك الليلة!» وعند الغروب، عاد النبي يعقوب من البوادي، فخرجت لَيئة للقائه قائلة: «ستنام عندي الليلة، لأنّي استأجرتك بلفّاح ابني!» فنام عندها تلك الليلة. واستجاب الله لدعاء لَيئة فأنجبت ليعقوب ولدًا خامسًا، فقالت: «جزاني اللهُ خيرًا لأنّي أعطيت جاريتي لزوجي». وسمّتْه يَسَّاكر، ومعناه: الله يجازيه. وأنجبت لَيئة ابنًا سادسًا فقالت: «لقد أكرمني الله فمنّ عليّ بأولاد، والآن يكرّمني زوجي لأنّي أنجبت له من الأولاد ستّةَ». وسمّتْه زَبولون ومعناه: تكريم. ثمّ أنجبت بنتًا سمّتها دينة.

وكان الله رحيمًا براحيل فاستجاب لدعائها وجعلها قادرة على الإنجاب، فحبلت وأنجبت ابنًا فقالت: «لقد أزال الله ذلّي». وسمّتْه يوسُف ومعناه «يضيف» وقالت: «ليرزقني الله ولدًا آخر».

ذرية يعقوب عليه السلام

هروب يعقوب عليه السلام(1)

وبلغ يعقوب عليه السلام أنّ أبناء لابان يردّدون: «لقَد أخذ يعقوب كل أملاك أبينا، وبهذه الطريقة جمع ثروته». ولاحظ النبي يعقوب أنّ معاملة لابان له قد تغيّرت ولم تعد كما كانت من قبل. فأوحى الله إلى نبيه: «عد إلى أهلك في بلادك وأكون معك خير حافظ».

فاستدعى يعقوب عليه السلام راحيل ولَيئة إلى البادية حيث توجد قطعانه، وقال لهما: «لقد لاحظتُ أنّ معاملة أبيكما لي قد تغيّرت، ولم تعد كما كانت من قبل. ولكنّ الله الّذي يعبده أجدادي كان معي خير حافظ. وأنتما تعرِفان أنّي خدمتُ أباكما بكلّ طاقتي، ولكنّه غدر بي وغيّر أُجرتي عشر مرّات. غير أنّ الله لم يسمح له بإيذائي. فعندما قال: «سأجعل أُجرتك غنمًا رقطاء». ولدت كلّها غنمًا رقطاء. وعندما قال: «سأجعل أُجرتك غنما ذات خطوط» ولدت كلّها غنمًا ذات خطوط. وهكذا جعل الله مواشي أبيكما لي. وعندما حان وقت تزاوج الأغنام، رأيتُ رؤيا في منامي، وفيها تتزاوج كلّ الذكور مع الأغنام المخططة والرقطاء البلقاء. ثمّ هتف إليّ ملاكٌ: «يا يعقوب!» فأجبت: لَبَّيك، لَبَّيك! فقال: «اُنظر، هذه الذّكور كلّها تتزاوج مع الغنم ذات الخطوط والنقط والبقع، فقدْ رأيتُ ما فعله لابان بك. وقد أرسلني الله لأخبرك بما قاله تعالى: ‹أنا الله وقد تجلّيت لك في بيت إيل حيث نصبتَ عمودًا تذكاريًّا ومسحتَه بالزّيت إكرامًا لي، ونذرتَ هنالك لي نذرًا. والآن عليك أن تغادر هذه الأرض وتعود إلى الأرض الّتي ولدت فيها›». فأجابتْ راحيلُ ولَيئةُ يعقوب عليه السلام: «نحن لا نملك نصيبًا من ميراث أبينا. وهو يعاملنا كغريبتين، قبض مهر زواجنا(2) وتخلّى عنّا دون اكتراث! وكلّ الثروة الّتي أخذها الله مِن أبينا وجعلها من نصيبك هي حقّنا وحقّ أبنائنا، فاعملْ بكلِّ ما أمرك به الله تعالى».

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 31: 1–21.

(2) كان الأب يحتفظ بمهر ابنته كضمان لعيشها إذا طلقها زوجها أو توفّي. لكن لابان لم يكترث بحال ابنتيه إذ قبض مهرهما سنوات من عمل يعقوب. وعندما تلقّى يعقوب أمرا من الملاك بضرورة ترك لابان والعودة إلى بلاده، قررت زوجتاه الذهاب معه لأنّ أباهما في النهاية لم يدّخر لهما شيئا.

فأركب النبي يعقوب أولاده وزوجاته على الجمال، وساق كلّ مواشيه وكلّ ما حصل عليه واقتناه في بلاد ما بين النهرين في سوريا، واتّجه إلى أبيه إسحَق في بلاد كنعان. وكان لابانُ يجزّ غنمه بعيدًا عنهم، فاغتنمت راحيلُ الفرصة وسرقت منه تماثيله الصغيرة التي كان يتبارك بها.[1] واستغفل يعقوبعليه السلام لابان لأنّه رحل دون أن يخبره برحيله. فأخذ كلّ ما يَملك وعبر نهر الفُرات وتوجّه إلى منطقة جِلعاد الجبليّة في المرتفعات شرق نهر الأردنّ.

لابان يلحق بيعقوبعليه السلام[2]

وبعد ثلاثة أيام بلغ لابان أنّ النبي يعقوب قد رحل، فجمع أَقاربه وانطلق معهم يطارد يعقوبعليه السلام سبعة أيّام حتّى لحق به في منطقة جِلعاد، وفي الليلة التي تفصل وصول لابان إلى يعقوب، أرسل الله إليه تحذيرا في منامه: «دع يعقوب وشأنه!» ولحق لابانُ بالنبي يعقوب الّذي نصب خيمته في الجبل، ونصب لابان وأقاربه خيمتهم هناك أيضا. وقال لابان ليعقوبعليه السلام: «لماذا تسلّلتَ من عندنا في غفلة منّا بتلك الطريقة؟ وكيف تجرأتَ وسقتَ بنتَيّ كما تساق سَبايا الحرب؟ لماذا هربتَ خفيةً وتسلّلتَ ولم تخبرني؟ لو أخبرتني برحيلك لودعتك في احتفال بهيج بالأغاني وبالدّفّ والعود. ثمّ إنّك لم تدعني أودّع أحفادي وبنتَيّ. لقد تصرّفتَ يا يعقوب بغباء. وباستطاعتي إيذاؤك، غير أنّ ربّ أبيك حذّرني البارحة في المنام وقال: «دع يعقوب وشأنه». وأعرف أنّك رحلتَ من عندي لأنّك اشتقت إلى أهل بيتك، ولكن لماذا سرقت تماثيلي الصغيرة التي أتبارك بها؟»

فأجابه يعقوبعليه السلام: «أمّا رحيلي دون علمك فقَدْ خفتُ أن تأخذ بنتيْك منّي غصبًا.

(1) طلب إسحق من يعقوب(عليهما السّلام) أن يتّخذ زوجة من عشيرته ولم يشترط إيمانها بالله وربما وجود هذه التمائم معها ومع أبيها تثبت أنهما لم يكونا مؤمنين بالله وحده. وفي تلك الفترة كانت التمائم تختلف من بيت إلى آخر ويعتقد أنها تحرس أهل البيت وتحميهم. ومن المرجح أن كل من يملك هذه التمائم يملك بركة خاصّة من الأب، ولهذا السبب سرقت راحيل تمائم أبيها لتتأكد أن يعقوب وأولاده هم من سيرثه.

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 31: 22–42.

وأمّا تماثيلك الصغيرة، فابحث عنها، فإذا وجدت شيئًا يخصّك مع أحدنا فخذه، وقدّمه دليلاً أمام الحاضرين ويكون عقاب سارقه الموت!» وكان النبي يعقوب لا يعرف أنّ راحيل هي الّتي سرقت تماثيل لابان.

فدخل لابان خيمة النبي يعقوب وخيمة لَيئة وخيمة الجاريتَين، فَما وجد شيئًا. وخرج من خيمة لَيئة ودخل خيمة راحيل. وكانت راحيل قد أخذت التماثيل ووضعتها في رَحل الجمل وجلست فوقها. ففتّش لابان الخيمة كلّها، فما وجد شيئًا، وقالت راحيل لأبيها: «لا تغضب منّي يا أبي، فإنّي لا أستطيع النهوض، فقد فاجأتني عادة النساء.» ولم يجد لابان التماثيل الّتي كان يفتّش عنها.

فاغتاظ النبي يعقوب وعاتب لابان قائلا: «ما هي جريمتي تحديدًا؟ ماذا فعلتُ حتّى تطاردني كأنّي مجرم؟ لقد فتّشتَ جميع أغراضي، فماذا وجدت من أغراض بيتك؟ إن وجدت شيئًا، ضعه هنا أمام رجالي ورجالك، ليحكموا بيني وبينك. لقد أقمت معك طيلة عشرين سنة، فلم تسقط مواشيك مواليدها أبدًا، ولم آكل من كباش غنمك مطلقًا. والمواشي الّتي كانت تفترسها الوحوش لم أُحضر إليك برهانًا عنها، وإنّما كنتُ أتحمّل خسارتها وحدي، وكنتَ أنت تطالبني بها، سواءٌ قصرتُ في ذلك أم لا. وكنتُ أتحمّل حرّ النّهار، وبرد اللّيل فيفارق النوم عينَيّ. لقد أقمتُ عندك عشرين عامًا وخدمتك فيها أربع عشرة سنة بدل بنتَيك وست سنوات بدل غنمك، وغيّرت أجري عشر مرّات. ولو لم يكن يؤيّدني الله الّذي عبده جدي إبراهيم، الله المهيب الّذي يتّقيه أبي إسحَق، لكنتَ صرفتني فارغ اليدين، لكنّ الله قدّر تعبي وعنائي فحكم بيننا البارحة».

المعاهدة بين النبي يعقوب ولابان[1]

فأجاب لابان يعقوبَ عليه السلام: «البنات بناتي، وأولادهنّ أولادي، والغنم غنمي، وكلّ ما تراه في الحقيقة ملكي، فما العمل؟ ولا حيلة لي من أجل بناتي وأبنائهنّ؟ فلنقم

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 31: 43–55.

معاهدة بيني وبينك إذن». وكشاهد على هذه المعاهدة، أخذ النبي يعقوبُ حجرًا ونصبه عمودًا تذكاريًا[1] وقال لأهل بيته: "اِجمعوا حجارة". فجمعوها وكوّموها وتشاركوا الطعام هناك وأقاموا المعاهدة. وسمّى لابان ويعقوب عليه السلام هذه المعاهدة بكومة الشهادة، كلّ حسب لغته، لابان في اللغة الآرامية ويعقوب في اللغة العبرية. وقال لابان: "هذه الكومة تكون من اليوم شاهدًا بيني وبينك". ولذلك سُمِّيت كومة الشهادة. وسُمِّيت أيضًا المرصاد، لأنّ لابان قال: "ليكن الله بالمرصاد بيني وبينك حين يغيب أحدنا عن الآخر. فإن أسأتَ معالمةبنتيّ أو تزوّجتَ عليهما، دون أن يعلم بك أحد، كفى بالله شهيدا بيني وبينك".[2] وأضاف لابان: «اُنظر الكومة والعمود اللذين وضعتُهما بيني وبينكَ. هذه الكومة وهذا العمود علامتان لا يمكنني تجاوزهما لأُسيء إليك، ولا يمكنك أن تتخطّاهما لتسيء إليّ. والله الّذي آمن به جدك إبراهيم وجدي ناحور يكون حَكَمًا عادلاً بيننا». فأقسم النبي يعقوب بالله الذي يخشاه أبوه إسحَق، وقدّم أضحية إكرامًا لله في الجبل، ودعا الجميع ليأكلوا وليمة لتدشين المعاهدة فأكلوا وباتوا هناك. وفي الغد، بكّر لابان، فقبّل أحفاده وبنتَيْه وطلب لهم بركات من الله، وانصرف متّجهًا نحو حاران.

النبي يعقوب يستعدّ للقاء العيص[3]

ومضى يعقوب عليه السلام في طريقه، فلاقته ملائكة الله، وعند رؤيتهم قال: «هنا حرستنا ملائكة الله!» وسمَّى تلك المنطقة «المقامين».

وأرسل النبي يعقوب بعض رجاله ليسبقوه إلى أخيهِ العيص في جبال سَعير في بِلاد أدوم ليتفاوضوا معه، وأوصاهم قائلاً: «قولوا لأخي العيص: يا سيّدي العيص، يقول لك يعقوب وهو تحت أمرك: لقد نزلتُ عند خالي لابان وكنت عنده إلى الآن،

(1) سادت عادة في بلاد كنعان أنّ الطرفين اللذين اتّفقا على معاهدة، يقيمان عمودا كشاهد على هذا الاتّفاق، وهنا أقام لابان ويعقوب عمودا إكراما لله وتذكيرا بأنّ الله تعالى سيعاقبهما في حال مخالفة أحدهما لهذه المعاهدة.

(2) انظر سورة الإسراء: 96.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 32: 1–21.

وأصبحت أملك كثيرًا من الخدم والدوّاب والمواشي. فرأيتُ يا سيّدي أن أُرسِل مَن يخبرك بذلك لَعلَّك ترضى عنّي». وعاد الرجال إلى النبي يعقوب وقالوا له: «ذهبنا إلى أخيك العيص، وهو قادمٌ للقائك محاطًا بأربع مئة رجل!»

فاستولى الخوف على يعقوب عليه السلام وضاقت به السبل، فقسم مرافقيه وماشيته إلى فرقتين وقال في نفسه: «إن صادف وهجم العيص على إحدى الفرقتين، ربّما تنجو الأخرى».

وتضرّع يعقوب عليه السلام إلى الله قائلاً: «اللهمّ، يا ربّ جدي إبراهيم وأبي إسحق، يا الله، يا مَن طلبت مني أن أعود إلى أرضي وعشيرتِي وأنت تنعم عليّ. أنا لا أستحقّ كلّ هذا الفضل والوفاء اللّذين أظهرتَهما لي أنا عبدك. فعندما عبرتُ نهر الأردنّ لم أكن أملك سوى عصاي، أَمّا الآن فجعلتَ أهل بيتي فرقتين. يا ربّ، أرجوك أنّ تنجّيني مِن قبضة أخي العيص، فأنا أخافُ أن يهجم علينا فيقتلنا، أنا وزوجاتي وأبنائي، وأنت يا ربّ وعدتني بأنك ستنعم علي وتجعل نسلي كَرمال البحر لا يُعَدّون».

وقضى يعقوب عليه السلام ليلته هناك. وانتقى من كلّ ممتلكاته هديّةً لأخيه العيص: مئتي عنز وعشرين تيسًا، ومئتي نعجة وعشرين كبشًا، وثلاثين ناقةً مُرضعةً وصغارها، وأربعين بقرةً وعشرة ثيران وعشرين أتانًا وعشرة حمير. وقسّم النبي يعقوب هذه المواشي إلى قطعان، وسلّمها لكلّ واحد من خدّامه على حدة قائلاً: «تقدَّموا أمامي واجعلوا مسافةً بين قطيع وقطيع». وأوصى الخادم الأوّل: «إن صادف وسألك أخي العيص: مَن يكون سيّدك وإلى أين تتّجه؟ ومَن صاحب هذا القطيع؟ فعليك أن تجيبه: هذا القطيع هدية لك يا سيّدي العيص العظيم، أرسله إليك سيّدي يعقوب وهو تحت أمرك، وسيصل لاحقًا». وبمِثل ذلك أوصى الخادمين الثاني والثالث وبقية الرجال، كما أوصاهم أن يقولوا للعيص: «وسيصل يعقوب لاحقًا وهو تحت أمرك». وفعل النبي يعقوب هذا لأنّه قال في نفسه: «أستعطفه أوّلاً بالهديّة الّتي تقدّمتْني إليه، وعندما نلتقي لعلّه يرضى عنّي». وهكذا أرسل يعقوب عليه السلام الهدايا أمامه. وبات ليلته تلك في المكان نفسه.

النبي يعقوب يتنازع مع الكائن الغيبي(1)

وقام النبي يعقوب أثناء الليل، وصحب معه زوجتَيْه وجاريتَيْه وأولاده الأحد عشر، وعبر بهم نهر يبّوق،(2) وبعد عبورهم وكلّ ممتلكاته إلى الضفة الأخرى بقي النبي يعقوب وحده، فجاءه مَن ينازعه حتّى الفجر. ولمّا رأى أنّه لم يتمكن من بأس النبي يعقوب، ضربه على فخذه فانخلع مفصلهعليه السلام أثناء المنازعة. وقال للنبي يعقوب: «دعني أذهب فقد طلع الفجر!» فأجابه يعقوبعليه السلام: «لن أتركك تذهب حتّى تمنحني بركة من الله». فسأله: «ما اسمك؟» فأجابه: «اسمي يعقوب». فقال: «لا يكون اسمك يعقوب فقط بعد الآن بل إسرائيل أيضًا، لأنّك أُبتُليتَ عند الله والناس وانتصرت». وسأله النبي يعقوب: «أرجوك، أخبرني ما اسمك». فقال: «لماذا تريد أن تعرف اسمي؟» ثمّ منحه بركة من الله ومضى عنه وتولّى.

وسمَّى النبي يعقوب ذلك الموضع فنوئيل، وقال: «لأنّي رأيتُ تجلّيات الله مباشرةً ومع ذلك نجوتُ بِحياتي».(3) وبعد مغادرة فَنوئيل بقليل، أشرقت الشمس وكان يعقوبعليه السلام لا يزال يعرج بسبب إصابة فخذه. لهذا السبب لا يأكل بنو إسرائيل الوتر الّذي على مفصل الفخذ إلى يومنا هذا، لأنّ النبي يعقوب ضُرب على ذلك الوتر.

لقاء النبي يعقوب والعيص(4)

ورأى النبي يعقوبعليه السلام أخاه العيص مُقبلاً عليه محاطًا بأربع مئة رجل، فوزّع أولاده بين لَيئة وراحيل والجاريتَين. وجعل الجاريتَين وأولادهما في المقدّمة، يليهما لَيئة وأولادها، وجعل راحيل ويوسفعليه السلام في آخر الموكب. أمّا هو فتقدَّمهم جميعًا

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 32: 22–32.
(2) يسمّى نهر اليبّوق اليوم بنهر الزرقاء ويجري من المرتفعات الشرقية للأردن.
(3) توقّع النبي يعقوب أن يعاتبه الله بسبب زلاته في الماضي، ولكنّ الله في المقابل تجلّى له، فأصبح النبي يعقوب جريئا ومستعدا للقاء أخيه العيص، لأنه رأى أنّ بإمكانه تحمّل لقاء أخيه الغاضب منه بعد تحمّله لعظمة تجلّيات الله.
(4) استنادا إلى كتاب التكوين 33: 1–11.

وانحنى على الأرض سبع مرّات إلى أن اقترب من أخيه.[1] فأسرع العيص إلى لقائه وعانقه وضمّه إلى صدره وقبَّله، وبكيا معا. ونظر العيص حوله فرأى النساء والأولاد، فقال: «مَن هؤلاء الّذين يرافقونك؟» فأجاب يعقوب عليه السلام: «هم أبنائي الّذين أنعم الله بهم عليّ يا سيّدي». فتقدَّمت الجاريتان وأولادهما وانحنوا أمام العيص احترامًا له. وكذلك فعلت لَيئة وأولادها ويوسف عليه السلام وأمه راحيل.

فقال العيص ليعقوب عليه السلام: «ما الّذي أردتَه مِن كلّ هذه القطعان الّتي أرسلتها لي؟» فأجابه يعقوب: «لا أطلب من سيّدي سوى رضاك». فأجابه العيص: «إنّي أملك منها الكثير يا أخي فاحتفظ بها لنفسك». فأجاب النبي يعقوب: «كلاّ. إن كنتُ قد حظيتُ برِضاك، فأرجوك أن تقبَل هديّتي. وأروع ما عندي أن أرى وجهك المبتسم، إنّي أراه كأنّما أرى الرضا من وجه الله! أرجوك أن تقْبَل عطيَّتي فهي بمثابة البركة.[2] فقد رزقني الله كثيرًا، وأملك كلّ شيء» فأصرّ عليه حتّى قبل منه هديته.

فراق النبي يعقوب والعيص[3]

وقال العيص ليعقوب عليه السلام: «لنرحل من هنا وسأسير أمامك وأفسح لك الطريق». فأجابه النبي يعقوب: «كما ترى، يا سيّدي، إنّ أولادي صغارٌ، والأغنام والأبقار كلّها مُرضعةٌ، فإن أجهدتُها في السير، يومًا واحدًا، ماتت كلّها. فتقدَّمني يا سيّدي، وأنا أتبعك على مهل حسب طاقة الأولاد والماشية، إلى أن ألحق بك في سَعير». فأجابه العيص: «إذن، سأترك بعض رجالي ليرافقوك ويحموك». فقال يعقوب عليه السلام: «لا داعي

(1) يدلّ الانحناء سبع مرات على الاحترام الفائق، وهنا يعترف النبي يعقوب بمكانة أخيه العيص البكر، رغم أن أباهما إسحق طلب بركة الله على يعقوب وقال: ((سيّدًا تكون لإخوتك، وأبناء أُمّك ينحنون أمامك))، وفي انحناء يعقوب اعتراف بأن العيص هو البكر ويستحق هذه الميزة.

(2) يوضّح النبي يعقوب من خلال هذه العطية أنه ينوي أن يعيد إلى العيص البركة التي أخذها منه. وفي هذا الكلام أيضا يتحقق وعد الله الموجّه إلى النبي إبراهيم: ((وبك تحلّ بركاتي على أمم الأرض أجمعين)). لقد فهم النبي يعقوب أنّ بركات الله ليست ملكه الخاص وإنما هي من أجل الناس أجمعين.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 33: 12–17.

لكلّ هذا! تكفيني مرضاتك يا سيّدي». فعاد العيص أدراجه في ذلك اليوم إلى سَعير أمّا النبي يعقوب فرجع إلى سُكُّوت، وبنى لنفسه بيتًا ونصب لماشيته مِظلات ولذلك سُمّي المكان سُكُّوت (ومعناه مظلات).

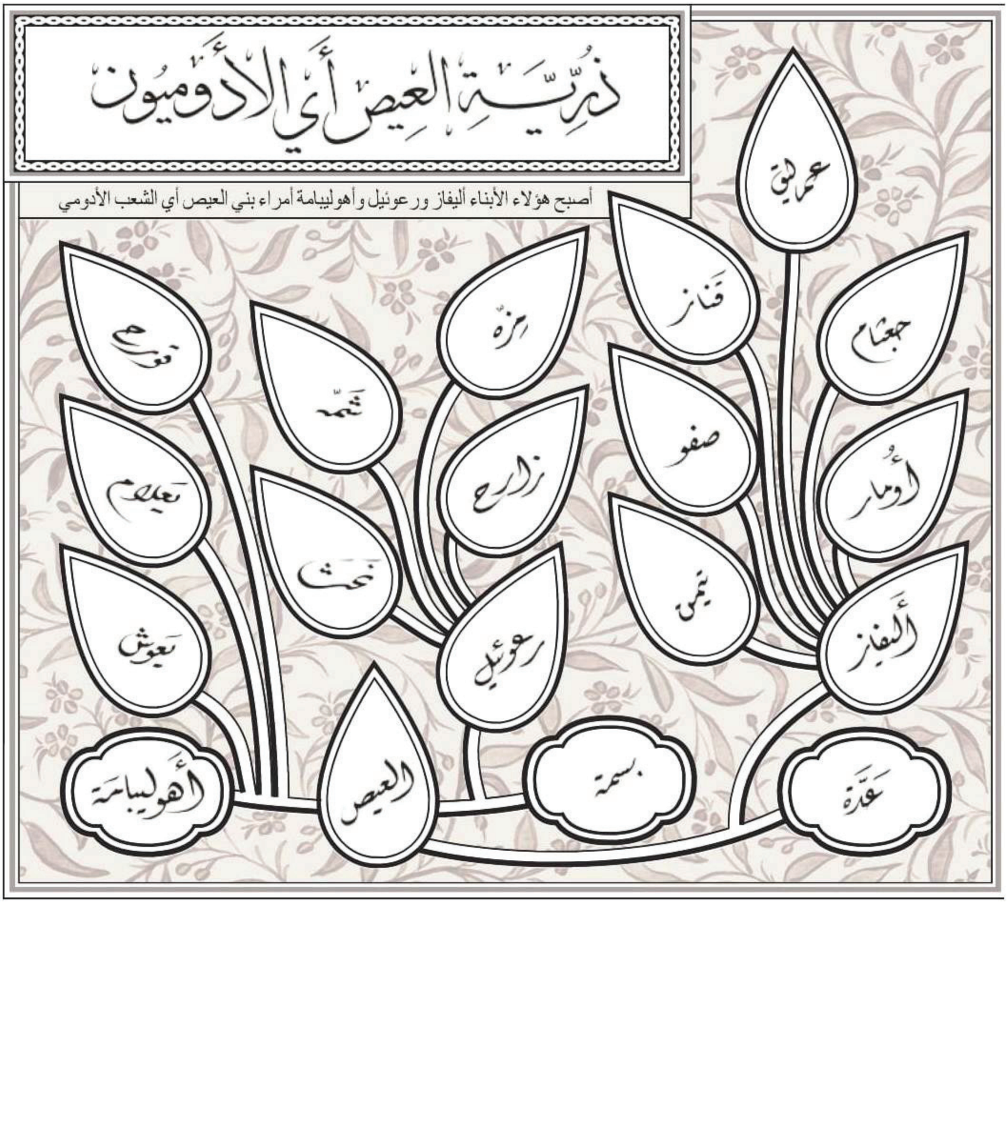

وصول النبي يعقوب إلى شكيم[1]

ثمّ جاء يعقوبعليه السلام سالمًا من بلاد آرام الواقعة بين النهرين في سوريا إلى مدينة شَكيم في أرض كنعان، فنصب خيامه على مشارف المدينة. واشترى قطعةَ الأرض الّتي نصب فيها خيمته مِن بني حَمور أبي شكيم بمئة قطعة من الفضّة. وبنى مَذبحًا من الحجر لحرق القرابين إكرامًا لله وهناك تعبّد الله تعالى، وسمّى هذا المكان: «مقام الله الّذي يعبده إسرائيل».

ولادة بنيمين ووفاة راحيل[2]

واتّجه يعقوبعليه السلام مع أهله من بيت إيل في اتجاه قرية بيت لحم في إقليم أفراتة، وبينما هم على مسافة منها، فاجأ المخاض راحيل فتعسَّرت عليها الولادة. وأثناء ولادتها العسيرة، خاطبتها القابلة: «لا تخافي. إنّكِ تنجبين ابنًا آخر». وكانت راحيل توشك على الموت لكنّها دعت ابنها في أَنفاسها الأخيرة بن أُوني (ومعناه: ابن معاناتي) أمّا أبوه فدعاه بِنيَمين (ومعناه: ابن يميني). وتوفّيت راحيل ودُفنت في طريق أفراتَةَ، في منطقة بيت لحم، ونصب النبي يعقوب عمودًا تذكاريًا على قبرها، وهو موجودٌ إلى يومنا هذا.

وفاة إسحقعليه السلام[3]

وهؤلاء أبناء النبي يعقوب الاثنا عشرعليه السلام الذين صاروا أسباط بني إسرائيل الاثني عشر:

أبناؤه من لَيئة: رأوبين بكر يعقوب، وشِمعون ولاوي ويَهوذا ويسّاكَر وزَبولون، وابناه من راحيل: يوسفعليه السلام وبنيمين، وابناه من بِلْهَةَ، جارية راحيل: دان ونفتالي، وابناه من زِلْفَةَ، جارية لَيئَة: جاد وأَشير. وهؤلاء جميعًا أبناء النبي يعقوب الَّذين رُزق بهم في بلاد آرام ما بين النهرين في سوريا.

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 33: 18–20.
(2) استنادا إلى كتاب التكوين 35: 16–20.
(3) استنادا إلى كتاب التكوين 35: 23–29.

وعاد النبي يعقوب إلى أبيه إسحق عند مَمرا قرب قرية أربع، أي ما يُعرف بحَبرون، حيث عاش النبي إبراهيم والنبي إسحق هناك حياة المغتربين. وكان النبي إسحق قد بلغ من العمر مِئة وثمانين عندما أسلم روحه وانضمّ بحُسن الخاتمة إلَى أسلافه الراحلين. ودفنه ابناه العيص والنبي يعقوب.

قصّة النبي يوسف عليه السلام

مدخل إلى قصّة يوسف عليه السلام

﴿لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [سورة يوسف: 7]

يحتلّ النبي يوسف مكانة كبيرة في التوراة وفي القرآن، ويتمتّع بمقام مرموق في الدّيانات الإبراهيمية. ومع أنّه أصبح عبدا بعد أن باعه إخوته لبعض التجّار، رفعه الله إلى منصب وال على مصر وأنقذ أهله وكثيرين غيرهم من مجاعة شديدة عمّت البلاد. ويُعرف النّبي يوسف بتفسيره للأحلام وكان وسيلة فضل الله كما نرى في سورة يوسف: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة يوسف: 6].

كان يوسف عليه السلام ابن النّبي يعقوب من زوجته راحيل، ونشأ في بلاد كنعان (أي ما يُعرف اليوم بفلسطين) إلى جانب إخوته الأحد عشر وأخته دينا وربّما كان لديه أخوات أخريات. كتب المؤرخ اليعقوبي: «وكان يوسف أحبّ ولد يعقوب إلى يعقوب لأنه كان أجملهم وجها، وكانت أمّه أحبّ نسائه إليه». لذا خاط يعقوب ثوبا مميّزا لابنه يوسف لكي يظهر محبّته له. وعندما كان النّبي يوسف في السّابعة عشرة من عمره وهبه الله منامين أظهر فيهما أنّه سيحظى بسيادة بين أفراد عائلته وهو ما أغضب إخوته كثيرا وفي النّهاية تآمروا على قتله.

ولكنّهم بدلا من ذلك رموا يوسف عليه السلام في بئر وانتشله جمع من التجّار، فأخذوه معهم في قافلتهم إلى مصر حيث باعوه عبدا لرجل يُدعى فوطيفار عزيز مصر. وأخبر الطّبري في تاريخه عن يعقوب وابنه يوسف: «وكان ابنه يوسف قد قُسِم له ولأمِّه من الحسن ما لم يقسم لأحد من الناس». وحُسن النّبي يوسف جعله موضع اهتمام زوجة العزيز التي «راودته عن نفسه» (انظر سورة يوسف: 23). ولأنه رفض ذلك وفرّ منها هاربا، اتهمته أمام زوجها بالخيانة فرماه في السجن.

وفي السجن منح الله النّبي يوسف القدرة على تفسير الأحلام وهذا ما جعله في النهاية في محضر فرعون الذي رأى منامين ولم يستطع أحد تفسيرهما، ولكن النبي يوسف فسّرهما بمهارة، وأخبر فرعون أنهما بمثابة تحذير موجّه إليه ليحذّر شعبه بأن مجاعة كبيرة على وشك أن تحدث. واختار فرعون أن يرفع النبي يوسف إلى أن يكون واليا على مصر وكلّفه بمهمّة تحضير البلاد لمواجهة المجاعة. وهكذا أصبح النّبي يوسف سببا في نجاة والده يعقوب وأهله من المجاعة، بل نجا الشعب المصري بأكمله بالإضافة إلى كثير من الناس من البلاد المجاورة.

ونرى في قصّة يوسف عليه السلام وفاء الله لتحقيق وعوده الموجّهة لعباده المخلصين المتواضعين رغم كلّ ظروفهم العويصة. إنّ الله هو المهيمن على التاريخ لا ريب ويدير مجراه لكي يعرف الناس صفاته الحميدة فهو الرحمن الرحيم، ولتحلّ عليهم النجاة. ونرى في شخصيّة النّبيّ يوسف صفات اللطف والصبر والمسامحة لإخوته الذين ظلموه. وتفوق هذه الصفات الرّوحانية صفات الحسن الجسدية، لذلك أصبح قدوة لنا في الإيمان والأخلاق.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النبي يوسفعليه السلام

النبي يوسف وإخوته[1]

وأقام يعقوبعليه السلام في أرض كنعان، حيث عاش أبوه من قبل. وهذه سيرة آل يعقوب: لمّا كان يوسفعليه السلام شابًا في السابعة عشرة من عمره، كان يرعى الغنم مع إخوته أبناء بِلْهَة وزِلفَة زوجَتي أبيه، وكان يخبر أباه بما يرى من سيئاتهم. وكان النبي يعقوب يحبّ ابنه يوسف أكثر من بقيّة أبنائه لأنّه ابن شيخوخته. وخاط له قميصًا مميّزًا. وكان إخوته يبغضونه لأنّ أباهم يحبّه أكثر منهم جميعًا، وبلغ بغضهم له درجة أن لا يكَلِّموه كلمةً طيّبةً واحدة.

ورأى يوسفعليه السلام ذات ليلة في منامه رؤيا، ولمّا أخبر إخوته بما رأى ازدادوا له بغضًا. قال لهم يوسفعليه السلام: «أصغوا إلى هذه الرؤيا التي جاءتني في المنام، إذ رأيتُ أنّنا نحزِم حُزَمًا من القمح في الحقل، وفجأةً وقفت حزمتي وانتصبت ثمّ أحاطَت بها حُزمكم وانحنت لها». فأجابه إخوته: «أنت ذو كبْر عظيم! أتحسب أنّك ستكون علينا ملكا أو تتملّك رقابنا؟» وزاد بغضهم له بسبب أحلامه وحديثه عنها. وبعد فترة قصيرة رأى يوسفعليه السلام في منامه رؤيا أخرى، ورواها لإخوته قائلاً: «أصغوا إليّ، لقد رأيتُ في منامي مرّة أخرى: رأيتُ الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا لي ساجدين». ونهره

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 37: 1–11.

أبوه حين روى عليه وعلى إخوته قائلاً: «ما هذا الّذي رأيته؟ أنأتي أنا وأُمّك وإخوتك وننحني أمامك أرضًا؟» وحسده إخوته كثيرًا، ولكنّ أباه يعقوب عليه السلام أخذ يتأمّل في معنى أحلام ابنه ودلالاتها.

إخوة النبي يوسف يبيعونه[1]

وذهب إخوة يوسف عليه السلام ذات يوم ليرعوا غنم أبيهم في منطقة شَكيم، وبعد مضي فترة من الزمن، قال يعقوب ليوسف (عليهما السّلام): «إنّك تعلم أنّ إخوتك يرعون الغنم عند شَكيم، وعليّ أن أُرسلك إليهم حتّى أَطمئنّ عليهم». قال يوسف عليه السلام: «لك ما تريد يا أبي». فأجابه: «اِذهب واطمئنّ على إخوتك وعلى المواشي، وعُدْ بسرعة وأخبرْني عن أحوالهم». وأَرسله من وادي حَبرون حيث يقيمون، فجاء إلى شَكيم. وصادفه رجل وهو يتجوّل في البادية، فسألَه: «عمّن تبحث؟» فأجابه عليه السلام: «أبحث عن إخوتي. هل تعلم أين يرعون غنمهم؟» أجابه الرجل: «لقد رحلوا من هنا، وسمعتهم يقولون: «دعونا نذهب إلى دُوثان». فاقتفى يوسف عليه السلام أثرهم، فوجدهم في دُوثان.

وعندما لمح إخوة يوسف عليه السلام أخاهم يقترب منهم تآمروا على قتله. فقال بعضهم لبعضٍ: «ها هو صاحب الأحلام مُقبل. تعالوا نقتله ونرميه في إحدى الآبار، ثمّ نخبر أبانا أنّ وحشًا شرسًا افترسه، وسنرى كيف ستنفعه أحلامه». فسمع رأوبين، فأنقذه من قبضتهم وقال: «لا نقتلُه! ليس لنا أن نسفك دمًا. بل اطرحوه في هذه البئر هنا في البادية، حتّى نتخلّص منه ولا نمدّ إليه أيدينا بأذًى». وكانت غاية رأوبين أن ينقذ يوسف عليه السلام من إخوته ويُرجعه لأَبيه سالمًا. وعندما وصل يوسف عليه السلام إلى إخوته نزعوا عنه قميصه الملوّن، وأخذوه وطرحوه في البئر، ولم يكن بالبئر ماء. ولمّا جلسوا ليتناولوا طعامهم، لمحوا من بعيد قافلةً من بني إسماعيل قادمة من بلاد جِلْعاد، وجمالها مُحمّلة بالتوابل والبَلسم والصمغ الباهظ الثمن من شجر المُرّ، وكانت في طريقها إلى مصر. فقال يَهوذا لإخوته: «ماذا نستفيد إن قتلنا أخانا وأخفينا موته؟ دعونا نبِعه لهؤلاء التجّار من بني إسماعيل ولا نؤذيه، فهو أخونا من لحمنا ودمنا». فوافق إخوته.

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 37: 12–36.

وحين وصل هؤلاء التجّار من مِديَن، أمسك الإخوة يوسفعليه السلام وأخرجوه من البئر. وباعوه لهم بعشرين قطعة من الفضّة، فأخذته القافلة إلى مصر. وعاد رأوبين إلى البئر ليخرج يوسفعليه السلام، فلم يجده هناك، فمزّق من شدّة الحزن ثيابه وعاد إلى إخوته وقال لهم: «أخونا غير موجود، وماذا أفعل الآن؟» وذبحوا تيسًا من المعز وأخذوا قميص يوسفعليه السلام وغمسوه في دم التيس. وأرسلوا القميص المُلوّن إلى أبيهم وقالوا: «وجدنا هذا. فتحقَّقْ منه، أليس هذا قميص ابنك يوسف؟» وعرف النبي يعقوب قميص يوسف وقال: «هو قميص ابني. لا شكّ أنّ وحشًا قد افترسه، ومزّقه تمزيقًا». وشقّ النبي يعقوب ثيابه ولبس خيشًا حِدادًا على ابنه، وناح أيّامًا طوالاً. وحاول جميع أبنائه أن يعزّوه، فرفض العزاء قائلاً: «لن أكف عن النواح على ابني حتّى أنزل إلى دركات الموت». وبكى النبي يعقوب بكاء مُرًّا. أمّا يوسف عليه السلام، فوصل به تجّار مِديَن إلى مصر، وباعوه للعزيز فوطيفار، وهو أحد رجال حاشية فرعون وقائد الحرس.

النبي يوسف عند العزيز[1]

أخذ التجار الإسماعيليون يوسفعليه السلام معهم إلى مصر، وباعوه إلى فوطيفار المصريّ، أحد رجال حاشية فرعون وقائد الحرس. وكان الله مع النبي يوسف، فنجح بكلّ ما عمله خلال إقامته في بيت سيّده المصريّ.

ولاحظ سيّده هذا النجاح وتأكّد أنّ الله ينجح لهعليه السلام سعيه ويمنحه الفلاح في كل شيء، فخدم يوسفعليه السلام سيّده بأمانة فحظي برضاه، وجعله وكِيلاً على بيته وولاه على كلّ ممتلكاته. وبارك الله بيت العزيز المصري إكرامًا للنبي يوسف منذ اليوم الّذي كلّفه فيه بتدبير شؤون بيته وكلّ ممتلكاته. فحلَّت بركة الله على ممتلكات العزيز في البيت وفي الحقل.[2] ولم يشغل العزيز نفسه إلّا بالطعام الذي يأكله، إذ ترك كلّ ممتلكاته ليوسفعليه السلام كي يتصرّف فيها.

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 39: 1-6.

(2) انظر سورة يوسف: 21.

محاولة إغواء يوسف عليه السلام[1]

وكان يوسف عليه السلام حسن المنظر بَهيًّا. ولاحقت زوجة العزيز يوسف بنظرها وراودته عن نفسه مُرَاودَة. فرفض عليه السلام واستعصم وقال لها: «لقد ائتمنني سيّدي على ما في بيته، فلمْ يَشغل نفسه بشيء منه. إنّ سيّدي أحسن مقامي، ولا أحد هاهنا أعظم منّي إلاّ هو، ولم يمنع عنّي شيئًا غيركِ لأنّكِ زوجته. معاذ الله! كيف أرتكب هذه الخطيئة العظيمةَ وأُخطئ في حقّ الله؟» ولكنّها لم ترتدّ عن شهوتها وكانت تزداد إلحاحًا عليه بمعاشرتها يومًا بعد يوم، ويزداد يوسف عليه السلام امتناعا وعفافًا.

ودخل عليه السلام البيت ذات يوم ليقوم بعمله، ولم يكن في البَيت أحد سوى زوجة الفوطيفار، فأمسكت بثوبه وهمّت به. فترك لها ثوبه وفرّ خارج البيت.[2] فعندما رأت ثوبه وفراره، صاحت حتّى سمعها أهل بيتها، وقالت لهم حين وصلوا إليها: «انظروا هذا العِبرانيّ الّذي جاء به زوجي، كيف أراد هتك عرضي! دخل ليراودني عن نفسي فلمّا صرختُ بأعلى صوتي، ترك ثوبه بجانبي وهرب».

واحتفظتْ المرأة بثوب النبي يوسف عندها ولمّا عاد سيده إلى البيت، حكت له الحكاية ذاتها قائلة: «هذا العبد العِبرانيّ الّذي جئتَنا به دخل غرفتي وحاول أن يُراوِدني عَنْ نَفْسِي! وعندما رفعتُ صوتي وصرختُ ترك ثوبه وهرب». فاستشاط السيّد غضبًا حين سمع حكاية زوجته. فقبض على يوسف عليه السلام وزجّ به في سجن الملك. وهكذا أصبح النبي يوسف سجينًا. وكان الله مع النبي يوسف وشمله بوفائه وجعل قائد السجن راضيًا عنه. وسرعان ما جعل قائد السجن جميع السجناء تحت إشراف يوسف عليه السلام، وأوكل إليهِ تدبير جميعِ ما كانوا يقومون به. وكان القائد لا يبالي بشيء في عهدة النبي يوسف، لأنّ الله كان معه وكان يُوفّقه في كلّ ما يعمل.

---

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 39: 7–23.

(2) انظر سورة يوسف: 24.

النبي يوسف يفسّر الأحلام[1]

وحدث أن أخطأ رئيس سُقاة الملك ورئيس خبّازيه في حقّ سيّدهما فرعون. فاشتدّ عليهما غضبه وأمر بسجنهما في بيت قائد الحرس حيث كان يوسف عليه السلام بين المساجين. فجعلهما قائد الحرس تحت إشراف يوسف عليه السلام الّذي اعتنى بهما.

ومرّت فترة من الزمن وساقي فرعون وخبّازه مُقيمان في السجن، ورأى كلّ واحد منهما في الليلة نفسها منامًا له دلالة خاصّة. ولمّا أقبل عليهما يوسف عليه السلام في الصباح الباكرِ بدا عليهما الاكتئاب فسألَهما: «لماذا أنتما عابسان هذا اليوم؟» فأجاباه: «لقد رأى كل واحد منّا منامًا ولا أحد استطاع تفسيره». فقال لهما يوسف عليه السلام: «الله وحده قادر على تفسير المنام، وأنا عبده فأخبراني بما رأيتما».[2]

فقصّ رئيس السُّقاة منامه على النبي يوسف أوّلاً وقال: «رأيت في منامي شجرة عنب بين يدَيّ، وفي الشجرة ثلاثة أغصان، وكانت إذا طلعَ ورقها أزهر ونضجت عناقيدها وصارت عنبًا في لحظات. وكانت كأس فرعون في يدي، فأخذتُ العنب وعصرته في كأس فرعون وقدّمته له». فأجابه يوسف عليه السلام: «إليك تفسير المنام: الأغصان الثَّلاثة ثلاثة أيّام. بعد ثلاثة أيّام يرفع فرعون شأنك ويرُدّك إلى منصبك، فتقدّم إلى فرعون كأسه كما تعوّدتَ أن تفعل من قبل. فمتى حَسُنت حالك وخرجت من السجن، أرجوك أن تذكرني عند مولاك، لعلّه يُخرجني من هنا، فقد أخذوني بتعنّت من أرض العِبرانيّين، وزجُّوا بي في غياهب السِّجن بظلمهم الوخيم».

ولمّا رأى رئيس الخبّازين أنّ النبي يوسف فسّر المنام تفسيرًا إيجابيًّا، قال له: «أنا أيضًا رأيتُ مناما لم أفهمه. لقد رأيتُ أنّي أحمل فوق رأسي ثلاث سلال من خبز رفيع. وفي السلّة العُليا خبز خاصّ لفرعون وكان الطير يأكل منه». فأجابه يوسف عليه السلام: «إليك تفسير منامك: السلال الثلاث ثلاثة أيّام أيضا. بعد ثلاثة أيّام يقطع

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 40: 1–23.
(2) انظر سورة يوسف: 37.

فرعون رأسك ويُعلِّقك على خشبة، فتأكل الطير لحمك». [1] وصادف أن كان عيد ميلاد فرعون بعد ثلاثة أيّام، فأقام وليمةً لجميع رجال حاشيته، واستدعى من السجن رئيس السقاة ورئيس الخبّازين ليقفا أمام كلّ الحاضرِين. فأعاد رئيس السقاة إلى منصبه ليقدّم له الكأس وأمر بإعدام رئيس الخبّازين وتعليقه على خشبة، كما تنبأ بذلك النبي يوسف. أمّا رئيس السقاة فلم يذكُر النبي يوسف لفرعون بل نسيه تمامًا. [2]

منام فرعون[3]

وبعد مرورِ سنتين، رأى فرعون في منامه أنّه واقف بجوار نهر النيل، ورأى سبع بقرات بهيّة سمينة تخرج منه، وترعى في المرج. ثمّ رأى سبع بقرات أخرى عجاف قبيحة تخرج من النهر، وتقف بجانب البقرات السمان على ضفة النهر. ثمّ التهمت البقرات العجاف البقرات السمان، واستفاق فرعون من نومه.

ثمّ عاد فرعون إلى نومه ثانيةً فرأى منامًا آخر: رأى سبع سنابل تخرج من ساق واحدة وكانت ملأى، ورأى سبع سنابل سوداء عجفاء لفحتها ريح الصحراء تعقبها وتنبت وراءَها. ورأى السنابل العجفاء تبتلع السنابل الصفراء! وأفاق فرعون، وأدرك أنّ ما حدث كان رؤيا.

وانزعج فرعون في الصباح من المنامين انزعاجًا، واستدعى جميع سحرة مصر وحُكَمائها. وقصّ عليهم ما رأى في منامه، فلم يتمكّن أي واحد منهم من تفسير المنامين. [4] ثمّ قال رئيس السُّقاة لفرعون: «ها أنا أذكر زلّتي، أذكر وعدا وعدته منذ سنين. لقد اشتدّ غضبك عليّ وعلى رئيسِ الخبّازين منذ فترة، وسجنتنا في بيت قائد الحرس. ورأى كلّ منّا في ليلة واحدة منامًا، وكان لكل منام تفسير خاصّ. وكان برفقتنا شابّ عِبرانيّ، وهو عبد لقائد الحرس، فقصصنا عليه ما رأيناه في المنام، ففسَّر

(1) انظر سورة يوسف: 41.

(2) انظر سورة يوسف: 42.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 41: 1-36.

(4) انظر سورة يوسف: 43-44.

لكلّ واحد منّا منامه. وصدقت الوقائع بعد ذلك تفسيره، فقد أعدتني إلى منصبي ساقيا، وأعدمتَ الرجل الآخر على خشبة». واستدعى فرعون يوسفعليه السلام في الحال، فأحضروه من غياهب السجن. فتزيّن وغيّر ثيابه ومثَلَ أمام فرعون، فقال له فرعون: «رأيتُ منامًا لم يستطِع أحد تفسيره، وبلغني أنّك قادر على تفسير الرؤى والأحلام». فأجابه النبي يوسف: «حاشا أن أنسب ذلك إلى نفسي يا سيّدي، بل الله هو الّذي يستطيع أن يعطيك تفسيرًا يطمئنك».

فأخبر فرعون النبي يوسف بتفاصيل منامه، وأردف قائلاً: «لقد قصصت منامي على السحرة، فما استطاع أحدٌ تفسير ذلك لي».

فأجابه النبي يوسف: «إن كلا المنامين يحملان المعنى نفسه، والله أخبرك مسبقًا بما سيفعله. فالبقرات السبع الجيّدة سبع سنين، والسنابل السبع الجيّدة أيضا سبع سنين. والبقرات السبع العجاف التي ظهرت خلفها، وكذلك السنابل العجفاء الّتي لفحتها الريح الصحراوية، مجاعة تمتدّ سبع سنين. وستتحقّق كلّ هذه الأحداث كما وصفتُها لك تمامًا، لأنّ الله كشف لك مسبقًا ما سيفعله. ستأتي على مصر كلّها سبع سنين من الرخاء العظيم، وستليها مباشرةً سبع سنين مجاعة، فينسى الناس سنين الرخاء في مصر، وتتلف المجاعة البلاد. وتكون شديدة جدًّا، فلا يتذكَّر أهل البلاد ما كانوا فيه من شبع. وما تكرّر ما رأيت في المنام على فرعون مرّتين بطريقة متشابهة إلاّ لأنَّ الأمر مقضي عند الله وسيحققه عاجلاً.[1]

"عليكم الآن يا مولاي أن تجدوا رجلاً بصيرًا حكيمًا تعهدون إليه بتدبير شؤون أرض مصر كلّها، وتوكِّلون مشرفين في كلّ أرجاء الأرض يأخذون خُمس محصولها خلال سنوات الرخاء السبع. فيجمعون، تحت إشرافكم، خيرات السنين الآتية ويحملونها إلى مخازنكم ويحرسونها حتّى تكون مؤونة في المدن. وبهذه الطريقة سيتوفّر الطَّعام عندما تحلّ سنين المجاعة السبع على أَرض مصر، فلا تهلك البلاد من الجوع".

(1) انظر سورة يوسف: 46-49.

ترقية النبي يوسف[1]

لاقى اقتراح النبي يوسف عليه السلام استحسان فرعون وجميعِ حاشيته. فقال فرعون لحاشيته: «هل نجد مِثله رجلاً فيه روح الله؟» وقال فرعون للنبي يوسف: «بما أنّ الله أَعطاكَ كلّ هذه المعرِفة، فلا نظير لك في الحكمة والتدبير. إنّي جعلتك وكيلاً على القصر، ويكون شعبي كلّه تحت أمرك، أمّا أنا فأكون أعظم منك والآمر الناهي. وها أنا أجعلك حاكمًا على أرض مصر كلِّها».[2] وخلع فرعون خاتمه وجعله في إصبع النبي يوسف، وألبسه ثياب كتّان فاخرة، وطوّق عُنُقه بسلسلة من ذهب. ثمّ أركبه مركبة نائب فرعون ونادى الحرس أمامه: «انحنوا للوالي!» وهكذا جعله فرعون وكيلاً على أرض مصر كلّها.

وقال فرعون ليوسف عليه السلام: «أنا الملك. ولكن دون إذنك لا يقدر أحد أن يحرّك يدًا أو رجلاً في أرض مصر كلِّها». ومنحه فرعون اسمًا جديدًا، صَفْنات فَعْنيح[3]، وزوَّجه أسنات بنت فوطي فارَع، كاهن مدينة أُون. وهكذا صار النبي يوسف وكيلاً على أرضِ مصر كلّها.

وكان عمر النبي يوسف ثلاثين سنة حين شرع في خدمة فرعون ملك البلاد. وخرج من قصر فرعون وتجوّل في كلّ أرجاء مصر.

وفعلاً كان نتاج الأرض وفيرا خلال سنوات الرخاء السبع تلك، وجمع يوسف عليه السلام كل هذه المحاصيل وَخَزَنَها في مُدُنِ مصر. واحتفظ في كُلّ مدينة بمحاصيل الحقول المجاورة لها، وخزن كميات هائلة من القمح تضاهي في كثرتها رمال البحرِ، حتّى أنه كَفّ عن عدها لأنّها كانت أكثر من أن تحصى.

وأنجبت أسْنات قبل حلول المجاعة للنبي يوسف ولدين. فسمَّى عليه السلام ابنه البكر مَنسَّى (ومعناه: المَنْسيّ) لأنّه قال: «جعلني الله أنسى معاناتي وحنيني لأهل بيت

---

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 41: 37–57.

(2) انظر سورة يوسف: 54.

(3) ويعني هذا الاسم: حافظ الحياة.

أبي». وسمّى عليه السلام ابنه الثّاني أفرايِم (ومعناه الْمُثمِر مُضاعَفًا) لأنّه قال: «جعلني الله مُثمرًا في البلاد التي فيها أعاني».

وانتهت سنوات الرخاء السبع في أرض مصر وبدأت سنوات المجاعة السبع تتالى كما تنبأ يوسُف عليه السلام. فأصابت المجاعة جميع البلدان المجاورة، أمّا مصر فقد توفّر الطعام في كل أرجائها. ولكن مع مرور الوقت حلّت المجاعة على مصر أيضا، فاستغاث الشعب وطلب من فرعون الطعام، فأجاب فرعون شعبه: «اِذهبوا إلى يوسف وافعلوا ما يقول لكم». واشتدّت المجاعة وشملت كلّ أرض مصر، ففتح يوسف عليه السلام المخازن وباع القمح للمصريّين. وأقبل النَّاس من جميع الأنحاء إلى مصر ليشتروا قمحًا من النبي يوسف، فقد عمّت المجاعة واشتدّت.

أول لقاء بين النبي يوسف وإخوته[1]

بلغ يعقوب عليه السلام أنّ القمح متوفّر في مصر فقال لأبنائه: «ما بالكم تنظرون إلى بعضكم بعض؟ بلغني أنّ القمح موجود في مصر. فاذهبوا إلى مصر واشتروا لنا قمحا فنحيا ولا نموت». فتوجّه عشرة من إخوة يوسف عليه السلام إلى مصر ليشتروا قمحًا، أمّا يعقوب عليه السلام فلم يُرسل بنيمين أخو النبي يوسف مع إخوته خشيةً أن يصيبه ما أصاب يوسف من قبل.

وتوجّه أبناء يعقوب عليه السلام إلى مصر مع آخرين لشراء القمح إذ بلغت المجاعة أرض كنعان. وكان النبي يوسف آنذاك عزيز أرض مصر، ويشرف على بيع القمح لكلّ الناس، وعندما وصل إخوته انحنوا أمامه احترامًا له. وعرف يوسف عليه السلام في الحال هويتهم ولم يعرفوه، فتنكَّر لهم وخاطبهم بجفاء: «مِن أين جئتم؟» أجابوا: «مِن أرض كنعان لنشتري طعامًا».[2]

وتذكَّر عليه السلام الأحلام الّتي رآها قبل سنوات فقال لهم: «أنتم جواسيس! جئتم لتتجسّسوا على بلادنا وعلى الأماكن غير المحميّة فيها!» فقالوا له: «لا يا مولانا،

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 42: 1–24.
(2) انظر سورة يوسف: 58.

نحن عبيدك جئنا لنشتري طَعامًا. نحن جميعًا إخوة من عائلة واحدة. نحن أمناء ولسنا جواسيس!» فقال لهم: «كلاّ، بل جئتم لتكتشفوا الأماكن غير المحميّة في بلادنا». قالوا: «نحن يا مولاي اثنا عشر أخًا، وأبناء رجل واحد في أرض كنعان. أصغرنا مع أبينا وآخر مفقود». أمّا يوسفعليه السلام فأصرّ قائلا: «أنتم كما قلتُ! أنتم جواسيس! وإنّي سأمتحن صدقكم: وحياة فرعون، إنّكم لن تخرجوا إلاّ إذا أحضرتم أخاكم الأصغر إلى مصر. فأرسلوا واحدًا منكم ليُحضره، وسيظلّ البقية في السجن، حتّى أختبر صحّة كلامكم إن كنتم من الصادقين. وإن اكتشفتُ أنّكم كذبتم عليّ، فقسمًا بحياة فرعون سأعاملكم كجواسيس!»(1) وسجنهم ثلاثة أيّام.

وفي اليوم الثالث قال لهم يوسفعليه السلام: «أنا رجل أخشى الله. اِفعلوا ما أطلب منكم، حتّى تنجوا بحياتكم. إن كنتم حقًّا أمناء، فليبقَ واحد منكم في هذا السجن، أمّا البقية فليعودوا ومعهم قمح يَسُدّ جوع أهلكم. ولكن يجب أن تُحضروا لي أخاكُم الأصغر، فيكون هذا برهانًا على صِدق كلامكم، فلا تموتوا». فوافقوا على ذلك. وتكلّموا فيما بينهم قائلين: «لا شكّ أنّ هذا العقاب حلّ علينا بسبب أخينا يوسف! وعندما رأيناه في ضيق متوسّلاً إلينا من أجل حياته، لم نستجب له. لهذا السبب حلّ علينا هذا البلاء». فأجابهم رَأوبين: «أما حذّرتكم: لا تخطئوا وتُسيئوا إلى أخيكم؟ لكنّكم لم تسمعوا! لذلك لا بدّ أن ندفع فدية دمه». وكانوا يجهلون أنّ النبيّ يوسف يفهم حديثهم، لأنّه كان من قبل يستعين بمترجم. فغاب عنهم قليلا وبكى، ثمّ عاد إليهم وكلَّمهم، وأخذ شِمْعون مِن بينهم وقيَّده أمام أنظارهم.

العودة إلى أرض كنعان(2)

وأمرَ يوسفعليه السلام رجاله أن يملأوا أكياس إخوته قمحًا ويَردّوا فضّة كلّ واحد مِنهم إلى كيسه، وأن يعطوهم زادًا للطريق. ففعلوا كما أمر. وحمّل إخوة يوسف دوابّهم بالقمح وتوجّهوا إلى ديارهم. وتوقّفوا عند الغروب للمبيت، ففتح أحدهم كيسه

(1) انظر سورة يوسف: 59–60.

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 42: 25–38.

ليعطي علفًا لدابّته، فإذا بفضّته في فم كيسه. فقال لهم: «انظروا! لقد رُدَّت فضّتي، ووجدتُها في كيسي». فاستولى الفزع على قلوبهم، والتفت بعضهم إلى بعض وقالوا: «ماذا فعل الله بنا؟»

ولمّا وصلوا إلى أبيهم يعقوب عليه السلام في بلاد كنعان، أخبروه بكلّ ما حدث، فقالوا: «لقد خاطبنا عزيز مصر بشدّة ظنًّا بِأنّنا جواسيسِ. فقلنا له: نحن أمناء وما جئنا جواسيس لنفسد في الأرض! نحن اثنا عشر أخًا من عائلة واحدة، أحدنا مفقود وأصغرنا عند أبينا في أرض كنعان. فقال لنا: «لأتأكّد أنّكم أمناء، اتركوا أحدكم هنا، وخُذوا ما يَسُدّ جوع أهل بيتكم وانصرفوا. وجيئوا بأخيكم الصغير إليّ، فأتيقّن أنّكم أمناء لا جواسيس فأُسلّمكم أخاكم وتجولون في هذه الأرض بحريّة».

وبينما هم يُفرِغون محتوى أكياسهم، وجد كلّ منهم كيسه الصغير وبداخله فضّته، فاستولى عليهم وعلى أبيهم خوف شديد.

فقال لهم يعقوب عليه السلام: «حرمتموني من أولادي! يوسف مفقودٌ وشِمعون مفقودٌ، وها أنتم تريدون أن تأخذوا بنيمين. لقد حلّت عليّ كلّ المصائب!»[1] فأجاب رَأوبين أباه: «اقتُل ولديَّ إن لم أرجِع إليك بنيمين. إنّه في عُهدتي وسأَرُدُّهُ إليك سالمًا». فقال يعقوب عليه السلام: «لن يرحل ابني معكم أبدًا! فهو الوحيد الّذي بقي لي من أُمّه راحيل! أما يكفيني أنّ أخاه يوسف مات؟ فإن أصاب بنيمين أذىً في الطريق تجعلونني أموت في شيبتي بحسرة».

عودة بني يعقوب ومعهم بنيمين[2]

واشتدّت المجاعة في بلاد كنعان. ولمّا انقضى ما اشتراه بنو يعقوب مِن مصر من قمح، قال لهم أبوهم: «عودوا إلى مصر واشتروا لنا قليلاً من الطعام». فأجابه يَهوذا: «يا أبي، إنَّ تحذير العزيز لنا كان شديدًا إذ قال: ›لا تعودوا إلى مصر إلاّ وقد أقبل معكم‹. فأرسل معنا بنيامين إلى مصر حتّى نشتري قمحًا، وإن رفضتَ بقينا هاهنا،

(1) انظر سورة يوسف: 64.

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 43: 1–34.

لأنّ عزيز مصر قال لنا: لن تروا وجهي إلاّ وأخوكم معكم». فقال يعقوب عليه السلام: «لماذا أنزلتم عليّ هذا البلاء وأخبرتم العزيز أنّ لكم أخًا آخر؟» وأجابوا: «هذا ليس ذنبنا، إنّ العزيز ألحّ في السؤال عنّا وعن أهالينا قائلا: ألا يزال أبوكم حيًّا؟ وهل لكم أخٌ آخر؟ وكُنّا نجيبه بتلقائية. فكيف لنا أن نعرِف أنّه سيطلب منا إحضار أخينا بنيمين؟»

وقال يَهوذا لأبيه: «أرسِل معي بنيمين حتّى ننطلق في الحال، فنأتي بقمح يحيينا وأولادنا ولا نموت جوعًا. أنا أضمنه وأكون مسؤولاً عنه شخصيًّا، وإن لم أعُد به إليك سالمًا، فسأكون مذنبا في حقّك طول حياتي. ولولا أنّنا أضعنا وقتنا، لكُنّا الآن قد سافرنا إلى مصر مرّتين».

أخيرًا وافق يعقوب عليه السلام قائلاً: «إن كان لا بدّ من ذلك فخذوه معكم. املؤوا أوعيتكم بأطيب فواكه أرضنا واحملوها هديّةً إلى العزيز. خُذوا شيئًا من البَلسم والتوابل والعسل والمِسك والصمغ من شجرة المُرّ والفُستُق واللوز. وخُذوا معكم ضعف ما أخذتم من قبل من الفضّة، حتّى ترُدّوا لهم الفضّةَ الّتي وجدتموها في أفواه أكياسكم أوّل مرّة. لعلّ ذلك سهوٌ منهم. وخُذوا معكم أخاكم وتوجّهوا إلى وزير مصر، والله القدير يجعل العزيز يرحمكم فيطلق شِمعون ويسمح لبنيمين أن يعود معكم أيضًا. وإن كان لا بدّ أن أفقد أولادي، فسأفقدهم».

فأخذ الإخوةُ الهدايا وضعف الفضّة وانطلقوا مع بنيمين. وعندما وصلوا إلى مصر وقفوا في حضرة يوسف عليه السلام. ولمّا رأى النبي يوسف بنيمين أخاه قال لوكيل بيته: «خُذ هؤلاء الرجال إلى القصر وهَيِّئْ وليمة كبيرة تليق بهم فسيكونون ضيوفي على الغداء». ففعل الرجل كما أمره يوسف عليه السلام.

وعندما اقترب الإخوة من قصر يوسف عليه السلام انتابهم الخوف وقالوا: أحضرونا هاهنا للفضّة الّتي وجدناها في أكياسنا في زيارتنا الأولى. سيتّهمنا العزيز بسرقتها، فسيتهجّم علينا بحدّة ويغلبنا ويأخذنا عبيدًا ويستولي على دوابّنا». ولمّا وصلوا باب القصر، قالوا لوكيل بيت العزيز: «من فضلك يا سيّدي، لقد جئنا إلى مصر أوّل مرّة لنشتري طعامًا، وفي طريق عودتنا، توقّفنا للمبيت، وعندما فتحنا أكياسنا، وجد كلّ

واحد منّا فضّته كاملة في فم كيسه، وها هي معنا لنردّها إليك، وإنّا لنجهل من وضعها في أكياسنا. وجئنا بفضّة أخرى لنشتري طعامًا». فقال الوكيل: «لا عليكم! لا بدّ أنّ ربّكم الّذي آمن به أبوكم وضع هذا الكنز في أكياسكم، وأمّا فضّتكم فقد وصلتني». ثمّ أحضر إليهم شِمعون. وأدخلهم إلى قصر العزيز، وأعطاهم ماءً ليغسلوا أرجلهم وعلفًا لدوابّهم. وعلموا أنّهم ضيوف على الغداء فهيّأوا الهدايا ليوسف عليه السلام.

وعندما جاء عليه السلام إلى القصر قدَّموا له الهدايا الّتي معهم وانحنوا إلى الأرض احترامًا له. فسألهم عن أحوالهم وقال: «كيف حال أبيكم الشيخ الّذي ذكرتموه لي؟ هل مازال على قيد الحياة؟» أجابوا: «يا مولانا، إنّ أبانا بخير وهو على قيد الحياة». وانحنوا تقديرًا له. فنظر حوله فرأى بنيمين أخاه من أُمّه وقال: «هل هذا أخوكم الصغير الّذي ذكرتموه لي؟» ثمّ قال له: "بارك الله فيك يا بُنيّ". ولمّا رأى يوسف عليه السلام بنيمين جاشت عواطفه فأسرع إلى الخارج ودخل غرفته الخاصّة وأجهش بالبكاء. ثمّ غسل وجهه وتمالك نفسه وعاد قائلاً: "قدِّموا الطعام". فقدّموا الطعام له، ولإخوته، وللضيوف المصريّين كلّ على حدة. لأنّ المصريّين لا يجوز لهم الأكل مع العِبرانيّين لاعتقادهم أنّ الأكل معهم يجعلهم نجسين. وأجلس عليه السلام إخوته أمامه، بالترتيب حسب أعمارهم، من البكر إلى الأصغر. فنظر بعضهم إلى بعض بدهشة. وأرسل النبي يوسف بعض الطعام من مائدته إليهم، فكانت حصّة بنيمين خمسة أضعاف حصّة الواحد منهم. فأكلوا وشربوا معه فرحين.

كأس النبي يوسف في كيس بنيمين(1)

وجاء يوم خروج الإخوة من مصر إلى بلادهم، فأمر يوسف عليه السلام وكيل بيته: «املأ أكياس ضيوفي قمحًا قدر ما يستطيعون حمله، وضعْ فضّة كلّ واحد في فم كيسه. وضَعْ كأسي الفضيّة في فم كيس أصغرهم مع مبلغ ثمن القمح». ففعل كما أمره النبي يوسف. وعند الفجر انصرف الإخوة بدوابّهم المحمّلة. وما إن ابتعدوا قليلاً عن المدينة حتّى قال النبي يوسف لوكيل بيته: «اِلحق بهؤلاء الرجال حالاً، وعندما

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 44: 1-17.

تدركهم قل لهم: لماذا كافأتم الخير بالشرّ؟ لماذا سرقتم كأس الفضّة الّتي يشرب فيها مولاي، وبِها يكشف أحوال الغيب؟ لقد ارتكبتم ذنبًا كبيرًا فيما فعلتم!»[1]

وعندما لحق الوكيل بهم، أعاد عليهم الكلام نفسه. فأجابوه: «لِمَ تقول هذا الكلام، يا سيّدي؟ حاشا لله أن نقدم على هذا العمل الشنيع، ونكون من السارقين! لقد حملنا الفضّة الّتي وجدناها في أفواه أكياسنا في الزيارة الأولى وأتينا بها من أرض كنعان، فكيف نسرق من بيت مولاك فضّةً أو ذهبًا؟ ها نحن أمامك، وإن وجدتَ الكأس مع أحدنا فاقتله، ونكون نحن أيضًا عبيدًا لك يا سيّدي». فقال: «ما كُنّا في الأرض ظالمين، وإنّما يكون عبدًا مَن أجد معه الكأس فقط، أمّا بقيّتكم فليعودوا إلى ديارهم».[2] فأسرع كلّ واحد منهم وأنزل كيسه من على دابّته وفتحه، وبدأ الوكيل بتفتيشهم من الأكبر إلى الأصغر، فإذا الكأس في كيس بنيمين. فمزّقوا ثيابهم حزنًا، وحمّلوا دوابّهم بالأكياس، وعادوا أدراجهم إلى قصر العزيز في المدينة.

وكان يوسف عليه السلام في القصر عند عودة يَهوذا وإخوته الّذين انبطحوا أرضا أمامه. فقال لهم يوسف عليه السلام صارمًا: «ما هذا الّذي ارتكبتموه؟ أما تعلمون أنّ رجلاً مِثلي يمكن أن يكشف ما خفي عنه بعلمه للغيب؟» فأجابه يَهوذا: «بماذا نجيبكم يا مولاي، وماذا نقول لكم، وكيف نثبت براءتنا؟ فضح الله إثمنا، يا مولاي. ونحن ومن وجدت الكأس في رحله نصير لك عبيدًا». فأجابه عليه السلام: «معاذ الله أن نأخذ عبدا إلاّ من وجدنا الكأس عنده، أمّا أنتم فعودوا إلى أبيكم آمنين».

طلب يهوذا[3]

وهنا تقدَّم يَهوذا نحو يوسف عليه السلام قائلاً: «أرجوك يا مولاي اسمع قولي، ولا تغضب على عبدك، فشأنك يا مولاي مِثل شأن فرعون. سألتَنا هل لدينا أب أو أخ آخر؟ فأجبناكم: أجل يا مولاي لدينا أب مسنّ رُزق بولد في شيخوخته، وقد

(1) انظر سورة يوسف: 70.

(2) انظر سورة يوسف: 71–75.

(3) استنادا إلى كتاب التكوين 44: 18–34.

مات أخوه وبقي هو الوحيد من أمّه، وكان أبوه يحبّه كثيرًا. فطلبتَ منّا يا مولاي، أن نحضره إليك حتّى تراه بأم عينيك. فأجبناك يا مولاي: سيموت أبونا حسرة إذا فارقه ابنه الصغير. فقلتَ لنا: «إن لم تحضروا معكم أخاكم الصغير، لن تروا وجهي مجدّدًا». فلمّا رجعنا، يا مولاي، إلى أبينا أخبرناه بما قلتَ لنا. وبعد حين قال أبونا: عودوا إلى مصر واشتروا لنا قليلاً من الطعام. فقُلنا: لا نقدر أن نعود، لأنّنا لا يمكن أن نرى وجه الوالي إلاَّ بمعيّة أخينا الصغير. فقال لنا أَبي: كما تعلمون، إنّ زوجتي راحيل أنجبت لي ولدين. فخرج أحدهما مِن بيتي، ولا شكّ أن وحشًا مزَّقه إربًا إربًا، لأنّي ما رأيتُ له أثرًا إلى الآن. فإن أخذتم ابني هذا أيضًا وأَصابه أذىً، تدفعونني إلى دركات الموت في شيبتي بحسرة وكمد. والآن يا مولاي لا يمكنني أن أعود إلى أبي دون أخينا الأصغر، لأنّ حياة أبينا مرتبطة بحياته، وإذا رأى أبونا أن أخانا ليس معنا، سيموت بلا ريب، ونحن من يتحمّل مسؤولية موته في شيبته بحسرة. يا مولاي، أنا تعهّدتُ لأبي بسلامة الولد، وقلتُ له: إن لم أرجعه إليك، أكون مذنبًا في حقّك طول حياتي. والآن يا مولاي أرجوك أن تسمح لي أن أبقى هنا وأكون عبدًا لك بدل أخي الأصغر، واسمح له بالعودة مع إخوته. فكيف يمكنني أن أعود إلى أبي من دونه، إنّي لن أتحمّل رؤية ما سيحلّ بأبينا».

النبي يوسف يكشف عن حقيقته[1]

فلم يستطع يوسفعليه السلام أن يتمالك نفسه أمام جميع القائمين على خدمته فأمرهم بالخروج جميعًا، فلم يكن معه سوى إخوته حين كشف لهم عن هويّته. فرفع صوته بالبكاء فسمعه المصريّون وبلغ الخبر أهل قصر فرعون. وقال النبي يوسف لإخوته: «أنا يوسف! أمازال أبي على قيد الحياة!؟» ولم يستطِع إخوته التفوّه بكلمة واحدة لأنّهم ارتعبوا من وجوده حيًّا أمامهم.

فقال لهمعليه السلام: «اقترِبوا منّي». فاقتربوا منه، ثمّ قال: «أنا يوسف أخوكم، لقد بعتموني إلى تجّار أتوا بي إلى مصر. والآن لا تأسفوا ولا تلوموا أنفسكم على ما

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 45: 1–15.

فعلتم، فالله أرسلني أمامكم لأحفظ حياتكم. إنّ المجاعة الّتي حلّت علينا منذ سنتين ستستمرّ خمس سنين أخرى لا فلاحة فيها ولا حصاد، فأرسلني الله أمامكم ليحفظكم وذريّتكم في الأرض ويُنجّي حياتكم بطريقة عظيمة. ما أنتم الّذين أرسلتموني إلى هنا، بل الله هو الّذي أرسلني. وجعلني وليّ فرعون، ومشرفًا على قصره، وعزيزا على كلّ أرض مصر. فعجلوا بالعودة إلى أبي وأخبروه: هذا ما يقولُه ابنك يوسف: جعلني الله سيّدًا على بلاد مصر. تعال إليّ ولا تتأخّر، أريدك أن تُقيم بأرض جاسان لتكون قريبًا منّي، أنت وأولادك وأحفادك وأغنامك وأبقارك وكلّ ممتلكاتك. وسأتكفّلُ بمعيشتكم لأنّ المجاعة ستستمرّ خمس سنوات أخرى، حتّى لا تهلك جوعًا أَنت وأهل بيتك وكلّ المواشي. يمكنكم أن تتأكّدوا بأعينكم كما تأكّد أخي بنيمين أنّي يوسف حقًّا! أخبروا أبي بمقامي المجيد هنا في مصر وبكلّ ما رأيتم، وعجّلوا في إحضاره إلى هنا».

وتعانق يوسف عليه السلام وأخوه بنيمين وبكيا من الفرح. وقبّل عليه السلام جميع إخوته وبكى معهم. وأخذوا يكلّمونه دون خوف.

دعوة فرعون[1]

ولمّا بلغ خبر مجيء إخوةِ يوسف إلى القصر، فرح فرعون ورجال حاشيتِه. وقال فرعون ليوسف عليه السلام: «اطلب من إخوتك أن يحمِّلوا دوابّهم ويسرعوا إلى بلاد كنعان، ويعودوا صحبة أبيهم وأهل بيتهم ويأتوني لأُعطيهم أجود أرض في مصر، فيتمتّعوا بخيرات البلاد. وأُوصيك أن تقول لهم أيضًا: خُذوا مركبات من مصر لنقل أطفالكم وزوجاتكم، ولا تنسوا أن تأتوا بأبيكم. ولا يهُمّكم أن تتركوا أملاككم هناك، فأجْوَد ما في أرض مصر تحت أمركم».

العودة إلى أرض كنعان[2]

وفعل بنو يعقوب كما أمرهم فرعون. وأعطاهم يوسف عليه السلام مركبات وزادًا للطريق

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 45: 16–20.
(2) استنادا إلى كتاب التكوين 45: 21–28.

وأعطَى كلّ واحد منهم ثيابًا جديدة، أَمّا بنيمين فأعطاه ثلاث مئة قطعة من الفضّة وخمس حُلل من الثياب، وأرسل إلى أبيه عشر دوابّ محمَّلة مِن أجود منتوجات مصر، وعشر أُتُن محمَّلة قمحًا وخبزًا وزادًا لسفر أبيه. ثمّ صرف إخوته في سبيلهم، وقال لهم: «لا تتخاصموا في الطَّريق».

وعادوا إلى أبيهم يعقوب. وأخبروه أن: «يوسف مازال حيًّا! وقد أصبح واليًا على أرض مصر كلّها!» فاندهش النبي يعقوب ولم يُصدِّقهم. لكنّهم أعادوا على مسمعه كلّ ما قاله النبي يوسف لهم، وأروه المركبات الّتي أرسلها لنقله إلى مصر، فصدّقهم وتعافى وانبعثت فيه الحياة. وقال لهم: «إذن ما ذكرتموه هو الحقّ! ابني يوسف مازال حيًّا! لا بدّ أن أذهب إليه وأراه قبل أن أفارق الحياة».

رحيل النبي يعقوب إلى مصر(1)

فأخذ النبي يعقوبُ جميع ما يملك ورحل إلى مصر، وعندما وصل إلى بئر السبع، ذبح أضحية إكرامًا لله الّذي آمن به أبوه إسحق. وفي الليل أوحى الله إليه: «يعقوب، يعقوب!» قال: «لَبَّيك!» فأجابه تعالى: «أنا الله ربّ أبيك. لا تخف في رحيلك إلى مصر، فهناك أجعلك أُمّةً عظيمةً. وأكون معك في رحلتك إلى مصر وأجعلك تعود إلى كنعان، أمّا أنت فسترحل عن هذه الدنيا بحضور ابنك يوسف الذي سيغمض عينيك بيديه».

ثمّ ترك يعقوبُ بئر السبع، بعد أن أركبه أبناؤه مع أطفالهم وزوجاتهم على المركبات الّتي أرسلها فرعون. وأخذوا مواشيهم وكلّ ممتلكاتهم واتّجهوا إلى مصر. ورافق يعقوب جميع أهل بيته، أبناؤه وبناته وأحفاده وحفيداته.

لقاء يعقوب ويوسف(عليهما السّلام)(2)

وعندما اقترب النبي يعقوب ومن معه من مصر، أرسل ابنه يَهوذا أمامه إلى

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 46: 1–7.
(2) استنادا إلى كتاب التكوين 46: 28–34.

النبي يوسف كي يرشدهم إلى طريق جاسان. ولمّا وصلوا إلى منطقة جَاسان، أعدّ يوسفعليه السلام مركبته واتّجه إلى هناك ليستقبل أباه يعقوبعليه السلام، وحين رآه أقبل عليه وعانقه وبكى طويلاً. فقال له النبي يعقوب: «مَرْحبًا بالموت يا ولدي بعد أن رأيتك حيًّا».

وقال يوسفعليه السلام لإخوته ولأهل بيت أبيه: «سأذهب الآن إلى فرعون لأقول له: لقد جاء إليّ إخوتي وأهل بيت أبي الّذين كانوا يقيمون في أرض كنعان. وهم رعاة غنم وأصحاب مواش، وقد أتوا بأغنامهم وأبقارهم وجميع ممتلكاتهم. وعندما يدعوكم فرعون ويسألكم: ما حرفتُكم؟ أجيبوه: يا مولانا، نحن رعاة، أبا عن جد، طيلة حياتنا. وبهذه الطريقة يمكنكم أن تقيموا بأرض جاسان، لأنّ المصريين يرفضون التقرّب من رعاة الغنم».

النبي يعقوب أمام فرعون[1]

ودخل يوسفُعليه السلام على فرعون وأخبره: «لقد وصل أبي وإخوتي من أرض كنعان بأغنامهم وأبقارهم وكلّ ممتلكاتهم، وقد شارفوا الآن على منطقة جاسان». واختار يوسفعليه السلام خمسة من إخوته وأحضرهم أمام فرعون. فسألهم فرعون: «ما حرفتُكم؟» فأجابوا: «نحن يا مولانا رعاة غنم، كما كان أسلافنا. وجئنا لنقيم في أرضك، فلا مَرعى لغنمنا بعد أن اشتدت المجاعة في كنعان. فاسمحْ لنا أن نقيم بأرض جاسان». فالتفت فرعون إلى النبي يوسف وقال له: «بما أنّ أباك وإخوتك جاؤوا إليك، فإنّ أرض مصر تحت تصرّفك، فاختر أحسن الأراضي ليسكنوا فيها، أرض جاسان مثلاً، وإن كنتَ تعلم أنّ فيهم مهارة في رعاية الغنم، فأوكلْهم على ماشيتي أيضًا».

ثمّ أدخل يوسف أباه يعقوبَ(عليهما السّلام) وأجلسه في حضرة فرعون. فطلب النبي يعقوب بركة الله لفرعون. وسأله فرعون: «كم عمرك؟» فأجابه النبي يعقوب: «أنا عابرٌ في هذه الدنيا منذ مئة وثلاثين سنةً. ولكن حياتي كانت قصيرة وقاسية مقارنة بحياة أجدادي. ثمّ طلب النبي يعقوب مرّة أخرى بركة الله لفرعون وخرج مِن حضرته.

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 47: 1-12.

فأعطى يوسف‍ عليه السلام أباه وإخوته أجود أرض مصر في إقليم رَعَمْسيس يقيمون فيه، كما أمر فرعون. وزوّد النبي يوسف أباه وإخوته وسائر أهل بيت أبيه بما يحتاجونه مِن طعام حسب عدد عيالهم.

خطة النبي يوسف الزراعية[1]

ونفد الطعام في كلّ مكان لأنّ المجاعة قد اشتدّت، وأصاب القحط مصر وكنعان. وتولّى يوسف‍ عليه السلام جمع كلّ الأموال في مصر وكنعان من خلال بيع القمح، واذّخرها في خزينة فرعون. وأقبل المصريّون إلى يوسف‍ عليه السلام بعد أن نفد مالهم، وتوسّلوا إليه قائلين: لقد نفد مالنا! أعْطِنا خبزًا حتّى لا نهلك من الجوع!» فأجابهم النبي يوسف: «لئن نفد مالكم، فإن ماشيتكم باقية فأعطوني ماشيتكم أُعطكُم طعاما». فجاؤوا إلى يوسف‍ عليه السلام بمواشيهم ودوابّهم، فأمدّهم بطعام مقابل ذلك خلال تلك السنة.

فلمّا انقضت تلك السّنة عادوا في السّنة الموالية إلى النبي يوسف وقالوا له: لا نخفيك يا سيّدي أنّ الفضّةَ نفدت، ومواشينا خرجت من ملك أيدينا إليك، ولم يبق لنعطيك سوى أبداننا وأراضينا. هل تريدنا أن نموت أمام ناظريك وتهلك أرضنا؟ نريد أن نصير وأرضنا ملكا لك مقابل الطعام، فنصير عبيدًا لفرعون، وأعطِنا قمحًا فنحيا ولا نموت، ولا تصير أرضنا قاحلة».

واشترى يوسف‍ عليه السلام لفرعون جميع أراضي المصريِّين، لأنّ كلّ واحد منهم باع حقله مِن شدّة المجاعة. فصارت الأرض ملكًا لفرعون. ونقل النبي يوسف الناس من كلّ أطراف مصر إلى المدن. واشترى‍ عليه السلام كلّ الأراضي ما عدا أراضي الكهنة الذين لم يضطروا إلى بيعها لأنهم كانوا يحصلون على حصة من الطعام ممّا خصّهم به فرعون.

وأعلن يوسف‍ عليه السلام للشعب: «لقد أصبحتم اليوم وأراضيكم ملكًا لفرعون، فخُذوا بذورًا وازرعوها. وعند الحصاد تعطون خُمس المحصول لفرعون، وتبقى البقية

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 47: 13–26.

عندكم بذورًا للحقول وطعامًا لكم». فأجابوا: «يا مولانا لقد أنقذتَ حياتنا، دعنا نكون في خدمة فرعون». فأصدر النبي يوسف مرسومًا سَرَى مفعوله على أهل مصر، ويقضي المرسوم أن يكون خُمس المحصول لفرعون، باستثناء أراضي الكهنة الّتي لم تصبح من أملاك فرعون.

وصية النبي يعقوب قبل وفاته[1]

واستقرّ بنو يعقوب بمنطقة جاسان في أرضِ مصر، وامتلكوا هناك مُلكا كبيرا، وتكاثر عددهم كثيرا. وعاش النبي يعقوب عليه السلام سبع عشرة سنة في أرض مصر، وتوّفي عن سن مئةً وسبع وأربعين. ولمّا اقتربت ساعة وفاته، دعا ابنه يوسف وقال له: «إذا كنت تحب أباك حبّا مرضيّا، فأقسم لي قسم اليمين أن تكون لهذا الوعد وفيّا، وأن تنفّذ ما جعلتك عليه وصيّا: لا تتركني في مصر دفينا، بل احمِلْ جثماني وادفنه في مقبرة آبائي». فاستجاب له النبي يوسف ووعده بذلك. فقال يعقوب عليه السلام: «أقسم لي على ذلك». فأقسم يوسف اليمين. ثمّ انحنى يعقوب على سريره ساجدًا.

مباركة يعقوب لمنسّى وأفرايم[2]

وبعد أيّام بلغ يوسف عليه السلام أنّ أباه مريضٌ، فزاره واصطحب معه ابنَيهِ منَسَّى وأفرايم. وعند وصولهم، علم النبي يعقوب بالخبر، فاستجمع قواه وجلس على فراشه.

وقال ليوسف: «لقد تجلّى لي الله القويّ المتين بجوار بلدة لُوز في أرض الكنعانيّين، وباركني وكشف لي الحق اليقين: «سأكثر نسلك وأجعل منك أممًا كثيرة، ولنسلك مِن بعدك آتمن هذه الأرض على مدى السنين». يا يوسف، إنّ ابنيك منَسَّى وأفرايم اللّذين رزقك الله بهما في أرض مصر، ابناي أيضا، تمامًا مثل رَأوبين وشِمعون. وإذا رُزقتَ بأولاد بعدهما فهم أبناؤك وينالون نصيبهم مِن الأراضي الّتي يملكها منَسَّى وأفرايم.

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 47: 27–31.
(2) استنادا إلى كتاب التكوين 48: 1–22.

فقد توّفيت أُمّك راحيل في أرض كنعان على مقربة من أفراتة وهي لا تزال صغيرة، فدفنتُها هناك بجانب الطريق قبل وصولنا إلى بيت لحم».(1)

ولمّا رأى النبي يعقوب ابْنَيْ يوسف، قال: «مَن يكون هذان الولدان؟» فأجاب يوسفعليه السلام: «هما ابنايَ وقد رزقني الله بهما في مصر». فقال يعقوبعليه السلام: «قَرِّبْهما منّي حتّى أدعو لهما بالبركات». ولم يستطع النبي يعقوب أن يبصر لأنّ عينيه أبيضّت من الكِبَر. فقرّب النبي يوسف ابنيه من أبيه، فقبَّلهما واحتضنهما وقال ليوسف: «عجبا! ما توقّعتُ أن أرى وجهك يا يوسف، ولكنّ الله أراني ابنيك أيضًا!» ثمّ أخذ يوسفعليه السلام ابنيه من حضن أبيه وانحنى إلى الأرض تقديرًا له.

وقرّب ابنيه من أبيه مرّة أخرى جاعلاً منَسَّى على يمين النبي يعقوب وأفرايم على يساره، فمدَّ النبي يعقوبُ يديه بطريقة متقاطعة. فوضع يمينه على رأس أفرايم مع أنّه الأصغر ويساره على رأس منَسَّى مع أنّه البكر.(2) وطلب بركة للنبي يوسف قائلا:

"اللهمّ، يا من سلك في سبيلك جدي إبراهيم،

يا من أنرت لأبي إسحق الصراط القويم،

يا مَن ترعاني على مدى السنين،

يا الله، يا من أرسلت إليّ ملاكا يحرسني ويحميني

اجعل هذين الولدين من المباركين.

يرفعان من شأني وشأن أبي إسحق وجدّي إبراهيم

واجعل نسلهما في الأرض كثيرين».

(1) اعتبر النبي يعقوب أنّ راحيل تستحق نصيبا أكبر لولديها يوسف وبنيمين، لأنّه أحبّها أكثر من بقية زوجاته. ويرى النبي يعقوب أن راحيل توّفيت في سن مبكرة ولم تتمكن من إنجاب عدد كبير من الأولاد.

(2) كان من حق الوالد أو الجد أن يختار وريثه المميز من بين بقية أبنائه. ونرى أنّ النبي يوسف تفاجأ من عمل أبيه يعقوب عندما فضّل الابن الأصغر على الابن البكر، ولم يكن هذا الاختيار مخالفا لعادات زمانهم. وأعطى النبي يعقوب بركات متشابهة لكل من حفيديه، وفي هذا دليل على أنه منح أفرايم امتياز الصدارة فقط.

وحين رأى يوسف عليه السلام يمنى أبيه على رأس أفرايم كره ذلك لولده منسّى، فأمسك بيد أبيه برفق. وقال بلين: «لا يا أبي، إنّ من على يمينك هو البكر، ويمناك على رأس أفرايم تكون». فأبى يعقوب النبيّ وقال: «أعرف ذلك يا بني. يصبح مَنَسَّى شعبًا كبيرًا، ولكنّ أخاه الأصغر يصير أعظم منه، ومن نسله ينحدر عدد من الأُمم كثير».

وفي ذلك اليوم دعا النبي يعقوب بركة الله لهما، قائلاً: «سيذكر بنو يعقوب اسْمَيْكما في دعائهم للناس، وسيقولون: «ليجعلك الله مثل أفرايم ومثل مَنَسَّى». وهكذا قَدَّم النبي يعقوب أفرايِم على منَسَّى.

ثمّ قال النبي يعقوب لابنه يوسف: «يا بُنيّ أصغ إلي، أنا على وشك الرحيل، ولكنّ الله يكون معكم خير معين ويردُّكم إلى أرض آبائكم الأوّلين. وإنّك يا يوسف تفوق إخوتك في النصيب، فقد منحتُك فوق ميراثك إقليم شَكيم الخصيب، ذاك الذي أخذتُه بسيفي وقوسي مِن الأموريّين».

نبوءة النبي يعقوب عن أبنائه ودعاؤه لهم[1]

ثمّ دعا النبي يعقوب بنيه، فأقبلوا نحوه منصتين:

"التفّوا حولي يا أبنائي، حتّى أكشف لكلّ واحد منكم ما قُدّر له ولنسله من قضاء:

يا بني يعقوب اجتمعوا،

وإلى أبيكم استمعوا.

يا رَأوبين أنت بكر أولادي الأحباب،

أنت قوّتي وأوّل مولود لي في عنفوان الشباب.

فائق المكانة أنت

وفائق المتانة كنت،

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 49: 1–27.

هائج كالسّيل أنت، تهدّ ما أمامك
لكنّك تفقد صدارة مقامك.
علَوتَ فراش أبيك واقترفت الحرام.
فَحرَّمتَ جاريتي عليّ بما أتيت من إجرام.

شِمعون ولاوي من طينة واحدة يتأتّيان،
وللبطش سيفاهُما مصقولان،
فاجتنبي يا نفس مشورتهما
وابتعدي عن صُحبتهما.
فقد غضبا فقتلا أناسًا من الجيران،
وحين يلهوان يكسِّران مفاصل الثّيران.
ما أشرّ غضبهما إنّه لشرّ لئيم،
نعم، غيظهما قاس بغيض ومآله وخيم!
من أجل ذلك تُبدّد ذريتهما
وفي أرض بني يعقوب يُشتَّتون.

أمّا أنت، يا يَهوذا، فبين إخوتك عزيز كريم،
تعلو رقاب أعدائك المنهزمين.
ويكون كلّ أقاربك أمامك منحنين.
يا يَهوذا، أنت مثل شِبل أسدٍ في الخلاء
التهم فريسته وقام يتمشّى في خيلاء،
تجثو وتربض كأسدٍ متين

أو كلَبوةٍ جامحة، فمَن يدنو من حماك العتيد؟
لا تنقطع من نسلك سلالة الحكّام
ولا تزول مِن ذرّيّتك عصا السلطان،
حتّى يأتي صاحب الحقّ المبين،
فتنصاع له جميعُ الأُمم ويكرمونه خاضعين.
وتكون أرضه خصبة خضراء
فلا يهمّه إن ترك جحشه يأكل من الكروم،
أو غسل ثيابه بعصير الأعناب،
ويتمتّع بفيض من هذا العصير،
وبسيول من الحليب الوفير.

أمّا أنت يا زَبولون ففي ساحل البحر يكون السّكن
هناك تنشئ مَرفأ للسّفن،
وتمتدّ أرضك إلى صيدا.

يسَّاكَر ولدي كضخم البغال
مستكين تحت الأحمال.
وحين يرى ما حظي به على الأرض من خيرات ونعم
يحني كتفه للحمل
ويستعدّ لشاقّ الأعمال.

دانُ يَدينُ أهل عشيرته

وشأنه لا يقلّ عن بقية قبائل بني يعقوب
وكذلك شأن قبيلته
قد يكون كثعبان على الطريق صغيرا
ولكنّه لمن يقترب منه خطيرا،
هو أُفعوان على السّبيل يترقّب،
يلسع الفرس في عقبها ويتعقّب
ويسقط فارسها إلى الخلف ويتهرّب
سترك يا الله ونجاتك من وقيعته!

وأنت يا جادُ أرضك مرمى الغُزاة،
ولكنّك تطاردهم بدورك فتلحق بهؤلاء القساة.

ويكون أشيرُ دسم الطعام
يثير طعامه شهيّةَ الملوك العظام.

نفتالي كغزالة طليقة
تلدُ ظباءً جميلةً.

يوسف غصن شجرة مثمر على عين ماء رقراق،
امتدّت جذوره على الحائط وفي الأعماق
ولكن ها هنا رماة بكلّ عنف هاجموه
أطلقوا عليه سهامهم وكدّروه.

ولكنَّه ثبت في المعركة ولم يصبه الإخفاق،
وبقدرة الله العزيز الذي آمن به يعقوب، قويت يداه
إنّ الله الحصن الحصين حماه من أعدائه ورعاه.
اللهمّ انصر ابني يوسف الحبيب،
وباركه ببركات الغيث من الآفاق
وبركات أنهار تنبع من الأعماق
باركه يا ربّ بكثرة المواشي والبنين،
إنّك القوي المتين.
لقد حظيتُ ببركات تفوقُ الجبال سموّا
وبخيرات تبلغ قمم الروابي علوّا.
اللهمّ، اجعل كلّ هذه البركات تحلّ على ابني يوسف الحليم
الذي نذرتُه لك من بين إخوته الآخرين.

بِنيمينُ يكون محاربًا، إنّه كذئب مفترس قويّ،
يهجم على عدوه صباحًا ويغنمه مساءً».

وصية النبي يعقوب قبل وفاته[1]

هؤلاء هم جميعًا قبائل بني يعقوب الاثني عشر،[2] وهذا ما تنبّأ به يعقوب عليه السلام لهم قبل وفاته، فدعا لكلّ واحد منهم بما يناسبُهُ. ثمّ أوصاهم قائلاً: «قريبًا أغادركم وأنضمّ إلى أسلافي الراحلين. فادفنوني مع أبي وجدي في مغارة حقل المَكفيلَة،

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 49: 28–33.

(2) لقد اختار الله قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة لمواصلة مهمّة النبي إبراهيم، إذ أوحى الله إليه أنه وذريته يكونون وسيلة بركاته تعالى إلى أمم الأرض جميعا. لكنهم فشلوا في مهمتهم هذه، فاختار الله حواريي السيد المسيح الاثني عشر لكي يتحمّلوا هذه المهمة.

بجوار بلوطات مَمْرا في أرض كنعان، تلك المغارة الّتي اشتراها جدي إبراهيم مع الحقل من عَفرون الحثّيِّ. وفيها دُفن إبراهيمُ وزوجتُه سارة، وإسحَق وزوجته رِفقَةُ، وهناك دفنتُ زوجتي ليئة. فانتقلت ملكية الحقل والمغارة الّتي فيه مِن الحِثّيين إلى جدي إبراهيم». ولمّا فرغ النبي يعقوب مِن وصيّته لأبنائه، تمدّد على فراشه وتنفّس نفسًا أخيرًا وانضمَّ إلى أسلافه السّابقين.(1)

مأتم النبي يعقوب ودفنه(2)

وارتمى يوسف عليه السلام على أبيه وقبّله وبكاه. وأوصى الأطبّاء أن يُحنِّطوه، ففعلوا ما أمرهم به. واستغرَق التحنيط كما هي عادة المصريّين أربعين يومًا. وأعلن المصريّون حدادًا على النبي يعقوب سبعين يومًا. ولمّا انقضت أيّام الحداد على يعقوب عليه السلام قال النبي يوسف لرجال حاشية فرعون: «أسدوا لي معروفا، كلّموا فرعون نيابةً عني وأخبروه أن أبي استحلفني وهو يموت: إنّي على وشك الموت يا ولدي، فاحملْ جثماني من بعد موتي إلى بلاد كنعان وادفنه في القبر الذي أعددته لنفسي». فاسمح لي، أيها الفرعون، أن أذهبَ لأدفن أبي ثمّ أعود». ووافق فرعون على طلب النبي يوسف، قائلاً: «اذهبْ واعمل بوصيّة أبيك».

فاتّجه النبي يوسف إلى بلاد كنعان ليدفن أباه، ورافقه جميع رجالِ حاشية فرعون وكبار قصره، وجميع أعيان مصر، وصحب يوسف عليه السلام جميع أهل بيته وإخوته وأهل بيت أبيه، وتركوا عيالهم وأغنامهم وأبقارهم في منطقة جاسان. ورافق النبي يوسفَ عددٌ كبير من المركبات والفرسان.

ولمّا وصلوا إلى بيدر أطاد في الضفة الشرقية من نهر الأردنّ، أقام الحضور مراسم تذكارية على يعقوب عليه السلام، وندبوه كثيرًا، وصنع النبي يوسف مأتمًا لأبيه استغرق سبعة أيّام. وراقب الكنعانيون، وهم سكّان تلك المنطقة، المأتم في بيدر أطاد فقالوا: «ما أشدّ الحزن في جنازة المصريين!» وأطلقوا بالعبريّة على هذا الموضع القريب من نهر الأردن «حداد المصريين».

---

(1) قارن سورة البقرة: 133.

(2) استنادا إلى كتاب التكوين 50: 1–14.

وهكذا أنجز أبناء يعقوبعليه السلام ما أوصاهم به أبوهم، فحملوا جثمانه إلى أرض كنعان ودفنوه في مغارة حقل المَكفيلَة، بجوار مَمْرا، الّتي اشتراها النبي إبراهيم مع الحقل مِن عِفرون الحثِّيّ. وبعد الجنازة قفل النبي يوسف عائدًا إلى مصر صحبة إخوته وسائر مَن رافقه إلى بلاد كنعان لدفن أبيهعليه السلام.

وفاة النبي يوسف[1]

وبعد وفاة يعقوبعليه السلام خاف الإخوة من النبي يوسف، وقال بعضهم لبعض: «لعلّ يوسف يحقد علينا فينتقم منّا الآن على الشرّ الّذي ارتكبناه في حقّه». فأرسلوا مَن يقول ليوسفعليه السلام: «لقد أوصانا أبوك قبل موته أن نقول لك: «أرجوك أن تسامح إخوتك على الذنب الذي اقترفوه في حقك». فنحن عباد الله الذي آمن به أبوك، نتوسّل إليك أن تسامحنا». فبكى يوسفعليه السلام حين بلغته هذه الرسالة.

ثمّ جاء إخوته فارتموا أمامه وقالوا: «نحن خدامك الآن». فقاطعهم النبي يوسفُ قائلاً: «لا تخشوا شيئًا. هل أنا مكان الله لأجازيكم؟ أنتم أردتم بي شرًّا ولكنّ الله أراد بي خيرًا، ورفعني إلى هذا المنصب لينقذ من خلالي حياة أناس كثيرين. فلا خوف عليكم. أنا أعولُكم أنتم وعيالكم». وطمأنهم وهدّأ من روعهم.

وأقام النبي يوسف في مصر طويلاً، مع أهل بيت أبيه، وعاش مئةً وعشر سنين. وحضر الجيل الثالث من ذرية ابنه أفرايم، إضافة إلى أبناء حفيده ماكير بن منَسَّى الذين اعتبرهم من أولاده.

وقال النبي يوسف لإخوته: «حانت ساعة موتي، والله سيرعاكم ويخرجكم مِن هذه الأرض إلى الأرض الّتي أقسم ووعد بها أسلافكم إبراهيم وإسحَق ويعقوب». واستحلف النبي يوسف إخوته قائلاً: «عندما ييسر الله خروجكم من هنا، احملوا عظامي معكم».

وتوفّي النبي يوسفعليه السلام بعد أن بلغ مئة وعشر سنين، فحنَّطه المصريون ووضعوه في تابوت في مصر.

(1) استنادا إلى كتاب التكوين 50: 15–26.

قصّة النبي موسى عليه السلام

مدخل إلى قصّة النبي موسى عليه السلام

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [سورة الصافات: 114، 115]

عاش النبي موسى عليه السلام بعد وفاة النبي يوسف بـ 250 سنة تقريبا. ويحظى النبي موسى بكثير من التبجيل والاحترام في الدّيانات الإبراهيمية الثلاث، بالإضافة إلى آخرين الذين يقدّرونه كقائد ومشرّع. ويأتي ذكره 502 مرّة في القرآن الكريم.

ولد النبي موسى عندما لم يعد بنو يعقوب مرحّبا بهم وقلّ الاحترام الذي كانوا يلاقونه في مصر زمن يوسف عليه السلام، بل رأى فيهم فرعون احتمال الخطر بسبب تزايد أعدادهم واحتمال انضمامهم إلى صفوف أعداء مصر. فأصدر فرعون مرسوما يأمر فيه بقتل حديثي الولادة من ذكور بني يعقوب، غير أن المؤرخ اليعقوبي لاحظ ما يلي: «وأوحى الله إلى أمّ موسى أن اعملي تابوتا ثم ضعيه فيه وأخرجيه ليلا فاطرحيه في نيل مصر. ففعلت ذلك وضربته الريح فطرحته إلى الساحل.»

وجاء في التوراة أن ابنة فرعون وجدت الطفل وتبنّته ابنا لها. وعندما بلغ الرشد ظنّ أن إخوته من بني يعقوب سيدركون أن الله أرسله لإنقاذ قومه من العبودية، لكنّهم لم يدركوا ذلك. وحاول النبي موسى إنقاذ أحد أبناء شعبه من الأذى إلاّ أنّه قتل مصريا عن غير قصد، فاضطر إلى الفرار هاربا إلى بلاد مِديَن حيث أقام هناك

40 سنة واشتغل راعيا عند يثرون (ويظنّ البعض أنه شعيب المذكور في القرآن)، وتزوج ابنته صفورة.

وفي الصحراء، تجلّى الله لموسى وسط قبس من النّار في عليقة، ودعاه تعالى إلى العودة إلى مصر من أجل إنقاذ قومه، إلاّ أن النبي موسى اعترض قائلا أنه لا يستطيع التكلّم بفصاحة، فاختار الله أخاه هارون ناطقا نيابة عنه. وأجرى الله عشر آفات على يدي النبي موسي ليظهر أنّه ربّ العالمين وأنّ يده فوق كلّ الآلهة والأصنام التي عبدها المصريون. وفي النهاية أخرج النبي موسى بني يعقوب من مصر عابرين للبحر الأحمر. فأنقذهم الله وأهلك جيش فرعون كما جاء في سورة البقرة الآية 49: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾.

ومن هناك قاد النبي موسى بني يعقوب إلى صحراء سيناء، وعند جبل سيناء أنزل الله إليهم الوصايا العشر، وغيرها من وصايا الشريعة، غير أنّهم جحدوا هداية الله لهم متعنّتين فجعلهم الله يتيهون في الصحراء أربعين سنة. وجاء في القرآن بخصوص أرض كنعان: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة المائدة: 26]. وفي نهاية هذه الفترة توفي النبي موسى في جبل نيبو في مرتفعات الضفة الشرقية لنهر الأردن فلم يدخل أرض الميعاد.

ويمكننا أن نرى من خلال قصة النبي موسى عناية الله بقوم ميثاقه، فالله تعالى قادر أن ينجيهم من الأذى، ونرى أيضا كيف أن الله يريد أن يكشف عن ذاته للعالمين حتى يتركوا عبادة الأصنام ليعبدوا الله الواحد الأحد الذي لا شريك له. ومن خلال إعطاء الشريعة أخذ الله عباده من مفاهيمهم الأخلاقية المحدودة إلى مفاهيم أخلاقية أرقى وأسمى. فوردت في الإنجيل الخطب الخمس الكبرى للسيد المسيح (الإنجيل، متّى الفصول 5 و 6 و 7 و 8؛ والفصل 10؛ والفصل 13؛ والفصل 18؛ والفصلين 24 و 25) التي تساوي أسفار النبي موسى الخمسة، وبتقديم هذه الخطب الخمس يلمّح الإنجيل إلى أنّ السيد المسيح يكون الرسول المنتظر الذي أشار إليه النبي موسى عندما قال إنّه سيأتي رسول مثله من شعبه (انظر سفر التثنية 18: 15)، وأنّ تعاليم السيد المسيح تحقّق مقاصد الله للتوراة.

وفي التوراة وهب الله البصير العليم لقوم موسى نظاما للقرابين والأضاحي في بيت الله كوسيلة للحصول على المغفرة حين أخطؤوا سهوا. ومع ذلك لم يكن بمقدور هذا النظام الذي يشرف عليه رجال الدين الأحبار أن يجعل العابدين مقبولين نهائيا، فكما جاء في الإنجيل: ((ومن الواضح أنّ هذه الأضاحي والقرابين لا يمكنها أن تطهّر ضمائر العابدين)) [الإنجيل، رسالة العبرانيين 9: 9].

لهذا السبب وعد الله بعد زمن النبي موسى على لسان نبيه إرميا أنّه سينقش شريعته على قلوب المؤمنين وهذا ما تحقّق في عصر السيد المسيح.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النبي موسى عليه السلام

اضطهاد بني يعقوب في مصر[1]

انتقل النبي يعقوب عليه السلام إلى مصر مع جميع أبنائه وأحفاده السبعون. وأبناؤه هم: رَأُوبين، شِمْعون، لاوي، يَهوذا، يَسّاكَر، زَبولون، بِنْيمين، دان، نَفْتالي، جاد، وأشير. ورحل كلّ منهم مع أهل بيته. وكان يوسف عليه السلام في مصر عندما انتقل إليه يعقوب عليه السلام. ومع مرور الزمن توفّي النبي يوسف وجميع إخوته وانقضى سائر جيله. وازداد في المقابل عدد بني يعقوب فتكاثروا وعظُم شأنهم فتواجدوا في كل أطراف أرض مصر.

واعتلى بعد فترة ملك جديد عرش مصر. ولم يكن هذا الملك يعرف شيئًا عن النبي يوسف، ولا عن الخير الذي جلبه إلى مصر. فقال لشعبه: «انظروا، إنّ بني يعقوب يفوقوننا عددًا ألا ترون أنهم صاروا أقوى منّا؟! فعلينا أن نتعامل معهم بدهاء وحيلة، لئلاَّ يزداد عددهم أكثر. فإن لم نفعل، واندلعت حربٌ، انضموا إلى صفوف أعدائنا وحاربونا ثمّ هربوا من بلادنا». فاستعبد المصريون بني يعقوب،[2] وجعلوا

(1) استنادا إلى التوراة، سفر الخروج 1:1-22.

(2) لا تتلخّص خطيئة فرعون في جعل بني يعقوب عبيدا له فقط، بل تتجاوز ذلك إلى محاولته التقليل من ذريتهم، وهذا تحد واضح لأمر الله تعالى عندما أمر آدم وحواء وذريتهما أن يتكاثروا ويعمروا الأرض. وجعل فرعون من نفسه منافسا لله وأراد الخراب لخلقه تعالى. فالصراع هنا ليس بين بني يعقوب والمصريين، ولا بين النبي موسى وفرعون، بل هو صراع بين الله وفرعون الذي ادّعى أنه رب.

عليهم رؤساء يُرهقونهم بأعمال شاقة، وأجبروهم على بناء مدينتَي فيثوم ورَعْمَسيس كمخازن لفرعون. ورغم الذلّ والهوان، تكاثر عددهم وانتشر، حتّى استبد الخوف بالمصريّين فاستعبدوهم بلا رحمة. وساموهم سوء العذاب بالأشغال الشاقّة في البناء وخدمة الحقول. وعاملوهم بلا رحمة.

ثمّ أمر فرعون القابلتَيْن العبرانيّتين شِفْرة وفُوعة قائلاً: «أُقْتُلا كلّ مولود ذكر تلده عبرانية، أمّا إذا كان المولود بنتًا فلا تقتلاها». وكانت القابلتان تخشيان الله، فلم تنفّذا أمر فرعون، ولم تقتلا أي مولود. واستدعى فرعون القابلتين وسألهما: «لماذا تركتما الأولاد أحياء؟»

فأجابتا: «إنّ العبرانيّات نساء لا كالنساء المصريّات، إنّهنّ قويّات، يلدن بسرعة قبل وصولنا إليهنّ». وكَثُرَ بنو يعقوب وعَظُمَ شأنهم. وأحسن الله إلى القابلتين، لأنّهما كانتا تخافانه، ورَزق كلَّ واحدة منهما عيال. فأمر فرعون شعبه قائلاً: «اطرحوا في النّهر كلَّ ذَكَرٍ عبراني يولد، ودعوا البنات أحياء».[1]

ولادة موسى عليه السلام[2]

وكان أن تزوّج في هذا الوقت رجلٌ اسمه عِمران بامرأة تُدعى يُوكابَد وهما من قبيلة لاوي، فحبلت منه ورُزقت ولدا. ورأت أنّه حسن المنظر فأخفَتْه عن عيون فرعون ثلاثة أشهر. ولمّا عجزت عن إخفائه، أخذت سلّةً من البَرديّ وطلتها بالقطران والقار ووضعت الطفل فيها وألقتها بين الحلفاء، على ضفة النّهر.[3] ووقفت أُخته من بعيد ترقبه. فإذا بابنة فرعون نازلة إلى النّهر تستحمّ، وكانت مرفوقة بوصيفاتها، فرأت السلّة بين الحلفاء، فطلبت من إحدى وصيفاتها أن تجلبها إليها. ولمّا فتحتها ابنة فرعون وجدت طفلاً يبكي، فرقّ قلبها وقالت: «لا شكّ أنّ هذا الطفل من أولاد العبرانيّين». واقتربت أُخت الطفل من بنت فرعون وقالت لها: «هل أدلّك على امرأة

(1) انظر سورة البقرة: 49.

(2) استنادا إلى سفر الخروج 2: 1–10.

(3) انظر الآية 7 في سورة القصص.

من العبرانيّات ترضع لك الطفل؟»[1] فأجابَتْها ابنة فرعون: «نعم، أسرعي وأحضريها إلى هنا!» فغادرت الفتاة وأحضرت معها أُمَّ الطّفل. فقالت لها ابنة فرعون: «أرضعي هذا الطّفل، وأجرك على ذلك عندي». ففعلت المرأةُ كما طلبت منها بنت فرعون. ولمّا كبُرَ الولد، جاءت به إلى ابنة فرعون فاتّخذته ابنًا لها وسمّته موسى، وفسّرت هذا الاسم بقولها: «لأنّي انتشلتُهُ من الماء».[2]

موسى عليه السلام يهرب إلى مِديَن[3]

وكبر موسى عليه السلام واشتدّ، وخرج ذات يوم يزور قومه فرآهم في عناء عظيم لِما يقومون به من أعمال شاقة، ورأى رجلاً مصريًّا يضرب رجلاً عِبرانيًّا من بني قومه. فالتفت يمينًا وشمالاً فما رأى أحدًا، فوكز المصريّ وقضى عليه،[4] ثمّ طمره في الرّمل. وفي اليوم التالي زار موسى عليه السلام قومه مرّة أخرى، فرأى رجلَين عبرانيّين يقتتلان، فقال للمُعتدي: «لماذا تقاتل أخاك؟» فأجابه: «ومَن أقامك علينا ملكًا وحاكمًا؟[5] أتريد أن تقتلني كما قتلتَ المصريّ بالأمس؟»[6] فخاف موسى عليه السلام وقال في نفسه: «لقد شاع بين الناس ما اقترفت يداي». وبلغ فرعون هذا الخبر، فسعى إلى قتله. فهرب موسى عليه السلام مِن فرعون وتوجّه إلى أرض مِدْيَن، وعند وصوله جلس عند البئر.

وكان في مِديَن رجل دين يدعى يَثرون،[7] لديه سبع بناتٍ، وكنّ عند البئر يملأن

(1) انظر سورة طه: 40.
(2) في اللغة العبرية يتقارب لفظ "موسى" مع لفظ "انتشل".
(3) استنادا إلى سفر الخروج 2: 11–25.
(4) انظر الآية 15 في سورة القصص. يؤكّد الطبري في تفسيره لهذه الآية أنّ نبي الله موسى لم يتعمد قتله. انظر أيضا في هذا الشأن المقال في هذا المجلّد تحت عنوان: "رؤية في عصمة الأنبياء".
(5) في هذه الحادثة رفض بنو يعقوب النبي موسى قائدا لهم ونصيرا، ولاحقا رفضوا كثيرا من الأنبياء المرسلين، كما رفضوا في النهاية السيد المسيح.
(6) انظر سورة القصص: 19.
(7) يروي اليعقوبي في تاريخه: "ودخل (موسى) يوما مدينة من مدائن مصر، فإذا رجل من شيعته ينازع رجلا من آل فرعون، فوكزه موسى فقتله. ونذر به فرعون وآل فرعون وأرادوا قتله. فلمّا علم ذلك خرج وحيدا على وجهه حتى صار إلى مِدَين وأجّر نفسه من شُعيب النبي ابن نويب

الأحواض حتّى تشرب غنم أبيهنّ. وأتى بعض الرُّعاة الذين دأبوا على طرد البنات من هناك، فطردوهنّ، لكنّ موسى عليه السلام هبّ إلى نجدتهنّ وسقى غنمهنّ. وعند رجوعهنّ إلى أبيهنّ قال لهنّ: «كيف عدتن بهذه السرعة اليوم؟» فأجبن: «لقد أنقذنا من الرّعاة رجل مصريّ، وملأ الأحواض وسقى غنمنا». فقاطعهنّ قائلاً: «وأين الرجل الآن؟ ولماذا تركتُنَّه هناك؟ ادعونه على الطعام!»

فقبل موسى عليه السلام الدعوة وأقام عند يَثرون، وبعد فترة زوّجه من ابنته صَفّورة.[1] فأنجبت له ولدًا، سمّاه موسى عليه السلام جِرشوم، وفسّر هذا الاسم لأنّه رأى نفسه نزيلا في أرض غريبة.[2]

وبعد زمن طويل، توفّي فرعون، وظلّ بنو يعقوب يئِنّون مِن العبوديّة، وبسببها تضرّعوا ورفعوا صراخهم إلى الله. فسمع الله أنينهم، وحفظ عهده تعالى مع إبراهيم وإسحق ويعقوب (عليهم السّلام). وكان الله بمعاناة بني يعقوب عليما بصيرا.

النبي موسى كليم الله[3]

وكان موسى عليه السلام يرعى غنم حَميهِ يَثرون وهو رجل دين لِمديَن، فساق الغنم إلى جهة بعيدة في البادية حتّى وصل إلى جبل الله، طور سيناء. فتجلّى له ملاك من الله في جذوة من نار وسط شجيرة.[4] ورأى موسى عليه السلام الشجيرة تتّقد نارًا ولا تحترق. فقال في نفسه: «لأقتربنّ من هذا المشهد العجيب ولأشاهدنّه من قريب، أتشتعل النار في هذه الشجيرة ولا تأكلها؟» وعندما اقترب عليه السلام لينظر، خاطبه صوت الله من وسط

بن عيا بن مدين بن إبراهيم على أن ينكحه إحدى ابنتيه." انظر سورة القصص الآيات 23–28.

(1) قارن سورة القصص: 22–27.

(2) في اللغة العبرية تتطابق حروف اسم "جرشوم" مع مصطلح "غريب هناك".

(3) استنادا إلى سفر الخروج 3: 1–22.

(4) يؤكد الطبري في تاريخه أن النار كانت «في شجرة من العُلّيق، وبعض أهل الكتاب يقول: في عوْسجة». تاريخ الطبري، الجزء الأول، «ذكر نسب موسى بن عمران وأخباره وما كان في عهده وعهد منوشهر بن منشخورنر الملك من الأحداث»، تاريخ_اليعقوبي

الشجيرة:[1] «يا موسى». فقال: «لَبَّيك». قال: «يا موسى تريّث ولا تقترب من هنا. اخلع نعلَيْك، إنّك في أرض مقدّسة».[2] وأضاف: «إنّي أنا ربُّك وربُّ آبائك الأوّلين، ربُّ إبراهيم وإسحق ويعقوب». فستر النبي موسى وجهه رهبة وخشوعا من رؤية تجليات الله.

فأوحى الله إليه: «إنّي بمعاناة قوم ميثاقي في مصر بصير، ولدعواتهم وصراخهم بسبب ظلم مشرفيهم سميع خبير. أجل، إنّي بمعاناتهم عليم، وتجلّيتُ لأُنقذهم من قبضة المصريّين. وأُخرجهم من هناك إلى أرض واسعة تفيض لبنًا وعسلاً، حيث بلاد الكنعانيّين والحِثّيّين والأموريّين والفَرِزّيّين والحِوّيّين واليَبوسيّين. نعم، إنّي بتضرّع بني يعقوب إليّ سميع، وبجور المصريّين عليهم بصير، وإنّي لمُرسلُك الآن إلى فرعون لتُخرج قوم ميثاقي بني يعقوب من مصر». فقال موسى عليه السلام: «مَن أنا حتّى أقف في وجه فرعون وأُخرج بني يعقوب من مصر؟» فقال تعالى: «أنا أكون معك خير حافظ، وسأعطيك علامة على أنّي من أرسلك: ومتى أخرجتَ قوم ميثاقي من مصر، ستعبدوني على هذا الجبل».

وتردّد النبي موسى عليه السلام قائلاً: «إذا ذهبتُ إلى بني يعقوب وقلتُ لهم أنّ الله ربّ آبائهم هو الذي أرسلني إليهم، فإنْ سألوني ما اسمه، فماذا أجيب؟» فأوحى اللهُ إليه: «إنّي أنا هو. كذلك تجيب بني يعقوب: «إنّ هو الذي أرسلني إليكم»».

وأوحى الله إلى النبي موسى أن يخبر بني يعقوب: «إنّ الله ربّ آبائكم الأوّلين، ربّ إبراهيم وإسحَق ويعقوب، أجل إنّ الله هو الذي أرسلني إليكم». قال الله تعالى: «هذا هو اسمي إلى الأبد، بهذا الاسم ارفعوا ذكري جيلاً بعد جيل. والآن يا موسى، اذهب واجمع شيوخ بني إسرائيل وأخبرهم، أنّي ربّ آبائهم الأوّلين، ربّ إبراهيم وإسحق ويعقوب، قد تجلّيتُ وأوحيتُ إليك بأنّي بكم رقيب وبكلّ ما ارتكبه المصريّون في حقّهم بصير. ولقد وعدتُ أن أخرجهم من مصر حيث

(1) انظر سورة النمل: 8.
(2) قارن سورة طه: 12.

يعانون الذّلّ. وسأرشدهم إلى أرض تفيض لبنًا وعسلاً، أرض الكنعانيّين والحثّيّين والأموريّين والفَرزّيّين والحِوّيّين واليَبوسيّين. وإنّ شيوخ بني يعقوب سيصغون إليك وسيرافقونك إلى فرعون فتعلمونه أنّ الله ربّنا قد تجلّى لنا، فدعنا الآن نمضي في الصّحراء ثلاثة أيّام، نُقدِّم فيها الأضاحي لله ربّنا. وإنّ فرعون لمانعكم من الخروج من مصر، وما هو بمخرجكم إلا خضع لقوّة جبّارة. لذلك سأضرب مصر بالآفات وأظهر فيها المعجزات، وبعد ذلك سيُطلقكم من مصر. وسأجعل المصريّين عليكم راضين. فيعطونكم هدايا حتّى لا تغادروا مصر وأيديكم فارغة. ولتستوهبنّ كلُّ امرأة عِبرانيّة من جارتها ومِن النّازلة في بيتها ثيابًا وجواهر من ذهب وفضّة، فتُلبسونها أولادكم وبناتكم. فتنتصفون من المصريين».(1)

النبي موسى ومعجزاته(2)

فتردّد النبي موسى مرّة أخرى وقال لله: «فإن لم يصدّقني بني يعقوب ولم يتبعوا كلامي، بل أجابوني: ما كان الله ليتجلّى لك». فأوحى الله إليه: «ما تلك التي في يمينك؟» قال: «إنها عصاي». فجاء الأمر الإلهيّ: «ألقِها يا موسى». فألقى موسى عليه السلام العصا فتحوّلت حيّة تسعى. فارتعب منها موسى وعنها تولّى. فأمره تعالى مرّة أخرى: «مُدّ يدك يا موسى ولا تخف». فمدّ يده وأمسكها من ذيلها، فعادت عصًا. وأوصاه الله: «أظهر لهم هذه المعجزة ليُصدِّقوا أنّ الله بينهم تجلّى، وأنّي ربّ آبائهم الأوّلين، ربّ إبراهيم وإسحق ويعقوب. ولك يا موسى معجزة أخرى، أدخِلْ يدك في جيبك وسترى». فأدخل يده إلى جيبه ثمّ أخرجها، فإذا هي بيضاء كالثّلج من غير سوء البرص.(3) فقال تعالى: «رُدّ يدك إلى جيبك». فردّ يده إلى جيبه ثمّ أخرجها فعادت كسائر أعضاء جسمه. وقال الله: «إن كانوا لا يصدّقونك ولا يقتنعون بالمعجزة

(1) انظر المقال في هذا المجلّد: "كيف قرأ السيد المسيح التوراة".
(2) استنادا إلى سفر الخروج 4: 1-9.
(3) قال اليعقوبي في تاريخه: "ثمّ أدخل (موسى) يده في جيبه وأخرجها بيضاء من غير سوء برص".

الأُولى، فبالمعجزة الثّانية يؤمنون. وإن كانوا لا يصدّقون هاتين المعجزتين ولا ينتبهون لكلامك، فخُذْ ماءً من النيل واسكُبْه على الأرض، فيصير الماء دمًا بإذني».

هارونعليه السلام يتكلم نيابة عن النبي موسى[1]

فتضرّع النبي موسى لله: «عُذرا يا ربُّ! إنّك عليم، أنّي لستُ فصيحا ولساني فيه عُقدة تواصلت معي حتّى بعد أن كلّفتني بهذه الرسالة».[2] فسأله الله: «مَن الذي جعل للإنسان فما؟ ومن الّذي جعل الإنسان أخرس أو أصمّ أو بصيرًا أو أعمى؟ أليس الله؟ فاذهبْ وسأكون معك سندا حين تنطق وأرشدك إلى ما تقول». فقال موسىعليه السلام: «أرجوك ربي! أرسل إلى فرعون رجلا غيري». فاحتدم غضب الله على النبي موسى وأوحى إليه: «يا موسى، ألا تذكر أخاك هارون اللاّويّ؟ إنّه فصيح اللّسان وهو قادم إلى لقائك الآن، وسينشرح قلبه كثيرا حين يراك. فأخبره بما تريد أن تنطق به وسيعبّر عنه أمام الملإ، وأنا أدلّكما على ما تفعلانه. إنّا جعلناك رسولا مبلّغا لرسالتنا، وجعلنا هارون وزيرا لك نبيا يخاطب الناس بكلام الله نيابة عنك.[3] فاحمل عصاك بيمينك، وعلى يديك تجري بها المعجزات».

عودة النبي موسى إلى مصر[4]

فعاد موسىعليه السلام إلى حميه يَثرون وقال له: «دَعْني أعود إلى قومي في مصر، فأنا لا أعلم إن كانوا بعد أحياء أم قضوا». فأجابه يَثرون: «اذهب في أمان الله». وقبل أن يغادر النبي موسى مِدْيَن، أوحى الله إليه: «آن الأوان كي تعود إلى مصر، لأنّ جميع الّذين يسعون إلى قتلك قد قضوا». فأخذ النبي موسى معه عصا اللهِ وأركب زوجته وولَدَيه دابة وقفلوا عائدين إلى مصر.

ونبّه الله موسىعليه السلام قائلا: «عندما تصل إلى مصر، اذهب إلى فرعون وقم بجميع

(1) استنادا إلى سفر الخروج 4: 10-17.
(2) انظر سورة طه: 28-27.
(3) انظر سورة القصص: 35 وسورة الفرقان: 35.
(4) استنادا إلى سفر الخروج 4: 18-23.

المعجزات أمامه، تلك الّتي أجريتها على يديك. وسأجعله يتمادى في عناده فلا يُطلق قومك.[1] وعليك أن تخبر فرعون أنّ الله تعالى يقول: «بنو يعقوب عيالي الشرفاء. وإنّا أمرناك أَن تُطلق عيالي ليعبدوني، ولكنّك رفضتَ. لذلك سنهلك أوّل أبنائك وأشرفهم».[2]

لقاء النبي موسى وأخيه هارون[3]

وكان الله قد أوحى إلى هارونﷺ أن يتّجه إلى الصّحراء لاستقبال أخيه موسى. فوجده عند سفح جبل الله ورحّب به وقبّله. فأخبر النبي موسى هارون بكلّ ما أوحاه الله إليه، وأنه رسولٌ إلى فرعون، وأعلمه بجميع المعجزات الّتي عليه أن يظهرها. فذهب موسى وهارون(عليهما السّلام) إلى مصر، وجمعا شيوخ بني يعقوب كلَّهم. وخاطبهم هارون بجميع ما أوحى الله به إلى أخيه موسى. ثمّ أنجز النبي موسى المعجزات أمام الناظرين. فآمنوا أن الله هو من أرسلهما إليهم. ولمّا سمعوا أنّ الله بصير بمعاناتهم وذلّهم، وهو يرعاهم، انحنوا له ساجدين.

النبي موسى أمام فرعون[4]

وإثر لقاء النبي موسى وأخيه هارون بشيوخ بني يعقوب، ذهبا إلى فرعون وقالا له: «الله الذي يعبده بنو يعقوب يأمرك: أطلق عبادي الصالحين حتّى يقيموا عيدا في الصحراء إكرامًا لي.» فأجاب فرعون: «ومَن يكون الله حتّى أسمع له وأُطلق بني يعقوب؟ أنا لا أعرف الله ولن أُطلق بني يعقوب».[5] فأجابا: «إنّه الله الّذي يعبده

(1) قارن سورة البقرة: 7، وسورة غافر: 35.

(2) تبرز هذه الكلمات أنّ بني إسرائيل هم بمكانة الابن الروحي لله، وأكّد ذلك النبي هوشع لاحقا (انظر كتاب النبي هوشع 11: 1). ونرى في الإنجيل أنّ السيد المسيح هو من يحقّق معنى هذا اللقب نهائيا (انظر الإنجيل، متّى 2: 15).

(3) استنادا إلى سفر الخروج 4: 27–31.

(4) استنادا إلى سفر الخروج 5: 1–5.

(5) انظر سورة الشعراء: 23، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

العِبرانيّون، لقد تجلّى لنا، فدعنا نسير في الصحراء ثلاثة أيّام وبعدها نقدّم أضاحي لله ربّنا، حتّى لا يُنزِل علينا وباء أو حربا». فأجابهما فرعون: «لماذا تسعيان إلى تعطيل الناس عن أعمالهم؟ عودوا إلى عملكم!» وأضاف فرعون: «انظرا إلى قومكما، إن عددهم كبير، فكيف تُعطّلانهم عن العمل؟»

فرعون يأمر المسؤولين بالقسوة[1]

وفي ذلك اليوم قال فرعون للمسؤولين على بني يعقوب والمشرفين على تسخيرهم للعمل: «من الآن فصاعدًا، لا تعطوا العمال تبنًا لصناعة الطوب كما فعلتم سابقًا، بل اتركوهم يجمعونه بأنفسهم. ولا تنقصوا من كمية الطوب الّتي عليهم صنعها. إنّهم كسالى، ولذلك يطالبون قائلين: «دَعنا نذهب ونقدّم الأضاحي لربّنا». أجهدوا هذه الجماعة بالعمل، فينشغلوا به ويتركوا الأكاذيب».

فخرج المسؤولون عن بني يعقوب والمشرفون عليهم وقالوا لهم: «أمرنا فرعون أن لا نعطيكم تبنًا. عليكم أن تجمعوا التبن بأنفسكم، ولن ننقص من كمية الطوب التي عليكم صنعها». فتفرَّق بنو يعقوب في كلّ أنحاء مصر ليجمعوا قشًّا عوض التبن، بينما كان المشرفون عليهم يستعجلونهم بشدّة قائلين: «عليكم أن تصنعوا كمية الطوب الّتي كنتم تصنعونها سابقًا». وكان المسؤولون المصريون يجلدون المشرفين من بني يعقوب الّذين ولّوهم عليهم وهم يقولون: «لماذا لم تصنعوا كميّة الطوب المطلوبة منكم كما كنتم من قبل تفعلون؟»

المشرفون من بني يعقوب يشكون أمرهم لفرعون[2]

فأقبل المشرفون من بني يعقوب على فرعون متوسّلين: «يا مولانا، لماذا تعاملنا بهذه القسوة ونحن في خدمتك؟ رغم أننا لا نُعطى تبنًا ولكنّ المسؤولين يطالبوننا بصنع الكميّة نفسها من الطوب الّتي تعوّدنا على صنعها! ويجلدوننا والذنب عليهم

(1) استنادا إلى سفر الخروج 5: 6–14.
(2) استنادا إلى سفر الخروج 5: 15–18.

وليس علينا!» فأجابهم فرعون بصرامة: «أنتم كسالى، ولذلك تقولون: دعنا نذهب ونقدّم الأضاحي لربّنا! هيّا انصرفوا إلى عملكم! لن نعطيكم التبن، وعليكم أن تصنعوا الكميّة نفسها من الطوب!»

المشرفون من بني يعقوب يلومون النبي موسى وأخاه هارون[1]

وعندما طلب فرعون من مشرفي بني يعقوب ألاّ ينقصوا من كميّة الطوب المطلوبة منهم يوميًا، ساءت حالهم. والتقى موسى وهارون(عليهما السّلام) بمشرفي بني يعقوب حيث كانا ينتظرانهم خارج القصر، فقالوا لهما: «ليهلكنّكم الله! لقد أفسدتُما سمعتنا عند فرعون ورجال حاشيته، وصار لديهم حجّةً لقتلنا!» فتضرّع النبي موسى إلى الله قائلا: «يا ربّ، لماذا أنزلتَ الأذى على هؤلاء القوم؟ ولماذا أرسلتَني؟ فمنذ جئتُ إلى فرعون لأبلغه رسالتك، اشتدّ ظلمه عليهم وأنت لا تفعل شيئا لإنقاذهم».

فأوحى الله إلى النبي موسى: «انظر الآن ما سأفعله بفرعون. سأجبره على إطلاق قوم ميثاقي وطردهم من بلاده، بيدٍ قديرة». وأضاف اللهُ: «أنا الله. تجلّيت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بكشفي عن هويّتي: أنا القدير، وما كشفت لهم عن اسمي الأزلي بعد. وأقمت ميثاقي معهم فائتمنتهم على أرض كَنعان، حيث تغرّب هؤلاء الأوّلون.[2] وإنّي بأنين بني يعقوب الّذين يعانون من اضطهاد المصريّين سميع، وإنّي لميثاقي معهم حافظ أمين. فقُلْ لهم: «أنا الله، وسأحرّركم من الذل والعبودية في مصر، وبيدٍ قديرة أبسطها لأنقذكم وأُنزل بالظالمين عقابًا رهيبًا. وأكون ربّكم وأجعلكم قوم ميثاقي، وتتيقّنون أنّي أنا الله ربّكم الّذي حرّركم من عبوديتكم في مصر. وسأُدخلُكم الأرض الّتي وعدتُ بها إبراهيم وإسحق ويعقوب، فأهبها لكم. أنا الله». فبلّغ النبي موسى كلام الله لبني يعقوب، ولكنّهم لم يصغوا إليه لأن اليأس أصابهم بسبب وحشية العُبوديّة الّتي يُعانونها.

فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «واجه فرعون مَلِك مصر واطلب منه أن يُخرج بني

(1) استنادا إلى سفر الخروج 5: 19–23، 6: 1–13.
(2) انظر سورة المائدة: 21.

يعقوب من أرضه». فأجاب النبي موسى: «ولكن قومي رفضوا الإصغاء إلى كلامي، فكيف أنتظر من فرعون أن يصغي إليّ، ولا ينطلق لساني؟»[1] فأوحى الله إلى النبي موسى وهارون أن يذهبا إلى فرعون ويطلبا منه تحرير بني يعقوب من مصر.

موسى وهارون(عليهما السّلام) يتحاوران مع فرعون من جديد[2]

أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا موسى اِنتبه جيّدًا إلى ما يوحى إليك. إنّا جعلنا لك على فرعون سلطة من لدنّا، ويكون هارون أخوك وزيرا نبيا ينطق باسمك. أنت تبلّغه كلّ ما آمرك به، وهو يكلّم به فرعون: اطلق بني يعقوب من مصر. ولكنّي أجعله يتمادى في عناده، ومهما كثرتُ معجزاتي وآياتي في مصر، فلن يسمع لكما حتّى أضرب أرضِ مصر بالآفات وأُنزلُ عليها عقابا رهيبا، ثمّ أُخرج جموع عبادي بني يعقوب. وبيدٍ قديرة أبسطها أخرج بني يعقوب مِن بين المصريين، وسيعرف هؤلاء من هو الله العليّ العظيم». فاستجاب موسى وهارون(عليهما السّلام) لله وفعلا كما أمرهما تعالى. وكان عمر موسى ثمانين سنةً، وهارون ثلاث وثمانين سنةً حين واجها فرعون.

العصا تتحوّل إلى حيّة[3]

وأوحى الله إلى موسى وهارون(عليهما السّلام): «إذا طلب منكما فرعون معجزة على صدق ما تقولان، فاطلب يا موسى من هارون أن يلقي عصاه أمام فرعون فتتحوّل إلى حيّة». فدخل موسى وهارون(عليهما السّلام) على فرعون وفعلا كما أمرهما الله. وألقى هارونُ عصاه أمام فرعون وحاشيته فتحوّلت حيّة تسعى. فدعا فرعون كلّ المنجّمين والسحرة في بلاده، ففعلوا العمل ذاته بسحرهم المبين. فألقى كلُّ واحد منهم عصاه وبسحرهم صارت كلّ عصا حيّة، ولكنّ عصا هارون التهمت عصيّهم.[4] وظلّ فرعون متعنّتا كما أوحى الله، ولم يكترث بقول موسى وهارون(عليهما السّلام).

---

(1) انظر سورة الشعراء: 13.
(2) استنادا إلى سفر الخروج 7: 1-7.
(3) استنادا إلى سفر الخروج 7: 8-13.
(4) انظر سورة طه: 65-69.

الآفة الأولى: الماء ينقلب دما[1]

فأوحى الله إلى النبي موسى: «يا موسى، لقد تعنّت فرعون ورفض أن يُطلِق عبادي، فعليك أن تذهب في الصباح وتنتظره عندما ينزل إلى نهر النيل، وخُذ بيمينك عصاك الّتي انقلبت حيّة وقُل له: «لقد أرسلني الله الّذي يعبده العِبرانيّون، وأمرك أن تطلق عبادي ليعبدوا الله في الصحراء. ولكنّك رفضتَ الإصغاء إليه حتّى الآن. فيقول الله بهذه الآية ستعلم من هو الله. وسأضرب بالعصا التي بيميني ماء النهر فينقلب ماؤه دمًا. فيتعفّن الماء ويموت السمك، ويعاف المصريّون الشرب منه»».[2]

ثمّ أمر الله النبي موسى: «يا موسى، قُل لهارون أن يأخذ عصاك ويمُدّ يده على مياه مصر كلّها: الأنهار والتُّرع والبرك وكلّ مكانٍ يتجمّع فيه الماء، بما في ذلك من أوعية خشب وحجارة، فتصير كلّها دماء تغطي جميع أرض مصر». ففعل موسى وهارون(عليهما السّلام) كما أمرهما الله: ورفع هارون العصا وضرب ماء النهر على مشهد من فرعون وجميع رجال حاشيته، فتحوّل ماؤه دما. وتعفّن النهر ومات السّمك، ولم يقدر المصريّون أن يشربوا منه، وعمّ الدّم أرض مصر كلّها. وفعل سحرة مصر العمل ذاته بسحرهم، فظلّ فرعون متعنّتا ولم يصغ إليهما، كما أوحى الله. وعاد فرعون إلى قصره غير مُبالٍ بكلّ ما جرى معه. وحفر المصريّون عند الضفّة ليجدوا ماءً صالحًا للشرب، لأنّهم لم يستطيعوا الشرب مِن ماء النّهر. ومرّت سبعة أيّام بعدما حوّل الله النهر دما.

الآفة الثانية: الضفادع[3]

وأوحى الله إلى النبي موسى: «يا موسى، عد إلى فرعون وأخبره أن الله يقول:

(1) استنادا إلى سفر الخروج 7: 14-25.

(2) نستطيع أن نفهم هذه الآفة بمثابة هزيمة أنزلها الله على إله النيل الذي يُسمّى "هابي". وتأتي بقية الآفات على الطريقة نفسها كهزيمة أنزلها الله على الآلهة المصرية المرتبطة بصفات الآفات المذكورة.

(3) استنادا إلى سفر الخروج 8: 1-15.

«أطلق عبادي من مصر ليعبدوني. فإن أدرت ظهرك لأمري فسأُنزل الضّفادع على بلادك كلّها. ليفيضنّ النّهر بها، ولتنتشرنّ في قصرك وتغمرنّ غرفة نومك وسريرك، وبيوت رجال حاشيتك وشعبك كلّه، وتملأنّ أفرانك ومعاجنك. ولتقفزنّ الضّفادع عليك وعلى شعبك وعلى رجال حاشيتك جميعًا»».

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «أخبر هارون أن يمدّ يده بالعصا على الأنهار والترع والبرك وأن يجعل الضّفادع تغمر أرض مصر». فمدّ هارون عليه السلام يده على مياه مصر، فخرجت الضفادع وغطّت الأرض. وفعل العمل ذاته السّحرة بسحرهم وأخرجوا الضفادع فغطّت أرض مصر.[1]

ودعا فرعون موسى وهارون(عليهما السّلام) وقال: «تضرّعا إلى الله، حتّى يرفع الضفادع عنّي وعن شعبي، فأسمح لقومكما أن يقدّموا الأضاحي لله في الصحراء». فقال النبي موسى لفرعون: «أخبِرْني متى أدعو الله، فتخلو بيوتك من الضفادع وينحصر بقاؤها في النّهر» فأجابه فرعون: «غدًا». فقال موسى عليه السلام: «نعم لك ما طلبتَ، وستعلم حينها أنّه لا إله إلاّ الله، لا شريك له، وستتطهّر بلادك من الضفادع ولا يبقى لها وجود إلاّ في النّهر».

وغادر موسى وهارون(عليهما السّلام) قصر فرعون، ثمّ تضرّع النبي موسى إلى الله ليخلّص فرعون من الضفادع الّتي أنزلها عليه. فاستجاب الله لدعائه، وماتت الضفادع في البيوت والساحات والحقول. وجمعت أكواما أكواما، وأنتنت الأرض برائحتها. فلمّا رأى فرعون أنّ الفرج قريب، تعنّت ولم يحفظ عهده لهما، كما أوحى الله إلى موسى. إنّ الله عليم خبير.

الآفة الثالثة: البعوض[2]

فأوحى الله إلى النبي موسى: «يا موسى قل لهارون أن يمُدّ عصاه، وليضرب

(1) لماذا فعل السحرة وهم أعوان فرعون ما يفعله موسى وهارون ضد فرعون؟ يبدو أن السحرة أرادوا تقليد ما أتاه النبي موسى ليؤكدوا أن هذا الفعل ليس معجزة بل مجرّد سحر.
(2) استنادا إلى سفر الخروج 8: 16-19.

تراب الأرض فيتحوّل التراب بعوضًا وينتشر في أصقاع مصر». ففعلا كما أمرهما الله، فمدّ هارون يمينه بالعصا وضرب التراب، فهجم البَعوض على النّاس والبهائم، فإذا بتراب أرض مصر كلّها يتحوّل إلى بعوض يغطّيها. وسعى السّحرة أن يأتوا بالعمل ذاته مع البعوض بسحرهم، فلم يفلحوا. وغشّى البَعوض النّاس والبهائم. فقال السّحرة لفرعون باندهاش: «إنّ هذا من عمل الله، إنه فعّال لما يريد!» وظلّ فرعون متعنّتا، وأبى أن يصغي إليهما، كما أوحى الله إلى موسى، إنّ الله عليم خبير.

الآفة الرابعة: الذباب[1]

وأوحى الله إلى النبي موسى: «يا موسى، واجه عند الصباح فرعون حينما يكون في طريقه إلى النيل، وقُل له: «قال الله: أطلِقْ عبادي من مصر ليعبدوني. فإن أبيتَ، لأُرسِلنّ الذّباب عليك وعلى رجال حاشيتك وشعبك وليملأنّ بيوتكم، وليغطّينّ أديم الأرض الّتي أنتم فيها. أمّا أرض جاسان التي يسكنها عبادي بني يعقوب فلا يكون فيها ذبابٌ، لعلّك ترى بعين اليقين أنّ قوّتي تمتدّ إلى الأرض الّتي أنت فيها، وأني حافظ عبادي من البلاء الّذي سينزل على شعبك.[2] وإنّ موعد هذه الآية غدا فارتقب إنّا فاعلون». ورأى فرعون آية الله كما أخبره على لسان نبيه موسى. وهجم الذباب كالسحاب على قصر فرعون وبيوت حاشيته وغشّى أصقاع الأرض وأتلفها.

واستدعى فرعون موسى وهارون(عليهما السّلام) وقال لهما: «لقد طلبتم أن تقدّموا لربّكم الأضاحي، فقدّموها في هذه الأرض لا في غيرها». فأجابه النبي موسى: «إنّ هذا علينا لا يستقيم، إنّ المصريين لأضاحينا لكارهون، فإن قدّمناها أمامهم كانوا لنا راجمين! إنّ علينا أن نسافر كما أمرنا الله مسيرة ثلاثة أيّام في الصّحراء، لنقدّم الأضاحي لله ربّنا». فأجاب فرعون: «نعم، سأسمح لكم وسأُطلِقكم لتقدّموا الأضاحي لربّكم، على ألاّ تبتعدوا كثيرًا. فتضرّعا الآن إلى ربّكم حتّى يبعد عنّي هذا

(1) استنادا إلى سفر الخروج 8: 20–32.

(2) رأى المصريون أنّ فرعون هو بمقام إله بينهم ومن واجبه أن يحميهم، لكنّه تصرّف بطريقة ألحقت بهم الأذى. والله كان حافظا لوعده بأن ينقذ قوم ميثاقه.

الذباب». فقال النبي موسى: «سأخرج الآن لأتضرّع إلى الله، فيرفع الذباب عنك وعن رجال حاشيتك وشعبك غدًا. ولكني أنذرك: لا تخدعنا مرّةً أُخرى، فتُبقي عبادي بني يعقوب عندك وتمنعهم من تقديم الأضاحي لله».

وخرج النبي موسى من قصر فرعون وتضرّع إلى الله أن يرفع الذباب عن مصر. واستجاب الله للنبي موسى وأزال الذباب عن فرعون وشعبه، ولم تبقَ ذبابة واحدة. ولكن فرعون تعنّت كسابق عهده، ورفض أن يُطلِق بني يعقوب من مصر.

الآفة الخامسة: موت المواشي[1]

وأوحى الله إلى النبي موسى: «يا موسى، عد إلى فرعون مرّة أخرى وأخبره أنّ الله الذي يعبده العِبرانيّون يأمرك أن تطلق عباده ليعبدوه. فإن رفضتَ أن تطلقهم وحبستهم، فسوف يُنزل الله العظيم القدير، وباءً مميتا على مواشيك في البادية: على الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم. وسيحمي مواشي بني يعقوب فلا تموت منها رأسٌ واحدة». إنّ موعدكم وهذا الوباء غدا، غدا يُنزل الله العظيم القدير غضبه على المصريّين في مواشيهم. وفي الغد، تجلّى وعيد الله فهلكت جميع مواشي المصريين، أمّا مواشي بني يعقوب فلم تمت منها رأس واحدة. وأرسل فرعون مَن يتحقّق الأمر، فعلِم أنّ مواشي بني يعقوب لم يمسها مكروه. ورغم ذلك تعنّت فرعون فلم يُطلِق قوم بني يعقوب.

الآفة السادسة: القروح[2]

أوحى الله إلى موسى وهارون(عليهما السّلام): «فليأخذ كلٌّ منكما حفنةً من رماد الأتون، وليرسل الرماد في الهواء وفرعون وحاشيته ينظرون. وليتحوّلْ الرماد إلى غبار يملأ أرض مصر كلّها، فإذا غشّى الغبار أرض مصر أصيب النّاس والبهائم بدمامل ذوات بثور». فأخذ موسى وهارون من رماد الأتون ووقفا أمام فرعون، وأرسله النبي

(1) استنادا إلى سفر الخروج 9: 1–7.
(2) استنادا إلى سفر الخروج 9: 8–12.

موسى في الهواء فطلعت قروح وبُثور في النّاس والبهائم. وعجز السّحرة عن الصمود أمام النبي موسى بسبب الدمامل الّتي كانت في أجسامهم. وجعل الله فرعون يتمادى في عناده، فرفض أن يصغي لكلامهما، كما أوحى الله إلى موسى عليه السلام بذلك. إنّ الله عليم خبير.

الآفة السابعة: البرد[1]

ثمّ أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «قم يا موسى في الصباح الباكر واذهب إلى فرعون وواجهه بأنّ الله الّذي يعبده العِبرانيّون يقول: «أطلِق عبادي ليعبدوني»، فإن تولّيتَ هذه المرّة أيضا لأُنزِلنّ مزيدا من البلايا عليك وعلى حاشيتك وشعبك، فتعلم أن لا إله إلاّ أنا وليس لي كفؤ أحد. ولقد كنت على محوك من الأرض قديرا، فأفنيك وشعبك بوباء مميت من سطح الأرض فناء مشهودا. ولكنّي أبقيتك حيًّا حتّى ترى أني أنا القويّ العظيم، وحتّى يُرفع شأني في العالمين. وها أنت تزداد على قوم ميثاقي تسلّطا وظلما، وتحبسهم في بلادك حبسا مهينا، فلأنزلنّ عليك غدًا في مثل هذا الوقت بَرَدًا شديدًا لم ير له المصريّون مثيل من يوم وجودهم إلى الآن. فامر بجمع مواشيك وكلَّ ممتلكاتك في الحقول واحشرها إلى حظائرها حشرا. وكلّ مَن يبقى في الحقل من النّاس والبهائم، ولا يلجأُ إلى المأوى، يهلك بسقوط البَرَد». فخاف بعض ملإ فرعون عندما سمعوا ما ذكره الله، وأدخلوا على عجل خدمهم ومواشيهم إلى المأوى، وأمّا الّذين استخفّوا بكلام الله فتركوا خدّامهم ومواشيهم في الحقول فكانوا من الخاسرين.

ثمّ أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا موسى، مُدّ يدك نحو السّماء فينزل في أصقاع مصر بَرَدٌ على الناس والبهائم وأعشاب الحقول كلّها». فرفع النبي موسى عصاه نحو السّماء، فبدأ البرد بالسقوط في كلّ مكان، ودوت الرعود ونزلت الصواعق على الأرض. وكانت عاصفة لم تشهدها أرض مصر منذ عمّرها البشر، فأتلف البَرَدُ البلاد إتلافا، وأهلك كلَّ ما في الحقول من الناس والبهائم والأعشاب ودمّر كلّ الأشجار تدميرا.

(1) استنادا إلى سفر الخروج 9: 13–35.

وها قد تَلِفَ الكتّان من بعد أن أزهر، وفسد الشعير من بعد أن نضج وأمّا الحنطة بأنواعها فما تلفت لأنّها لم تزهر ولم تنضج.

وحفظ الله أرض جاسان حيث يسكن بنو يعقوب فلم ينزل فيها بَرَد.

فاستدعى فرعون موسى وهارون(عليهما السّلام) وقال وفي صوته ذلّة المهزوم: «لقد أخطأتُ هذه المرّة. وربّكم على حقّ وأنا وشعبي على باطل. أرجوكما تضرّعا إلى الله حتّى يوقف الرّعود والبَرَد. كفى! سأُطلِقكم من مصر ولا حاجة أن تقيموا فيها بعد الآن». فقال موسى عليه السلام: «حين أغادر المدينة سأرفع يديَّ إلى الله متضرّعًا، فتتوقّف الرعود وينحبس نزول البرد ولتعرفنّ عندها أنّ لله مُلك ما في الأرض جميعا. غير أنّي على يقين، أنك وحاشيتك، لله غير خاشعين».

وترك النبي موسى بلاط فرعون وغادر المدينة، وعندما رفع يديه إلى الله بالدعاء، سكتت الرعودُ وتوقّف البَرَدُ وكفّ هطول المطر. ولمّا رأى فرعون أنّ المطر توقّف ومعه البَرَد والرعود، تعنّت مرّة أخرى هو ورجال حاشيته. فلم يُطلِق بني يعقوب من مصر، كما أوحى الله بذلك إلى موسى. إنّ الله على كلّ شيء خبير.

الآفة الثامنة: الجراد[1]

ثمّ أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا موسى، عد إلى فرعون وامره مرّة أخرى أن يطلق بني يعقوب، فأنا الذي جعلته يتمادى في عناده هو ورجال حاشيته، حتّى تجري بينهم معجزاتي، وحتّى تخبر أولادك وأحفادك عن آياتي التي تجلّت في المصريّين، فتدركون أنّي أنا الله العلي العظيم».

فدخل موسى وهارون(عليهما السّلام) قصر فرعون وقالا له: «إنّ الله الّذي يعبده العِبرانيّون يأمرك: حتّى متى تتعنّت ولا تستجيب لأمري أنا الله؟ أطلِق عبادي ليعبدوني، فإن تولّيتَ عن أمري، أرسلتُ غدا على بلادك جرادا. فيُغطّي وجه الأرض فلا يقدر أحدٌ منكم أن يراها، ويأكل ما سلم من البَرَد من قمح وشجر. ويجتاح بيوتك

(1) استنادا إلى سفر الخروج 10: 1–20.

وبيوت رجالك وبيوت جميع المصريّين. إنّ الجراد عليكم كارثة لم يرى آباؤك ولا أجدادك لها مثيل منذ عمّروا هذه البلاد». وغادر النبي موسى قصر فرعون، فسأل رجال فرعون سيّدهم قائلين: «إلى متى نظلّ ضحية هذا الرّجل؟ أطلِقْ قومه ليعبدوا ربّهم. لقد أمست مصر بما نزل عليها من البلاء خرابا!»

ودعا فرعون موسى وهارون(عليهما السّلام) وقال لهما: «اذهبوا واعبدوا الله ربّكم. ولكن أخبراني من سيرافقكم؟» فأجابه النبي موسى: «سنذهب جميعًا، صغارًا وكبارًا وسنأخذ غنمنا وأبقارنا، لأنّنا سنقيم عيدًا إكرامًا لله ربّنا». فقال لهما فرعون: «ستكونون بحاجة إلى عون الله إن أنا أَطلقتُكم مع زوجاتكم وأولادكم! إنّ الأمر جليّ، إنّكم على الشر عازمون. لا، لن أسمح إلاّ للرجال منكم أن يذهبوا ويقيموا عيدًا لله، إنّ هذا ما كنتم تطلبون». وطردهما فرعون مِن قصره وكان من الظالمين.

فأوحى الله إلى النبي موسى: «مُدّ يدك على أرض مصر وليحلّ عليها الجراد وليأكل عشب الأرض وكلّ ما سلم من عاصفة البرَد». فمدّ موسى عليه السلام عصاهُ على أرض مصر. وجعل الله ريحًا شرقيّة تعصف على الأرض دامت يومًا كاملاً ليلاً نهارًا. وعند بزوغ الصباح حملتِ الرّيحُ الشرقيّة الجراد، فهجم على أنحاء مصر كلّها، وكان هجوما لم ير له المصريّون شبيها، ولم تشهد له مثيلا من قبل، ولم يكن له نظير من بعد. فغطّى الجراد الأرض كلّها حتّى أظلمت الدّنيا. وأكل جميع عشبها وكلّ ما تبقّى بعد عاصفة البرَد من قمح وثمر شجر، فلم يبقَ شيءٌ مِن خضرة الشّجر ولم يبق عشب في أطراف مصر كلّها.

وأسرع فرعون واستدعى موسى وهارون(عليهما السّلام) وقال لهما: «أخطأتُ في حقّ الله ربّكم وفي حقّكما، فاصْفَحا عن ذنبي للمرّة الأخيرة، وتضرّعا إلى ربّكم أن يرفع عنّي هذه الكوارث المدمّرة». وحين غادر النبي موسى فرعون، تضرّع إلى الله، فاستجاب الله له وجعل ريحًا غربيّةً قويّة تهب، فحملت الجراد وطرحتْهُ في البحر الأحمر، ولم تبق في أرض مصر كلّها جرادة واحدة. وجعل الله فرعون يتمادى في عناده، فلم يف بوعده الذي أعطاه للنبي موسى.

الآفة التاسعة: الظلام[1]

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «مُدّ يدك نحو السّماء فيحلّ ظلامٌ دامسٌ على أرض مصر». فمدّ النبي موسى يده نحو السّماء، فحلّ ظلامٌ حالِكٌ على أنحاء مصر كلّها دام ثلاثة أيّام. ولم يستطع أحد أن يبصر من معه، ولا حتّى أن يغادر مكانه. أمّا بنو يعقوب فكانوا يتمتعون بضوء الشمس حيث يسكنون.

الوعيد بموت كل ابن بكر[2]

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا موسى، إنّي منزل على فرعون وعلى بلاد مصر آفة أخيرة، ثمّ إنّه من بعدها يطلقكم من بلاده، بل إنّه سيُدفعُ إلى إخراجكم من مصر إخراجا. فأخبر رجال بني يعقوب ونساءهم أن يطلبوا من جيرانهم مصوغا ذهبا وفضّة». وأدخل الله على قلوب المصريّين احترام بني يعقوب والرضا عنهم. وكان النبي موسى رفيع القدر في عيون حاشية فرعون وفي عيون المصريين.

فرعون يتمادى في عناده[3]

واستدعى فرعون موسى عليه السلام وقال له: «اِذهبوا واعبدوا الله، أنتم وزوجاتكم وأطفالكم، واتركوا غنمكم وأبقاركم حيث تسكنون». فأجابه النبي موسى: «بل عليك أن تسمح لنا أن نأخذ مواشينا لنقدّمها ذبائح ونحرقها لله ربّنا. كلاّ. لن نذهب إلا إذا أخذنا معنا مواشينا كلُّها. ولن يبقى منها رأسٌ واحدةٌ إذ منها نختار ما نقدّمه لله ربّنا، ولا نعرف تحديدًا أيها نختار لعبادته تعالى حتّى نصل إلى الصحراء». وجعل الله فرعون يتمادى في عناده مرّة أخرى. فأبى أن يُطلِق بني يعقوب.

وصرخ فرعون في وجه النبي موسى: «اِذهبْ عنّي! إيّاك أن تعود إليّ مرّة أخرى. إنّك يوم تنظر إلى وجهي تموت!» فقال النبي موسى: «نعم، سيكون الأمر كما قلتَ، سيكون هذا آخر عهدك بي».

(1) استنادا إلى سفر الخروج 10: 21-23.
(2) استنادا إلى سفر الخروج 11: 1-3.
(3) استنادا إلى سفر الخروج 10: 24-29.

النبي موسى ينذر فرعون[1]

ولقد سبق من النبي موسى إلى فرعون النذير إذ قال له: «إنّ الله سيتجلّى في منتصف الليل في مصر، وبتجلّيه يموت كلُّ بكر فيها، يموت بكر فرعون الجالس على عرشه ويموت بِكْر الجارية الّتي تعمل بحجر الطّحن. وتموت أبكار البهائم أيضا. وليعلونّ نواح كبير في أنحاء مصر، نواح لم يمرَّ بمصر شبيه له ولن يُرى له فيها مثيل. أمّا بنو يعقوب فتسودهم السكينة فلن ينبح كلبهم جزعا. هذا لتعلموا أنّي فضلتُهم على المصريين». وختم موسى كلامه بقوله: «يا فرعون، ليأتينّ إليَّ جميع رجال حاشيتك وينحنون أمامي متوسّلين إليّ أن أغادر أنا وقومي أرض مصر، وبعدها فقط يكون الرحيل». وغادر موسى عليه السلام قصر فرعون غاضبًا.

وقبل هذا اللقاء، أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «صُمَّتْ آذان فرعون عن الوحي المبين، ولأنزلنّ على أرض مصر آيات أعظم من الآيات الأولى». وجرت على يد موسى وهارون أمام فرعون المعجزات، وجعل الله فرعون يتمادى في عناده، فلم يُطلق بني يعقوب من أرضه.[2]

عيد الفصح[3]

وعندما كان بنو يعقوب في مصر، حذّر الله موسى وهارون(عليهما السّلام) قائلاً: «ليكن شهر خروجكم من الآن أوّل شهور السنة. فأعلنا لكلّ جماعة بني يعقوب أنه على كلّ ربّ أسرة أن يأخذ خروفًا واحدًا عن أهل بيته في العاشر من هذا الشهر. فإن كان عدد أهل بيته أقلّ من أن يأكلوا خروفًا، فليتقاسموه مع عائلة أخرى. وحسب عدد الأشخاص الّذين سيشتركون في تناول الطعام، عليهم أن يختاروا ذبحا لا يتجاوز عمره سنة واحدة، ويجب أن يكون خاليا من كلّ عيب، وتنتقونه من الغنم أو الماعز، وتحفظونه إلى اليوم الرابع عشر من الشهر نفسه. وعلى كلّ عائلة من بني يعقوب أن

(1) استنادا إلى سفر الخروج 11: 4–10.
(2) انظر سورة آل عمران: 11.
(3) استنادا إلى سفر الخروج 12: 1–14.

تذبح ذبحها المختار عند غروب هذا اليوم، ثمّ يأخذون من دمه ويرشّونه على قوائم الباب في كلّ اتّجاه، ويخصّ هذا الأمر المنازل الّتي فيها يأكلون.[1] وفي تلك الليلة عليكم أن تأكلوا لحم الذبيحة مشويًّا مع خبز غير مخمّر وأعشاب مرّة. ولا تأكلوا لحمها ورأسها وأكارعها وأمعاءها نيئة أو مطبوخة، بل عليكم أن تأكلوها مشوّية، وكلوا من اللحم في تلك الليلة، ثمّ احرقوا كل ما تبقّى منه قبل حلول الصباح. وكلوا لحم ذبائحكم في عَجَلة وأنتم للرحيل متأهّبون، نعالكم في أرجلكم، وعِصيّكم في أيديكم. إنّ هذا العشاء عشاء عيد الفِصْح فاحتفلوا به، إنّكم حين تحتفلون به تكرموني. وإنّي أتجلّى في تلك الليلة في بلاد مصر، وأقضي على أبكار المصريين وعلى أبكار حيواناتهم التي يملكون، فأنفّذ حُكمي في كلّ آلهة المصريّين، لأنّي أنا الله رب العالمين. وسأحمي كلّ من يُرَشُّ على بيته الدمُ ولن أصيبه بمكروه حين أضرب بلاد مصر، لأنّ الدّم سيكون علامةً تحميه.[2] إنّ هذا اليوم عليكم فريضة فاحتفلوا بهذا العيد إكراما لي على مدى الأجيال.

عيد الفطير[3]

ثمّ احتفلوا بعد عيد الفصح بعيد الفطير. فكلوا الخبز دون خمير سبعة أيّام، وأخرجوا في اليوم الأوّل الخمير من منازلكم، ولتأكلوا منذ اليوم الأوّل من أسبوع الاحتفال إلى انقضائه الخبز دون خمير ومن يأكل خبزا مخمّرا يكون من جماعتكم منبوذا. وأقيموا شعائر صلاة الجماعة في اليوم الأوّل واليوم الأخير من هذا الأسبوع، ولا يجوز لكم في هذين اليومين أن تعملوا أيّ عمل باستثناء تحضير طعامكم.

(1) انظر في هذا المجلّد مقال: "مفهوم الشّريعة ومقاصدها".

(2) في زمن النبي موسى، اعتقد بنو يعقوب أنهم يرفعون من شأن الله عندما ينسبون إليه سفك دماء أبكار المصريين. وهذا التصرّف في الحقيقة هو تصرّف تقوم به الآلهة الوثنية التي تعبدها الشعوب المجاورة. ومع مرور العصور، فهم بنو يعقوب أن هذه الأفعال تصدر من الشياطين أو من ملائكة متمرّدة على الله (انظر الإنجيل، سفر العبرانيين 11: 28، وانظر أيضا مقال "كيف قرأ السيد المسيح التوراة").

(3) استنادا إلى سفر الخروج 12: 15-20.

فاحتفلوا بعيد الفطير فريضةً على مدى أجيالكم لأنّي في هذا اليوم أخرجتُكم أفواجًا من بلاد مصر. وكلوا خلال هذا العيد فطيرًا دون خمير أينما كنتم تقيمون، وطهّروا بيوتكم من الخمير، ولْيُنْبَذْ من يأكل خميرا من بني يعقوب، دخيلاً كان أم أصيلاً.

ممارسة شعائر عيد الفصح[1]

ثمّ استدعى النبي موسى جميع شيوخ بني يعقوب وأمرهم: «على كل عائلة أن تختار ذبحا وتذبحه احتفالاً بعيد الفِصْح، واحتفظوا بدمه في وعاء، ثم خذوا حزمةً من نبات الزوفا واغمسوها في الدّم، ورشّوا منه على قوائم أبواب بيوتكم. ولا تغادروا عتبات أبواب منازلكم حتّى الصّباح. إنّ الله سيتجلّى في أنحاء بلاد مصر، وسينزل ملاك الموت على أبكار المصريين، فإذا رأى الدّم على قوائم أبواب بيوتكم تخطّاها ولم يقض على أبكاركم. يا بني يعقوب أطيعوا وذريّتكم هذه الوصايا فريضةً على مدى الأجيال، وحين تدخلون الأرض التي سأدلّكم عليها، أقيموا هذه الشعائر باستمرار. وإن سألكم أولادكم: لماذا نقيم شعائر هذا العيد؟ فأجيبوهم: إنّها أضحية عيد الفِصْح إكرامًا لله. إنّ الله حمى بيوتنا في مصر، ونجّانا لمّا حلّ الهلاك على المصريين»[2]. وبعد أن أنهى النبي موسى كلامه، خرّ قوم بني يعقوب ساجدين. وفعلوا كما أوحى الله إلى موسى وهارون(عليهما السّلام).

الآفة العاشرة: موت أبكار المصريين[3]

وفي منتصف الليل تجلّى ملاك الموت وفَتك، بإذن الله، بأبكار كلّ المصريين، من بِكر فرعون الجالسِ على عرشه إلى بِكر السجين في غياهب

(1) استنادا إلى سفر الخروج 12: 21–28.
(2) لقد علّم السيد المسيح وحواريوه أنّ تضحية المسيح بحياته تحقّق مغزى هذا العيد، كما جاء في رسالة الحواري بولس الأولى إلى أحباب الله في كورنتوس: ((فدَعُونا نَحتَفِلُ بالمَعنى الحَقيقيِّ لِعِيدِ الفِصْح: وذلِكَ لا يَكونُ بتَنقيّةِ بُيوتِنا مِن الخُبزِ المُخَمَّرِ بل بتَطهيرِ حَياتِنا مِن الشَّرِّ والفَسادِ وبالسَّعي إلى الإخلاصِ والحقِّ)) [1 كورنتوس 5: 7].
(3) استنادا إلى سفر الخروج 12: 29–36.

سجنه، وأهلك أبكار الحيوانات أيضا. وأفاق فرعون ورجال حاشيته وسائر المصريين على حجم المصيبة، وتعالى نواحهم، إذ لم يخل بيت من هول فاجعة الموت.

واستدعى فرعون، في تلك الليلة، موسى وهارون(عليهما السّلام) وقال لهما: «اخرجوا الآن من مصر. اتركونا واعبدوا ربّكم كما كنتم تطلبون. خذوا غنمكم وأبقاركم، واتركونا وشأننا، واطلبوا بركة الله عليّ حين تخرجون».

وحثّ المصريّون بني يعقوب على الرحيل ومغادرة بلادهم، واستعجلوهم، فقد كانوا يظنّون أن الموت سيصيبهم جميعًا إذا ظلّ بنو يعقوب في مصر أكثر من ذلك. فأخذ بنو يعقوب عجينهم قَبل أن يختمر، ووضعوه في أواني وشدّوها بثيابهم على أكتافهم. وفعلوا كما أوصاهم النبي موسى، فطلبوا ثيابًا ومصوغ ذهب وفضّة من المصريّين. وجعل الله المصريّين يرضون على بني يعقوب، فأعطوهم ما طلبوه. وهكذا انتصف بنو يعقوب من المصريّين.

رحيل بني يعقوب[1]

ورحل في تلك الليلة ستّ مئة ألف رجل أو يقلّون قليلا باستثناء النّساء والأطفال من بني يعقوب مشيًا على الأقدام، من مدينة رَعَمْسيس إلى سُكّوت. وانضمّ إليهم من الأغراب حشد كبير، وقطعان كثيرة من المواشي والأبقار. وخبزوا في طريقهم العجين الّذي حملوه معهم من مصر وهو بعد فطير، لأنّهم هرعوا خارجين، ولمّا يختمر العجين.

ووصلت مدّة إقامة بني يعقوب بمصر أربع مئة وثلاثين سنةً، وفي آخر يوم من وجودهم في مصر، خرجت جميع قبائلهم أفواجًا أفواجًا. وكان الله في تلك الليلة خير حافظ لبني يعقوب، فعليهم أن يحفظوا تذكار تلك الليلة ليبقى على مدى الأجيال.

(1) استنادا إلى سفر الخروج 12: 37-42.

الهجرة إلى البحر الأحمر[1]

وحين تحرّر بنو يعقوب من ظلم فرعون لم يرشدهم الله إلى طريق الساحل في بلاد فلسطيا، رغم أنه أقصر السبل إلى الأرض التي ائتمنهم عليها، حتّى لا يرتدّوا إلى مصر وعلى أعقابهم ينقلبون. لذلك أرشد الله بني يعقوب أن يسلكوا طريقًا ملتوية في الصحراء تصل بهم إلى البحر الأحمر. وكانوا أفواجًا أفواجًا عند خروجهم من أرض مصر. وأخذ النبيّ موسى عظام يوسف النبيّ معه، إذ استحلف يوسف قبل وفاته بني يعقوب قائلاً: «إن الله سيرعاكم وسوف يخرجكم من هذه الأرض، فإذا خرجتم فاحملوا رفاتي معكم».

ورحل بنو يعقوب من منطقة سُكُّوت، ونزلوا في منطقة إيثام على مشارف الصحراء. وكانت تجلّيات الله تتقدّمهم نهارًا وقد اتخّذت شكل عمود من سحاب يدلّهم على الطّريق، وليلاً في عمود من نار ليضيء لهم السبيل. فكانوا على أن يواصلوا السّير ليلاً نهارًا قادرين. ولم يرفع الله من أمامهم عمود السّحاب نهارًا ولا عمود النّار ليلاً.

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: قل لبني يعقوب أن يعودوا أدراجهم وينزلوا قُرب بلدة الحيروث، بالقرب من بلدة بَعْل صَفون، بين بلدة مَجدُل والبحر الأحمر، حتّى يظنّ فرعون أنّ بني يعقوب في الصحراء تائهون ولا مخرج لهم منها ولا سبيل. وسأجعل فرعون يتمادى في عناده فيطاردكم،[2] إنّي أريد أن أبدي جلالي في فرعون وجيوشه حتّى يعلم المصريّون أنّي أنا الله العلي العظيم». وأطاع بنو يعقوب وحي الله وأقاموا حيث أمرهم تعالى.

فرعون يطارد بني يعقوب[3]

وحين علم فرعون أن بني يعقوب هجروا مصر، ارتدّ وحاشيته عن رأيهم وقالوا:

(1) استنادا إلى سفر الخروج 13: 17–22، 14: 1–4.
(2) انظر سورة غافر: 35.
(3) استنادا إلى سفر الخروج 14: 5–14.

«كيف فعلنا هذا؟ فأطلقنا بني يعقوب من خدمتنا!» فأمر فرعون بتجهيز مركبته واستنفر جيشه، ورافقته ستّ مئة مركبة تحمل أقوى جنوده مع المركبات الحربية الّتي يترأس كلّ واحدة منها ضابط. وجعل الله فرعون يتمادى في عناده، فلحق بني يعقوب الّذين رحلوا أمامه في عزّ جليّ، وطاردهم بجميع مركباته وفرسانه وجنوده ولحق بهم حيث كانوا ينزلون، لحق بهم عند البحر قرب بلدة الحيروث وبلدة بَعْل صَفون. ولمّا لمح بنو يعقوب فرعون وجيوشه منهم يقتربون، انتابهم الهلع الشديد، وجأروا إلى الله في الحال. وشكوْا الأمر إلى النبي موسى قائلين: «لماذا أخرجتَنا إلى الخلاء؟ هل ضاقت مصر عن أن يكون لنا فيها قبور، فجئتَ بنا لنموت في الصحراء؟ ماذا فعلتَ بنا؟ لماذا جعلتَنا نخرج من مصر؟ أما أخبرناك هناك وقلنا: دعنا وشأننا فنخدم المصريّين، إنّه خيرٌ لنا أن نكون عبيدًا في مصر على أن نكون جيفًا في الصحراء!» فقال لهم موسى عليه السلام في ثبات ويقين: «لا خوف عليكم! اثبتوا في أماكنكم وانظروا كيف ينجّيكم الله اليوم! إنّ المصريّين الّذين أمامكم، لن تروهم إلى الأبد. وما أنتم الّذين تحاربون بل الله يحارب عنكم، وأنتم ساكنا لا تحرّكون».[1]

عبور البحر[2]

ثمّ أوحى الله إلى موسى عليه السلام: «لماذا تتوسّل إليّ على الدوام؟ قل لبني يعقوب أن يرحلوا. وأمسك عصاك وارفعها نحو البحر وسوف ينشقّ بإذني، فادخلوا بين موجين كالجبال، وسيروا على أرض البحر اليابسة. وسأقفل على قلوب جيوش مصر ما عزمت عليه، حتّى يلحقوا بكم، فأدمّرهم تدميرا وأكشف قدرتي وهيبتي حين أدمّر فرعون وجنوده ومركباته وفرسانه جميعا. فيعلم المصريّون حينئذ أنّي أنا الله العلي العظيم». وكان الملاك الذي أرسله الله يتقدّم بني يعقوب منذ خروجهم من مصر، وها هو الآن ينتقل وينتقل معه عمود السحاب ليكون خلفهم، وحلّ الملاك وعمود السحاب بين جيش المصريّين وجماعة بني يعقوب. وعند هبوط الظلام أصبح عمود

---

(1) انظر المقال: "كيف قرأ السيد المسيح التوراة". انظر أيضا سورة الأنفال: 17.

(2) استنادا إلى سفر الخروج 14: 15–31.

السحاب عمودا من نار أضاء على جماعة بني يعقوب، وفي الجهة المقابلة ظلّ جيش المصريين في ظلام فلم يتقارب الفريقان طوال اللّيل.

ومدّ النبي موسى يده فوق البحر، فأرسل الله ريحا شرقيّةً عاصفة فتحت فيه طريقًا، واستمرّت الريح في العصف ليلة كاملة كشفت فيها عن قاع البحر. ومشى بنو يعقوب على اليابسة وسط البحر. وكان الماء على الجانبين يمينًا وشمالا كالسور المنيع. وطاردهم المصريّون بخيل فرعون ومركباته وفرسانه طوال الطريق الممتدّة وسط البحر. وكان الله رقيبا عليهم، وقبل طلوع الفجر تجلّى في عمود السحاب المتلهب نارا، وعصف بصفوف جيش فرعون، وعطّل عجلات مركباتهم فما دفعوها إلاّ بجهد جهيد وقالوا: «لنهرب من هنا، ونبتعد عن بني يعقوب، إنّ الله يقاتلنا بدلاً عنهم».[1]

وحينما خرج بنو يعقوب من البحر إلى الضفّة الأخرى، أوحى الله إلى النبيّ موسى: «يا موسى ابسط يدك نحو البحر، وليعد الماء إلى التحامه ولتغمر المياه مركبات فرعون وفرسانه». وعند طلوع الشمس فعل موسى عليه السلام ما أمره الله به، وعاد البحر إلى ما كان عليه. وحاولت الجيوش الهروب من المياه، ولكنّ الله حبسها في أعماقها. وغمرت المياه المركبات والفرسان وكلّ جيش فرعون الّذي طارد بني يعقوب في البحر، فما نجا منهم أحدٌ. أمّا بنو يعقوب، فعبروا البحر على اليابسة الّتي تتوسّطه، وكان الماء كالسور يحميهم يمينًا وشمالا. وكذلك أنقذ الله بني يعقوب في ذلك اليوم العظيم من يد فرعون وجنوده، ورأى بنو يعقوب جثث أعدائهم على شاطئ البحر.[2] وعندما رأى بنو يعقوب جبروت الله الّذي أنزله على جيش فرعون، هابوه تعالى وآمنوا به وبعبده موسى.

(1) تعوّد بنو يعقوب أن ينظروا إلى أنفسهم كشعب الله المختار، وتصوّروا أن الله مثل محارب جبار يقاتل أعداءهم من أجلهم. وساد هذا الاعتقاد حتى في عصر السيد المسيح، فأعلن عليه السلام أن المملكة الربانية مفتوحة أمام جميع الناس، وشرح هذا المبدأ عندما روى قصص بعض الأنبياء الأقدمين التي تبرز كيف أن الله اجتاز بني يعقوب وأنعم بفضله على أفراد من شعوب مجاورة من أعدائهم (انظر الإنجيل، لوقا 4: 25–27).

(2) انظر سورة البقرة: 50، وسورة الشعراء: 60–67.

مريم تنشد لله[1]

ولمّا تسارعت خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى دخول البحر، أفاض الله الماء عليهم فأمسوا مغرقين، وأمّا بنو يعقوب فنجوا من اليمّ العظيم لأنهم عبروه سيرا على الأرضِ اليابسة. وأوحى الله إلى مريم أخت هارون،[2] فأخذت في يدها دُفًّا، وتبعتها النّساء ضاربات بالدّفّ راقصات. فأنشدت أمامهنّ:

"أنشِدوا لله جلّ جلاله

ها تلكم الخيل وفرسانها رماهم في اليم فأمسوا مغرقين».

نشيد النصر[3]

وأنشد النبيّ موسى وبنو يعقوب مع مريم هذا النشيد لله:

"أُنشدُ لله جلّ جلالُهُ.

رمى الخيل وفرسانها في البحر فهم مغرقون.[4]

إنّ الله عزّتي وإنّه لنشيدي

نصرني على أعدائي النصر المبين.

أمدحُهُ فهو معبودي.

تعالى ربّ آبائي وجدودي.

إنّه القهّار الجبّار

الله اسمُهُ.

ألقى فرعون ومركباته وجنوده في اليمّ غرقا.

فابتلعت أمواج البحر الأحمر نخبة جيوشه فزهقوا زهقا.

---

(1) استنادا إلى سفر الخروج 15: 19–21.

(2) مريم أخت موسى وهارون ليست مريم أمّ السيد المسيح، وإنما يحملان الاسم نفسه.

(3) استنادا إلى سفر الخروج 15: 1–18.

(4) انظر سورة الذاريات: 40.

غمرتهم اللّجج فغاصوا إلى الأعماق كالحجارة.

اللهمّ تجلّت يمينك بالعزّة والجبروت.

يمينك يا اللهُ تحطّم الطاغوت.

تقهر أعداءك بجلالك العظيم،

ويحلّ غضبك عليهم فيأكلهم كالنار تأكل الهشيم.

بنفخة منك انشطرت المياهُ

وانتصبت أمواجُها كالطود العظيم،

وتجمّدت اللّجج في اليمّ العميق.

قال العدوّ: أتبعهم فألحق بهم فأثخن فيهم دماء.

وأُقسّم الغنيمة فأشبع منها،

وأستلّ سيفي فتُفنيهم يدي إفناء.

سبحانك اللهمّ، أنت بنفخةٍ منك كان البحر لهم غشاء،

فغرقوا كالرّصاص في غمر الماء.

يا ربُّ لا شريك لك ولا مثيل!

مَن مِثلك يا جليل تقدّسْتَ وتعاليتَ؟

يا مَهيبًا مجيدًا في الأعجوبات

يا ربّ، يا من تفعل الآيات والمعجزات.

بسطتَ إليهم يمينا قديرة،

فابتلعتْهم الأرض.

يا وفيّا لعهودك، هديتَ عبادك إلى درب الخلاص العظيم

وأنقذتَهم من العبودية وأرشدتَهم إلى ديارك المُقدّسة أيّها القوي المتين،

بعظمتك سمعَتِ الشّعوب فارتجفوا،

وذُعر سكّان فِلسطيا ذُعرا

وزعماءُ بلاد أَدوم ارتعبوا،

وأشراف مُوآب ارتعدوا،

وفقد سكّان كنعان شجاعتهم ومن الخوف ذابوا.

وحلّ بهم الرعب وإنهم يرتجفون،

وحين يرون قدرتك يجزعون وكالحجارة يتجمّدون

حتّى يعبر أمامهم عبادك الذين بقدرتك أصبحوا محرّرين.

والآن تأتي بهم فتجعلهم مستقرين

في الجبل المصطفى

لتقيم فيه حرمك المقدّس وفيه تتجلّى.

اللهمّ، أنت مالك الملك إلى أبد الآبدين».

بنو يعقوب في الصحراء[1]

وقاد موسى عليه السلام بني يعقوب من شاطئ البحر الأحمر وانطلقوا مشيًّا إلى صحراء شور. وساروا ثلاثة أيّام ولم يجدوا ماء. واقتربوا من واحة، فوجدوا فيها ماء لكنّهم لم يقدروا أَن يشربوا منه لمرارته، ولذلك سمّوا الواحة مارّة. وشكى بنو يعقوب إلى النبي موسى عطشهم وقالوا: «ماذا نشرب؟» فاستغاث النبي موسى ربّه، فكشف له عن شجرة مميّزة، فكسر منها غصنا ورماه في الماءِ فصار عذبًا.

وفي هذا المكان أصدر الله لبني يعقوب أمرا به يكشف مدى إخلاصهم له، فقال تعالى: «إن أطعتم كلام الله ربّكم، وسرتم على هداه، واتّبعتم وصاياه، وقمتم بما فرضه عليكم، فلن أُنزل بكم ما أنزلت بالمصريّين من أمراض وعلل، فإنّي أنا الله الشافي المعافي».

(1) استنادا إلى سفر الخروج 15: 22–27.

وغادر بنو يعقوب واحة مارّة نحو واحة إيليم. فوجدوا فيها اثنتي عشرة عين ماء وسبعين نخلة، فنصبوا خيامهم بجانب عيون الماء.

تذمّر بني يعقوب[1]

ورحل بنو يعقوب من واحة إيليم نحو صحراء سين الّتي تقع بين إيليم وجبل سيناء ووصلوا إلى جبل سيناء بعد مرور شهر عن تحرّرهم من مصر. وهناك تذمّروا على هارون وموسى، مرّة أخرى، وقالوا: «ليت الله أهلكنا في مصر. فهناك كنّا نجلس حول قدور اللّحم ونأكل ما لذّ وطاب لنا حتّى نشبع، أمّا الآن فقد جئتما بنا إلى هذه الصحراء حتّى نموت جوعا!»

فأوحى الله إلى النبي موسى:

«إنّي سميع عليم بتذمّر بني يعقوب».

المنّ وطيور السلوى[2]

فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا موسى، إنّي سأُمطر لكم خبزًا من السّماء، فاجمعوا منه قوت يومكم. وإنّي بهذا مُمتحنُهم، فتظهر لي مدى طاعتهم لأوامري. وليجمعوا في اليوم السّادس ضعف ما تعوّدوا جمعه في سائر الأسبوع».

فقل لهم: عند الغروب، لحمًا تأكلون وفي الصّباح من الخبز تشبعون، وحينها تعرفون أنّي أنا الله ربّكم».

وقال النبي موسى لأخيه هارون: «أخبر جميع بني يعقوب أن يجتمعوا حيث نعبد الله فهو سميع بشكواهم». وبينما كان هارون عليه السلام يخاطبهم، نظروا نحو الصحراء، فإذا بتجلّيات الله تطالعهم في السحاب.

وخاطب موسى وهارون بني يعقوب: «لتكوننّ عند الغروب على يقين، أنّ الله هو الّذي أخرجكم من مصر فأصبحتم محرّرين، ولتشاهدُنّ في الصّباح شأن

(1) استنادا إلى سفر الخروج 16: 1-3، 11.
(2) استنادا إلى سفر الخروج 16: 4-20.

الله العظيم، لأنّه سميع بشكواكم وما به تتذمّرون. فما لكم مِن حقّ علينا، فكفّوا عن لومكم وما تقولون!» وأضاف موسىعليه السلام: «نعم، عند الغروب يعطيكم الله لحمًا تأكلون، وفي الصباح خبزًا منه تشبعون، فهو السميع العليم. فما الّذي فعلناه في حقّكم؟ إنّ شكواكم مرفوعة إلى الله لا إلينا!»

وكذلك فعل الله، فعند الغروب نزلت أعداد هائلة من طير السّلوى، وغطّت الأرض التي فيها بنو يعقوب. وحلّت في الصباح على كل المنطقة المحيطة به طبقة من النّدى. وحين تبخّر النّدى، بدت قشور رقيقة كالجليد تغطّي الثّرى. فلمّا رآه بنو يعقوب تساءلوا: «ما هذا؟» ذلك أنّهم لم يفقهوا ما رأوه. فأخبرهم النبي موسى: «هو الخبز الّذي أنزله الله لكم فكلوه. وأمركم الله أن: تجمعوا منه، كلّ حسب حاجته. وليكنْ لكلّ واحد من أهل بيتكم غُمرًا واحدًا».

ففعل بنو يعقوب كما أمرهم الله، فمنهم من جمع كثيرًا ومنهم من جمع قليلاً. وحينما وزّعوه بالكيل ووجدوا أنّ كلّ واحد لديه ما يكفيه، فمهما جمع كثيرًا أو قليلاً لن يزيد عن حاجة عائلته، فجمع كلّ واحد حسب حاجته.

وأوصاهم موسىعليه السلام: «احذروا، ولا تحتفظوا بشيء منه حتّى الصباح». غير أنّ منهم من لم يكترث بكلام النبي موسى، فأبقى منه ما أبقى، فتعفّن وأكله الدود. فاحتدم موسى عليهم غيظا وغضبا.

وصف المنّ[1]

وسمَّى بنو يعقوب ذلك الطعام منّ، وكان لونه أبيضا كبذور الكُزبرة، وطعمه طعم القطائف المحلاة عسلا.

وأكل بنو يعقوب المَنّ أربعين سنة حتّى وصلوا أرضا عامرة، على حدود أرض كَنعان حيث زرعوا وحصدوا.[2]

(1) استنادا إلى سفر الخروج 16: 31، 35.

(2) إنّ إعطاء المنّ دليل على عناية الله ورحمته تجاه بني إسرائيل. والمنّ دليلٌ على إعطاء منتظر ذي قيمة فائقة، إذ قال السيد المسيح لليهود: ((الحق الحق أقول لكم: لم يكن النبي موسى هو

الله يفجّر الماء من الصخرة[1]

وأمر الله بني يعقوب أن يتركوا صحراء سين وأن ينتقلوا من مكان إلى مكان، فرحلوا إلى منطقة رفيديم ولكنهم لم يجدوا ماء يشربونه. فاتّجهوا إلى النبي موسى عليه السلام بخصام عنيد وقالوا: «أفلا تسقينا ماء!» فأجابهم: «ما لكم تخاصمونني خصام المكذّبين؟ أم أنّكم لوفاء الله بوعده ممتحنون؟» واشتدّ العطش ببني يعقوب في منطقة رفيديم ولاموا النبي موسى لوما قويّا وقالوا: «هل خرجنا من مصر إلى حتفنا؟ هل تريدنا أن نموت وأبناؤنا ومواشينا ها هنا عَطشًا؟» فاتّجه النبي موسى إلى الله في خشوع: «أي ربي لستُ أعلم ما أفعل مع بني يعقوب، إنّهم من رجمي بالحجارة قريبون ولقتلي فاعلون». فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «يا موسى، أبلغ بني يعقوب عني ولا تخف، وخذ منهم بعض شيوخهم وائت بهم إلى صخرة حوريب. ثم خُذ بيمينك العصا الّتي ضربتَ بها نهر النيل، ولا تتردّد، إنّي معك في كلّ حين. واضرب بعصاك الحجر فينفجر منها ماء يشرب منه قبائل بني يعقوب».[2] وكان النبي موسى عند أمر الله وانفلق الماء من الصخرة وشيوخ بني يعقوب ينظرون. وسمَّى موسى عليه السلام ذلك المكان صخرة الخصام والبرهان، لأنّ بني يعقوب تخاصموا وامتحنوا وفاء الله بوعده لهم حين قالوا: «هل بقي الله معنا حقّا؟»

بلوغ بني يعقوب جبل سيناء[3]

وترك بنو يعقوب منطقة رَفيديم، ووصلوا بعد شهرين من خروجهم من مصر

مَن أعطى أجدادكم ذلك الخبز، بل الله أبي الصمد هو من أعطاهم إياه. والآن يُرسل إليكم من السماء الغذاء الحقيقي. إنّه غذاءٌ من الله ينزل من السماء ويُعطي الحياة للناس في العالم.» فقالوا له: «اعطِنا يا سيّدنا هذا الغذاء على الدوام.» فأجابهم عليه السلام: «أنا هو الخبز الذي يغذّي أرواحكم، فلا جوع بعده ولا عطش إذا آمنتم بي)) (الإنجيل، يوحنّا 6: 32–35]. وانظر أيضا سورة البقرة، الآية 57.

(1) استنادا إلى سفر الخروج 17: 1–7.

(2) انظر سورة البقرة: 60.

(3) استنادا إلى سفر الخروج 19: 1–15.

إلى الصحراء المجاورة لجبل سيناء، ونزلوا عند سفح الجبل. وصعد النبي موسى إلى الجبل لموعد له مع الله. فناداه الله مِن الجبل: «يا موسى قُل لبني يعقوب: ها أنتم رأيتم بأمّ أعينكم ما فعلتُ بالمصريّين، وكيف حملتُكم على أجنحة النسور وجئتُ بكم إلى جبلي هذا. فإن أطعتم وصاياي وحفظتم ميثاقي، ستكونون خاصّتي بين الأمم،([1]١) إنّما اعلموا أنّي أنا الله ربّ العالمين، أمّا أنتم فتكونون لي مملكة من أحبار وأمّة من المنذورين. إنّ هذه رسالتي إلى بني يعقوب، وما عليك سوى البلاغ المبين». ونزل موسى عليه السلام من الجبل واستدعى الشيوخ وبلغهم ما أمر الله به. فأجابوا بصوت واحد: «إنّا لِما أوحى الله إليك طائعون، وبه عاملون». فصعد النبي موسى الجبل من جديد يحمل دخول بني يعقوب في عهد الله وميثاقه.

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: يا موسى، سأتجلّى لك في غمام حتّى يسمع قومك صدى صوتي حين أكلّمك تكليما، فيزدادون ثقة فيك». وعبّر النبي موسى عن استعداد قومه للدخول في الميثاق. فأوحى إليه تعالى: «اِذهب إلى بني يعقوب وامرهم أن يتطهّروا اليوم وغدًا، وأن يغسلوا ثيابهم، وفي اليوم الثالث تأكّد أنّهم على استعداد، فإنّي سأتجلّى لهم في ذلك اليوم على جبل سيناء وهم ينظرون. فأقم لقومك حدودًا حول الجبل وأنذرهم: «إيّاكم أن تصعدوا الجبل أو تقتربوا من طرفه، فمَن يمسّ الجبل يُقتل حتمًا. فلا تمسّ المعتدي يدٌ، بل يُرجم رَجْمًا أَو يُرمى سهاما، سواءٌ أكان حيوانًا أو إنسانًا، إنّ عليكم أن تقتلوه.» ولكن يا موسى، يُمكن للناس أن يصعدوا الجبل حين يسمعون صوت بوقٍ عال».

فنزل النبي موسى إلى قومه عند سفح الجبل وأمرهم قائلا: «يا بني يعقوب استعدّوا لليوم الثالث، فاعتزلوا نساءكم وتطهّروا وأغسلوا ثيابكم».

تجلّيات الله على جبل سيناء[2]

وفي صباح اليوم الثالث حدثت رعودٌ وبُروقٌ والتفت غمائم كثيفة فوق جبل

(1) انظر سورة البقرة: 40.

(2) استنادا إلى سفر الخروج 19: 16–25.

سيناء، ودوّى صوت شديد من بوق لوقت طويل، فارتعد كلّ مَن في المخيّم. فقادهم النبي موسى إلى خارج المخيّم ليقتربوا من تجلّيات الله، فوقفوا عند سفح الجبل، وكان الدخان يلفّ الجبل، لأنّ الله تجلّى فيه وجعل النار رمزًا لوجوده تعالى، فتصاعد منه دخان كدخان الأتون واهتزّ الجبل بشدّة. وبينما كان النبي موسى يخاطب الله الّذي كان يجيبه بصوت شبيه بصوت الرعد، ازداد دَوِيُّ البوق أكثر فأكثر. وتجلّى الله على قمّة جبل سيناء ودعا النبي موسى ليصعد إلى القمّة فاستجاب له. وهناك أوحى الله إليه: «اِنزِلْ إلى بني يعقوب وأنذِرْهم أن لا يتخطّوا الحدود حول الجبل ليحظوا برؤيتي جهرا فيهلك منهم كثيرون. وعلى الأحبار الّذين يتقرّبون مني أيضًا أن يتطهَّروا لئلاّ أهلكهم». فردّ النبي موسى على الله: «لا يمكنهم أن يصعدوا إلى جبل سيناء لأنّك حذّرتَنا مسبقًا: «أقم حدودًا حول الجبل وحرِّمْ عليهم أن يجاوزوه»». فأوحى إليه تعالى: «اِنزِلْ وعُدْ بهارون، ولكن لا تسمح للأحبار والشعب أن يتعدّوا الحدود ليصعدوا إليّ ليروني جهرًا لئلاّ أهلكهم». فنزل موسى عليه السلام إلى بني يعقوب وأخبرهم بهذا الوحي.

الوصايا العشر[1]

وأوحى الله إلى النبي موسى عليه السلام: «إنّي أنا الله ربّكم، وأنا مُنقذكم من أرض مصر، من دار العبوديّة.

لا تتّخذوا من دوني أربابًا لها تخضعون.

ولا تصنعوا صنمًا يشبه أحد الكائنات، في المياه أو في الأرض أو في السماوات. ولا تسجدوا لها ولا تعبدوها، فأنا الله ربّكم لا إله إلاّ أنا، ولا أجيز أن تتّخذوا لي أندادا. أترك عواقب الذنوب تسري في الجيل الثّالث والرابع من الذين يبغضونني من الجاحدين، وأوفي بعهدي إلى ألوفٍ من الأجيال الّذين يُحبّونني وبوصاياي يعملون.

ولا تلحقوا باسم الله ربّكم اللوم والعار بما تفعلون، إنّ الله يعاقب على ذلك لا ريب، إن عقابه لشديد.

(1) استنادا إلى سفر الخروج 20: 1–21.

ووقّروا اليوم السّابع واحفظوا قُدسيته. إنّ لديكم في الأسبوع ستّة أيّام فيها تعملون، واليوم السابع يوم عطلة مخصّص لله ربّكم، لا عمل فيه، فاسكنوا فيه وبنوكم وبناتكم وخدمكم ودوابكم والغريب المقيم بينكم واستريحوا. إنّ الله خلق السّماوات والأرض والبحار وما فيها في ستّة أيّام، ثمّ توقّف عن عمل الخلق في اليوم السابع وسكن على العرش. كذلك صار اليوم السّابع عند الله يومًا مميّزًا ومقدّسًا.(1)

أكرِموا والديكم وستلقون بإكرامهما خيرًا كثيرا، فتعيشون حياة طويلة هنيئة في الأرض الّتي يأتمنكم عليها الله ربّكم.(2)

لا تقتلوا.

لا تزنوا.(3)

لا تسرِقوا.

لا تشهدوا زورا على الآخرين.(4)

إيّاكم أن ترغبوا في الاستلاء على بيوت الآخرين. فلا ترغب في زوجة جار ولا عبده ولا جاريته ولا ثوره ولا دابته ولا أي شيء ممّا عنده».

ولمّا سمع بنو يعقوب الرعود وصوت البوق وشاهدوا البروق والدخان يصعد من الجبل، ارتعبوا ووقَفوا بعيدًا. والتمسوا من النبي موسى قائلين: «يا موسى، إنّا لك من السّامعين، فاُطلب من الله أن يرحمنا فلا يكلّمنا تكليما، لئلاّ نكون من الهالكين!» فقال لهم موسى عليه السلام: «لا خوف عليكم. إنّما تجلّى الله لكم في الرعود والبروق، ليريكم عظمته ولكي تهابوه حتّى لا تخطئوا في حقه ولا تعصوه». ثمّ صعد النبي

(1) عبر العصور أضاف فقهاء بني يعقوب قوانين صارمة إلى هذه الوصية كتفسير لكيفية تنفيذها. أمّا السيد المسيح فقاوم هذه القوانين لكي يبرز مقصد الله من يوم السبت. وقال في هذا الشأن: ((لَقَد جَعَلَ اللهُ السَّبتَ لِخِدمةِ الإنسانِ، ولم يَجعَلِ الإنسانَ لِخِدمةِ السّبتِ)) [الإنجيل، مرقس 2: 27]. انظر المقال في هذا المجلّد: ”مفاهيم الشعب المختار وأماكنه وأوقاته المقدّسة“.

(2) انظر سورة النساء: 36.

(3) انظر سورة الإسراء: 32.

(4) انظر سورة النساء: 135.

موسى إلى الجبل مرّة أخرى، ودخل الضباب الكثيف حيث تجليّات الله، ووقف بنو يعقوب بعيدين عنه ينتظرون.

بناء المذبح[1]

فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «قُلْ لبني يعقوب: شاهدتم بأمّ أعينكم أنّي خاطبتُكم من السّماء. فلا تتّخذوا أصنامًا من فضّة أو ذهبٍ وإياها تعبدون. وابنوا مذبحا من ترابٍ إكرامًا لي، واحرقوا عليه أضاحي بأكملها واذبحوا غيرها من أغنامكم وأبقاركم للتقارب والمصالحة فيما بينكم.[2] وإنّي أباركم في كلّ موضع أحدّده لكم وفيه ترفعون ذكري.

إبرام ميثاق الله[3]

فسجل موسى عليه السلام كلّ وصايا الله. وفي الصباح الباكر بنى في أسفل الجبل مذبحا، ونصب اثني عشر عمودًا على عدد عشائر بني يعقوب. وأرسل شُبّانًا من القوم فقدّموا أضاحي ثمّ أحرقوها بأكملها، ثمّ ذبحوا غيرها من العجول للتقارب والمصالحة فيما بينهم وتناولوها في محضر الله. واحتفظ النبي موسى بدم الأضاحي ووضع نصفه في أوعيةٍ، ورشّ النّصف الآخر على المذبح. ثمّ قرأ من كتاب الميثاق على مسامع بني يعقوب، فاستجابوا قائلين: «سنفعل كلّ ما أوحى به الله، ونكون طائعين». فأخذ النبي موسى الدّم الّذي في الأوعية ورشَّهُ عليهم وقال: «بهذا الدّم يُبرم الميثاقُ الّذي أَوصاكم الله أَن تحفظوه بالعمل بكلّ هذه الوصايا طائعين».

ثمّ تسلّق موسى وهارون(عليهما السّلام) الجبل مرّة أُخرى ومعهما ناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ بني يعقوب، فرأوا تجلّيات الله مولاهم ورأوا تحت العرش ما

(1) استنادا إلى سفر الخروج 20: 22–26.

(2) سمح الله لبني يعقوب أن يستمرّوا في تقديم الأضاحي لكي يعبدوه بطريقة مألوفة، وسمح باستمرارها لقيمتها الرّمزيّة والتعليميّة، فهي تشير إلى حقائق روحانيّة أعظم لابدّ أن تأتي فيما بعد. قارن ما جاء في سورة الحجّ الآية 37.

(3) استنادا إلى سفر الخروج 24: 4–11.

يشبه أَرضيّةً من الياقوت الأزرق في غاية الصّفاء، يماثل السّماء في النّقاء. ولكنّ الله لم يسمح بهلاكهم رغم أنّهم حظيوا برؤية تجلّياته وطعموا مِن العشاء في محضره تعالى.

اعطاء لوحين فيهما الميثاق[1]

ولمّا فرغ الله من الوحي المنزّل على النبي موسى في جبل سيناء، أعطاه لوحي الميثاق وكانا من الحجر وفيهما خطّ الله وصايا الميثاق.

العجل الذهبي[2]

وحين لاحظ بنو يعقوب تأخّر موسى عليه السلام في الجبل، أحاطوا بهارون وقالوا في إلحاح شديد: «اجعل لنا إلها يرشدنا ونكون له تابعين. أمّا موسى ذاك الذي أخرجنا من مصر وجاء بنا إلى هنا، فلا نعلم ما الذي أصابه.»[3] فأجابهم هارون عليه السلام: «آتوني أقراط الذهب التي هي زينة زوجاتكم وبنيكم وبناتكم». فانتزعوا حلق الذّهب وجاؤوا بها إلى هارون. فأخذها وأذابها وصاغ منها تمثال في شكل عجل. ولمّا رآه بنو يعقوب صاحوا مفتونين: «يا بني يعقوب، هذا ربّكم الّذي أخرجكم من مصر!» وحين رأى هارون عليه السلام كيف فرح بنو يعقوب، بنى مذبحا أمام الصّنم ونادى فيهم: «يا بني يعقوب، اجعلوا لإلهكم عيدا وليكن العيد غدًا!» وفي صباح اليوم الموالي، أحضر بنو يعقوب بعض المواشي، فذبحوا بعضها وأحرقوها حرقا تامّا قربانًا للصنم الذهبيّ، وذبحوا مواشي أخرى للتقارب والمصالحة فيما بينهم وجلسوا يأكلون منها بشره ويشربون محتفلين، وانغمسوا في ضلالهم لاهين.

وأوحى الله إلى موسى: «انزل الآن من الجبل، فإنّ قومك الذين أخرجتهم من مصر قد ارتدّوا، وهم في الضلال تائهون. يا لسرعة ضلالهم عن الصراط المستقيم

(1) استنادا إلى سفر الخروج 31: 18.
(2) استنادا إلى سفر الخروج 32: 1–10.
(3) انظر سورة البقرة: 92.

الّذي أمرتهم به، فجعلوا لهم صنمًا مَسبوكًا على شكل عجل، وسجدوا له وقدّموا له الأضاحي قائلين: «يا بني يعقوب، هذا ربّكم الّذي أخرجكم من مصر!» يا موسى، إنّي بصير بما يفعلون، إنّهم شعبٌ متمرّد عنيد. وها أنّ غضبي يحتدم عليهم، وسأدمّرهم تدميرا، أمّا أنت يا موسى فسأجعل منك أُمّةً عظيمةً».

النبي موسى يطلب رحمة الله لبني يعقوب[1]

فتضرّع النبي موسى إلى ربّه قائلاً: «يا ربّ، لم يحتدّ غضبك على بني يعقوب أهل ميثاقك، الذين حرّرتهم من مصر بقوّتك وبيدٍ قديرة؟ سيشمت بهم المصريّون وسيقولون: إنّ ربّهم استدرجهم من بيننا ليفنيهم في الجبال وليمحوهم من وجه الأرض. يا الله، إني أعلم أنّ غضبك على بني يعقوب شديد، وأنّهم لهذا البلاء الذي أردتَهُ لهم مستحقّون، فارحمهم يا ربّ. واذكُر عبادك، إبراهيم وإسحق ويعقوب الّذين أقسمتَ لهم بذاتك وأنت تقول:» إنّي أُكثر نسلكم وأجعلهم كنجوم السماء عددًا، وأُعطيهم كلّ هذه البلاد الّتي وعدتُكم، فتكون لهم ميراثا على مدى السنين».

ورحم الله بني يعقوب من بعد أن قرّر تدميرهم.

غضب النبي موسى من بني يعقوب[2]

ثمّ نزل موسى عليه السلام من الجبل وبين يديه لوحا الميثاق، وقد صنعهما الله وخطّ على وجهيْ كلّ منهما وصاياه تعالى.

وألتقى النبي موسى عند سفح الجبل بيوشع بن نون. وسمع يوشع بن نون ضوضاء بني يعقوب يصيحون فالتفت إلى موسى قائلاً: «كأنّي أسمع صوت معركة حيث يخيّم القوم!» فأجابه موسى عليه السلام: «ما هذا بهتاف منتصر ولا بعويل مهزوم، بل هو صوت احتفال مشؤوم».

واقتربا من المخيّم، ورأى النبي موسى العجل ورآهم حوله راقصين، فاشتدّ

(1) استنادا إلى سفر الخروج 32: 11–14.
(2) استنادا إلى سفر الخروج 32: 15–20.

غضبه وألقى اللّوحين فانكسرا على صخر سفح الجبل. ثمّ أخذ العجل الّذي صنعوه، فأحرقه وطحنه حتّى صار ناعِمًا، وذرَّاهُ على وجه الماء، وأجبر بني يعقوب أن يشربوه.[1]

النبي موسى يتشفع لقومه[2]

وفي الغد خاطب النبي موسى قومه قائلا: «ما أفظع الإثم الذي ارتكبتموه بحق الله! سأصعَدُ الآن على الجبل حيث تجلّيات الله لأتضرع له تعالى حتّى يغفر لكم ما ارتكبتموه.» وصعد النبي موسى الجبل ليستغفر ربّه: «اللهمّ، ما أفظع الإثم الذي ارتكبه هذا القوم، إذ اتّخذوا صنما من ذهب إليه يخضعون! يا الله اغفر إثم قومي أو امحو اسمي من السجلّ الذي فيه دونت أسماء.» فأوحى الله إلى النبي موسى: «لا أمحو من سجلي إلاّ من أخطأ بحقّي. والآن عليك أن تسير وقومك إلى الأرض التي أوحيتُ بها إليك، وها هو ملاكي يهديك في دربك. ولكنّي في أجل محدّد أنزل عليهم عقابا على ذنبهم لا محالة.» وأنزل الله على قوم بني يعقوب وباء شديدا لأنهم أمروا هارون أن يصنع لهم عِجلا من ذهب.

النبي موسى ولوحا الميثاق الجديدان[3]

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «انحتْ لوحَين من حجر على مثال اللوحين السابقين، وسأخطّ عليهما الوصايا ذاتها الّتي كانت على اللّوحين اللَّذين كسرتَهما. واستعدّ أن تصعد في الصباح إلى قمّة طور سيناء، حيث أتجلّى. ولتأت وحدك ولا يقترب من الجبل أحد من قومك، وحتّى الغنم والبقر يجب ألا تقترب منه لترعى». ونحت النبي موسى لوحَيْن من حجر كما أمره الله، وتسلّق في الصباح الباكر جبل سيناء، وقد أخذ معه لوحَيْ الميثاق.

(1) قارن سورة البقرة: 93.

(2) استنادا إلى سفر الخروج 32: 30–35.

(3) استنادا إلى سفر الخروج 34: 1–9.

وحلّت تجلّيات الله في الغمام حيث يقف موسى، وأوحى الله إليه باسمه العظيم، الله. وعبرت نفحات سكينة الله على الجبل ونودي: «إنّي أنا الله الرحمن الرحيم، صبور حليم، كثير الإخلاص والوفاء. أوفي بوعودي لأجيال وأجيال، وأغفر الإثم والمعصية والذنوب الثقال. وإنّي لأترك عواقب ذنبكم، إذا أذنبتم، تسري في الأبناء والأحفاد».

فانحنى النبي موسى سريعا إلى الأرض وخرّ في سجود وقال: «اللّهُمّ ربّي، إن كنت راضيًا عني، فكن لنا لا علينا. أجل ربّي، إنّ شعب بني يعقوب متمرّد عنيد، وإنّك أنت الغفور الودود، فاغفرْ لنا آثامنا وذنوبنا، واقبلنا عندك عبادًا مقرّبين».

تجديد الميثاق(1)

فأوحى الله إلى موسى عليه السلام: «ها أنا أقيم معكم ميثاقي، وأجري أمامكم معجزات لا مثيل لها في الأرض كلّها ولا نظير لها في العالمين، فيدرك جميع الناس من حولك عظمة ما أُجري بينكم من آيات. فاعملْ بما آمرك به اليوم. وسأشتّت من أمامكم الأموريّين والكنعانيّين والحِثّيّين والفِرزّيّين والحِوّيّين واليَبوسيّين. وإيّاكم أن تجعلوا بينكم وبين سكّان الأرض الّتي ستدخلون عهدا، فتقلّدوا سلوكهم الشرّير وتقعوا في فخّه، بل عليكم أن تهدموا معابدهم وتحطّموا أصنامهم، وتقطعوا الأعمدة المخصّصة للآلهة أشيرة.

"إيّاكم أن تعبدوا إلهًا دوني، لأنّي أنا الله الأحد الصمد ولا أجيز أن تتّخذوا لي أندادا. فاحترسوا أن تبرموا معهم معاهدات، إنّهم كانوا بي مشركين حين يعبدون آلهتهم ويذبحون لها القرابين، ويدعونكم لتأكلوا من لحومها وقد أهلّ بها لغير الله. ثمّ من بعد المعاهدات تصاهرونهم، فتزوّجون أولادكم لبناتهم، فيوقعنهم في الإغواء ويعبدون آلهتهم فيصبحون بي مشركين. فإيّاكم إيّاكم أن تصنعوا أصنامًا مسبوكةً! واحتفلوا بعيد الفطير، وخلال سبعة أيّام، وفي الوقت المعلوم في شهر أبيب، ليكن خبزكم كما أمرتكم بلا خمير، لأنّي حرّرتكم من مصر في هذا الشهر.

(1) استنادا إلى سفر الخروج 34: 10–20.

”كلُّ بِكرٍ من ذكور أولادكم، وكلّ بِكرٍ من الأبقار والأغنام منذور لي. ولكم أن تفدوا أبكار البهائم بخروف، وإلاّ فاقتلوها. أمّا بكر أولادكم فافدوهم من أموالكم، وإيّاهم تحفظون، واحملوا معكم هدايا، إذا حججتم إلى الحرم المقدّس، إذ لا يجوز أن تأتوا إليّ دون هدايا.

خيمة بيت الله(1)

وأوحى الله إلى النبي موسى: «إنّ عليكم نصب خيمة بيت الله(2) في اليوم الأوّل من الشّهر الأوّل من هذه السنة. وضعوا فيها صندوق الميثاق واجعلوا الستار أمامه ليخفيه. وأدخلوا المائدة إليها ورتّبوا أوانيها عليها. وأدخلوا المنارة وعليها مصابيحها. وضعوا موقد البخور الذهبيّ أمام الصندوق، ثمّ علقوا الستار عند باب خيمة بيت الله. وضعوا مذبح لتقديم الأضاحي أمام بابها، وضعوا حوض الوضوء بين خيمة بيت الله والمذبح. ثمّ أقيموا حول الخيمة حرمًا وعلّقوا ستارًا على بابه.

ثمّ يا موسى، امسح بالزيت المقدّس خيمة بيت الله وكلّ ما فيها من أثاث، والمذبح وجميع أدواته. وامسح أيضا الحوض وقاعدته حتّى يصبحا مقدّسيْن ومخصّصيْن للعبادة. وأحضر يا موسى، إلى باب خيمة بيت الله هارون وبنيه وليغتسلوا بالماء، ثمّ ألبس هارون الثياب المقدّسة ومسحه بالزيت المقدّس وأنذره ليكون حَبرًا لي. وأحضر أبناء هارون وألبسهم قمصانًا ومسحهم بالزيت المقدّس كما مسحْتَ أباهم هارون ليكونوا أحبارًا منذورين لي دائما،(3) على مدى أجيالهم».(4)

---

(1) استنادا إلى سفر الخروج 40: 1–33.

(2) وأشار ابن كثير في البداية والنهاية واليعقوبي في تاريخه إلى هذه الخيمة باسم ”قبّة الزمان“، كما قال اليعقوبي: ”وأمره أن يبني فيه (في التيه) قبّة الزمان ويجعل فيها الهيكل ويجعل في الهيكل تابوت الساكينة ويكون هارون كاهن ذلك الهيكل الذي لا يدخله غيره.“

(3) انظر سورة السجدة: 23–24.

(4) جاء في الإنجيل أن نظام الأحبار بما فيه من أضاح وقرابين في بيت الله كان بمثابة ((ظل وصورة لبيت الله الحقيقي في السماء)) [الإنجيل، العبرانيين 8: 5]، وأن السيد المسيح هو الشفيع النهائي ويفوق أحبار بني إسرائيل، بما أنه يعيش إلى الأبد ويتشفّع للمؤمنين (انظر الإنجيل، العبرانيين، الفصل 8).

وفعل النبي موسى ما أمره الله به. ولمّا استُفْتِحتْ السنة الثانية بعد خروجهم من مصر، وفي يومها الأوّل من شهرها الأوّل، أقام النبي موسى خيمة بيت الله. فوضع قواعدها، وركَّب عليها ألواحها وعوارضها، وأقام أعمدتها. ثمّ وضع فوق هيكل خيمة بيت الله، كما أمره تعالى، غطاءا من طبقتين، طبقة من شعر الماعز وأخرى من الجلود. وأخذ موسى عليه السلام لوحَيْ الميثاق فوضعهما في الصندوق وأدخل العصوين في حلقاته ووضع الغطاء فوقه. ثمّ أدخل صندوق الميثاق إلى الخيمة وعلَّق الستار ليخفيه، كما أمره الله تعالى. ثم وضع عليه السلام المائدة خارج الستار في الجانب الشمالي للخيمة. ورتَّب عليها الخبز المقدّم لله، كما أمره تعالى. ووضع المنارة في الجانب الجنوبيّ للخيمة، وأنار المصابيح في المحراب المقدّس، طاعة لأمر الله. ثمّ وضع فيه موقد البخور الذهبيّ أمام الستار وأوقد عليه بخورًا عَطِرًا، كما أمره الله. وعلَّق على باب خيمة بيت الله ستارًا، ووضع مذبح الأضاحي عند باب الخيمة وأحرق عليه أضحية واستجاب النبي موسى لأمر الله فقدّم قربانا من الحبوب له تعالى.

ثمّ وضع النبي موسى، بأمر من الله، حوض الوضوء بين خيمة بيت الله والمذبح، ليتوضأ منه موسى وهارون(عليهما السّلام) وبنوه، فيغسلوا أيديهم وأرجلهم حين يدخلون الخيمة وحين يقتربون من المذبح.

وأقام النبي موسى الحرم المقدّس حول خيمة بيت الله والمذبح وعلَّق على باب الحرم ستارًا. وبهذا أتمّ النبي موسى كلّ ما أمره الله به.

تجلّيات الله فوق خيمة بيت الله(1)

ثمّ حلّت سحابة على مقام خيمة بيت الله فامتلأت بهاءًا ونورًا من عند الله،(2)

(1) استنادا إلى سفر الخروج 40: 34–38.

(2) لسائل أن يسأل كيف لا يكون إلّا مكان واحد يتجلّى فيه الله، وكيف يمكن لبناء أن يحتوي الذات الإلهية. وهذا ما قاله النبي سليمان عندما دشّن بيت الله المبني من حجر، وهو البيت الذي أقامه ليتّخذ مكان خيمة بيت الله، إذ قال: ((أيُعقل أن يسكن الله على الأرض؟ يا مَن وسع عرشك السّماوات، فكيف يتّسع لك هذا البيت؟)) [سفر الملوك الأول 8: 27]. وجاء في الإنجيل أنّ بيت الله الذي أقامه النبي موسى، شأن البيت الحجري الذي أقامه النبي سليمان،

فلم يقدر النبي موسى على الدخول إليها. وكان بنو يعقوب يتابعون سفرهم ويلحقون بالسحابة كلما ارتفعت عن الخيمة، وكانوا يبيتون في مكانهم إلى أن ترتفع من جديد. وحلّت تجلّيات الله في شكل سحابة على الخيمة نهارًا، وكانت هذه السحابة تتخللها النار ليلاً حتّى يراها بنو يعقوب فيتابعون رحلتهم، ورافقتهم هذه التجلّيات على مدى سفرهم في الصحراء.

ذبيحة التكفير عن المذنبين(1)

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام:

إن أخطأ أحد منكم فاعلا ما حرّمه الله، حتّى وإن ارتكبه سهوا، فهو مذنب ويجب أن يُعاقب حتما. فعليه أن يأتي إلى الحبر بكبشٍ بلا عيب أو بمقدار قيمته، ويكفّر الحَبر عن الشخص الذي ارتكب الخطيئة سهوا بذبح هذا الكبش، فيغفر الله ذنبه. إنّ هذه الذبيحة هي تكفيرا عن ذنب المذنبين بحق الله.(2)

القوم يتذمّر(3)

وكان بين بني يعقوب خليط من الغرباء يميلون إلى الشغب. وكان هؤلاء المشاغبون يشتَهون طيّبات مصر، فجاراهم عدد كبير من بني يعقوب واشتكوا قائلين: «ليتنا نحظى بقليل من اللحم! فنحن نذكر جيّدًا كميّات السمك، والخيار والبطّيخ والكُرّاث والبصل والثوم الّتي كنّا نأكل منها في مصر حتّى الشبع. والآن فقدنا شهيّتنا، فلا شيء نأكله غير المنّ».(4)

كانا بمثابة ”ظل وصورة“ لبيت الله الحقيقي الذي وعد الله بأن يقيمه بين البشر بمجيء السيد المسيح (انظر الإنجيل، رسالة أفاسوس 2: 21 وبطرس الأولى 2: 5).

(1) استنادا إلى سفر اللاويين 5: 14، 17–19.

(2) انظر سورة السجدة: 24.

(3) استنادا إلى سفر العدد 11: 4–6.

(4) انظر سورة البقرة: 61.

شكوى النبي موسى[1]

وحدث في كلّ عشيرة أن بكى الناس على أبواب خيامهم، فاستشاط غضب الله عليهم وانزعج النبي موسى أيضًا. فخاطب عليه السلام ربّه: «يا ربّ، لماذا تعاملني بهذه القسوة وأنا عبدك الضعيف؟ ولماذا لم ترضَ عني وحمّلتَني مسؤوليّة بني يعقوب كأولاد لي؟ ولماذا تطلب منّي أن أحملهم في حضني، كَما تحمل الأمّ رضيعها؟ ولماذا تطلب مني أن أحملهم إلى الأرض الّتي وعدتَ بها آباءهم من قبل؟ مِن أين أحصل على لحم لأُعطيه لكلّ هؤلاء الناس؟ فهُم يبكون أمامي مردّدين: أعطِنا لحمًا لنأكل! فلا طاقة لي لكي أتحمّل هذا العبء كلّه وحدي. فإن كنتَ تعاملني بهذه الطريقة، فأرجوك أن تميتني الآن! ارحمني! ولا تحمّلني هذه المسؤولية!»

يختار النبي موسى 70 قائدا[2]

فأوحى الله إلى النبي موسى: «ادع سبعين رجلاً من بني يعقوب وليكونوا من شيوخ القوم وقادتهم، أن يرافقوك إلى خيمة بيت الله لتقفوا جميعًا هناك. فأتجلّى حينها وأوحي إليك، وآخذ قبسًا من الروح الّتي عليك وأُحِلّها عليهم أيضًا، فيحملون معك مسؤوليّة هذا القوم، فلا يمكن أن تحملها وحدك. وقل لبني يعقوب: «تطهّروا استعدادًا للغد، فستأكلون لحمًا لأنّكم بكيتم واشتكيتم وطلبتموه، متعلّلين أنّ أحوالكم كانت أفضل حالاً في مصر. وإنّ الله لشكواكم سميع بصير! وفي الغد سيرسل الله لكم لحمًا فتأكلونه لا محالة. وستأكلون منه لا يومًا واحدًا، ولا بضعة أيّام، بل شهرًا كاملاً حتّى تنفروا منه، لأنّكم رفضتم الله الّذي تجلّى بينكم، وبكيتم قائلين: لماذا أخرجنا من مصر؟» فاستجاب النبي موسى لكلام الله قائلاً: «فكيف تعطينا لحمًا لنأكل منه شهرًا كاملاً وعددنا ستّ مئة ألف رجل دون حساب نسائهم وأطفالهم؟ هل تكفينا كل مواشينا إذا ذبحناها؟ وهل يكفينا سمك البحر كلّه إذا اصطدناه؟» وهكذا أوحى الله إلى موسى عليه السلام من جديد: «هل يد الله مغلولة؟ انظر الآن، فوعد الله يتحقّق».

(1) استنادا إلى سفر العدد 11: 10-15.

(2) استنادا إلى سفر العدد 11: 16-35.

فخرج النبي موسى من الحرم وأخبر بني يعقوب بما أوحى الله به، ثمّ جمع سبعين رجلاً من شيوخ القوم وجعلهم يحيطون بخيمة بيت الله. فتجلّى الله لهم في الغمام وخاطب موسىعليه السلام. ثمّ أخذ الله من قبس روحه تعالى الّتي حلّت على النبي موسى وأحلّها أيضًا على السبعين شيخًا. ولمّا استقرّت عليهم تنبّأوا، ولكنّهم لم يتنبّأوا بعد ذلك أبدًا.

وبقي في المخيّم رجلان من مجموع السبعين شيخًا، وهما ألْداد وميداد فلم يدخلا الحرم المقدّس، ولكنّ روح الله حلّت عليهما فتنبّآ في مكانهما. فأسرع شابٌّ وأخبر موسىعليه السلام بأنّ ألداد وميداد يتنبّآن في المخيّم. فاعترض يوشع بن نون، وهو معاون النبي موسى منذ حداثته قائلاً: «أرجوك يا سيّدي، امنعهما من ذلك!» فأجابه النبي موسى: «ما هذا الحماس الّذي تحمله تجاهي؟ ليت جميع الناس أنبياءُ لتحلّ عليهم الروح الإلهية». ثمّ عاد موسىعليه السلام إلى المخيّم مع شيوخ بني يعقوب.

وجعل الله ريحًا تهب، فحملت مِن البحر طيور السلوى وألقَتْها على المخيّم، مسيرة يوم من هنا ويوم من هناك حول المخيّم، وتزاحمت هذه الطيور فوق الأرض ارتفاع ذراعين. فجمع بنو يعقوب طيور السلوى يومًا بأكمله ليلاً نهارًا وكامل يوم الغد. وجمع أَقَلّهم ستّين كيسًا، وبسطوا لحمها حول المخيّم لتجِفَّ.[1] وبينما كان بنو يعقوب يأكلون اللحم، اشتدّ غضب الله عليهم فضربهم بوباء شديد. وسُمّي ذلك الموضع «قبور الشهوة» لأنّهم دفنوا فيه الناس الّذين ماتوا من شدّة شهوتهم لِلّحم. ورحل الشعب من «قبور الشهوة» إلى حَضيرُوت فأقاموا هناك.[2]

(1) انظر سورة البقرة: 57.

(2) مارس بنو إسرائيل جحودهم تجاه الله فلم يتوكّلوا عليه حتّى يرزقهم أثناء تيههم في الصحراء زمن النبي موسى. وقاسى السيد المسيح امتحانا شبيها لامتحانهم عندما كان في البيداء، ولكنه فاز في امتحان الجوع وتغلّب على إغواءات الشيطان (انظر الإنجيل، لوقا، الفصل 4). وبهذه الطريقة حقّق سيدنا عيسى دعوة الله لبني إسرائيل التي فشلوا في إتمامها.

الوصية الكبرى[1]

وأخبر النبي موسى بني يعقوب: «هذه الوصايا والفرائض والأحكام هي الّتي أمرني الله ربّكم أن أُعلّمكم إيّاها لتعملوا بها في الأرض الّتي ستجتازون من أجلها نهر الأُردنّ لتستقروا فيها. هكذا تتّقون الله ربّكم أنتم وبنوكم وأحفادكم طوال حياتكم. وستتمتّعون بحياة طويلة إذا حفظتم جميع فرائض الله ووصاياه. فاحرصوا على طاعة كلّ هذه الوصايا، لتفلحوا وتتكاثروا في أرض تفيض لبنًا وعسلاً، كما وعدكم الله ربّ آبائكم الأوّلين.

يا بني يعقوب اسمعوا وعوا، الله هو الواحد الأحد، فأحبّوا الله ربّكم بكلّ قلوبكم وأنفسكم وقدراتكم. وعليكم أن تعملوا بكلّ جوارحكم لتحفظوا كلّ هذه الوصايا الّتي أُوصيكم بها اليوم! حدِّثوا بها أبناءكم مرارًا وتكرارًا، حين تجلسون في بيوتكم، وحين تمشون في الطريق، وحين تنامون وتستيقظون. اجعلوها كعلامة أيديكم وكعصائب على جباهكم. واكتبوها على قوائم أبواب بيوتكم ومداخل مدنكم. واعلموا أنّ الله ربّكم سيُدخلكم عاجلاً إلى الأرض الّتي وعد بها آباءكم: إبراهيم وإسحق ويعقوب، حيث تجدون مدنًا عظيمة مزدهرة لم تبنوها، وبيوتًا مملوءةً خيرًا لم تملأوها، وآبارًا محفورةً لم تحفروها، وأشجار كروم وزيتون لم تغرسوها. وحين تأكلون من هذه الطيّبات وتشبعون، لا تنسوا ربّكم الّذي أنقذكم من العبوديّة في مصر! فاسجدوا له تعالى، وكونوا له وحده من العابدين. ولا تقسموا بغير اسمه تعالى.[2] وتوجّهوا بالدعاء إلى الله ولا تتّخذوا له شركاء من أرباب الأُمم الّذين

---

(1) استنادا إلى التوراة، سفر التثنية 6: 1–25.

(2) مع أنّ الله سمح لبني إسرائيل بأن يقسموا باسمه، علّم السيد المسيح مقصد الله كما يلي: ((ولقد سَمِعتُم كذلِكَ ما جاءَ في التَّوراةِ: إنْ أقسَمتَ لأحَدٍ باسمِ اللهِ، فلا تَتَوانَ عَن البَرِّ بقَسَمِكَ. أمّا أنا فأقولُ لكُم: لا يَكونَنّ قَسَمَكُم بالسَّماءِ ولا بالأرضِ اللّتَينِ يَسعَهُما عَرشُ اللهِ، ولا بمَدينةِ القُدسِ الّتي خَصَّها اللهُ المَلِكُ العَظيمُ بالقُدُسيّة، ولا يَحلِفُ أحَدُكُم برأسِهِ، لأنّهُ لا يَملِكُ القُدرةَ على تَغييرِ لونِ شَعرةٍ واحدةٍ فيهِ. ولكن إذا وَدَّ أحَدُكُم أن يُؤكّدَ شَيئًا فحَسْبُهُ أن يَقولَ نَعم، وإن أرادَ نَفيَ شَيءٍ فحَسبُهُ أن يَقولَ لا، وما زادَ على ذلِكَ فهو مِن عَمَلِ الشَّيطانِ)) [الإنجيل، متّى 5: 33–36].

جاوروكم. فإن فعلتم ذلك، يحتدِم غضبه تعالى عليكم ويبيدكم من الأرض، لأنّ الله ربّكم أختار أن يتجلّى بينكم، وإنّه لا يجيز شركاء له ولا أنداد.

لا تمتحنوا وفاء الله لوعوده كما فعلتم عندما تذمّرتم في صحراء سيناء في المكان المسمّى «محنة»، بل احرصوا على طاعته في جميع وصاياه وشروطه وأحكامه الّتي أمركم بها. واعملوا الصالحات وما يرضي الله لتتمكّنوا من دخول الأرض الّتي وعد بها آباءكم الأوّلين، وتستقرّون فيها. وإنّكم ستطردون جميع أعدائكم من تلك الأرض كما أخبركم الله تعالى.

وسيسألكم أبناؤكم في المستقبل: «ما الغاية من تلك الشروط والفرائض والأحكام الّتي أمرنا الله بها؟» وعليكم أن تجيبوهم بما يلي: لقد استعبدنا فرعون في مصر، ولكنّ الله حرّرنا من هناك بيده القديرة، وأجرى معجزات وعجائب عظيمة أمام أعيننا، وأنزل ضربات مخيفة بمصر وفرعون وحاشيته وأخرجنا من هناك ودلّنا على هذه الأرض الّتي وعد بها آباءنا الأوّلين. وأمرنا تعالى أن نعمل بهذه الأحكام كلّها وأن نتّقيه لكي نتمتّع بالخير دائمًا ونلقى حياة رضية. فنحن نحصل على مرضاته تعالى عندما نحرص على العمل بجميع هذه الوصايا الّتي أمرنا بها الله ربّنا».

تحذير من ممارسات الأمم الوثنية[1]

وأخبر النبي موسى قومه قائلاً: «يا بني يعقوب، حين تدخلون الأرض الّتي ائتمنكم عليها الله ربّكم،[2] إيّاكم أن تقلّدوا العادات البغيضة الّتي تمارسها تلك الأُمم الوثنيّة. ولا يجوز أبدًا أن يكون بينكم مَن يقدّم ابنه أو ابنته ذبيحةً ويحرقها ولا مَن يمارس عِلم الغيب، ولا السحر ولا التنجيم ولا الشعوذة، ولا مَن يمارس رقيةً أو تعاويذ، ولا مَن يسأل الجنّ، أو يستدعي الأرواح أو يستشير الموتى. فإنّ كلّ مَن يمارس هذه الممارسات البغيضة مغضوب عليه. وسيطرد الله من أمامكم أولئك الأمم بسبب هذه الممارسات. أمّا أنتم فعليكم أن تكونوا مخلصين تمامًا لله ربّكم.

(1) استنادا إلى سفر التثنية 18: 9-14.

(2) انظر سورة المائدة: 21.

والأُمم الّتي سيطردها الله ترحّب بكلّ مَن يمارس السحر وعلم الغيب، وأمّا أنتم فقد حرّم عليكم الله ربّكم مثل هذه الممارسات.

الوعد بقدوم نبيّ بعد موسى[1]

وسيبعث الله من بين شعبكم نبيًّا آخر مثلي، وعليكم طاعته فيما يقوله. لأنّكم طلبتم من الله ربّكم حين اجتمعتم في جبل سيناء أن يقطع تجلّياته العظيمة في النار أمامكم لئلاّ تموتوا. فأوحى الله إليّ: «لقد أصاب قومك في ما قالوا. وسأبعث إليهم نبيًّا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامي على لسانه، فيبلّغهم كلّ ما أوحي به إليه. وكلُّ من يعصي ما أوحي به على لسانه أحاسبه على ذلك.[2] وأمّا من ادّعى أنّه نبيّ مرسلٌ من عندي، أو تكلَّم باسم آلهة أخرى، فجزاؤه الموت. وربّما تتساءلون: «كيف لنا أن نتأكّد أنّ الرسالة من عند الله؟» فإنّ تنبّأ أحد وادّعى أنّ رسالته من الله ولم يتحقّق ما ادّعاه، يكون بذلك مدّعيًا، فلا خوف عليكم منه.

النبي موسى يتنبأ بخصوص جزاء من يطيع الله[3]

وأخبر النبي موسى قومه قائلاً: «إذا اتّبعتم كلام الله ربّكم وحرصتم على العمل بجميع وصاياه الّتي آمركم بها اليوم، يجعلكم تعالى في مقام رفيع فوق جميع أمم الأرض. أجل، ستنعمون بهذه البركات كلّها إذا سعيتم إلى طاعة الله ربّكم. ويباركم الله في المدينة ويبارككم في الريف، ويبارككم فيكثر من أولادكم ومحاصيل أراضيكم ونتاج أبقاركم وأغنامكم، ويبارككم فتفيض سلالكم بالثمار والخبز. أجل، ستحلّ بركاته عليكم أينما حلّلتم، ذهابًا وإيّابًا، وسينصركم الله على أعدائكم حين يهاجمونكم، فيُقبِلون عليكم من اتّجاه واحد، ولكنّهم يُوَلّون أدراجهم

(1) استنادا إلى سفر التثنية 18: 15–22.
(2) تحقّق الوعد الذي يقول إنّ نبيًا سيأتي بعد النبي موسى من خلال مجيء سيدنا المسيح، كما جاء في الإنجيل (انظر سيرة الحواريين 3: 22–26).
(3) استنادا إلى سفر التثنية 28: 1–14.

خائبين في سبع اتّجاهات! إنّ الله سيرسل بركاته إلى مخازنكم وإلى كلّ ما طالته أيديكم، ويبارك الأرض الّتي وهبها لكم.

فإذا عملتم بوصايا الله ربّكم وسلكتم الصراط المستقيم، يجعلكم أمّة منذورة له، كما وعد من قبل،[1] فتهابكم جميع شعوب الأرض لأنّكم تنتمون إليه تعالى. ويزيدكم الله خيرًا في الأرض الّتي وعد بها آباءكم الأوّلين، ويجعل الأولاد والمواشي والمحاصيل زينة حياتكم. ويُنزل عليكم الغيث في أوانه من فيض كنوزه في السماء، ويبارك جميع أعمال أياديكم، فتقترض منكم أُممٌ كثيرة وأنتم لا تقترضون. ويجعلكم رأسًا للأُمم لا ذنبًا ويرفع شأنكم ولا يقلّل منه أبدًا، شرط أن تحرصوا على العمل بوصايا الله مولاكم الّتي بلّغتكم بها اليوم. فإيّاكم أن تزيغوا عن أي وصيّة من الوصايا الّتي آمركم بها الآن فتضلّون وتُشركون به تعالى!

النبي موسى يتنبأ بخصوص جزاء من يعصي الله[2]

يا بني إسرائيل، إذا رفضتم طاعة الله ربّكم والعمل بكلّ الوصايا والفرائض الّتي بلغتُكم بها اليوم، فستلاحقكم هذه اللّعنات كلّها وتحلّ عليكم لا محالة: تلاحقكم اللّعنة في المدينة وتلاحقكم في الريف، لعنةٌ تجعل سلالكم لا ثمار ولا خبز فيها. لعنةٌ تقلّل من أولادكم ومحاصيل أراضيكم ونتاج أبقاركم وأغنامكم. وتلاحقكم اللّعنة فتصيبكم بالنائبات أينما حلّلتم ذهابًا وإيّابًا!

أجل، فالله يتبعكم باللّعنة والهلع والبلاء في كلّ ما تطاله أيديكم وكلّ ما تعملونه، حتّى تهلكوا وتفنوا نهائيًا لأنّكم زرعتم الشرّ وتركتموه. ويجعل الله الوباء يلازمكم إلى أن يبيدكم من الأرض الّتي أوشكتم على دخولها لتستقرّوا

(1) انظر سورة البقرة: 40.

(2) استنادا إلى سفر التثنية 28: 15–68. يتنزّل هذا التحذير في هذا السياق لبيان معنى اختيار الله بني يعقوب. وهذا الاختيار لا يعني أنّهم فوق العقاب، بل إنّ اختيارهم مشروط بطاعتهم لله وإخلاصهم له. وتوعّد الله بني يعقوب بمثل هذا العقاب حتى يبيّن لهم أنّه لا يحابي أحدا.

فيها. ويضربكم بأمراض تصيبكم بالهزال والحُمّى والالتهاب والجفاف والحرارة اللافحة والذبول، فتلاحقكم كلّ هذه البلايا حتّى الموت. وتنحبس السماء مِن فوقكم كالنحاس وتقسو الأرض عليكم من تحتكم كَالحديد. ويحوّل الله المطر في بلادكم إلى غبار وتنهمر عليكم عواصف العجاج من السماء حتّى تهلكوا. ويلحق بكم الهزائم أمام أعدائكم، فتُقبِلون عليهم من اتّجاه واحد، ولكنّكم تُوَلّون أدراجكم في سبع اتّجاهات! وتعيشون في المهجر مشتّتين في أنحاء شعوب الأرض. وتصير جثثكم طعامًا للطيور الجارحة والحيوانات المتوحّشة ولا أحد يزجرها. ويصيبكم الله بالدمامل الّتي ضرب بها المصريّين، وبالورم والجرب والحكّة ولا تجدون لها علاجًا. ويضربكم بالجنون والعمى والهلع، فتتلمّسون طريقكم في وضح النهار كما يتلمّس الأعمى طريقه، ولكنّكم لا تفلحون في ايجاده. وتقعون فريسة الظلم والاغتصاب طوال أيّام حياتكم، وما لكم من الظالمين من أنصار. وعندما يخطب أحدكم امرأةً، يأخذها رجل آخر ويعاشرها، وتبنون بيوتًا فلا تقيمون فيها، وتغرسون كرمًا فلا تتمتّعون بثماره. وتُذبَح ثيرانكم أمام أعينكم ولا تأكلون منها، وتؤخذ دوابّكم مِن أمامكم غصبًا فلا تُعاد إليكم، وتُسلَّم أغنامكم إلى أعدائكم، وما لكم من الظالمين من أنصار. ويُساق أولادكم وبناتكم عبيدًا أمام أنظاركم، ولا تستطيعون فعل شيء. سيأتي عليكم شعب لا تعرفونه ويستولي على محاصيل أراضيكم الّتي تعبتم في زرعها، وتقاسون الظلم والمعاناة على الدوام. وتصابون بالجنون من المآسي الّتي تحيط بكم. ويضربكم الله بقروح خبيثة على الركبتين والرجلين، وتمتدّ من القدم إلى الرأس، ولا تجدون لها علاجًا.

وينفيكم الله وملككم الذي نصبتموه إلى شعوب ما عرفتموهم ولا عرفهم آباؤكم من قبل، وهناك ستُشرِكون بالله وستعبُدون أصنامهم من خشب وحجارة. وسترمقكم هذه الشّعوب بالسخرية والإزدراء والاشمئزاز. وتزرعون بذورًا كثيرة في الحقول وقليلاً تحصدون لأنّ جرادًا يلتهمها. وتغرسون كرومًا وتفلحونها، ومن ثمارها لا تجنون، ومن عصيرها لا تشربون بل دود يأكلها. تكتظّ أراضيكم بأشجار الزيتون، ولكنّها تطرح ثمارها قبل نضجها، ومن زيتها لا تستفيدون. وتنجبون بنين

وبنات ولكنّكم تخسرونهم جميعًا لأنّهم إلى الأسر يؤخذون. وتلتهم أسراب الجراد أشجاركم ومحاصيل أراضيكم. ويعظم شأن الغرباء المقيمين بينكم، بينما يقلّ شأنكم، وتقترضون منهم ولا يقترضون منكم، ويكونون الرأس وتكونون الذنب. وإذا رفضتم طاعة الله ربّكم والعمل بالوصايا والأحكام الّتي أمرتكم بها، ستلاحقكم كلّ هذه اللّعنات وتحلّ عليكم في النهاية حتّى تهلكوا، لتكونوا عبرةً لغيركم وإنذارًا لذريّتكم إلى الأبد.

وإذا لم تعبُدوا الله ربّكم بفرح وسرور لخيراته الوفيرة الّتي أنعم بها عليكم، فسيُرسل أعداء يلحقون بكم الجوع والعطش والعُري والفقر المدقع، ويحملكم أوزاركم على ظهوركم إلى أن تهلكوا. ويجلب لكم أمّة من أقاصي الأرض، تنقَضّ عليكم كالنسر الّذي ينقض على فريسته، أمّة لا تفهمون لغتها، شرسة لا تحترم المسنّين ولا تعطف على الأطفال، فتلتهم جيوشها مواشيكم ومحاصيل أراضيكم، ولا يبقى لكم حنطة ولا عصير عنب ولا زيت ولا عجول ولا حملان فتموتون جوعًا. وتحاصركم في جميع مدنكم وتدمّر أسواركم الشامخة المحصّنة الّتي تحتمون بها في أنحاء أراضيكم الّتي ائتمنكم عليها الله ربّكم. ويكون هذا الحصار الّذي يُسلطه عليكم أعداؤكم شديدًا إلى درجة تأكلون فيه لحم بنيكم وبناتكم الّذين يعطيكم الله ربّكم. وأكثر الرجال رقّةً وشفقةً يأكل أبناءه من شدّة الجوع ولا يعطي من لحمهم لأخيه أو زوجته أو ما تبقّى من أولاده. وحتّى أكثر الأمهات افراطًا في الإحساس تأكل مولودها سرًّا، ولا تعطي منه ولا من مشيمته لزوجها وابنها وابنتها. ويحاصركم أعداؤكم في جميع مدنكم.

وإن رفضتم طاعة جميع تعاليم هذا الكتاب، كتاب الشريعة، ولم تهابوا اسم الله ربّكم المجيد، فإنّه سيرسل عليكم وعلى ذرّيّتكم بلايا رهيبة ومصائب مخيفة وأمراضًا خبيثة مزمنة. ويبليكم بجميع الأمراض التي ضرب بها المصريين وفزعتم منها، فلا يأتيكم فرج. أجل، سيعذّبكم الله حتّى تهلكوا بكلّ أنواع الأمراض والمصائب، ومنها من لم يذكر في كتاب الشّريعة هذا. وحتّى وإن تزايد عددكم وأصبح كنجوم السماء كثرةً، لن يبقَ منكم إلاّ قلّة لأنّكم أبيتم أن تمتثلوا لطاعة الله ربّكم. وكما

أراد الله في بداية أن يُحسِن إليكم ويُكثِّر عددكم، فإن تمرّدتم عليه فهو يرغب في أن يبيدكم ويُهلِككم، فيجتثكم من الأرض الّتي أوشكتم على دخولها والاستقرار فيها. فيشتّتكم في كلّ شعوب العالم، من أقاصي الأرض إلى أقاصيها، وتُشرِكون بالله هناك وتعبُدون آلهة غريبة من خشب وحجارة لم تعرفوها وما عرفها آباؤكم من قبل. وتستقرّون في تلك الأمم ولا تعودون إلى أراضيكم، وهناك يملأ الله قلوبكم رعبًا ويقلّل من أبصاركم ويهيمن اليأس على نفوسكم. فيلازمكم الرعب ليلاً نهارًا ولا تأمَنون على حياتكم. تقولون في الصباح: «ليتَنا نحيا إلى المساء»، وتقولون في المساء: «ليتنا نحيا إلى الصباح». فتمتلئون هلعًا من الأهوال التي تحيط بكم. ويَرُدّكم الله على متن السفن إلى مصر، البلاد الّتي أخرجكم منها ووعدكم بأن لا تعودوا إليها مرة أخرى، وهناك تحاولون أن تبيعوا أنفسكم لتكونوا عبيدًا وجواري لأعدائكم، وما من أحد ليشتريكم».

رحيل النبي موسى[1]

ثمّ اجتاز النبي موسى وقومه سهول مُوآب، وصعد دون غيره إلى قمّة الفِسجة في جبل نَبو، في الجهة المقابلة لمدينة أريحا، حيث أراه الله كلّ الأرض التي تمتدّ شمالا إلى جِلعاد وحتّى إلى دان قرب جبل الشيخ. وتوفّي النبي موسى عبدُ الله في أرض مُوآب كما أوحى الله، وجعله تعالى يُوارى الثرى في الوادي، في أرض موآب، بجوار بيت فَغور، ولا يعرف أحدٌ موقع قبره إلى يومنا هذا. وعاش عليه السلام مئة وعشرين سنة، لم يعرف فيها بصره ضعفا ولم تذهب نضارة بشرته. فناح بنو يعقوب على موسى في سهول موآب ثلاثين يوما، حتّى انقضاء فترة الحداد.

وجعل الله يوشع بن نون مفعما بروح الحكمة، إذ باركه النبي موسى بأن وضع يده عليه. وهكذا خضع له بنو يعقوب وأطاعوا أمر الله كما جاء في الوحي إلى النبي موسى. ومنذ ذلك الحين لم يأت نبيٌّ في بني يعقوب كالنبي موسى عليه السلام، إذ كلّمه الله تكليما، ولم يكن له مثيل عليه السلام في كلّ المعجزات التي أجراها الله على يديه في أرض

(1) استنادا إلى سفر التثنية 34: 1، 5–12.

مصر، تلك الآفات التي أنزلها من خلاله على فرعون وحاشيته وقومه أجمعين. فلم يُجر نبي بعده مثل هذه الآيات المهيبة أمام أنظار جميع بني يعقوب.

بعد وفاة النبي موسى، قاد خلفه يشوع بن نون قوم بني يعقوب إلى الأرض التي ائتمنهم الله عليها. وأطاع بنو يعقوب الله طوال فترة قيادة يشوع بن نون لهم، لكنهم ارتدّوا بعد وفاته وعبدوا الأوثان. فأرسل الله إليهم برحمته حكّاما دينيين ليحكموهم ويرشدوهم إلى سوي السبيل. ولكنهم تمادوا في عصيانهم. وعلى امتداد 300 سنة ظهر هؤلاء الحكّام وحكموا بني يعقوب.

راعوث

قصّة راعوث المؤمنة الموآبية

مدخل إلى قصّة راعوث المؤمنة الموآبية

هذه القصّة هي لامرأة تدعى راعوث وهي غريبة جاءت من بلاد موآب المملكة القديمة التي كانت تقع في منطقة باتّجاه الجنوب من مدينة عمّان في الأردن. وتركت راعوث شعبها بدافع محبّتها لحماتها ورحلت معها إلى بيت لحم في فلسطين. واعترفت بإيمانها بالله رب العالمين الذي يعبده بنو يعقوب.

وحدثت هذه القصّة في زمن الحكام المناصير (القضاة). وفي هذا الزمن وقع أغلب بنو يعقوب في الفساد الديني والأخلاقي. وضلّ الشعب حيث انساق كلّ فرد منه منقادا بأهوائه في حين كان الشعب تحت سطوة قوى أجنبية. وتُقدّم هذه القصّة راعوث المؤمنة كقدوة في الإيمان بالله والوفاء لأسرتها ضمن الظروف الكئيبة آنذاك.

ويبدو جليّا أنّ هذه القصّة قد تمّ تسجيلها بعد مضي وقت على وقوع أحداثها. حيث يحتوي النص على ذكر عادة شعبية وشرحها، وهذه العادة غير معروفة للقراء: ((وفي تلك الأيام، سادت عادة لدى بني يعقوب لإثبات تبادل الملكية، وتتمثّل في أن يخلع البائعُ نعله ويُعطيه للشاري، لتصديق الصفقة أمام الملإ)) [كتاب راعوث 4: 7]. ويأتي ذكر النبي داود في هذه القصّة مع أنه عاش سنوات عديدة بعد زمن راعوث. ويرى بعض الباحثين أن قصّة راعوث سُجلت في زمن حكم الملوك على بني يعقوب، بينما يرى آخرون أنّها سُجّلت إثر عودة بني يعقوب من السبي في بلاد

بابل. وزمن العودة من السبي أصدر الحاكمان عَزرا ونَحَمْيا قوانين صارمة بخصوص منع زواج اليهود من المؤابيين وغيرهم من الأغراب (انظر كتاب عزرا الفصلين 9 و 10، وكتاب نحميا 13: 23–29). وربّما يعود سبب رواج هذه القصّة إلى معارضة بعض الأفراد لتزايد التشدّد الوطني بين اليهود ولبيان كيف يرحّب الله بالمؤمنين المخلصين من كلّ الأمم.

وتعرض هذه القصّة المكانة المرموقة التي تحظى بها المرأة عند الله. ورغم ما لقيته المرأة من ظلم وقسوة في المجتمع، إلا أنه بإمكانها أن تنال مرضاة الله بوفائها له تعالى وهكذا تصبح ((خيرا من سبعة بنين)) [كتاب راعوث 4: 15]. لقد كانت راعوث مخلصة لله ووفية لحماتها وشجاعة أمام الشدائد رغم فقرها المدقع. لذلك رزقها الله من الخيرات وجازاها فكانت مع مضي الوقت سالفة النبي داود عليه السلام ومن خلاله سالفة للسيد المسيح عليه السلام.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة راعوث المؤمنة الموآبية

هجرة عبد الملك وعائلته إلى موآب[1]

حدث في عهد الحكّام المناصرين لبني يعقوب[2] أن حلّت مجاعة شديدة على منطقة يهوذا. وكان رجلٌ يدعى عبد الملك يعيش مع زوجته نعمَة وابنَيهِ مَحل وكَليل في بيت لحم في يَهوذا، وكلّهم من عشيرة أفرات. وبسبب شدّة هذه المجاعة اضطروا جميعا إلى الهجرة إلى أرض مُوآب في الضفة الشرقيّة من نهر الأردنّ وأقاموا فيها، وهكذا استقرّوا في بلاد موآب. توفّي بعد فترة من الزمن عبدُ الملك وبقيت زوجته نعمة مع ابنيها، ثمّ تزوّج الولدان ببنتين من موآب، تزوّج كَليل بعُرفة وتزوّج مَحل براعوث. وبعد مرور عشر سنوات تقريبًا على زواجهما ماتا، فبقيت نعمة أمّهما وحيدة دون معيل.

العودة إلى بيت لحم[3]

وعلمت نعمة أنّ الله أنعم على قومها بخيرات كثيرة، فجهزت نفسها وزوجتي ابنَيْها للرحيل عائدات إلى فلسطين. فانطلقنَ وقصدن منطقة يهوذا. وحدث أن توقّفت

(1) استنادا إلى كتاب راعوث 1: 1-5.

(2) انظر فهرس المصطلحات والأسماء في هذا المجلد.

(3) استنادا إلى كتاب راعوث 1: 6-22.

نعمةُ في الطريق وقالت لأرملتي ابنيها: «إنّ لكلّ واحدةٍ منكما أن تعود إلى أهلها، والله يُحسِن إليكما كما كنتما بي بارّتين، وكما أحسنتُما عشرة ولديّ. عسى الله أن يرزقكما بزوجين يكونان سندًا لكما». ثمّ قبّلَتهما، فبكينَ بكاء حارًا بسبب الفراق. ثمّ قالت عُرفةُ وراعوث لنعمة: «لن نتركك وحدك، بل سنمضي معكِ إلى قومكِ!» فاعترضت نعمةُ قائلة: «لا يا ابنتيَّ، بل عودا إلى دياركما! فما من داعٍ لترافقاني! إنّي عاجزة على الزواج والإنجاب. ثمّ إن قدّر لي وتزوّجت أفتراكما ستنتظران حتى يكبر أولادي فتتّخذ كلّ واحدة منكما زوجًا لها من بينهم؟ لقد انقضى هذا الزمن وولّى! فعودا إلى بلادكما يا ابنتيَّ. وإنّي لحزينة من أجلكما، إنّ الله ابتلاني فلا أستطيع أن أتكفّل بكما». وبكت النساء بكاء مرّا، وقبّلت عُرفةُ حماتها وودّعَتْها عائدة إلى أهلها، أمّا راعوثُ فتشبّثت بها وظلّت معها.

فقالت نعمة لراعوث: «يا بنيتي ألا ترين أنّ عُرفة عادت إلى أهلها وأربابها؟ ألا فافعلي مثلها ولتعودي أنتِ أيضًا إلى أهلِك». غير أنّ راعوث أجابتها: «لن أُفارقَكِ فلا تحاولي إقناعي! فأينما ذهبتِ أذهبُ وأينما أقَمتِ أُقيمُ. فأهلُكِ الآن أهلي، والله الّذي تعبدينه ربّي! وحيث تموتين أموتُ وأُدفَنُ حيثما تدفنين. وليُعاقبني الله أشدّ عقاب إن تركتُكِ، لا شيء يفرّق بيني وبينك يا أمّاه إلا الموت!» ولمّا لاحظت نعمة أنّ راعوث مصمّمة على مرافقتها قبلت بها، وتابعتا سيرهما حتّى وصلتا بيت لحم، ولمّا دخلتاها ابتهج أهل البلدة وتعالت أصواتهم فرحين وتساءلت النسوة: «أحقّ ما نرى؟! أهذه نعمة أم هي امرأة أخرى؟» فقاطعتهنّ نعمة قائلة: «لا تنادونني نعمة بل أنا مُرّة، لأنّ الله القدير جعل حياتي مُرّةً. لقد غادرتكم ممتلئة هناء وأعادني الله إليكم وحيدة لا شيء معي، فكيف تدعونني نعمة وقد أذلّني الله القدير وابتلاني كلّ هذا الابتلاء؟»

هكذا رجعت نعمةُ من بلاد موآب صحبة راعوث الموآبيّة أرملة ابنها مَحل. وكان وصولهما إلى بيت لحم في بداية موسم حصاد الشعير.

لقاء راعوث بأبي العزّ[1]

وفي بيت لحم رجل ثريّ واسع النفوذ يدعى أبو العزّ، وكان من أقرباء عبد الملك زوج نعمة الفقيد. وقالت راعوثُ لنعمة ذات يوم: «أرجوكِ أمّاه، اسمحي لي أن أذهب إلى الحقول لعلّهم يسمحون لي أن ألتقط السنابل الّتي يتركها الحصّادون». فأجابتها: «إذهبي يا بنيتي في أمان الله». واتّجهت راعوث إلى أحد الحقول لتجمع السنابل الّتي خلّفها الحصّادون. وصادف أن كان الحقل الذي دخلته راعوث حقل أبي العزّ.

وبينما كانت منهمكة في جمع السنابل، وصل أبو العزّ قادمًا من بيت لحم، وألقى التحيّة على الحصّادين قائلاً: «أعانكم الله في عملكم!» فأجابوه: «بارك الله فيك» ثمّ دنا من وكيله الذي يشرف على الحصّادين وهمس في أذنه: «مَن تلك الفتاة؟» فأجابه الوكيل: «إنّها فتاةٌ من بلاد موآب قدمت مع نعمة. ووقد جاءت اليوم باكرًا وطلبت مني أن تجمع سنابل الشعير الّتي يخلّفها الحصّادون. ولقد انهمكت، منذ وصولها، في العمل ولم تسترح إلاّ قليلاً».

فذهب إليها أبو العز وقال: «اسمعي يا ابنتي. ابقيْ معنا، فلا حاجة لكِ أن تذهبي إلى حقلٍ آخر لتلتقطي السنابل، ولازمي البنات العاملات اللّواتي يحزمنَ الشعير وسيري خلفهن، وانتبهي إلى المكان الذي يعمل فيه الحصّادون. ولقد أوصيتُهم بأن لا يزعجك أحد. وإذا عطشتِ فاذهبي واشربي من الأوعية الّتي ملأوها». فارتمت راعوث عند قدميه وقالت له: «إني لك ممتنّة فكيف حظيتُ منك بكلّ هذا الاهتمام وأنا امرأة غريبة؟» فأجابها أبو العزّ: «لقد بلغني ما قمتِ به من أجل حماتكِ بعد وفاة زوجكِ، إذ تركتِ أهلك وبلادك وأقمتِ هنا معها بين قوم غرباء. والله الّذي يعبده قومي بنو يعقوب يجازيكِ على قدر إحسانكِ! نعم، فلينعم عليك الله الذي جئتِ تحتمين تحت ظلّه ورعايته». فقالت له: «أتمنّى أن تدوم لي نعمة رضاك عليّ يا سيّدي، فقد بعثتَ الطمأنينة إلى قلبي وكنتَ معي لطيفا، مع أنّي لستُ واحدةً من خادماتك».

(1) استنادا إلى كتاب راعوث 2: 1–23.

ودعا أبو العز عند الغداء راعوث قائلا: «اقتربي ها هنا وتفضّلي معنا إلى الطعام، واغمسي لُقمتكِ في الخَلّ». فجلست مع الحصّادين وقدّم لها أبو العز فريكًا فأكلت وشبعت واحتفظت بما زاد عن حاجتها. وعادت إلى عملها من جديد، فأوصى أبو العز عمّاله: «لا تمنعوها وإن التقطت السنابل من بين حُزم الشعير. بل انزعوا بعض السنابل من الحُزم عمدًا واتركواها لتلتقطها، ولا تنتهروها».

وظلّت راعوث تلتقط سنابل الشعير في الحقل حتّى المغيب، وعندما فركت السنابل التي جمعتها، امتلأت قُفّتها! فحملت ما جمعته وعادت إلى حماتها وأرتها كمية الحبوب، وأعطَتها أيضًا الفريك الّذي زاد طعامها. فسألتها نعمة: «من أين جمعتِ كلّ هذا الشعير اليوم؟ وفي أي حقل تحديدا؟ بارك الله في مَن ساعدك!» فأخبرتْها راعوث أنّها عملت في حقل رجل يدعى أبو العزّ. فأجابتها نعمة: «بارك الله فيه، إنّه بهذا يحسن إلينا ويحسن إلى أقاربه الراحلين! إنّه أحد أنسبائنا، ومن واجبه أن يتولّى أمرنا فهو من أبناء عمومتنا!» وأضافت راعوث: «لقد طلب مني أيضا أن ألازم الحصّادين إلى نهاية موسم الحصاد». فقالت لها نعمة: «افعلي ما طلبه منك يا بنيتي، فخير لك أن ترافقي العاملات عنده حتّى نهاية الحصاد، ذلك أنّك إذا اشتغلتِ في حقل آخر قد تتعرضين للمضايقة». فلازمت راعوث العاملات في حقول أبي العزّ وتفانت في التقاط السنابل حتّى نهاية موسم حصاد الشعير، ثمّ فعلت ذلك في موسم حصاد الحنطة في بداية الصيف أيضا، وكانت تقيم حينها مع حماتها.

راعوث في بيدر أبي العزّ[1]

وقالت ذات يوم نعمة لراعوث: «يا ابنتي، لقد آن الأوان لأزوّجك زوجًا صالحًا يرعاكِ فتنعمين معه بخير. إنّكِ تعلمين أنّ أبا العز نسيبنا، ومن لطفه سمح لك بالتقاط السنابل في حقوله إلى جانب العاملات. وفي هذه الليلة سيُذَرّي بيدر الشعير، فتحمّمي يا ابنتي وتعطّري والبسي أفخر ثيابكِ. ثمّ انزلي إلى البيدر، ولكن لا تجعليه يشعر بوجودكِ حتى يفرغ من طعامه وشرابه. ثمّ تثبّتي من موضع نومه، فإذا نام

(1) استنادا إلى كتاب راعوث 3: 1–18.

فاقتربي منه وارفعي الغطاء من على قدميه وارقدي عندهما طالبةً منه الستر والزواج. سيخبركِ حينها بما عليكِ فعله». فقالت راعوث لنعمة: «حاضر يا أمّاه سأنفّذ كلّ ما امرتني به».

واتّجهت راعوث في المساء إلى البيدر ونفّذتْ كلّ ما ذكرته حماتُها. فلمّا أكل أبو العز وشرب وطابت نفسه ذهب لينام قرب كومة الشعير، فتسلّلت إليه راعوث ورفعت الغطاء عن قدميه ونامت عندهما. وعند منتصف الليل أحسّ أبو العز بالبرد فتقلّب، فإذا بامرأةٍ نائمة عند قدميه! فسألها: «مَن تكونين؟» فأجابت: «أنا راعوث يا سيّدي، وأريد الستر منك فأنت نسيبي وإنّ من واجبك أن تتولّى أمري». فقال لها: «بارك الله فيكِ يا ابنتي! إنّ ما أَظهرتِهِ من وفاء لأقربائكِ الآن أعظم ممّا أظهرتِهِ سابقًا لحماتكِ، لأنَّكِ لم تسعي إلى زوج شابّ فقيرا كان أو غنيّا. فلا عليكِ يا بنيتي! سأقوم بواجبي، إنّ جميع أهل البلدة يعرفون أنّكِ امرأةٌ شريفة عفيفة. نعم أنا من أبناء عمومتك، غير أنّه يوجد مَن هو أقرب منّي إليكِ. فأمضي ليلتك هنا، وفي الصباح سأقابله وسأرى إن كان مستعدًا أن يقوم بواجبه ويتزوّجكِ. فإن قام بواجبه، فقد أحسن وكفى، وإن لم يفعل، فأنا أقسم بالله الحيّ القيوم، أنّي سأقوم بواجبي نحوك، وسأتزوّجك كما تقتضي العادة! فنامي يا بنيّتي إلى الصباح».

وعادت راعوث إلى النوم عند قدميه، ثمّ استيقظت باكرًا قبل انبلاج النور، فقد شاء أبو العزّ أن لا يعلم أحدٌ بقدومها ليلا إلى البيدر. ولكن قبل مغادرتها، قال لها: «هاتي الرداء الّذي عليكِ ومدّيه من طرفَيهِ»، ففعلت فملأه بستّة أكيال شعير ثمّ ساعدها كي تحمله على ظهرها، وعادت إلى حماتها في البلدة. وحين رأتها حماتها سألتها متلهفةً: «حدثيني عن كلّ ما جرى لك يا بنيّتي؟» فشرحت لها راعوث كلّ ما فعله أبو العز، ثمّ أضافت: «ولقد أعطاني هذا الشعير وقال: لا يمكن أن تعودي إلى حماتكِ فارغة اليدين». فأجابتها حماتها: «تريّثي يا بنيتي ولنترقّب ما سيحدث، فلن يهدأ بال الرجل حتى يحسم الأمر اليوم».

أبو العز يتزوج راعوث[1]

وفي الأثناء، توجّه أبو العز إلى الساحة القضاء عند بوّابة البلدة وجلس هناك منتظرا. وحين مرّ ابن عمّ زوج راعوث، ناداه قائلاً: «أقبل يا صاحبي واجلس هنا». فأقبل عليه الرجل وجلس بقربه. واستدعى أبو العزّ عشرة رجال من شيوخ البلدة وطلب منهم الجلوس إلى جانبه. ثمّ التفت إليه قائلاً: «أنت تعلم أنّ نعمة قريبتنا قد عادت من موآب، وإنّها ترغب في بيع قطعة الأرض الّتي كان يملكها عبد الملك نسيبنا، فرأيتُ أن أطرح الأمر عليك فأنت أقرب أقربائه ولك الأولويّة في شراء الأرض. فإن أردتَ شراءها فلك ذلك بشهادة هؤلاء الجالسين هنا. وإن لم ترغب، فأخبرني الآن، فأنا الأولى بها من بعدك». فأجابه: «أجل! إنّي أريد شراءها». فال أبو العزّ: «حسنًا، فاعلم أنّ شراء الأرض من نعمة مشروط بزواجك من راعوث الموآبيّة، حتى تنجب منها ولدًا يحمل اسم قريبنا الراحل، يعود له ميراث هذه الأرض في النهاية». فاعترض الرجل قائلا: «فإذا كان الأمر كذلك فسأتخلّى عن حقّي في شراء الأرض، لأن أولادي لا يحقّ لهم أن يرثوها. سأترك لك حقّ الشراء فأنا لا أستطيع أن أتحمّل هذه المسؤولية».

وسادت وفي تلك الأيام عادة عند بني يعقوب لإثبات تبادل الملكية، فقد كان على البائع أن يخلع نعله ويعطيه للشاري، حتى تتمّ الصفقة أمام الملإ. فتخلّى الرجل عن حقّه لأبي العزّ قائلاً: «لك الحقّ أن تشتري الأرض»، وخلع نعله وأعطاه له. فأعلن أبو العزّ للشيوخ ولجميع الحاضرين: «إنّكم اليوم شهودٌ على أنّي اشتريتُ من نعمة جميع أملاك عبد الملك وابنَيهِ كليل ومَحل، واتّخذتُ راعوث الموآبيّة أرملة مَحل زوجةً لي، وهكذا تنجب ولدًا يحمل اسم الراحل ويرث ميراثه، فلا ينقطع ذكره بين إخوته وأهل بلدته. إنكم اليوم على هذا شهود!» فردّد الشيوخ وجميع الحاضرون عند بوّابة البلدة: «أجل! نحن شهودٌ! اللهمّ اجعل هذه الزوجة الّتي ستدخل بيتك كراحيل ولَيئة اللّتينِ عمّرتا بيت آل يعقوب، وليجعل الله شأنك عظيمًا في عشيرة

(1) استنادا إلى كتاب راعوث 4: 1–12.

أفرات، وذكرك مرفوعًا في بيت لحم! وليرزقك الله من هذه الزوجة مثل نسل سلفنا فارص ابن يَهوذا وتامار».

نسل أبي العزّ[1]

وتزوّج أبو العزّ راعوث ورزقها الله بولد. فقالت نساء البلدة لنعمة: «تبارك الله الّذي لم يحرمكِ وليًّا يرعاك! وليكن شأن هذا الولد عاليا في بني يعقوب! وليُدخل الفرح إلى قلبكِ، ويعولكِ في شيبتكِ! لقد أحبّتكِ راعوث كثيرًا وهي خيرٌ لكِ من سبعة بنين!» فأخذت نعمة الطفل وحضنته وربّته كابن لها. وقالت الجارات: «لقد رُزقت نعمة ابنا!» وأطلقنَ عليه اسم عُبيد، وهو أبو يَسَّى أبي النبيّ داود عليه السلام.

وهذا نسب سلفهم فارص: فارصُ أنجب حاصر، وحاصر أنجب رامًا، ورامٌ أنجب عَميناداب، وعَمينادابُ أنجب ناحِش وناحش أنجب سالم وسالم أنجب أبا العزّ، وأبو العزّ أنجب عُبيد، وعُبيدُ أنجب يَسَّى، ويَسَّى أنجب داود عليه السلام.

(1) استنادا إلى كتاب راعوث 4: 13–22.

صموئيل عليه السلام

قصّة حَنينة وابنها صَموئيل عليه السلام

مدخل إلى قصّة حَنينة وابنها صَموئيل عليه السلام

تبدأ هذه القصّة مع ذكر حنينة المؤمنة المخلصة التي عانت من العقم فذلّها الناس. ثمّ استجاب الله لدعائها ورزقها ولدا سمّته صموئيل ويعني هذا الاسم الله سميع. ونذرته لخدمة الله طيلة أيام حياته.

وكان هناك رجل دين من جماعة الأحبار اسمه عالي يشرف على تربية صموئيل عليه السلام، فأرشده واعتنى به، فنشأ صموئيل في كنفه في حرم خيمة بيت الله. وكان لعالي ولدان لم يحسن تربيتهما لكنهما أصبحا من رجال الدين، وكانا يقومان بمهامّهما بأنانية وازدراء. وكما يخبر الطبري في تاريخه: «كانا إذا جاءت النساء يصلين في القدس [أي الحرم المقدّس] يتشبّثان بهن».[1] ورغم التحذيرات المتكرّرة من الله لم يعاتب عالي ابنيه ولم يمنعهما من تصرفهما المشين. وفي النهاية سمح الله أن يُقتل هذان الولدان في معركة عندما كانا يرافقان صندوق ميثاق الله (أي تابوت عهد الله).

وكان النبي صموئيل عليه السلام شخصيّة محوريّة في تاريخ بني يعقوب، إذ تمثّل فترة حياته زمن الانتقال من عصر الحكام المناصير (أي القضاة حسب التعبير الكنسي) إلى عصر الملوك. وطالب بنو يعقوب بشدّة من النبي صموئيل أن ينصّب عليهم ملكا شأن بقية الأمم، فحزن صموئيل من طلبهم هذا، لذلك أوحى الله إليه أنّ طلبهم في الحقيقة بمثابة رفضهم لله ملكا عليهم. فردّ النبي صموئيل على الناس قائلا إنّ الملك

(1) **الطبري**، *تاريخ الرسل والملوك*، ط 2، دار التراث بيروت، لبنان، 1387هـ، ج 1، ص 470.

سيتجبّر عليهم إلى درجة أنّهم سيبتهلون إلى الله أن يفرّج عنهم ولكنّه لن يستجيب لهم.

ومن خلال أحداث قصّة النبي صموئيل يمكننا أن نرى أنّ استجابة الإنسان لله تؤدي إلى تداعيات كثيرة. كذلك أوحى الله إلى صموئيل: ((إنّي أنا الله أكرّم من يكرّمني ومن يحتقرونني يَصغُرون)) [كتاب النبي صموئيل الأوّل 2: 30].

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة حَنينة وابنها صَموئيل عليه السلام

حنينة وزوجها ألقان[1]

في منطقة أفرايم الجبلية وتحديدا في بلدة الرّامة، يقطن ألقان بن يَروحام. وتزوّج ألقان بامرأتين، هما حَنينة وفَنينة. رُزقت فَنينة بأولاد، أمّا حَنينة فكانت عاقرا.

وكان ألقان يحجّ كلّ سنة إلى منطقة شيلوه ليعبد الله العزيز القدير ويقدّم له أضاحي. وفي هذه المنطقة كان يقيم ابنا الحَبر عالي حُفني وفينحاس، وهما أيضا حبران في خدمة الله. ودأب ألقان على إعطاء زوجته فَنينة وبنيها وبناتها حصصًا من الذبيحة كلّما قدّم أضحيةً لله. أمّا حنينة فكان يعطيها نصيبًا مميزًا لأنّه يحبّها، رغم أنّ الله جعلها عاقرًا. وبسبب عقمها كانت ضرّتها فنينة تضربها وتهينها، ويحدث ذلك سنويا مع موعد حجّ ألقان إلى بيت الله، فتنهر فنينة حنينة فتبكي وتمتنع عن الأكل. فيقول لها زوجها ألقان: «يا حنينة، ما سبب بكائكِ وانقطاعك عن الطعام؟ ولماذا أنت كئيبة عليلة القلب؟ ألا تعلمين أنّي خيرٌ لكِ من عشرة أولاد تنجبينهم؟»

حنينة والحبر عالي[2]

وفي أحد مواسم الحجّ، وبعد أن أكل الجميع وشرب في شيلوه، قامت حَنينة،

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 1: 1–8.
(2) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 1: 9–18.

وانزوت في حرم بيت الله تستغيث الله وتناجيه، وكان الحَبر عالي حينئذ جالسا على كرسيّ عند مدخل حرم بيت الله. وتضرّعت حنينة إلى الله بمرارة وحرقة وناجته باكية، ونذرت نذرًا له تعالى وقالت: «اللهمّ يا عزيز يا قدير، إذا نظرتَ إلى شقاء أمتك واستجبتَ لدعائي ورزقتَني مولودًا ذكرًا، جعلتُه منذورًا لك طوال حياته، وعلامة ذلك ألا يحلق شعر رأسه أبدًا».

وظلّت حنينة وقتًا طويلاً تتضرّع إلى الله، وفي الأثناء كان الحبر عالي يراقب حركات شفتيها. لأنّها كانت تصلّي سرًّا، وشفتاها في حركة دؤوبة دون أن تجهر بكلمة واحدة، فظنّ الحبر عالي أنها تحت تأثير الخمر. فقال لها: «لا تقربي الصلاة وأنت في حالة سكر! عودي إلى رشدكِ». فأجابته منكسرة: «لا يا سيّدي! أنا امرأةٌ عليلة القلب، أحمل حزنًا دفينًا ولم أشرب خمرًا ولا مسكرات، بل أناجي الله ربّي. فلا تحسب أمتك من بنات السّوء، بل مكثت هنا وقتًا طويلاً من شدّة الغمّ والأسى». فأجابها الحبر عالي: «اِذهبي في أمان الله، والله الّذي يعبده بنو يعقوب يستجيب لدعائك». فقالت: «ليتني أحظى برضاك يا سيّدي». ومضت في حال سبيلها. وتفتحت شهيتها، فأكلت وزال غمها.

مولد صموئيل عليه السلام ونذره لله[1]

وفي الصباح الباكر، صلى ألقان وأهل بيته وسجدوا لله، ثمّ ولّوا أدراجهم إلى بيتهم في بلدة الرّامة. وعاشر ألقان زوجته حَنينة واستجاب الله لدعائها، فحبلت في تلك السّنة وولدت ولدًا دعتْهُ صَموئيل وفسّرت هذا الاسم وقالت: «طلبتُهُ من الله».

وفي موسم الحجّ الموالي، ذهب ألقان مع جميع أهل بيته إلى شيلوه ليقدّم لله الأضحية السّنوية ويوفي بنذره. لكنّ زوجته حنينة اعتذرت وقالت لزوجها: «عندما أفطم ابني آخذه إلى شيلوه ليقيم هناك في حرم بيت الله كلّ حياته». فأجابها ألقان: «افعلي الصواب وتمهلي إلى حين فطامه، فيتحقّق وعد الله فيه». فَظلت حنينة في

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 1: 19–28.

بيتها تُرضع ابنها حتّى فطامه. ولمّا فطمتْهُ حجّت به إلى حرم بيت الله في شيلوه رغم صغر سنّه، وأخذت معها عجلاً بلغ ثلاث سنين وقفّةً من دقيق وقربة شراب. فذبحوا العجل وقدّموا إلى الحبر عالي الصبيّ وهو ما يزال فطيما. وقالت له حنينة: «هل تذكرني يا سيّدي؟ أنا المرأة الّتي وقفت أمامك هنا تتضرّع إلى الله. وقد طلبتُ منه آنذاك أن يرزقني هذا الصبيّ، فرزقني ما طلبتُ. فوهبتُه لله تعالى كلّ حياته، فهو للوهّاب.» وهناك سجدوا جميعًا.

نشيد حنينة[1]

وتضرّعت حَنينة لربّها وقالت:

"ربّاه قد أقبلتُ عليك بمهجتي تهليلا وحمدا

ورفعتُ رأسي بين الناس إجلالا ومجدا

يا ربّ كم أفتخر على القوم الظالمين

وأبتهج بك يا ناصري العظيم

أنت الله لا شريك لك،

وحدك القدّوس لا ناصر سواك.

أيّها الناس، لا تنطقوا تبجّحا وخُيلاء

ولا تتفوّهوا بكبرياء

لأنّ الله بصيرٌ عليمٌ

ويضع أعمال البشر في الموازين.[2]

فتنكسر بك يا ربّ أسلحة الجبابرة الأقوياء

وتمنح القوّة للبائسين الضعفاء

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 2: 1-11.

(2) انظر سورة الأنبياء: 47.

كذلك يصبح الغني أجيرًا

يبحث عن قوت يومه ذليلا صغيرا

أمّا البائس فقد اكتفى بما عنده واستغنى.

قد ولدت العاقر سبعة أولاد،

أمّا الولود فقد ذوت كرماد.

إنّ الله هو المحيي والمميت

وهو الخافض إلى القبر والرافع منه.

هو المانع والمُغني

يذلّ مَن يشاء ويرفع مَن يشاء.[1]

يبعد المساكين

عن التّراب والعراء

ويرفع البائسين

عن المزابل والطين

يُجلسهم مع النبلاء

ويمنحهم مقاما مع الشرفاء،

لأنّ لله أعمدة الأرض ورواسيها،

عليها ثبّت الدنيا وما فيها،

يحفظ مسعى عباده المخلصين،

والأشرار في الظلمات يهلكون

إنّ النصر للإنسان بك أيّها القويّ المتين.

فأعداؤك كلّهم ينكسرون

(1) انظر سورة آل عمران: 26.

حين ترسل عليهم الصيحة من عُلاك
فأنت يا الله تجزي في الأقاصي العالمين
وتشدّ أزر الملك الذي اخترته فوق الحاكمين
وترفعه بالعزّة والتعظيم».

وبعد انتهاء موسم الحج، عاد ألقان وزوجته حنينة إلى بيتهما في الرّامة، وتركا ابنهما صموئيل ليخدم الله في الحرم الشريف عند الحبر عالي.

صموئيل عليه السلام في شيلوه(1)

وسخّر صَموئيل عليه السلام نفسه لخدمة الله منذ صباه، وكان يرتدي صُدرةً من كتّان كما يفعل الأحبار. وكانت أمّه حَنينة تخيط له كلّ سنة جبّة صغيرة، وتأتيه بها عندما تحجّ مع زوجها، لتقديم الأضحية السنويّة. فيطلب لهما الحبر عالي بركة من الله قائلاً: «ليرزقك الله نسلاً من هذه المرأة بدل الابن الّذي وهبته لله تعالى». وبعد انتهاء مراسم الحجّ يعودان إلى بيتهما في بلدة الرامة.

وبارك الله حنينة، فرُزقت ثلاثة بنين وبنتين. وشبّ صَموئيل عليه السلام في كنف الله، أمّا صَموئيل عليه السلام فكان ينمو في القامة والتقوى، ويومًا بعد آخر ازداد رضى الله عنه وأحبّه النَّاس.

أبناء الحبر عالي(2)

وكان ابنا الحبر عالي حُفني وفينحاس من المفسدين الذين لا يتّقون الله ولا يكترثون به. ووصل بهما الأمر إلى أخذ نصيبهما من اللحم دون مراعاة الشريعة. فعندما يقدّم أحد الناس أضحية، وأثناء طبخه لحم هذه الأضحية، يرسلان خادمهما، وبيده شوكةٌ مسننة بثلاث شُعَبٍ، فيضربها في المِرجَل أو الطبق أو المِقلى أو القِدر، ويأخذ ما التقطته الشوكة نصيبًا لهما. وبهذه الطريقة كانا يُعاملان جميع بني يعقوب

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 2: 18-26.
(2) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 2: 12-17.

القادمين إلى شيلوه لتقديم الأضاحي لله. وزيادةً على ذلك، كان خادمهما يأتي إلى صاحب الأضحية قبل أن يحرق شحمها لله، حسب الشريعة، ويطالبه قائلاً: «هات لحمًا لنشويه، فالحبر لا يقبل منك لحمًا مطبوخًا بل يريده نيّئًا». فإذا أجابه صاحب الأضحية: «تمهل حتّى يحترق الشّحم، فهو لله، ثمّ خُذ ما طاب لك». فيجيبه الخادم حانقًا: «كلاّ، بل عليك أن تعطيني ما طلبتُ الآن، وإلاّ أخذْتُه منك بالقوّة». وكانت خطيئةُ حُفني وفينحاسُ تشتدّ يوما بعد يوم أمام الله لأنّهما استهانا بذبيحته تعالى. أمّا الحبر عالي فصار شيخًا هرمًا، وعلم بكلّ ما فعله حُفني وفينحاس في حقّ بني يعقوب، وكيف كانا يعاشران النساء اللّواتي كُنّ يخدمنَ عند باب خيمة بيت الله. فقال لهما: «لماذا فعلتم ما فعلتم؟ وما هذه الأخبار الفظيعة التي وصلتني عنكم من الناس؟ يا ابنيّ توقفا عن صنيعكما، فما شاع عنكما سيء للغاية، فأنتما تدفعان قوم ميثاق الله إلى المعصية. فإن أخطأ إنسان في حقّ إنسان، فإنّ الله يحكم بينهما. ولكن إن أخطأ إنسان في حقّ الله، فمَن يشفع له؟» ولكنّ حُفني وفينحاس لم يسمعا كلام أبيهما، لأنّ الله أصدر عليهما حكمه بالموت.

نبوءة الله عن بني عالي[1]

وجاء نبيٌّ[2] إلى الحَبر عالي وقال له: «قال الله تعالى: تجلّيتُ لبني سلفك هارون، عندما كانوا في مصر في ديار فرعون، واخترتُ من بين جميع عشائر بني يعقوب بيت هارون، ليكون منه أحبار يخدمونني ويقيمون الدين، ويقدّمون الأضاحي في المذبح ويحرقون البخور، وأثناء العبادة في الحرم يكتسون كساء الأحبار على الصدور. وقد أعطيتُهُم حصّة من جميع الأضاحي الّتي يقدّمها لي بنو يعقوب وهم يعبدون. فلماذا ببيتي المقدّس تستهينون؟ ولماذا لا تقيمون وزنا لكلّ ما أمرتُ بتقديمه من الأضاحي والقرابين؟ ولماذا بجّلتَ عليّ نفسك وولديك، حتّى تضخّمت أجسامكم؟ وتأكلون

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 2: 27–36.

(2) المقصود هنا نبي من أنبياء بني إسرائيل لم يرد ذكر اسمه تحديدا، وهو ليس ملاكا مرسلا من الله بل إنسانا.

بنهمٍ وشراهة أفضل القرابين. لذلك أوحى الله ربّ بني يعقوب: «لقد جاء وعدي من قبل أن أجعل بيتك وبيت أبيك في خدمتي على مدار السنين، لكنّي في حلّ من هذا الوعد بداية من هذا الحين. إنّي أنا الله أكرم من يُكرِمني، ومن يحتقرونني يَصغُرون. سيأتي يوم فيه أنزل عليكم العقاب، وفيه أُهلك من بيتك وعشيرتك كلّ الشّباب، فلا يبلغ الشيخوخة أحد من هؤلاء الفاسدين. وينعم بنو يعقوب برغد الهناء، أمّا أنت فتكون في محن وبلاء. ولا أحد منكم يبلغ الكبر ويصبح من المسنّين. وإن أبقيتُ أحدكم ليقدّم لي الأضاحي والقرابين، أجعله عليل القلب كليل العيون. ويفنى كلّ نسلك، وفي أوج شبابهم يهلكون. وحتى ترى صدق الوعيد، يموت ابناك حُفني وفينحاس في يوم واحد. وأعيّن حَبرًا أمينًا يعمل على مرضاتي، وأُشُدُّ عزم أفراد عائلته ليخدموا الملك المختار مخلصين. وكلّ من يبقى من ذرّيّتك على قيد الحياة، يأتي إلى هذا الحبر ويرتمي أمامه من أجل قطعة من الفضّة أو خبز فُتات، ويقول له ملتمسًا: «أرجوك دعني أساعد الأحبار حتى أجد ما آكل وما أقتات».

الله يدعو النبي صموئيل[1]

أمّا الصبيّ صَموئيل عليه السلام، فكان يخدم الله تحت إشراف الحبر عالي الذي هرم وضعف بصره. وفي تلك الفترة قلت الرؤى ولم ينزل وحي من الله. وذات ليلة كان الحبر عالي نائمًا في غرفته. بينما نام صَموئيل عليه السلام في باحة الحرم حيث صندوق الميثاق.[2] وكان مصباح بيت الله لا يزال مشتعلا. وفي الأثناء، أوحى الله إلى صَموئيل عليه السلام ودعاه. فأجاب: «نعم يا سيّدي». وأسرع إلى الحبر عالي وقال له: «لقد ناديتني يا سيدي، فها أنا أمامك». فأجابه الحبر عالي: «ما ناديتك. عد إلى نومك». فرجع عليه السلام ونام. فدعا الله صَموئيل ثانيةً، فقام وأسرع إلى الحبر عالي مرّة أخرى وقال له: «لقد ناديتني يا سيدي، فها أنا أمامك». فقال له: «ما ناديتك يا ابني. عد إلى نومك». ولم يفهم صَموئيل عليه السلام أن الله يخاطبه لأنّه لم يجرّب الوحي من قبل. فعاد

---

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 3: 1–21.

(2) استعملت الترجمات التاريخية هنا مصطلح "تابوت العهد".

الله ودعا صَموئيل مرّة ثالثة، فقام صَموئيل وأسرع إلى الحبر عالي وقال له: «لقد ناديتني يا سيدي، فها أنا أمامك». فأيقن الحبر عالي أنّ الله يدعو الصبيّ صَموئيل، فطلب منه قائلا: «عد إلى نومك، وإن ناداك الصوت مرّة أخرى فأجبه: لبّيك ربي». فعاد صَموئيل عليه السلام إلى فراشه ونام.

فتجلّى الله إلى صموئيل ودعاه كالمرّات السابقة: «صَموئيل، يا صموئيل». فأجاب عليه السلام: «لبّيك ربي ها عبدك يُصغي». فأوحى الله إليه: «سأقيم عملاً في بني يعقوب وكلّ مَن يسمع به يقف مذهولاً. وفي اليوم الذي أحدّده أُنفّذ وعيدي نهائيا في نسل الحبر عالي. فقد أنذرتُهُ بأنّي سأقضي على نسله إلى الأبد، لأنّه علم أنّ بنيهِ وقعوا في الإثم، ولم يردعهم. فأقسمتُ، لا أضحية ولا قربان يمحوان إثمه وإثم نسله إلى الأبد».

ونام النبي صموئيل حتّى الصّباح، ثمّ فتح أبواب حرم بيت الله، وخاف أن يبوح بأمر الرؤيا إلى الحبر عالي. لكن الحبر عالي دعاه وقال له: «يا ابني صَموئيل»، فأجابه: «نعم يا سيّدي.» فقال له: «أخبرني بما أوحى الله إليك، وإن أخفيتَ عنّي كلمةً واحدة من كلماته، فليعاقبك الله عقابا شديدا». فأخبره صموئيل عليه السلام بكل ما جاء في الوحي ولم يخف عنه أمرًا. فقال الحبر عالي: «هذه مشيئة الله فلا رادّ لها».

وكبُرَ النبي صموئيل برعاية الله، ولم يُهمل أمرًا واحدًا ممّا جاءه في الوحي. وعلم بنو يعقوب، من دان في الشمال إلى بئر السبع في الجنوب، أنّ الله اختار صموئيل نبيًّا. وعادت تجلّيات الله لصموئيل عليه السلام في شيلوه، وأوحى إليه.

وظلّ صموئيل عليه السلام حاكما مُناصرا لقومه بني يعقوب كلّ أيّام حياته.

قصّة النبي داود عليه السلام

مدخل إلى قصّة النبي داود

﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا﴾ [سورة الإسراء: 55]

كان الملك طالوت (شاول) الملك الأوّل بعدما سمح الله بإقامة مملكة بني يعقوب،[1] وهو الذي عصى الله وسقط ضحية في معركة مع وثنيي بلاد فلسطيا فيما بعد. ثمّ أقام الله النبي داود﵇ ليكون الملك الثاني على مملكة بني يعقوب.

ويرجّح أن فترة حكم النبي داود امتدّت من سنة 1010 ق. م. إلى سنة 970 ق. م. ويُعرف داود﵇ كأحد عظماء ملوك قومه، إذ كان محاربا باسلا ومنشدا ماهرا، ويُنسب إليه عدد من المزامير في كتاب الزبور. ويحتلّ النبي داود مكانة مميّزة في هرم التفاضل بين الأنبياء في العقيدة الإسلاميّة عموما، فهو الوحيد بعد آدم﵇ الذي خاطبه الله بالخليفة.[2] ولا تكمن أهميّة النبي داود في الفكر الإسلامي في كونه الخليفة الثاني فحسب، بل تكمن أهميّته في كونه النبيّ الذي كان يعتبره المسلمون أوّل من حوّل الديانة اليهوديّة إلى ديانة تحكم دولة، فهو بذلك شبيه لمحمد نبي الإسلام.

(1) انظر سورة البقرة: 247.

(2) انظر سورة ص: 26. ويقترب مصطلح "خليفة" في القرآن في المعنى من مصطلح "ابن الله" في الكتاب المقدّس، إذ يشير المصطلح الآخير إلى آدم وداود ويحمل معاني كثيرة تقترب من مصطلح "خليفة".

ويعتبره أتباع الديانات الإبراهيمية أسوة في التقوى، حيث كان ((يعمل على مرضاة الله)) [كتاب النبي صموئيل الأوّل 13: 14، سيرة الحواريين 13: 22]. وحسب التقليد القديم المتواتر بين اليهود والمسيحيين والذي تذكره بعض الكتب القديمة يُنسب 73 مزمور إلى النبي داود. ونرى في هذه المزامير شأن بعض المصادر القديمة الأخرى أن سيرته قد جاءت قدوة للناس وذلك من خلال صلته مع الله، وتسابيحه (انظر المزمور 8 و145)، واستغاثاته (انظر مزمور 3 و7)، وثقته الكبيرة بالله، وتعابيره الصريحة عن حزنه وخوفه، واعترافاته بغضبه وقلقه واستغفاره (انظر مزمور 6 و 51) وإعلان إيمانه أمام الملإ وتعبيره عن شكره. ويرد ذكر النبي داود في القرآن الكريم مقترنا بتسبيح الله (سورة ص: 18-19).

وتستند قصّة النبيّ داود على نصوص من الكتابين للنبي صموئيل وكتاب الملوك الأوّل وكتاب أخبار الأيّام الأوّل، وكلّها موجودة في ثنايا الكتاب المقدس. وجاء ذكر النبي داود وأعماله في بعض الكتب القديمة الأخرى، مثل كتاب ياشر وكتاب أخبار ملوك يهوذا، لكنّ هذه الكتب وقعت طي النسيان.

وتقدّم أغلب الروايات القديمة صورة إيجابية للنبي داود، لكن توجد قصّة عن خطيئة النبي داود وتسبب قلقا لعلماء اليهود والمسيحيين والمسلمين عبر القرون، ألا وهي قصّة النبي داود وامرأة أوريا.

وجاء في القرآن عن النبي داود: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: 17] (أي كثير التوبة). ويذكر الطبري في تاريخه كيف تاب النبي داود عن الفعل المذكور في سورة ص: ”هو يقول في سجوده - فلم أحص من الرقاشي إلا هؤلاء الكلمات: رب زلّ داود زلة أبعد مما بين المشرق والمغرب! ربي إن لم ترحم ضُعف داود، وتغفر ذنبه جعلتَ ذنبه حديثًا في الخُلوف من بعده.“

ويذكر الطبري أيضا: «عرف ما قد وقع فيه، وما ابتُلي به، قال: فخرّ ساجدًا فبكى، قال: فمكث يبكي ساجدًا أربعين يومًا لا يرفع رأسه إلا لحاجة لا بد منها، ثم يقع ساجدًا يبكي، ثم يدعو حتى نبت العُشب من دموع عينيه، قال: فأوحى الله عز

وجل إليه أربعين يومًا: يا داود، ارفع رأسك قد غفرتُ لك، فقال: يا رب، كيف أعلم أنك قد غفرتَ لي وأنت حكَمٌ عدل لا تحيف في القضاء؛ إذا جاء أهريا يوم القيامة آخذًا رأسه بيمينه أو بشماله تشخَبُ أوداجه دمًا في قِبَل عرشك: يقول يا رب، سل هذا فيم قتلني! قال فأوحى الله إليه: إذا كان ذلك دعوت أهريا (أوريا) فأستوهبك منه، فيهبك لي فأثيبه بذلك الجنة. قال: رب الآن علمت أنك قد غفرت لي، قال: فما استطاع أن يملأ عينيه من السماء حياءً من ربه حتى قبض.

حدثني علي بن سهل، قال: حدثنا الوليد بن مسلم، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، قال: حدثني عطاء الخراساني، قال: نقَش داود خطيئته في كفه لكي لا ينساها؛ فكان إذا رآها خفقت يده واضطربت».

كان النبي داود تقيا ورفض أن يعلي من شأنه بسبب ثقته أن الله سيفي بوعده تعالى على لسان النبي صموئيل. وهذا الوعد مفاده أنّ داود سيصبح الملك في الوقت المناسب، وكان داود ﷺ راسخا في ثقته بوعد الله حتى بعد أن غار الملك طالوت منه فولّى داود هاربا إلى الصحراء لينجو بحياته، حيث أقام متشرّدا بينما يلاحقه جنود طالوت. ومع الوقت، اعتلى النبي داود العرش ووعده الله أنه سيقيم نسله على العرش إلى الأبد.

وبعد وفاة النبي داود بقرون أدّى ضلال أغلب بني يعقوب إلى هزيمتهم وسبيهم في بلاد بابل كما توعّد الله قبل ذلك. وهذا السبي كان بمثابة أزمة ايمانية لشعب بني يعقوب حيث كان يبدو لهم أن وعد الله أن يحفظ ذرية داود على العرش لم يتمّ. ولكن الله أرسل حينئذ وحيا على ألسنة أنبيائه عاموس وأشعيا وغيرهما أنه تعالى سيحقّق وعده بإرسال المسيح المنتظر، وريث عرش داود، ليقيم مملكته من جديد ويثبّت السلام ويملأ الأرض قسطا وعدلا.

ويشير الإنجيل إلى أن السيد المسيح هو سليل النبي داود بل هو من أقام مملكة داود المنهدمة واعتلى على عرشه ليملك ويرسي حكما عادلا على عباده إلى الأبد.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النبي داودعليه السلام

في أيّام النبي صموئيلعليه السلام، أراد بنو يعقوب تنصيب ملك عليهم حتّى يحكمهم كبقية الأمم. ورغم أنّ الله لم يرسل إليهم ملوكا، لكنّهم تمرّدوا عليه وطالبوا بملك يحكمهم. فأرسل الله النبي صموئيل إلى رجل يُدعى طالوت حتى يمسح رأسه بزيت دليلا على أنّ الله اختاره ملكا على عباده من بني يعقوب. ولكن طالوت عصى أمر ربّه فرفضه الله ولم يؤيده كما سبق، وتركه يموت في معركة.

اختيار داودعليه السلام ملكًا(1)

وذات يوم أوحى الله إلى النبي صَموئيلعليه السلام: «إلى متى تتأسّف على طالوت الذي رفضتُه ملكًا على بني يعقوب؟ عليك أن تملأ حالا القرن بالزيت وتذهب إلى يَسَّى في بيت لحم، لتمسح به أحد بنيه لأنّي اخترتُه ملكًا». فردّ النبي صَموئيل قائلا: «كيف تطلب مني أن أذهب إلى هناك؟ فإن علم الملك طالوت أنّي فعلت ذلك، قتلني». فأوحى الله إليه مرّة أخرى: «خُذْ معك عجلة وأعلن للحاضرين: جئتُ لأُقدّم أضحية لربّ العالمين. وادعُ يَسَّى إلى الوليمة، وهناك تأتيك تجلّياتي لأشير عليك بما تفعله في الحين، وأدلّك على أحد أبناء يَسَّى وعليك أن تمسحه بالزيت لتنصبه ملكًا». فاتّبع صَموئيلعليه السلام ما أمره الله به. وعندما جاء إلى بيت لحم اضطرب شيوخ البلدة وسألوه: «أجئت تطلب خيرا؟» فأجابهم: «ما جئتُ إلا للخير. لقد جئتُ لأقدّم أضحيةً إكراما

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 16: 1-13.

لله، فتطهَّروا وتحلّقوا معي حول الوليمة». ودعا يَسّى وأبنائه إلى الوليمة بعد أن طلب منهم التطهّر أيضا.

فلمّا حضر الجميع نظر النبي صموئيل إلى أليآب ابن يَسّى البكر، وقال في نفسه: «لا شكّ أنّه الملك الّذي اختاره الله». فأوحى الله إلى صموئيل عليه السلام: «لا تنشغل بجماله وطول قامته، فأنا رفضته، لأنّ ربّك لا ينظر إلى الأشياء كما ينظر إليها الإنسان. فالإنسان لا يتعدّى بصره ظواهر الأمور، أمّا ربّك فعليم بذات الصدور».[1] ثمّ طلب يَسّى من ابنه أبيناداب أن يمرّ أمام النبي صموئيل، ففعل. فردّ عليه السلام: «كلاّ، لم يختره الله». ثمّ طلب يَسّى من ابنه شَمّة أن يمرّ أمام النبي صموئيل، ففعل. فقال النبي صموئيل: «كلاّ، لم يختره الله أيضا». ومرّ أبناء يسّى السبعة، واحدا تلو الآخر، أمام النبي صموئيل، فقال لِيسَّى: «لم يختر الله أحدًا من أبنائك الحاضرين». ثمّ أضاف عليه السلام: «أهؤلاء جميع بنيك؟» فأجابه: «بقي ابني الصغير فقط، فهو في المرعى الآن مع الغنم». فقال عليه السلام: «استدعِه في الحال، لأنّنا لا نأكل حتّى حضوره». فأرسل أحدا ليأتي بداود الصغير عليه السلام، وكان داود وسيمًا ولونه مشرقًا وعيناه تشعّان بريقًا. فأوحى الله إلى النبي صموئيل: «عجّل وامسحْهُ بالزيت، إنّه الملك الذي اخترتُه». فأخذ النبي صموئيل قرن الزّيت ومسح داود ملكًا أمام إخوته، فحلَّت عليه الروح الإلهية بقوّة منذ ذلك اليومِ. ثمّ عاد النبي صَموئيل إلى بلدة الرّامة.

داود عليه السلام في قصر الملك طالوت[2]

وفارقت الروح الإلهية الملك طالوت، وحلّ محلّها مسّ من الشيطان أصابه بإذن الله تعالى. فأعلمه رجال حاشيته قائلين: «لقد أذن الله لشيطان أن يصيبك بمسّ، فإن أردت يا مولانا، نبحث لك عن رجل يُتقن الضّرب على العود، حتّى إذا ما اعتراك مسّ من هذا الشيطان، يضرب لك على العود فتصبح أحسن حالاً». فامتثل الملك

(1) قارن صحيح مسلم، فقد جاء فيه حديث عن أبي هريرة: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صُوَركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم.» كتاب البر والصلة والأداب، حديث رقم 2564.
(2) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 16: 14–23.

طالوت لطلبهم، وقال: «ابحثوا عن رجل يتقن الضّرب على العود وائتوني به حالاً». لكن أحد حاشيته بادره قائلاً: «لقد رأيتُ أحد أبناء يسَّى من بيت لحم يتقن الضّرب على العود، وهو شجاع ومقدام في الحرب، ولسانه فصيحٌ وحسنه أخّاذ، ومؤيّد من الله». وفي الحال أرسل الملك طالوت إلى يَسّى من يقول له: «أريد منك أن ترسل إليّ ابنك داود راعي الغنم». فوافق يَسّى على طلب الملك طالوت وحمّل دابّة بالخبز والشراب وأرفقها بجدي، وأرسلها إليه هدية مع ابنه داود. وعندما وصل داود عليه السلام إلى الملك بدأ في خدمته. فأحبّه الملك كثيرًا وجعله حامل سلاحه. وأرسل الملك طالوت إلى يَسّى مَن يقول له: «اترك داود في قصري، لأنّه متفان في خدمتي وينعم برضاي». وكان كلّما حلّ المسّ الشيطاني بأمر من الله في ذات الملك طالوت يأخذ النبي داود عوده ويضرب عليه، فيتخلّص منه الملك ويصبح أفضل حالاً.

جالوت يتحدّى عباد الله[1]

وحشد أهل فلسطيا جيوشهم ليوقدوا نار الحرب على بني يعقوب، واجتمعوا في بلدة سوكوه، في أرض يَهوذا، ونزلوا بين سوكوه وعزيقة في أفس دمّيم. واجتمع الملك طالوت وجيشه ونزلوا في وادي البُطْم واصطفّوا لمحاربة جيوش أهل فلسطيا. ووقفت صفوف العدو على جبل، ووقف رجال الملك طالوت على جبل مقابل لهم، وفصل بينهم الوادي. ومن صفوف العدو خرج رجل مبارز يدعى جالوت من مدينة جَتّ، طوله ستّ أذرُع وشِبرًا، وعلى رأسه خوذة من نحاس، وارتدى درعًا يزن حوالي ربع قنطار سوري مصفحًا بالنحاسٍ، وغطى ساقيه بصفائح نحاسية. وحمل على كتفه رمحًا نحاسيا، له قناة سميكة ورأس من حديد يزن رطلين. ومعه رجل يحمل تُرسه. فوقف ونادى صفوف جيش الملك طالوت وقال لهم: «لماذا تصطفّون جميعًا لمحاربتي؟ أنا مبارز أهل فِلسطيا، أمّا أنتم فمجرّد عبيد لطالوت! فاختاروا من بينكم رجلاً ينازلني. إن بارزني ولقيت مصرعي على يديه صِرنا لكم عبيدًا، وإن هزمتهُ وقتلتُه تصيرون لنا عبيدًا وتخدموننا. يا بني يعقوب إنّي أتحدّى صفوفكم اليوم! فهل

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 17: 1-11.

بينكم من يستطيع مبارزتي؟» فسمع الملك طالوت وجميع رجاله تحدي جالوت لهم، فانتابهم خوف شديد.

داود عليه السلام في معسكر الملك طالوت[1]

وكان جالوت يتحدّى صفوف جيش الملك طالوت أربعين يومًا صباحًا مساءً. وذات يوم، طلب يَسّى من ابنه داود عليه السلام، قائلا: «خُذ لإخوتك قفّة من هذا الفريك وهذه الأرغفة العشرة وأسرع إليهم في المعسكر. وخُذ هذه الجُبنات العشر لقائد الألف، واسأل عن سلامة إخوتك وجئني بعلامة تؤكّد سلامتهم». وكان إخوة داود عليه السلام مع الملك طالوت وجيشه في وادي إيلة يواجهون جيوش العدو.

وفي الصباح الباكر، أوكل داود عليه السلام غنمه إلى مَن يحرسها، وحمل الطعام ومضى كما أمره أبوه، ولمّا وصل إلى المعسكر كان الجنود قد اصطفوا هاتفين للحرب. ووقف جيوش الطرفين في صفوف متقابلة بينما أودع داود عليه السلام الطعام الّذي معه عند المسؤول عن الإمدادات العسكرية، وأسرع إلى صفوف المقاتلين يسأل عن سلامة إخوته. وظهر جالوت من بين صفوف جيشه وصاح كعادته، وكان داود عليه السلام حينها يكلّم إخوته، فسمع صياحه.

ولمّا رآه رجال جيش الملك طالوت ولّوا هاربين وقد انتابهم خوف شديد. وقالوا لبعضهم بعض: «انظروا إلى هذا الرجل القادم إلينا متحدّيًا جميع رجال بني يعقوب! إنّ مَن يقتله يكافئه الملك، ويزوّجه ابنته، ويُسقط الضرائب عن أهل بيته». فتقدّم داود عليه السلام وقال للحاضرين: «ماهي المكافأة الّتي يحصل عليها مَن يقتل جالوت ويبعد العار عن قومنا؟ ومَن يخال نفسه هذا الوثني، حتّى يتحدّى صفوف جيوش بني يعقوب الذين يعبدون الله الحيّ القيّوم؟» فأعادوا على سمعه قيمة المكافأة التي وعد بها الملك، وقالوا: «هذه مكافئة مَن يقتل هذا المتجبّر». فسمع أليآب البكر ما دار من حديث بين داود عليه السلام وبقية الرجال، فحنق عليه وسأله: «ما الّذي جاء بك إلى هنا؟ وإلى مَن أودعت

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 17: 16-40.

في البراري شويهاتك؟ أنا أعرف غرورك وخبث قلبك. جئتَ لتتمتّع بمشاهدة الحرب». فأجاب داودعليه السلام: «ما الّذي بدر مني؟ ألا يحقّ لي الحديث؟» وتركه واتّجه إلى الناحية الأُخرى وسأل مَن وجدهم السؤال نفسه فأجابوه الجواب نفسه.

وسمع بعضهم كلام داودعليه السلام، فحدّثوا به الملك طالوت، فطلب منهم أن يستدعوا داود في الحال. ولمّا قدم داودعليه السلام قال للملك طالوت: «لا يفزع قلب أحد بسبب هذا الوثنيّ. أنا أحاربه يا مولاي». فأجابه الملك: «لا يمكنك أن تقاتله، لأنّك فتًى صغير وهو متمرّس بالحرب منذ صِباه». لكنّ داودعليه السلام أجابه: «يا مولاي أنا أرعى غنم أبي، وكلّما خطف أسدٌ أو دبٌّ شاةً من القطيع، ركضتُ وراءه وضربتُه وخلّصتُها من قبضته، وإذا هجم عليّ أمسكتُه من ذقنه وضربتُه حتّى الموت. وسأقتل هذا الوثنيّ كما كنتُ أفعل بهذا الأسد أو ذاك الدبّ، لأنّه تحدّى صفوف جيوش بني يعقوب الذين يعبدون الله الحيّ القيّوم». ثمّ أردف داودعليه السلام قائلا: «إنّ الله الّذي نجاني من قبضة الأسد والدبّ، ينجيني من هذا الوثنيّ». فأجابه الملك: «إذهبْ، وليحرسك الله أينما توجّهت». وزوّده بمعداته العسكرية، وألبسه خوذةً من نحاس، وكساه دِرعًا. وأخذ داودعليه السلام سيف الملك طالوت ووضعه فوق عدّته العسكرية، وأراد أن يخطو فلم يجد سبيلا إلى ذلك، لأنه لم يرتدِ عُدّة ثقيلة كهذه من قبل. فقال للملك طالوت: «يا مولاي، لا يمكنني أن أخطو بكلّ هذه الأثقال لأنّي لم أعهدها من قبل». ونزع داودعليه السلام كلّ ما ارتداه من عدّة. وأخذ عصاه، وانتقى خمسة حجارة ملساء من الوادي ووضعها في جرابه، وأخذ مقلاعه وقصد جالوت.

الملك طالوت يسأل عن داودعليه السلام[1]

وعندما خرج داودعليه السلام لقتال جالوت، رآه الملك طالوت، فسأل عنه قائد جيشه أبنير قائلا: «ابن مَن هذا الشاب يا أبنير؟» فأجابه: «صدّقني يا مولاي أنا لا أعرف عنه شيئًا».[2] فأجابه الملك: «اسأل عنه حالًا».

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 17: 55-56)

(2) رغم أنّ الملك طالوت رأى داود سابقا، لم يعر له اهتماما، ولكن في تلك اللحظة أراد أن يعرف

داود عليه السلام يواجه جالوت[1]

وتقدّم جالوت مرفوقا بحامل تُرسه، واقترب من داود عليه السلام. وتطلّع فيه واستخفّ به لأنّه كان في نظره مجرّد شابّ يانع متوقّد اللون. وقال له: "هل تخالني كلبًا حتّى تجيئني بعصاك؟" ولعنه بآلهته. وأضاف قائلا: "اقترب مني لأجعل لحمك فريسة للطيور والوحوش!" فأجابه داود عليه السلام: "أنت تستعين بالسيف والرمح والترس، أمّا أنا فأستعين باسم الله العزيز القدير، الّذي يعبده جيش بني يعقوب، وقد تحدّيتَه أنت. وفي هذا اليوم ينصرني الله عليك، فأقتلك وأقطع رأسك، وأقدّم جنودك جثثًا إلى الطيور والوحوش، حتّى يعلم العالمون أنّ ربّنا هو الحقّ، وهو الحيّ القيّوم، ويعلَم الحاضرون أنّ الله لا يحتاج إلى سيف ورمح حتّى ينجي عباده، ولن نقاتلكم لكنّ الله يقاتلكم، وإنّنا بعونه تعالى عليكم لمنتصرون!"

وهبّ جالوت لمبارزة داود عليه السلام، الذي اندفع نحوه مسرعًا وقد تسلّلت يده إلى الجراب فأخذ منه حجرًا وقذفه بالمقلاع فانغرز في جبهة جالوت، فوقع على وجهه أرضًا. وهكذا هزم داود عليه السلام جالوت بالمقلاع والحجر، فأصابه وقتله. ولم يكن داود يحمل سيفًا في يده، لذلك اندفع نحو جالوت ووقف فوقه، وافتك منه سيفه من غمده، ثمّ قتله وفصل رأسه عن جسده. ولمّا رأى جيش العدو محاربهم الجبّار وقد لقي مصرعَهُ، ولّوا هاربين. وهجم بنو يعقوب بكلّ عشائرهم هاتفين بالحرب ولاحقوا الجيوش المنهزمة حتّى بوّابات مدينتي جَتَّ وعَقرون. ثمّ توقّف رجال بني يعقوب عن مطاردة الجنود الفارين ونهبوا معسكرهم.

ولمّا عاد داود عليه السلام محملا برأس جالوت، أدخله أبنير على الملك طالوت الذي سأله في الحال: «مَن يكون أبوك أيّها الشاب؟» فأجابه داود عليه السلام: «يا مولاي، أنا ابن يَسّى من بيت لحم».

عنه المزيد.

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 17: 41–54.

الصداقة بين النبي داود ويوناثان[1]

ولمّا فرغ داودعليه السلام من كلامه مع الملك طالوت انجذب قلب يوناثان ابن الملك إلى داود وأحبّه في الله كنفسه. ومنذ ذلك اليوم طلب الملك من داودعليه السلام أن يقيم معه، ومنعه من العودة إلى بيت أبيه. وأقسم يوناثان لداودعليه السلام بصداقة أبديّة لأنّه أحبّه كنفسه، وكعهد على صداقتهما خلع يوناثان عباءته وقدّمها لداودعليه السلام هدية مع درعه وسيفه وقوسه وحزامه. وكان داودعليه السلام يتألق في كلّ مهمّة يكلفه بها الملك مهما اختلفت واستعصت. وهكذا جعله الملك طالوت قائدًا على قوّاته الخاصّة. ورضي كلّ القادة ورجال الجيش عن هذه الترقية.

الملك طالوت يغار من داودعليه السلام[2]

لمّا عاد الملك طالوت وجنوده من الحرب منتصرين على جالوت، ومعهم داود عليه السلام، خرجت النساء من جميع مدن بني يعقوب للقائهم يغنّينَ في فرح، ويرقصنَ على ايقاع الدفوف وآلات الطرب، ويردِّدنَ مهللات: «هزم الملك طالوت الألوف، وهزم داود عشرات الأُلوف!» فاستشاط الملك طالوت غضبًا وساءه هذا الكلام، وقال: «لقد جعلْنَ لداود عشرات الألوف، وجعلْنَ لي ألوفًا فقط! وبعد، لم يبق لداود إلاّ أن يستولي على عرشي!» ومنذ ذلك اليوم أضمر الملك طالوت الشرّ لداودعليه السلام.

وفي الغد حلّ على الملك طالوت مسّ شيطاني بإذن الله، جعله يهذي داخل بيته. فاقترب منه داودعليه السلام وأخذ يعزف كما تعوّد أن يفعل في هذه الحالة. وفي الأثناء كان الملك طالوت يحمل في يده رمحًا، فصوّبه نحو داودعليه السلام مرّتين لأنّه أراد أن يسمّره على الحائط. وفي المرّتين تنحّى عنه داودعليه السلام.

وانتاب الملك خوف شديد من داودعليه السلام لأنّه صار مؤيّدا من الله، في حين رفع الله تأييده عن الملك. وأبعد الملك طالوت داودعليه السلام عنه وجعله برتبة قائد ألف جندي

---

(1) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 18: 1–5.

(2) استنادا إلى كتاب النبي صموئيل الأول 18: 6–16.

فقط، ورغم ذلك ظلّ داود يقود رجاله بكلّ إخلاص وأمانة. وكان ينجح في كلّ مهمّة يقوم بها لأنّه كان مؤيّدًا من الله. ولاحظ الملك طالوت تألق داودعليه السلام فانتابه رعب شديد. وأمّا جميع بني يعقوب - من السامرة في الشمال إلى يَهوذا في الجنوب - فقد أحبّوا داودعليه السلام، لأنّه كان قائدًا شجاعا، يقودهم إلى النصر في كلّ معاركه.

الملك طالوت يطارد داودعليه السلام(1)

وأخبر الملك طالوت ابنه يوناثان وجميع حاشيته أنّه عزم على الفتك بداودعليه السلام. وكان يوناثان شديد التعلّق بداودعليه السلام، فأخبره قائلا: «لقد عزم أبي على الفتك بك فكن حذرا. وعليك أن تمكث في مكان آمن في الحقول بداية من صباح الغد. أمّا أنا فسأخرج إلى هناك مع أبي، وسأكلّمه بشأنك وأرى ما سيحصل معه ثمّ أخبرك».

وفي الغد، مدح يوناثان داودعليه السلام كثيرا أمام أبيه، قائلاً: «يا مولاي، أرجو ألاّ تخطئ في حقّ داود الذي يخدمك، فهو لم يُسئ إليك مطلقا، وكلّ ما يقوم به كان لصالحك. لقد خاطر بحياته وفتك بجالوت الجبّار، فنصر الله بني يعقوب نصرًا مبينا. وقد رأيتَ ذلك وابتهجتَ به، فلماذا تسفك دمًا بريئًا وتقتل داود بغير حقّ؟» فسمع الملك طالوت كلام ابنه يوناثان وقال: «أقسم بالله الحي القيّوم، لن أسمح بقتل داود». فأخبر يوناثان داودعليه السلام بكلّ ما حصل وأحضره إلى الملك، وشرع في خدمته كما كان يفعل سابقًا.

واندلعت الحرب من جديد، فخرج داودعليه السلام وحارب جيوش أهل فلسطيا وألحق بهم هزيمةً شنيعة، فولّوا هاربين. وذات يوم اعترى الملك طالوت مسّ شيطاني بإذن الله مرّة ثانية وهو في قصره، وكان حينها يحمل رمحه في يده، أمّا داودعليه السلام فكان يعزف على عوده. فحاول الملك أن يصوّب رمحه نحو داود، لكنّ داود تنحّى جانبًا، فانغرز الرمح في الحائط. وفي تلك اللّيلة هرب داودعليه السلام ونجا بحياته.

لكنّ الملك أرسل بعض جنوده إلى بيت داودعليه السلام ليتربّصوا به حتّى يقتلوه صباحًا

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الأول 19: 1-24.

عند خروجه. لكنّ ميكال ابنة الملك طالوت أخبرت زوجها داود، قائلة: «إذا لم تهرب هذه الليلة فستموت غدًا». وبمساعدتها هرب داودعليه السلام من النافذة ونجا بحياته. ثمّ مدّدت تمثالاً على سريره، ووضعت فوق رأسه نسيجا رقيقا من شعر المعز وغطّته بلحاف. وعندما أرسل الملك جنوده ليقبضوا على داودعليه السلام أخبرتهم ميكال أنّه مريضٌ. لكنّ الملك أرسل جنوده مرّة أخرى قائلا: «ائتوني به في فراشه لأقتله!» فعاد الجنود من جديد ورأوا التمثال ممدّدًا على السرير، ونسيج رقيق فوق رأسه.

فاستدعى الملك ابنته ميكال، وقال لها: «لماذا خدعتني وأطلقتِ عدوّي لينجو؟» فأجابته: «لأنّه هدّدني بالقتل إن لم أساعده!» وهكذا نجا داودعليه السلام بحياته واتّجه إلى النبي صَموئيلعليه السلام في بلدة الرامة وأخبره بكلّ ما فعله به الملك طالوت. ثمّ رحلا معًا وأقاما في قرية نايوت. وبلغ الملك أنّ داودعليه السلام في تلك القرية قُرب بلدة الرامة. وفي الحين أرسل جنودًا ليقبضوا عليه، وعندما وصلوا، رأوا جماعة من المتصوّفين منجذبين بالروح ويترأسهم النبي صَموئيلعليه السلام، فحلّت روح الله على جنود الملك طالوت، فانجذبوا بالروح أيضًا وفشلوا في مهمّتهم. ولمّا علم الملك بالأمر أرسل آخرين فانجذبوا بالروح أيضًا. وعاد للمرّة الثالثة فأرسل سِواهم فانجذبوا أيضًا. فذهب الملك طالوت بنفسه إلى الرامة، وعند البئر العظيمة الواقعة في بلدة سيخو، سأل عن النبي صموئيل وداود(عليهما السّلام) فأخبروه: «إنّهما هناك في قرية نايوت قرب بلدة الرامة». وبينما كان الملك طالوت في طريقه إلى نايوت، حلّت عليه روح الله فجأةً، فانجذب بها طوال الطريق. وخلع عنه ثيابه وهو منجذب بالروح أمام النبي صموئيل، وانبطح على الأرض عاريًا طيلة ذلك اليوم بنهاره وليله، ثمّ عاد إلى رشده. لذلك يقال: «أيعقل أن يكون طالوت من المنجذبين؟»

يوناثان يساعد داودعليه السلام على الفرار[1]

ترك داودعليه السلام قرية نايوت قرب بلدة الرّامة هاربا، والتقى بيوناثان، فقال له: «ما الجرم الّذي ارتكبتُه؟ وهل أسأتُ إلى أبيك حتّى يطلب قتلي؟» فأجابه يوناثان: «أبدًا،

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الأول 20: 1–42.

لن تموت. فأبي لا يفعل كبيرة ولا صغيرة، دون أن يخبرني بها، فكيف يخفي عني أمرًا كهذا؟ إنّ ما تخبرني به لا يمكن أن يحدث!» فأجابه النبي داود: «إنّ أباك يعلم علم اليقين أنّي صديقك الحميم، فلا يريد أن يطلعك على ما عزم عليه، لئلاّ تحزن. وأقسم لك بالله وبحياتك، أنّه لم يكن يباعد بيني وبين الموت سوى خطوة واحدة». فأجابه يوناثان: «كيف أستطيع مساعدتك؟ فلن أتوانى عن ذلك لحظة!» فأجابه داود عليه السلام: «غدًا الاحتفال بظهور الهلال، وينبغي أن أتناول وليمة هذه المناسبة مع أبيك كما تعوّدت أن أفعل دائما، ولكن دعني أختبئ في الحقول إلى مساء اليوم الثالث. فإن سأل عنّي أبوك، أخبره: «لقد استسمحني في الذهاب إلى بلدته بيت لحم لحضور الأضحية السنويّة مع عشيرته». فإن أجابك: «حسنًا» أكون في أمان، وإن غضب، فاعلم أنّه عزم على قتلي. فيا صديقي، افعل معي هذا المعروف، لأنّك عاهدتَني في وقت سابق عهد الأُخوّة باسم الله، وإن كنتُ مذنبا، فاقتلني أنت ولا تسلّمني إلى أبيك». فأجابه يوناثان: «لن يلحقك أي مكروه! وإذا علمتُ أنّ أبي يضمر لك شرّا، فكيف لا أخبرك؟» فأجابه داود عليه السلام: «لكن كيف أعلم غضب أبيك عليّ؟» فقال يوناثان: «دعنا نخرج إلى الحقل معًا». وخرجا.

وقال يوناثان لداود عليه السلام: «سأستوضح هذا الأمر من أبي، وكفى الله الّذي يعبده بنو يعقوب شهيدا على ما أقول. وغدًا أو بعد غدٍ، في مثل هذه الساعة سأُخبرك إن كان أبي حقّا يضمر لك خيرا. أمّا إذا أضمر لك شرّا، ولم أخبرك فليهلكني الله! وسأدعك تذهب في أمان الله، وليحرسك كما كان يحرس أبي. وإن اعتليتَ عرش بني يعقوب وأنا على قيد الحياة، فكُن أمينًا لعهدك لي باسم الله، وإن مُتّ فلا تقطع إحسانك لأهل بيتي أبدًا، حتّى لو أنزل الله عقابه على أعدائك وأهلكهم جميعا. هذا عهد أبدي بيننا، ولينزل الله عقابه على كل أعداء داود». ومرّة أخرى أقسم يوناثان لداود عليه السلام بحبه الكبير، لأنّه أحبّه في الله كحُبّه لنفسه.

ثمّ قال يوناثان لداود عليه السلام: «غدًا نحتفل بظهور الهلال، وغيابك سيكون بارزا لأنّ مقعدك شاغر. وبعد غدٍ سيُلاحَظ غيابك أكثر، فاذهب إلى مخبئك السابق، وانتظرني قرب كومة الحجارة. وسأصوب نحوها ثلاثة أسهم كأنّي حسمت الهدف نحوها.

وبعد ذلك أطلب من خادمي أن يذهب ويلتقط السهام. فإن قلتُ له: «السهام إلى جانبك فالتقطها»، فإني أعني أنّك في أمان وأقسم لك بالله الحيّ القيّوم على ذلك، فأقبل عليّ حينها ولا تخش شيئا. وإن قلتُ لخادمي: «السهام أمامك فالتقطها»، عليك أن تهرب، لأنّ أمر الله مقضي. وكفى الله شهيدا إلى الأبد على العهد الّذي قطعناه بيننا».

ولمّا حلّ ظهور الهلال مكث النبي داود في الحقل، أمّا الملك فقد جلس على كرسيّه عند الحائط للطعام كما تعوّد، وجلس يوناثان قبالته واتّخذ أبنير مقعدا إلى جانب الملك، أمّا مقعد داود عليه السلام فكان شاغرًا. وفي ذلك اليوم لم ينبس الملك طالوت بكلمة عن غياب داود عليه السلام، لأنّه قال في نفسه: «ربّما أصابته جنابة، لا شكّ أنّه غير طاهر». وفي اليوم الموالي خلا مقعد النبي داود أيضًا، فقال الملك طالوت لابنه يوناثان: «لماذا تغيّب داود البارحة واليوم ولم يشاركنا الطعام؟» فأجابه يوناثان: «لقد استأذنني إلى بيت لحم لأنّ أخاه أوصاه أن يحضر حتّى يشارك عشيرته في أضحية يقدّمونها. فسمحتُ له بالذهاب، لذلك تغيّب البارحة واليوم».

ومن شدّة الغضب صرخ الملك طالوت في وجه ابنه يوناثان، قائلا: «كأنّك لستَ ابني يا الخائن! أتحسبُني لا أعلم أنّك في صفّ داود ابن يَسّى؟ ستجلب الخزي والعار لنفسك ولأمّك! فما دام ابن يَسّى على قيد الحياة، فلا يمكن أن تصبح ملكا من بعدي! والآن أرسِلْ مَن يحضره إلى هنا حالا، لأنّي عزمت على قتله». فأجابه يوناثان: «لماذا تريد قتله؟ ما الّذي فعله حتّى تحكم عليه بالموت؟» فصوّب الملك طالوت الرمح نحو ابنه يبغي طعنه. وهكذا تأكّد يوناثان أنّ أباه عازم على قتل داود عليه السلام. وفي الحين قام عن المائدة وقد احتدم غيظه، ولم يأكل في ذلك اليوم، لأنّ الخوف انتابه على صديقه داود، ولم يرض بالإهانة التي لحقته من أبيه.

وفي صباح اليوم التالي، اصطحب يوناثان خادما صغيرا وخرج إلى الحقل للقاء داود عليه السلام كما اتّفقا. وعند وصولهما قال يوناثان لخادمه: «عجل والتقط السهام الّتي أطلقها». وصوّب يوناثان سهما سقط أمام خادمه. ولمّا بلغ الخادم موضع السهم ناداه يوناثان قائلاً: «عجل! فالسهم أمامك». ثمّ قال له: «أركض بسرعة! لا تتوقّف!»

فالتقط الخادم السهم وعاد إلى سيّده مسرعا. ولم يكن الخادم يعلم كلّ ما يدور حوله، بل كان يوناثان وداودعليه السلام فقط يعلمان بكل ما يجري. ثمّ سلم يوناثان سلاحه إلى خادمه وقال له: «اِحمل هذا السلاح وعد إلى المدينة». ولمّا انصرف الخادم ظهر داودعليه السلام من وراء كومة الحجارة وانحنى أمام يوناثان ثلاث مرّات. ثمّ تعانقا وبكيا. وبكى داودعليه السلام طويلاً. وأخبره يوناثان قائلا: «اذهب في أمان الله. وكفى الله شهيدا على وعد الوفاء بيني وبينك، وبين ذريّتي وذريّتك».

داودعليه السلام يعفو عن الملك طالوت[1]

لمّا عاد الملك طالوت من مطاردة أهل فلسطيا، بلغه أنّ داودعليه السلام يقيم في صحراء عين جدي.

فاختار ثلاثة آلاف محارب من جيش بني يعقوب، وسلك طريقا شرقيّ المكان الذي يعرف بصخور الوعول بحثا عن داود ورجاله. وعندما وصل إلى حظائر الغنم المحاذية لطريقه، دخل مغارة ليقضي حاجته. وفي الأثناء كان النبي داود ورجاله مختبئين داخل المغارة، فهمس له رجاله: «يا مولاي، اليوم يومك كما أخبرك الله، إذ أوحى إليك: في هذا اليوم أسلِّم عدوّك إلى يدك فتفعل به ما تشاء». فتسلّل داودعليه السلام وقطع طرف جبّة الملك طالوت في غفلة منه. لكنّ ضميره أنّبه لاحقًا وندم عن فعلته، وقال لرجاله: «حرام عليّ أن أفعل هذا بمولاي طالوت، وأسيء إلى مَن اختاره الله ملكًا». وردع رجاله، ومنعهم من الهجوم على الملك طالوت. وبعد فترة خرج الملك طالوت من المغارة ومضى في طريقه.

فناداه داودعليه السلام: «يا مولاي الملك!» ولمّا التفت الملك طالوت خلفه، انحنى داودعليه السلام احتراما، وقال له: «لماذا تصدّق القائلين أنّي أريد أذيّتك؟ لقد رأيتَ اليوم بأمّ عينك أنّ الله أسلمك إلى يدي في المغارة، وطلب مني رجالي أن أقتلك، ولكنّي رحمتك وقلتُ: «لا أرفع يدي على مولاي الّذي اختاره الله ملكًا». فانظُرْ إلى يدي يا

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الأول 24: 1–22.

مولاي، إنّ فيها قطعة قماش من جبّتك. لتعلم علم اليقين أنّي لا أُضمر لك شرًّا ولا خيانةً. ولم أُذنب في حقّك، مع أنّك تطاردني لتقتلني. فليكن الله حَكَمًا بيني وبينك ولينزل عليك عقابه، أمّا أنا فلن أؤذيك. كما جاء في المَثل القديم: «مِن الأشرار يخرج الأضرار»، لذلك لن أسيء إليك.

فمَن تطارد إذن؟ ووراء مَن خرجتَ تسعى؟ أنا لا أستحقّ كلّ هذا الاهتمام فقيمتي لا تتعدّى قيمة كلب ميّت أو برغوث، فلماذا تطاردني؟ فليحكم الله بيني وبينك، ويستجب لدعوتي ويدافع عني وينقذني من سطوتك».

وجاء صوت الملك طالوت قائلاً: «أهذا أنت يا داود يا بُني؟» ورفع صوته بالبكاء. ثمّ قال لداودعليه السلام: «أنت أفضل منّي، لقد جازيتَني خيرًا في حين جازيتُك شرًّا. وما حدث بيني وبينك اليوم عظيمٌ، لأنّ الله وضعني بين يديك ولم تقتلني. فأيّ رجل أنت؟ لقد وقع عدوّك في قبضتك وعفوتَ عنه! ألا جازاك الله خيرًا لِما فعلتَه اليوم! والآن تيقّنتُ أنّك الملك الذي يعتلي العرش من بعدي، وأنّ مملكة بني يعقوب تثبت في حكمك. فأقسم لي الآن بالله أنّك عندما تستلم الحكم لا تقطع نسلي، ولا تمحو اسمي». فأقسم له داودعليه السلام على ذلك. واتّجه الملك طالوت إلى بيته، أمّا داودعليه السلام فعاد مع رجاله إلى مخبئه في المغارة.

مصرع طالوت وأبنائه(1)

وهاجم الوثنيون من بلاد فِلسطيا بني يعقوب، وألحقوا بهم هزيمة ذريعة، ولقي معظمهم مصرعه في جبل جِلبوع. وطاردت جيوش الوثنيين الملك طالوت وقتلوا أبناءه الثلاثة: يوناثان وأبيناداب ومَلكيشوع. واشتدّ وطيس الحرب على الملك طالوت، وفاجأه الرّماة بالسهام من كلّ صوب، فاستولى عليه رعب شديد، فقال لحامل سلاحه: «اطعنّي بسيفك لكي لا يعذّبني الوثنيون ويُنكلوا بي». لكن حامل سلاحه رفض طلبه، لأنّ الخوف استبدّ به. فغرس الملك طالوت سيفه وارتمى عليه.

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الأول 31: 1–13.

ولمّا رأى حامل سلاحه أنّ سيّده قد مات، غرس سيفه وارتمي عليه فمات أيضا. وهكذا مات الملك طالوت وبنوه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله في يوم واحد. وعلم بنو يعقوب المقيمون في الجانب الآخر من وادي يزرَعيل وفي الضفة الشرقيّة من نهر الأُردنّ، أنّ جنودهم قد فرّوا وأنّ الملك طالوت مات مع أبنائه. ففرّوا جميعًا تاركين مدنهم. فجاء الوثنيون واحتلّوا هذه المدن.

وعاد الوثنيون في اليوم الموالي لسلب الموتى، فوجدوا الملك طالوت وبنيه الثلاثة قتلى في جبل جِلبوع. فقطعوا رأس الملك طالوت ونزعوا سلاحه، وطافوا به يُبشّرون في معابدهم وفي كلّ بلاد فلسطيا بالخبر. ووضعوا سلاحه في معبد الإلهة عَشتاروت، وعلّقوا جثته على سور مدينة بيت شان. وبلغ خبر ما فعله الوثنيون بالملك طالوت أهل يابيش في جِلْعاد، فخرج كلّ شجاع منهم ليلاً، واتّجهوا نحو سور مدينة بيت شان، وأخذوا جثة الملك طالوت وجثث بنيه الثلاثة، وحملوهم إلى يابيش وأحرقوهم هناك. وأخذوا العظام ودفنوها تحت شجرة الأثْلة في يابيش، وصاموا سبعة أيّام.

النبي داود يعتلي عرش بني يعقوب[1]

وأقبلت قبائل بني يعقوب إلى داودعليه السلام في مدينة حَبرون، وقالوا له: «أنت ونحن من دم واحد. وحين كان طالوت ملكًا علينا، كنت القائد الحربي لقومنا، وقد أوحى الله إليك: أنت ترعى عبادي وتكون قائدهم». وأقبل شيوخ بني يعقوب على النبي داود في حَبرون، فعاهدهم أمام الله، فمَسحوه بالزيت علامة على أنّ الله اختاره ملكًا على آل يعقوب. وكان داودعليه السلام قد بلغ الثلاثين من عمره عندما اعتلى عرش المملكة، وحكم أربعين سنة. واستقرّ في مدينة حَبرون ودام حكمه سبع سنين وستّة أشهر حكم خلالها بلاد يَهوذا فقط، ثمّ انتقل إلى القدس حيث حكم بلاد يَهوذا والسامرة معًا ثلاثا وثلاثين سنة أخرى.

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الثاني 5: 1-5.

فتح القدس[1]

وزحف داود عليه السلام وجيشه على القدس ليحارب الوثنيين المقيمين فيها، أي اليبوسيين. فظنّوا أنّه لن يقدر أن يدخلها، فسخروا منه قائلين: «يا داود، لا يمكنك أن تدخل إلى هنا، فحتّى العُمي والعرج يصدّونك!» وقال عليه السلام يوم المعركة، «من يريد أن يهزم اليبوسيين، فيجب أن يدخل إليها عن طريق قناة المياه، ليصل إلى أولئك العرج والعمي أعداء داود.» لذلك جاء القول المتداول: «لا يدخل أعمى أو أعرج إلى البيت.» وفتح داود عليه السلام الحصن في جبل تصيون، ثمّ أقام فيه، وسمّاه مدينة داود. وأمر ببناء تحصينات إضافية حوله، من القلعة إلى القصر. وكانت عظمته تزداد يوما بعد يوم، إذ كان الله العزيز القدير له خير نصير.

دخول صندوق الميثاق إلى القدس[2]

وعاد داود عليه السلام وجمع ثلاثين ألف جندي من نخبة جيشه، وانطلق بهم إلى قرية تُسمّى بَعلة في بلاد يهوذا لينقلوا صندوق ميثاق الله من هناك إلى القدس، وهذا الصندوق يحمل اسم الله العزيز القدير الذي استوى فوق حملة العرش. فَوَضَعوا الصندوق على عَرَبةٍ جَديدةٍ في بيت أَبِيناداب حيث كان، ورافقوه نازلين من التلّة. وكانَ من المفروض أن يرافق رجال الدين حمل الصندوق، ولكن عُزَّةُ وَأَخِيُّو ابْنا أَبِينَادَابَ هما اللذان ساقا عَرَبَةَ الصندوق، وسار أخيو أمام الصندوق، في حين كان النبي داود وَكُلُّ القوم يحتفلون بفرح كبير إكراما لله. وكانوا ينشدون أناشيد على أنغام العِيدان والرّباب والدُّفوف والصُّنوج والنّاقوس. ولمّا وصلوا إلى بيدر ناحون، عثرت الثيران التي تجرّ العربة، فمدّ عُزّة يده إلى صندوق الميثاق حتى يمنعه من السقوط. فاحتدم غضب الله عليه، وأهلكه في الحال بجوار الصندوق لأنّه خالف الشريعة التي تسمح لرجال الدين الأحبار فقط بلمس الصندوق ومرافقته. لذلك اغتاظ داود عليه السلام بسبب ما حدث مع عُزّة، وسمّى موقع هذا البيدر «ضرب عُزّة» واستمرّ

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الثّاني 5: 6–10.
(2) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الثّاني 6: 1–23.

هذا الاسم إلى يومنا هذا. وخاف داود من الله وسأل نفسه كيف يستطيع أن يأخذ صندوق الميثاق وينقله حتى يكون تحت رعايته في القدس. فقرّر ألاّ يأخذه إلى القدس، بل إلى بيت رجل غريب اسمه عُبيد أدوم من مدينة جتّ، حيث بقي ثلاثة أشهر، فبارك الله عُبيد وكلّ أهل بيته بسبب وجود الصندوق. وعندما بلغ هذا الخبر النبي داود، مضى إلى بيت عُبيد وأحضر الصندوق إلى حي مدينة داود في القدس مرفوقا باحتفال بهيج. وكلّما خطا حاملوا الصندوق ستّ خطوات، كان النبي داود يذبح ثورا وعجلا سمينا قربانا لله. وكان يرقص بكلّ حماس، مرتديا ثوب الكتّان الذي يلبسه رجال الدين. وهكذا نقل النبي داود وكلّ القوم صندوق الميثاق وسط الهتاف وصوت الأبواق. ولمّا وصل الصندوق إلى حي مدينة داود، أطلّت زوجته ميكال بنت طالوت من النافذة، وعندما رأت كيف كان داود يقفز ويرقص ليرضي الله، احتقرته في قلبها. ثمّ وضعوا الصندوق في المكان المخصّص له داخل خيمة بيت الله. وقدّم النبي داود أضاحي، أحرقها بأكملها إكراما لله تعالى. وذبح غيرها مِن الأغنام والأبقار قرابين للتقارب والمصالحة بين الحاضرين. وعندما فرغ من تقديم الأضاحي، طلب بركات الله على قومه باسم الله العزيز القدير. ووزّع على كل واحد من الحاضرين رغيف خبز وقرصا من البلح وآخر من الزبيب، ثمّ انصرفوا جميعا إلى بيوتهم.

وعاد النبي داود إلى بيته ليطلب بركة الله على أهله، فخرجت ميكال للقائه وقالت في سخرية: «ما أجلّ جلالة الملك اليوم، وهو يتعرّى أمام الجواري كما يفعل السفهاء!» أجابها داودعليه السلام: «كان ذلك إكراما لله الذي اختارني دون أبيك وكلّ أهل بيته، ليقيمني حاكما على قوم ميثاقه. وأنا مستعدّ أن أتصاغر أكثر من ذلك أمام الله. ربّما أبدو وضيعا في نظرك، لكنّي في نظر الجواري اللواتي ذكرتِ، أزداد شرفا ورفعة.» ولم تُنجب ميكال ابنة طالوت إلى يوم وفاتها.

وعد الله لداودعليه السلام[1]

ولمّا استقرّ داودعليه السلام في قصره - لأنّ سلامًا من الله عمّ وهدأت الحرب - قال للنبيّ ناثان: «اُنظرْ، أنا أقيم في قصر فاخر من خشب الأرز، في حين نضع صندوق الميثاق[2] في خيمة». فأجابه النبي ناثان: «اِذهبْ وافعلْ ما تشاء، لأنَّ الله يؤيّدك». ولكنّ الله أوحى إلى النبي ناثان في تلك الليلة أن يذهب ويقول لداودعليه السلام، هذا قول الله: «هل تريد أن تبني لي بيتًا فيه أقيم؟ إنّي ما اتّخذتُ بيتا من حجارة مذ أخرجتُ بني يعقوب من مصر إلى هذا الحين، بل كنتُ أتجلّى لهم في خيمة يحملونها معهم حين يرتحلون. وطيلة هذا الوقت ما سألتُ رؤساءهمِ الّذين عيّنتهم ليرعوا قوم ميثاقي، لماذا لا تبنون لي بيتًا فاخرًا من خشب الأرز الثمين. فاسمع يا داود لقول العزيز القدير: إنّي أخرجتك من المراعي من وراء الأغنام، لتكونَ رئيسًا على عبادي بين الأنام، وكنتُ أؤيّدك حيثُما كنتَ تتنقل وتسير، وأهلكت جميع أعدائك. وجعلت اسمك عظيمًا كأسماء قادة الأرض العظام. واخترتُ مكانًا لعبادي فيه أثبّتهم فيعيشون بلا خوف آمنين، ورددت عنهم الأشرار كي لا يضطهدوهم كما كانوا من قبل يفعلون، يوم أقمتُ عليهم حكّامًا مناصرين. وجعلتك على عرش حكمك دون أعداء.[3] أنا الله أُخبرك أنّي أُقيم لكَ بيتًا، ومن ذرّيّتك يكون الحاكمون. وعندما تنتهي أيّام حياتك وتدفن في مرقدك مع آبائك الأوّلين، أقيم خلفًا لك من صُلبك وأثبت مُلكه. إنّ خلفك هو الذي يقيم لي بيتًا يُمجَّدُ فيه اسمي، وأُثبّت عرش مُلكه إلى أبد الآبدين. سأكون له في مقام الأب وهو يكون في مقام الابن، وإذا ارتكب سوءا أدّبته، أسلّط عليه شعوبا من الأعداء، فتقوّمه بضرباتها الصمّاء. ولكنّي لا أنزع عنه الوفاء، كما نزعتُه عن الملك طالوت الّذي أزحته من أمامك. أمّا أنت يا داود فأثبّت بيتك ومُلكك إلى أبد الآبدين، ويكون عرشك راسخًا على مدى السنين». وحدّث النبي ناثان داودعليه السلام بكلّ ما جاء في هذه الرؤيا.

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الثاني 7: 1-17.
(2) أشارت بعض الترجمات إلى صندوق الميثاق بـ "تابوت العهد".
(3) انظر سورة ص: 20.

دعاء داود عليه السلام[1]

دخل داود عليه السلام الحرم وجلس في حضرة الله وسبّح قائلا: «من أنا يا الله! يا مولاي، ومن أهل بيتي حتى أكرمتني هذا الإكرام العظيم! والآن يا الله! يا مولاي إنّك تزيد من نعمك عليّ، فقد وعدتَني أن يكون من نسلي ملوك في قادم السنين. فيا ربّي! هل تغمر دائمًا عبادك بهذا الفضل العميم؟ والآن فلا أستطيع أن أطلب منك ما يزيد على وعدك الكريم. يا الله، يا مولاي، إنّك سميع عليم.

يا ربّ إنّك فعلتَ هذا الأمر العظيم حسب ما جاء في وعدك ومقصدك الكريم، وقد كشفتَها الآن لي. سبحانك يا الله يا مولاي! لا شريك لك ولا إله إلاّ أنت، وكلّ ما سمعناه عنك يؤكّد هذا الأمر حقّ اليقين. ولا أمّة على وجه الأرض تضاهي قوم ميثاقك بني يعقوب، الّذين نجيتهم من العبودية في مصر ليكونوا من خاصّتك المخلصين، وكلّ الآيات الّتي أقمتها من أجلهم رفعتْ قدرك عاليًا، حيث طردتَ من أمامهم الشعوب وأصنامهم الّتي يعبدون، وجعلتَ بني يعقوب قوم ميثاقك على الدوام، وصاروا يعبدونك أنت يا ربّ الأنام. اللهمّ حقّق الآن وعدك الّذي وعدتَني ووعدت به نسلي، وأقمه إلى أبد الآبدين.[2] ليُرفع شأنك دائما، ويقول الناس أجمعون: «إنّ الله العزيز القدير يرعى بني يعقوب!» وليكن بيت عبدك داود ثابتًا إلى أبد الآبدين. أيّها العزيز القدير، يا من يعبده بنو يعقوب، لقد تجرأتُ أن أتوجّه إليك بهذا الدعاء لأنّي أنا عبدك وقد كشفتَ لي كلّ هذه الأمور، وأوحيت إليّ أنّك ستجعل أهل بيتي على عرش المملكة مدى العصور. والآن يا مولاي العظيم، أنت هو الله ووعدك حقّ يقين، وأنت الّذي وعدتَني خير وعد. وبفضلك الوافر بارك نسلي الآن، لينعم بفضلك على الدوام، فأنت يا مولاي وعدتَ أن تبارك عبدك، فلا بدّ أن تحلّ البركة عليّ وعلى ذرّيّتي على مدى السنين».

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الثاني 7: 18–29.

(2) انظر سورة الروم: 6. وتجدر الإشارة إلى أن هذا الوعد تحقّق نهائيا مع قدوم السيد المسيح.

داودعليه السلام ومفيبعل[1]

وفي أحد الأيام تذكّر داودعليه السلام العهد الذي أقامه مع يوناثان، وسأل نفسه إن كان أحد من بيت طالوت على قيد الحياة، فإنّه يحسِن إليه إكرامًا لعهدهما. وتذكّر داود عليه السلام أنّ عبدا اسمه صيبا خدم في قصر طالوت، فدعاه ذات مرّة وقال له: «يا صيبا؟» فأجاب: «لبّيك يا مولاي». فقال له: «ألا يزال أحد من بيت طالوت على قيد الحياة؟ إن وجدت منهم أحدًا فأُحسن إليه كما عاهدتُ الله.» فأجاب صيبا: «لقد ظلّ على قيد الحياة ولد ليوناثان فقط، وهو أعرج». فسألهعليه السلام: «أين هو الآن؟» فأجابه صيبا: «إنّه في بيت ماكير بن عَمِّيئيل في بلدة لودبار». فأرسل داودعليه السلام من يحضره في الحال.

فأقبل مَفيبَعل بن يوناثان بن طالوت إلى داودعليه السلام وانحنى أمامه احترامًا، فقال له عليه السلام: «يا مَفيبَعل». فأجاب: «لبّيك يا مولاي». فقال له النبي داود: «لا تخشَ شيئًا. إنّي أُحسن إليك إكرامًا لأبيك يوناثان، وأعيد إليك جميع مزارع جدّك طالوت، وأجعلك تأكل على مائدتي دائمًا». فانحنى مَفيبَعل أمامه وقال: «يا مولاي، لماذا تعيرني كلّ هذا الاهتمام؟ فأنت ملك وأنا لا أرقى إلى اهتمامك لأنّ قيمتي لا تتعدّى قيمة الكلب الميّت!»

فدعا النبي داود الخادم صيبا وقال له: «تعود كلّ أملاك طالوت وأهل بيته إلى حفيده مَفيبَعل. وأنت وبنوك الخمسة عشر وعبيدك العشرون تصيرون خداما في أرضه، لتوفّروا لأهل بيته طعام يومهم، في حين أجعل مَفيبَعل يأكل على مائدتي دائمًا». فأجاب الخادم صيبا: «لبّيك يا سيدي، إنّ ما أمرت به ينفذ حالا». ومنذ ذلك اليوم صار مَفيبَعل يشارك داودعليه السلام على مائدة الطعام في قصره كواحد من أبنائه. وأصبح أهل بيت صيبا كلّهم خدّاما لمَفيبَعل ولابنه الصغير ميكا. وانتقل مفيبعل إلى القدس ليستقرّ مع داودعليه السلام في القصر، وحرص أن يتناول معه الطعام دائما على مائدته، رغم أنه أعرَج.

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الثاني 9: 1-13.

النبي داود وزوجة أوريّا(1)

وحلّ الربيع، وفيه يخرج الملوك للحرب، فأرسل داودعليه السلام يوآب ومعه قادة نصبهم على رأس جيش بني يعقوب، ليدمّروا بني عَمّونَ فحاصروا مدينة رِبَّة عمّان. وأمّا داودعليه السلام فظلّ في القدس.

ثمّ أرسل القائد يوآب إلى داودعليه السلام يخبره بكلّ ما حدث في الحرب.

فاتّجه المبعوث إلى داودعليه السلام وأخبره بِكلّ ما أمره به القائد يوآب، قائلاً: «أيّها الملك، لقد ضيّق علينا الأعداء بقوّاتهم وهاجمونا في الحقول، فطاردناهم إلى بوابة المدينة، لكنهم صوّبوا سهامهم نحونا من فوق سور المدينة، فقضى بعض من قادتك، وقضى معهم أيضا أوريّا الحِثِّيّ أحد ضباطك». فقال له داودعليه السلام: «عد إلى يوآب وأخبره: «إنّ كلّ ما حدث لا يمكن أن يحبط عزيمتك، لأنّ السيف لا يرحم أحدًا. فتابِعْ هجومك على المدينة ودمِّرها.» أخبره بما قلت لك حتّى لا يصيبه الاحباط». وسمعت زوجة أوريّا أنّ زوجها قد هلك في الحرب، فناحت ولبست لباس الحداد.

ولمّا انتهت أيّام حزنها عليه، دعاها داودعليه السلام لتقيم في قصره، واتّخذها زوجةً له. وانقضت أيام حملها ثمّ أنجبت ولدا.

النبي داود وقصّة النعاج(2)

وأوحى الله إلى النبيّ ناثان أن يذهب إلى داودعليه السلام. فذهب إليه وقال له: «كان في أحد المدن رجلان، أحدهما ثري والآخر محتاج. وكان الثري يملك أغنامًا وأبقارًا لا يحصى عددها، أمّا المحتاج فلم يكن يملك سوى نعجة واحدة وقد اشتراها وهي صغيرة فاعتنى بها ونشأت مع أبنائه، وكان يتقاسم معها لُقمته وتشرب من كأسه وتنام في حضنه، وكان يهتمّ بها كابنة له. وذات مرّة نزل ضيفٌ في بيت الثري، فامتنع أن يذبح لضيفه من أغنامه وأبقاره، بل أخذ نعجة المحتاج وهيّأها طعامًا لضيفه». وعندما

(1) استنادا إلى الكتاب الثاني للنبي صموئيل 11: 1، 18، 22–27.
(2) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الثاني 12: 1–12.

سمع داود عليه السلام القصّة اشتدّ حنقه على الثري، وقال لناثان: «أقسم بالله الحيّ القيّوم، أنّ هذا الثري يستحقّ الموت على ما صنع! وعليه أن يرُدُّ بدل النعجة الواحدة أربعًا، جزاء فعلته الشنيعة!» فأجابه ناثان: «أنت من قام بهذا الفعل الشنيع! والله الّذي يعبده بنو يعقوب يقول: إنّا جعلناهم يمسحونك بالزيت كدليل على أنّنا نصّبناك ملكًا على بني يعقوب، وأنقذناك من قبضة طالوت، وجعلناك تقيم في قصره وتزوّجت زوجاته، ونصبناك ملكًا على بلاد السامرة ويَهوذا معًا، وإن لم تكتف بذلك فإنّنا نضاعفه لك. فلماذا استهنت بكلامي وارتكبت ما لا يرضيني؟ لقد قتلتَ أوريّا الحثِّيّ بسيف بني عَمّون، واتّخذتَ امرأته زوجة لك. ولأنّك سفكت دما بريئا، فعلى امتداد أجيال لن يخلو بيتك من القتل ولن يعمّه السلام أبدًا. وأجعل في أهل بيتك من يعصيك ويتمرّد عليك، فيأخذ منك زوجاتك ويضاجعهنّ في وضحِ النهار. ومع أنّك فعلتَ ذلك سرًّا، إلا أنّي أفعل هذا الأمر علنًا ويشاهده جميع بني يعقوب».[1]

النبي داود يتضرّع إلى الله[2]

وتضرّع النبي داود قائلا:

اِرحَمْني يا اللهُ بِوَفائِكَ،

اُمحُ خَطِيئَتي يا أَرحَمَ الرّاحِمينَ

غَسِّلْني مِن إثمي،

ومِن خَطِيئَتي طَهِّرْني تَطهيرًا

أنا أَعتَرِفُ بِمَعاصيَّ،

وأتَعَذَّبُ لأنّ خَطِيئَتي ماثِلَةٌ أمامي كُلَّ حِينٍ

لَقَد خَطِئتُ في حَقِّكَ يا رَبّ

(1) لقد أمر الله بني يعقوب بحماية الأغراب في التوراة. ولكن هذا لم يحدث لأنّ هذه الجريمة من أفظع الجرائم، وتكمن فظاعتها في أنّ أوريّا الحثي ينحدر من الأغراب، وكان من المفروض أن يحظى بحماية بني يعقوب.

(2) استنادا إلى المزمور 51.

في حَقّكَ وَحدَكَ ارتَكَبتُ الشَّرَّ
أمّا أنتَ فَفي حُكمِكَ عليَّ صادِقٌ
وأنتَ على الحَقِّ عِندَما تَدينُ
حَياتِي مُلِئَتْ بِإثمٍ مُذ وُلِدتُ،
وإنّهُ مَسَّني مُنذُ حَبِلَتْ بي أُمِّي
إلَّا أنّكَ تَرضَى بِصِدقٍ في الصَّميمِ
هَلاّ زَرَعْتَ في كِياني حِكمَتَكَ؟
طَهِّرْني مِن الذُّنُوبِ تَطهيرًا
عَسَى أَن أتَطَهَّرَ
غَسِّلْني
عَسى أن أكُونَ أكثَرَ بَياضًا مِنَ الثَّلجِ
يا رَبّ هَلاّ شَرَحتَ لي صَدرِي
فَيَبتَهِجَ فُؤادي الّذي سَحَقتَ؟
هَلاّ أشحتَ بوجهكَ عَن خَطاياي يا رَبّ،
ومَحَوتَ كُلَّ آثامي
هَلاّ طَهَّرتَ قَلبي
ووَهَبتَني قَلبًا نَاصِعًا يا اللهُ
هَلاّ جَعَلتَ كِياني مُخلِصًا لكَ؟
لا تَنبُذْني بِالعَراءِ يا رَبّ
لا تَحرِمْني مِن تَأييدِ رُوحِكَ القُدُّوسِ
هَلاّ رَدَدتَ عليّ سُروري
ونَجَّيتَني يا رَبّ

هَلاّ أَرسَلتَ رُوحَكَ

وبِرِضاكَ تَأخُذُ بِيَدي

حِينَها أُرشِدُ العُصاةَ إلى صِراطِكَ المُستَقيمِ

فَتَراهُم إليكَ يَرجِعونَ

هَلاّ غَفَرتَ لي مِمّا سَفَكتُ مِن دِماءٍ

أنتَ يا اللهُ مُنَجِّيَّ

فَيَلهَجُ لِساني بِحَمدِكَ

أَطلِقْ لِساني يا رَبُّ

فيَجُودَ فَمي، ويُهلِّلَ لكَ

أنتَ لا تُسَرُّ بِالأَضاحي،

ولا تَرضَى بِقُربانٍ يُحرَقُ بِأَكمَلِهِ يا اللهُ؛

وإلاّ لَما توانَيتُ عن ذلك

بَلِ الأُضحِيةُ المَرضِيَّةُ عِندَكَ هِيَ الرُّوحُ المُنكَسِرةُ

والقَلبُ الجَريحُ فلا تُشِحْ عَنهُ يا اللهُ

هَلاّ رَضِيتَ عَن بَيتِ المَقدِسِ

هَلاّ بَنَيتَ أَسوارَ القُدسِ مِن جَديدٍ؟

فتُسَرَّ بِصادِقِ الأَضاحي

بِتَقدِماتٍ تَلِيقُ بِكَ يا رَبّ

بِعُجولٍ تُحرَقُ على مَذبَحِكَ

النبي داود يعترف بذنبه[1]

فقال داود عليه السلام للنبي ناثان: «ما أفظع الخطيئة الّتي ارتكبتها في حقّ الله».[2] فأجابه النبي ناثان: «لقد غفر الله خطيئتك فلا تموت. وبما أنّكَ استهنتَ بالله بما فعلته، فإنّ هذا الابن الّذي تنتظر ولادته يموت». وعاد ناثان إلى بيته.

وفاة ابن داود عليه السلام[3]

وأنجبت بتشابع لداود عليه السلام الولد المنتظر، فضربه الله بمرض شديد. فرفع داود عليه السلام صوته متضرّعًا إلى الله من أجل ابنه، وصام وافترش الأرض ليالي عديدة. وطلب منه رجال حاشيته أن يترك الأرض الّتي اتّخذها فراشًا، لكنه امتنع أن يغادر مكانه ورفض أن يأكل معهم. وفي اليوم السابع توفّي ابنه، فخاف رجال حاشيته أن يخبروه بما حدث، لأنّهم قالوا: «لقد رفض أن يستمع إلينا عندما كان ابنه مريضا، فكيف نخبره الآن وقد مات؟ نحن نخشى أن يؤذي نفسه». وانتبه داود عليه السلام إلى همسهم، فأدرك أنّ ابنه توفّي، فقال لهم: «هل توفّي ابني؟» فأجابوه: «أجل لقد توفّي». فقام داود عليه السلام عن الأرض، واغتسل وتعطّر وغيّر ثيابه، ودخل حرم بيت الله، فتضرّع لله، ثمّ عاد إلى قصره وطلب طعامًا فأكل. فسأله رجال حاشيته: «ما الّذي أصابك؟ فعندما كان ابنك حيّا بكيت وامتنعت عن الطعام، ولمّا توفّي قُمتَ عن الأرض وطلبت أكلاً!» فأجابهم: «حين كان ابني حيًّا صُمتُ وبكيتُ لأنّي قلت: مَن يدري؟ لعلّ الله يرحمني وينقذ ابني، فيَحيا. أمّا الآن فقد فارق الحياة، فلماذا أصوم؟ فلا يمكن أن أردّه إلى الحياة، يمكنني أن ألحق به، أمّا هو فلن يعود إليّ أبدًا».

وواسى داود عليه السلام زوجته بَتشابع وعاشرها، وبعد فترة أنجبت له ولدًا سمّاه سُليمان عليه السلام. وأحبّه الله كثيرًا. وأوحى الله إلى النبيّ ناثان أن يسمّى هذا الولد حبيب الله.

(1) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الثاني 12: 13-15.
(2) انظر سورة ص: 17 والآيتين 23-24.
(3) استنادا إلى الكتاب النبي صموئيل الثاني 12: 16-25.

الاستعداد لبناء بيت الله[1]

وجمع داود عليه السلام كل الغرباء في البلاد ليساهموا في بناء بيت الله، واختار من بينهم نحّاتين لـينحتوا الحجارة. وأحضر كميّات كبيرة من الحديد لصُنع المسامير ومصاريع الأبواب، وكمّيات أخرى من النحاس لا يمكن وزنها لكثرتها، وما لا يُحصى من خشب الأرز من صيدا وصور. وجمّع داود عليه السلام كلّ هذه الكمّيات، لأنّه قال في نفسه: «إنّ ابني سليمان لا يزال صبـيًّا تعوزه الخبرة، وسأتولّى القيام بكلّ ما يلزم لبناء بيت الله، أريده أن يكون فخما ولتبلغ شهرته أقاصي الأرض». وهكذا رتّب داود عليه السلام قبل وفاته، كلّ ما يلزم لبناء بيت الله بكمّيات وفيرة.

ثمّ أوصى ابنه سليمان عليه السلام أن يبني بيتًا لله الّذي يعبده بنو يعقوب قائلا: «يا ابني، لقد كنت أنوي أن أبني بيتًا يُعظَّم فيه اسم الله تعالى، لكنّ الله أوحى إلي بقوله: «لقد خُضتَ حروبًا جمّة وسفكتَ كثيرا من الدماء، لذلك لن أدعك تنجز هذا البناء. بل أرزقك بولد يدعى سليمان وأُريحه من جميع الأعداء، وفي عهده ينتشر السلام ويعمّ الأمان على عشائر بني يعقوب جمعاء. وابنك سليمان هو من سيبني بيتًا يُعظَّم فيه اسمي، وأكون له في مقام الأب ويكون لي في مقام الابن، وأُثبّتُ عرش ملكه على بني يعقوب إلى أبد الآبدين». والآن يا ابني، ليحرسك الله تعالى، فتُوفق في بناء هذا البيت، كما أوحى الله بذلك. وليمنحك الله حكمة وبصيرة فتحكم بني يعقوب حسب تعاليمه تعالى. وإذا عملتَ بالفرائض والأحكام الّتي أمر الله بها بني يعقوب على لسان نبيه موسى، فستُوفق. فشدّ عزيمتك ولا تتراجع! لا تخشَ شيئا ولا ترهبْه. ولم أدّخر جهدًا إلا وبذلته في تجميع ما يلزمك لبناء بيت الله. فقد جمعتُ لك أربعة آلاف طنّ من الذهب وأربعين ألف طنّ من الفضّة وما لا يُوزَن من النحاس والحديد. وجهّزتُ خشبًا وحجارةً ويمكنك أن تزيد عليهما، وعددا هائلا من أمهر العمال في كلّ ما يُصنع بالذهب والفضّة والنحاس والحديد. فتوكّل على الله وقم للعمل!»

وطلب داود عليه السلام من جميع المسؤولين في بني يعقوب أن يساعدوا ابنه سليمان

(1) استنادا إلى كتاب أخبار الأيام الأول 22: 2–19.

ﷺ، وقال لهم: ألم يكن الله الّذي تعبدونه خير حافظ لكم؟ فأحلّ السلام بينكم وبين الشعوب المجاورة، ونصبني حاكما على سكّان هذه الأرض، وكلّهم خاضعون لله وقوم ميثاقه. والآن عليكم أن تملؤوا بالإيمان قلوبكم ونفوسكم، وتوجّهوا إلى الله ربّكم، وانهضوا واشرعوا في بناء بيت ليُعظّم فيه اسمه القدّوس وليُحفَظ فيه صندوق الميثاق وآنيته المقدّسة.»

وظائف اللاويين ومراتبهم[1]

ولمّا تقدّم داودﷺ في السن وصار شيخا هرما، نصب ابنه سليمانﷺ ملكًا على بني يعقوب. واستدعى كلّ المسؤولين والأحبار وغيرهم من رجال الدين اللاّويّين، فأحصى كلّ الذين بلغوا سن الثلاثين وما فوق من اللاّويّين، فوجد عددهم الجملي ثمانية وثلاثين ألف رجل، عيّن منهم أربعة وعشرين ألف مراقب على بناء بيت الله، وستّة آلاف رجل بين موظّف وقاض، وأربعة آلاف حارس، وأربعة آلاف مُنشد لله تعالى على آلات التّسبيح.

النبي داود يقدّم تخطيطا لبناء بيت الله[2]

وفي القدس جمع داودﷺ جميع المسؤولين في بني يعقوب. فحضر شيوخ العشائر وجميع الفرق الّتي تخدم الملك، وقادة الألوف والمئات في الجيش، ورجال الحاشية، والمحاربون الأبطال، وجميع المحاربين الأشدّاء والوكلاء على الأملاك والمواشي التي يملكها الملك وأبناؤه. فخاطبهم داودﷺ قائلا: «اصغوا إلي جيدًا يا إخوتي وشعبي! لقد كنت أنوي بناء بيت لله وفيه نحفظ صندوق الميثاق دائما ونجتمع لعبادته تعالى. ولمّا جهّزتُ كلّ ما يلزم البناء أوحى الله إليّ: «لن أدعك تبني بيتًا يُعظّم فيه اسمي، لأنّك خضت حروبا وتلطخت يداك بالدماء». لكنّ الله الّذي يعبده بنو يعقوب اختارني من بين جميع أفراد بيت أبي يسّى، لأحظى أنا وذرّيّتي

(1) استنادا إلى كتاب أخبار الأيام الأول 23: 1-5.
(2) استنادا إلى كتاب أخبار الأيام الأول 28: 1-12، 19.

بالحكم على بني يعقوب إلى الأبد، فالله تعالى اختار عشيرة يَهوذا للحكم، ومنها خصّ عائلتي، ومن عائلتي رضي عني وأقامني ملكًا على كلّ بني يعقوب. ورزقني بنين كثرا واختار منهم سليمان لي خلفا ليعتلي عرش بني يعقوب. وأوحى إلي أيضا: «إنّ ابنك سليمان هو الّذي سَيَبني بيتي المقدّس وحرمه الشريف لأنّي اخترتُه ليكون في مقام الابن الروحي لي، وأكون له في مقام الأب، وإن أخلص في عمله ولم يحد عن وصاياي وأحكامي كما حاله اليوم، أُثبّتُ مُلكه إلى الأبد. يا جماعة الله، نحن الآن في محضر ربّنا السميع وعلى مرأى من أنظار إخوتكم من بني يعقوب: فاحفظوا جميع وصايا الله ربّكم، واعملوا بها بكلّ صدق لتحافظوا على هذه الأرض الطيّبة، فتنتقل هذه الأمانة لبنيكم من بعدكم جيلا بعد جيل».

"أما أنت يا سليمان، عليك أن تعرف عظمة الله الّذي كان يعبده أباؤك الأوّلون، فاعبدْه بقلب سليم ونفس راغبة، لأنّ الله عليم بذات الصدور وبصير بما يجول داخلك من خواطر وأفكار. فإذا سعيتَ إلى مرضاته فهو قريب مجيب، وإذا تركتَهُ تخلى عنك إلى الأبد. وعليك أن تعلم الآن أنّ الله اختارك لتقيم بيتًا يُعظّم فيه اسمه القدّوس، فشدّ عزيمتك وانهض إلى العمل!"

ثمّ قدّم داود(عليه السلام) لابنه سليمان تخطيطًا واضحًا فيه صورة لبيت الله وحرمه وخزائنه ومخازنه وغرفه العُلوية والغرف الداخلية والمحراب الأقدس وفيه يُكفَّر عن الخطايا،

كما قدّم له ما جاء إليه بالوحي من روح الله بخصوص الحرم الشريف حول بيت الله وكل الحجرات المحيطة به وبيت المال ومخازن الهبات المنذورة لله تعالى.

وقال داود لابنه سليمان(عليهما السّلام): «إنّ كلّ ما ذكرتُه لك الآن جاءني في وحي من الله تعالى».

دعاء النبي داود[1]

وسبّح داود(عليه السلام) بحمد الله تعالى أمام الحاضرين وقال: «يا الله، تبارك اسمك

(1) استنادا إلى كتاب أخبار الأيام الأول 29: 10–25.

وتعالى من الأزل وإلى أبد الآبدين، يا من عَبَدَكَ أبونا يعقوب! لك العظمة والجبروت والجلال والبهاء والتعظيم، وسع ملكوتك السماوات والأرض. يا الله أنت صاحب الجلال والمُلك المكين.[1] إنّك واهب الغنى والكرامة وأنت ملك العالمين. في يدك العظمة والقدرة والجبروت المتين، فترفع من تشاء وتُعظّم شأنه حقّ التعظيم. يا الله نهلّلك الآن كل التهليل، ونحمد ونسبّح اسمك البهي الجليل!

ولكن مَن أكون أنا؟ ومَن يكون شعبـي؟ حتّى نخصّص لك بيتا، فكلّ مكوناته منك أنت يا الله؟ فأنت مصدر كلّ شيء، فممّا رزقتنا ننفق من أجلك وينفقون. وما نحن في هذه الدنيا إلاّ ضيوف عابرون، كما عبر فيها آباؤنا الأولون. وأيّامنا على هذه الأرض ظلّ ماض إلى الفناء، ولا رجاء يُرجى لنا في البقاء. فيا الله يا ربّنا إنّ كلّ هذه الثروة الّتي جمعناها من أجل أن نبني بيتًا يُعظّم فيه اسمك القدّوس، وهذه الثروة كلُّها لك ومنك تسلّمناها. اللهمّ إنّي أعلم أنّك تمتحن القلوب علم اليقين، ولا ترضى إلاّ بمن انتهج النهج النزيه القويم. وقد قدّمتُ لك ما جمعتُ بقلب صاف مستقيم. وكم كانت فرحتي عظيمة يا الله حين رأيتُ قوم ميثاقك الحاضرين في تقديم كلّ هذه الخيرات لك يتسارعون! اللهمّ يا من عَبَدَكَ يَعقوب وإسحق وإبراهيم، احفظ هذه النوايا في قومك ومقاصدهم في القلوب، واجعل قلوبهم موجّهة إليك على مدى السنين. وامنحْ ابني سليمان قلبًا سليمًا بكل ما أمرتَ به من وصايا وفرائض وتعاليم، وليقم هذا البيت إكراما لك، وقد جهّزتُ له كلّ ما يلزم لهذا المبنى العظيم».

وقال داود عليه السلام لجميع الحاضرين: «سبّحوا بحمد ربّكم العلي الكبير». فعظّموا الله ربّهم وربّ آبائهم الأوّلين، وركعوا له ساجدين. وانحنوا للملك احتراما. وفي الغد ذبحوا أضاحي لله: ألف ثور وألف كبش وألف خروف، وأحرقوها بأكملها. وقدّموا شرابا وذبائـح أخرى من أجل قوم بني يعقوب كلّهم. وغمرهم فرح عظيم فأكلوا وشربوا في حرم بيت الله. وفي اليوم نفسه مسحوا بالزيت رأس سليمان بن داود عليه السلام علامة على أنه الملك الجديد، مسحوا بالزيت أيضا رأس صادق ليكون كبيرًا

(1) انظر سورة آل عمران: 26.

للأحبار. وهكذا خلف سليمان أباه داودعليه السلام على العرش الّذي أقامه الله تعالى. وتألق في أيّام حكمه وأيّده جميع بني يعقوب. وكلّ المسؤولين والقادة وكلّ أبناء داود الآخرين بايعوا سليمان الملك راضين. ورفع الله تعالى مكانة سليمانعليه السلام في عيون بني يعقوب. ومنحه من الجلال ما لم يكن لملك قبله في كلّ بني يعقوب.

وفاة النبي داود[1]

وتوفّي داود ابن يسّىعليه السلام بعد أن بلغ شيخوخة صالحة، وعاش أيّامًا من المجد والغنى. وحكم جميع بني يعقوب مدّة أربعين سنة، سبع منها في حَبرون، وثلاث وثلاثين في القدس. وخلفه على عرش المملكة ابنه سليمان.

(1) استنادا إلى كتاب أخبار الأيام الأول 29: 26–28.

قصّة النبي سليمان عليه السلام

مقتطفات من أمثال النبي سليمان الحكيم

كتاب الخطيب الحكيم

مدخل إلى قصّة النبي سليمان

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: 30]

يرجّح أنّ فترة حكم النّبي سليمان عليه السلام امتدّت من سنة 970 ق.م إلى سنة 931 ق.م، واشتهر بقضائه وحكمته. وذكر المؤرّخ اليعقوبي في تاريخه أنّ النّبي سليمان: «كان يجلس للقضاء ويحكم بين بني إسرائيل فيعجبون لحكمه وعدل قضائه وقوله وحسن لفظه».[1]

وخلف النبي سليمان أباه النبي داود على العرش. ويذكر اليعقوبي أنّ النّبي سليمان شرع في بناء بيت الله المقدّس وقال: «إنّ الله أمر أبي داود أن يبني بيتا، وإنّ داود شغل بالحروب، فأوحى الله إليه: إن ابنك سليمان يبني البيت باسمي».[2] وكان هذا البيت أوّل مقام قار مخصّص لعبادة الله في القدس، حيث كان بنو يعقوب قبل ذلك يتعبّدون عند خيمة بيت الله التي أقامها النّبي موسى بأمر من الله.

وكان النّبي سليمان الملك الثّالث لبني يعقوب، إلاّ أنّه بعد وفاته انقسمت المملكة إلى قسمين، فانضمّت عشر عشائر من بني يعقوب إلى المملكة الشّمالية

(1) **اليعقوبي**، *تاريخ اليعقوبي*، دار صادر، بيروت، د.ت.، ج 1، ص 53.
(2) **اليعقوبي**، ج 1، ص 54.

وعاصمتها مدينة السّامرة، بينما حكم ذرّية النّبي سليمان في القدس مملكة يهوذا الجنوبيّة. وانضمت إلى حكمهم عشيرة يهوذا وعشيرة بنيمين، إضافة إلى رجال الدّين من عشيرة لاوي.

عُرف النبي سليمان بكونه ذا سلطة وحكمة وغنى يفوق ما حظي به كل الملوك الذين سبقوه (انظر سورة ص: 35). ولكنّه عندما بلغ الكبر خضع للضّعف الإنساني. ووردت عدّة روايات في الكتاب المقدّس تصف هذا الضعف بالتفصيل، فعلى سبيل المثال جاء في التوراة في سفر التثنية 17: 16-17 أنه ينبغي على الملك ألاّ يكثر من الخيرات ولا من الزوجات وألاّ يدّخر كميّات كثيرة من الفضّة والذهب. والنّبي سليمان عليه السلام عندما فعل ذلك حدثت له عدّة مشكلات. وجاء في القرآن ذكر لقول النبي سليمان عندما اعترف أنّ حبّه للخيرات صرفه عن ذكر الله: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [سورة ص: 31-33].

ويذكر الطّبري في تاريخه كيف أنّ أحد مستشاري النّبي سليمان يدعى آصف بن برخية اتّجه إلى النّبي سليمان: «فأتاه فقال: يا نبيّ الله، كبرت سنّي، ودقّ عظمي ونفد عمري، وقد حان مني الذهاب. وقد أحببت أن أقيم مقاما قبل الموت أذكر فيه من مضى من أنبياء الله، وأثني عليهم بعلمي فيهم، وأعلّم الناس بعض ما كانوا يجهلون من كثير من أمورهم، فقال: افعل، فجمع له سليمان النّاس، فقام فيهم خطيبا، فذكر من مضى من أنبياء الله، فأتى على كلّ نبي بما فيه، وذكر ما فضله الله به، حتّى انتهى إلى سليمان وذكره فقال: ما كان أحلمك في صغرك، وأورعك في صغرك، وأفضلك في صغرك، وأحكم أمرك في صغرك، وأبعدك من كل ما يُكره في صغرك».[1] ويروي الطّبري بعد ذلك كيف عاتب مستشار النّبي سليمان إذ سمح بعبادة الأصنام في قصره.

(1) **الطبري**، *تاريخ الرسل والملوك*، دار التراث، بيروت، 1387هـ، ج 1، ص 497.

ويختلف هذا التصوير المتوازن للنّبي سليمان عن الأوصاف المتعلّقة به في الآداب الهيلينية المتأخّرة، حيث يتمجّد كونه يمارس السّحر وإخراج الشياطين والجنّ بمهارة. وأدّت تلك القصص إلى توظيف اسم النبي سليمان من قبل الوثنيّين في العصر الهيليني في التعاويذ والرُقى.

أمّا قصّة ملكة سبإ (وتدعى بلقيس عند القصّاص والمحدّثين) وزيارتها للنّبي سليمان فهي قصيرة جدّا في الكتاب المقدّس، لكنّ النّاس طوّروها فيما بعد وألحقوا بها تفاصيل إضافية إلى درجة أنّه ورد في التقليد الأثيوبي اليهودي والمسيحي أنّ سليمان عاشر بلقيس فأنجبت ولدا اسمه مناليك الذي أصبح أوّل ملك أكسوم، وأسّس سلسلة ملوك أثيوبيا التي استمرّت حتّى سقوط الملك هيلا سيلاسي سنة 1974.

ويُنسب إلى سليمان كتاب يدعى سفر الجامعة (أي كتاب الخطيب الحكيم). وجاء في هذا الكتاب أنّ النبي سليمان في آخر عمره اقتنع أنّ السّعي وراء الإنجازات البشريّة والحكمة والتّسلية كلّها مجرّد ((هباء في هباء)). وخلاصة فكره في هذا الكتاب كما يلي: ((هذا يا ولدي ما خلصت إليه من تأملاتي: اتّق الله واعمل بوصاياه، فقد فرض ذلك على جميع رعاياه. والله يجزي كل إنسان على ما أتاه، سرّا كان أم جهرا، حسنات كانت أم سيّئات)) [كتاب الخطيب الحكيم 12: 13-14].

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النبي سليمانعليه السلام

النبي سليمان يطلب الحكمة[1]

تحالف النبي سُليمانعليه السلام مع فِرعون ملك مصر فزوّجه ابنته، ولمّا جاء بها إلى القدس سكنا في حيّ يدعى مدينة داود، إلى حين بناء قصره وبيت الله وسور يحيط بمدينة القدس. ودأب الناس في ذلك الوقت على تقديم الأضاحي في أماكن مختلفة، لأنّه لم يتمّ بعد استكمال بناء بيت لتعظيم اسم الله تعالى. وكان النبي سليمان يُقدِّم الأضاحي ويحرق البخور في هذه الأماكن المختلفة إلا أن ورعه لله شديد، إذ كان حريصًا على اتّباع نصائح أبيه النبي داود كلّها.

وفي أحد الأيّام اتّجه النبي سليمانعليه السلام إلى أهمّ هذه الأماكن وكان يقع في مدينة جِبْعون، وقدّم فيه ألف أضحية وأحرقها بأكملها لله. وفي تلك الليلة تجلّى الله للنبي سليمان في المنام وأوحى إليه: «أطلب ما تريد وأنا لك سميع مجيب». فقالعليه السلام: «يا ربّ، إنّك كثير الوفاء لعبدك أبي داود، لأنّه سلك الصراط المستقيم بكلّ أمانة وإخلاص ووفاء. فكنتَ له وفيًّا بأن رزقتَهُ ابنًا يخلفه على عرش المملكة كما هو الحال في هذا الحين. والآن يا الله، لقد جعلتني حَكَمًا خلفًا لأبي داود، رغم صغر سني ولا خبرة لي في حُكم الحاكمين. وها أنا أحكم قوم ميثاقك، وعددهم لا يُحصى

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 3: 1–15.

لأنّهم كثيرون. فامنحني حكمة لأحكم هؤلاء القوم وأُميّز الخير من الشرّ. فكيف لي أن أحكُمهم وقد فضّلتهم على العالمين؟»[1]

فقبل الله طلب النبي سليمان، وأوحى إليه: «لأنّك طلبتَ حكمة لتميّز الحقّ من الباطل ولم تطلب ثروة ولا إطالة عمرك بسنين، ولا موتًا لأعدائك المخاصمين، فإنّي أستجيب لطلبك، فأُعطيك حكمة وبصيرة لا مثيل لهما في العالمين، لا عند السّابقين ولا اللاحقين. وأُهبك أيضًا عزّا وجاهًا وهو ما لم تطلبه، فلا يكون لك مثيل طيلة أيّام حياتك بين الملوك والسلاطين.[2] وإذا سلكتَ الصراط المستقيم، وحفظت فرائضي ووصاياي كما سلك أبوك داود، أطيل عمرك سنين».

وعندما استفاق سليمان عليه السلام من نومه، علم أنّ الله قد أوحى إليه في المنام. فاتّجه نحو القدس، وأمام صندوق الميثاق قدّم أضاحي وأحرقها بأكملها لله، وقدّم أضاحي أخرى طلبًا للسلام وأعد بها مأدبةً جمع فيها كل رجال حاشيته.

عظمة حكمة النبي سليمان[3]

وفي أحد الأيام جاءت امرأتان (بائعتا هوى) إلى سليمان عليه السلام ليحلّ خلافًا بينهما. فبادرت إحداهما قائلة: «يا مولاي، أنا أُقيم مع هذه المرأة في بيت واحد، وقد ولدتُ فيه، وبعد يومين ولدت هذه المرأة أيضًا. وكنّا في هذا البيت ولا أحد غيرنا. وأثناء الليل انقلبت هذه المرأة على ابنها في نومها، فقتلته، ولمّا استفاقت عند منتصف الليل استبدلت ابنها الميت بابني بينما كنتُ نائمةً. وفي الصباح قمتُ لأُرضع ابني فوجدتُهُ ميتًا، وعندما تمعّنت فيه تأكّدت أنّه ليس ابني». فقاطعتها المرأة الثانية قائلة: «كلاّ، إنّ الحيّ هو ابني والميت هو ابنك». فأجابتها المرأة الأولى: «كلاّ، بل الميت ابنك والحيّ ابني». وتجادلتا أمام الملك سليمان.

فقال لهما: «كلاكما تقول إنّ الحيّ ابنها وإنّ الابن الميت للأخرى. حسنًا. يا

(1) انظر سورة البقرة: 122.

(2) انظر سورة ص: 35.

(3) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 3: 16–28.

حرّاس، أريد سيفًا!» وعندما جاؤوه بالسيف، أمر صارمًا: «أُشطروا هذا الصبيّ الحيّ وأعطوا شطرًا لكلّ واحدة!» فقالت والدة الطفل الحيّ وقد تحرّكت فيها أحاسيس الأمومة: «أرجوك يا مولاي! لا تفعل هذا! أعطِها الطفل الحيّ ولا تقتلوه!» فقاطعتها المرأة الثانية: «بل أشطروه! لكي لا يكون لواحدة منا!» عندئذ أصدر النبي سليمان قراره: «لا تقتلوا الولد، بل أعطوه لتلك المرأة الّتي أرادت له الحياة لأنّها أُمّه!» وعندما سمع بنو يعقوب بالحُكم الّذي حكم به سليمان عليه السلام، ازدادت هيبتهم نحوه لأنّهم عرفوا أنّ الله منحه الحكمة ليحكم بالعدل والإنصاف.

وتمتّع جميع قوم بني يعقوب بالأمان في منطقتي يَهوذا والسامرة، فلا خوف على بيوتهم ولا حقولهم طيلة حكم النبي سليمان، من دان في الجولان شمالاً إلى بئر السبع جنوبًا. وكان للنبي سليمان أربعون ألف معلف لخيل مركباته، واثنا عشر ألف فرس. وكان ولاة أقاليم بلاده الاثنا عشر يمدّونه وحاشيته بالمؤونة، كلّ حسب دوره على امتداد أشهر السنة، وهكذا لم يعد يعوزهم شيئًا. وكان هؤلاء الولاة يجلبون أيضا الشعير والتبن للخيل والبغال إلى مكان ربوضها.

ومنح الله النبي سليمان من الحكمة والبصيرة ما لا نظير له، ومنحه أيضًا رحابة صدر كرِمال الشاطئ لا تحصى ولا تحدّ. ففاقت حكمته حكماء المشرق وحكماء مصر كلّهم كما تفوق في حكمته على الناس جميعًا ومنهم إيتان الأزراحيّ، وأبناء ماحول: هيمان وكَلكول ودَردَع. وذاع صيته بين جميع البلدان المجاورة. ونطق بثلاثة آلاف مَثَل، أمّا أناشيده فبلغت ألفًا وخمسًا. ووصف بعلمه العميق أنواع الأشجار وصنّفها، مِن الأرز في لبنان إلى الزّوفى الّتي تنبُت على الحائط، كما وصف كلّ أنواع البهائم والطير والزّواحف والسّمك وصنّفهم جميعًا. وأرسل الملوك من أقاصي الأرض إلى النبي سليمان مبعوثين محمّلين بالهدايا للاستفادة من حِكمته.

الاستعداد لبناء بيت الله في القدس[1]

وكان حيرام ملك صور صديقا مخلصا للنبي داود عليه السلام طيلة أيّام حياته، وقد

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 5: 1–18.

أرسل إلى سليمان عليه السلام وفدًا ليهنئه عندما اعتلى عرش المملكة مكان أبيه. فأجابه النبي سليمان بدوره وأرسل له رسالة قال فيها: «بعد التحية، لا بدّ أنّ جلالتك على علم أنّ أبـي داود لم يتمكّن من بناء بيت يعظّم فيه اسم الله تعالى، بسبب الحروب الّتي شنّها عليه أعداؤه المجاورون، فلم يتمكّن من بناء هذا البيت حتّى أمدّه الله عليهم بنصر عظيم. أمّا الآن فقد حقّق الله ربّي السلام وجعله ينتشر على كلّ حدود مملكتي، فلا خصم ولا عدو، ولا خوف من نشوب حروب، فأنا مستعد الآن أن أبني بيتًا يعظّم فيه اسم الله ربّي تنفيذًا لِما أوحى به تعالى لأبـي داود، وهذا ما جاء في وعده تعالى: «إنّ ابنك الّذي سيخلفك على العرش المقيم هو من يرفع لي قواعد بيت يعظّم فيه اسمي بين العالمين.» والآن أرجوك أن تطلب من رجالك أن يقطعوا لي أرزًا من لبنان، وسيساعدهم رجالي، وأنا أدفع إليك بالمقدار الّذي تريد أجرة لرجالك. فنحن لا خبرة لنا مثلكم في مدينة صيدا في قطع الخشب كما تعلم!»

ولمّا وصلت هذه الرسالة إلى الملك حيرام غمره فرح شديد وقال: «سبحانك يا الله تبارك اسمك وتعالى فقد رزقت داود ابنًا حكيمًا على هذا الشعب العظيم.» ثمّ أرسل ردًّا على الرسالة إلى النبي سليمان قائلاً: «بعد التحية، لقد وصلتني رسالتك، وأنا مستعد لأزوّدك بكلّ ما تحتاجه من خشب الأرْز والسَّرْو كما طلبت. وسيُنزل رجالي قطع الخشب من جبال لبنان إلى البحر الأبيض المتوسّط، ثمّ يربطونها في شكل حُزم ويجعلونها فوق الماء ويوجّهونها إلى الاتجاه الّذي تحدّده أنت ليستلمها رجالك هناك، ويفكّون هذه الحُزم. وأطلب من جلالتك أن تزوّد قصري الملكي بالمؤونة اللازمة مقابل هذا الخشب.»

وهكذا كان الملك حيرام يُزوّد سليمان عليه السلام بكلّ ما يحتاج من خشب الأرز والسرو. وفي المقابل كان النبي سليمان يزوّد قصر الملك حيرام كلّ سنة بمئة أَلف كيس من الحنطة وعشرين ألف برميل من زيت الزيتون. وأبرم النبي سليمان والملك حيرام معاهدة سلام بينهما. وكان الله وفيًّا بوعده فمنح النبي سليمان حكمة فائقة.

وجمع النبي سليمان عليه السلام من كلّ أصقاع بلاده ثلاثين ألف رجل. وجعل عليهم أدونيرام رئيسًا، وكان يرسل منهم في الشهر الواحد إلى لبنان عشرة آلاف رجل مناوبةً،

فيقضون شهرًا في لبنان وشهرين في بيوتهم. وكان للنبي سليمان في الجبال ثمانون ألف رجل يقطعون الحجارة وسبعونَ ألفًا آخرين يحملونها وأقام أيضًا مشرفين على الأعمال ووصل عددهم إلى ثلاثة آلاف وثلاث مئة رجل. وأمر عليه السلام أن يقتلعوا حجارةً كبيرةً ذات جودة عالية لرفع قواعد البيت. واشترك في نحت الحجارة كلّ من نحاتي النبي سليمان والملك حيرام، كما ساعدهم عمّال مختصّون من مدينة جُبَيل، وهكذا هيّأوا الأخشاب والحجارة لبناء بيت الله تعالى.

بناء بيت الله[1]

وفي السنة الرابعة من حكم سليمان عليه السلام وتحديدًا أثناء فصل الربيع[2]، شُرع في بناء بيت الله. ويوافق هذا التاريخ السنة الأربع مئة والثمانين بعد تحرير بني يعقوب وخروجهم من أرض مصر.

وأُعِدَّت الحجارة المخصّصة لبناء بيت الله مسبقًا في المقلع، لكي لا يُسمع صوت مِطرقة ولا إزميل ولا أي أداة من حديد في كلّ أرجاء الحرم الشريف.

ولمّا شُرع في بناء بيت الله، أوحى الله إلى النبي سليمان عليه السلام قائلاً: «إذا عملت بفرائضي وأحكامي وحرصت على اتّباع هذه القوانين، أحقّق من خلالك ما وعدتُ به أباك داود من وعد أمين، وأحلّ في هذا البيت الّذي تبنيه وأحمي قوم ميثاقي بني يعقوب وأحفظهم وعلى مدى السنين».

وتمّ تصميم بيت الله حسب المواصفات التي أوحى بها الله تعالى، واستغرق بناؤه سبع سنين.

نقل صندوق الميثاق[3]

ثمّ طلب سليمان عليه السلام من شيوخ بني يعقوب وجميع كبار العشائر وزعمائها أن

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 6: 1، 7، 11–13، 38.
(2) وتحديدا شهر زيو، وهو يقابل شهر نيسان أو أيار.
(3) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 8: 1–13.

يجتمعوا في القدس، لِـيَنقلوا صندوق الميثاق من حيّ مدينة داود إلى بيت الله فوق سفح الجبل.[1] واجتمع هؤلاء جميعا في عيد الخيام، وتحديدا في بداية الخريف[2]. وعندما وصل الشيوخ، نقل الأحبار صندوق الميثاق وخيمة بيت الله بما فيها من أوان مقدّسة. ووقف سليمان عليه السلام مع كلّ الّذين احتشدوا من بني يعقوب أمام صندوق الميثاق وذبحوا منَ الغنم والبقر ما لا يُحصى ولا يُعَدّ. ثمّ أدخل الأحبار صندوق الميثاق في المحراب الأقدس، ووضعوا فوقه شكلين لاثنين من حملة العرش، وكانت أَجنحتهما تظلّلانه مع اثنين من العصيّ الّتي يُحمل بها. وكانت هذه العصيّ طويلة، فأطرافها تُرى من خارج المِحراب، ولكنّها لا تُرى خارج البيت المقدّس. وهي موجودة إلى يومنا هذا. وهذا الصندوق يحتوي بداخله فقط على لوحي الحجر اللذين وضعهما فيه النبي موسى في جبل سيناء، عندما أقام الله ميثاقه مع بني يعقوب بعد خروجهم من مصر.

وما إن خرج الأحبار من المحراب المقدّس حتّى ملأ الغمام أرجاء بيت الله، فلم يستطع الأحبار إتمام أداء شعائرهم، لأنّ نور جلال الله قد ملأ البيت. ثمّ توجّه النبي سليمان إلى الله بهذا الدعاء:

"اللهم، لقد وعدت أنّك تتجلّي في ظلل من الغمام
ولإكرامك يا ربّ بنيتُ هذا البيت العظيم،
مكانا تحلّ فيه سكينتك يا الله إلى أبد الآبدين!

النبي سليمان يخاطب قومه[3]

ثمّ التفت سليمان عليه السلام إلى جماعة بني يعقوب الواقفين أمامه، وطلب لهم بركة من الله. وقال: «تبارك الله الّذي يعبده بنو يعقوب، لأنّه أتمّ وعده لأبـي داود، عندما قال:

(1) كان حيّ مدينة داود على أطراف القدس، بينما كان موقع بيت الله في قمّة الجبل الذي بنيت عليه مدينة القدس، فتمّ نقل صندوق الميثاق من أسفل الجبل إلى الأعلى.
(2) يقابل شهر أيثانيم في تقويمهم.
(3) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 8: 14–21.

«منذ أخرجتُ قوم ميثاقي من مصر لم أرتض مدينةً من كلّ مدنهم ليقام فيها بيت يُعظّم فيه اسمي بين العالمين، لكنّي اخترتُ داود ليكون حَكَما عادلا عليهم أجمعين».(1)

ثمّ أضاف النبي سليمان: «وأخذ في لبّ أبي داود أن يقيم هذا البيت ليعظّم فيه شأن الله. فقد أوحى إليه تعالى: «لقد أحسنت فيما تريد، ولكنّك لن تَبني هذا البيت المجيد، وإنّما يبنيه ابن من صلبك مولود». وتحقّق وعد الله وخلفتُ مكان أبي داود وجلستُ على عرش بني يعقوب، وأقمت هذا البيت ليعظّم فيه اسم الله الّذي يعبده بنو يعقوب، وأعددتُ مكانًا للصندوق الّذي وضعت بداخله لوحي الميثاق الّذي أقامه الله مع آبائنا الأوّلين حينَ أخرجهم من مصر».

دعاء النبي سليمان(2)

ووقف النبي سليمان ﷺ أمام المذبح النحاسيّ في الحرم بحضور جماعة بني يعقوب وبسط يدَيه في دعاء نحوَ السّماء قائلاً: «اللهمّ يا مَن يعبده بنو يعقوب، لا إله غيرك في السماوات والأرضين، يا حافظ الميثاق، أيّها الوفيّ لأولئك الّذين يسلكونَ بصدق الصراط المستقيم. يا الله، لقد وفيتَ بوعدك لأبي داود، وحقّقت كلامك الأمين. والآن يا الله، يا من يعبدك بنو يعقوب، رجائي أن تحقّق الوعد الآخر الّذي وعدته لأبي داود عندما أوحيت إليه: 'إذا حرص بنوك على اتّباعك فساروا، كما سرت أنت، في السبيل القويم، لا ينقطع من نسلك رجلٌ يعتلي عرش مملكة بني يعقوب المقيم'. اللهمّ حقّق هذا الوعد العظيم».

وأضاف النبي سليمان قائلا: «ولكن أيُعقل أن يسكن الله على الثرى؟ يا مَن وسع عرشك السّماوات، فكيف يتّسع لك هذا المبنى؟(3) اللهمّ، اصغِ لدعائي وتضرّعي، أنا

(1) يؤكد الله تعالى أنه لم يختر مكانا معينا ولكنّه اختار شخصا معينا لإقامة هذا المكان المقدس.

(2) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 8: 22–53.

(3) كان من البديهي للنبي سليمان أن يطرح هذا السؤال، فكيف يظنّ الإنسان أن الله يحتاج لبناء بيت ليحلّ فيه وهو ملك السماوات والأرض؟ انظر سورة البقرة ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: 255]. ونجد في الإنجيل أنّ خيمة بيت الله التي أقامها النبي موسى، وبيت الله الذي أقامه النبي سليمان من حجر في ما بعد، هما مجرّد صورة عن بيت الله الروحي الحقيقي الذي قصد تعالى أن يقيمه بين الناس بمجيء السيد المسيح. انظر رسالة أفاسوس 2: 21 ورسالة صخر الأولى 2: 5.

عبدك، وأنت السميع المجيب. هذا هو المقام الّذي اخترته لتعظيم اسمك بين العباد، فاحفظه ليل نهار وكلّما توجّهتُ إليه للصلاة، واستجب إلى تضرّعاتي وتضرعات قوم ميثاقك كلّما ولّوا وجوههم إلى هذا المقام الشريف،[1] فأنت السميع من عَليائك في عِليّين وأنت الغفور لذنوب العابدين.

فإن أخطأ أحد في حقّ آخر، وجاءوا به أمام مذبح الأضاحي في حرم بيتك المقدّس، وأقسم ببراءته اليمين، فأنت من السّماء العليم السميع وأنت الحَكَم العدل بين عبادك المؤمنين، فعاقب اللهمّ المذنب حسب ذنبه، وفك قيد البريء المستقيم.

"وإذا وقع بنو يعقوب أمام أعدائهم بسبب خطيئتهم بحقّك منهزمين، ثمّ تابوا إليك توبةً نصوحًا وطلبوا غفرانك في هذا البيت المقيم، فأنت السميع من عليائك وأنت لكلّ خطاياهم الغفور الرحيم، وردّهم إلى الأرض الّتي أعطيتَها لآبائهم الأوّلين.

وإن أغلقت أبواب السّماء وحبست عنهم المطر لأنّهم أخطأوا بحقّك جاحدين، وإذا تابوا إليك بعد الذل الذي أنزلته عليهم وولّوا وجوههم إلى هذا المقام واعترفوا بكلّ الآثام الّتي ارتكبوها تائبين، فيا ربّ اسمع من عُلاك واغفِر آثام بني يعقوب إنّهم قوم عابدون، واهدِهِم الصراط المستقيم، وأنزل غيثك على هذه الأرض الّتي ائتمنت عليها آباءهم الأوّلين.

وإذا أصيبت الأرض بمجاعة أو وباء أو جَفاف أو يَرَقان أو جَراد أو جندب، أو حاصر الأعداء بني يعقوب في مدنهم، ومهما كان نوع المصائب التي قد تحلّ عليهم، لكن إذا تضرع إليك أحدهم من الصميم، ورفع يديه إليكَ ووجّه دعاءه من هذا البيت المقيم، فاستجب له يا الله من عليائك، واغْفِرْ له واجْزِ كلّ واحد حسب أعماله يا أيّها الغفور، لأنّك أنت وحدك عليم بذات الصدور. فيتّقونك ما داموا على هذه الأرض الّتي ائتمنت عليها آباءنا الأوّلين. ويقبل أفراد من أمم أخرى من أقاصي الأرض فيعبدوك ويقيمون الصلاة في هذا البيت مخلصين، عندما تبلغهم عظمة

(1) انظر سورة البقرة: 148. ورأى الثعلبي والطبري من هذه الآية أن لكل ملّة قبلتها الخاصّة.

شأنك وما أقمته بقوّتك أيّها الجليل العظيم. فاستجب يا الله من عليائك، وهب لهم كلّ ما يطلبونه منك، فتعرف جميع أمم الأرض مدى عظمة شأنك كما يعلم ذلك عبادك المخلصون، إنّهم يعلمون علم اليقين أنّ هذا البيت يُرفع فيه ذكرك العظيم.

"وإذا حارب قوم ميثاقك أعدائهم وَفقَ أمرك تعالى، وولّوا وجوههم شطر هذه المدينة الّتي اخترتَها والبيت الّذي أقمتُه لإكرام اسمك الكريم، فاستجب يا الله لصلاتهم وتضرّعاتهم وانصُرْهم على أعدائهم أجمعين.

"يا ربّ، هل يوجد إنسان بلا خطيئة؟ وإذا أخطأ قوم ميثاقك في حقّك، وغضبتَ عليهم وجعلتَ أعداءهم عليهم ينتصرون، ويأخذونهم أسرى إلى بلاد أخرى في أقاصي الأقاليم، ثمّ عادوا إلى صوابهم في الأرض الّتي كانوا فيها مأسورين، فناجوك تائبين: "اللهمّ لقد أخطأنا وفي الضلال سلكنا وما أكبر ذنبنا،" وتابوا إليك توبةً نصوحًا حين ولّوا وجوههم إلى أرضهم الّتي ائتمنت عليها آباءهم الأوّلين، وهذه المدينة المختارة وهذا البيت الّذي أقمتُه ليعظّم فيه اسمك العظيم، فاستجب يا الله لصلاتهم وتضرّعاتهم من عليائك يا أرحم الراحمين، وانصُرْهم، واغفِرْ لهم سيئاتهم مهما تفاقمت، واجعل الرحمة في قلوب آسريهم المنتصرين. فهُم قوم ميثاقك وخاصّتك الّذينَ أخرجتَهم من مصر محرّرين، من أتون العذاب الأليم. اللهمّ إنّك سميع بصير لتضرّعات عبدك، ولتضرّعات قوم ميثاقك، واستجب لهم كلّما استغاثوا إنّك أنت السميع المجيب. لقد أنعمتَ اللهمّ يا مولاي بنعمتك عليهم وفضّلتهم على العالمين، كما أوحيت لنا على لسان عبدك موسى، حينَ أخرجتَ من مصر آباءنا الأوّلين".

النبي سليمان يطلب بركة الله على قومه[1]

ولمّا انتهى النبي سليمانﷺ من تضرعاته أمام المذبح في الحرم حيث كان راكعًا ويداه مبسوطتان إلى السماء، وقف وطلب بركة من ربّه على الحشود بِصوت

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 8: 54–61.

مسموع، فقال: «تبارك الله الّذي أنعم بالفرج على بني يعقوب وجعلهم سالمين، كما جاء على لسان عبده موسى الأمين، إنّه الوفيّ بجميع وعوده العظيمة. ليكن الله ربّنا معنا خير حافظ كما حفظ آباءنا الأوّلين، ولا يخذُلنا ولا يتخلّى عنا، وليجذب قلوبنا إليه فنتبع الصراط المستقيم ونعمل بوصاياه وفرائضه وأحكامه الّتي بها أمر آباءنا الأوّلين. ولتظلّ تضرّعاتي أمامه في كلّ حين، حتّى ينصرني أنا عبده وينصر قوم ميثاقه بني يعقوب في كلّ الأزمان والأحايين، لكي تعلم شعوب الأرض برمّتها علم اليقين أنّ الله هو ربّ العالمين، ولا إله إلاّ هو الحيّ القيوم. أمّا أنتم يا قومي، فكونوا لله مولاكم دائما مخلصين، وأطيعوا فرائضه ووصاياه، كما اليوم تفعلونَ».

تدشين بيت الله[1]

وعندما فرغ النبي سليمان عليه السلام من الدعاء، نزلت نارٌ من السماء فالتهمت الأضاحي والقرابين، وحلّ بهاء الله فملأ أرجاء البيت، فلم يتمكّن الأحبار من دخول بيت الله. ولمّا شاهد الحاضرون النار وهي تهبط وبيت الله يمتلئ بجلاله تعالى، سجدوا على البلاط وسبّحوا بحمد الله، منشدين: «الله كلّه خيرٌ، ووفاؤه يدوم إلى أبد الآبدين.»

وقدّم النبي سليمان وجميع قومه أضاحي اكراما لله، اثنين وعشرين ألفا من البقر، ومئة وعشرين ألفا من الغنم. ووقف الأحبار في المكان المخصّص لهم ونفخوا الأبواق، وفي الجهة المقابلة وقف اللاويّونَ وهم يعزفون على الآلات الّتي صنعها داود عليه السلام للتسبيح وردّدوا أناشيد من كتاب الزبور: «الله كلّه خيرٌ، ووفاؤه يدوم إلى أبد الآبدين.»

ثمّ دشّن سليمان عليه السلام جزءا من الحرم وتحديدا الجزء الأمامي لبيت الله وجعله مكانًا لتقديم الأضاحي وحرقها بأكملها، لأنّ المذبح النحاسي الّذي أقامه لم يكن يتّسع لكلّ هذه الأضاحي. وفي الأسبوع الموالي احتفل النبي سليمان مع قومه بعيد الخيام، وكان الحضور غفيرا، إذ قدم من كلّ صوب، من لَبْوَة في إقليم حماة شمالا

(1) استنادا إلى كتاب أخبار الأيام الثاني 7: 1–10.

إلى وادي العريش جنوبا. ودامت الاحتفالات أسبوعين، في الأسبوع الأوّل وقع تدشين مذبح حرم بيت الله. أمّا الأسبوع الثاني فخصّص للاحتفال بعيد الخيام، وفي اليوم الأخير أقاموا حفلةً ختامية. وعند انتهاء الاحتفالات صرفهم النبي سليمان إلى ديارهم فرحين، منشرحي الصدور، لِما أفاضه الله من خير على النبي داود وعلى ابنه سليمان، وعلى قوم ميثاقه بني يعقوب.

الله يتجلّى للنبي سليمان[1]

أتمّ النبي سليمان عليه السلام بناء بيت الله وقصره الملكي، ونجح في كلّ الأعمال الّتي عزم عليها. وأثناء الليل تجلّى الله له وأوحى إليه قائلاً: «إنّي لدعائك سميعٌ مجيب، لذلك قبلت أن تُقدَّم في هذا البيت الأضاحي والقرابين. فإن أغلقتُ أبواب السماء وحبستُ المطر عن قوم ميثاقي أو أمرتُ جرادا بأن يأكل زرعهم، أو أرسلتُ عليهم وباء، ثمّ يتوقّفون عن تكبّرهم الأثيم، ويتضرّعون إليّ ابتغاء وجهي الكريم، ويرجعون عن كلّ ما ارتكبوه من سوء تائبين، فأنا لهم سميعٌ بصير ولخطاياهم رحيم غفور ولأرضهم مُخصب من جديد. ومن الآن، فإنّي لهذا البيت رقيبٌ أمين، ولكلّ الصلوات التي تقام فيه سميع مجيب. فأنا اخترتُهُ وسخّرتُه ليُرفع فيه اسمي في كلّ حين، وأكون لهذا البيت خير حافظ إلى أبد الآبدين. أمّا أنت يا سليمان، فإن سلكتَ كما سلك أبوك داود صراطي المستقيم، وعملتَ بكلّ أوامري، وحفظت فرائضي وأحكامي، فإنّي أجعل عرش مملكتك على أسس ثابتة يقيم، وأجعل عليه أحدا من ذرّيّتك إلى أبد الآبدين، كما وعدتُ أباك داود الأمين. لكن إذا تركتم فرائضي ووصاياي منحرفين، وعبدتم آلهةً دون الله ولها انحنيتم ساجدين، فإنّي أجتثّكم من الأرض الّتي جعلتكم عليها مؤتمنين، وأنبذ هذا البيت الّذي سخّرتُه ليُرفع فيه اسمي الكريم، ويصبح مضربا للأمثال، ومنه تسخر شعوب العالمين. ويعمّ الخراب في هذا البيت العظيم، وكلّ مَن يمرّ به يتساءل في دهشة: لماذا أنزل الله كلّ هذه الفظائع على هذه الأرض وهذا المقام القديم؟ فيأتيهم الجواب: «لأنّهم تركوا الله

(1) استنادا إلى كتاب أخبار الأيام الثاني 7: 11–22.

ربّ آبائهم الأوّلين، ربّهم الّذي أخرجهم من أرض مصر محرّرين، واتّخذوا من دونه آلهة وسجدوا لها عابدين».

النبي سليمان وزوجاته(1)

وعشق سليمانعليه السلام إلى جانب ابنة فِرعون نساء كثيرات من بلاد موآب وعمّون وأدوم وصيدا والحِثّيين، وتزوّج بهنّ رغم أنّ الله نهى عباده عن التصاهر مع هذه الأمم الوثنية، لعلها تجرّهم إلى التضليل وعبادة الأوثان من دونه تعالى. ورغم ذلك فقد واصل النبي سليمانعليه السلام عشقه لهؤلاء النسوة. وتزوّج سبع مئة زوجة من الأميرات وثلاث مئة جارية، فكلّ هؤلاء النسوة جذبن قلبه.

بلقيس ملكة سبأ في قصر سليمانعليه السلام(2)

بلغ صيت النبي سليمانعليه السلام الذي رفع ذكر ربّه إلى ملكة سَبأ في اليمن، فاتّجهت إلى القدس لتسأله وتمتحنه. ووصلت القدس في موكب عظيم ومعها جمال محمّلة بالطيب وكثير من الذهب والحجارة الكريمة، وعند لقائها بسليمانَعليه السلام كشفت له ما يجول في خاطرها. فأجابهاعليه السلام عن كلّ استفساراتها بكلّ براعة. فذهلت ملكة سَبأ من حكمةَ النبي سليمان، وانبهرت بفخامة قصره، وتنوّع طعام موائده، ونظام مجلس حاشيته، وهندام خدامه وسُقاته، واندهشت من الأضاحي الّتي كان يقدّمها في بيت الله. فقالت له: «إنّ كلّ ما بلغني من أخبار في بلادي عن إنجازاتك وحكمتك، لا يقبل الشك! لكنّي ما صدقت ما بلغني حتّى شاهدتُ بأمّ عيني! إنّ حكمتك وثروتك أكبر مما بلغني عنك وأعظم ممّا أخبر عنها المشاهدون. هنيئا لرجال حاشيتك فهُم في مَحضرك دائمًا بحكمتك ينعمون! تبارك الله ربّك الّذي رضي عنك وجعلك تعتلي عرش بني يعقوب. ولأنّ الله يحبّ بني يعقوب إلى أبد الآبدين، فقد أقامك ملكا لتحكم بالعدل والإنصاف العظيم.» ثمّ قدّمت ملكة سَبأ لسليمانعليه السلام عشرين قِنطارا من الذهب وكثيرا من الطيب والحجر الكريم. وكان مقدار الطيب كثيرا إلى درجة

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 11: 1-3.

(2) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 10: 1-13.

أنّ النبي سليمان لم يحصل على مِثله بعد ذلك الحين. وقدّم النبي سليمان لملكة سَبإ كلّ ما طلبتْه، وغمرها بهدايا عادة ما يتداولها الملوك فيما بينهم والسلاطين، ثمّ عادت إلى بلادها مع حاشيتها راحلين. وحملت سفن الملك حيرامَ القادمة من أوفير ذهبا وكثيرا من خشب الصَندل وكل أنواع الحجر الكريم. فأمر سليمانعليه السلام أن يُستعمل خشب الصّندل لصنع زوايا داخل بيت الله كما أمر بصنع قيثارات ورباب للمُغنِّين في القصر مع أنّه لم يسمح باستعمال مِثل ذلك الخشب من قبل. ولم يشاهد نظير لهذا الخشب إلى اليوم.

ثروة النبي سليمان[1]

وكان سليمانعليه السلام يستلم سنويًا ما يقارب ثلاثة وعشرين طنًّا من الذهب دون احتساب الذهب الذي يدفعه التجّار وجميع ملوك العرب وولاة البلاد. وأمر النبي سليمان بصنع مئتي تُرس كبير من ذهب مطروق، وزن الواحد ثلاثة كيلوجرامات ونصف من الذهب الخالص، وثلاث مئة تُرس صغير من ذهب مطروق، وزن الواحد منها كيلوجرام وثلاثة أرباع من الذّهب، وحفظها في قصر يدعى غابة لبنان. كما أمر عليه السلام بصنع كرسي كبير لعرشه من عاجٍ وألبسه ذهبا خالصا. ويتكوّن كرسي عرشه من سِتّ درجات ورأس مستديرة من الخلف، وعلى جانبي المقعد يَدان وتمثالان لأسدين واقفين عند اليدَين، ونصب اثنا عشر تمثالا لأسود منتصبة على الدّرجات الستّ من هنا ومن هناك، وما من نظير لعرش مملكته في الدنيا كلّها. وجعل النبي سليمان جميع كؤوسه وكلّ الأدوات في قصر غابة لبنان من الذهب الخالص، ولم يكن بينها أدوات من فضّة، لأنّ الفضّة لا قيمة لها في أيّامه. وكان لسليمانعليه السلام سفن تجاريّة، وكانت تبحر مع سفن الملك حِيرام وتعود مرّة كلّ ثلاث سنوات محمّلة بالذهب والفضّة والعاج والقُرود والطواويس. وتفوّق النبي سليمان على جميع ملوك الأرض بثروته وحكمته. وكان الناس يتوافدون عليه من كلّ أصقاع الأرض ملتمسين منه شرف الشورى وسماع الحكمة الّتي منحه الله إيّاها. وسنة بعد أخرى كان الناس

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 10: 14-29.

يتوافدون عليه أفواجًا أفواجًا محمّلين بهدايا: أوان فضّيّة وأخرى ذهبية وملابس وأسلحة وطيب وخيل وبــغال.

وجمع النبي سليمان عليه السلام جيوشا من مَركبات وخَيل، تتألف من ألف وأربع مئة مركبة واثني عشر ألف فرس، وجعل بعضها يتمركز في المدن المحصَّنة وبعضها الآخر على مقربة منه في القدس. وصارت الفضّة في القدس من كثرتها كالحجارة وصار خشب الأرز الثمين من كثرته كالجُمَّيز في السّهول. وكان تجّار النبي سليمان يستوردون الخيل من كيليكية والمركبات من مصر ويُصدّرونها لملوك الحِثِّيّين والآراميّين. ويعادل ثمن المركبة ستّ مئة قطعة من الفضّة، وثمن الفرس يساوي مئة وخمسين منها.[1]

ما سيحدث بعد أيام سليمان[2]

لذلك أوحى الله إلى النبي سليمان: «بما أنّك لا تأبه بوصاياي ولا تعمل بفرائضي الّتي أمرتُك بها، فمِن بين يديك أنزع المملكة وأجعل عليها رجلا من حاشيتك المأمورين. لكنّي لا أفعل ذلك في أيّامك إكراما لأبـيك داود، بل في أيام ابنك. ولا أنزع منه المملكة كلّها، بل أستثني عشيرة واحدة إكراما لداود عبدي وللقدس المدينة الّتي اخترتُها».[3]

وفاة سليمان عليه السلام[4]

ودام النبي سليمان على عرش بني يعقوب في القدس أربعين عاما، ثمّ رقد في قبره في حيّ مدينة داود مع آبائه الأوّلين، وخلفه على عرش المملكة ابنه رَحبعام.

(1) انظر سورة ص، الآيات 31–33.
(2) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 11: 11–13.
(3) انظر المقال في هذا المجلّد: ”رؤية في عصمة الأنبياء“.
(4) استنادا إلى كتاب أخبار الأيام الثاني 9: 30–31.

مدخل إلى كتاب أمثال النبي سليمان

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: 43]

كتاب الأمثال هو بمثابة جمع لعدة مجموعات من الأقوال والحكمة ومنها ((أمثال سليمان بن داود)) [من 1: 1 إلى 22: 16]، ومجموعة ثلاثين قولا للحكماء [من 22: 17 إلى 24: 22]، ومجموعة أخرى تسمّى ((المزيد من أمثال سليمان التي سجّلها رجال حِزقيّا ملك يهوذا)) [الفصول ما بين 25 و29]، ومجموعة ((أقوال أجور بن ياقا)) [الفصل 30]، ومجموعة ((أقوال الملك لموئيل التي علمته إيّاها أمّه)) [الفصل 31]. وتوجد أيضا مجموعات صغيرة أخرى في ثنايا هذا الكتاب، بالإضافة إلى المقدمة والخاتمة اللتين ربّما أضيفتا في زمن لاحق.

ومن الواضح في كتاب الأمثال أنّ النبي سليمان عليه السلام تعامل مباشرة مع أغلب المواد فيه، ونقرأ أنه ألّف أكثر من 3000 مثل من تلقاء نفسه (انظر كتاب الملوك الأوّل 4: 32)، وحظي بحكمة فائقة. ورغم ذلك يرى أكثر الباحثين أن التحرير النهائي لكتاب الأمثال تمّ بعد نهاية سبي بني يعقوب في بابل بقليل. وتوجد أمثال مماثلة لكثير من هذه الأمثال في أدبيات مصر وبلاد ما بين النهرين وغيرهما من الحضارات القديمة -وهذا بديهي- إذ كان شائعا في العالم القديم أن تنتشر مثل هذه الأمثال وتُجمع في عدّة أماكن من قبل هواة الحكمة.

ويبدو أنّ أكثر المواد في هذه الأمثال كانت في الأصل بمثابة نصائح أبوية موجّهة للأبناء، أي تلك التي احتوت تحذيرات من الزنى، إضافة إلى نصائح أخرى موجّهة للنجاح في العمل. ولكن بعد زمن أضيفت بعض المواد الأخرى لمخاطبة جمهور أوسع لا يقتصر على الشباب فقط. ويمكننا أن نلاحظ وجود بعض الأمثال التي أضيفت إلى الكتاب وتتعلّق بقيمة الأمهات ومواضيع أخرى تحظى بأهمية عند عامّة الناس.

ويهدف هذا الكتاب إلى تعليم الحكمة للناشئة والكبار على حدّ سواء. والحكمة في اعتقاد القدامى هي أقوال ذات مفاهيم عملية للإنسان تدفعه إلى الفلاح في حياته، وهي ليست أفكارا نظرية فحسب. ويذهب القدامى إلى أنّ صانع الجواهر الماهر يتّصف بالحكمة شأنه شأن الملك الذي يحكم شعبه بالفطنة والذكاء. إنّ الحكمة على هذا المنوال تجعل الإنسان ناجحا في حياته ومستمتعا بعمر أطول، والأهمّ من ذلك كله أن يكون مؤمنا مستقيما. ويأتي في هذا الكتاب تصوير للحكمة على أنها الكائن المميّز لدى الله وهو شبيه بامرأة مضيافة محترمة مثل المضيفات في الثقافة البدوية العشائرية. ومن ناحية أخرى، تمّ تشبيه الغباء بامرأة غانية، ويحمل هذا التشبيه تلميحا بضرورة أن يسعى الشّاب إلى الحكمة الفاضلة، ولا يقع ضحية للمرأة الغانية.

ورأى بعض المؤمنين أن تقديم الحكمة كامرأة حكيمة في كتاب الأمثال هو تلميح إلى شخص السيد المسيح، إذ ورد وصفه في الإنجيل الشريف ككلمة الله التي ألقاها إلى مريم العذراء فأصبحت إنسانا. ويعرض السيد المسيح على البشر الحق والنعيم عندما يصبحون من أتباعه، وهو ما نراه في دعوة الحكمة إلى الفلاح في الفصول من 1 إلى 9 من كتاب الأمثال. وفي كل الأحوال تعلّم هذه الأمثال أنّ مصدر الحكمة هو الله، ولا وجود لحكمة حقيقية إلاّ من لدنه تعالى.

باسم الله تبارك وتعالى

مقتطفات من أمثال النبي سليمان الحكيم

غاية الأمثال[1]

يقول ملك بني يعقوب سُليمان بن داود هذه الأقوال،
لإرشاد الناس إلى الآداب وحكيم الأمثال،
ولتدبّر كلام الحكماء،[2]
وانتهاج حياة العُقلاء.
ففيها يتجلّى الحقّ والعدل والصراط المستقيم،
وبها تتفتّح بصيرة البسطاء.
إنّها النور والجلاء لغير الخبراء،
بها يزداد الحكيم عِلما
والراشد هُدى وفهما.
فيتدبّر معانيها الرشيد
ويسبر الألغاز ومعاني أقوال الحكماء.

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 1: 1–7.
(2) انظر سورة العنكبوت: 43.

إنّ جوهر الحكمة تقوى الله،[1]

أمّا من احتقرها فهو من السفهاء.

نصائح الوالدين[2]

يا بنيّ أصغ إلى أبيك وما ينبس إليك من توجيه،

ولا تغفل عن أمّك وما تقدّم إليك من تنبيه.

إن نصائح الآباء تيجان للأبناء

وزينة على صدورهم وبهاء.

يا بُني، إنْ بسط لك الآثمون مغرياتهم،

فلا تسر إلى رغباتهم.

وإن قالوا: «انضمّ إلينا إنّا لجماعة أقوياء!

إنّا بالناس متربّصون

نريد سفك الدماء

إنّا بالدّماء البريئة منتشون!

فلنبتلعهُم كما تبتلع الهوّة السوداء معشر الأحياء

لننزلهم إلى القبر وهم أصحّاء،

ولنسلبهم ممتلكاتهم الفاخرة فنكون غانمين

ولنملأ بيوتنا بالغنائم والثّراء!

فنصيبك مثلنا سواء بسواء».

فلا تتّبع يا بنيّ سبيلهم العرجاء،

ولا تسلك الطريق التي فيها يسيرون.

(1) قارن بما جاء في الحديث: "وَرَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ". الجامع الصغير، 1609.

(2) استنادا إلى سفر الأمثال 1: 8–19.

إنّهم يسارعون الخطى وقد بيّتوا أنّهم للجرم مرتكبون
ويتدافعون إلى سفك الدّماء.
إنّ الطائر إذا رأى صيادا ينصب شِباكا فرّ منه وتولّى
أمّا هؤلاء الأشرار فلأنفسهم يكيدون،
ينصبون كمينا فيه يهلكون
إنّ الطّامعين في مال ليس لهم،
يرهنون حياتهم، ألا بئس ما هم إليه صائرون.

نداء الحكمة[1]

إنّ الحكمة تَصدح في الشّوارع والطرقات،
وتنادي بأعلى صوتها في الأسواق والساحات.
إنّها تستحث الحشود،
وتهتف عند مداخل المدينة بكل موجود:
أيّها الجاهلون،
أما آن لكم أن تتركوا جهلكم الشديد؟
حتّى متى بالسخرية يهيم السّاخرون؟
حتّى متى يُبغض الحمقى الرأي السديد؟
هلمّوا فاسمعوا نصحي وعتابي،
فتفيض روحي عليكم
وأبوح بحكمتي إليكم.
لطالما دعوتُكم لكنّكم لدعوتي رافضون،

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 1: 20-33.

ومددتُ يدي فكنتم غير مكترثين.

تجاهلتم نصائحي وولّيتم عن عتابي،

وإنّي لساخرة منكم حين يحلّ عليكم البلاء،

ولشامتة بكم إن استبدّ بكم الرعب والظلماء،

وتأخذكم محنتكم أخذ العواصف

وتطبق عليكم إطباق الزوابع والمخاوف

فتتخبّطون في ضيق وعناء.

وحينها بي سوف تستغيثون

ولكن هيهات ما من مجيب،

وحينها عنّي سوف تبحثون

ولا أثر لي أمام أعينكم ولا وجود.

لقد أبغضتم البصيرة والتبيين

واستهنتم بتقوى الله العظيم،

ورفضتم نصائحي

وولّيتم عن عتابي،

من الضلال الذي زرعتموه تنالون

ومِن عواقب مكائدكم تشبعون،

ألا إنّ الجهلة بضلالهم إلى الموت ينقادون،

والحمقى بغفلتهم في الهلاك يقعون.

أمّا السامعون لما أقول ففي أمان يسكنون،

ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

نصيحة أبوية[1]

يا بنيّ، أصغ لِما أقول
واحفظ في قلبك وصاياي
أعر أذنا صاغية لكلام الحكيم
وبادر بكلّ قلبك إلى إدراك الفهيم.
أجل، اجعل البصيرة غاية المراد
واطلب الفهْم في أقاصي البلاد،
يا بنيّ، إنّ الحكمة كالفضّة، فاسع وراءها ولا تتعبْ
وابحث عنها كبحثك عن الكُنوز والذّهبْ،
فمتى ظفرت بها، علمت حقيقة تقوى الله
وأصبحت من العارفين.
إنّ الله واهب الحكمة والهداية
ومنه ينبع الفهم والدراية،
ومنه الفلاح للمستقيمين
وهو حام للمخلصين.
إنّه للصالح العادل رقيب،
وللمتّقين حافظ ومنهم قريب.
يا بنيّ، بالحكمة تتبيّن العَدل والإنصاف،
وتهتدي إلى كلّ سبيل صالح قويم.
حينها تأخذ الحكمة بفكرك والشغاف،
وينشرح صدرك تبصّرا بالنّور المبين.

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 2: 1–11.

إنّ حُسن تدبيرك يحميك من الأعداء،
وفهمُك نصير لك في كلّ حين.

المزيد من النصائح[1]

يا بُني، بالحكمة تنجو من كيد الكائدين
وبها تنأى عن كذب الكاذبين.
إنّ الذين يحيدون عن الصراط المستقيم
يرتكبون الشرور فيفرحون
وبنفاقهم وزيغهم يستمتعون
وفي سُلوكهم ينحرفون.
إنّ سبلهم ملتوية ومآلهم الظلمات
فيها يسلكون مع مرتكبي السيئات.
إنّما بالحكمة تنجو من المرأة الغانية،
ولا توقعك بكلامها المعسول اللّعين،
تلك الّتي تخلّت عن شريك حياتها الأليف،
وكفرت بعهد الله اللطيف،
إنّ مَن يدخل بيت الغانية يفتح على نفسه طريق الممات،
فيهوي بجهله إلى عمق الظُّلُمات.
أجل، كلّ الذين يدخلون بيتها لا يعودون
وسبل الحياة لا يجدون.
يا بنيّ، اتّبع الصّالحين

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 2: 12-22.

واسلك طريق الصّدّيقين
إنّ المستقيمين في الأرض يسكنون،
أجل، إنّما يعمّر الأرض الأبرار المخلصون.
أمّا الأشرار فعنها يُبْعَدون،
ويُنزع منها الغادرون.

لا تغفل عن الوصايا[1]

يا بني، لا تغفل عن وصاياي،
احفظْها عن ظهر قلب،
إنّها تضيف إلى عمرك سنينا وعهودا،
فتنعم عيشا رغيدا.
زيّن عنقك بالأمانة والوفاء
واحفظهما في قلبك كالنقش الجميل
سوف يرضى عنك الله الجليل
ويُرفع شأنك بين العالمين.
وتوَكّلْ يا بنيّ ملء قلبك على المولى
ولا تظنّن أنك من دونه فهيم،
بل اسعَ في أعمالك إلى مرضاة الله تعالى،
فيهديك الصراط المستقيم.
لا تتباهَ بما تدّعيه من حكمة ورشاد،
واتَّقِ الله ولا تسلك طرق الفساد.

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 3: 1-12.

إنّ في ذلك الصحّة والسلامة والسّداد.

أكرم الله بما تنفق من مالك ومن بواكير محاصيلك،

إنّ هذه التقدمة تملأ مخازنك قمحا وشعيرا

وتفيض مَعاصرك عصيرا.

يا بُنيّ، لا تستخف بما ينزل الله عليك من بلاء

ولا تقنط إن عاتبك ربّ السّماء،

فمَن أَحبّه الله أَدّبه تأديبا،

كما يراقب الأب ابنا حبيبا.

قيمة الحكمة[1]

هنيئا لِمَن بالحكمة يقنع ويرضى،

وبالفهم يحظى.

إنّ الفضّة لا تعادل مكاسبها

والذهب لا يساوي أرباحها.

إنّها أغلى من جميع اللّآلئ الكريمة،

ولا شيء يعادلها من كنوزك الثمينة.

إنّها تهب لك بيمينها عمرا طويلا،

وتعطيك بشمالها رخاء وشرفا جليلا.

طريقها تقود إلى الهناء،

ودروبها سالكة في كل الأنحاء.

إنّ الحكمة شجرة حياة ونعيم،

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 3: 13-20.

فهنيئا لكلّ من بالحكمة يعتصمون.

إنّ الله خلق الأرض بالحكمة والتبيين،

ورفع السّماوات بتدبيره الحكيم.

وتفجّرت الينابيع بعلمه العميم

وأمطرت من السماء الغيوم.

حسن التدبير منبع الحياة[1]

يا بنيّ، كن الحكيم البصير،

ولا تترك حُسن التّدبير،

ولا تتركهما عنك يبتعدان،

ففيهما منبع حياتك فلا تدعهما ينفلتان،

وبهما يزهو عمرك ويزدان،

وبهما تلقى في طريق حياتك الأمان،

فلا تعثر في طريق الحياة القدمان.

وتخلد إلى النوم بلا خوف مرتاحا،

وتنام نوما عميقا

ولا تخش أن تباغتك مصيبة أو بلاء

إنّهما ينتظران الأشرار،

لأنّ الله لك حفيظ ستّار

ويحرسك فلا تقع في فخ الآثمين.

احترس أن تمنع الخير عمّن يستحقّون،

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 3: 21-35.

إذا كنت إلى الخير من المهتدين.

لا تؤجّل عطاء أصحاب الأجر، إنّه حقّهم اليقين،

وإن كنت قادرا على عونهم، فلا تصرفهم خائبين.[1]

ولا تُحِكِ الدَّسائس لجارك

إنّه بجوارك في أمان يقيم،

واحذر أن تكون من الظالمين

فتكون لمن لم يؤذك من المخاصمين.

ولا تكن للظالمين حسودا،

ولا تقلّدهم تقليدا.

إنّهم عند الله مقيتون،

وأمّا المُتّقين فأنقياء مقرّبون.

وإنّ لعنة الله تطارد معاقل الأشرار

أمّا بركته فتحلّ على بيوت الأبرار.

إنّ الله يسخر من المستخفين

وَيُنْعِمُ على المُتواضعين.

أهل الحكمة يرثون الإكرام،

أمّا الجهلة فينالون الهوان.

فوائد الحكمة[2]

أصغوا يا أبنائي إلى ما يقول أبوكم،

نعم، أصغوا لتكونوا من أصحاب الفطنة والذكاء.

(1) انظر الإنجيل، لوقا 11: 5–10.

(2) استنادا إلى سفر الأمثال 4: 1–9.

ولا تكونوا ممّن يهمل كلام النّصحاء،

إنّها نافعة صالحة للمنصتين.

فحين كنتُ محبوب أبي وعزيز أمّي

كان أبي لي من المرشدين

يقول لي بصوت حنون:

"اجعل وصاياي يا بُني في قلبك كالنقش الثمين،

فبها تعرف رغد النعيم.

اسعَ وراء الفطنة وحكمة الحكماء،

واحذر أن تحيد عن وصاياي،

أو تترك الحكمة التي تحميك،

وأخلص إليها فإنّها تنجّيك.

إنّ أعظم ما تظفر به أن تكون حكيما،

فابذل الغالي والنفيس حتّى تكون فهيما.

واجعل الحكمة غايتك القصوى،

حتى يُرفع مقامك فوق الورى

وتشبّث بها إنّها منبع للهيبة والاحترام

وعلوّ المكانة والمقام.

إنّها إكليلٌ يُتوّج رأسك

وتاج جليل يشعّ من فوقك».

طريق الفلاح والنجاة[1]

يا بُنيّ اعمل بوصيّتي فبها يصبح عمرك طويلا،
إنّ كلامي إليك يرسم طريق الحكمة ويهديك سبيلا،
ستَسلك الطريق دون زلل، ثابتا لا تعترضك العقبات.
تمسّكْ بنصائحي ولا تغفل عنها،
وحافظْ عليها إنَّها طريق الفلاح والنجاة.
لا تتّبع خطى الأشرار،
ولا تسلُكْ طريق الفاسقين،
لا تدخل دروبهم المليئة بالأشواك،
بل ابتعدْ عنها وامض في السبيل القويم.
فهؤلاء لا يخلدون للنوم إلاّ وقد ارتكبوا سوءا،
أو جعلوا أحدا ينضمّ إلى المارقين.
فالظلم هو الخبز الّذي به يشبعون.
والعنف هو الخمر الّذي به يسكرون.
أمّا سبيل الصّدّيقين فمِثل انبلاج الصباح،
إشراقه يتزايد مع النهار الوضّاح.
وطريق الأشرار تنتهي إلى الظلمات،
وفي سيرهم يتعثرون ويقعون ولكنّهم لا يفقهون.

تجنّب الكذب والرياء والبهتان[2]

يا بُنيّ، انتبه إلى أقوالي،

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 4: 10–19.
(2) استنادا إلى سفر الأمثال 4: 20–27.

واجعلها دائما على البالِ
أجل، اجعلها نصب عينَيك بالمرصاد،
واحفظْها دائما في الفؤاد.
فتكون حياتك حياة الهانئين،
إنّ أقوالي شفاءٌ للمهتدين.
واحفظ يا بنيّ قلبك من كل العيوب،
إنه أصل الحياة ومنبعها المرغوب.(1)
وتجنَّبْ الكذب والرياء والبهتان،
أجل، تجنّب كلّ أنواع الزيغ في الكلام.
وانظرْ إلى الأمام بعين اليقين
ونحو هدفك صوّب النظر المستقيم.
واتّبع سواء السبيل فهو ثابت وأمين،
ولا تنحرف إلى الشمال ولا إلى اليمين،
ولا تسر على خطى الظالمين.

تحذير من الفسق(2)

يا بُنيّ أصغِ إلى حكمتي وأقوالي
وأنصت إليها جيّدا واتّبعها في كل الأحوالِ،
حتى تُحسِن لحياتك التدبير
وتنطق نطق العاقل البصير.
احذر من الغانية فإنّ شفتيها عسلا تقطران

(1) انظر الإنجيل، متّى 12: 34.
(2) استنادا إلى سفر الأمثال 5: 1-14.

وكلامها كالزّيت يسيل من اللسان.

ولكنّها في الحقيقة أمرّ من الحنظل والزقّوم،

وحادّة كسيفٍ مسنون.

فحذار أن تقع في حبالها فتهوي إلى دركات الفناء،

وبخطواتها تفتح لك طريقا إلى الظلماء.

إنّها لا تكترث بالسبيل السويّ الذي يوصل إلى حياة الهناء،

بل تسلك في غفلتها طرقا ملتوية عرجاء.

والآن يا بنيّ أصغ إليّ جيّدا وانتبه إلى أقوالي

ولا تَحِدْ في سبيلك عن الكلام التالي:

تجنّب تلك الغانية اللعوب

ولا تقترِبْ من عتبة بيتها الكئيب،

لئلاّ تهتزّ كرامتك أمام الآخرين

وتخسر بلا رحمة ما جمعته عبر السنين،

ويشبع الغريب مِن مكسبك الثمين،

وتؤول خيراتك إلى الآخرين.

وتصبح نحيلا وتنتهي أيامك بأنين.

وحينها تقول: «كم أبغضتُ من يقوّمني في صباي

واستخففتُ بنصائحه إليّ

وصراخه عليّ.

ليتني أصغيت للكلام السديد

ليتني لم أهمل قول من علّمني الفعل الرشيد.

أمّا الآن فقد صرت أمام الملإ من الخاسرين.

افرح بزوجتك[1]

اعلم يا بنيّ أنّ زوجتك مباركة كالماء
فلا تشرب إلاّ من بئرك ذات الصّفاء.
لِمَ تترك ينابيعك تفيض إلى جداول أخرى،
وتجري كالسواقي في السّاحات الكبرى؟
احرسها واجعلها لك لا للغرباء،
أجل، إنّها لك دون غيرك من الورى.
فلتسعد مع زوجتك منبع خيرك المرتجى
أجل، افرح بمن تزوّجتها في شبابك، فهي النعيم الحنون.
ما أجملها إنّها ممشوقة كالريم
ترتوي بحبّها كلّ حين،
وبهُيامها على الدّوام تَهيم.
فلماذا يا بنيّ تسعى وراء زانية لعوب،
أو تحضن غانية كذوب؟
إنّ الله بالإنسان بصير،
وعلى جميع أعماله رقيب وبها خبير.
يُؤْخَذُ بِشَرِّهِ الإنسانُ الشّرّيرُ
وتُوقِعُهُ حبائلُ إثمه الكبير.
ولا يكبح جماح شهواته فيهلك كالظالمين
ويُمسي بكثرة حماقته من الخاسرين.

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 5: 15-23.

تحذيرات أخرى[1]

يا بُنيّ، هل وثقت في أحد الناس وكنت لدينه كفيلا
ولكنّه بات عن سداد الدَين غير قدير؟
وبسبب وعدك أصبحت عن هذا الدَين مسؤولا!
يا بنيّ اسمع نصيحة حكيم خبير،
لقد وقعت في فخّه الخطير،
فالتمس منه أن يسقط اسمك من الدّين
اذهب إليه حالا، قبل أن تخلد إلى النوم،
ولا تتردّد لحظة ولا تتراجع ولو قليلا،
فتنجو من المصيدة كالغزال،
وكالعصفور مِن الصيّاد وما له من نبال.

تعلّم من النّملة فقد صرت كسولا،
ألا تفقه يا بنيّ؟ انظر في عملها الدؤوب
فلا قائد يقودها ولا يرقبها رقيب
ولا مشرف عليها ولا دليلا
تجتهد طوال الصيف
فتجمع مؤونتها من الحصاد.
يا كسول، إلى متى تتكاسل وتنام مع النائمين؟
استفق من النوم المَهين!
تغفو بين عمل وعمل مع الكسالى البسطاء

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 6: 1-19.

وللراحة تطوي يديك في ارتخاء.
ولكن الفقر يباغتك كالمجرمين،
أو يسلب ما لديك كغزاة مسلّحين.[1]

الأثيم اللئيم، وما أدراك ما الأثيم اللئيم
إنّه مراوغ سقيم
يكشف إلى رفاقه ما في صدره اللعين
فيغمز بعينَيهِ ويشير بِرجليه
ويومئ بإصبعه في غش ورياء.
أجل، في قلبه يتربّع الالتواء
فيثير السوء والخِصام في كلّ حين.
وتباغته المحن الشقاء،
فينكسر في الحال ويصبح من الهالكين.

إنّما يبغض الله من الأمور،
ستّة أو سبعة ويمقتها مقتا:
عينان مُتعاليتان،
لسان لا يجري عليه إلا الكذب والبهتان،
يَدان لدماء الأبرياء سافكتان،
وقلب يتآمر لإرتكاب الآثام،
وقدمان إلى الظلم تحثان الخطى،

(1) قارن المثلين من الأمثال الشعبية: "مَن لزم الرقاد، عَدِم المراد" و"مَن كَثُر نومُه اشتدّ فقرُه".

وشاهد لا ينطق إلا كلام الزور والبهتان،
ويثير النزاع ويفتّن بين الإخوان.

تحذير من الزنى[1]

يا بُنيّ اِحفظْ إرشاد أبيك الحكيم
ولا تغفل عن تعليم أُمّك القويم
اِحفظه في قلبك كلّ حين،
وزيّن به عُنُقك خير التزيين،
فتهتدي به إلى سواء السبيل
ويحرسك في نومك الثَّقيل،
ويرشدك في يقظتك حقّ الدليل.
إنّ وصايا والديك مصباحٌ وإرشادهما ضياء،
فخذ منهما العتاب والتأديب حتى تكون حياتك في سواء السبيل.
إنّ وصايا والديك مِن الغانية تحميك،
ومن مَعسول لسان المخادعة تقيك.
فلا تفتتن بجمالها
ولا تُؤخَذْ بسحر عيونها.
إنّ معاشرة العاهرة قد يحرمك ثمن الرغيف البخس،
ولكن معاشرة المتزوّجة قد يؤدي إلى هلاك النفس.
فكيف للإنسان أن يحتضن نارا
ولا تحترق ثيابه من الشرر؟

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 6: 20-35.

كيف يمشي دون أذى على اللهيب والجمر؟
هكذا عاقبة مَن يعاشر زوجة الجار،
إنّ من يقترب منها حتما يُعاقب ويحلّ عليه الدمار.

إن مَن يسرق رغيفا لا يُلام
فقد سرقه وهو جوعان،
ولكن حين يُقبض عليه يجب أن يعيد ثمنه سبع مرّات،
حتّى لو كلّفه ذلك كلّ ما في داره من ممتلكات.
أمّا من يعاشر متزوّجة فقد وقع في جهل مبين
وبأفعاله الشنيعة يصبح من الهالكين.
فيلقى الضرب المبرّح والهوان،
وعاره بين الناس لا يُمحى،
وزوجها لن يتردّد ساعة الانتقام
ومهما عرضت مقابل شرفه رشوة لن يرضى
فالشرف والنخوة أرفع من الذهب وأغلى.

دعوة الحكمة(1)

ألا اسمعوا إنّ الحكمة تنادي بصوت مبين،
وترفع صوتها عاليا للعالمين!
منتصبة تصدح مِن قمم المرتفعات
وفي محاذاة الطريق وعند مفترق الطرقات،

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 8: 1-11.

وعند بوّابات المدينة،

من حيث يدخل الداخلون.

إنّ صوت الحكمة يعلو، أيّها الناس هلمّوا إليّ منصتين!

أقبلوا يا بني آدم في الأرضين!

أيّها البسطاء ألا تعقلون؟

أيّها الأغبياء ألا تفهمون؟

أنصتوا إنَّ ما أَنْطِقُ به أمر عظيم،

فلا يصدر مني إلاّ الكلام القويم،

ولساني لا يلهج إلاّ بالصِّدق المبين،

وشفتاي لا تنبسان أبدا بكذب الكاذبين

إنّ كلامي صادق كلّه ونبيل،

لا مراوغة فيه ولا تضليل.

إنّه جليّ مبين،

لكلّ ذي فهم فطين

وعند أصحاب التبصّر المستنيرين.

أيّها الناس! خذوا بدل الفضّة رأي الحكماء

وبدل الذهب مشورة العلماء.

إنّ الحكمة خيرٌ مِن الحجر الكريم اللألاء،

وكلّ الجواهر لا تُضاهيها في البهاء.

هبات الحكمة[1]

أنا الحكمة لا جار لي إلاّ تبصّر البصير،
ومنّي المعرفة وحُسن التدبير.
إنّ من يتّقي الله يُبغض الشرّ كلّ البغضاء.
إنّي لا أطيق الغطرسة ولا الكبرياء
ولا الفساد ولا خبث الخبثاء.
أمنح المشورة والرأي السديد
أمنح البصيرة والبأس الشديد.
بعوني يحفظ ممالكهم الملوك والسلاطين
ويُصدر الحُكّام أعدل القوانين
بعوني يحكم الولاة في العالمين
وبالقسط يقاضي الأمراء والحاكمين.
أُحبّ كلّ من يحبّني،
ومَن يبحث عني يجدني.
أمنح الكرامة والثراء
ودوام الخير والرخاء.
هباتي أثمن من خالص الذهب في النقاء،
وأفضل من نَقِيِّ الفضّة البيضاء.
أسلك طريق الحقّ والوفاء
واتّبع سبل الإنصاف والاستواء،
فأغدق على مَن يحبّونني كريم العطايا
كنوزا تفيض في خزائنهم وهدايا.

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 8: 12-21.

وجود الحكمة عند الخلق[1]

فقد جعلني الله أصلا لكلّ المخلوقات،
وقبل أن يقيم أيّ عمل في الكون أقامني في ثبات.[2]
مِن الأزل خلقني، منذ البدء،
من قبل أن يخلق العالمين.
أوجدني قبل خلق البحار،
وقبل أن يُفجّر المياه من أعماق الينابيع والغمار.
أجل، أوجدني قبل رسوخ الجبال
وقبل أن يقيم الهضاب والتلال،
وقبل أن يخلق الأرض برحابها والأوحال
وكنتُ هناك حين رسّخ السماوات
ورسم الأُفق على سطح المحيطات،
نعم، كنتُ هناك حين وضع الغمام في العُلى
وفجّر ماء الينابيع من الثرى.
وكنتُ هناك حين أرسى حدودا للبحار
لا تعلو فوقها سيول ولا غمار،
ولمّا ألقى أساسات الأرض في اقتدار،
حينها كنتُ بجواره مصمّما ماهر التصميم،
نعم، كنت قرّة عين الله العظيم،

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 8: 22–36.

(2) يرى العديد من المفسرين أنّ وصف حكمة الله الأزلية هنا يقترب كثيرا من وصف كلمة الله الأزلية في الإنجيل: ((استحال الكلمة إلى كائن بشري وعاش في الدنيا بيننا))، والمراد بهذا الكلام تحديدا شخص السيد المسيح (انظر الإنجيل، يوحنّا، الفصل 1).

أفيض بهجةً ومرحا في الإله المتين،
ألا ما أعظم بهجتي بما خلق الله من عالمين،
ألا ما أشدّ فرحي ببَني البشر المخلوقين!

والآن اِسمعوا يا أبنائي الأعزاء،
إنّ كلّ مَن يتّبع طريقي يحظى بالهناء
اِسمعوا نصيحتي وكونوا حكماء،
ولا تتغافلوا عنها كالأغبياء.
هنيئا لمن يأتي إليّ مصغيا
وكلّ يوم يقضي ليله عند عتبة بابي مستهديًا
أمام مَدخل داري ينتظر ويرقب في شوق وحنين.
إنّ مَن ظفر بي ظفر بعيش الهانئين
ونال مرضاة ربّه الحليم
أمّا مَن ضلّ عني، فقد ألحق بنفسه أذى
ومَن أبغضني فقد اختار من الدنيا الردى.

الحكمة والجهالة[1]

قد شَيَّدَتِ الحكمةُ لها مقرّا
ونحَتَت أوتادها السّبعة نحتا.[2]
ذبحت ذبائح للوليمة ومزجت شرابا وفيرا،
وهيّأت لضيوفها مائدة تقديرا،

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 9: 1–18.
(2) انظر الإنجيل، متّى 7: 24.

وأرسلت جَواريَها

إلى مرتفعات المدينة تستحثّ ساكنيها:

"تعالوا إليّ أيّها الجاهلون!"

إنّها تدعو عديمي الفهم من قاطنيها:

"تحلّقوا حول مائدتي، كُلوا من طعامي

واشربوا من شرابي المباح».

أُتركوا الجَهل واسعوا إلى الفلاح،

واسلكوا طريق المتبصّرين.

فمَن عاتب المتكبّر يُهان ويردى،

ومَن وبّخ الشّرّير يتأذى.

تُقَرِّعُ المتكبّرَ فيُبغضَك بغضا،

وتقرّع الحكيم فيزداد فيك حبّا ومنك قُربا.

أرشد الحكيم، يزدد فهما

وعلِّم الصدّيق، يزدد علما.

إنّ جوهر الحكمة تقوى الله،

وإن كنت بالقدّوس من العارفين،

فأنت من المتبصّرين.

بالحكمة تتضاعف سنوات عمرك

وتطول أيّام حياتك

إن كنتَ حكيما، تنفع نفسك،

وإن كنت مستهترا تؤذيها.

إنّ مَثَلَ الحماقة كمثل امرأة غبيّة طائشة،

جاهلةٍ بلا حياء.

تجلس عند باب بيتها في ارتخاء

فوق مرتفعات المدينة

تنادي العابرين:

"تعالوا إليّ أيّها الجهلة السّائرون!"

وتقول لعديمي الفهم الأغبياء:

"مياه الغانية حلوة المذاق،

وخُبزها لذيذ في الخفاء».

ولا يعلم القادمون أن من دخل بيتها صار من الهالكين

وإلى دركات الموت انحدر مع المنحدرين.

من أمثال النبي سليمان(1)

الابن الحكيم لأبيه بهجة

والابن الغبي لأُمّهِ حسرة.

المال المسروق لا يثمر ولا يدوم،

أمّا المال بعرق جبينك فينجيك من الهلاك المحتوم.

الله لا يُهْلِكُ بالجوع الصالحين،

ولكنه قابض لشهوات الطالحين.

الكسول يهوي إلى مرتبة الفقراء،

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 10: 1-7.

والكادح يرقى إلى مرتبة الأغنياء.

العاقل يحصد صيفا ويكسب المراد،

أمّا المَعتوه فيغفو زمن الحصاد.

البركات تغمر رؤوس الأبرار،

والعنف مبطّن في كلام الأشرار.

ذِكْر الصالح خير وهناء،

أمّا الشرّير فإليه الفناء.

المزيد من أمثال النبي سليمان[1]

الجواب اللّيّن يبدّد الغضب العظيم،

والكلام الموجع يلهب الغيظ الدّفين.

تزدان المعرفة على لسان الحكماء

وتنبعث الحماقة من أفواه السفهاء.

إنّ الله عليم بصير،

وهو رقيب على الصالح والشرير.

بلسم الكلام يملأ شجرة الحياة بالثمار،

أمّا الماكر من الكلام فيدفع الروح إلى الدّمار.

الأحمق بنصائح أبيهِ يستهين،

أمّا العاقل فيَقبل بالتقويم.

في بيت الصدّيق كنوز وثراء،

أمّا كسب الشرّير فيعود عليه بالكدر والعناء.

أفواه الحكماء للمعرفة ناشرة،

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 15: 1–10

وقلوب البُلداء منها نافرة.

يمقُت الله قربان الأشرار

ويرضى بصلاة الأخيار.

يمقُت الله سبيل الخبثاء،

ويُبارك أصحاب العدل والسخاء.

ومن يحيد عن سواء السبيل يلقى عسير الجزاء،

ومَن لا يقبل باللوم والعتاب فمآله الفناء.

ومن أمثال النبي سليمان أيضا[1]

صيت حسن خير مِن غِنى عظيم،

ورفعة الشأن خيرٌ من فضة وذهب ثمين.

الغنيّ والفقير متساويان،

لأنّهما من خلق الله الرحمن.

الفهيم الحصيف يجتنب الخطر

أمّا الأحمق فيندفع نحوه ومنه يأتيه الضّرر.

إنّ الخشوع والتقوى

ثوابهما غنى وكرامة وحياة فضلى.

أمّا الفاسدون فطريقهم حُفَّتْ بالأشواك والمكائد،

ولا يأمن حياته إلاّ من عنها تباعد.

يا بنيّ، أرشد ابنك منذ المهد إلى الصراط المستقيم،

وحين يهرم لا يكون عنه من الزائغين.

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 22: 1-6.

نصيحة أمّ[1]

ها هنا قول الملك لَمُوئيل، وفيه رسالة علّمته إيّاها أمُّهُ:

ماذا أقول لك يا بنيّ؟
ماذا أقول لك يا ابن أحشائي وقرّة عينيّ؟
يا ثمرة دعائي ونُذوري؟
لا تُبدّدْ يفاعة شبابك على النساء،
فقبلك هلك ملوك وأمراء.
لا يجدر بالملوك، يا لَمُوئيل،
لا يجدر بالملوك أن يسرفوا في الشراب الموفور،
ولا بالعظماء أن يُدمِنوا الخمور،
لئلاّ يَسكروا فيعبثوا بالقوانين،
ويُهمِلوا دَعاوى المساكين.
إنّ الشراب للهالكين،
للبؤساء المقهورين،
يشربون منه حتّى الثمالة فينسون فقرهم وتعاستهم إلى حين.
يا بُني، اِرفع صوتك دفاعا عن المستضعفين،
وعن حقوق جميع المظلومين.
اِرفع صوتك واحكُمْ عدلا وقسطا
وكن للبائس والمسكين من المنصفين.

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 31: 1-9.

المرأة الفاضلة[1]

ما أصعب العثور على زوجة فاضلة بين النساء!

إنّ قيمَتها تفوق الذّهب اللألاء.

إليها يَطمئنّ قلب زوجها الكريم،

فتغنيه عن الكسب والثراء.

تأتيه طوال حياتها بالسّراء من دون الضراء،

تصنع من الصوف والكتّان خير الكساء

وتعمل في حركة دؤوبة بلا انتهاء،

فهي كالسُّفُن التجارية،

مِن كلّ الأرجاء تأتي بالمأكولات الشهيّة.

تسعى قبل طلوع الفجر

لتُهيِّئ مائدة لأسرتها، وعملا لخادماتها.

بارعة هي في شراء العقارات،

وماهرة في غرس الكروم.

تعمل بعزم واجتهاد.

وتعمل ليلا تحت ضوء سِراجها

باحثة عن الرّبح والصفقات،

تغزل الصوف

وتحيك جميل الثياب بإتقان.

تبسط يد العون إلى المساكين،

وتجود بمالها على المحتاجين.

(1) استنادا إلى سفر الأمثال 31: 10-31.

لا خوف على أهل بيتها من ثلوج الشتاء،

فقد زوّدتهم بالثّوب الدّافئ الثّقيل.

وتصنع لنفسها أغطيةً ولحافا،

وتلبس الديباج والأرجوان أكنافا.

وبها علا شأن زوجها في المجالس والميادين،

وصار في المدينة من الأعيان المكرّمين.

وتُزوّد التجّار بالأثواب

فتبيع لهم جميل الجلباب.

إنّها تكتسي عزّة وبَهاء،

ولا تخشى قادم الأيّام السوداء.

تنطق بالحكمة على الدوام،

وتنبس بلطيف الكلام.

تنظر إلى شؤون بيتها في اهتمام،

ولا يتسلّل إليها الكسل يوما من الأيّام.

يلهج أولادُها بمدحها في افتخار،

وزوجها يثني عليها فيقول في إكبار:

"نساء كثيرات ماهرات،

أمّا أنت فتفوّقت عليهنّ جميعا، وكنت الأفضل بين النساء».

الحُسن خادع والجمال مصيره إلى الفناء،

أمّا المرأة الّتي تتّقي الله فلها المديح الوفير.

ارفعوا شأنها في المجالس بالثّناء،

فعملها يستحقّ المدح والتقدير.

مدخل إلى كتاب الخطيب الحكيم

أطلق صاحب هذا الكتاب لقب الخطيب على نفسه. وقال إنّه سليل للنبي داود (أو ربّما ابن له) وملك على قوم بني يعقوب. وعبر التاريخ رأى كثير من الناس في هذا القول أن النبي سليمان عليه السلام هو من خطّ هذا الكتاب، مستندين في آرائهم على عدد من الإشارات في هذا الكتاب إلى صفات حياة النبي سليمان. غير أنّ العديد من الباحثين المعاصرين يشكّون أنّ سليمان هو من ألّف هذا الكتاب معتبرين أنّ تسجيله تمّ بعد سنوات عديدة من زمن سليمان.

يصنّف الدّارسون كتاب الخطيب الحكيم (أي سفر الجامعة) ضمن آداب الحكمة للكتاب المقدّس. ولكن من الجليّ أنّ هذا النص ليس موجّها إلى شبّان محتاجين إلى الحكمة على منوال سفر الأمثال في الكتاب المقدّس، بل كان هذا الكتاب موجّها إلى الرّاشدين القادرين على تحمّل مواضيعها العويصة ووجهات نظرها المتضاربة، وكان مخصّصا بشكل خاص إلى نخبة شعب بني يعقوب في القديم.

وسعى الخطيب الحكيم إلى أن يستوعب معنى الحياة «في هذه الدنيا» معتمدا في ذلك على حكمته، ولكنّه اكتشف من خلال تجاربه أنّ البشر محدودو الإدراك إلاّ إذا أيّدهم الله، وهم في طبيعتهم لا يستطيعون تمييز مقاصد الله العليا لوجود الإنسان في الدنيا. وتتميّز كلمات الخطيب بشكّ كبير بخصوص ما يقدّره الإنسان في هذه

الحياة فيجتهد النّاس لكي يقيموا بهرجا لتمجيد أنفسهم يدوم إلى الأبد، ولكي يغيّروا مصيرهم ويكسبوا السعادة، أمّا كلّ جهودهم فهي حسب تعبيره ((هباء في هباء))، وهو تعبير يتكرّر عدّة مرّات في هذا الكتاب. ويلاحظ الخطيب الحكيم أنّ كلّ الشؤون في هذه الدنيا تخضع للتبديل والخسران، وفي النّهاية سيلقى كلّ البشر الموت كبارا كانوا أو صغارا.

ينصح الخطيب الحكيم قراءه أن يستمتعوا بهبات الله في هذه الحياة وأن يخشوا الله ويطيعوا وصاياه، فالله وحده الباقي الصّمد وقيمته لا تعادلها قيمة.

بسم الله تبارك وتعالى

كتاب الخطيب الحكيم

أسئلة تجول في ذهن الخطيب الحكيم[1]

هذه أفكار الخطيب الحكيم ابن النبي داود، هو الذي يعتلي العرش في القدس.

يقول الخطيب الحكيم: كلّ شيء عابر وهباء في هباء. أجل، زائل كلّ شيء كالهباء! ما الذي يجنيه الإنسان في هذه الدنيا من أعماله ذات الشقاء؟ جيلٌ يَمضي وآخر يأتي، والكون باق ثابت لا ينقضي.

تُشرق تلكم الشمس وتَغرُبُ في دوران يوميّ،
تُسرِع إلى مخدعها ثمّ تشرق من جديد
تهب الريح جنوبا ثمّ تنتقل إلى الجانب الشمالي،
تدور وتدور ولا جدوى من دورانها الشديد.
الأنهارُ في البحر انصبّت،
فما له لا يفيض
وتعودُ المياه إلى النبع الّذي منه انبجست.
فالأشياء دورانها لا ينقطع، دوران مرهق لا يحدّه وصف،

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم (أي سفر الجامعة) 1: 1–11.

والإنسان عن الكلام لا يشبع ولا يكتفي،

والعين من النظر لا ترتوي

والأذُن عن السماع لا تتوقّف ولا تنتهي.

تلك هي الأحداث تحدث عبر العصور تُكرّرْ

وما أنجزه الإنسان من أعمال في زمن مضى ها هو الآن يعيد إنجازه.

فلا جديد في هذه الدنيا يُذكر.

قد يقول أحدهم:

"انظرْ إلى ما صنعته يداي، إنّه لجديد!"

لكنّه في الحقيقة قديم، إذ إلى أيّ جديد في هذا الكون تنظر.

نحن لا نتذكّر السابقين

ولا أحد سيتذكّرنا من اللاحقين.

تجربة الخطيب الحكيم[1]

أنا الخطيب الحكيم، جلستُ على عرش بني يعقوب في القدس، سعيتُ بكلّ ما أملكه من حكمة إلى أن أفهم ما يفعله الناس في هذه الدنيا، وسرعان ما رأيت أنّ الله كلّف الإنسان بمهمّة تنحني منها الأبدان. واكتشفتُ حين تدبّرت في هذه الأكوان، أنّ أعمال الإنسان هباء أو سديم، تنفلت من أيدينا كالنسيم.

لا يُمكن تقويم الأعوج، فكيف نروم التقويم؟

ونعجز أن نجد المفقود. فهل لبحثنا عنه من جهد سليم؟

فقلتُ في نفسي: «حكمتي تفوق كلّ ملوك القدس السابقين. وإنّي لحكيم خبير

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 1: 12–18.

وبالمعرفة لعليم». فسعيتُ أن أتعلّم من الحكمة والحماقة، فوجدت أنّي ألاحق أمرا عابرا كالنسيم.

فمن كثُرت حكمته انثالت عليه الهموم
ومن ازداد علمه أصابه الشقاء.

تجربة الخطيب الحكيم الأولى: المتعة[1]

وقُلتُ لنفسي: «إنّي بالفرح خبير وإلى السعادة أسير!» ولكن ها أنا أرى أنّ المتع كالهباء المنثور. وقلتُ: «هذا الضحك غباء، وكلّ من وراءه يسعى لا يجني غير الصدى». وبعد تدبّر عميق، حاولتُ أن أشرح صدري وأسقي نفسي من الخمر العتيق. وسعيتُ أن أكون حكيما، لكنّي حافظتُ على الحمق والبلاهة أيضا، حتى أجد منبع سعادة الّذين عبروا الحياة الدنيا.

وأتيتُ أمرا مهمّا، فشيّدت لنفسي قصورا وغرَستُ كروما. وزرعتُ جنّاتٍ وبساتينَ، وغرستُ فيها أشجارَ فاكهةٍ ذاتَ أنواع لا تُحصى. وحفرتُ بِرَكَ ماء لأسقيَ البساتينَ اليانعةَ. وملكتُ جواري وعبيدا ومنهم من كان في بيتي مولودا. واشتريتُ أنعامًا وأغنامًا كثيرة يربو عددها عمّا ملكه ملوك القدس من قبلي. وجمعتُ من الملوك المجاورين كمّا هائلا من الذهب والفضّة. وأصبحت مجالسي تطربها المغنّيات ويسعدها المغنّون، والملذّات بالنساء الفاتنات تغشاها. ما من متعة أو شهوة إلاّ أتيناها. وكذلك صرتُ على القدس أعظم الملوك، وحِكمتي لا أنساها. ونهلتُ من الشهوات ما لذّ وطاب وما حرمت النفس شيئا من هواها، فتمتّعتْ بما أنجزته يداها. ولقد كانت إنجازاتي جزاء على ما بذلته من جهود. غير أنّي تمعّنتُ فيما أنجزته بجهد جهيد، فوجدتُه هباء وخواء، كأنّما ألاحق الهواء. فما الذي يجنيه الإنسان في هذه الدنيا النكراء؟

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 2: 1–11.

تجربة الخطيب الحكيم الثانية: جمع المال[1]

ثمّ قرّرتُ أن أقارن الحكمة بالحمق والجُنون، وقلتُ: «سأجتهد في ذلك لعل من سيخلفني على عرش المملكة يستفيد من جهودي». فوجدتُ أنّ الحكمة أفضل من الحماقات، مثلما أنّ النور أفضلُ منَ الظلمات.

فالحكيم يرى في دربه النور، في حين يتيه الجاهل في الديجور. ولكنّي كنتُ على يقين أنّ كليهما سيلقى الموت مصيرا. فقلتُ في نفسي: «إذا كنتُ سألقى الموت كما يلقاه الجاهلون، فأيّ نفع في أن أكون حكيما؟ إنّ ما وصلتُ إليه هباء منثور. سيأكلنا التراب والديدان ويطوينا النسيان، حكماء كنّا أم جاهلين! وَخَزَنِي ما يجري في هذه الدنيا بألم شديد ونفّرني من الحياة نفورا. فكلّ ما فيها كان هباء منثورا، وكأنّني أمسك بريح ذات خواء. ونفرتُ من كلّ ما أنجزتُه بجهد جهيد، فكلّ ما كسبتُهُ في هذه الحياة سأتركُه لِخَلَفي، تُرى أيكونُ حكيما أم هو في غبائه سعيد؟ وفي النهاية سيملك ما كسبتُه وبذلتُ فيه حكمتي وشقائي. إنّ هذا أيضا هباء في هباء.

أكلني اليأس فجهودي الّتي بذلتُها في هذه الدنيا ستذهب بددا. فكيف يترك الحكماء أهل الفهم والإتقان، ما جَمَعَتْهُ أيديهم لأهل الخمول سدى؟ إنّ هذا كذلك هباء في هباء ومأساة كبرى. أتُرى الإنسان في هذه الدنيا، جنى ثمار جهده الذي وفّى؟ نكابد في حياتنا الآلام والشقاء، فنعمل طيلة النهار، وتحت الأقمار لا يَهدأ لنا بال، ولا نركن للصفاء. لكن هذا أيضا هباء في هباء.

ثمّ قلتُ: لا خير للإنسان إلاّ في الأكل والشراب، وأن يكون بأعماله في رضى، إنّ هذه اللذّاتِ نعيمٌ من الله الوهّاب. فلا أحد يستطيع أن يأكل أو يتنعّم بحياته إلاّ بفضله تعالى. والله يمنح للمرتضى حِكمةً وانشراحا وعلما، ويجعل الآثمين وراء الثروة لاهثين وبجمعها منشغلين، ويعود هذا المال في النهاية إلى من يسرّ به ربّه وعنه يرضى. إنّ هذا كلّه هباء في هباء، وكأنّنا نلاحق ريحا ذات خواء.

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 2: 12–26.

كل الأمور مرهونة بأوانها[1]

لِكلّ شيءٍ في هذه الدنيا أجل مرسوم،

ودورانه يدوم ويدوم:

ولادة وفناء

زرع وحصاد

قتل وإحياء

هدم وبناء

ضحك وبكاء

رقص ورثاء

حجارة مبعثرة وأخرى مجمّعة للبناء

عناق وفراق

كسب وخسارة

حفظ وعطاء

تمزيق الثياب وترقيعها

صمت وكلام

كراهية وهيام

حرب وسلام

ماذا جنى الإنسان من جهده الجهيد؟ إنّ الله ألقى على الناس أوزارًا ذاتَ ثقل شديد. وجعل الله كلّ شيءٍ جميلٍ في أجله المسمّى. وزرع في فؤاد الإنسان توقا إلى الخلود. لكنّ الإنسان لا يمكنه أنْ يسبر غور عظمة أعمال الله مِن البداية إلى النهاية. فرأيتُ أنّ ما من شيء خير للإنسانِ من أن يفرح ويستمتع مادام على قيد الحياة. فقلتُ

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 3: 1–15.

إنّ الله أنعم علينا بالسعادة، فليرضَ الإنسان بالأكل والشراب وبما تثمره أعماله من عند الوهّاب. وأدركتُ أنّ كلّ أعمال الله باقية إلى الأبد، لا زيادة فيها ولا نقصان. ومقاصد الله منها أن يهابه الإنسان. وجعل الله الأحداث كلّها في دوران بلا منتهى، فما حدث فيما مضى، هاهو أمامنا يتجلّى، وما تراه الآن سيحدث لاحقا.

الإنسان والحيوان: المصير[1]

ولقد أبصرتُ أيضا في هذا العالم الظلم والعدوان، بدل القسط والعدل بين الإخوان، فقُلتُ في نفسي: «يجازي الله الصالحين وأهل الفجور، في أجل معلوم مرسوم، بحسب ما كانوا يعملون.» فلا فرق في المصير بين الإنسان والحيوان. ولقد أبان الله أن ليس للإنسان فضل على الحيوان، إنّهما لهواء واحد يتنفّسان وللموت ذائقان، حياتهما عابرة غير ذاتِ قرار، إنها هباء في هباء. إلى مكان واحد ينتهيان، من التراب خُلقا وإلى التراب يعودان. فهل من مدرك إدراك اليقين أنّ روح الإنسان ستعلو إلى عليّين، وروحُ الحيوان ستركن في أسفل سافلين؟

لا أحد يرجعنا إلى هذا العالم بعد الفناء، فليجد كلّ واحد منّا بأعماله كلّ الهناء.

الظلم والشقاء والحسد[2]

وتأمّلتُ الظلم في هذه الدّنيا:

فإذا دموع المظلوم في انهمار،

ولا أحد يخفّف عنه قهر القاهرين،

وسطوة الجبّارين.

أجل، لا أحد يخفّف عنهم ظلم الظالمين.

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 3: 16–22.

(2) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 4: 1–6.

وقلت في نفسي: هنيئا للأموات! إنّهم أسعد من الأحياء حالا، بل هنيئا للذين هم في أرحام أمهاتهم لا يشكون خبالا، إنّهم لم يشهدوا قهرا وزورا، ولم يعاينوا في هذه الدنيا شرورا.

ولقد رأيتُ أنّ ثمار ما نعطيه من جهود، وأن رغبتنا في النجاح، يعودان إلى حسدنا للجيران والأقرباء لعلّنا نكون خيرا منهم. إنّ هذا أيضا هباء في هباء، كأنّنا نلاحق ريحا ذاتَ خواء. إنّ الكسول حين ينفر من العمل يجعل الخراب مآل حياته. وإليكم نصيحتي: حفنة طعام في هدوء ورضى، خير من حفنتين يرافقهما تعب وشقاء، وملاحقة ريح ذات خواء.

قيمة الأنس والوفاء[1]

ولقد رأيتُ أمرا في هذه الدنيا بدا لي هباء في هباء، رجل لا نسيب له ولا أقرباء، يجتهد ويشقى في تجميع أموال لا تحصى، وحين تأتيه النهاية يسأل نفسه في حسرة وشقاء: «ها أنا وحيد، فلمن أشقى كلّ هذا الشقاء، ولمن أحرِم نفسي طعم الهناء؟» إنّ حياته هباء في هباء.

إنّ حياتك وسط الأصدقاء، خير لك من أن تعيش وحيدا، إنّ نجاحكم يكمن في تعاونكم.

فإذا فشلتَ كان صديقك لك عونا وسندا. يا حسرتاه على من يحيا ويسقط وحيدا. وذاك الذي ينام فريدا، فمن يبعث فيه الدفء والحنان في ليلة باردة؟ كيف لأحد أن ينتصر دون مساعدة على أهل العدوان؟ فإذا كان ذا رفيق صدوق، فعلى خصمهما سوف ينتصران. فإذا كانا ثلاثة رفاق فذلك خير لهم، إن الخيط إذا تثلّث عسُر قطعه في أيّ أوان.

ولقد رأيت شابا فقيرا حكيما وهو سجين، كان أفضل من مِنْ مَلِكٍ شيخٍ جاهلٍ لا يرضى بمشورة. فلمّا تحرّر ذلك الشاب الفقير من سجنه، جلس على عرش

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 4: 7–16.

المملكة، بدل الملك الشيخ الجاهل المغرور ورأيت كيف اجتمع الناس ينصرونه حينما أصبح الملك المنصور. فاتّبعه عدد لا يحصى من الجماهير، بيد أنّ جيلا آخر سيأتي لن يكون له ظهيرا أو نصيرا. إنّ هذا أيضا مجرّد هباء في هباء، كأنّه يلاحق ريحا ذات خواء.

جوهر العبادة هو التقوى[1]

إن دخلتَ بيت الله فادخله بخشوع وسكينة، وكن لله سامعًا فهيمًا، إنّ هذا لخيرٌ من الأضاحي الّتي يقدّمها الجهلة الغافلون. تمهّل فيما تقول، ولا تتجاوز قدرك في ما تقدّم من نذور، فالله في علاه، وما أنت إلاّ كائن أرضي، فلتكن إنسانا قليل الكلام حفيظ اللسان وقولك غنيّ بالمعاني.

الكوابيس ثمرة الهمّ المقيم

ومن الثرثرة يصدر القول السقيم

فانتبه إن نذرت للرحمان نذرا، وعجّل الوفاء، إن الله تعالى لا يَرضى عن الغافلين. ألاّ تنذر خيرٌ من أن تكون لنذرك من الغافلين. فلا يسوقنّك إلى الآثام الكلامُ، واجتنب حرج صدرك، فلا تخبر خادم بيت الله أنّ النذر كان سهوًا ومنك غير مقصود، فترد الله غاضبا عليك غضبا فيبدّد ما صنعته أياديك بددًا.

ما أكثر الأحلام،

وما أكثر الألغاز والكلام

ولكنّ التقوى هي واجب عليك بين الأنام.

معنى الغنى[2]

لا تعجبنّ إن أبصرتَ ظالما يقهر المستضعفين في الأرض ويضع تحت قدميه

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 5: 1-7.

(2) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 5: 8-20.

الحق والعدل. فكلّ مسؤول يستند إلى حاميه وراعيه، ويحتميان بمن هو أعظم منهما. فحتى الملك يأكل ثمار الأرض، إنّ حُكمه يربُو من شقاء الفلاّحين. فمَن يحبّ المال لا يشبع، ومَن يحبّ الثروة لا يقنع. هذا أيضا هباء في هباء.

وكلّما ازدادت الخيرات ازداد طالبوها. فإن ذَوَتِ الثروة أمام عيون أصحابها، فماذا يجني من كوّمها؟ إنّ العاملين بكدّ، براحة النوم ينعمون، مهما كانت كميات طعامهم. وأمّا الأغنياء فأذهانهم مشتّتة في غير هناء، فهم بين جمع الأموال والخوف على ضياعها مشتتون، ومن الراحة محرومون.

هذه الدنيا تعجّ بالمآسي، فمَن يدّخر ليوم عصيب الثروات، قد يفقدها في صفقات خاسرات ولابنه لا يبقى شيئا. لقد خرج الإنسان من رحم أمّه عاريًا دون رداء، وكذلك يغادر هذه الدنيا وقد عانى منها كلّ الشقاء. أجل، يغادرها مثلما أتاها. فشقاؤه في هذه الدنيا شقاء من يلاحق ريحًا ذات خواء. ويعيش حياة يملؤها الهمّ والغمّ والضغينة.

غير أنّي أدركت بين كلّ هذه المآسي خيرًا: إنّ سعادة الإنسان، أن يكون ريّانَ شبعان وأن يجد في عمله في حياته القصيرة مُتعة، إنها هبة من عند الرحمن، فليرض بنصيبه من الله. فإن أنعم الله على المرء بالثروات، فلينعم بها قبل ضياع صحته وقبل الممات، إنها هبة من عند الرحمن، وعليه أن يرضى بنصيبه من الله. كذلك زرع الله في قلب الإنسان الفرح والضحكات حتى لا ينشغل في أيّامه المعدودات.

الرزق والقناعة[1]

ورأيتُ في هذا العالم الشقاء المهول، وإنّه لوزر على أهل هذه الدنيا ثقيل: يَتَنَزَّلُ على أناس رزقٌ غدقا يفيض عليهم كالسيول، فهم ذوو كرامةٍ غيرُ محرومين. ولكنهم فانون يتركون رزقهم لغريب من بعد أن يُنادي بهم الرحيل. فما أفظع هذا الشقاء إنه هباء في هباء.

وإن عاش الإنسان، حياة طويلة في الزمان، ورُزق مئة من الصبيان، ثم يحرم من

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 6: 1-12.

زينة حياته، ولا يدفن دفنا كريما غير مهان، ألم يكن أكرم له أنه لم يولد؟ فالجنين حين يموت يختفي في الظلام، وتغيب هويّته عن الأنام. فهو في راحة لم يعرف الشمس ولم يدرك شيئا عن الدنيا، أمّا ذاك العجوز في شقائه يقيم ينتظره الموت وإن عاش آلاف الأعوام. ألا إن الموت مصير العالمين.

تمرّ حياة الإنسان في طلب القوت، لكنه لا يشبع أبدا.

فهل ترى للحكيم على الجاهل فضلاً ورشدا؟ وأيّ كسب للفقير حين يسلك رغم عسر الحياة نهجا سويّا؟ فاقنع بما ملكت يداك، واترك مطامع الأهواء، إنّ نفس المتلهّف المغرور، الذي إلى القناعة فقير، كمن يلاحق ريحا ذات خواء.

كلّ شيء في كتاب مسطور، وطبع الإنسان معروفٌ منذ القديم. فهل من جدوى أن يجادلَ الإنسانُ الفاني خالقَهُ العظيم؟ وكلّما تمادى الإنسان في جدال عقيم قلّت جدواه، إنّ الإنسان لا يصل بكثرة الكلام إلى مبتغاه.

ترى كيف يهتدي الإنسان إلى الخير وحياته فناء في فناء كالهباء؟ إنّ حياته زائلة فانية كالظلّ، فهل نعلم ما سيصيب الدنيا بعد أن تأزف ساعة الرحيل؟

خطوات نحو الحكمة[1]

صيتٌ مُعَطَّرٌ خير لك من عطر ثمين،

فتدبّر لحظة النزول إلى اللحد، إنها أدعى إلى التفكير من لحظة ولادة طفل في المهد.

إنّ بيت العزاء أدعى إلى التأمل من بيت الولائم والغناء.

فكلّ نفس ذائقة الموت،

وإيّاكم أن تكونوا عن الموت غافلين.

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 7: 1-29.

فالشقاء في الحياة أكثر نفعا من الاستهتار،

إنّ المحن لقلب الإنسان صاقلة كالنار.

والحكيم هو من يتدبّر لحظة الموت.

أمّا الجاهل فلا يسعى إلا إلى اللهو.

أن يعاتبك الحكماء

خيرٌ وأنفع ممّا يقول الجاهل من إطراء.

فقهقهات الجاهل تتبدّد سريعا في الفضاء

كصوت الأشواك حين تُحْرَقُ تحت القدور

إنّ قهقهاته هباء منثور.

إنّ الحكيم الذي يسكت على الظلم أحمق ذو شرور،

وإنّ الرشوة تُعمي البصير.

وليست بدايات الأمور بل نهاياتها هو ما يثير المتأملين.

وإنّ تحمّلها والصبر عليها أنفع من التكبّر والفجور.

فلا تسارع إلى الغضب، إنّ الغضب يسكن صدور الجاهلين.

واحذر أن تكون ممن يحنّ إلى الأيام الخوالي، إنّ هذا عمل الجهّالِ.

فالحكمة خير يضاهي إرث الغنى، فهي لصاحبها طيلةَ حياتِهِ الحِمَى.

فتقبّل ما قدّره الله لك برضى، فلا أحد له القدرة على تغيير القضاء والقدر. وتنعّم باليُسر مادام لك اليُسر، واعلم أن الله يقدّر العسير واليسير، وأن كلّ شيء يصيبه التغيير.

كلّ هذه الألغاز مرّت في حياتي وهي الهباء المنثور: الصالح يُقْصَفُ عمره في عزّ الشباب والطالح يعيش من العمر طويلا.

فلا تسرف في فعل الخيرات، ولا تبالغ في الحكمة. ولماذا تنخر منك الذات؟ ولا تتمادى في الشرور، ولا تطلق العنان للحمق والفجور، فقد يصيبك قبل الأوان

الممات. فاسمع نصيحتي، الإعتدال خير في كل الأمور، تلك حكمة الأتقياء الأمناء.

إنّ قوّة الحكيم تعلو على قوّة عشرة في المدينة من الوجهاء. ولكن لا أحد اتّبع في هذه الدنيا الصلاح ثمّ كان من الخطإ معصوما. فلا تصغ إلى ما يقوله الناس، فقد ينقلون لك سخط خادمك أو شتائمه. وإنك بالشتائم التي ألحقتها بغيرك لعليم.

وقلت في نفسي: إني أسعى بالقول والفعل أن أكون الحكيم، وكلّما اقتربت فَرَطَتِ الحكمة مني كالنسيم، إنّ منالها صعب على الدوام.

وسعيتُ وراء الحكمة وحقيقة الأمور، وعزمتُ أن أبرهن لنفسي أنّ من الحماقة الشرور، وأنّ الجهل من الجُنون. فوجدتُ أنّ المرأة الفاتنة مصيدة الرجال وأنّ عشقها أمرّ منَ الموت، ويداها الناعمتان أثقل من الأغلال!

فمن يتّقِ الله ينجُ ممّا تلقيه أمامه من حبال،
والفاسق في فخّها منطرح لا محال.

يقول الخطيب الحكيم: هذا ما خلصتُ إليه من حقائق بعد أن تدبّرت في تفاصيل الأمور، مازلتُ أسعى إليها، دون جدوى. وكذلك قال المثل:

"من بين ألف من الرجال ترى رجلا صالحا
وإني افتقدت المرأة الصالحة في ألف من النساء».

وخلصتُ إلى أنّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، ولكنّ الإنسان ارتدّ بنفسه أسفل سافلين.

طاعة الملك[1]

مَن ذا الذي يشبه صاحب الحكمة الخبير؟ ومن مثله على تفسير الأمور قدير؟ فالحكمة تُشرق في قسمات وجهه كأنها المصباح المنير.

فأطع أمر الملك، لأنّك بايعته وأقسمت له اليمين. ولا تتهرّب من واجباتك نحوه فتكون من المتهوّرين، ولا تنضمّ إلى المتآمرين، فهو الآمر الناهي. ومَن يجرؤُ أن يتحدّى الآمر الناهي؟ إنّه السلطان المهاب وكلامه سيف على الرقاب.

ومَن يطع الملك يسلم من العقاب. إنّ الحكيم هو الذي يترصّد اللحظة التي يطيع فيها الملك. فالحياة عسيرة، وإنّ لكلّ أمر نهجًا وأوانًا. فإنّ ما سيحدث يُغلّفه الغيب والحجاب، فلا أحد يقدر أن يأتينا منه بالخبر أو الجواب. لا أحد يقدر أن يوقف رحلة الروح عن الأجساد، ولا أحد له سلطان ردّ الموت بين العباد، فأين المفرّ من لحظة الموت المرير، فلا نجاة للفاسق من ذاك المصير. إنّي تدبّرت في كلّ ما يجري في هذه الدنيا، ألا فانظروا إنّ الإنسان ما زال ظلوما كفورا لأخيه الإنسان.

لكل شيء حد[2]

رأيتُ الناس يحملون أهل الشرور، في وقار وكرامة يأخذونهم إلى القبور، يمدحونهم في المدينة التي فيها اقترفوا كلّ جرم خطير. إنّ هذا لغز يثير الحيرة والتفكير وهو مجرّد هباء في هباء. إنّ المجرمين، الذين لا يعاقبون في أجل قريب، يصبحون أسوة للتابعين، فيقترفون مثلهم ذلك الجرم الرهيب. إن للمجرمين حياة طويلة حتى ولو ارتكبوا مئات الأضعاف من الشرور، ولكنّي على يقين، أن من يتّقون الله ويهابونه أحسن حالا وهم في عزة وحبور، أمّا الأشرار فلا يفلحون، وإن أعمارهم قصيرة وأيّامهم تمضي كالظلال، لأنهم لا يهابون ربّهم العلي القدير. ولقد رأيت في هذه الدنيا لغزا آخر محيّرا:

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 8: 1-9.
(2) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 8: 10-17.

يعامل الصالحون معاملة الأشرار، ويعامل الفاسدون معاملة الأخيار. إنّ هذا هباء في هباء.

فعلى الإنسان أن يغنم ما لذّ له وطاب، ويتمتّع بالأكل والشراب، والفرح بحياته الشاقة الّتي وهبها له في هذه الدنيا الله الوهّاب.

وفي درب سعيي إلى الحكمة واليقين، رأيت ما يعانيه الإنسان في هذه الدنيا من شقاء فجافاني النوم كل الجفاء. ثم أدركت إدراك الموقنين، أن لا أحد يقدر أن يرفع الغشاء عما يجريه الله في هذه الدنيا بين العالمين، إنا كلّنا عن ذلك عاجزون، حتّى من زعم أنّه من أهل العلم ومن الحكماء.

ما تحمله الأقدار[1]

وتأمّلتُ مليّا هذه الأمور، فرأيتُ الله يوجّه أعمال الصالحين والحكماء، ورأيت إرادته فوق ما يريدون، ولا أحد منّا يعلم إن كان الله قد قبلهم في حضرته قبول الرضى. وفي النهاية سنلقى الموت، فهو لنا المصير، التقيّ منّا والشرّير، والصالحون والطالحون، أهل الطهر وأهل النجاسة، وكل من قدّم القرابين، ومن كان بها من الجاحدين. ليس الصالحون عند الله أفضل من الفاسقين، ولا من نذر لله نذرا خير من الغافلين.

إن الموت هو المصير، وإنّ جميع الناس في هذه الدنيا سيلقون هذا البلاء المرير. وتمتلئ قلوبُ الناس بالشر والجنون، لكنّ الموت سيأخذهم وهم غافلون. فلا أمل إلاّ للأحياء، بذلك جاء المثل المأثور: «كلبٌ حيّ خير من أسد مقبور.» إنّ الأحياء ليعرفون، أنّهم عاجلا أم آجلا للممات ملاقون، أمّا الأموات فلا شيء ينتظرون، إنهم في حجب النسيان. تلاشت منهم الأبدان، وتلاشى معها كل الحب والبغض والحسد الذي كانوا به يشعرون، إنهم عن الفعل في هذه الدنيا عاجزون.

فابتهج حين تأكل الخبز وتشرب الشراب، إنّ في ذلك رضى الله الوهاب. والبس

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 9: 1–18.

ثياب الفرح كلّ حين، ولا تنس أن تضع العطر الثمين. وتمتّعْ مع زوجتك الّتي تحبّها في حياتكما الزائلة التي قد وهبها الله لكما، إن في فرحكما العزاء، من بعد طول تعب وشقاء. ومهما يكن واجبك فأقبل عليه بحماسة، إنك عندما تُلقى في القبور، لا عمل ينتظرك ولا تفكير، ولا معرفة ولا حكمة بعدئذ ولا تدبير.

ولقد رأيتُ في هذه الدنيا أمرا آخر: إنّ الفوز في السباق ليس لمن هو أسرع العدّائين، والنصر في القتال ليس لأجدر المقاتلين، والظفر بالرزق ليس لمن يحسنون التدبير، والغنى ليس للفهماء أهل التقدير، والفضل ليس لأهل العلم والأفكار، إنّهم جميعا ليسوا في منأى عن تقلّبات الأقدار. لا يعلم الإنسان متى يحلّ عليه البلاء، إذ تباغته المصائب والأرزاء على حين غرّة منه كما تقع الأسماك في الشباك فتُهلك، أو كما تقع العصافير في الفخّ فتُؤسر.

ولقد أبصرت في هذا المثل حكمة بليغة تنضح بالمعاني: مدينةٌ صغيرةٌ فيها الرجال قليلون، هاجمها ملك عظيم ذو شأن، ومن كلّ اتّجاه كان لها من المحاصرين. وكان فيها رجل حكيم ولكنه فقير مهان، فأنقذ المدينة بحكمته. ومع مرور الزمان لم يذكر الحكيم الذاكرون وصار في طيّ النسيان. صحيح أن حكمة الإنسان أقوى من عضلات الأبدان، ولكن من يبالي بحكمة الفقير، ومن ينظر إليها نظرة تقدير؟ وخير لك أن تسمع كلام حكيم هادئ من أن تسمع صراخ ملك جاهل. فالحكمة تتفوّق على ذخائر الحروب، وحمق رجل واحد يفسد من الخير الكثير.

نصائح تؤدي إلى الحكمة[1]

الذباب الميت مهما قلّ عدده يُتلف طيب العطّار، ونزر قليل من الحماقة يلغي قدرا كبيرا من الحكمة والوقار.

يهتدي الحكيم إلى سواء السبيل

أمّا الجاهل فعنه يميل.

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 10: 1–20.

إنّ ثمرة الجهل تُرى في سلوك الجاهلين، إنّ السلوك مرآة الحمقى المغفّلين.

إن بدا عليك الحاكم غضوبا، فلا تترك مكانتك وما جعل لك نصيبا، وحافظ على هدوئك، إن في الهدوء نورا من الحكمة مرغوبا.

ورأيتُ في هذه الدنيا حكّاما يخطئون، يرفعون السفهاء إلى أعلى المراتب، ويدفعون الحكماء أسفل سافلين. ورأيتُ أيضا عبيدا يمتطونَ جيادا في خيلاء، وأُمراء يسيرون على أقدامهم أذلاء.

إن حفّار الجُبّ قد يقع فيه.

ومَن يُسقط جدارا قد تخرج منه حيّة ومن سمّها تسقيه.

ومَن يقتلع حجارةً قد تسقط عليه فتؤذيه،

ومَن يقطع حطبا قد يُصيبه الفأس فيدميه.

إنّ الفأس الكليلة تدفع صاحبها إلى التعب والشقاء، في حين تحثّ الحكمة دائما على النجاح والارتقاء. أيّ فائدة في أن تروّض حية أصابتك بسُمّها! الحكيم بحكمته يحصد الثناء، أمّا الجاهل فبحماقته يضمُّه الفناء. فكلامه من أوّله إلى آخره لغو وثرثرة وسخافة وجنون!

من يعلم مستقبل الأيّام؟ ومن يكشف ما يحدث بعد موت الأنام؟

الجاهِل يُتعبه عمل قليل، وحين يقرّر الذهاب إلى المدينة يضيع عنه السبيل. وا حسرتاه على بلاد يحكمها الحمقى غير الراشدين، ووجهاؤها يأكلون في بذخ ويشربون، ويقضون ليلهم في المجون! وهنيئا لبلاد حاكمها من أصل نبيل، يأكل وجهاؤها ويشربون في وقت معلوم وعلى قواهم يحافظون.

يتهاوى السقف على الكسول

ويتسرّب الماء إلى البيت لشدة ما أهمله المهملون.

تُدخل الولائم في النفوس بهجة وأفراحا، وتبعث الخمرة فيها انشراحا، ويلبّي المال حاجة المحتاجين.

لا تلعن الملك ولو في أعماق ضميرك،
ولا تسُبّ الغني ولو كنتَ وحيدا فوق سريرك.
فقد يُفشي سرّك أحد الطيور،
فإلى الملك والغنيّ ترفع الأمور.

قيمة الحكمة في العمل(1)

حمّل سفنك وأرسِلْها عبر البحار، فيوما ما ستعود إليك محمّلة بكنوز التجّار. وزّع أموالك على مشاريع عديدة، فأنت لا تعرف ما يخفي الزمن من مصائب شديدة. إن الغيوم إذا امتلأت فمنها الغيث سينهمر. وإذا وقعت شجرة فلا بدّ أن تستقرّ.

ومن يقضي زمانه في الانتظار، لن يُلقي في الأرض البذار.
ومَن يتوقّع الغيم الماطر، فلن يحصد القمح في البيادر.

من يضبط مسالك الرياح، أو كيف ينمو الجنين في الأرحام؟ ومن يعلم مراد الله فاطر الأرض والسماوات، وخالقِ ما فيهما؟

اِزرعْ زرعك في الصباح، واسع بلا انقطاع إلى المساء في عمل وفلاح، فأنت لا تعرف أيّ زرع ينبت من زروعك، وربّما ينبت كلّه على حد سواء. ما أجمل أن نرى الأنوار، وما أروع أن نحظى برؤية شمس النهار! ومهما طالت بالإنسان الأعمار، فليغنم الفرح في كلّ لحظة وحين، وليعلم أنّه لاريب نازل إلى الظلمات، وأنّا جاهلون بما هو آت.

تنعّم بالشباب ولا تُبالي،
وتمتّع بأيام الصبا وبالليالي.
واتّبع ما تريده القلوب،
وكلّ ما تراه عيناك وتشتهيه.

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 11: 1-10.

ولكن اعلَمْ أنّ الله رقيب حسيب.

فلا تدفع فؤادك إلى الهموم.

وابتعد بنفسك عن كلّ المهالك والسموم،

إنّ عنفوان الشباب زائلٌ، إنّه هباء في هباء.

اُذكروا خالقكم[1]

يا أيّها الّذين آمنوا، اذكروا خالقكم في أيّام الشباب، قبل أن يهجم عليكم العجز والمشيب، فتقولون: إنّا بحياتنا لسنا مسرورين. نعم، اذكروه قبل التعب والكلال، قبل أن تغشى منكم العيون، فلا تبصروا أنوار الشمس والقمر والنجوم. اذكروه قبل أن تغطّي أيّام حياتكم الغيوم.

اذكروا ربّكم قبل أن تهرم منكم الأجساد، كالبيت يتداعى إلى التحطيم.

قبل أن يرتجف حرّاس البيت

وقبل أن ينحني أشدّاء الرجال تحت الهموم

وقبل أن تتعطّل الطواحين

وقبل أن يغشى الظلام العيون المتوارية خلف الجفون.

اذكروا ربكم قبل أن توصد الأبواب،

ولا يصلها ما في الشوارع

وقبل أن يخفت صوت المطاحن،

وتسكن زقزقة العصافير والتغاريد.

اذكروا ربّكم قبل أن تخشوا علوّ المكان

وقبل أن تهابوا مخاطر الطريق،

أو يبيض شعركم كزهر اللوز

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 12: 1-7.

وقبل أن تزحفوا مثل جراد يحتضر على الأرض،
وقبل أن تزول الشهوة.
اذكروا ربّكم قبل أن تكونوا على حافة القبور، وأن تدخلوا بيت السكون
ويبكيكم النّادِبونَ.
واذكروا خالقكم في سن الشباب، قبل أن ينقضي العمر وتنقطع سلاسله الفضيّة
وتنكسر أكوابه الذهبية
وقبل أن تسقط الجرّة عند العيون
وتنقصف البَكَرَةُ عند البئر،
كذلك يعود الجسد إلى التراب، والروح إلى خالقها الوهاب.

ما خلص إليه الخطيب الحكيم[1]

قال الخطيب الحكيم: كلّ شيء هباء في هباء، زائل كلّ شيء كالهباء!

كان ذلك الخطيب حكيما، وعلّم الناس معارف وعلوما، درس من الأمثال كثيرا وصنفها ودبّرها تدبيرا، واجتهد فوضع القول الصريح حتى يعبّر عن الحقيقة بكلّ وضوح.

كلام الحكماء كالعصيّ والأوتاد، يستعملها الراعي لخير العباد.

ولك يا ولدي وصيتي الأخيرة: كن في كل أعمالك حذرا، إن في نسخ الكتب متاعب كثيرة، وإن في بلوغ العلم على الجسم إرهاقا كبيرا.

هذا يا ولدي ما خلصتُ إليه من تأملاتي: اتّق الله واعمل بوصاياه، فقد فُرض ذلك على جميع رعاياه. والله يجزي كلّ إنسان على ما أتاه، سرّا كان أم جهرا، حسنات كانت أم سيئات.

(1) استنادا إلى كتاب الخطيب الحكيم 12: 8-14.

يونس عليه السلام

قصّة النبي يونس عليه السلام

مدخل إلى قصّة النبيّ يونس عليه السلام

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [سورة القلم: 48]

جاء ذكر النبي يونس بن أمِتاي عليه السلام أربع مرات باسمه في القرآن (سورة الأنعام، النساء، يونس والصافات) وأيضا بلقب «ذو النون» (سورة الأنبياء) ولقب «صاحب الحوت» (سورة القلم). وتدلّ كلمة نون على حوت كبير. وانحدر النبي يونس من قرية فلسطينية صغيرة تقع بضعة كيلومترات عن الناصرة في اتّجاه الشمال في الجليل.

ومن أهمّ العبر التي تتضمّنها قصّة النّبي يونس تلك التي تبرز أنّ رحمة الله تشمل جميع النّاس لا سيّما الوثنيّين وأعداء قومه. وورد أمر الله للنّبي يونس في هذه القصة، بأن ينطلق إلى مدينة نينوى الواقعة في بلاد الرّافدين وينذر أهلها بالهلاك الذي سيحلّ بهم. وكانت نينوى عاصمة للإمبراطوريّة الآشوريّة القويّة. ودمّرت هذه المملكة سابقا مملكة السّامرة الشّمالية لبني يعقوب كما غزت مدينة القدس. ورأى النّبي يونس شأن بقيّة شعبه أنّ أعداءهم يستحقّون الهلاك.

ويذكر الطّبري في تاريخه أنّ علماء المسلمين يختلفون في تعريفهم لفعل النّبي يونس ﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [سورة الصافّات: 142، وسورة الذاريات: 40] إذ يقول: "وقد اختلف

السّلف من علماء أمّة نبيّنا محمّد ﷺ في ذهابه لربّه غاضبا وظنّه أن لن يقدر عليه وفي حين [حدوث] ذلك".

وقال نبيّ الإسلام عن النّبي يونس حديثا في هذا الشأن: «لا يقولنّ أحدكم أنّي خير من يونس» (صحيح البخاري، 4: 55: 608). وربّما اعتبرت عشائر العرب أنّ نبيّ الإسلام خير من النّبي يونس بسبب محتوى الوحي الذي ذكر أنّ يونس هرب ممّا وُكّل إليه. ورأى بعض الدارسين أنّ محمّدا نطق بهذه الكلمات لكي يأمر تلك القبائل ألاّ يميّزوا بين الأنبياء.

وكان في نينوى في العراق مقام للنّبي يونس، ويقال إنّه دُفن فيه، واحترمه المسلمون والمسيحيون على حدّ سواء. وللأسف دمّرت قوى داعش هذا المقام، ودمّرت معه الجامع المحاذي له سنة 2014.

ويذكر سيّدنا عيسى المسيح عليه السلام النّبي يونس بقوله أنّ آية النّبي يونس التي هي مكوث في بطن الحوت ثلاثة أيام بلياليها إنّما تشير إلى سيّدنا عيسى الذي سيبقى ثلاثة أيام بلياليها مدفونا في الأرض (انظر الإنجيل، متّى 12: 39-40). ويقارن السيّد المسيح بين توبة شعب نينوى عند إنذار النّبي يونس لهم وبين رفض بعض قوم السيّد المسيح التوبة على يديه، في حين أنّه أعظم شأنا من النّبي يونس (انظر الإنجيل، متّى 12: 14 ولوقا 11: 29-32).

باسم الله تبارك وتعالى

قصّة النبيّ يونس عليه السلام

النبي يونس ودعوة الله له[1]

أوحى الله إلى النبي يونِس بن أمتّاي وقال: «يا يونس اذهب إلى نِينَوى، المدينة العظمى، وأخبر أهلها بأنّي سأدمّرها تدميرا، إنّي كنتُ بما يقترفونه من شرور سميعا بصيرا».

غير أنّه عليه السلام ذهب في غير طريق مدينة نِينَوى، لأنّه ظنّ أنّ الله لا يقدر عليه.[2] ودخل مدينة يافا ولحق بسفينة توشك على الإبحار، لا إلى نينوى، بل في اتجاه مدينة تَرشِيش. ودفع الأُجرة وصعد على متنها.[3]

وأبحرت السفينة، وبعد فترة من إبحارها أرسل الله عليها ريحًا شديدةً، تحوّلت إلى عاصفة عنيفة كادت أن تحطّم السفينة. وخاف البحّارة على حياتهم، ومن شدّة ذعرهم استصرخوا آلهتم التي يعبدونها، وألقَوا بشُحنة السفينة في البحر حتّى يخفّفوا من حُمولتها، أمّا يونس عليه السلام فكان، قبل العاصفة، في جوف السفينة مستغرقًا في نوم عميق. ولمّا عثر عليه ربّان السفينة صرخ في وجهه قائلاً: «ما بالك يا رجل؟ كيف

(1) استنادا إلى كتاب النبي يونس 1: 1–16.
(2) انظر سورة الأنبياء: 87.
(3) انظر سورة الصافات: 140.

تغرق في نوم عميق؟! هيّا استغث ربّك لعلّه يشفق علينا فلا نكون من الهالكين!»
وصعد يونس عليه السلام على متن السفينة، واتّفق البحّارة على إلقاء قُرعة بينهم،[1] ليعلموا مَن السبب فيما أصابهم من بلاء. ووجدوا أن القرعة تشير إلى النبي يونس،[2] فتحلّقوا حوله وواجهوه بأسئلتهم: «أأنت السبب في حلول هذه العاصفة الهوجاء علينا؟ ماذا تفعل بيننا؟ من أين جئتَ؟ وما هي بلادك؟ وإلى أيّ شعبٍ تنتمي؟» فأجابهم: «إنّي رجل عبرانيٌّ مِن عباد الله وهو ربّ العالمين، خالق البرّ والبحر. وأنا هارب في هذه السفينة ممّا كلّفني الله به». عندها استولى عليهم رعب شديد وقالوا له متعجّبين: «كيف فعلتَ ما فعلتَ؟!» وازداد البحر هيجانا والموج علوّا فألحّوا عليه قائلين: «ماذا ترانا بك فاعلين حتّى تتوقّف هذه العاصفة الهوجاء؟!» فأجابهم يونس عليه السلام: «ارموني في البحر كي يتوقّف هيجانه. إنّي على يقين أنّ هذه العاصفة الهوجاء حلّتْ عليكم بسببي».

ولم يطيعوه، وشرعوا يُجذّفون لعلّهم يصلون إلى برّ الأمان، وازداد البحر في الهيجان، وعجزوا عمّا أرادوه، فاستنجدوا حينها بالله قائلين: «اللّهمّ، لا تُهلِكنا إن ألقينا هذا الرجل في اليمّ وكان بريئا! إنّ كلّ ما حلّ بنا قضاء منك، وما نحن برادّيه!» وألقوا بيونس عليه السلام في اليمّ، وفي الحال حلّ في البحر السكون! فهاب الرجال جبروت الله وقدّموا له أضحية إكرامًا له تعالى، وأوفوا بكلّ النّذور التي نذروها إليه.

دعاء النبي يونس[3]

وأرسل الله حوتًا عظيمًا فالتقم النبي يونس عليه السلام، وبقي ذو النون في بطن الحوت ثلاثةَ أيّام بلياليها.[4]

(1) كان الوثنيون يعتمدون طريقة رمي القرعة في بعض الأحيان لقراءة الغيب وطلب الإرشاد من آلهتهم.
(2) انظر سورة الصافات: 141.
(3) استنادا إلى كتاب النبي يونس 1: 17، 2: 1–10.
(4) انظر سورة الصافات: 142.

ودعا النبي يونس ربّه مِن بطن الحوت[1] قائلا:

”ربّاه دعوتُك في محنتي كئيبا
فكنتَ لدعوتي قريبًا مجيبًا!
وإنّي للخلاص من دركات الموت بك أستعين
وأنت يا ربّ لصوتي سميع عليم!
طرحتَني ربّي في لجج بلا قرار،
وغرقتُ بأمرك في عمق البحار.
فأحاطت بي المياهُ العظيمة
وغمرتني الأمواجُ المركومة.
وظننتُ أنّي محروم من فيضك الجليل
وتساءلت كيف أصل إلى بيتك المقدّس ذي التبجيل
وإنّي أكاد أختنق من سيل المياه؟
لأنّ الغمر أحاط بي من كلّ ناحية واتجاه،
وعشبُ البحر غمر رأسي غمارا.
فغرقتُ حتّى وصلتُ دركات الأرضِ في أصول الجبال
هناك أُغلِقتْ عليّ إلى الأبد مَزاليجها والأقفال.
إلاّ أنّك اللّهمّ يا ربّ البرايا
نزعت عنّي حبال المنايا!
وقد شارفتُ على الممات
فتضرّعتُ إليك يا منّان

(1) قارن سورة الأنبياء: 87.

وبلغ دعائي إلى بيتك الأسمى!

إنّ كلّ مَن يعبد الأوثان

يتخلّى عن وفائه لله.

أمّا أنا فسأقدّم لك القرابين

وسأكون لك من الحامدين

وسأُوفي بكلّ ما نذرتُهُ لك.

إنّك وحدك يا ربّ واهب النجاة!»

وبعدما أنهى يونس عليه السلام دعاءه، أمر الله الحوت، فقذفه إلى الشاطئ.(1)

توبة أهل نينوى(2)

ثمّ أوحى الله إلى يونس عليه السلام من جديد: «يا يونس اذهبْ إلى نينوى، المدينة العظمى، وبلّغ أهلها بما يوحى». فانطلق النبي يونس في الحال إلى مدينة نينَوى خاضعًا لأمر الله، وكانت مدينة عظيمة يقضي الرجل في الطوّاف بها ثلاثة أيّام. فدخل النبي يونس إلى المدينة، وبعد أن تجوّل في ربوعها يومًا كاملاً نادى جموع الناس: «أيها الناس اسمعوا لي وأنصتوا! لم يتبقَّ على دمار نِينَوى إلاّ أربعون يومًا!» فآمن أهل نِينَوى برسالة الله، وقرّروا أن يصوموا جميعًا ويلبسوا الخيش كبارًا وصغارًا ندمًا وتوبةً.

وعندما بلَغت رسالة النبي يونس ملك نينَوى، قام عن عرشه وخلع عنه حُلّته

(1) يقول الطبري في تاريخه استنادا إلى حديث عن هذا الحدث: "قال: فسبح وهو في بطن الحوت، قال: فسمعت الملائكة تسبيحه، فقالوا: يا ربنا، إنا لنسمع صوتًا ضعيفًا بأرض غريبة. قال: ذلك عبدي يونس، عصاني فحبسته في بطن الحوت في البحر، قالوا: العبد الصالح الذي كان يصعد إليك منه في كل يوم وليلة عمل صالح! قال: نعم، قال: فشفعوا له عند ذلك. فأمر الحوت، فقذفه في الساحل." انظر *تاريخ الرسل والملوك*، ط 2، (بيروت: دار التراث، 1387هـ)، ج 2، ص 16.

(2) استنادا إلى كتاب النبي يونس 3: 1–10.

الملكيّة ولبس بدلها خيشًا وجلس على الرماد.[1] ثمّ أصدر مع رجال حاشيته بيانًا وأمر أن ينادَى في أرجاء نِينَوى: «لقد أمرنا جلالة الملك وحاشيته أن نصوم جميعًا! إنّ الأكل والشراب ممنوعان، وينسحب هذا الأمر على المواشي والدواب! وليلبس البشر وحتّى المواشي والدواب خيشًا، وليتضرّع الناسُ إلى الله بكلّ صدق، تائبين عن سلوكهم الشرير وعن كلّ عنف ارتكبوه، لعلَّ اللهَ يرحمنا ويمتنع عن معاقبتنا فلا نكون من الهالكين».

وعندما تابوا عن سيئاتهم وعن سلوكهم الشرير، عفا الله عنهم وتاب عليهم ولم يُنزل عليهم البلاء الذي توعّدهم.[2]

النبي يونس يرفض رحمة الله على أعدائه[3]

واستاء النبي يونس استياءً شديدًا لأنّ الله أنزل رحمته على أهل نينوى، فأخذ الغضب منه كلّ مأخذ.[4] ثمّ نادى ربّه وهو كظيم: «يا ربّ، عندما كنت في بلادي كنت أعلم أنّك سترحم سكان نينَوى إذا هم تابوا! فرأيتُ أن أهرب إلى مدينة تَرشيش، لأنّي كنتُ على يقين أنّك يا الله رحمنٌ رحيمٌ، طويل الإمهال، توّابٌ حليم. والآن ربّي خذني إليك فالموت أهون عليّ مِن رؤية أعدائي يُرحمون!» فأوحى الله إليه: «بأيّ حق تحتجّ على ما أفعل؟»

واتّجه النبي يونس إلى شرق مدينة نينوى، وأقام هناك مظلَّةً وجلس تحتها، يَرقُب ما سيصيب المدينة. وأنبت اللهُ شجرة يقطين، ونمت وامتدّت أوراقها فوق رأس النبي يونس تظلّله من حرارة الشمس وتخفّف ممّا في قلبه من هموم.[5] ورضي عليه السلام عن

(1) انظر مقال "العادات الشرقية واليهودية القديمة" في هذا المجلد.
(2) انظر سورة الصافات: 147–148.
(3) استنادا إلى كتاب النبي يونس 4: 1–11.
(4) انظر سورة الأنبياء: 87. يقول الطبري والقرطبي في تفسيرهما لهذه الآية إنّ البعض يقول عن يونس أنه "ذهب مغاضبا" بسبب عصيان قوم نينوى، بينما يقول آخرون إنه غضب عندما رفع الله عذابه عن نينوى بعد أن توعّد به، إذ تابوا إليه تعالى.
(5) انظر سورة الصافات: 146.

هذه الشجرة كلّ الرضا. ولكن عند فجر اليوم الموالي أمر اللهُ دودةً فقرضت شجرة اليقطين فيبست. ولمّا أشرقت الشمس أرسل الله ريحًا شرقيّة تلفح الوجوه، فنزلت حرارتها على رأس يونس عليه السلام فأصابه الإعياء، فتمنّى الموت قائلاً: «إنّ الموت أرحم لي من هذه الحياة!»

وأوحى اللهُ إلى يونس عليه السلام: «بأي حقّ تغضب على موت شجرة اليقطين؟» فأجاب النبي يونس: «إنّ لي الحقّ كلّ الحقّ في أن أغضب، حتّى الموت، على ما أصابها!» فأوحى الله إليه عليه السلام من جديد: «لقد نبتت شجرة اليقطين في ليلة ثمّ ماتت في ليلة، وإنّك عليها لرؤوف حنون رغم أنّك لم تتعب في العناية بها ولم ترعَها! فكيف لا أرحم مدينة نينَوى العظمى بسكانها المئة والعشرين ألفا أو يزيدون، مع كلّ بهائمها؟ إنّ أهلها في عماهم يتخبّطون لا يعرفون طريق الشمال من طريق اليمين».[1]

(1) يخبرنا الطبري في تاريخه فيقول: "ثم رجع ذات يوم إلى الشجرة فوجدها قد يبست، فحزن وبكى عليها، فعوتب فقيل له: أحزنت على شجرة، وبكيت عليها ولم تحزن على مائة ألف أو زيادة أردت هلاكهم جميعًا!" انظر الطبري، ج 2، ص 15.

قصّة إلياس واليسع

عليهما السلام

مدخل إلى قصّة إلياس واليسع(عليهما السّلام)

﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [سورة الصافات: 123]

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [سورة ص: 48]

عاش النبي إلياس عليه السلام في مملكة السامرة الشمالية في القرن التاسع قبل الميلاد خلال فترة حكم الملك آخاب الشرير. تزوّج الملك آخاب من إيزابال بنت الملك أثْبَعَل الوثني من مملكة صيدا. وكانت هي ووالدها يتعبدان الإله بعل، حيث حثّت الناس من بني يعقوب على عبادة البعل وسعت إلى قتل العديد من أنبياء الله.

وقاوم النبي إلياس الملك آخاب والملكة إيزابال وكهنة البعل، وفي النهاية نصر الله النبي إلياس وسقط أكثر كهنة بعل أمواتا. وجاء ذكر هذا الحدث في سورة الصّافات في القرآن: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ (١٢٣) إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدۡعُونَ بَعۡلٗا وَتَذَرُونَ أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١٢٩) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (١٣٢)﴾ [سورة الصافات: 123-132].

وعلّم النبي إلياس وأرشد جماعة من الأتباع وهم متصوّفون منجذبون بالروح

(انظر كتاب الملوك الثاني 2: 3). وأجرى الله معجزات كثيرة على يدي النبي إلياس، فأحيا الموتى بإذن الله ومنع المطر من السقوط على مدى ثلاث سنوات ونصف وجعل الطعام يتكاثر بطريقة خارقة وطلب نزول النار من السماء.

وعند اقتراب نهاية مهمّة النبي إلياس، رفعه الله إليه في زوبعة. ويقول الطبري في تاريخه بعد ذهاب النبي إلياس إلى الغيب: «وطار في الملائكة، فكان إنسيًا مَلاكيًا أرضيًا سمائيًا». وبعد عصر النبي إلياس بسنوات كثيرة أوحى الله إلى النبي ملاكي أنّ إلياس سيعود من الغيب: ((قالَ اللهُ تَعالى: ها أنا أُرسِلُ إلَيكُم النَّبيَّ إلياسَ قَبلَ حُلولِ يَوم اللهِ العَظيمِ المَهيبِ فَيُعيدُ الأُلفَةَ والمَحَبّةَ بَينَ الآباءِ والأبناءِ، وإلاّ فَسَتَظهَرُ تَجَلّيّاتي وأَضرِبُ الأرضَ بِلَعنةٍ)) [كتاب النبي ملاكي 4: 5-6].

وبعد مرور قرون من الزمن وتحديدا في القرن الأوّل للميلاد، انتظر كثير من اليهود عودة النبي إلياس من الغيب قبل ظهور المسيح المنتظر. وسأل الناس سيدنا عيسى عليه السلام حول هذه المسألة، إذ جاء في الإنجيل: ((فَسألوهُ عَن ذلِكَ قائلينَ: «لماذا يَقولُ عُلماءُ التّوراةِ إنّ مَجيءَ النَّبيِّ إلياسَ سَيكونُ قَبلَ مَجيءِ المَسيحِ المُنتَظَرِ؟» فأجابَهُم قائلاً: «نعم. يَجيءُ النَّبيُّ إلياسُ أوّلاً ويُصلِحُ أُمورَ البَشَرِ. ولكنّ كِتابَ اللهِ يَقولُ أيضًا إنّ سَيِّدَ البَشَرِ سيَلقَى الأذى مِنَ النّاسِ وسيَنبُذونَهُ. وأقولُ لكُم إنّ إلياسَ قد جاءَ فِعلاً، وأساؤوا مُعاملتَهُ، كَما جاءَ عنهُ في كُتُبِ الأنبياءِ)) [الإنجيل، مرقس 9: 11-13].

وقصد السيد المسيح بهذه الكلمات أنّ النبي يحيى عليه السلام قد حقق بظهوره وعود الله المتعلقة بالنبي إلياس وفق كلمات الملاك جبريل الموجّهة لزكريا عن يحيى (عليهما السّلام): ((وَسَيَتَقَدَّمَ أمامَ مَولاهُ بِرُوحِ إلياسَ وقُوّتِهِ)) [الإنجيل، لوقا 1: 17].

أمّا النبي اليسع عليه السلام فجاء وحي من الله إلى النبي إلياس بخصوصه على جبل سيناء، حيث أمر الله إلياس بمسح اليسع بالزيت دليلا على أنه أصبح خلفه المختار. فذهب النبي إلياس وعندما وجد اليسع ألقى عباءته على كتفيه علامة على أنه سيخلفه. وأصبح النبي اليسع معاونا للنبي إلياس طيلة فترة امتدت من سبع إلى ثماني سنوات،

أي حتّى حلول موعد رفع النبي إلياس إلى السماء. ولكن قبل اختفاء النبي إلياس إلى الغيب سأل اليسع عليه السلام قائلا: ((ماذا عساي أن أفعل لك قبل أن يرفعني الله عنك؟)) فأجاب النبي اليسع وطلب ضعف قدرات إلياس الروحية. ويرى بعض الباحثين أنّ هذه الكلمات تشير إلى الميراث المضاعف عند الابن البكر، وهذا دليل على أنّه الوريث الرئيسي في العائلة. ولكن البعض الآخر من المفسّرين يرى أنّ المشار إليه هنا ضعف المعجزات، حيث يذكر الكتاب المقدس أنّ اليسع قام بإجراء ضعف المعجزات التي أجراها النبي إلياس.

وورد ذكر النبي اليسع مرّتين في القرآن في الآية 48 من سورة ص والآيتين 86 و87 من سورة الأنعام. وذكر السيد المسيح كلاّ من إلياس واليسع (عليهما السّلام) كما ذكر معجزات الشفاء وإطعام الغرباء التي جرت على أيديهم. وكان السيد المسيح يقصد من ذكر هذه المعجزات أن يقرّ لمستمعيه اليهود أنّ محبّة الله ورحمته تشملان جميع الشعوب والأمم (الإنجيل، لوقا 4: 24–30).

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة إلياس واليسع(عليهما السّلام)

النبي إلياس عليه السلام والجفاف[1]

كان في بلدة تِشْبي في جبال جِلْعاد التابعة لمملكة السامرة نبي اسمه إلياس عليه السلام[2]، وذات يوم أوحى الله إليه أنّه رسولٌ إلى الملك آخاب[3] وعليه أن يبلّغه ما يلي: «أنا من عباد الله الحيّ القيوم، وأقسم بالله الذي يعبده بني يعقوب، لن ينزل غيثٌ من السماء ولا ندى طوال هذه السنوات إلاّ بأمر منّي».

ثم أوحى الله إليه: «اذهب ناحيّة مشرق الشمس، واتّخذ من وادي كريت مخبأ يخفيك، في الضفة الشرقية لنهر الأردن، إنّ في مياهه ما يسقيك، وفي الطعام الذي يحضره الغربان بأمري ما يكفيك». فأطاع النبي إلياس أمر ربّه وأقام عند وادي كريت. وكان يجد في النهر ما يرويه، والغربان صباح مساء من خبز ولحم تأتيه. وبعد فترة أصاب النّهر الجفاف، فقد انحبس المطر في جميع أرجاء الأرض.[4]

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 17: 1–7.

(2) يقول ابن كثير في كتابه ”البداية والنهاية“: إنّ إلياس وإلياسين اسمين لرجل واحد فالعرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها.

(3) انظر سورة الصافات: 123.

(4) ذكر الطبري في تاريخه: ”حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، قال: حدثني محمد بن إسحاق، قال: ذكر لي أنه أوحي إليه: إنا قد جعلنا أمر أرزاقهم بيدك وإليك؛ حتى تكون أنت الذي تأمر في

إلياس عليه السلام في بلدة الصرفند[1]

ثمّ أوحى الله إلى النبي إلياس: «اذهب إلى بلدة الصَرَفَنْد المجاورة لمدينة صَيدا واتّخذ فيها مقاما، وستعطيك أرملة هناك بأمري شرابا وطعاما».[2] فتوجّه عليه السلام إلى الصرفند، وحين بلغ باب المدينة أبصر أرملة تجمع حطبا، فناداها قائلا: «أعطني شربة ماء». وعندما ذهبت لتُحضر الماء، ناداها مرّة أخرى قائلاً: «وأعطني قطعة خبز أيضا». فقالت: «أقسم بالله ربّك ما عندي خبز يكفيك ويكفيني، إنّ هي إلاّ حفنة دقيق في وعاء، وقليل من الزيت في كوز، وها أنا أحمل هذا الحطب لأصنع بناره وجبتي الأخيرة لي ولابني. ثم أبقى جائعة مع ابني في انتظار أن يأتينا الموت». فطمأنها إلياس عليه السلام: «هوّني عليكِ! اِذهبي واخبزي ما بقي لك من الدقيق، لكن عليكِ أوّلاً أن تعطيني منه قرصا صغيرا، وبعد ذلك يمكنك أن تأكلي أنتِ وابنكِ. فالله الذي يعبده بنو يعقوب يقول في وعده: لن يفرغ من الوعاء الدقيق، ولن ينقص من الكوز الزيت حتى يُرسل الله على الأرض مطرا». فعادت الأرملة إلى بيتها وفعلت ما أمرها النبي إلياس. وتزايدت كمية المؤونة من دقيق وزيت أيّاما طويلة، وأكل ثلاثتهم منها، ولم تنفد كما وعد الله على لسان نبيه إلياس.

وبعد فترة من الزمن مرض ابن الأرملة مرضا شديدا دفعه إلى الموت. فصاحت الأرملة في وجه النبي إلياس: «يا نبي الله، لماذا فعلتَ بي ما فعلتَ؟ أجئتَني لتكشف ذنوبي وتلقي بابني إلى الموت؟» فأجابها عليه السلام: «أحضري ابنكِ إلى هنا». ثمّ أخذ النبي إلياس جثمان الصبي من حضن أمّه وصعد به إلى العُليّة حيث يقيم، ثم مدّده على

ذلك. فقال إلياس: اللهمّ فأمسك عنهم المطر. فحبس عنهم ثلاث سنين حتى هلكت الماشية والدوابّ والهوامّ والشجر، وجَهِد الناس جهدًا شديدًا. وكان إلياس - فيما يذكرون - حين دعا بذلك على بني إسرائيل قد استخفى شفقًا على نفسه منهم، وكان حيث ما كان وضع له رزق."

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 17: 8-24.

(2) أظهر الله اعتناءه بشعب لبنان رغم أنّه لا ينتمي إلى بني يعقوب، فأرسل النبي إلياس لكي يعتني بأرملة هناك. وأشار السيد المسيح إلى المعجزة التي أجراها الله على يدي النبي إلياس كدليل على أنّه تعالى لا يخصّ اليهود فقط برحمته، وهذا ما جعل مستمعي السيد المسيح من اليهود يحتدمون غضبا (انظر الإنجيل، لوقا 4: 25-26).

السرير. واستصرخ ربّه قائلاً: «اللهمّ يا ربّي، لِمَ أنزلت على الأرملة الّتي حللتُ ضيفًا عندها هذا البلاء، وألقيت على ابنها الفناء؟» ثمّ استلقى فوق الصبيّ ثلاث مرّات، واستغاث الله قائلاً: «اللهمّ يا ربّي، أعد هذا الصبيّ من الممات وابعث فيه الحياة!» فاستجاب الله لدعاء النبي إلياس. وعادت الروح إلى الصبيّ وعاش من جديد.[1] ثمّ أخذ النبي إلياس الصبيّ ونزل به من العُليّة، وسلّمه إلى أمّه قائلاً: «اُنظُري، لقد عاد ابنك إلى الحياة من جديد!» فقالت الأرملة: «إنّي على يقين أنّك نبيّ ربّ العالمين، وأنّ كلام الله يجري على لسانك لا ريب!»

النبي إلياس وكهنة بَعل[2]

انحبس المطر ثلاث سنوات، واشتدّت فيها المجاعة في مملكة السامرة، فأوحى الله إلى النبي إلياس: «اذهبْ إلى الملك آخاب وأخبره أنّي سأرسل قريبًا غيثا على البلاد». فأقبل إلياس عليه السلام على الملك آخاب. وكان الملك في الأثناء قد استدعى عُبيد الله المسؤول عن شؤون القصر. وكان عُبيد الله تقيّا يخشى الله، إذ غامر بحياته فأنقذ مئة من الأنبياء، لما عزمت الملكة إيزابال على إبادة الأنبياء نبيّا نبيّا، فأخفاهم في مغارتين خمسين خمسين، وقدّم لهم طعاما وماء. وجاء عُبيد الله إلى القصر يسعى، فقال له الملك: «علينا أن نبحث للخيل والبغال عن مرعىً أو سنذبحها قبل أن تموت جوعا وعطشا، فلنبحث في أرجاء الأرض عند عيون الماء وفي الأودية، لعلّنا نعثر على مرعى». واتّفقا أن يسلك كلّ منهما اتّجاها.

وبينما كان عُبيد الله يبحث عن الكلإ والماء، إذ رأى النبي إلياس عليه السلام مقبلاً عليه فعرفه، ووقف أمامه وانحنى ثمّ قال: «هل أنت فعلاً مولاي إلياس!؟» فأجابه عليه السلام:

(1) نرى هنا كيف أعاد الله هذا الصبي الميت إلى الحياة عن طريق دعاء نبيه إلياس. ومن المعروف أنّ السيد المسيح أعاد الناس من الموت إلى الحياة، وكانت هذه المعجزة نابعة من أمره الخاصّ، كونه كلمة الله وله سلطان يفوق سلطان بقية الأنبياء. يقول المسيح عن نفسه: ((وكَما أحيا اللهُ الأبُ الصَّمَدُ المَوتى، كذلِكَ يُحيِي الابنُ الرُّوحيُّ كُلَّ مَن يَشاء)) [الإنجيل، يوحنّا 5: 21].

(2) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 18: 1–46.

«أجل، أنا إلياس نبي الله. ارجع إلى سيّدك واعلمه بقدومي». فقاطعه عُبيد الله: «يا سيّدي ما الذنب الّذي ارتكبتُهُ حتّى تدفعني إلى الموت على يد الملك آخاب؟ أقسم بالله ربّك، ما من أُمّة ولا مملكة إلاّ وأرسل إليها سيّدي الملك رجاله باحثين عنك. وكان الملك آخاب يستحلفهم ليتأكّد من أنّهم لم يجدوك فعلا. والآن بعد كلّ ما جرى، هل تطلب مني حقا أن أخبره أنّك هنا؟! فربّما حملتك الروح الإلهية إلى حيثُ لا أدري! وأنا في طريقي إلى الملك لأخبره بوجودك، وعندما يأتي آخاب ليقبض عليك لا يجدك، فيقتلني، مع إنّي أتّقي الله وأخدمه بكلّ إخلاص مُنذ صِباي! أما بلغك عملي في سبيل الله حينما سعت الملكة إيزابال إلى الفتك بأنبياء الله؟ فقد خبّأتُ منهم مئة في مغارتين، في كل مغارة خمسون، وأتيتهم بالطعام والشراب. فهل ترضى يا نبي الله أن أذهب إلى الملك وأخبره بوجودك هنا؟ سيقتُلني بلا شكّ!» فأجاب إلياس عليه السلام: «إنّي خادم الله العزيز القدير، أقسم باسمه تعالى أنّي سأرى الملك آخاب اليوم». فذهب عُبيد الله إلى الملك آخاب وأخبره بمكان إلياس النبيّ، فخرج الملك للقائه.

وعندما رآه صاح: «ها قد وجدتُك أخيرًا يا إلياس، إنّك سبب كلّ الويلات الّتي حلّت على بني يعقوب!» فأجابه عليه السلام: «كلاّ، لستُ أنا السبب، بل أنت وأهل بيتك حين رفضتم وصايا ربّكم وعبدتُم أصنام بعل[1] من دون الله وكنتم من المشركين! والآنَ ارسِلْ إلى كلّ سكّان مملكة السامرة وادعهم إلى جبل الكرَمَل، وادع معهم كهنة بَعل الأربع مئة والخمسين، وكهنة عَشْتاروت الأربع مئة الّذينَ تعولهم الملكة إيزابال».

واحتشد الجميع في جبل الكرَمَل. ووقف إلياس عليه السلام أمامهم وخاطبهم: «حتّام تتأرجحون بين موقفين متناقضين؟ إن كان الله هو الحقّ فاتّخذوا نحوه طريقا واسلكوه، وإن كان بَعل هو الحقّ فاتبعوه». وخيّم على الحضور صمت ثقيل. فتابع النبي إلياس قائلاً: «لم يتبقَّ من أنبياء الله سواي، أمّا بَعل فله من الكهنة أربع مئة

(1) ذكر الطبري في تاريخه: "كان سائر بني إسرائيل قد اتّخذوا صنمًا يعبدونه من دون الله، يقال له: بَعْلِ".

وخمسون. وسنرى الآن من منّا على الحق اليقين. احضروا ثورَين، ليختار كهنة بَعل منهما ثورا وليقطعوه وليضعوه على الحطب، ولا يُشعلوا تحته النيران، وإنّي فاعل بالثّور الآخر ما يفعلون، ثمّ ليدع الكهنة بعل الذي يعبدون، وليستغيثوا به، وإني لمستغيث بالله رب العالمين. وإن استجاب بعل وأرسل نارًا لتأكل ثور الكهنة فهو الربّ المبين، أمّا إذا استجاب الله ربي وأرسل نارا إلى الحطب فهو الله لا إله إلاّ هو ربّ العالمين.» فاستحسن الحضور قول إلياس النبيّ. وطلب إلياس عليه السلام من كهنة بَعل قائلا: «أنتم تفوقونني عددا، فاختاروا قبلي ثورًا واحدا، واذبحوه هيّئوه على الحطب ولا تشعلوه، ثم نادوا بعلا واستغيثوه». ففعلوا كما أمرهم، واستغاثوا بَعل من الصّباح إلى الظُّهرِ هاتفين: «يا بَعل، استجِب لنا». وكانوا حول المَذبح الّذي بنوه يرقصونَ، ولكن لا سميع ولا مُجيب. وعند الظهيرة قال لهم النبي إلياس مستهزئا: «استصرخوه، وبصوت أعلى نادوه! لعل ربّكم شارد الذهن في السماء أو يقضي حاجته في الخلاء أو سافر فلم تسمعُوه، أو ربّما يكون نائما وعليكم أن توقِظوه!» فتعالت أصواتهم في صراخ يغزو الفضاء، و وفقا لشعائرهم جرحوا أجسادهم بالسّيوف والأسياخ حتّى سالت منها الدماء. واستمرّوا حتّى موعد قربان العصر في الصراخ والنحيب، ولم يأتهم ردّ، فما من سميع ولا من مجيب.

ثمّ قال النبي إلياس للحاضرين: «اقترِبوا منّي». فتحلّقوا حول مَذبح الله المنذور، ورمّم حجارته وأخذ من الحجر اثني عشر حسب عدد عشائر بني يعقوب. وبنى بها مذبحا لعبادة الله السميع المجيب، وحفر حوله خندقا يسع نحوَ دلوَين من الماء. ثمّ رتّب عليه الحطب. وقطّع الثور أجزاء أجزاء، ووضعها على الحطب، وقال: هيّا املأوا أربع جرار ماء، واسكبوها فوق اللحم والحطب» وأمرهم أن يعيدوا الكرّة مرّتين. فجرى الماء حول المَذبح وملأ الخندق.

وعند العصر حان الوقت لإحراق الثور قربانا لله، فاقترب النبيّ إلياس من المذبح، واستغاث ربّه وناداه: «اللّهمّ يا ربّ إبراهيم وإسحق ويعقوب، اليوم تثبت أنّك ربّ هذه الأمّة، وأنّي عبدك الّذي أنجز كلّ هذه الأمور وأنا طوع أمرك. اللهمّ استجب لدعائي، ليعلم كلّ الحاضرين أنّك أنت ربّ العالمين، وأنّك جعلتَهم يتوبون إليك

بقلب مُنيب».[1] وفي الحال أنزل الله نارًا ملتهبة سرعان ما التهمت الأضحية والحطب والحجارة والتراب وامتدّت إلى الماء الّذي في الخندق!

وعندما رأى ذلك الحاضرون سجدوا على الأرض هاتفين: «لا إلهَ إلاّ الله! لا إلهَ إلاّ الله!» فأمرهم إلياس عليه السلام: «اقبضوا على كهنة بَعل، ولا تدعوا أحدا يفلت منكم!» فقبضوا عليهم جميعا، وساقهم النبيّ إلياس إلى وادي قيشونَ وهناك قتلهم جميعا.[2]

ثمّ قال إلياس عليه السلام لآخاب: «والآن، لك أن تأكل وتشرب، لأنّي أسمع صوت هطول المطر». وأطاع الملك آخاب ما قاله إلياس، وصعد النبي إلياس إلى قمّة جبل الكرمَل وركع هناك وصلّى. وحين فرغ من صلاته، قال لخادمه: «يا فتى انظر نحو البحر وارتقب». ففعل ما أمره به سيّده، وعاد إليه قائلا: «لم يظهر لي شيء يا سيّدي». فأمره ثانية وثالثة وسادسة والخادم لا يرى غير البحر وسماء صافية، وفي المرّة السابعة قال لسيده: «إنّي رأيت ناحية البحر شيئا بحجم راحة الكفّ كأنه السحب». فهتف إلياس عليه السلام وقال: «اسرع إلى الملك آخاب وأخبره أن يستعجل الركوب في مركبته وأن يعود إلى قصره حتى لا تعطّله الأمطار!» وسرعان ما تلبّدت السماء بالغيوم، وهبّت رياح عاتية، وانهمرت الأمطار بغزارة. فركب الملك آخاب مركبته وعاد بسرعة إلى قصره في يَزرَعيل. ولكنّ النبي إلياس وصل قبله، لأنّ الله بسط قدرته لعبده إلياس وأيّده، فشدّ وسطه بحزام وجرى وسبق المركبة.

---

(1) انظر سورة الصافات: 124-126.

(2) اعتقد الحواريون أنّ سيدنا عيسى جاءهم ليواصل العمل الذي قام به النبي إلياس. وفي أحد الأيام زار المسيح وحواريوه قرية سامرية لنشر الرسالة، وكان اليهود يعتبرونهم أعداءهم منذ زمن طويل. لذلك رفض أهل تلك القرية استقبالهم، فاقترح الحواريون على السيد المسيح ما يلي: ((أيا سَيِّدَنا، أتأذنُ لنا فنَطلُبَ نارًا تَنزِلُ مِن السّماءِ فتُهلِكَهُم كَما فَعَلَ قَديمًا النَّبيُّ إلياسُ؟!)) لكنّ السيد المسيح نهرهم ووبخهم [الإنجيل، لوقا 9: 54]. وبهذه الكلمات أراد سيدنا عيسى أن يظهر لأتباعه أن من مقاصد الله رحمة جميع الناس بما في ذلك أعداءهم.

فرار النبي إلياس[1]

ولمّا وصل الملك إلى القصر أخبر زوجته إيزابال بكلّ ما فعله إلياس عليه السلام، وكيف قتل بسيفه جميع كهنة بَعل. فأرسلت إلى النبي إلياس هذه الرسالة: «ليت الآلهة تنزل عليّ أشدّ عقاب، إن لم أقتلك غدا قبل هذه الساعة كما قتلتهم!» فخاف إلياس عليه السلام وهرب إلى أقصى جنوب بلاد يَهوذا، إلى بئر السبع لينجو بحياته، وترك خادمه هناك.

وسار وحده يوما كاملا في البريّة حتّى بلغ شجرة رَتَمَة، فجلس تحتها وتمنّى أن تأتيه المنيّة قائلاً: «اللهمّ إنّي سئمت الحياة. فخُذْ روحي، فلست أفضل من آبائي الراحلين». ثمّ استلقى تحت الشجرة ونام. وفجأةً أيقظه ملاكٌ وقال له: «قُمْ وكُلْ». فنظر حوله فرأى عند رأسه رغيفا مخبوزًا على الجمر وجرّة ماء، فأكل وشرب وعاد إلى نومه. فأيقظه الملاك ثانية وقال له: «كُلْ مرّة أخرى، فأمامك رحلة طويلة تفوق طاقتك». فقام النبي إلياس وأكل وشرب. وأعطاه هذا الطعام قدرة على المسير، فسار أربعين يوما بلياليها إلى جبل طور، جبل الله القدير.

وقضى ليلته في مغارة وجاءه وحي من الله: «لماذا أنت هنا يا إلياس؟» فردّ قائلا: «أيّها العزيز القدير، لقد سلكت سبيلك بكلّ حماس، أمّا بنو يعقوب فنكثوا ميثاقك، وهدموا كلّ مكان تُحرق لك فيه القرابين، وقتلوا أنبياءك المختارين، وها أنا وحدي مخلصٌ لك أمينٌ، وها هم الآن يسعون إلى قتلي!» فأوحى الله إليه: «قِفْ على قمّة الجبل وانظر كيف يتجلّى لك ربّك العظيم». ثمّ هبّت ريح عاتية زعزعت الجبال وحطّمت الصخور، ولكنّ الله لم يتجلّ في الريح. وبعد الريح تزلزلت الأرض، ولكنّ الله لم يتجلّ في الزلزال. وبعد الزلزال اشتعلت نارٌ، لكنّ الله لم يتجلّ في النار أيضا. وبعد النار حلّت السكينة. ولمّا شعر النبي إلياس بالسكينة، غطى وجهه بعباءته ووقف في مدخل المغارة وأوحى الله إليه: «لماذا أنت هنا يا إلياس؟» فردّ مرّة أخرى: «أيّها العزيز القدير، لقد سلكت سبيلك بكلّ حماس، أمّا بنو يعقوب فنكثوا ميثاقك وهدموا كلّ مكان تُحرَق لك فيه القرابين، وقتلوا أنبياءك المختارين، وها أنا وحدي

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 19: 1–18.

مخلصٌ لك أمينٌ، وها هم الآن يسعَون إلى قتلي!» فأوحى الله إليه: «عد أدراجك إلى البراري قرب دمشق، وستجد هناك رجلا يدعى حَزائيل، فامسَحْه بالزيت دليلا على أنّي اخترته ملكا على مملكة آرام. وامسَحْ بالزيت أيضا ياهو بن نَمشي دليلا على أنّي اخترته ملكا على مملكة السامرة، وامسَحْ بالزيت أيضا اليَسَع بن شافاط مِن بلدة آبل مَحولَة دليلا على أنّي اخترته نبيًّا خلفًا لك. وكلّ عبدة بَعل من قومك الناجين مِن سيف حَزائيل يقتلهم ياهو، وكلّ الناجين من سيف ياهو يقتلهم النبي اليَسَع. وسيكون إلى جانبك سبعة آلاف شخص اصطفيتُهم من بلاد السامرة، لم يَركعوا لبَعل ولم يُقبّلوا صنمه!»

اليسع يلتحق بالنبي إلياس(1)

فانطلق إلياس عليه السلام ليفعل ما أمره به تعالى، وفي طريقه وجد اليَسَع عليه السلام يحرث حقلا وأمامه اثنا عشر زوجًا من البقر، يفلح على كلّ زوج منها واحد من رجاله، أمّا هو فكان يفلح مع الثاني عشر. فاقترب منه النبي إلياس واختاره خلفًا له إذ ألقى عليه عباءته، ومضى في سبيله. فترك اليَسَع عليه السلام محراثه وسعى خلف النبي إلياس وقال له: «أرجوك يا سيّدي دَعني أودّع أبي وأمّي، ثمّ أكون تابعا لك أمينا». فقال له النبي إلياس: «لك ذلك ولا تنس أني ألقيت عليك عباءتي.» وعاد اليَسَع عليه السلام إلى ثيرانه وذبح منها اثنين وكسر محراثه الخشبي وجعله حطبا وطبخ من لحمهما. ثمّ نادى الناس إلى وليمة الوداع فأكلوا منها. ثمّ التحق بالنبي إلياس وكان له في رسالته مساعدا مأمونا.

الملك آخاب يستولي على حقول نابوت(2)

كان قصر الملك آخاب في مدينة يزرعيل مجاورا لحقول كروم يملكها رجل يُدعى نابوت. وذات يوم استدعاه الملك وقال له: «حقولك قريبة من قصري، أريد أن أشتريها منك لأجعلها بستان بقول، وأعطيك بدلا منها حقولا أفضل، وإن شئت

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 19: 19–21.
(2) استنادا إلى كتاب الملوك الأول 21: 1–29.

أعطيتك ثمنها نقدا.» فأجابه نابوت: «لا سمح الله، كيف أفرط في ميراث أجدادي؟» وعاد الملك آخاب إلى قصره عابسا مغموما، والتجأ إلى فراشه، وجعل وجهه في اتّجاه الحائط وامتنع عن الأكل في تلك الليلة.

فسألته زوجته إيزابال: «ما بالك كئيبا حزينا حتّى أنّك امتنعت عن الأكل؟» فأجابها: «لقد خيرت نابوت إما أن يبيع لي حقول كرومه، أو أن أعطيه بدلا منها حقولا أخرى، لكنّه رفض! فأجابته زوجته: «ألست ملكا على مملكة السامرة كلها؟ أبشر! قم وكلْ، وأنا أدبّر لك الأمر فتحصل على حقول نابوت.»

وكتبت إيزابال رسالة باسم الملك إلى كلّ شيوخِ المدينة وأعيانها، وختمتها بخاتمه وأرسلتها إليهم. وكتبت في الرسائل ما يلي: «أيها السادة، نادوا بيوم صوم، وأجلسوا نابوت في صدارة المجلس، وليشهد عليه زورا رجلَين سافلَين، فيتهمانه بإهانة الله والملكِ. ثمّ خذوه خارج المدينة وارجموه حتّى الموت.» فنفّذ شيوخ المدينة وأعيانها أوامر إيزابال كما جاء في رسائلها إليهم. وأعلنوا يومًا للصيام وأجلسوا نابوت في صدارة الحاضرين، ثمّ جاء رجلان سافلان واتّهماه زورًا أمام الحاضرين بإهانة الله والملك. ثم أخذوه إلى خارج المدينة ورجموه بالحجارة حتّى الموت. وأرسلوا إلى إيزابال: «هلك نابوت رجما».

وحين بلغ إيزابال خبر موت نابوت، أخبرت زوجها آخاب: «يمكنك الآن أن تضمّ حقول نابوت الّتي رفض أن يبيعك إيّاها إلى قصرك، فقد هلك.» وفي الحال نزل الملك آخاب إلى الحقول ليستولي عليها.

ثمّ جاء الوحي إلى النبي إلياس: «لقد وصل الآن الملك آخاب إلى حقول نابوت ليستولي عليها. فاذهب إليه وأخبره أن الله تعالى يقول: «لقد قتلتَ نابوت وسرقتَ أرضه! ولأنّك ارتكبتَ هذه الجريمة الشنيعة، فستلحس الكلاب دمك في الموقع الّذي لحست فيه الكلاب دم نابوت!»

وعندما رأى الملك آخاب النبي إلياس مُقبلا عليه، صاح قائلاً: «أخيرًا لحق بي عدوّي!» فأجابه عليه السلام: «نعم، اقتفيت أثرك. وبما أنّك ارتكبت من الشرور ما لا يرضي

الله، فإنّ الله تعالى قد أصدر حُكمه وسيحلّ عليك البلاء، ويُباد كلّ ذكرٍ من ذريتك، عبدًا كان أم حرًّا في كلّ أنحاء السامرة. ويُهلك أهل بيتك كما هلك غيرك من الملوك المفسدين، بسبب ما اقترفته من آثام لا ترضي الله وأغويت قومك وجعلتهم آثمين. أمّا بخصوص إيزابال، فقد أمر الله تعالى أن تنهش الكلاب جثتها عند أسوار المدينة! وكلّ مَن يموت من أهلك داخل المدينة، تلتهمه الكلاب، ومن يموت خارجها، تفترسه الطيور الجارحة!» ولمّا سمع آخاب ما قاله الله في شأنه، مزّق ثيابه حزنًا وندمًا، ولبس خيشًا ليلَ نهار، وامتنع عن الأكل. وبعد فترة جاء الوحي إلى النبي إلياس: «انظر مدى ندم آخاب على ما ارتكب! لذلك لن أعاقب أهل بيته كما توعّدتُ في أيّام حياته، بل أفعل ذلك بعد أن يعتلي ابنه عرش مملكته».

ورغم الندم الذي تظاهر به الملك آخاب، فما من أحد باع نفسه لعصيان الله كما فعل تحت تأثير زوجته إيزابال. وتمادى آخاب في فسقه فعبد الأصنام الطواغيت، شأن الأموريّين الّذينَ طردهم الله بسبب آثامهم قبل مجيء بني يعقوب إلى الأرض.

ومع مرور الوقت توفّي الملك آخاب. وفي الأثناء رافق النبي اليسع سيّده النبي إلياس الذي اختاره خلفا له عندما وضع عليه العباءة.

رفع النبي إلياس إلى السماء(1)

وقصد إلياس واليسع(عليهما السّلام) بلدة جِلجال. ولمّا حان موعد رفع النبي إلياس إلى السماء في زوبعة طلب من النبي اليسع: «الله أمرني أن أتّجه إلى بيت إيل، فابْقَ هنا». فأجابه اليسع: «أقسم بالله وبحياتك، لن أفارقك». ورافقه إلى بيت إيل. ولمّا وصلا، أقبلت على النبي اليسع جماعة من المتصوّفين المنجذبين بالروح بعد أن خرجوا من بيت إيل، فقالوا له: «ألا تعلم أنّ الله رافع عنك سيّدك اليوم؟» فأجابهم: «أجل، أعلم ذلك ولكن لا تتفوّهوا بهذا الأمر أمامي».

ثمّ طلب إلياس من اليسع: «الله أمرني أن أتّجه إلى أريحا، فابقَ هنا». لكنّ اليسع

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 2: 1–18.

اعترض قائلاً: «أقسم بالله وبحياتك، لن أفارقك». واتّجها إلى أريحا معا. وعندما وصلا إلى هناك، أقبلت جماعة أخرى من المتصوّفين المنجذبين بالروح على النبي اليسع بعد أن خرجوا من أريحا، فقالوا له: «ألا تعلم أنّ الله رافع عنك سيّدك اليوم؟» فأجابهم: «أجل، أعلم ذلك ولكن لا تتفوّهوا بهذا الأمر أمامي». وقال النبي إلياس إلى اليسع مرّة أخرى: «الله أمرني أن أتّجه إلى نهر الأردنّ، فابْقَ هنا». ولكن النبي اليسع أجابه قائلا: «أقسم بالله وبحياتك، لن أفارقك». وواصلا طريقهما إلى نهر الأردنّ. وتبعهما خمسون رجلا من تلك الجماعة، ولمّا وصلا إلى ضفة النهر، توقّف الرجال على مسافة منهما لمراقبتهما. ثمّ أخذ النبي إلياس عباءته ولفّها وضرب بها مياه النهر فانشقّت شطرين، وعبر النّبيّان على أرض يابسة. وعندما بلغا الضفة الأخرى من النهر التفت إلياس وسأل اليسع: «ماذا عساي أن أفعل لك قبل أن يرفعني الله عنك؟» فأجابه اليسع: «أريدك أن تفضّلني على كلّ أتباعك فتمنحني ضعف القدرات الروحية التي ستهبها لهم، لأتفوّق عليهم وأكون خلفًا لك». فقال النبي إلياس: «إن ما تطلبه عسير جدا! ولكن إذا تمكنت من رؤيتي لحظة يرفعني الله عنك، يكون لك ما طلبتَ، وإذا حصل غير ذلك فما طلبته محال».

وبينما كان النبيان يسيران ويتبادلان أطراف الحديث، لاحت مركبة من نار تجرّها خيول ناريّة تباعد بينهما، وهنا عرج النبي إلياس في زوبعة إلى السماء. وعندما رأى النبي اليسع هذا المشهد العظيم أخذ يصيح: «يا مولاي، يا مولاي، يا أقوى من جيوش السامرة! كيف نستمرّ دونك؟!» وحينَ توارى النبي إلياس عن ناظريه، شقّ النبي اليسع ثيابه حزنًا عليه، والتقط عباءة النبي إلياس الّتي وقعت منه، وعاد إلى ضفّة نهر الأردنّ، وضرب بها المياه قائلاً: «هلاّ أيّدتَ عبدك يا الله يا ربّ إلياس؟» وبمجرد أن ألقى العباءة على المياه انشقّت شطرين، وعبر إلى الضفة الأخرى.

ولمّا رأت جماعة المتصوّفين المنجذبين بالروح كل ما حدث، قال بعضهم لبعض: «إنّ قوّة إلياس الروحيّة حلّت على اليسع، فخلفه!» وأقبلوا عليه وانحنوا أمامه احترامًا، وقالوا: «يا سيِّدنا نحن خمسون رجلا أشدّاء فاسمح لنا أن نبحث عن سيّدك، لعلّ روح الله ألقته على أحد قمم الجبال أو في الأودية». فأجابهم النبي اليسع: «لا جدوى

من بحثكم عنه». فألحّوا عليه، وفي النهاية وافق على مضض. فانطلقوا للبحث عن النبي إلياس ثلاثة أيّام لكنّهم لم يعثروا عليه. وعند عودتهم إلى مدينة أريحا، قال لهم النبي اليسع: «أما قلتُ لكم لا جدوى من بحثكم عنه؟»

معجزات النبي اليسع[1]

وذات يوم قال أهل أريحا للنبي اليسع: «يا مولانا، إنّ موقع مدينتنا جميل كما ترى، ولكن ماءها رديء يسبّب الجدب والعُقم». فقال لهم: «أحضِروا لي وعاءً جديدًا وضعوا فيه مِلحا». فأتوه بما طلب. ثمّ اتّجه إلى منبع الماء وألقى فيه الملح قائلاً: «قال الله تعالى: «جعلنا هذه المياه صالحة للشرب، فلا تسبّب الموت ولا الجدب ولا العقم بعد الآن»». وهذه المياه صالحة إلى يومنا هذا، كما أنبأ النبي اليسع.

وخرج اليسع عليه السلام من أريحا متّجها إلى بيت إيل وفي طريقه إلى هناك، صادف بعض شبّان المدينة يصرخون ساخرين منه: «ابتعد من هنا يا أقرع! ارحل من هنا يا أقرع!» فحدق بهم مليّا، ثمّ لعنهم باسم الله، فخرجت دُبّتان من الغابة وافترستا اثنين وأربعين منهم.

وتابع النبي اليسع سيره إلى جبل الكَرمَل. وفي النهاية عاد أدراجه إلى عاصمة السامرة.

النبي اليسع والأرملة[2]

وذات يوم أقبلت أرملة أَحَدِ المتصوّفين المنجذبين بالروح على اليسع عليه السلام وطلبت منه الغوث قائلةً: «يا سيّدي، أنت تعلم أنّ زوجي الراحل خدمك بإخلاص وكم كان تقيّا. لكنّه ترك دينا، وجاء صاحب هذا الدين وهدّدني بأخذ ابنيَّ عَبدَين له إذا لم أسدّد ما علي!» فأجابها اليسع عليه السلام: «كيف أستطيع مساعدتك؟ أخبريني ما الّذي تملكينه في بيتك؟» فأجابت: «لا أملك شيئًا إلاّ كوز زيت». فقال لها عليه السلام: «اطلبي من جيرانك عددا كبيرا من الأوعية الفارغة. ثمّ ادخُلي البيت مع ابنيك وأَغلقي الباب بإحكام، واسكبي

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 2: 19-25.
(2) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 4: 1-7.

ما عندك من زيت في جميع الأوعية، وكلّما امتلأ إناء منها ضعيه جانبا». فذهبت إلى بيتها، وفعلت ما أمرها به النبي اليسع. وقدّم لها ابناها الأوعية حتّى تملأها زيتا. وعندما ملأوا كلّ الأوعية، قالت لأحد ابنيها: «ناولني وعاء آخر.» فأجابها: «لا، هذا آخرها جميعًا». وفي الحال توقّف الزيت. فاتّجهت إلى النبي اليسع وأخبرته بكلّ ما جرى، فقال: «اذْهبي وبيعي ما جمعت من زيت وسدّدي دينك، وسيتبقّى لك من المال ما يكفيك لتعيشي مع ابنيك».

النبي اليسع يحيي ولدا في بلدة شونم[1]

ذات يوم بينما كان النبي اليسع عليه السلام في بلدة شُونَم، ألحّت عليه امرأة ذات شأن أن يتناول العشاء في بيتها، فلبّى طلبها. ومنذ ذلك اليوم دأبت على دعوته كلّما مرّ بشُونَم. وذات مرّة قالت لزوجها: «أنا على يقين أنّ هذا الرجل الّذي يمرّ بنا من حين لآخر، وليّ من أولياء الله الصالحين. فلنجعل له غرفة صغيرة على سطح بيتنا، ونجهزها بسرير ومائدة وكرسيّ ومصباح، حتّى يبيت فيها كلّما مرّ من هنا».

ولمّا عاد إليهم النبي اليسع في المرّة التالية، صعد إلى غرفته ليرتاح فيها. وطلب من خادمه جيحَزي: «أخبر هذه المرأة أنّي أريد الحديث إليها». وعندما جاءت وقفت عند الباب، فقال النبي اليسع لخادمه: «أخبرها أنّنا نقدّر كلّ التعب الّذي تكبّدته من أجلنا، فكيف نردّ لك هذا المعروف؟ وهل لديكِ طلب نرفعه إلى قائد الجيش أو جلالة الملك؟» فأجابت: «أنا بين أهلي وهم يعتنون بي خير اعتناء». ولمّا انصرفت سأل النبي اليسع عليه السلام خادمه من جديد: «كيف نردّ لها معروفها؟» فأجابه: «لا ولد لها، وزوجها بلغ من الكبر عتيًّا». فقال عليه السلام: «ادعوها مرّة أخرى». فعادت المرأة ووقفت عند الباب. فقال لها اليسع عليه السلام: «في مثل هذا الوقت من السنة القادمة، تحضنين ابنك بين ذراعيك». فصاحت: «أرجوك يا مولاي! يا نبيّ الله! لا تجعلني أسعد، فما تقوله مستحيل!» وبعد فترة حبلت المرأة فعلا وأنجبت ولدًا في الأجل المحدّد، تمامًا كما تنبأ اليسع عليه السلام.

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 4: 8-37.

وكبر الولد وصار صبيا، وذات يوم لحق بأبيه الّذي يشرف على الحصّادين في الحقول، وبينما كان مع أبيه، صرخ فجأةً: «آه! رأسي! رأسي يؤلمني!» فقال أبوه لأحد خدامه: «احمِلْه إلى أُمّه». فحمله إلى أمّه، وبقي في حضنها، لكنّه فارق الحياة عند الظهر. فصعدت به إلى غرفة النبيّ اليسع ومدّدته على السرير، وأغلقت الباب وخرجت. ثمّ أرسلت إلى زوجها مَن يخبره: «أرسِلْ لي خادما ومعه دابّة، لكي أسرع إلى نبيّ الله وأعود في الحال». فقال لها: «لِمَ كلّ هذه العجلة لاستشارة نبي الله، واليوم لا يقابل احتفال فاتح الشهر، أو يوم سبت؟» فأجابته: «لا تشغل بالك، ما ذهابي إلا للخير». وأسرجت الدابّة وقالَت لخادمها: «انطلق بسرعة! ولا تتوقّف حتّى آمرك!» وانطلقت في الحال إلى جبل الكرمَل لتستنجد بالنبي اليسع الّذي لمحها قادمةً من بعيد فقال لخادمه جيحَزي: «أُنظرْ إنّها تلك المرأة من بلدة شونم، فاسرِع إليها في الحال واسألْها عن أحوالها وأحوال عائلتها». لكنّها قالت للخادم جيحَزي: «كلّنا بخير إن شاء الله». وعندما وصلت إلى النبي اليسع في قمّة الجبل، تشبّثت بقدميه، فحاول جيحَزي أن يدفعها عنه، ولكنّ النبي اليسع منعه من ذلك، قائلاً: «دعها وشأنها! إنّ حزنها عميق، والله لم يكشف الأمر لي، بل أخفاه». فصرخت بعمق: «لم أطلب منك ولدا يا مولاي! أما رجوتُك ألا تجعل السعادة تغمرني إلى حين؟» فأمر اليسع عليه السلام خادمه جيحَزي: «تهيّأ للرحيل! خُذ عصاي في يدك واخرج بسرعة! ولا تحدّث المارّة في الطريق. وعندما تصل ضع عصاي على وجه الصبيّ». ولكن أمّ الصبيّ اعترضت قائلة: «أُقسم بالله الحيّ القيّوم وبحياتك لن أفارقك!» فرافقها النبي اليسع عليه السلام إلى بيتها. أمّا الخادم جيحَزي فسبقهما إلى البيت ووضع العصا على وجه الصبيّ، ولكن دون جدوى. وعاد إلى النبي اليسع وأخبره: «الولد ما زال على حاله».

ولمّا دخل النبي اليسع غرفة الصبيّ وجده جثّة هامدة فوق سريره. فأوصد الباب دونه وتضرّع إلى الله. ثمّ تمدّد فوق جثمان الصبيّ ووضع فمه على فمه وعينَيه على عينيه ويديه على يديه، فأخذ الدفء يسري في جسم الصبي. ثمّ قام النبي اليسع وجال في الغرفة مرّة، وتمدّد فوق الصبيّ، وهنا عطس الصبيّ سبع مرّات وفتح عينيه. فنادى

خادمه وطلب منه أن يحضر أمّ الصبيّ! فحضرت في الحال، وعندما دخلت قال لها: «تفضّلي، احملي ابنك بين ذراعيك!»[1] فانحنت اعترافا بالفضل والجميل، ثمّ حملت ابنها بين ذراعيها وانصرفت.

النبي اليسع والطعام المسمّم[2]

ورجع اليسع عليه السلام إلى بلدة جِلجال، وكانت المجاعة قد اشتدّت. وفي يوم من الأيام، وبينما كان النبي اليسع يعلّم جماعةً من المتصوّفين المنجذبين بالروح الذين يجلسون أمامه، طلب من خادمه: «ضع القدر الكبير على النار، واطبخْ طعاما لهذه الجماعة». فخرج أحد الحاضرين إلى البريّة ليلتقط بقولاً، فصادف نبات الحنظل فقطف منه كميّة كبيرة، وجاء به فقطّعه ووضعه في القدر، وهو لا يعلم أن ما قطفه سامّ. ولمّا همّ الرجال بأكل اللقمة الأولى من الطّبيخ، صاحوا: «أيّها النبيّ إنّ هذا الطعام مسموم!» ورفضوا أن يأكلوا منه. فطلب النبي اليسع دقيقا، وألقاه في القدر ثمّ أمر خادمه: «قدّم هذا الطعام للرجال الآن». فأكلوا منه ولم يصِبهم أيّ مكروه.

النبي اليسع يطعم مئة رجل[3]

وفي يوم من الأيام أقبل رجل من بلدة بَعل شَليشَة على النبي اليسع، حاملا معه عشرين رغيفًا من خبز بواكير حصاد الشعير وكميّة من الحبوب. فطلب منه النبي اليسع قائلا: «أعطِ الجماعة ليأكلوا منه». فقاطعه خادمه قائلاً: «هذه الكمية لا تكفِينا، فنحن مئة رجل!» أمّا اليسع عليه السلام فقال مؤكدا: «أعطِ الجماعة ليأكلوا منه، فالله تعالى يقول: «إنّهم يأكلون منه ويزيد عن حاجتهم»». وعندما وزّع الخادم الطعام، أكلوا منه وزاد عن حاجتهم كما وعد الله تعالى.[4]

(1) هنا أعاد الله هذا الصبي الميت إلى الحياة عن طريق دعاء نبيه اليسع، شأن ما فعله مع النبي إلياس. انظر الهامش في هذه القصّة - "إلياس عليه السلام في بلدة الصرفند".

(2) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 4: 38-41.

(3) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 4: 42-44.

(4) إنّ هذه المعجزة التي أجراها الله على يدي اليسع مدهشة. بينما سيدنا المسيح أتى بمثلها

القائد نعمان يُشفى من البرص[1]

كان نُعمان قائد جيش مملكة آرام في بلاد الشام، وأكرمه سيّده ملك آرام كثيرا، لأنّ الله ثبت عزمه فحقّق لمملكته نصرًا كبيرا. ورغم أنّه محارب شديد البأس، إلاّ أنّه كان يعاني من البرص. وذات يوم خرج بعض الجنود إلى الغزو، وسبوا فتاة صغيرة من مملكة السامرة، وأصبحت من خدم زوجة نُعمان. وذات مرّة قالت لمولاتها: «ليت سيِّدي يتّجه إلى بلدي ليشفيه نبي هناك من برصه!» فأخبر نُعمان سيّده الملك بما قالت الفتاة. فأجابه الملك: «لا بدّ أن تذهب إلى ملك السامرة واحمل معك هذه الرسالة». فأخذ نُعمان معه ثلاثينَ ألف قطعة من الفضّة وستّة آلاف قطعة من الذهب، وعشر حلل من الثياب، وانطلق. وكان مضمون الرسالة ما يلي: «أرسلتُ إليك نُعمان قائد جيشي مع هذه الرسالة، فأرجو منك أن تشفيه من برصه». وعندما قرأ ملك السامرة ما جاء في هذه الرسالة، مزّق ثيابه من هول الفاجعة، وقال: «كيف يطلب مني هذا الرجل أن أشفي مصابا بالبرص؟ هل أحلّ محل الله المحيي المميت؟ لا شكّ أنّه يريد أن يحرّضني ليبرّر اجتياحه لبلادنا!»

فلمّا سمع النبي اليسع عليه السلام بكلّ ما جرى، أرسل إلى مِلك السامرة يقول: «لماذا ارتعبت يا مولاي؟ أرسل نعمان إلى هنا، فيعلم علم اليقين أنّ نبيّا حقيقيّا يوجد في مملكة السامرة!» فأقبل نُعمان بخيله ومركباته وعندما وصل إلى بيت النبي اليسع، وقف عند الباب. ولم يخرج النبي اليسع للقائه وإنّما أرسل إليه خادمه ليقول له: «اِذهبْ إلى نهر الأردنّ واغتسلْ في مياهه سبع مرّات، فيتعافى جسمك ويزول عنك البرص». فانتاب نُعمان غضب شديد وأخذ يتمتم: «لماذا لم يخرج للقائي؟ كنتُ أحسب أنّه يقف أمامي ويتضرّع باسم ربّه، ويلوّح بيده فوق موضعِ البرص، فيشفيني. إنّ مياه نهري دمشق: أبانَة وفرفَر، أفضل من كلّ أنهار مملكة السامرة! لِمَ لا أغتسل فيهما، فأشفى؟» ومضى في غضبه. فلحق به الرجال المرافقين له قائلين: «يا سيّدنا،

وكرّرها عندما أطعم 5000 شخصا، وأيضا عندما أطعم 4000 شخصا. وفي كلّ مرّة يزيد الطعام عن حاجة الحاضرين، كما نرى هنا في هذه المعجزة. انظر الإنجيل، متّى 14: 20 و15: 37.

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 5: 1–27.

لو طلب منك هذا النبيّ أمرا عسيرا، أما كنتَ فاعله؟ ألا يجدر بك طاعة أمره فتغتسل، وتُشفى؟» فاتّجه نُعمان إلى نهر الأردنّ، واغتسل في مياهه سبع مرّات، كما أمره النبي اليسع، فتعافى جسمه وعاد جلده نضرا كطفل صغير.

ثمّ اتّجه نعمان ورجاله إلى النبي اليسع، ولما وقفوا أمامه قال نعمان: «أنا على يقين الآن أن الله الّذي تعبدونه هنا، هو الأحد الصمد لا إله إلاّ هو في الأرض كلّها، فيا سيّدي أرجوك أن تقبل منّي هذه الهديّة». أجابه اليسع عليه السلام: «أنا عبد الله الحيّ القيّوم، وأُقسم به تعالى لن أقبل هدايا». ورفض النبي اليسع كل الهدايا، رغم أنّ نعمان ألحّ عليه. فقال نُعمان: «لكن يا سيّدي، لقد قررتُ أن أعبد الله ربّكم، فاسمح لي بأخذ كميّة من تراب أرضكم، وعليه أقدّم القرابين والأضاحي لله دون سواه. لكن أرجو من الله أن يغفر لي أمرا واحدا، فإذا رافقتُ ملك آرام ليسجد في مَعبد الإله رِمّونَ، وسند نفسه على كتفي فسأضطر للسجود معه، فليت الله يغفر لي هذا الأمر». فطمأنه النبي اليسع: «لا عليك، اِذهبْ في أمان الله».[1] ومضى نُعمان في طريقه، ولمّا ابتعد مسافة قصيرة، قال جيحَزي خادم النبي اليسع في نفسه: «ما خطب مولاي! كان ينبغي أن يأخذ الهدايا من الآرامي! أقسم بالله إنّي أقتفي أثره وآخذ منه بعض الهدايا». فركض جيحَزي وراءه، وعندما تفطّن إليه نُعمان نزل عن مركبته، وقال له: «خيرٌ قدومك إن شاء الله!» فأجابه جيحَزي: «كلّ الخير، لقد أرسلني إليك سيّدي لأخبرك أنّ اثنين من جماعة المتصوّفين المنجذبين بالروح قد وصلوا الآن من جبل أفرايم يطلبون مساعدة، قيمتها ثلاثة آلاف قطعة من الفضّة وحُلّتين من الثياب». فأجابه نُعمان: «لك ما طلبت، ولكن خذ ضعف الفضة إن شئت!» ولمّا ألحّ عليه، صرّ الفضّة في كيسَين مع حُلّتَين من الثياب، وأمر اثنين من خدمه أن يحملاهما ويرافقا جيحَزي. ولمّا وصلوا القلعة الّتي يقيم فيها اليسع عليه السلام، صرف جيحَزي الخادمين بعد أن أخذ منهما

(1) ذكر سيدنا المسيح هذه المعجزة للنبي اليسع لكي يبرهن لمستمعيه اليهود أنّ الله دائما يحيط الناس من جميع الأمم بعنايته، بما في ذلك أعداء بني يعقوب. فقال: ((فقد كانَ في بَني إسرائيلَ في زَمَنِ النَّبيِّ اليَسَع مُصابونَ بالبَرَصِ كُثُر، ولكنّ اللهَ لم يَشفِ على يَديْ نَبيّهِ واحدًا مِن بَني إسرائيلَ المُصابينَ بالبَرَصِ بل شَفى نُعْمانَ الغَريبَ السّوري)) [الإنجيل، لوقا 4: 27].

الكيسَين وأخفاهما في البيت. ثمّ ذهب إلى النبي اليسع، الّذي بادره بالسؤال: «أينَ كنتَ يا جيحَزي؟» فأجابه: «ما ذهبتُ إلى أيّ مكان يا سيِّدي». لكن النبي اليسع أجابه صارمًا: «ألا تعلم أنّ روحي سبقتك إلى هناك حينَ نزل نُعمان عن مركبته لاستقبالك؟ هل تستغلّ مناسبة كهذه لتستولي على المال فتشتري به بساتين وزياتين وكروم وغنم وبقر وخدم؟ ولأنّك فعلتَ ما فعلتَ، فإنّك تعاني أنت ونسلك من برص نُعمانَ إلى الأبد!» وقبل أن يهمّ جيحَزي بالمغادرة أصبح جلده أبرص كالثلج.

وعاش النبي اليسع عليه السلام فترة طويلة في السامرة وخلالها جرت على يديه معجزات عديدة.

وفاة النبي اليسع(1)

ولكنّه عليه السلام أُصيب بمرض شديد شارف من خلاله على الموت، فعاوده يوآش ملك السامرة، وقال له: «يا مولاي! يا مولاي، يا أقوى من جيوش السامرة! كيف نستمرّ بدونك؟» فطلب منه النبي اليسع أن يأخذ قوسا وسِهاما، فأخذ. ولمّا أمسك الملك بالقوسِ، وضع النبي اليسع يده على يد الملك وأمره أن يفتح النافذة المطلّة على جهة الشرق ويصوب السهم نحوها، ففعل. ثمّ أعلن اليسع عليه السلام: «هذا السهم يرمز إلى نصر من الله على آرام، إنّك تضرب الآراميّين في مدينة أفيق فتبيدهم.» ثمّ أمر الملك أن يأخذ بقية السهام ويضرب بها نحو الأرض. فضرب ثلاث مرّات وتوقّف. فغضب عليه النبيّ قائلا: «لو ضربتَ خمس مرّات أو ستّ، لكنتَ ضربتَ الآراميّين فأبدتهم إلى الأبد. لكنك تهزمهم ثلاث مرّات فقط. ولمّا توفّي النبي اليسع دُفن خارج المدينة. وفي أحد الأيام كان بعض الناس من بني يعقوب يدفنون جثمانا، ولمّا رأوا غُزاة من بلاد موآب -الّذين دأبوا على غزو بلادهم كل ربيع- قادمين نحوهم رموا الجثمان في قبر النبي اليسع وفرّوا هاربين، وما كاد الجثمان يمسّ عظام اليسع عليه السلام حتّى عاد الميت إلى الحياة ولحق بقومه!

وكانت هذه آخر معجزات النبي اليسع الذي كان عظيما في معجزاته، فكشف عظمة الله تعالى وقدرته على امتداد حياته وحتى بعد مماته.

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 13: 14-21.

أشعيا عليه السلام

قصّة النبي أشعيا عليه السلام

مدخل إلى قصة النّبي أشعيا عليه السلام

عاش النّبي أشعيا عليه السلام في القرن الثّامن قبل الميلاد، وأوحى الله إليه خلال حكم أربعة ملوك من مملكة يهوذا الجنوبية. وتوجد في كتاب النّبي أشعيا إشارة إلى زوجته، وربّما حظيت بكرامة النبوءة مثله. وأوكل الله إلى النبي أشعيا أن ينذر بني يعقوب – الذين يعيشون في مملكة السّامرة الشمالية ومملكة يهوذا الجنوبية – ويعلن لهم أنّ آثامهم وعصيانهم سيؤديان بهم إلى العقاب. وكان بنو يعقوب يحرصون على العبادات والتقاليد الدينية، إلاّ أنّهم منافقون، ممّا يلغي عن صلواتهم وقرابينهم كلّ قيمة أمام الله.

ولم يتب بنو يعقوب عن آثامهم رغم تحذير النبي أشعيا الشديد لهم. وقد حثّ النبيّ أشعيا الملك آحاز الذي كان حاكما على مملكة يهوذا، أن يثق بوعد الله، لأنّ الله تعالى سيحمي مملكته، ولكن الملك آحاز لم يستجب لهذا الطلب. وحثّ النّبي أشعيا أيضا الملك حزقيّا بن آحاز أن يتّكل على الله وألاّ يدخل في حلف مع مصر أو يخضع للجيوش الأشورية. وكان الملك حزقيّا مخلصا لله على غير مثال أبيه الملك آحاز، فاتّبع وصايا شريعة النبي موسى. ولكن خلال فترة حكم حزقيا تصاعدت سطوة مملكة أشور وقهرت مملكة السّامرة التي كانت مملكة لبني يعقوب سنة 722 ق. م. ولم تنجح الإصلاحات الدينيّة التي قام بها الملك حزقيّا في وقف إنحدار إيمان شعبه في مملكة يهوذا، رغم تدميره للمعابد الوثنية.

وخلال حكم الملك حزقيّا أنقذ الله أهل القدس بمعجزة من الجيش الأشوري. ويُخبر الطّبري في تاريخه: «وقال بعضهم: بل الذي غزا حزقيا صاحب شيعا [أي أشعيا] سِنْحريبُ ملك الموصل، وزعم أنّه لمّا أحاط ببيت المقدس وبجنوده بعث الله ملاكا فقتل من أصحابه في ليلة واحدة مائة ألف وخمسة وثمانين ألف رجل».[1] ووردت هذه القصة بالتفصيل في الكتاب المقدّس، كتاب النبي أشعيا الفصلين 36 و37، وفي سفر الملوك الثّاني الفصل 19.

وإضافة إلى التحضيرات التي نقلها النّبي أشعيا، أوحى الله إليه بأنّه تعالى سيعيد شأن قوم ميثاقه، وسيرسل عبدا مختارا مرتضى يقاسي الآلام من أجلهم فداء للمذنبين (انظر كتاب النّبي أشعيا، الفصول 42، 49، 50، 52 و53)، ويؤكد الإنجيل الشريف أنّ هذا العبد المرتضى هو السيد المسيح. وجاء الوحي على لسان النبي أشعيا بخصوص الخلق الجديد الموعود به، حيث يشترك النّاجون بوليمة عظيمة متّكئين على أرائك، وحينها يزيل الله ظلال الموت التي تخيّم على كلّ البشر (انظر كتاب النّبي أشعيا، الفصلين 25 و65).

ولا نجد خبرا في الكتاب المقدّس عن موت النبي أشعيا ولكن التلمود يخبرنا باستشهاده حين نشروه إلى قسمين. ويؤكّد ابن كثير هذا الخبر في قصصه للأنبياء قائلا: «قال ابن اسحاق: ثمّ لمّا مات حزقيا ملك بني اسرائيل مرج أمرهم، واختلطت أحداثهم وكثر شرّهم فأوحى الله تعالى إلى شعيا [أشعيا]، فقام فيهم، فوعظهم وذكّرهم، وأخبرهم عن الله بما هو أهله، وأنذرهم بأسه وعقابه إن خالفوه وكذّبوه. فلمّا فرغ من مقالته عدوا عليه، وطلبوه ليقتلوه. فهرب منهم فمرّ بشجرة فانفلقت له، فدخل فيها وأدركه الشّيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها فلمّا رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها فإنّا لله وإنّا إليه راجعون».[2]

(1) **الطبري**، *تاريخ الرسل والملوك*، ط 2، (بيروت، دار التراث، 1387هـ) ج 1، ص 535.

(2) **ابن كثير**، *قصص الأنبياء*، ط 1، (القاهرة، مطبعة دار التأليف، 1388هـ/ 1968م)، ج 2، ص 317.

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النّبي أشعيا عليه السلام

مقدّمة[1]

هذه رؤيا أشْعَيا بن آموص، وكان أشعيا نبيّا، زمن الملوك عُزِّيّا ويوتام وآحاز وحِزقيّا، الّذين حكموا مملكة يَهوذا، وقد رأى أشعيا رؤى تتعلّق ببلدهم المنيف وعاصمته القدس الشريف.

عتاب الله لبني يعقوب[2]

يقول النبي أشعيا:

اِسمعي أيّتها السّماوات واصغي أيّتها الأرضون، لقد قال الله تعالى: «إنّا فضّلنا بني يعقوب عيالنا المقرّبين، وجعلناهم تحت رعايتنا آمنين، ولكنّهم تمرّدوا علينا عاصين! إنّهم في هذا أدنى من الثيران والحمير، فهي تعترف براعيها ولا تقابله بالنّكير، أمّا عبادي بنو يعقوب فما هم بفاهمين. وبفضلنا عليهم لا يعترفون».

ويضيف النبي أشعيا: واحسرتاه، يا لضلال هذا الشعب المبين، شعب مُثقَل بأوزاره، قوم من الأشرار والمفسدين! تركوا ربّهم وجحدوه، واستهانوا بالقدّوس وأنكروه، وانقلبوا على أعقابهم كافرين!

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 1:1.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 1: 2–7.

لماذا تصرّون على عصيان أمر الله؟ لماذا تتمسّكون بالعصيان، كأنّكم بعقابه راضون؟ أنتم مثل المصاب الكليم: رأسه جريح وقلبه سقيمٌ. لا عضو فيه سليم، من أعلى الرأس إلى أسفل القدم، تغطيه جروحٌ ورضوضٌ والتهابات لا تُضمَّد ولا تُعالج بالمرهم. فبلادُكم أصبحت خرابًا وخلاء، ومدنكم أحرقت وحقولكم ينهبها الغرباء، ويخرّب كلّ محتوياتها أمام أنظاركم الدّخلاء.

الله يتوعّد الظالمين[1]

ويلٌ لكم أيّها الحكّام الظالمون، وأنتم يا من بقوانين الجور والقهر تحكمون! إنّكم تمنعون حقوق الفقراء وتردّون العدل عن الضعفاء، وتنهبون الأرامل وتستغلّون اليتامى البؤساء. فكيف تعملون، إذا أنزلت عليكم عقابي، وأرسلت عليكم من الأقاصي البلاء؟ من ذا يجيركم وبه تستغيثون؟ وأين ستودعون ما به أنتم أثرياء؟ فلا مفرّ لكم إلاّ البقاء مع الأسرى، أو المكوث مع الموتى! ورغم هذا فلن يرتدّ عنكم غضب الله، ويحلّ عليكم جزاء من القويّ المتين!

قلة هم العائدون[2]

وإثر نزول عقاب الله على الشّماليّين، لن يبقى منهم إلا النزر القليل، هؤلاء القوم النّاجون، سيجدون في ربّهم القدّوس خير حليف ولن يكونوا على غيره متّكلين، كملك أشور الّذي صرّف في القضاء عليهم كلّ تصريف. أجل، سترجع البقيّة الباقية منهم إلى الله الجبّار بعد أن تتوب توبة الأخيار.

حتّى وإن كان عدد بني يعقوب كَرمل البحر كثيرين، فلن ينضمّ إلاّ قليلٌ منهم إلى النّاجين، لأنّ الله حكم عليهم بالهلاك المحتوم، وهو أعدل الحاكمين. إنّ الله العزيز القدير سيُنزِل عليهم في أرجاء الأرض حُكمًا سريعًا حاسمًا وفق قضائه اليقين.

يقول الله العزيز القدير: «يا عبادي في جبل الله المقدّس في القدس، لا تخشوا

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 10: 1–4.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 10: 20–25.

الأَشوريّين، رغم أنّهم سيرفعون عليكم عصيهم وبها يضربون، كما فعل بكم قديمًا المصريّون، فإنّه قريبًا سينتهي زمن غضبي عليكم، أمّا هم فجزاءهم من غضبي عاجلاً سينالون».

رفض الله لنفاقهم[1]

هُجرت القدس الحبيبة وها هي خراب وقفار، كمدينة تحت الحصار، أو خيمة حارس منعزلة وسط الكروم والأشجار، أو كوخ بُني في حقل للقَثاء بعد أن انتهى عمل الحصّادين. لو لم يكتب العزيز القدير أن يكون بقية باقية من شعبنا من الناجين، لهلكنا الهلاك العظيم، كما هلك قوم لوط في مدينتَيْ عَمورة وسَدوم![2] أمّا الآن يا حكّام القدس ويا من فيها تقيمون، ها أنتم كقوم لوط الآثمين! فاصغوا لما أمركم به ربّ العالمين! يقول الله تعالى: «ما لي وكل هذه الأضاحي والقرابين؟ كفّوا عن تقديم هذه العجول والخرفان والتيوس، لا تسحبوها إليّ مطلقا ولا تحرقوها، فهي لا ترضيني.[3] ومَن أوهمكم أنّكم إذا قمتم بتلك الشعائر عبدتموني؟ فلا تدوسوا حرمي المقدّس ولا تقربوني! كفّوا عن تقديم باطل القرابين، والبخور الّذي تحرقونه أثناء صلواتكم فبتقديمه تبغضونني! وحتّى شعائر احتفالات بزوغ الأهلّة ويوم السبت وصيام النوافل، كلّها زيف وكذب مهين! إنّكم ترتكبون الآثام، ثمّ تحتفلون بالمواسم والأعياد، وأنا لا أُطيق نفاق العباد![4] نعم، كرهتُ فواتح شهوركم وأعيادكم، إنّها بغيضة إليّ كريهة، لا أنظر إليها ولا إلى من بها يحتفلون! وعندما ترفعون أيديكم

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 1: 8-20.

(2) هتان المدينتان معروفتان أيضا باسم ”المؤتفكات“ (انظر سورة التوبة: 70).

(3) قارن سورة الحجّ: 37.

(4) يريد الله من عباده الإخلاص والطاعة لأن ممارسة شكليات العبادات بما في ذلك الأضاحي هي نفاق ولا قيمة لها أمام الله. لقد راعى الله محدودية إدراك بني إسرائيل للروحانيات في زمن النبي موسى وغيره من الأنبياء اللاحقين إذ أذن للمؤمنين بممارسة تقديم الاضاحي السائدة أنداك بين الوثنيين لكي يتقربوا إليه في عباداتهم. لكن مقصد الله تعالى لهم كان أن يجتازوا هذه الظواهر أن يسموا في عبادتهم ويتجاوزوا تقديم الذبائح وغيرها من القرابين فيسموا في النهاية الى تقديم أنفسهم كليا لله.

بالدّعاء أتوارى خلف حجاب، ومهما أكثرتم مِن النّداء فلن يأتِكم مني جواب، لأنّ أيديكم ملطخة بدماء الأبرياء. فاغتسلوا وتطهَّروا من الفساد! لا أريد أن أرى أعمالكم الشريرة، وكُفّوا عن اقتراف الآثام! وتعلَّموا القسط والإحسان، وساعدوا المظلوم ودافعوا عن الأرامل وأنصفوا الأيتام». ويقول الله أيضًا: «هذا هو القول الفصل: إن كانت خطاياكم كالقرمز حمراء، فإنّي أجعلها كالثلج بيضاء! وإن كانت داكنة حمراء، فإنّي أحوّلها كبياض الصوف في صفاء! فإن أطعتموني، خير الأرض تأكلون. وإن أبيتم وتمرَّدتم عليّ فبالسيف تُهلَكون. هذا أمر الله ربّكم العظيم».

اختيار أشعيا نبيّا[1]

يقول النبي أشْعَيا: «في السنة الّتي توفّي فيها ملك يهوذا عُزّيّا، رأيتُ من الله رؤيا فيها جلال مولاي لي يتجلّى، وأراه على عرشه المتعالي الرفيع قد استوى، وبحُلّة المجد الّذي أنار بيته المقدّس برمّته قد تحلّى. كانت تحوم حوله ملائكة تشتعل نارًا، ولكُلِّ ملاك منهم ستّة أجنحة، يستر وجهه باثنين، ويستر رجليه باثنين، ويطيرُ باثنين.[2] وكلّ واحد منها يُنادي الآخر ويردّد:

"قُدّوسٌ قُدّوسٌ قُدّوسٌ! اللهُ العزيز القدير!

هيبته تملأ الأرضين!»[3]

وكان لأصواتهم وقع شديد، اهتزّت له أركان الحرم المجيد، وامتلأ بيت الله دخانًا. فقلتُ: «يا لخيبتي! يا ويلتي، إنّي لا ريب هالك فكلّ قولي آثام، كذلك شأن من حولي من الأنام. ولكنّي رأيتُ تجلّيات مولاي العزيز القدير!» فطار إليّ أحد الملائكة المشتعلين، وبيده جمرة التقطها مِن مَحرقة القرابين. ومسح بها على فمي وقال: «لقد مَسَّت هذه الجمرة شفتيك، وبها أزال الله إثمك وكفّر عن ذنبك». وجاءني الوحي الإلهي قائلاً: «مَن نصطفيه للنّاس رسولاً؟» فأجبتُ في الحين: «لبّيك يا ربّ! اجعلني

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 6: 1–13.

(2) وجاء وصف لهذه الملائكة في الإنجيل، سفر الرؤيا 4: 8. قارن سورة فاطر: 1.

(3) انظر سورة الزمر: 75.

للنّاس رسولا!» فأوحى إليّ مرّة أخرى: «اِذهب إلى هؤلاء القوم وأخبرهم لعلّهم يسمعون:

مهما سمعتم رسالة الله فإنّكم لا تدركون،

ومهما نظرتم فيها فإنّكم لا تُبصرون».(1)

ثمّ أوحى الله إليّ: «بلّغ رسالتي لهذا الشّعب الأثيم، ورغم كلّ جهودك ستزداد عقولهم تكلّسا، وآذانهم صمّا، وبصائرهم عمى، فهم لرسالتي غير منصتين، ألا ليتهم يعودون إليّ لأَشفيهم من السقم العظيم».(2)

فقلتُ: «يا ربّ! حتّى متى أبلّغ الرسالة نفسها لقوم لا يسمعون؟» فقال تعالى: «بلّغ رسالتي حتّى يحلّ الخراب على كل المدن ويهجرنا كل السكّان، وتصبح البيوت خاوية بلا إنسان، ويعمّ البلاد كلّها الخراب والحرمان، فلا تهدأ إلى أن يُبعِد الله عنها كل السكّان، وتصبح مهجورة أمام العيان! وإن بقي فيها عُشر ساكنيها، فإنّ جيوشًا ستجتاحها وتحرقها بمن فيها، وسيصبح هذا الشعب كشجرة البطمة أو البلوطة العظيمة التي يقطع الله جذعها وفي الأرض يلقيها، كذلك يظلّ كلّ المصطفين لله في الوجود، حتّى يعودوا كالجذع الَّذي ينمو من جديد».

نشيد الكروم(3)

كتب النبي أشعيا عليه السلام: للعزيز عن كرومه دعوني أُنشد نشيدًا:

للعزيز كروم على تلّ خصيب.

حرث أرضه وأزال عنها حجارتها بعيدا

وغرس فيها أفضل الكروم.

(1) انظر سورة فُصّلت: 5.

(2) يوكّد الإنجيل أنّ هذه النبوءة تحققت عندما رفض كثير من الناس الإيمان بالسيد المسيح (انظر الإنجيل، يوحنّا 12: 37-41).

(3) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 5: 1-7.

وبنى وسطها برجًا فيه يقف الحارس الرقيب
وحفر معصرة في الصخر المتين،
وانتظر منها الثمر الرغيب
لكنّها لم تثمر إلاّ حصرمًا.
فقال العزيز تعالى: «يا أهل القدس الشريف،
ويا شعب مملكة يَهوذا العسيف،
تدبّروا في ما جرى بيني وبين كرومي.
هل رأيتم شيئًا تحتاجه كرومي؟
أم تراني قصّرت في العناية بها تقصير المُليم؟
لماذا أثمرت حصرمًا برّيًّا
وقد أردت منها عنبًا نديّا؟
فاستمعوا ما أنا فاعل بكرومي:
لأزيحنّ سورها ولأفتحنّ عليها الأبواب،
حتّى تهجم عليها الأغنام والدواب
فتدوس ثمارها وتتلف أشجارها
سأجعل أرضي مقفرة بورا،
فيها يطلع الشوك والحسك دهورا،
وأمسك الغيث من الغيوم
فلا تسقيها الأمطار».

إنّ الكروم هم بنو يعقوب
وإنّ الله العزيز القدير

جعل السامرة ويهوذا مثال المكان الخصيب،

وانتظر منهم تعالى الحقّ فإذا بهم يستهترون في سفكهم للدّماء!

وأراد الصلاح فإذا الظلم والصياح والبكاء![1]

آحاز يعتلي عرش مملكة يهوذا[2]

في السنة السابعة عشرة من حُكم الملك فَقْح بن رَمَلْيا، ملك السامرة، اعتلى آحاز بن يوتام عرش مملكة يَهوذا. وكان عمره عشرين سنة عندما أصبح ملكًا، وحكم القدس لمدّة ستّ عشرة سنة. ولكنّه لم يسع إلى مرضاة الله مثل سلفه النبي داود، بل انتهج سبيل الملوك الشماليّين، حتّى أنّه أحرق ابنه قربانا شأن الوثنيين، وكذلك أتى العادات البغيضة نفسها الّتي كانت تأتيها شعوب المشركين، الّذين جعلهم الله من قبل عن عباده مُبعدين. فقدّم الأضاحي وأحرق البخور في المعابد الوثنية، على التلال وفي ظلال الأشجار العتية.

النبي أشعيا يرزق بولد[3]

قال النبي أشعيا: أوحى الله إليّ: «خُذ لوحًا كبيرًا واكتُب عليه بحروف واضحة اسم ابنك: «سلب سريع، ونهب يسير!»» وسأجعل الحبر أوريَّا وزكريَّا بن يبرَخْيا شاهدَينِ على ما تكتب، لأنّهما أمينان. وبعد فترة رُزقت زوجتي بولد، وكانت مثلي تملك كرامة النبوءة. فأوحى الله إليّ: «سمِّه: «سلب سريع، ونهب يسير». واعلم أنّه من قبل أن يتمكّن الولد من نطق: يا أبي ويا أمّي، سيغزو ملك أشور أعداءكم في دمشق والسّامرة ويحمل معه ثروتهما».

---

(1) استعمل النبي أشعيا صورة الكروم هنا لكي يحذر بني يعقوب من عصيانهم وكفرهم. واستعمل السيد المسيح الصورة ذاتها عندما حذر اليهود في زمنه من آثامهم فحثهم على التوبة والإيمان به (انظر الانجيل، لوقا 20: 9– 19).

(2) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 16: 1–4.

(3) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 8: 1–4.

قدوم ملك أشور[1]

ثمّ أوحى الله إليّ مرّة أخرى: «إنّ اعتنائي بشعب مملكة يهوذا يشبه انسياب مياه وادي شيلوه في هُدوء، ولكنّ هذا الشعب يرفض اعتنائي به رفض الجحود، إذ اتّبع الملك رَصين والملك ابنِ رَمَلْيا بسبب خوفه الشديد. لذلك سيرسل المولى على شعب يهوذا ملك أشور، وجيشه الكبير، الذي سيفيض عليه مثل ماء نهر الفُرات الغزير، فيغمُر جميع الجداول ويتعدّى كل الحدود، ويتدفّق على يَهوذا سيلاً عارما حتّى يصل إلى الرقاب، فيبسط الملك جناحيه في أقاصي بلادك مثل نسر أو عُقاب». والله سيكون معنا خير سند!

يا أيُّتها الشّعوب في أقاصي الأرض! تحالفوا من فزعكم الشديد! استعدّوا وتشاوروا! واستنفروا جيوشكم وتأهّبوا، ارسموا خططكم، لكنّكم لن تفلحوا، إنّكم مهزومون، لأنّ الله سيكون معنا، نعم، إنّكم لمنكسرون!

الله ينذر النبي أشعيا[2]

يقول النبي أشعياعليه السلام: إنّ الله لقد أنذرَني ومنعني بأمره الشديد، ألاّ أسير في طريق بني يعقوب، وأوحى إليّ: «حذار! لا تتّبع هذا الشّعب الضّالّ! ولا تعتبر أنّ الخيانة هي كلّ ما اعتبره هذا الشعب خيانة. ولا تخشَ ما خافه ولا ترهبْهُ. إنّ الله أحقّ أن تخافه فهو الربّ العزيز القدير، واعلم أنّه الملك القدّوس الكبير. فإن توكّلتَ عليه يكون لك الحصن الحصين، أمّا من في الشمال والجنوب، فقد ارتدّوا عن ربّهم العظيم، فأصبح في أعينهم حجر فيه يعثرون، وصخرةٌ تجعلهم يسقطون، وفَخّ لكل سُكّانِ القدس المرتدّين. فكثيرون منهم يَعثرون ويسقطون ويتحطّمون ويتكسّرون ويقعون في الفخّ ويُؤسَرون». أمّا النبيّ أشعيا فقال لأتباعه: «عليكم أن تحفظوا تعاليمي فلا تضيّعوها واجعلوا لها سجلاً رسميًا حتّى تؤدّوها. فقد حجب الله عن آل يَعقوب رضاه، ولكنِّي أتوكَّل على الله، وأترقّب رضاه.

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 8: 5–10.
(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 8: 11–22.

لقد أصبحتُ ومن معي من العيال الّذين وهبهم لي اللهُ، بيّنات لبني يعقوب من الله العزيز القدير الّذي يتجلّى في بيته في القدس. وسيحتّكم البعض قائلين: «دعونا نسأل العرّافين، الّذين يتعاملون مع الجِنّ وللأموات مستحضرين، لنستشير الّذين يهمِسون سرّا ويُتمْتِمون سحرًا». قل: «يا أهل يهوذا الضالين، أليس أجدر بالنّاس أن يطلبوا الهداية مِن ربّهم العظيم؟ فكيف يطلب الأحياء إرشادًا من الأموات الفانين؟» ألا فانظروا في قول الله وكتابه! أمّا الّذين هم لقوله رافضون، ففي الظّلام يتخبّطون. بل سيتيهون في الأرض جوعًا وشقاء، وسيشتدّ جوعهم فإذا هم غاضبون، فيلعنون مَلِكهم وربّهم الكريم. وإن هم جالوا بنظرهم إلى أعلى أو إلى أسفل فسيجدون أنفسهم في البؤس والظلمات قابعين، وإذا هم في الضّيق البهيم الّذي إليه يُطرَدون.

الملك آحاز لا يؤمن بوعد الله(1)

ولكن الملك آحاز بعث وفدا إلى ملك أشور قائلا: «يا مولاي الملك، أنا عبدك ورهن إشارتك على طول الأيّام، أنقذني مِن حصار ملك السامرة وملك آرام». وجمع آحاز فضّة وذهبا من خزائن قصر الملك ومن بيت المال في الحرم القدسي، وأرسلها إلى ملك أشور لينال رضاه.

إنذار للملك آحاز(2)

وفي أيّام حُكم آحاز بن يوثام بنِ عُزيّا ملك يَهوذا في الجنوب، اتّجه رَصينُ ملِك آرام في سوريا صحبة فَقَحُ بن رَمَلْيا ملك السامرة في الشمال،(3) إلى القدس للهجوم عليها، لكنّهما عجزا عن هزيمتها. وقبل الهجوم عليها، أصاب الملك آحاز وشعبه رعبٌ عظيم، وارتجّ مثلما يرتجّ شجرُ الغابة أثناء العاصفة عندما بلغه خبر تحالف أهل

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 16: 7–9.
(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 7: 1–9.
(3) بعد زمن النبي سليمان تمرّد عشرة من عشائر بني يعقوب الاثني عشر على حكم رحبعام ابن النبي سليمان، وأقاموا مملكة جديدة في بلاد السامرة، وقد أذن الله بهذا الانقسام بسبب ما ارتكب نبيه سليمان.

السامرة مع الآراميّين. فأوحى الله إلى النبي أشعيا: «اِمضِ الآن مع ابنك شآرياشوب (ومعناه: عودة القلّة) للقاء الملك آحاز قرب خزانة الماء العُليا للمدينة في طريقِ حقل القَصَّار، وانقل له الأخبار: «اطمئنّ ولا تخف من شدّة غضب ملك آرام وملك السامرة، فما هما إلاّ جمرتان بلا نار. صحيح، أنّهما تآمرا على الملك آحاز قائلين: «هذه بلاد يَهوذا فلنهجم عليها ونبثّ فيها الرعب ونفتحها ونجعل ابن طَبْئيل على عرش المملكة ونسيّره كما نشاء». ولكنّ الله مولاي قال: «لن يحدث هذا الغزو أبدًا، فآرام ليست من عاصمتها دمشق أشدّ وأقوى، وليست دمشق أقوى من ملكها رَصين، ومملكة الشمال ليست أقوى مِن عاصمتها السامرة، وعاصمتها ليست أقوى من ملكها ابنِ رَمَلْيا. أمّا مملكة السامرة، فستتحطَّم وتدمّر برمّتها بعد خمس وستّين سنة. وإن لم يؤمن الملك آحاز وحاشيته بي فلا مفرّ لهم من الهزيمة».

آية عمانوئيل[1]

وأوحى الله إلى الملك آحاز مرّة أخرى، رسالة على لسان النبي أشعيا: «يا آحاز، اطلب لنفسك برهانًا من ربّك على أنه لقومك خير نصير، اطلب ما تشاء مِن أعلى الدرجات إلى أدنى الدركات». فرفض آحاز مراوغا: «لا أحتاج أن أطلب شيئا، ولا أريد من الله دليلاً!»

فأجابه النبي أشَعيا: «اصغِ يا آحاز إليّ، أنت وكلّ مَن معك في بيت داود الملكي! أما كفاكم أنّ صبر الناس عليكم في نفاد؟ فهل تُذهبون أيضا صبر ربّ العباد؟ إنّ ربّي هو من يرسل إليكم هذه الآية: «ستحملُ الفتاة بذكر وتلده ويدعونه عمّانوئيل، ويعني الله معنا.[2] وقبل أن يأكل هذا الفتى زُبْدًا وعَسَلا، وقبل أن يردّ الشرّ ويختار الصّواب، تصبح بلاد آرام والسامرة في خراب، لأنّ الله سيُرسل عليكم جيوش ملك أشور،

---

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 7: 10–18.

(2) الآية التي يذكرها النبي أشعيا هنا يأتي ذكرها في الإنجيل لاحقا ليؤكد أن السيد المسيح حققها بمجيئه فهو كلمة الله التي ألقاها إلى السيدة مريم. فالسيد المسيح يعبّر بشكل كامل عن مشيئة الله وحلوله بين عباده (انظر الإنجيل، متّى 1: 22–23).

وسيجعل أيامًا عويصة تحلّ عليك وعلى آل بيتك وعلى شعبك المغرور، أيامًا لا مثيل لها منذ انفصلت مملكة السامرة عَن مملكة يَهوذا.

الملك حَزَقيّا يعتلي عرش يهوذا[1]

وفي السنة الثالثة من حُكم هُوشَع بن أيلة ملك السامرة، اعتلى حَزَقيّا بن آحاز عرش مملكة يَهوذا. وعندما كان عمره خمسا وعشرين، حكم المملكة وعاصمتها بيت المقدس العظيم، وحكم تسعًا وعشرين سنة حُكما عادلا سويّا. وتدعى أمّه أَبِيّة بنت زَكريّا. وسعى في مرضاة الله كما سعى سلفه النبي داود سعيا رضيّا. فهدم المعابد الوثنية وحطّم الأصنام وهدم الأعمدة الّتي نصبها الناس لعبادة عشتروت، وكسّر حيّة النحاس الّتي صنعها النبي موسى، لأنّ بني يعقوب اتّخذوها صنما وشرعوا يعبدونه ويحرقون له بخورا نديّا، وأطلقوا عليه اسم نَحُشْتان.[2] وتوكَّل حَزَقيّا بن آحاز على الله ربّ بني يعقوب، فلم يكن له مثيل في كلّ ملوك يَهوذا في من مضى منهم وفي من هو آت. وكان معتصمًا بالله في ثبات، عاملاً بالوصايا الّتي أمر الله بها النبي موسى. وكان الله يمدّه بالنصر في كل معركة لأنّه أحلّه محلّ الرضى. ورفض حَزَقيّا أن يدفع الجزية لملك أشّور وتمرّد عليه وعصى. وهزم الوثنيين في بلاد الساحل واحتلّ مدينة غزّة والأراضي المحيطة بها وعليها حكم واستولى، بما فيها من قلاع ومدن محصّنة.

وفي السنة الرابعة من حُكم الملك حَزَقيّا، الموافقة للسنة السابعة لِاعتلاء هُوشَع

(1) استنادا إلى كتاب الملوك الثاني 18: 1–12.

(2) بعد أن أظهر اليهود تذمّرهم مِن النبي موسى عليه السلام وربّه في صحراء سيناء، أرسل الله عليهم أفاعي سامّةً عقابًا لهم على جحودهم. فذهبوا إلى موسى عليه السلام يطلبون منه التخلّص من الأفاعي، وبعد طلب المغفرة من الله، أوحى الله إليه أن يصنع حيّة من نحاس، ثم يرفعها على خشبة. فيأتي كلُّ مَنْ لدغته أفعًى، فيشخص ببصره إلى حيّة النحاس، فيشفى. ولمّحت هذه المعجزة إلى الشفاء الأعظم الذي أرسله الله إلى الناس من خلال السيد المسيح، الذي أشار إلى نفسه ورسالته بهذه الكلمات: ((فكَما رَفَعَ النّبيُّ موسى الحيّةَ في الصَّحراءِ على خَشَبةٍ، كذلِكَ لا بُدَّ أن يُرفَعَ سَيِّدُ البَشَرِ على خَشَبةٍ، حتّى يَنالَ كُلُّ مَن يؤمِنُ بِهِ نَصيبَهُ في جَنّةِ الخُلدِ)) [الإنجيل، يوحنّا 3: 14–15]. أمّا بنو يعقوب في زمن الملك حزقيّا فلم يدركوا رمزية هذه الحية النحاسية فأخذوا يعبدونها.

عرش السامرة، هجم شَلْمَنْأَسَر ملك أشّور على عاصمة السامرة، وهزمها بعد ثلاث سنوات من المحاصرة. وفي تلك الأثناء أسر ملك أشّور عددا كبيرا من سكّان مملكة السامرة، ونقلهم إلى بلاد أشّور، وأسكنهم في مدينة حَلَح على ضفاف نهر خابور، وفي منطقة جوزان في مدن ماداي، فكانوا هناك في المنفى. فحلّت هذه النكبة عليهم جزاء عصيانهم لله ربّهم ومخالفتهم لميثاقه ولجميع الوصايا التي أمر بها عبده موسى. وأعرضوا عنها غير مبالين.

مرض الملك حَزَقيّا[1]

وفي تلك الفترة أصيب الملك حَزَقيّا بمرض خطير أوشك خلاله على الموت. فذهب إِليه النبيّ أشْعَيا بن آموص عليه السلام ليزوره، وبلغه بوحي الله: «يقول الله تعالى بشأنك: «سجّل وصيّتك لأهل بيتك، فلن تُشفى من مرضك بل ستلقى الموت حتمًا»» وحين سمع حَزَقيّا هذا الخبر، أدار وجهه إلى الحائط، وتضرّع إلى الله قائلاً: « يا ربّ أنت تعلم كيف سلكتُ بأمانة وإخلاص الصّراط المستقيم، وكيف سعيتُ إلى مرضاتك في كلّ حين!» وأخذه البكاء المرير.

فأوحى اللهُ إلى النّبي أشْعَيا وأمره أن يعود إلى الملك حَزَقيّا ببلاغ جديد: يقول الله الّذي آمن به سلفك النبي داود: «إنّي سميعٌ عليمٌ بدعائك ودمعك السخين، فها أنا أُمدّد عمرك خمس عشرة سنة أخرى! وأُنقذك وهذه المدينة مِن ملك أَشّور الطاغية ذي الظّلم الشّديد، وأجعلها تحت حمايتي.[2] وتصلك إشارة ربّانيّة منّي تؤكد إتمام هذه الوعود، فأجعل ظِلّ الشّمس يعود أدراجه إلى الوراء عشر درجات حسب السّاعة الشّمسيّة الّتي بناها الملك آحاز.» فَعاد ظلّ الشّمس كلّ هذه المسافة إلى وراء تطبيقًا لأمر الله تعالى.

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 38: 1–8.

(2) ذكر ابن كثير هذا الحدث في قصصه للأنبياء إذ كتب: "وأوحى الله إلى شعيا أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه، وقد أخر في أجله خمس عشرة سنة، وأنجاه من عدوه سنحاريب."

أشعيا يتنبأ بالحَكَم العادل المنتظر[1]

ولكنّ زمن هذا الضيق والظلمات يجري إلى انقضاء. وبما أنّ بلاد زَبولون ونَفتالي قد عانت من الذلّ والنكبة فيما مضى، فإنّ تلك البلاد الّتي تقع غرب نهر الأردنّ قُرب بحيرة الجليل، حيث يقطن غيركم من الشعوب، ستحظى في المستقبل بالكرامة والتبجيل.

إنّ الّذين في الظّلمات سالكون
نورا باهرا يبصرون!
أولئك الذين هم على الموت وظلماته يشرفون،
يُشرق عليهم نورٌ عظيم.[2]
يا ربّ، ستجعل أفراد هذه الأمّة يزدادون،
وسيشعرون بابتهاج عظيم
ويحتفلون أمامك بفرح كفرحهم بموسم الحصادِ
ويهلّلون كالمحاربين الذين هم للغنائم متقاسمون،
لأنّك ستحرّرهم من قيود الظالمين،
ومن سطوة الأسياد
وتكسّر العصي الّتي بها يُضربون
كما فعلتَ يوم هزيمة شعب مِدينَ.[3]

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 9: 1–7.

(2) جاء في الإنجيل أنّ السيد المسيح سكن في منطقة الجليل، وشرع في نشر دعوته هناك فكان هذا تحقيقا لنبوءة أشعيا هنا بإشراق النور العظيم على الذين يسلكون في الظلمات (انظر الإنجيل، متّى 4: 14–16).

(3) هنا إشارة إلى هزيمة قوى مدين على أيدي القائد جدعون، لأنّ أهل مدين كانوا يضطهدون بني يعقوب (انظر سفر القضاة، الفصول 6–8).

وحينها تُحرق نِعالُ جيش العدوّ

مع كلّ الأزياء العسكرية المُلطَّخة بالدّماء،

وتصبح للنار وقودًا وغذاء.

وهذا الفرح العظيم مأتاه أنّ الله سيمنح لنا ولَدًا يرث العرش الكريم.

نعم، سيرسل لَنا وريث المملكة المرتجى

ويحمّله السلطة وحده دون الورى.

وبهذه الألقاب الملكية يُدعى:

مشيرًا عجيبًا،

جبّارًا ربّانيًّا

أبًا أبديًّا، رئيس السّلام.

يمتدّ حُكمه وسلامه بلا نهاية،

ويملأ الأرض قسطًا ويعمّ العدل العالمين

من عرش سلفه النبي داود

إلى أبد الآبدين.[1]

إنّ هذا ما كتبه الله العزيز القدير!

مملكة السلام الموعودة[2]

ألا إنّ المولى العزيز القدير يقطع بجبروته شجرة مملكة أشور العظيمة! أجل، سيقطع المتعالين المتكبّرين. سيقطعهم بفأس فيتهاوون كما يتهاوى أضخم شجر لبنان!

(1) يرى عدد من الباحثين أن معاني الجمل هنا تتحقّق بمجيء السيد المسيح، فهو وريث عرش النبي داود.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 10: 33–34، 11: 1–10.

وينبت غصن من جذع مملكة النبي داود،

أجل، من أصله يظهر ملك مجيد.

وتحلّ عليه روح الله الحميد،

روحُ الحِكمة والمَشورة والنُّهى

روح القوّة والمعرفة والتّقوى،

ويبتهج بهيبة الله والتقوى.

لا يقضي بين الناس حسب المظهر أو ما يُرى

ولا يتّخذ قرارًا حسب الإشاعات بين الورى،

بل يقضي بين الفقراء بالقسطاس المستقيم

ويُنصف في الأرض المستضعفين.

سيعاقب بكلمته الظالمين.

وبنفخةٍ منه يميتُ الفاسدين.

يتّخذ الإخلاص والأمانة حزامًا

يحيط بهما وسطه دواما.

وعندها، سيسكن الخروف مع الذئاب،

ويرقد الجَدي مع النّمر الوثّاب.

ويكون العجل والخروف في أمان مع الأسود،

ويقودهم جميعًا طفلٌ صغير.

ويرعى الدّبّ بجوار الأنعام

ويبيتُ أولادُهما معًا في وئام

ويأكل الأسد التبنَ كالثيران.

ويلعب الرّضيع بكلّ أمان على وكر الأفعى،

ويمدّ يده في جُحر الثعابين!

في جبل الله المقدّس العظيم

لا شيء يؤذي ولا شيء يضرّ

لأنّ الأرض ستمتلئ بمعرفة ربّ العالمين،

امتلاء البحار ماءً.

وفي ذلك اليوم المشهود

يقوم وريث مملكة النبي داود رايةً للعالمين.

فتلتفّ الأُمم حوله وتكون بلاده محلّ مجد وتكريم.

الله يرحم قوم ميثاقه(1)

قال الله تعالى للنبي أشْعَيا عليه السلام:

ثبّتوا عزيمة قوم ميثاقي! نعم، ثبّتوا عزيمته وانصروه!

شدّوا أزر أهل القدس ولا تضيّعوه!

بشّروهم بنهاية زمن تأديبهم في بلاد السّبي والهوان

ونهاية عقابهم على الآثام الّتي ارتكبوها في سالف الأزمان.

فقد عاقبتُهم على كلّ خطاياهم أضعافًا!

انتبهوا إلى صوت يأتيكم من البراري:

هيّئوا أنفسكم لمولاكم،

ومهّدوا السّبيل لقدوم الملك العظيم

فلأجله اِرفعوا كلّ وادٍ واخفِضوا كلّ جبل،

واِجعلوا كلّ معوجّ مستقيما

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 40: 1–15.

وكلّ وعر قويما
فيتجلّى جلال الله فيكم في بهاء
ويراهُ البشر أجمعون!»
إنّ هذا هو قول الله المبين.[1]
وجاء صوت هاتف إلى النّبي أشْعَيا يقول: «اِقرأْ».
فأجاب: «ماذا أقرأُ؟»
قال: اِقرأ إنّ البشر كالعشب النديّ،
وكزهرِ العشب منظرهم البهيّ.
بنفخةٍ مِن الله يموتُ العشب ويسقط الزّهر على التّراب،
كذلك البشر إلى الفناء واليباب.[2]
نعم، يموتُ العشب ويسقط الزّهر على الأديم،
أمّا بلاغُ الله فيبقى إلى أبد الآبدين!
يا قُدس أبشري! ويا أهل القدس، اهتفوا بالبشرى من أعالي الجبال!
اِرفعوا أصواتكم عاليًا، ولا تخافوا!
قولوا لبقيّة مدن يَهوذا:
"هوذا ربّكم ذو الجلال!"
يأتي الله مولاي بقوّة واقتدار
ويحقّق بيد متينة الإنتصار!

(1) اقتبس النبي يحيى بن زكريا عليه السلام كلام النبي أشعيا هنا عندما بلّغ الناس بمجيء المسيح المنتظر (انظر الإنجيل، لوقا 3: 3–6). ورأى النبي يحيى أن نبوءة أشعيا تؤكّد أنّ في السيد المسيح يتجلّى جلال الله.
(2) يقتبس الحواري يعقوب بعض الكلمات من النبي أشعيا هنا، لكي يؤكّد أن الرجل الثري سيفنى مع بهائه (انظر رسالة يعقوب 1: 10–11).

إنّه قادم بجزائه لعباده الأبرار.

إنّه يرزق قومه بمنتهى العناية

كالرّاعي الّذي يحضن صغار القطيع،

ويحملها بحنانه الوديع

ويقودُ مُرضعاتها بلطف ورعاية.

فالله تعالى مدّ السّماوات وبسط البحار

بكل سهولة فهو العزيز الجبّار.

إنّ عمله كان بارعًا وكان بنيانه خارقا!

إنّه عليم بوزن تراب الأرضِ ويدرك جبالها

ويحسب بالميزان تلالَها.

مَن يقدر أن يكون لروح الله مرشدًا،

أو له تعالى بالنّصائح مسدّدا؟

وهل يحتاج الله إلى مشورة البشر الفانين

أو هداية إلى سبيل الحقّ المبين؟

هل يحتاج القدير إلى معرفة وتعليم

أو إرشاد إلى طريق الفهم القويم؟

إنّ العالمين عنده قطرة من دلوٍ أو غبار في الميزان.

والأرض وكلّ ما فيها ذرّة مِن تراب عنده في الحسبان.[1]

الله يقوّي المتّكلين عليه[2]

أما عرفتم؟ أما سمعتم؟

(1) انظر سورة الزمر: 67.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 40: 28–31.

أنّ الله الباقي الصّمد،
خالق أقاصي الأرضين
لا يأخذه كللٌ ولا مللٌ(1)
وفَهمُهُ لا تحدّه حدود ولا سدود!
يهب الضّعفاء قوّةً
ويمنح المغلوبين على أمرهم قدرةً.
ألا إنّ الشبّان ليكِلّون،
ثمّ يتعثرون ويسقطون.
أمّا الّذين على ربّهم يتّكلون
فمن جديد يتقوّون
وبأجنحة كالنّسور يطيرون.
وإذا ركضوا لا يتعبون
وإذا ساروا لا يكِلُّون.

عبد الله المنتظر(2)

قال تعالى: «هوذا عبدي المختار المنتقى،
حبيبي المرتضى،(3)
أفضتُ عليه روحي، فيُقيم العدل بين الورى،
لا يخاصم ولا يصيح

(1) انظر سورة البقرة: 255.
(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 42: 1–9.
(3) حين تطهّر السيد المسيح بالماء في بداية دعوته، جاء صوت الله من السماء بكلمات تشبه إلى حد كبير هذه الكلمات من النبي أشعيا (انظر الإنجيل، متّى 3 : 17) وبهذه الطريقة أكّد الله أن السيد المسيح حقق نبوءة أشعيا الواردة هنا.

ولا يرفع صوته في الأسواق

ولا يتجبّرَ فيسحق في الأرض المستضعفين

كأنّهم قصبة مُهشّمة أو بقايا نار في مهبّ ريح

بل يأتيهم بالإنصاف القويم،

ولا يتوانى ولا تحبط عزيمته حتّى يقيم العدل في الأقاصي والآفاق.

وستضع الشعوب رجاءها في إرشاده الصّحيح.

إنّ الله خالق السّماوات وبارئها العظيم

باسط الأرضِ وكلّ ما فيها

واهب الناس نفحة الحياة

منعمًا بالروح على أهل الدنيا.

ويقول له تعالى:

"يا عبدي إنّي ربّك، وقد أرسلتُك وفاء لوعودي

وأخذتُ بيدك وحفظتك.

وأرسلتُك ترسيخًا للميثاق الذي أقمته مع عبادي

إنّك للأمم النّور الهادي،[1]

تفتح عيون العميان،

وتُطلِق الأسرى من السّجونِ

وتخرج القابعين في الظلمات إلى النور.

أنا الله، وهذا اسمي،

(1) بعد ميلاد سيدنا عيسى رآه أحد أولياء الله الصالحين وعلم أنه المنجّي المنتظر فأخذ حينها هذه الكلمات من النبي أشعيا قائلا أن المسيح هو: ((يكون لشعوب الأرض هاديا ونورا)) [انظر الإنجيل، لوقا 2: 25-30].

لا شريك لي في جلالي،

ولم أرض لي من بين الأصنام أندادا من دوني يسبّحون،

ولقد تحقّق ما جاءت به النّبوءات،

وننزل عليكم الوحي من جديد،

ليخبركم بما ستلقونه في الحياة،

وقبل حدوثه ننبئكم به».

الله يختار الملك كورش[1]

هذا قول الله تعالى للملك كورش ذاك الّذي رفعه على عرش حُكمه، وشدّ يمينه لكي يقهر الأمم في طريقه ويجعلهم له صاغرين، ويكسر شوكة ملوكها والسلاطين، فيستولي على القلاع والحصون، وتنفتح الأبواب واسعة ولا تُغلَق في وجهه ولا حين! قال له تعالى: «إنّي أمامك سأتجلّى فأُمهّد لك الجبال، وأُحطِّم أبواب النحاس الثّقال، وأَكسرُ حواجز الحديد! وأُعطيك ما في الظّلمات من كنز مرصود، فتعلم أنّي أنا الله الّذي يعبده بنو يعقوب، وقد سخّرتُك بنفسي لتنفيذ المقصود. ورغم أنّك كنتَ تجهل من أكون، فقد سخّرتُك لمن في آل يعقوب من عبادي المختارين من أجل مقصدي الكريم. أنا الله لا شريك لي، ولا إلهَ غيري. ومع أنّك لا تعرفني، فقد وهبت لك قوّة حتّى تشنّ الحروب، ليعلم البشر من مشارق الأرض إلى مغاربها: أن لا إلهَ إلاّ الله. أنا الله وحدي لا شريك لي! أنا خالق الظّلمة والنور، أنزل الهناء والشّقاء. أنا الله الّذي يقدّر كلّ هذه الأمور».

سأتمّ وعودي، وأفتح السّماوات لتُمطر الغيوم بالنّصر المبين! فتنبت النجاة من الأرض تحقيقًا لميثاقي. أنا الله الخالق البارئ العظيم.

يا للخيبة! أخالقكم تخاصمون، وأنتم مجرّد قطعة خزفٍ من طين؟ كيف يتجرأ مخلوق من طين أن يقول لمن جبله: «لقد أخطأتَ في عملك»؟ وكيف له أن يقول:

---

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 45: 1–13، 17–25.

«عملك تعوزه دقّة وإتقان؟»

كيف لولد أن يسأل أباه: «لماذا أنجبتَني أبتاه؟» أو يسأل أمّه: «لماذا ولدتني على هذا الشكل يا أمّاه؟»

أنا الله القُدّوس ملك بني يعقوب، أنا الخلاّق العليم. فكيف تسألونني عمّا أعدّدته لمستقبل عيالي المختارين؟ كيف تشيرون عليّ في ما أعددته لكم وكيف تحتجّون؟ إنّا خلقنا الأرض وخلقنا الإنسان ليعمّرها. إنّي باسط السّماوات ونجومها، وكلّها في قبضتي أفلا تدركون! وتحقيقًا لوعودي أقمتُ الملك كورَش على عدل، ويسّرت له كل الشّؤون. وسأجعله يعيد بناء مدينة القدس التي أخترتها ويطلق من غير حساب كلّ عبد لي في بابل أسير. هذا وعد الله العزيز القدير!

إنّ اللهَ ينجّي بني يعقوب نجاةً أبديّةً، فلن يلحقهم الخزي ولا الذل في قادم العصور وعلى مدى الدهور.

إنّ الله خالق السّماوات والأرض، وما خلقها خرابا إلاّ لتكون عامرة بمخلوقاته. قال تعالى: «أنا الله لا شريك لي. أكشف عن وعودي بجلاء ولا أتعمّد الخفاء! لم أطلب من آل يعقوب أن يسعوا إليّ دون جدوى! بل أنا الله وقولي لا يكون إلاّ صدقا.

قال تعالى:»يا من هم في الأُمم المجاورة موزّعون، اِجتمعوا وتعالوا إليّ جميعًا وأقبلوا، أيّها التائهون! ما أشدّ جهلَ الّذين للأصنام الخشبيّة يحملون ولأوثان عاجزة عن نجاتهم يتضرّعون! فتشاوروا في ما بينكم واعرضوا حججكم: مَن الّذي أوحى بما جرى منذ قديم الزمان؟ هل أنبأَ بهذه الأحداث وثن من الأوثان؟[1] ألستُ أنا الله الّذي أوحى إليكم بها وهل أوحى بها لكم أحد غيري؟ أنا الله لا شريك لي، أنا ربّكم المنجّي الأمين».

ويضيف الله: «ليلتجئ إليَّ أهل الدنيا جميعا لعلّهم ينجون! أنا اللهُ لا شريك لي. أقسمتُ بعزّتي وجلالي، لا رادّ لقولي: سيركع الجميع لي على ركبهم، والكلّ لي مبايعون». ويقولون: «إنّ الله وحده واهب العزّة والإخلاص، نتوب إليه خاضعين،

(1) انظر سورة الأعراف: 196.

نحن الّذين غضبنا منه ها نحن إليه راجعون». وسينال جميع المعتصمين بالله من بني يعقوب رضاه ويسبّحون بحمده جلّ في علاه.

نشيد العبد المختار[1]

يا أهل البلاد البعيدة استمعوا إليّ بانتباه،
واصغي أيّتها الأُمم في الأقاصي:
إنّ الله اصطفاني وسجل اسمي مذ كنتُ في رحم أُمّي.
وجعل ما أنطق به من أحكام كالسيف المصقول.
وبيد قديرة يحميني فهو لي ظلّ ظليل.
وجعلني سهمًا مبريًا وفي حماه أخفاني.
وأوحى إليّ:
"يا عبدي، قد اخترتك اختيار عبدي يعقوب، وبك يُرفع ذكري المجيد".
أمّا أنا فقلتُ: «ولكنّي اجتهدتُ كثيرًا ويبدو أن لا جدوى من جهدي الجهيد!
حقّا! لا فائدة من كل أتعابي!
بل عند الله ثوابي،
وهو يجازيني على عملي خير الجزاء».
والآن يقول الله الّذي كوّنني تكوينا
عبدًا له مذ كنتُ في الرحم جنينا
وأرسلني لأرُدّ إليه بني يعقوب العاصين
وقد أكرمني تعالى وشدّ عزيمتي لأحقّق الرسالة:
"يا عبدي

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 49: 1–16.

لا يكفي أن تهدي بقية عشائر بني يعقوب وتجعلهم لي منيبين

بل جعلناك نورًا للأُمم،

فتحمل إلى الأقاصي النجاة للعالمين».[1]

وأوحى الله القدّوس نصير بني يعقوب إلى عبده المنبوذ من الأُمم، إلى خادم السلاطين:

"عند مرورك يقف لك احترامًا الملوك والحاكمون

وينحنون أمامك تقديرًا

إن ربّك كان أمينا وبالثقة جديرا

وهو القدّوس معبود بني يعقوب، وقد اختارك دون العالمين».

يقول الله تعالى:

"لقد استجبتُ لك حين ألقيت عليك مرضاتي

وساعدتُك حين وهبتُهم نجاتي.

إنّي بك خير حافظ وبك أبرم مع أمّتي ميثاقي

فتعمر الأرض من جديد،

وتعطي لعبادي من تلك البلاد المهجورة ميراثي،

فتقول للأسرى: «أُخرجوا من الظلمات إلى الضياء!»

فأرعاهم مثل خراف ترعى في مراع خضراء

وفي الرّوابي التي كانت في الماضي مقفرة خلاء.

فلن يكونوا بالجوع أو العطش مُبتلين،

ولا بالشمس أو الحرّ مصابين،

(1) كان هذا الكلام بمثابة دعوة لبني يعقوب ليحملوا النور والنجاة إلى كلّ الأمم. ولكنّ السيد المسيح هو الذي حقّقها مع حوارييه وأتباعه الذين نادوا برسالته، كما نرى في خطابهم إلى المستمعين اليهود (انظر سيرة الحواريين 13: 47).

فإنّ الرحمن يهديهم إلى ينابيع مياه[1]
وأفتح لهم في جبالي سبيلا مستقيمًا
وفوق الأودية نهجًا قويمًا.
ويُقبلون مِن أقطار بعيدةٍ ومن كل الاتجاهات،
من الشمال ومن الغرب،
ومن أسوان في جنوب مصر».
فابتهجي أيّتها الأرض، واهتفي فرحًا أيّتها السماوات،
وارفعي صوتك غناءً أيّتها الجبال![2]
لأنّ عباد الله ذاقوا أمرّ الأهوال
وها أن الله تعالى يخفّف عنهم ويرحمهم بعد هذه الأرذال.
قال أهل القدس: «لقد ترَكَنا الله وجعلنا مَنسيين»!
فأجابهم ربّهم الرحيم:
"وهل تنسى الرّضيعَ الأمّ الحنون؟
أتغفل عن وليدها الذي أنجبته؟
ولئن تخلّت عنه،
فما أتخلى عنكم!
يا عبادي، إنّي باسط حفيظ لكم في كلّ حين
وأنا لمدينتكم حامٍ أمين.

بيان الرجاء[3]

(1) وردت هذه الكلمات للنبي أشعيا في الإنجيل للإشارة إلى أتباع المسيح المخلصين بعد نجاتهم من اضطهاد عظيم (انظر الإنجيل، الرؤيا 7: 13–17).
(2) انظر سورة سبأ: 10.
(3) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 52: 7–12.

ما أحلى على الجبال خطوات المرسلين،

الّذين ينادون بالسّلام على المنصتين،

المبشّرين بالخير والنجاة، القائلين لأهل القدس إنّ الله مولاكم ملك العالمين.[1]

فيرفع الحرّاس أصواتهم فرحًا منشدين،

لأنّهم إلى تجلّيات الله في القدس ينظرون!

يا قُدس، اعمري بعد الخراب، فقد خفّف الله هموم أهل ميثاقه وجاء إليك بالنصر المبين!

إنّ الله الباسط القدّوس يظهر قوته أمام أمم العالمين،

وإنّ كلّ البشر سيعلمون كيف أنقذ الله تعالى عباده أجمعين.

اخرجوا يا عبادي! نعم، اخرجوا من بلاد سبيكم وكونوا لنجاستهم مجتنبين.

ارحلوا وتطهّروا يا من أنتم لآنية بيت الله المقدّسة حاملون.

لكن لا داعي حتّى تستعجلوا خروجكم ولا تفرّوا طلبا للنجاة بحياتكم،

فالله ربّكم من أمامكم ومن خلفكم يحميكم، ومن كلّ شرّ ينجّيكم.

معاناة عبد الله ونصره[2]

قال الله تعالى: «لينتصرنّ عبدي نصرًا لميعا،

وليُرفعنّ بين الناس ويكسبنّ مقاما رفيعا.

بيد أنّ الدهشة تصيب أغلب المراقبين،

فوجهه شُوِّه تشويهًا أليما واختفت ملامح الإنسان مِنه فهو من المنكرين.

ستذهل أمامه أمم الغرباء،

(1) اقتبس الحواري بولس من هذه النبوءة للنبي أشعيا لكي يشير إلى دعاة رسالة السيد المسيح (انظر الرسالة إلى أحباب الله في روما 10: 15).

(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 52: 13–15، 53: 1–12.

وسيصمت الملوك في حضرته المهيبة وأفواههم خرساء،

وإنّهم لغير ما أُخبِروا به يبصرون.

نعم، ولِما لم يسمعوا به يدركون».

اللهمّ يا مولاي، قليلون هم الّذين بالرسالة التي بلّغناها مؤمنون!

أين أولئك الّذين لتجليّات قوَّة الله متقبّلون؟(1)

إنّ عبد الله المصطفى،

قد نما أمام الله تعالى،

نموّ نبتةٍ خضراء،

أو نموّ جذر في أرض قاحلةٍ جرداء.

لا هيبة ولا وقار له يجذبنا نحوه أو يشدّنا إليه.

كان بيننا محتقرًا مَنبوذًا، قاسى أحزانا وآلاما لا تُحصى.

نبذناه وما اكترثنا به، فكنّا عنه مُدبرين.

لقد تحمّل أمراضنا وأوجاعنا وكان بها عليما خبيرا،(2)

وكنّا نظنّ أنّ الله بسبب ذنوبه ابتلاه!

لكنّه في الحقيقة أصيب لأنّنا خاطئون،

سُحق لأنّنا مذنبون.

سلمت حياتُنا حين تقبّل عنّا الضربات

وحمل عنّا الجِراحات.

إنّا كنّا جميعا عن الصراط المستقيم تائهين،

(1) يوكّد الإنجيل أنّ هذه النبوءة تحققت عندما رفض كثير من الناس الإيمان بالسيد المسيح رغم مشاهدتهم لما أجراه من معجزات (انظر الإنجيل، يوحنّا 12: 37–39).

(2) جاء في الإنجيل أنّ هذه النبوءة تحققت عندما حرّر سيدنا المسيح الناس من مسّ الشياطين وشفى كثيرا من المرضى (انظر الإنجيل، متّى 8: 16–17).

كغنم تاهت في البراري، ولكنّ الله حمّله كلّ ما لنا من أوزار.

ضربه الناس وأذلّوه،

فلم ينبُس ببنت شفةٍ، لم يفتح فمه حين أخذوه،

كان كالشاة تُساقُ إلى الذّبْحِ ولا أحد يبكيه،

أو مثل حملٍ صامتٍ ذليل بين يدَيْ مَن يجُزّ صوفه ويعرّيه.

أذلّوه بحُكمِهم القاسي وظلموه،

ومَن منّا توقّع أن يتحمّل كل هذا الإثم الّذي ارتكبه شعبه!؟ إنّهم من الحياة الدّنيا حرموه.(1)

فقضى لأجلِ شعب تراكمت معاصيه.

جعلوا قبره بين الأشرار ودفنوه مع الأغنياء،

مع أنّه لم يرتكَب خطيئة، وما كان أبدًا مِن الماكِرين.

إنّما كان قضاء الله أن تَسحَقهُ الآلام،

فجعله يضحّي بحياته تكفيرًا عن الآثام،

ورغم ما حصل له فستَطولُ عليه الأيّام،

وسيشاهد مَن سيخلفه من الآنام،

ويتحقّق على يده مَقصد الله الأسمى.

وبعد أن يعاني كلّ هذه الابتلاءات،

يرضى عما اكتسبه من عذابه في الحياة.

وسيجعل الله من عبده المرتضى،

سببًا لقبول كثير مِن العالمين،

(1) وردت في سيرة الحواريين قصّة لوزير من مملكة النوبة كان يقرأ هاتين الآيتين من نبوءة أشعيا، فأرسل الله أحد أتباع السيد المسيح واسمه فيليب لكي يشرح له أنّ هذه الكلمات تشير في الحقيقة إلى المسيح المنتظر (انظر سيرة الحواريين 8: 26–40).

لأنّه سيطهّرهم من جميع الخطايا.

ولذلك قال الله: «لأرفعنّ مقامه إلى مقام الوجهاء،

فهو صاحب الفوز المبين،

إذ ألقى بنفسه إلى الموت.

بعد أن حسِبوه من المتمرّدين،

وهو الّذي شفع فيهم وحمل خطايا الكثيرين».

وليمة اللّٰه الموعودة[1]

وفي القدس سيقيم الله العزيز القدير

لكلّ الشعوب وليمة بديعة بخير وفير،

عامرةً بأفضل الطعام والشراب.

وهناك يُزيل الله تعالى ظلال الموت الكئيب

الّتي تُخيّم مثل الكفن على جميع الشعوب،

ويزيل كل المنايا الّتي تهدّد العالمين.

أجل! يهلك الله الموت إلى أبد الآبدين!

ويكفكف مولانا الدّموع عن الوجوه لحظة البكاء،

ويزيل ذلّ قومه ويرفع المهانة الموجّهة إليهم في كلّ الأنحاء.

انتبهوا جيّدًا لأنّ هذا وعد الله تعالى!

طريق المنذورين[2]

في الأيّام القادمة، ستفرحُ البادية والصّحراء

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 25: 6–8.

(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 35: 1–10.

ستزدان الفلاة بالزّهور وتبتهج البيداء!

نعم، ستُزهِر وتبتهج بهجةً عظيمةً!

ستخضرّ الصّحراء مثل جبال لبنان،

وتكتسي روعة جبل كَرْمَل وساحل شاران،

فهناك يتجلّى الله والكلّ يشاهد مجد ربّ البهاء.

فبشّروا بهذه الأخبار مَن ضعُفتْ عزيمتهم

وساعدوا الّذين وهنتْ قوّتهم.

قولوا للذين فقدوا الشّجاعة خائفين:

"شدّوا عزائمكم ولا تولّوا مدبرين!

إنّ ربّكم يجازي أعداءكم،

وينجّيكم بنصره المبين».

يبرئ الأكمه الذي لا يرى

ويعيد السّمع لآذان الصُمّ المساكين.

ويقفز كالغزال المقعد منذ سنين

ويهتف الأبكَم فرحًا بالشّفاء!

وتنفجر المياه في البوادي بعد الجفاف

وتسيل الأنهار في الصّحراء،

ويتحوّل السّراب إلى واحةٍ،

والرّمضاء ينابيع ماء،

وينمو العشب والقصب والبرديّ في البيداء

حيث يسكن ابن آوى الآن.

وتمتدّ في تلك البلاد المتجدّدة طريقٌ سالكةٌ

تدعى طريق المنذورين،

لا يَعبر فيها النّجسون،

وإِنّما يسلكها مَن يتبع الصّراط المستقيم

لا وجود فيها للجهلة الفاسدين.

ولا أسد بجوارها يتربّص،

ولا غيره من الحيوانات المفترسة يتشخّص،

هي طريق لا يسلكها إلاّ الّذين جعلهم الله من الناجين.

وأعادهم إلى بلادهم سعداء

وعند عودتهم إلى جبل الله المقدّس في القدس، تتعالى أصواتهم بالغناء

والبهجة تكلّلهم على طول الزّمان.

ويغمرهم الفرح والسّرور والرّضى،

ولا يصيبهم الأسى ولا هم يحزنون.

عقاب المتمرّدين[1]

قال الله تعالى:

"أنا مستعد أن أساعد الناس، ولكنّهم لا يستغيثون،

نعم، أنا مستعد أن يعرفوني، لكنّهم لا يطلبون،

وقلتُ ها أنا، ها أنا هنا!

لأُمّةٍ رفضت أن تستنجد بي وأفرادها بي لا يستجيرون.

بَسطتُ يديّ بالرّحمة يومًا بعد يومٍ لشعبٍ مُتمرِّدٍ عنيدٍ[2]

عن سواء السبيل قد ضلّ الضلال البعيد

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 65: 1–9.

(2) انظر سورة المائدة: 64.

يتّبعون أهواءهم في طريق غير رشيد

وأفراده يتسارعون جهرا إلى غضبي في كل الأزمان

إذ يشركون بي ويقدّمون قرابينهم للأوثان

جعلوها في بساتين وإليها يسجدون

ويُحرِقون بخورًا في معابد الأصنام.

ويبيتون في المقابر ليستشيروا أرواح الموتى

حيث يعبدون الأوثان ويأكلون لحم الخنزير،

ويتناولون لحمًا نجسًا مع حسائه النكير.

ويقول أحدهم للآخر: ابتعد عني ولا تنجّسني!

فأنا أقدس منك وأطهر!

وهؤلاءِ يثيرون غضبي طول النهار

وهم كدُخان كريه يحمل الغبار.

إنّنا أصدرنا المرسوم بكلام مرقوم:

إنّا عن قرارنا لا ننثني،

ولهم مني الجزاء الذي لا ينقضي

أجل، سأعاقبهم عقابًا هو لهم جزاء أوفى

على خطاياهم وخطايا آبائهم القدامى.

إنّهم يحرقون البخور لأوثانهم على الجبال

ويستخفّون بي في المعابد على التلال.

نعم، سأجازيهم على ما تقدّم من ذنوبهم العظام.

وإنّ مثلهم كمثل عُنقود عنب فاسد

فيه حبّات طاهرة،

فلا يتلف كلّه ولا يلقى

كذلك لن نهلك كلّ بني يعقوب

إذ ما زال فيهم بقية من عبادي الصالحين.

فأحفظ قلة من آل يعقوب المصطفين

فالقليل من ذرّيّة أهل يهوذا والسامرة يدخلون الأراضي التي وعدتهم بها.

وهناك يسكنون.

خلق الله الجديد[1]

يقول الله تعالى:

"ها أنا أخلق سماوات جديدةً وأرضًا جديدةً، فينسى الناس الماضي البعيد.[2] فافرحوا، يا عبادي، وابتهجوا إلى الأبد بما أخلق. إنّي أخلقُ القدس وأملؤها سرورًا وحبورا، فيغمر الفرح العظيم أهلها! إنّ بهجة القدس بهجتي وفرحُ أهلها فرحي.

ولن يُسمع فيها صوتُ بكاءٍ ولا هم يحزنون،

ولن يموت فيها صغار في المهد والشيوخٌ يستكملون أعمارهم قبل أن توافِيَهم المنون،

فمَن يموت قبل أن يبلغ مئة سنة يعتبره الناس ملعونًا، إذ مات صغيرا.

وفي الأيّام القادمة، يسكن عبادي في البيوت التي يبنونها ويتمتّعون بثمار الكروم الّتي يَغرسونها. لا أحد ينزع منهم بيوتهم أو كرومهم فهم في أمان ينعمون! بل تطول كَأيّام الشجر أيّام عبادي المختارين، وبما كسبت أيديهم يتمتّعون. فهم لا يتعبون دون طائل ولا مكروه يصيب أولادهم، إنّما هم من الله مباركون، هم وذريّتهم أجمعون . إنّي أستجيب لهم قبل أن يأتيني منهم الدّعاء، وفيما يتضرّع كلّ واحد منهُم أمنحه

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 65: 17–25.

(2) ورد في الإنجيل تذكير بهذه الآية من أشعيا ضمن وصف ليوم الدين، عندما يجازي الله عباده الصالحين (انظر الإنجيل، الرؤيا 21: 1).

ما يشاء. ويرعى الذئب والحمل معا في وئام، ويأكل الأسد التبنَ كالثّيران. أمّا الحيَّة فتأكل من التراب.

لا شيء يؤذي ولا شيء يضرّ في رحاب جبلي المقدّس».

هذا وعد الله الوهّاب.

عهد السلام الأبدي[1]

قال الله تعالى: «يا قدس، أنتِ لم ترزقي بأبناء مطلقًا وحرمت منهم، فهلّلي الآن وأَبشِري وكوني من السّعداء،

وانظري إلى ما عندك من أبناء،

إنّهم يفوقون عدد أبناءِ امرأةٍ وَلودٍ تزوّجت منذ زمنٍ بعيد!

كبّري مساحة بيتك ووسّعي الأرجاء،

مثل امرأة ترخي حبال خيمتها وتمدّها وتثبّت أوتادها.

فأهلكِ يا قدس سيتكاثرون وينتشرون ويملؤون أنحاء بلادها،

وسيتكاثر عدد ذريتك فيعمّرون فيها المدن الّتي كانت خرابًا ويستولون على أراض غريبة.

هوّني عليكِ يا قدس! ولّى عهد الأحزان،

ولن يلحقكِ الذل والهوان،

وستزول كلّ المتاعب الّتي أنزلها الله عليك في سالف الأزمان.

لأنّك أنتِ المصون عند الخالق، إنّه العزيز القدير.

الله القُدّوسُ الّذي آمن به النبي يعقوب هو لك خير نصير،

ربّ كلّ الأرضِ العليّ الكبير.

قال تعالى للقدس: أيّتها المهجورة المكروبة،

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 54: 1–13.

كنت فيما مضى منبوذة،

والآن جعلتكم جميعا لي راجعين.

بعد أن هجرتُكم لحين،

وها أنّي أضُمُّكم إلي بعطفي الرحيم.

إنّي حجبت وجهي عنكم بغضبي الشديد، ولكنّي الغفور التوّاب،

وأرحمكم برأفة أبديّة، هذا وعد ربّكم المنجّي النصير.

وكما أقسمتُ في زمن عبدي نوحٍ ألاّ أعيد على الأرض مياه الطوفان،

ها أنّي أقسم ألاّ أغضب عليكم وأعاقبكم بعد الآن.

قد تزول الجبال وتتزعزع التلال وأمّا وفائي لكم فلا يزول، ولا ألغي ميثاق السلام الّذي أقمتُه معكم».

كذلك قال ربّكم الرحيم.

يا قدس، أيّتها المَنفية الّتي ضربتْها العواصف بلا عزاء،

سأبني أسوارَكِ بحجارة كريمة وأَضع قواعدك من الأزوَرْد ذي الضّياء،

وأجعل أبراجكِ ياقوتًا وبواباتكِ حجارة بَهرَمانٍ وتكون جميع أسوارِكِ حجارةً كريمة ذات بهاء.(1)

إنّ الله يهدي جميع أهلكِ، فيعمّهم السلام آمنين.»

الصوم المقبول(2)

قال تعالى:

"يا أشعيا، نادِ بأعلى صوتك ولا تتردّد

(1) تتحقق هذه النبوءة التي تصف إعادة بناء القدس بطريقة روحانية وشاملة من خلال تدشين مدينة الله في الآخرة التي تضمّ العابدين من جميع الأمم. فقواعد مدينة الله وبواباتها مصنوعة من كل أنواع الأحجار الكريمة (انظر الإنجيل، الرؤيا 21: 18-21).

(2) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 58: 1-12.

ارفع صوتك كالصور

أخبِر بني يعقوب عن عصيانهم!

إنّهم بالإيمان يتظاهرون

وفي عباداتهم اليوميّة يدّعون أنّهم لتعاليمي طالبون

فيتصرّفون كأنّهم أُمّة تسعى لمرضاتي

ولا تُهمل وصايا ربّها ولكنّهم مخادعون.

إنّهم يطلبون منّي الإنصاف

يبتغون التقرُّب إلى حضرتي وهم واهمون

فيقولون: «يا ربّ، لماذا لا تبالي بما نعانيه في الصّيام؟

ولماذا لا تهتمّ بتورّعنا وتزهّد ذواتنا والنكران؟»

ألا إنّكم في سبيل مصالحكم تصومون

ولا تتورّعون عن ظلم عمّالكم الأشقياء!

أمّا الصيام فتبدّدونه في النّزاع،

والعراك فيما بينكم بضربات اللّئام!

فصيامكم على هذا المنوال

لا يجعل دعاءكم مستجابًا عند ربّكم المتعالي!

كيف تظنّون أنّي أقبل بظاهر امتناعكم عن الشّراب والطّعام

وأنتم تحنون رؤوسكم كنبتةٍ

وتتظاهرون بالتوبة فتجلسون على الخيش والرماد؟

فهل تراكم تزعمون أنّ صومكم هذا توبة إلى الله ورشاد؟

وهل أنتم واهمون أنّ الله سيقبله كأنّه ورع من الزّهاد؟

إنّما الصوم الّذي يقبله الله ربّكم

أن تحرّروا مَن وُضع بغير حقّ في الأصفاد

وأن تخفّفوا الأعباء عن كاهل عمّالكم المساكين

وأن تُطلقوا سراح المستضعفين،

وأن تحطّموا كُلّ القيود والأغلال!

وأن تقتسموا قوتكم مع الجياع المحرومين

وأن تُؤووا المساكين المشرّدين في منازلكم خير الاستقبال

وأن تكسوا العراة

وأن تكونوا في عون أقاربكم المحتاجين.

فيعمّكم نور الله كبزوغ فجر اليقين

وسريعا يحلّ عليكم الشفاء!

وتسيرون في طريق الاستقامة والوفاء

ويحيطكم الله بجلاله العظيم.

عندئذ تدعون الله فيستجيب

وتستغيثونه فإذا هو لدعواتكم قريب مجيب.

إنْ نزعتم الظلم عن قومكم استصغارا

وتجنّبتم كلام السوء والإشارة بالإصبع احتقارًا،

واجتهدتم في إطعام الجياع ومساعدة المساكين

يُشرِق نورُكم في الظلمات اشتهارا

ويتحوّل سواد الشرّ الّذي يحيط بكم إلى نور مبين.[1]

فتكونون في هداية الله كلّ حين

ويُشبعكم من طيّباته رغم جفاف الصحراء.

(1) قارن سورة البقرة: 257.

ويعافيكم ويجعل حياتكم كجنان النعيم أو نبع يتفجّر ماء
ومنكم مَن يعيد بناء مدنكم التي عمّها الخراب
فيلقّبكم الناس بـ «مُرمّمي السور المتهدم القديم»
وبـ»بناة المساكن الماهرين».

اهتداء الأمم[1]

قومي أيّتها المدينة المقدّسة وأشرقي بنورك على العالمين
فقد أنار الله عليكِ بنوره المبين!
مع أنّ أمم الأرض تقبع في الظلمات،
والسواد الدامس يغطّيها،
فقد أشرق الله عليكِ وأهلكِ بالنّور العظيم
وحولكم يتجلّى جلال الله الحليم!
فتُقبِل الأُمم إلى ما أشرق عليكم من إشراق زاهر
وتُقبِل الملوك إلى تجلّيات نوره الباهر.
انظروا حولكم!
فأبناؤكم قادمون من بلاد المَهاجِرِ
وبناتكم يُحمَلنَ في الأحضانِ،
فتنظرون إليهم وتفيضون فرحًا وحبورا
وتنشرح صدوركم سرورًا!
فيُقبِل تجّار الدنيا يعبرون البحار،
حاملين ثروات الشعوب بالأغمار.

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 60: 1–7.

وتأتيكِ أيتها المدينة المقدّسة قوافل الجمال

قادمة من بلاد مِديَن وعِيفة، فتملئين بالخير الوفير

وتتهافت عليك مِن سبإ أمم وشعوب

مُحمَّلة بالذهب والبخور

وكلّ القوافل تسبِّح بحمد الله.

ويجمع عرب بلاد قَيدر كلّ قطعانهم

ويُحضر أهل نَبايُوت أكباشهم،

ليقدموها أضاحي مرضية إكرامًا لله الحميد،

وبها أُزيّن بيتي المقدّس المجيد.

بشرى النجاة[1]

يقول النبي أشعيا عليه السلام:

حلّت روح الله عليّ،

فقد اختارني لأبشّر المساكين،

وأضمّد أصحاب القلوب المكلومة المجروحين،

وأُعلِن فكّ أسر المقيّدين،

وأطلق سراح المحبوسين،

وأُعلِن زمن حلول الرّضى مِن ربّ العالمين

ويوم قصاصه من أعدائه المخاصمين.[2]

---

(1) استنادا إلى كتاب النبي أشعيا 61: 1-11.

(2) اقتبس سيدنا المسيح عندما أعلن لمن حوله انطلاق رسالته من هذه النبوءة لأشعيا وتحديدا الكلمات الأولى (انظر الإنجيل، لوقا 4: 16-21). وتجدر الإشارة إلى أن المسيح لم يذكر بقية الكلمات في النبوءة وهي: ((ويوم قصاصه من أعدائه المخاصمين)). لأنّ رسالته كانت فقط من أجل نشر الغفران والسلام والمصالحة بين الناس بما في ذلك أعداء شعبه.

فالله أرسلني إلى القدس لأُعزّي جميع الحزانى
وأجمّلهم بإكليل الغار بدل الرّماد
وأعطّرهم بعطر الفرح بدل حزن المكلومين
وألبسهم رداء الفرح بدل الحِداد.
إنّهم ثابتون في حماسهم لمرضاة الله تعالى
ثبات أشجار السِنديان الشامخة فوق الرّبى
الّتي زرعها الله تمجيدًا له في كلّ البلاد.
فيُعمّرون من جديد مدنهم المدمَّرة،
أجل، سيُرمّمون تلك المدن المنهدمة منذ أجيال وأجيال!
ويرعى الأغراب قطعانكم في مشقّة الأشغال
وهم في حقولكم وكُرومكم عمّال.
أمّا أنتم فيسمّونكم أحبارًا لله المتعال،
وتحظون بخيرات الأُمم المتكاثرة،
وتفتخرون بثرواتها الوافرة.
قاسيتم الذلّ والخزي في الزمن الذي مضى
أمّا الآن فستتمتّعون بكرم كبير ليس له انقضاء
وتملكون في بلادكم أضعافًا من الرّخاء
ويكون فرحكم خالدًا.
قال الله تعالى: أنا أحبّ العدل
وأُبغض الظلم والاحتيال.
سأجازيكم بأمانةٍ على كل ما قاسيتموه من معاناة
وأبرم معكم ميثاقًا يدوم إلى نهاية الحياة.

تشتهر ذريّتكم بين الأمم فيصبحون معروفين
وفي أرجاء الأرضِ يُكْرَمون.
فكلّ مَن رآهم يعترف اعترافا لا يحدّ مداه
أنّهم قوم باركهم الله.
إنّي أفرح بالله فرحا عظيما.
أجل، أبتهج به مِن كلّ كياني!
إذ بحلّة النجاة كساني
ومنحني لباس التقوى والوفاء،[1]
مثل عريس يتزيّن بتاج البهاء
أو عروسٍ تتجمّل بحُليّها ذي سناء.
فكما أنّ الأرض تُنبت خيراتها الوفيرة
وتفيض الحقول في الربيع بزهورها الزهيرة
فاللهَ يفي بوعده ويمنح النجاة والإنتصار
فتحمد الأُمم جمعاء ربّها المنّان.

(1) انظر سورة الأعراف: 26.

إرميا عليه السلام

قصّة النبي إرميا عليه السلام

مدخل إلى قصّة النبي إرميا

كان إرمياعليه السلام ابنا لحلقيّا، وهو رجل دين من عشيرة بنيمين وعاش في قرية أناتوت المجاورة للقدس. واختار الله إرميا نبيًا في السنة الثالثة عشر من حكم الملك يوشيّا. وسعى هذا الملك أن يجعل بني يعقوب يعودون إلى عبادة الله مخلصين وفقا لما جاء في التوراة. وساعده في ذلك النبي إرميا. ولكن بعد وفاة الملك يوشيّا ارتدّ بنو يعقوب وعادوا إلى شركهم وعبادة أصنامهم. فنادى فيهم النّبي إرميا بأن عبادتهم للبعل وغيره من الأصنام هي تعدٍ على ميثاقهم مع الله، وأنّه تعالى سيجعل شعب مملكة يهوذا يقاسي المجاعة وأن مدينة القدس ستُهزم وتدمّر في النهاية. فإذا حلّ عليهم ذلك العقاب يقع النّاجون أسرى ويُساقون إلى السبي (انظر كتاب النبي إرميا، الفصلين 10 و11). يقول الطّبري في تاريخه عن إرميا: «وكان الله تعالى بعثه نبيًا- فيما بلغنا- إلى بني إسرائيل يحذّرهم ما حل بهم من بختنصر (أي نبوخذ نصر)، ويعلّمهم أن الله مسلّط عليهم من يقتل مقاتلتهم ويسبي ذراريهم، إن لم يتوبوا وينزعوا عن سيء أعمالهم».[1] فالله أرسل النبي إرميا لتحذير قومه ولكنه لم يجرِ على يديه معجزات كغيره من الأنبياء، وبسبب دعوته تلك قبضوا عليهعليه السلام وسجنوه وأذلّوه أمام الملإ.

(1) **الطبري**، *تاريخ الرسل والملوك*، دار التراث، بيروت، 1387هـ، ج 1، ص 538.

وتمّ في النهاية تدمير مدينة القدس على أيدي جيوش بابل وملكهم نبوخذ نصر سنة 587 قبل الميلاد. وسيق نبلاء الشعب وأعيانه أسرى وسبايا إلى بلاد الرافدين. وظلّ النبي إرميا في القدس، وبعد فترة من الزمن أجبره بعض الذين ظلّوا من بني يعقوب في المدينة على أن يرافقهم إلى مصر كلاجئين. ولا نعلم تحديدا كيف توفي النبي إرميا، لكنّ قولا يهوديا متواترا يخبر بأنه مات في مصر رجما من قبل بعض اليهود.

وحظي النّبي إرميا بمقام كبير بين النّاس بعد وفاته، إذ تناقل بنو يعقوب ما جاء في نبوءاته وتدبّروا ما كان ينادي به، وتابوا في سبيهم عن آثامهم العديدة التي أنذرهم من عواقبها.

وأخبر النبي إرميا بني يعقوب أنّ سبيهم في بابل سيمتدّ 70 سنة، ثمّ يعودون بعد ذلك إلى بلادهم (انظر كتاب النبي إرميا 25: 11–12). وأعلن لقومه وعدا من الله تعالى أنّه سيقيم حَكَما عادلا من ذريّة النبي داود يعتلي العرش من جديد ويحكم بالعدل والقسط (انظر كتاب النبي إرميا 23: 5–6)، وأنّ الله تعالى سيبرم ميثاقا جديدا مع قومه بنقش شريعته في قلوبهم (كتاب النبي إرميا 31: 31–34). وجاء في الإنجيل الشّريف أنّ هذا الوعد تحقّق بمجيء السيّد المسيح الذي وهب روح الله للمؤمنين فحلّت في قلوبهم (رسالة العبرانيين 8: 6–13).

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النّبيّ إرميا عليه السلام

مقدّمة[1]

يحتوي هذا الكتاب على أقوال إِرْمِيا بن حَلْقيّا، وهو أحد أحبار بلدة عَناتوت الواقعة في أرض عشيرة بِنيمين. وحكم مملكة بني يعقوب الجنوبية يُوشيّا بن آمون وخلفه ابناه صِدْقِيّا ويُوياقيم. وتلقّى النبي إرميا الوحي أوّل مرّة في السّنة الثّالثةَ عشرة من حكم الملك الأب. وتواصل نزول الوحي عليه حتّى فترة حُكم الابن الثاني الملك صِدقيّا بن يُوشِيّا. وتوقّف النبي إرميا عن تلقّي الوحي في السّنة الحاديةَ عشرة من حكمه حين دمّر الجيش البابلي مدينة القدس وقاد أهلها إلى السبي أذلاّء مأسورين.

الله يدعو النبي إرميا[2]

قال النبي إرميا: جاءني وحيٌ من الله يقول: «يا إرميا، قبل أن أصوّرك في الأحشاء كنتُ بك عليما، وقبل أن تولد اخترناك لتكون من المنذورين، وجعلناك نبيًّا لكلّ أمم العالمين.»[3] وتضرّعتُ إلى الله وقلتُ: «اللّهمّ يا مولاي! إنّي عبدك صغير السنّ

(1) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 1: 1–3.

(2) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 1: 4–10، 17–19.

(3) ذكر ابن كثير دعوة الله للنبي إرميا في قصصه للأنبياء حيث كتب: "قم يا أرميا فاستمع وحيي أخبرك خبرك وخبر بني إسرائيل: من قبل أن أخلقك اخترتك، ومن قبل أن أصورك في رحم أمك قدستك، ومن قبل أن أخرجك من بطن أمك طهرتك. ومن قبل أن تبلغ نبأتك، ومن قبل أن تبلغ الأشد اخترتك، ولأمر عظيم اجتبيتك."

ولمّا يتمرّس لساني بعد على فصاحة الناطقين!

فأتاني وحي من ربّ العالمين: «لا تتعلّل بأنّك صغير. فأينما أُرسلك تتّجه وتسير، وتبلّغ كلّ ما آمُرُك به. لا تخش مواجهة الناس، فأنا معك خير نصير». ثمّ أجرى الباسط الوهّاب الوحي على لساني، وكان الوحي: «إنّا جعلنا لك الوحي على اللّسان، واليوم أعطيناك لتبلّغ كلّ الأمم والشعوب منتهى السلطان، وتخبرهم أنّ لبعضها الدمار والخسران، ولبعضها الآخر النشأة والعمران.»

"فقم يا إرميا واستعدّ لتبلّغهم بما أوحي به إليك من أمور. فلا تنكسر الآن أمامهم لأنّي معك خير نصير، وإن تردّدتَ، كسرتُ شوكتك أمامهم أشدّ التكسير. يا إرميا إنّا جعلناك اليوم أمامهم حصنا حصينا وعمودا من حديد وسورا من نحاس شديد، لتصمد أمام أهل يَهوذا ملوكا ورؤساء وأحبارا ومن عامّة العباد. سيحاربونك ولكنّهم عليك لا يقدرون، لأنّ الروح الإلهية تنصرك. إنّ هذا كلام الله الذي لا يخلف الميعاد."

الله يرسل إرميا نذيرا(1)

وأوحى إليّ الله العزيز القدير: «سيضمحلّ قوم بني يعقوب مثلما تضمحلّ آخر حبّات العنب من الكرمة وقد عاد إليها الزّارعون، فجاؤوا ليجمعوا ما تبقّى من الحبات المشتّتة بين أغصان الكروم».

فقلت: يا ربّ، لا أرى مَن يستجيب لي إذا بلّغتُ الإنذار المبين! إنّ آذانهم خُتمت بأقفال وبها لا يسمعون! ومن رسالة الله يسخرون، وهم عنها معرضون. يا الله، غضبك فاض في قلبي وإنّي لكظيم، وقد أرهقني كتمان هذا الغيظ في الصميم!

فأوحى إليّ تعالى: «سأنزل بغضبي على كلّ أهل القدس، وسيطال أطفال الأزقّة والميادين، والشّبّان المجتمعين، والأزواج مع زوجاتهم والمسنّين! وتنتقل ملكية بيوتهم وحقولهم ونسائهم إلى الآخرين. فالله تعالى يقول: «إنّي باسط يديّ بشديد

(1) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 6: 9–15.

العقاب، وإنّي لمنزّل على الّذين في هذه الأرض أقسى العذاب! فصغيرهم وكبيرهم جميعا في الكسب الخسيس طامعون، الأحبار منهم ومدّعو النبوّة الدجّالون.(1) فحين تلقّى قوم ميثاقي طعنة قاتلة، تجاهلهم هؤلاء ولم يعالجوهم بل وعدوهم بالسّلام كاذبين، ولم يحلّ في الحقيقة سلام على السامعين. لقد اقترفوا رجسا أثيما أفلا يخجلون؟ كلاّ، إنّهم للحياء لمنكرون! لذلك أجعلهم من الهالكين، ويوم أنزل عقابي يلقون الحتف الوخيم!»

النّبي إرميا ينذر قومه في الحرم القدسيّ(2)

وأوحى الله إلى النبي إرمياﷺ، وأمره أن يقف عند باب الحرم القدسيّ وينادي في أهل يهوذا الذين يقصدون العبادة، أن يسمعوا كلام الله! فالله العزيز القدير الذي يعبده بنو يعقوب يقول: «توبوا إليّ وأصلحوا أعمالكم حتّى تستمرّوا على هذه الأرض سالمين. لا تطمئنّوا إلى الّذين يخدعونكم، إنّهم لواهمون! فما أنتم في أمان سالمون، وإنّهم لكاذبون إذ يردّدون: «نحن في مأمن لأن بيت الله هنا! بيت الله هنا! بيت الله هنا!» ولكنّي لن أحميكم إلاّ إذا تبتم إليّ منيبين، وأصلحتم أعمالكم وأقمتم العدل فيما بينكم صادقين. فلا تجوروا على الغريب والأرملَة واليتيم! ولا تسفكوا الدّم البريء القويم! ولا تعبدوا الأصنام فتجنوا على أنفسكم خاسرين. وحين تتوبون تستمرّون على هذه الأرض التي ائتمنتُ عليها آباءكم الأوّلين.(3)

ولكنّكم على الكذب والبهتان تتّكلون، وأنفسكم تخدعون. كيف تسرقون وتقتلون وتزنون وزورا تحلِفون، وبعلا تعبدون، وتتّخذون من دون الله أندادا إيّاها تعظّمون، وأنتم بها جاهلون، ثمّ تقبلون إلى بيتي وفي رحاب حرمي المقدّس تقولون: «نحن

---

(1) جاء في كتاب قصص الأنبياء لابن كثير ما يشبه هذا الكلام على لسان النبي إرميا: "فأما أحبارهم ورهبانهم فاتّخذوا عبادي خولا (عبيدا وأتباعا) يتعبدونهم ويعملون فيهم بغير كتابي حتى أجهلوهم أمري وأنسوهم ذكري وسنتي وغروهم عني فدان لهم عبادي بالطاعة التي لا تنبغي إلا لي، فهم يطيعونهم في معصيتي."

(2) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 7: 1–20، 27–29.

(3) انظر سورة المائدة: 21.

في حفظ الله آمنون». لكنّكم تعيدون الكَرّة ولأنواع شتّى من الرّجس ترتكبون! لقد جعلتم من هذا البيت الّذي أقمته ليُرفع فيه ذكري وكرا لِلّصوصِ! وإنّي بما تعملون رقيب عليم.

اذهبوا إلى مقامي في شِيلوه حيث كانت خيمة بيت الله في القديم، وانظروا ما ألحقتُ به من دمار بسبب شرور قوم ميثاقي بني يعقوب. إنّكم أسرفتم في شروركم، وإنّا أرسلنا إليكم الوحي مرّة تلو الأخرى، لكنّكم لم تستجيبوا، ودعوناكم لكنّكم ولّيتم مُدبرين. لذلك سأدمّر هذا البَيت لأنّكم تتّكلون عليه بدلا من التوكّل على الله ربّ العالمين! إنّ هذا البيت هو المقام الّذي وهبته لكم ولآبائكم الأوّلين، أجل، أدمّره كما دمّرت مقامي في شيلوه في القديم. وأطردكم بعيدا مثلما نبذتُ جميع إخوتكم من الشماليّين.[1]

وأنت يا إرميا لا تـتضرَّعْ إليّ ولا ترفع يديك بالدعاء والابتهال من أجل هؤلاء القوم من الآثمين، ولا تتذلّل إليّ، فلن أسمع ولن أجيب. ألا تراهم في مدن يَهوذا وفي شوارعِ القدس وما يفعلون؟ إنّهم لغضبي مثيرون، فالأبناء يجمعون الحطب، والآباء يوقدون نارا وفيها يحرقون القرابين للأصنام، أمّا النّساء فيخبزن العجين ويجعلن منه أقراصا يقدمّنها لصنم يدعونه مَلِكة السّماء. ويسكبون شرابا لآلهة اتّخذوها من دوني! وما ظلمونا ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين. الخزي لهم بما يرتكبون.([2]٥) فقال الله المولى العظيم: على هذا الموضع يحلّ غضبـي، أجل، يشتدّ غضبي على البهائم والشجر وخيرات الأرض والبشر أجمعين، إنّ غضبي يحتدم ولا ينطفئ أبدا كنار في الهشيم.

(1) بعد زمن النبي إرميا بقرون عاد سيدنا المسيح إلى نبوءة النبي إرميا واقتبس منها ما يلي: ((لقد جعلتم من هذا البيت الذي أقمته ليُرفع فيه ذكري وكرا للّصوص)) [انظر الإنجيل، مرقس 11: 15-19]. وهكذا لمح السيد المسيح إلى تدمير بيت الله في زمنه مثلما أشار النبي إرميا إلى أنّ بيت الله يُدمَّر في عصره. وفي سياق آخر تنبأ السيد المسيح بدمار بيت الله بشكل صريح (انظر مرقس 13: 1-2).

(2) انظر سورة آل عمران: 117.

لكن يا إرميا، مهما كلّمتَهم لن يكونوا لك من السامعين، ومهما دعيتَهم إلى التوبة لن يكونوا لك مستجيبين. فأخبرهم: «أنتم أمّة ترفض طاعة الله العظيم، ولا يقبل أفرادها أن يكونوا من المهتدين. لقد ذهب عنهم الحقّ ومضى، ولن يُسمع على ألسنتهم فقد تولّى». فيا أهل يهوذا، أحلقوا رؤوسكم حزنا، ونوحوا على الرّوابي الجرداء ندما، فقد رفض الله هذا الشعب ونبذه وصار من المغضوب عليه حُكما».

يوم البلاء[1]

وأوحى الله إليّ: «يا إرميا، لا تتزوّج في يهوذا ولا تنجب فيها بنات وبنين. فقد قدّرنا على من فيها من المولودين، وعلى أُمّهاتهم وآبائهم أن نضربهم بوباء فيهلكون، ولا يندبهم أحد ولا يُدفنون، بل تُلقى جثامينهم على الأرض كقمامة مشتّتين. إنّ أهل هذه المدينة يلقون حتفهم إمّا بالسّيف أو جوعا وتكون جثثهم طعاما للجوارح والكواسر».

هنيئا لمن يتوكّل على الله[2]

قال الله تعالى:

"ملعون مَن يتوكّل على الإنسان

ويتّخذ سندا من بشر فان.

فيزيغ قلبه عن الله

إنّ مثله كمَثل شجرة في البيداء

لا يأتيه خير ولا عطاء

بل يقبع في قيظ الصحراء

أرضٍ مالحةٍ لا ينزل بها النزلاء.

(1) (٦) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 16: 1–4.

(2) (٧) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 17: 5–10.

فهنيئا لمَن يتوكَّل على الله وبه يستعين،
ألا إنّ مَثَلهُ كمثل شجرة نبتت على مجرى الأنهار،
ومن تحتها تجري المياه باستمرار
فلا خوف عليها من القحط والبوار
بل تُؤتي أُكلها ولا تنقطع عنها الثّمار
وورقها لا يذوي أبدًا.

قلب الإنسان وما أدراك ما قلب الإنسان
إنّه لا شفاء له فهو مخادع سقيم
أنا ربّكم وبذات الصدور عليم
أمحص باطن البشر وأكشف نواياهم وما يخفون،
فأُجازي البشر على ما جنت أيديهم،
كلٌّ حسب ما يأتون وما يقترفون.»

شكوى النبي إرميا[1]

وتضرّع النبي إرميا إلى الله:
"يا ربّ لقد قهرتَني فليس لي خيار
فأنا بمشيئتك أنقاد، إنّك القويّ الجبّار
وها أهل المدينة يسخرون منّي ليل نهار،
وبي يستهزئون.
فكلّما ناديتُ بالرّسالة
أصرخ فيهم وأعلن حلول الويل والدّمار،

(1) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 20: 7–13.

فيُشبعونني باللّوم والاحتقار.
ولكن كلّما عزمتُ ألاّ أذكُرُك يا رحمن
وألاّ أنادي باسمك بعد الآن،
يتأجّج بلاغك في فؤادي
ويختلج النبأ المحبوس بين عظامي،
فأُحاول كَبته ولكنّي سرعان ما أعجز وأنهار.
ألا ما أكثر الإشاعات التي أطلقوها عنّي وبها يتهامسون،
إنّهم ليقولون: «دعونا نكشف أمره إلى الملك، إنّه يتوعّدنا وبالرّعب يخنقنا!»
وإنّ أصحابي ليترصّدون زلّة منّي قائلين:
"لعلّه يخطئ فيما ينطق من أقاويل
فنكشف ما يأتيه من أباطيل!»
لكنّك تنصرني يا الله، فأنت الجبّار القهّار،
وأمامي تهزم كلّ من يضطهدني من الأشرار،
فيلحقهم الخزي إلى أبد الآبدين
فيا أيّها العزيز القدير
يا مَن تسبر عبادك المخلصين
يا عليم بذات الصدور،
أرني قصاصك فيهم أجمعين
فإليك أسلمتُ أموري.
إنّي أسبّح بحمدك يا أرحم الراحمين
فأنقذني أنا عبدك المسكين
وخلّصني من قبضة الأشرار الظالمين.»

إرميا يتنبّأ بالسبي في بابل[1]

وتلقّى النّبي إرميا في السّنة الرّابـعة من حُكم يُوياقيم بن يُوشِيّا مَلك بلاد يَهوذا الوحي المبين، وكانت تلك السّنة الأولى الّتي حكم فيها نبوخذ نَصر مَلك بابل، فنادىعليه السلام في شعب يهوذا وسكّان القدس، قائلا:

"يا أيّها الناس، أقبلوا واستمعوا إليّ، منذ ثلاثة وعشرين سنة إلى هذا الحين، وأنا أتلقّى من الله وحيا، وقد بلّغتُكم بما جاء فيه دون كلل أو ملل، ولكنّكم تنكرون، ورغم أنّ الله تعالى قد أرسل إليكم أنبـياءَه مرّة تلو الأخرى، لكنّكم تولّيتم عنهم رافضين. فقد قال الله على ألسنة أنبيائه المرسلين: "توبوا إليّ وابتعدوا عن طريق الشّرّ واجتنبوا الآثام التي ترتكبون، وبإذن مني تستمرّون على هذه الأرض الّتي ائتمنتُكم عليها وكانت وعدا منّي لآبائكم الأوّلين. ولا تتّخذوا من دوني آلهة أخرى لها تخضعون. أجل، لا تثيروا غضبي بعبادتكم لأصنام صنعتموها مشركين، حتّى لا أسمح أن يمسّكم البلاء الأليم". ولكنّكم عنّي أدبرتم ولرسالتي جحدتم، فعبدتم أصنامكم وكفرتم، وإنّي لمُنزل عليكم البلاء الرّجيم".

فقال الله العزيز القدير: «لقد رفضتم رسالتي، لذلك أسخّر جميع جيوش الشّمال تحت قيادة نبوخذ نَصر ملك البابليّين، وأرسلهم جميعا ليهجموا عليكم في بلاد يهوذا وعلى الشعوب المجاورين، فأبيدكم وأجعل بلادكم خرابا على مدى السنين. وعندما يذكركم الناس من بعدكم يصابون بالهلع وإيّاكم يحتقرون. فلا يعلو بينكم بعد الآن صوت طاحونة أو صوت طرب أو صوت فرح، أو صوت عريس وعروس ومن معهم من المبتهجين، وإنّما تنطفئ أنوار مصابيحكم في الديار. وتصبح بلادكم مهجورة يعمّها الخراب والدّمار، ويأخذ ملك بابل شعبكم أسيرا مدّة سبعين سنة بعد الانتصار.[2] قال تعالى: «وفي ختام السنة السّبعين، أُعاقب ملك بابل وشعبه على

(1) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 25: 1–14.

(2) مع انتهاء فترة سبعين سنة قضاها بنو يعقوب في السبي في بلاد بابل عقابا على عصيانهم، قرأ النبي دانيال هذه النبوءة من كتاب النبي إرميا، وفهم أنّ زمن انقضاء عقاب بني يعقوب أوشك على النهاية، وحينها عليهم أن يعودوا إلى بلادهم. فتضرّع النبي دانيال وتوسّل إلى الله أن يقبل

ذنوبهم وعلى كلّ ما كانوا يرتكبون، وأجعل بلادهم خرابا على مدى السنين. وأنزل على الأمم كلّ الأهوال الّتي تنبّأ بها إرميا، وقد جاءت في هذا الكتاب المبين. وأُجازي أهل بابل على الشرور التي كانوا يقترفون، فيُقبل عليهم ملوك عظام يستعبدونهم كما استعبدوا قوم ميثاقي المتمرّدين.»

وعد الله بالحَكَم العادل المنتظر[1]

قال الله تعالى: «تأتي أيّامٌ أُقيم فيها على العرش حَكَما صادقا من نسل داود، يحكم بحكمة ويملأ الأرض قسطا وعدلا. وفي أيّام حُكمه يحلّ السّلام على الّذين في السامرة يقيمون، ويبقى أهل يهوذا في الجنوب آمنين، ويُلقّب هذا الحَكَم: «الحَكَمُ عبد الله الناصر الأمين».

إعادة المملكة[2]

قال الله العزيز القدير: وفي اليوم الموعود، أكسِر الأغلال عن رقاب قوم ميثاقي وأُحطّم السّلاسل الّتي تقيّدهم فلا يعودون للغرباء مستعبدين، بل يكونون في خدمة الله ربّهم مطيعين، وفي خدمة الملك سليل النبي داود الّذي أُقيمُهُ عليهم في ذلك الحين.

وعد الله بالميثاق الجديد[3]

قال الله تعالى: «في تلك الأيّام المنتظرة لن يُروّج أحد المثل السائد: أكل الآباء الحصرم فضرست أسنان الأبناء. بل يموت كلّ واحد بما جنت يداه من إثم وبلاء،

توبة قومه وأن يغفر لهم. حينئذ ظهر ملاك من الله أمام النبي دانيال وأخبره بوحي مفاده أنّ زمن الغفران الشامل سيأتي بعد مضي فترة من الزمن تعادل سبع سنوات مضاعفة سبعين مرّة، وفي ذلك الحين يتجلّى المسيح المنتظر (انظر كتاب النبي دانيال، الفصل 9).

(1) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 23: 5-6.

(2) ستنادا إلى كتاب النبي إرميا 30: 8-9.

(3) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 31: 29-34.

ومَن يأكل الحصرم تضرس أسنانه بما أكل واشتهى. إنّ أيّاما تأتي، أُقيم فيها ميثاقا جديدا مع أَهل مملكة السّامرة الشّماليّة ومملكة يهوذا الجنوبيّة. وإنّه غير الميثاق الّذي أَبرمتُهُ مع آبائهم الأوّلين، حين أخرجتُهُم من مصر آمنين. ورغم وفائي لهم، تخلّوا عن ميثاقي جاحدين. وفي قادم الأَيّام، أُبرم مع بني يعقوب هذا الميثاق الجديد: في سريرتهم تكون شريعتي، وعلى قلوبهم أنقشُها، وأكون لهم ربّا، ويكونون أُمّتي المقرّبين. وحينها لن يكونوا مضطرّين لإرشاد أقاربهم وجيرانهم قائلين: «كونوا لله من العارفين!» لأنّهم جميعا يكونون من العارفين بي حقّ اليقين، صغارا وكبارا، وإنّي لذنوبهم وخطاياهم لغفور رحيم».[1]

(1) إنّ وعد الله على لسان نبيه إرميا القائل بأنّه سيقيم ميثاقا جديدا مع المؤمنين تحقّق من خلال السيد المسيح، فعندما أنشأ العشاء التذكاري مع الحواريين قال: ((هذا كأس ميثاق الله الجديد معكم)) [انظر الإنجيل، لوقا 22: 20]. انظر أيضا الإنجيل، سفر العبرانيين الفصل 8.

دانيال عليه السلام

قصّة النبي دانيال عليه السلام

مدخل إلى قصّة النّبي دانيال

تستند هذه القصّة إلى ما ورد في كتاب النّبي دانيال في الكتاب المقدّس. وقبل زمن النّبي دانيال، توعّد الله بني يعقوب على لسان النبي إرميا وغيره من الأنبياء أنّهم إن استمروا في ذنوبهم وضلالهم، فسيجعل الله مملكتهم تنهزم وسيلقى أفراد شعبهم إمّا الحتف أو الانسياق إلى السّبي. لكن بنو يعقوب لم يتوبوا، فحلّ عليهم هذا العقاب ودُمّرت مدينة القدس واحترق فيها بيت الله وحرمه القدسي. كان دانيال عليه السلام أحد اليهود الأسرى الأوائل، وانساق في السّبي إلى بابل ليسكن هناك. ويخبرنا الطّبري في تاريخه كيف انتصر الملك نبوخذنصر (بخت نصر) على مصر، ثمّ «انطلق بالسّبي كثير من أهل فلسطين والأردن، فيهم دانيال وغيره من الأنبياء».

يروي كتاب النّبي دانيال عددا من القصص التي تتعلّق به وبرفاقه الثلاثة (الفصول ما بين 1 و 6). وفي هذا الكتاب تمّ تسجيل بعض الرؤى التي تلقّاها النبي دانيال من الله (الفصول ما بين 7 و 12). وتكشف هذه الرؤى أنّ الممالك العظمى رغم تمرّدها على الله ستنهزم أمام مملكة الله الموعودة التي تدوم إلى الأبد. وانتهت هذه الرؤى في كتاب النّبي دانيال بإعلان صريح لحقيقة النّشر والقيامة، حين يجازي الله الصالحين منهم ويعاقب الظّالحين.

صنّف الباحثون كتاب النبي دانيال ضمن صنف أدبي يسمى بأدب النّهايات، وفيه

يأتي تأكيد أنّ الله يتدخّل بمعجزات وعجائب عبر التاريخ لينصف عباده الصّالحين. ويستخدم هذا الأدب الرّموز والرّؤى والنّبوءات لتحقيق أهدافه. ويهدف كتاب النّبي دانيال إلى شدّ عزيمة كل من يتصفّحه ويستمع إليه، فيبقى مخلصا لله وخاصة القرّاء الأوائل الذين عاشوا في مرحلة هيمنت على قومهم بعض الممالك العظمى المجاورة، واضطهدت بعض هذه القوى عباد الله وظلمتهم ولكن كان عليهم أن يعرفوا يقينا أنّ لله ملكوت كلّ شيء وهو يدير مجرى أحداث البشريّة لكي يتمّم مقاصده تعالى.

وورد في الفصل السابع من كتاب النبي دانيال في رؤيا للنبي وعد إلهي بخصوص مجيء المملكة الربّانية. ويقرّ الإنجيل أنّ هذا الوعد تحقّق بقدوم سيدنا عيسى المسيح، فهو من رآه النّبي دانيال ووصفه بمن يشبه إنسانا قادما في ظلل من الغمام الذي ينال من الله سلطانا حتى يخدمه النّاس من كلّ الشّعوب والأمم واللّغات (أي أنّه سيد البشر).

بسم الله تبارك وتعالى

قصّة النّبيّ دانيال عليه السلام

النبي دانيال ورفاقه في خدمة ملك بابل[1]

في السنة الثالثة من حُكم يوياقيم ملك يَهوذا، زحف نَبوخذ نَصر[2] ملك بابل على القدس وحاصرها. وبأمر الله انتصر الملك البابليّ على يوياقيم الملك اليهوديّ وجعله تحت سلطانه القويّ. ثمّ رجع إلى بابل حاملا معه آنية مقدّسة من أواني بيت الله العليّ، ووضعها في خزانة معبد إلهه الوثنيّ.

وذات يوم أمر ملك بابل كبير حاشيته أشْفَناز، أن يختار من بني يعقوب شبابا، يكونون من العائلة الملكية أو من عائلات النبلاء أنسابا، ممّن جاؤوا إلى بابل مع الأسرى. وأوصاه الملك قائلاً: «سيكون من تختارهم نشطين أقوياء، ذوي وسامة أصحّاء، ويجب أن يكونوا على درجة كبيرة من العلم، وفي التبصّر والإدراك متبحّرين، ممّا يجعلهم للخدمة في القصر الملكي مؤهّلين. وعلّمهم لغة بابل وآدابَنا». وأمر الملك أن يُقدَّم إلى الشبّان ما يُقَدَّم لحاشيته من الطعام، وأن يسقوا مثلهم من الخمر المُدام، وأمر بتدريبهم ثلاث سنوات، قبل أن يتأهّلوا للدخول إلى القصر الملكيّ ويقدّموا فيه الخدمات. وكان من بين الشبّان المنتخبين أربعة شباب من عشيرة يَهوذا وهم: دانيال

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 1: 1–21.

(2) وهو معروف أيضا باسم بَختنصر.

وحَنانيا وميشائيل وعَزَرْيا. وقد أطلق عليهم كبير الحاشية أسماء بابلية. فسمّى النبي دانيال بَلطَشاصَر، وحَنانيا شَدْرَخ، وميشائيل ميشَخ، وعَزَرْيا عَبد ناغو.

وعزم دانيال ألاّ يقرب ما يُقدَّم إليه من طعام وشراب، لأنّهما محرّمان عليهم كما جاء في الكتاب،[1] وطلب من كبير الحاشية أن يعفيَهُم من ذلك. وكان الله قد جعل كبير الحاشية ينظر إلى النبي دانيال بلطف ورضى، بيد أنّه انزعج من اقتراحه وأجابه: «لقد أمر مولاي الملك أن تتناولوا جميعًا ممّا يُقدَّم إليكم من الطعام والشراب، فإذا امتنعتم عنه، خفّ وزنكم وأصبح شكلكم مختلفًا عن زملائكم الآخرين، وإنّي أخشى أن يأمر الملك بقطع رأسي لأنّي أهملت واجبي».

ثمّ اتّجه النبي دانيال إلى المشرف الّذي ولاّه كبير الحاشية عليه وعلى من معه من الأصدقاء، وقال له: «يا سيّدي، جرِّبنا عشرة أيّام فقط، ولا تقدّم لنا سوى الخضر والماء، وبعد ذلك قارن بيننا وبين بقية الشبّان الّذين يأكلون من طعام الملك، وتستطيع عندها أن تقرّر ما تشاء». فوافق المشرف على ما قاله دانيال، وجرّب اقتراحه عشرة أيّام. وبعد انقضاء الفترة المحدّدة بدا النبي دانيال وزملاؤه الثلاثة أحسن حالاً وأفضل صحةً من جميع الشبّان الّذين كانوا من طعام القصر الملكي يأكلون. فسمح لهم المشرف أن يتركوا ما يقدّم لهم من القصر الملكيّ من طعام وخمر، وألاّ يتناولوا إلاّ الخضر والماء.

وأكرم الله هؤلاء الشباب، فتعلّموا كلّ فروع الحكمة والآداب، وتميّز عنهم النبي دانيال عليه السّلام، بكرامة تفسير كلّ أنواع الرّؤى والأحلام.

وعند انتهاء ما حدّده الملك من مدّة للتدريب، أحضر كبير الحاشية الشّباب إلى بلاط ملك بابل المهيب. وحاورهم الملك ولاحظ أنّ دانيال وأصحابه الثلاثة كانوا على الجميع متفوّقين، فاختارهم للخدمة في القصر وجعلهم من المقرّبين. وكلّما استشارهم الملك في موضوع مهما استعصى، أظهروا من الحكمة والنُهى، ما يصل

(1) الطعام والشراب محرمان لأنهما قدما إلى الأصنام والآلهة أوّلًا كقرابين وليسا مخصصين مباشرة للأكل لذلك تنص التوراة على تحريمهما.

إلى عشرة أضعاف ما يتمتّع به جميع من في مملكته من سحرة وشيوخ روحانيين. وظلّ النبي دانيال في البلاط الملكيّ، إلى زمن سقوط بابل في سطوة الملك كورَش الفارسيّ.[1]

منام الملك نَبوخذ نصر[2]

وفي السنة الثانية من حُكم الملك نبوخذ نَصر وفي إحدى الليالي، رأى هذا الملك منامات مزعجة أرّقته وأبعدت عنه النوم. فاستدعى السحرة والشيوخ الروحانيين، والعَرّافين والمنجّمين، وعند حضورهم مجتمعين، طلب منهم أن يكونوا لمنامه مفسّرين. وقال لهم: «رأيتُ مناما أزعجني، فهل فيكم من يقدّم لي تفسيرا يقنعني؟» فأجابه المُنجِّمون باللغة الآراميّة: «عاش المَلك أبد الآبدين! يا مولانا، أخبرنا بالمنام ونحن له مفسّرون». فأجابهم المَلك: «إن لم تخبروني بمحتوى ما رأيت في المنام وتفسيره، سآمر بتمزيقكم إربا إربا، وأجعل بيوتكم مزابل خِرَبا، وإن أخبرتموني بالمنام وتفسيره، وهبتكم عظيم الهدايا وأغرقتكم في الكرم والعطايا! إنّ هذا هو قولي الأخير! فأخبروني بما جاء في منامي وقدّموا لي التفسير». فتوسّلوا إليه قائلين: «يا جلالة الملك العظيم، أخبرنا بما رأيتَ في المنام، واسمع منا تفسير الأحلام». فأجابهم في صرامة لا تلين: «إنّي على يقين، أنّكم تحاولون كسب مزيد من الوقت لعلّكم تنجون، وأنّكم رأيتموني على قراري شديد التصميم! فإن لم تخبروني بما رأيتُ، فعقابكم وخيم. فأنتم عليّ متآمرون وإنّكم لخادعون كاذبون، إذ حسبتم أني سأغيّر قراري بعد حين! هيّا أخبروني بما رأيتُ لأتأكّد أنّكم على تفسير رؤياي قادرون». وقال المنجّمون محتجّين: «يا مولانا، إنّ هذا لأمر مستحيل! لا يوجد على وجه الأرض من يستطيع قراءة أفكار الملك المعظّم! وما من ملك مهما كانت عظمته وسلطانه طلب هذا الأمر من ساحر أو شيخ روحانيّ أو منجّم! إنّ ما تطلبه يا

(1) ظلّ النبي دانيال في القصر الملكي خلال حكم الملك نَبوخذ نَصر والملك الذي خلفه إلى السنوات الأولى من حكم الملك كورش الذي ينحدر من بلاد فارس.

(2) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 2: 1–18.

مولاي محال، وما من أحد يمكنه أن يخبرك بمضمون المنام إلاّ الآلهة الّتي لا تقيم مع الإنسان».

فامتلأ قلب الملك غضبا وبغضاء، وأمر بإعدام كلّ حكماء بابل دون استثناء. فانطلق بعض الجنود عن النبيّ دانيال ورفاقه باحثين، لإعدامهم مع بقية حكماء بابل الفاشلين. وعندما انطلق أريوخ قائد الحرس الملكي لتنفيذ الأمر، خاطبه النبي دانيال بحكمة وتبصّر، وسأله: «لماذا أصدر الملك هذا الحكم الشديد، وكيف يعدم أصحاب الرأي الرشيد؟» فشرح أريوخ للنبي دانيال أمر منام الملك وكيف عجز الروحانيّون عن تفسيره. فانطلق النبي دانيال ليرى الملك وطلَب منه مهلة حتى يخبره بكلّ ما رآه في المنام وتفسيره، فوافق الملك على ذلك.

ثمّ عاد النبي دانيال إلى الدار وأخبر رفاقه الثلاثة بالموضوع وما فيه من أخطار، وترجّاهم أن يتضرّعوا إلى ربّ العالمين ليرحمهم برحمته ويكشف لهم سرّ هذا المنام فينجون، ومع سائر حكماء بابل لا يعدمون.

النبي دانيال يفسر المنام[1]

وفي تلك الليلة انكشف السرّ للنبي دانيال في رؤيا، فسبّح بحمد ربّ العالمين وقال: «تبارك الله من الأزل وإلى أبد الآبدين، إنّه ربّ الحكمة الجبّار المتين! سبحان الّذي يسيّر مجرى الكون والأزمان، ويُنزل الملوك عن عروشهم ويرفع آخرين إلى علو المقام، هو الّذي يمنح الحكمة للحكماء والفهم للفهماء! سبحان الّذي يكشف الأسرار والمخفيّات، إنّه العليم بما يكمن في الظلمات، وهو ذو النور الباهر، والضياء القاهر. يا الله، إنّك معبود آبائي الأوّلين، فلك الحمد وإنّي لك من المسبّحين، لأنّك وهبتَ لي الحكمة وقدرة التبيين، واستجبتَ لطلبنا، فأوحيتَ لي بمضمون منام الملك العظيم!

واتّجه النبي دانيال إلى أريوخ قائد الحرس الذي كُلّف بإعدام حكماء بابِل، وقال

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 2: 19–49.

له: «إيّاك أن تنفّذ في حكماء بابل الإعدام! بل أدخلني لأمثل أمام الملك وأفسّر له ما رآه في المنام». فأدخله أريوخ مُسرعًا إلى البلاط الملكي وقال لسيّده ومولاه: «يا مولاي، وجدتُ أحد الأسرى من بلاد يَهوذا يريد أن يخبر الملك المعظّم عن رؤياه!» فالتفت الملك إلى النبي دانيال قائلاً: «هل صحيح ما تدّعيه؟ هل تستطيع أن تخبرني بمضمون ما رأيتُ في منامي وتقدّم لي ما يعنيه؟» فأجابه النبي دانيال: «لا يمكن لشيخ روحاني أو حكيم، أو ساحر أو أحد المنجّمين أن يبوح بهذا السرّ لمولاي العظيم! ولكنّ الله ربّ العالمين، هو الّذي يكشف السرّ الدفين، وقد أظهر الله العلاّم لمولاي نَبوخذ نَصر ما سيحدث في قادم الأيّام. ها أنا سأخبرك بما رأيتَ في منامك، وبما أزعجك في نومك: إنّ ما رأيتَ يا مولاي، سيحدث في الزمن الآتي، والله يكشف لعبده الأسرار والغيبيات. وما كشف لي الله تعالى هذا السرّ لأنّي أفوق الناس حكمةً ونُهى، بل لكي تعلم أيّها الملك تفسير منامك وكلّ ما دار في أفكارك من رؤى. يا مولاي، لقد رأيتَ في منامك تمثالاً ضخمًا عظيما، ينتصب أمامك بهيّا، وكان منظره رهيبًا. رأسه من خالص الذهب، ومن فضّة صدره وذراعاه، ومن نحاس بطنه وفخذاه، ومن حديد ساقاه، وقدماه خليط من الحديد والخزف، ولمّا نظرتَ فيه، انقطع حجر من أحد الجبال من دون أن ترى يدا تلقيه، فضرب التمثال من أسفله فسحق قدميه. وتحطّم التمثال وانهار، وأصبح كومة من حديد وخزف ونحاس وفضّة وذهب ومع الريح طار، إذ أصبحَتْ كلُّها مثل تبن بيدر في الصيف في هباء ونثار. أمّا الحجر الّذي كسّر التمثال، فتحوّل إلى جبل ضخم واحتلّ الأرضَ كامل الاحتلال.

"يا سيّدي، إنّ هذا مضمون ما رأيتَ في منامك. والآن سأخبرك بمعناه. يا جلالة الملك، أنت أعظم الملوك والحاكمين، لأنّ ربّ العالمين منحك المُلك والعزّة والقدرة والجلال، وجعلك ملكًا على الأرض بالكمال، بما فيها من البشر والوحوش والطيور، فأنت الرأس الّذي من ذهب. وبعد انتهاء سلطانك، يأتي سلطان آخر، أقلّ شأنًا منك وأضعف، وبعد سقوطه تقوم مملكة ثالثة كأنّها النحاس فتتسلّط على أنحاء الأرض. وبعد تلك المملكة تأتي مملكة رابعة تكون صلبة كالحديد، وستسحق كلّ الممالك الّتي سبقتها، فكما يسحق الحديد كل الأشياء، كذلك تسحق هذه المملكة

وتحطّم جميع تلك الممالك السّابقة. ورأيتَ أنّ القدمين والأصابع خليط من خزف وحديد، ويعني أنّ أمر المملكة غير متوحّد سديد، وستبقى رغم ذلك قويّة كقوّة الحديد، وتكون بعض الأجزاء من المملكة صلبة كالحديد وبعضها الآخر هش ينكسر بسهولة كالخزف. ويرمز هذا الخليط أيضًا إلى أنّ ملوك تلك المملكة سيسعون إلى تقويَة الدولة بتحالفات يقيمونها متصاهرين، ولكنّهم واهمون، فالحديد لا يتّحد مع الخزف وإليه لا يستكين. وفي أيّام تلك الممالك يقيم ربّ العالمين مملكة لا أحد يدمّرها أو يهزمها، بل ستسحق جميع تلك الممالك وتقضي عليها، بينما تثبُت هي إلى أبد الآبدين. وهذا ما يرمز إليه الحجر الّذي انقطع من الجبل من دون أن تلمسه يد، فسحق التمثال المصنوع من حديد ونحاس وخزف وفضّة وذهب. إنّ الله العظيم ينبّه جلالة الملك بما سيحدث في المستقبل. وهذا هو منامك أيّها الجليل النبيه، وهذا تفسيره صحيح لا ريب فيه".

وانحنى الملك نَبوخذ نَصر في الحال أمام النبي دانيال في احترام وتقدير، وأمر قومه أن يقدّموا له القرابين ويحرقوا له البخور. وقال الملك للنبيّ دانيال: «إنّ ربّكم ربّ الأرباب لا محالة، ويسود على جميع الملوك ويكشف الأسرار، لأنّه مكّنك من أن تكشف الخبيء خلف الأستار».

ثمّ وهب النبي دانيال كثيرا من الهدايا، ورفعه إلى منصب عالٍ فوق البرايا، إذ جعله واليًا على بابل العاصمة، وأقامه رئيسًا على جميع حكماء الحاشية. وطلب دانيال من الملك أن يولّي رفاقه، شَدرَخ وميشَخ وعبد ناغو مناصب عالية وأن يجعلهم على إدارة شؤون بابِل الحامية، أمّا دانيال النبي، فظلّ في البلاط الملكي.

الملك يأمر بعبادة تمثال الذهب[1]

وفي أحد الأيّام أمر الملك نَبوخذ نَصر رجاله أن يصنعوا تمثالاً من ذهب، طوله ستّون ذراعًا وعرضه ستّة أذرُع، وأوصى أن يُنصب في سهل دورا في ولاية بابل. ثمّ دعا باجتماع كلّ المسؤولين، من الوُلاة ووجهاء الدولة والزعماء والمستشارين،

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 3: 1-7.

وأُمناء الخزينة والقضاة والضباط وغيرهم من كبار الموظّفين، حتى يقيم أمام التمثال حفل التدشين. وعندما اجتمع كلّ المدعوّين، أمام التمثال في هيبة ووقار، سُمع مُنادٍ ينادي بصوت عالٍ: «أيّها الناس يا من تمثلّون كلّ الأمم واللغات والشعوب، اسمعوا ما صدر عن مولانا الملك المَهيب، من أمر وقرار: إذا سمعتم جميع أصوات المعازف من بوق وناي وقيثار، وصوت رباب وعود ومِزمار، فاركعوا لتمثال الذَّهب الّذي أقامه مولانا الملك ساجدين. وكلّ مَن يرفض له السجود، يُلقى به في الحال وسط أتون ذي نار ووقود. وما أن سمع جميع ممثلي الشعوب الحاضرين، أصوات تلك المعازف حتّى خرّوا لتمثال الذهب ساجدين.

دسيسة ضدّ رفاق النبي دانيال[1]

وأخذ بعض المنجّمين أمر الملك ذريعة، حتى يزرعوا بين أهل يهوذا والملك الفرقة والوقيعة، فأقبلوا على الملك مردّدين: «عاش الملك أبد الآبدين! يا مولانا، لقد صدر أمرك أن كلّ مَن يسمع جميع أصوات المعازف من بوق وناي وقيثار، ورباب وعود ومزمار، عليه أن يسجد لتمثال الذَّهب، فإن تولّى ألقي في نار ذات لهب. وقد أقام جلالتكم على ولاية بابل من أهل يهوذا، شَدرَخ وميشَخ وعَبدَ ناغو، لكنّهم رفضوا أمرك واستخفّوا به، ولم يسجدوا لصنمك ولا اعترفوا به».[2]

فعلا الملكَ غضب شديد، على هؤلاء النفر من أهل يهوذا، وأمرهم أن يمثلوا أمامه، وأن يتلقّوا غضبه وكلامه. وعند وصولهم قال لهم: «كيف تتجرّؤون وعن عبادة آلهتي تنكصون، كيف ترفضون السجود لتمثال الذهب الّذي نصبتُه وعليه تتكبّرون؟ ها أنّي أمنحكم فرصة أخيرة، ستسمعون الآن صوت البوق والناي والقيثار والرباب والعود والمزمار، وعليكم أن تخرّوا للتمثال ساجدين. وإن رفضتم ذلك، تُلقون في لهيب الأتون، وهل مِن إله ينقذكم من قبضتي في ذلك الحين؟»

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 3: 8-18.

(2) لا توجد إشارة إلى أن النبي دانيال كان موجودا في المدينة زمن هذه الحادثة. وهذه القصة مهمّة لأنها تؤكد أن الله يحمي عباده الذين يتوكّلون عليه.

فأجابه الشبّان الثلاثة: «يا نَبوخذ نَصَّر، إنّنا في غير حاجة إلى تبرير أو تفسير. نحن أيّها الملك عباد الله، وهو ربّنا القدير، ينقذنا من اللهب المستطير، ومن نفوذك الكبير. وحتّى إن لم ينجِنا، فإنّا لعبادة آلهتك رافضون، وعن تمثالك الّذي نصبته بعيدون!»

الحكم بالموت على رفاق النبي دانيال[1]

فاستشاط الملك غيظًا واكْفَهَرَّ وجهه على رفاق النبي دانيال الثلاثة غضبًا، وأمر أن يُحمّى الأتون سبعة أضعاف ما كان يُحمّى لهبا، وأمر بعض الجنود الأشداء من جيشه أن يقيّدوا الرفاق الثلاثة ويلقوهم في الأتون المتوهّج باللهيب. فقيّدوهم تاركين ما عليهم من ثياب وألقوهم وسط السعير الرهيب. ولقد كان الملك في أمره شديدا، بأن يُحَمَّى الأتون ويُضرم أشدّ الإضرام، فمات الجنود الذين ألقوا رفاق النبيّ دانيال، حينما اقتربوا من ذلك اللهيب! بينما سقط الرفاق الثَّلاثة وسط النار مقيّدين.

وفجأةً اندفع الملك مندهشًا وقال لرجال حاشيته مستفسرا: «ألم نلق بثلاثة رجال وسط النار مقيّدين؟» فأجابوه: «أجل، يا مولانا». فقال: «فكيف أرى أربعة رجال بلا قيد وسط النار يتمشّون، ولم يلحقهم أذى، ورابعهم كأنّه إله عظيم؟»

إطلاق رفاق النبي دانيال[2]

واقترب الملك من باب الأتون ونادى: «يا شَدرَخ وميشَخ وعبد ناغو، يا عباد الله تعالى، أُخرجوا من النار وتعالوا!» فخرجوا وأحاط الوُلاة ووجهاء الدولة والزعماء والمستشارون، بهؤلاء الرفاق النّاجين، فوجدوا أنّ النار لم تأتِهم بأيّ ضرر، ولم تحترق منهم شعرة ولم يمسس ثوبهم شرر، بل لا توجد عليهم حتّى رائحة النار. فقال الملك: «تبارك ربّ شَدرَخ وميشَخ وعبد ناغو الّذي أرسل ملاكه وأنقذ عباده الذين عليه يتوكّلون، فقد خالفوا أمر الملك، واختاروا الموت في النار على أن يكونوا لغير ربّهم ساجدين. أنا الملك، وإليكم أمري العليّ، لكلّ النّاس في مملكتي من كلّ

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 3: 19–25.
(2) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 3: 26–30.

الشعوب والأمم واللغات: كلّ مَن استهان بربّ شَدرَخ وميشَخ وعبد ناغو يُمزّق إربًا إربًا ويتحوّل بيته إلى مرمى للنّفايات. فلا إله غيره قادر على نجاة الناس بهذه الطريقة العجيبة!»

ثمّ رفع الملك شَدرَخ وميشَخ وعبد ناغو إلى مناصب أعلى في ولاية بابل.

الملك نَبوخذ نصر يرى رؤيا مرّة ثانية[1]

وأرسل الملك نَبوخذ نَصر بلاغًا إلى الناس في كلّ أرجاء الأرض من مختلف الشعوب والأمم واللغات:

"دُمتم سالمين. يسُرُّني أن أُعلن الخوارق والمعجزات، تلك الّتي أجراها من أجلي الله تعالى صاحب الآيات.

فما أعظم معجزاته وما أقوى آياته! مُلكه يدوم إلى الأبد وسُلطانه يبقى على مدى الأجيال والمُدد.

أنا الملك نَبوخذ نَصر، كنتُ في قصري مقيما مرتاحًا مطمئنًا سليما. حتّى أفزعتني في إحدى الليالي رؤيا رأيتها في فراشي. فأصدرتُ أمرًا بإحضار حكماء بابل أمامي، ليفسّروا ما أفزعني في أحلامي. وعند وصول السحرة والمنجّمين، والشيوخ الروحانيّين، أخبرتُهم بمنامي، فعجزوا عن تفسيره وشرحه وتعبيره. وجاءني في النهاية دانيال الّذي سمّيته بَلطَشاصَّر تيمّنًا باسم إلهي، وكانت فيه روح الآلهة ذات القُدسيّة، فأخبرتُه بما رأيتُ في المنام وقلتُ: «يا بَلطَشاصَّر إنّك رئيس المستشارين الحكماء، وأنا أعلم أنّ روح الآلهة ذات القدسيّة قد حلّت فيك، فلا سرّ يبقى عندك في الخفاء. فأخبرني ما هو تفسير رؤياي. فبينما أنا نائم في فراشي، إذ بشجرة شامخة مرتفعة وسط الأرض أبيّة. نَمَت أكثر فأكثر حتّى صارت كبيرة قويّة، وبلغ ارتفاعها إلى السماء ليراها في أقاصي الأرض الناظرون. فأوراقها جميلة بهيّة، وثمارها وفيرة يأكل منها الناس أجمعون، وتحتها تستظلّ الحيوانات الوحشيّة، وبين أغصانها تتّخذ طيور السماء أعشاشًا، ومنها تقتات كلّ المخلوقات طعاما.

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 4: 1–18.

"وأثناء منامي، رأيتُ ملاكًا ينزل من السماء رقيبا طاهرًا وهتف بصوت كان مدوّيا ظاهرا: اِقطعوا الشجرة وقُصّوا أغصانها! وانثروا أوراقها وبدِّدوا ثمارها ولتهجر الوحوش ظلالها ولتترك الطيور أغصانها! ولكن اُتركوا الجذع والجذور، وقيّدوا الجذع وسط عشب الحقول بالنحاس والحديد، ودعوه يتبلّل بندى السماء، ويرعى مع الوحوش والحيوانات، وليتحوَّل عقله من إنسان إلى وحش مدّة سبع سنوات.[1] وبلّغتْ الملائكة الرقباء الأطهار هذا المنام، حتّى يعلم الجميع أنّ الله تعالى هو المهيمن على البشر وممالكهم جمعاء، وهو الّذي يقيم عليها مَن يشاء، حتّى أدنى الناس البسطاء».

أنا الملك نَبوخذ نَصر، إنّ هذا منامي الّذي رأيتُه يا بَلطَشاصَّر. ففسّر لي رؤياي فقد عجز عنه الحكماء. وأنت لا ريب قادر على تفسيره لأنّ روح الآلهة المقدّسة قد حلّت فيك».

النبي دانيال يفسر المنام[2]

وذهل النبي دانيال عليه السلام فترة، وانزعج ممّا جاء في المنام، فبقي صامتا برهة حتى قال له الملك: «يا بَلطَشاصَّر، لا يهمّك مضمون المنام، ولا ما فيه من غمّ». فأجابه النبي دانيال: «يا سيّدي، ليت أحداث هذا المنام تتحقّق في مبغضيك، وتصيب أعاديك! أنت رأيتَ شجرة تنمو وتقوى، وبلغ ارتفاعها إلى السماء، حتّى رآها كلّ الناس في أصقاع الدنيا، وكانت أوراقها بهيّة، وثمارها وفيرة شهيّة، تأكل منها كلّ المخلوقات، وتستظلّ تحتها الوحوش، وتتّخذ الطيور بين أغصانها أوكارا وأعشاشا. هذه الشجرة يا سيّدي هي أنت. فقد أصبحتَ عظيما قويًّا، وازدادت عظمة ملكك وبلغت إلى السماء وامتدّ سلطانك إلى كلّ الأرض. ورأيتَ أثناء منامك يا مولاي، ملاكًا ينزل من السماء رقيبا طاهرًا ويقول: اِقطعوا هذه الشجرة واقضوا عليها، ولكن اتركوا في

---

(1) اعتقد القدامى أنّ الرقم سبعة يحمل رمزية الكمال أو الشمولية أو الإتمام، ويعني هذا الرقم هنا العقاب التامّ.

(2) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 4: 19–27.

الأرض الجذع والجذور، وقيّدوا جذعها وسط عشب الحقول بالنحاس والحديد، ودعوه يتبلّل بندى السماء، ليرعى مع الوحوش والحيوانات، إلى أن تمضي عليه سبع سنوات. وها أنا أخبرك يا مولاي الملك بتفسير هذا المنام: إنّ الله تعالى قد حكم عليك بهذا القضاء. ستُطرد من بين الناس لتقيم مع حيوانات البيداء، وسترعى العشب كالبهائم وتتبلّل من ندى السماء، وتمضي عليك سبع سنوات إلى أن تعترف بأنّ الله تعالى يهيمن على ممالك البشر ويقيم عليها من يشاء. أمّا بقاء جذع الشجرة وجذورها على الثرى، فيعني أنّك ستردّ إلى مملكتك حينما تعترف بأنّ المُلك لله وحده ربّ الأرض والسماء. أيّها الملك الجليل، اقبل نصحي ومشورتي، واترك آثامك وخطاياك واستقم في أفعالك وارحم المساكين، لعلّ هناءك يدوم».

إذلال الملك نَبوخذ نصر[1]

ولكنّ الملك نَبوخذ نَصر لم يتُب إلى الكريم التوّاب، فتحقّق كلّ ما تنبأ به النبي دانيال من عقاب. وبعد مرور حول كامل، كان الملك يتمشّى في شُرفة قصره في بابل، فأجال بنظره في المدينة بإعجاب، وقال بغير شكّ ولا ارتياب: «ما أعظم مدينة بابل! إنّي بنيتُها باقتداري المتين، هي عاصمة لمملكتي تُظهر جلالي وبهائي العظيم!»[2] وفيما كان كلام الملك على لسانه، خاطبه هاتفٌ من السماء: «أيّها الملك نَبوخذ نَصرُ، اصغِ إلى هذا الأمر: قد زال عنك ملكك، فأنت الآن ذليل طريد، اخرج من بين الناس وأقم مع الوحوش وارع العشب كما ترعي الثيران، كذلك تحيا سبع سنوات حتى تعترف أنّ الله تعالى هو صاحب الملك والسلطان، يهيمن على ممالك البشر ويقيم عليها مَن يشاء». وفي تلك الساعة حلّ عليه القضاء، فطُرد الملك من العيش مع الإنسان، وطعم العشب كالثيران، وتبلَّل جسمه من ندى السماء، حتّى طال شعره وأصبح كريش النسور، ونمت أظفاره وصارت كمخالب الطيور.

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 4: 28–33.

(2) قارن سورة فُصّلت: 15.

نبوخذ نصّر يسبّح الله[1]

وبعد قضائه تلك السنين، قال ملك بابل العظيم: «أنا نَبوخذ نَصرُ رفعتُ بصري إلى السماء فعدتُ إلى صوابي، وسبّحتُ بحمد الله المتعالي، ورفعتُ ذكر الحيّ الذي لا يموت ومجّدتُه كلّ التمجيد، فسلطانه لا يحدّ ومُلكه يدوم على مدى الأجيال والزمن المديد، وجميع سكّان الأرض أمام عظمته لا يُقدّرون، يفعل كما يشاء بملائكة السماء ومن هم في الأرض يسكنون، فلا أحد يقدر أن يحتجّ عمّا فعله وأن يردّ ما شاءه الله الرشيد.

وعندما عدتُ إلى رشدي وصوابي، أعاد الله عليّ مملكتي وجلالي وبهائي. وعاد جميع الوزراء والنبلاء واستأنفوا خدمتي من جديد، واعتليتُ عرش المملكة مرّةً أخرى، وازدادت عظمتي. وها أنا الآن، أنا نَبوخذ نَصرُ، أكبّر وأسبّح وأمجّد الله ملك العالمين! فكلّ ما يفعله حقٌّ وعدلٌ، وهو القاهر فوق كلّ المتكبّرين».[2]

وليمة الملك بلشاصر[3]

وبعد مرور سنوات من حُكم الملك نَبوخذ نَصر، أصبح بَلشاصَّر وليّ العهد يتولّى أمور المملكة.[4] وأقام في يوم وليمةً فاخرة لألف من النبلاء وشرب خمرًا معهم حتى الانتشاء.

وعندما سلبت الخمر منه لبّه ونُهاه، أمر بإحضار آنية الذهب والفضّة الّتي سلبها سلفه الملك نَبوخذ نَصر من بيت الله، ليشرب فيها خمرًا مع النبلاء وزوجاته وجواريه. وأحضروا له الآنية المخصّصة لعبادة الله، فشرب فيها كلّ الحاضرين،

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 4: 34–37.
(2) انظر سورة آل عمران: 26.
(3) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 5: 1–12.
(4) في تلك الفترة كان الملك نابونيدوس حاكما على مملكة بابل، وذات يوم توجّه إلى الجنوب حتى يقود حروبا يستولي فيها على تجارة البخور، وترك ابنه بلشاصّر على كرسي العرش يدير شؤون المملكة إلى حين عودته.

وبينما كانوا يشربون الخمر، كانوا يسبّحون أصنامهم الّتي اتّخذوها من ذهب وفضّة ونحاس وحديد وخشب وحجر.

وفي تلك اللحظة من الزمان، ظهرت أمامهم يد إنسان، وكتبت بجوار المصباح على الجدار، وعندما رآها الملك، اصفرّ وجهه واستولى عليه خوف شديد، وارتعدت فرائصه وخارت قواه وأمر بإحضار المنجّمين، والسحرة والشيوخ الروحانيين وكلّ الّذين هم في العلم بالغيب ضالعون. وعند وصولهم خاطبهم الملك قائلاً: «مَن يقدر منكم أن يقرأ ما كُتب على الجدار، ويكشف لي ما فيه من معاني وأسرار، أمنحه امتياز ارتداء الأُرجوان وطوقًا من الذهب، وأرفعه إلى المرتبة الثالثة في مراتب أهل المملكة!» ولكنّ الحكماء كانوا عن القراءة عاجزين، وعن فهمها وتفسيرها مردودين. فاشتدّ قلق الملك بَلشاصَّر وأصفرّ وجهه من جديد، واضطرب النبلاء والحكماء.

وعندما علمتْ الملكة الأمّ بكل ما جرى، اتّجهت إلى قاعة الوليمة حيث الملك ومن معه من الحاشية والوزراء وقالت: «عاش الملك إلى الأبد! لا تنزعج ولا يصفرّ وجهك أيّها الملك العظيم. في مملكتك رجلٌ حلّت فيه روح الآلهة ذات القُدسيّة. فقد تميّز هذا الرجل، في أيّام حُكم سلفك نَبوخذ نَصر، بفهم وحكمة وتبصّر، لا نجدها إلاّ عند الآلهة، وقد جعله سلفُك نَبوخذ نَصر رئيسًا للمنجّمين، وللسحرة والشيوخ الروحانيين، إنّه دانيال الحكيم، الّذي أطلق عليه سلفك الملك اسم بَلطَشاصَّر، إنّه ذو قدرات خارقة في فهم الأحلام وفكّ الألغاز وحلّ الأحاجي وتفسيرها. فاستدعِه حالاً حتى يخبرك بتفسير المكتوب وكشف الغيب المحجوب».

النبي دانيال يفسّر الكتابة[1]

وحضر أمام الملك النبي دانيال، وسأله الملك وقال: «هل أنت دانيال الّذي أحضرك سلفي الملك من بلاد يَهوذا مع الأسرى؟ لقد بلغني أنّ روح الآلهة ذات القُدسيّة قد حلّت فيك، وأنّه لا يوجد من في الفهم والحكمة يضاهيك. وقد حاول الآن الحكماء

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 5: 13-31.

ومن في بلاطي من العلماء، ومن الشيوخ الروحانيين أن يقرؤوا هذه الكتابة ويُطلعوني على تفسيرها، فارتدّوا عن ذلك وكانوا عاجزين. وبلغني أنّك متبصّر في تفسير أمور الغيب وحلّ العُقَد وفكّ الحجب، فدعني أرى إن كنتَ قادرا على قراءة هذا المكتوب على الجدار، وتعلمني بما فيه من أخبار، وعندها سأمنحك امتياز ارتداء الأرجوان وطوقًا من ذهب، وأجعلك في المرتبة الثالثة في المملكة».

فأجابه النبي دانيال: «لا أريد العطايا ولا الهدايا، اتركها لنفسك، أو امنحها لغيري وسأقرأ لك الكتابة وأخبرك بتفسيرها: أيّها الملك، لقد منح الله تعالى سلفك الملك نَبوخذ نَصر هذه المملكة بكلّ ما فيها من عظمة وبهاء وجلال. وجعله عظيمًا حتى هابه الناس وارتعدوا أمامه من كلّ الأمم والشعوب واللغات، إذ كان يقتل مَن يشاء ويستبقي حيًّا مَن يشاء، ويُكرم مَن يشاء ويذلّ مَن يشاء. ولكنّه تكبّر وتجبّر وأصبح قاهرا مستبدًّا، فأنزله الله عن مُلكه ونزع عنه جلاله وبهاه، وطرده من بين الناس ونزع عنه نُهاه، وتساوى في ذلك مع الحيوان، وعاش مع الحمير الوحشيّة، وأكل العشب مع الثيران، وتبلَّل جسمه من ندى السماء، حتى اعترف أنّ الله تعالى يهيمن على ممالك البشر ويقيم عليها مَن يشاء. وأنت خلفه يا بَلشاصَّر، فرغم علمك بكلّ ما جرى، إلا أنّك لم تتواضع للّه تعالى، بل تمرّدتَ على ربّ العالمين، وأمرتَ بإحضار آنية بيته المقدّس وشربتَ فيها الخمر، مع نبلائك وزوجاتك وجواريك، وسبَّحتَ أصنام الفضّة والذهب والنحاس والحديد والخشب والحجر، مع أنّها لا تملك قدرة إدراك ولا سمع ولا بصر. أمّا أنت فما أكرمت الله الّذي يملك روح حياتك وهو بمصيرك عليم! ولذلك أرسل الله عليكم تلك اليد لتكتب هذه الرسالة. وكلماتها الثلاثة هي: معدود، موزون وقسمان[1] وتعني كلمة معدود أنّ الله قد عدّ أيّام حُكمك وأنهاها بعد الحسبان. وتعني كلمة موزون أنّ الله وضعك في الميزان فوجد أعمالك إلى النقصان.[2] وتعني كلمة قسمان أنّ الله قسم مملكتك قسمين ووهب قسما لمملكة ماداي وقسما لمملكة الفُرس.

---

(1) في اللغة الآرامية الأصلية لكتاب النبي دانيال، كان ما كُتب: "مَنَا، تقيل وفَرْسين".
(2) انظر سورة الأنبياء: 47.

وفي الحال أمر بَلشاصَّر أن يُلبِسوا النبي دانيال الأُرجوان ويُقلِّدوه طوق ذهب، وينادوا به الحاكم الثالث في المملكة. ولكنّه لقي مصرعه في تلك الليلة على أيدي جيش المادايين. واستولى داريوس من مملكة ماداي على مملكة بابل وقد بلغ من عمره الثانية والستّين.(1)

النبي دانيال في جب الأسود(2)

قرّر الملك داريوس، بعد اعتلاء عرش المملكة، أن يقسّم بلاد بابل إلى مئة وعشرين ولاية، وأقام على كلّ منها واليًا يديرها، واختار إلى جانب الولاة دانيال عليه السلام واثنين آخرين ليكونوا جميعًا وزراء على الولاة يشرفون ولمصالح الملك راعون. وسرعان ما أثبت النبي دانيال بقدراته الفائقة تفوّقه على كل الولاة والوزراء، فعزم الملك أن يجعل له سلطانا على شؤون المملكة جمعاء، فثارت غيرة الوزراء والولاة، وأخذوا يترصّدون أيّ هفوة تصدر عن دانيال في إدارة المملكة، ولكنّهم لم يعثروا على أي دليل على الإهمال أو الفساد، لأنّ النبي دانيال كان صادقًا أمينًا على البلاد. وقال أخيرًا هؤلاء الرجال: «لا يمكن إدانته إلاّ إذا كان الأمر يتعلّق بفرائض الشريعة في ديانة دانيال».

فاتّجه إلى الملك هؤلاء المتآمرون وقالوا له: «عاش الملك داريوس! نحن الوزراء والولاة والضباط والمستشارون والمسؤولون، رأينا أن يصدر الملك العظيم، مرسومًا يُنفَّذ بحزم لا يلين، وفيه يمنع منعًا باتًا مدّة ثلاثين يومًا توجيه الصلاة والدعاء نحو أي إنسانٍ أو إلهٍ معبود، إلاّ إليك أنت أيّها الملك المحمود، ومَن يخالف هذا المرسوم يُلقى في جبّ الأسود! والآن يا مولانا، نرجو منك أن تصدر هذا المرسوم المُمضى، فيصبح لأهل ماداي والفُرس من القوانين الّتي لا تتغيّر ولا تُلغى». واستحسن الملك داريوس اقتراحهم وأصدر المرسوم حالاً.

(1) تشير الجداول القديمة التي سجلت أسماء ملوك اليونان والفرس القدامى وزمن حكمهم إلى وجود امبراطور يُدعى داريوس، ولكنّه حكم بعد زمن الملك كورش. ويبدو أن داريوس المذكور في كتاب النبي دانيال هو من مملكة ماداي وقد ولّاه الملك كورش حاكما على مدينة بابل بعد أن انتصر فيها، وحدث هذا في السنوات الأولى للحكم الفارسي.

(2) ستنادا إلى كتاب النبي دانيال 6: 1–28.

وعلم النبي دانيال بالأمر، وبتوقيع المرسوم، ولكنّه لم يتردّد في الذهاب إلى بيته، ودخل في عِلّيّته حيث النوافذ تُفتح نحو القدس الشريف، فركع وصلّى على عادته. وفي يوم واحد أقام الصلاة ثلاث مرّات وحمد ربّه الكريم. فاجتمع أولئك المتآمرون، واتّجهوا إلى دار النبي دانيال، فوجدوه يصلّي ويستغيث ربّه الرّحيم. فأسرعوا إلى البلاط وذكّروا الملك بالمرسوم الّذي أصدره قائلين: «يا مولانا، أما أصدرتَ في النّاس مرسومًا لا يلين، فيه أنّ من صلّى لغيرك من إلهٍ أو إنسانٍ مدّة ثلاثين يومًا، يُلقى في جبّ الأسود؟» فأجاب الملك: «أجل، إنّه لمرسوم مبين، وإنّه من قوانين أهل ماداي والفرس التي لا تتغيّر ولا تُلغى». فقالوا: «فما بال دانيال، أحد الأسرى من بلاد يَهوذا لا يكترث بجلالتك ولا بالمرسوم الّذي أصدرتموه، بل يصلّي لله ربّه في اليوم ثلاث مرّات ويدعوه».

وانزعج الملك كثيرًا عند سماع هذا الخبر، وعزم أن يجد طريقة ينقذ بها النبي دانيال، فبذل كلّ جهده قبل الغروب.[1] أمّا خصوم النبي دانيال فعادوا إلى الملك مسرعين، وبإلحاح قائلين: «أيّها الملك الجليل، أنت تعلم أنّ قوانين أهل ماداي والفرس تنصّ على أنّ كلّ مرسوم يوقّع عليه الملك لا تغيير فيه ولا تبديل!»

وأمر الملك في النهاية باعتقال النبي دانيال وإلقائه في جبّ الأسود. وقال الملك لدانيال: «إنّ ربّك الّذي تعبده بكلّ إخلاص مدى حياتك، وحده قادر على نجاتك!» وأحضر رجال الملك حجرًا، وسدّوا به مدخل الجبّ، وختمه الملك بخاتمه وخاتم نبلائه حتّى لا يجرؤ أحد على إنقاذ النبي دانيال. ثمّ عاد الملك إلى قصرِه وقضى الليلة دون طعام، ورفض كلّ أنواع التسلية ولم يستطع أن ينام.

وهرع الملك عند طلوع الفجر الجديد، إلى جبّ الأسود، ونادى عند وصوله النبي دانيال وألقى عليه بتلهّف السّؤال: «يا دانيال يا عبد الله الحيّ القيّوم، هل استطاع ربّك الّذي تعبده بكلّ وفاء أن ينجيك من أنياب الأسود؟» فردّ دانيال على السّؤال: «عاش

(1) يبدو جليا أن انزعاج الملك لم يكن بسبب عصيان النبي دانيال لأوامره بل بسبب بوادر إيمانه بالاله الذي يعبده النبي دانيال، وهذا ما جعل الملك يبحث عن طريقة ينقذه بها. وبقية الكلمات تكشف بوضوح بوادر إيمان الملك بالله رب العالمين.

الملك إلى الأبد! إن ربّي ببراءتي عليم، فأرسل لسدّ أفواه الأسود ملاكه الأمين، فلم تؤذِني لأنّي لم أخطئ بحقّ الملك العظيم».[1] فامتلأ الملك سرورا، وأمر بإخراج النبي دانيال من الهوّة السّوداء، فلم يجدوا على جسده أيّ أذى، لأنّه توكّل على ربّه تعالى. وأمر الملك بإحضار الرجال الّذين كانوا على دانيال يتآمرون، ورموا بهم وزوجاتهم وأبنائهم في جبّ الأسود، وما إن وصلوا إلى قاع الجبّ حتّى بطشت بهم الأسود، وافترستهم ولم تبقِ عظمًا من عظامهم في الوجود.

وأرسل الملك داريوس لاحقًا رسالة تُتلى على الناس من مختلف الشعوب والأمم واللغات، يقول فيها: «دمتم سالمين. لقد أصدرتُ أمرًا للناس في أنحاء مملكتي بأن يهابوا ربّ دانيال خاشعين، لأنّه تعالى هو الحيّ الّذي لا يموت، ومُلكه لا ينهزم أبدًا وسلطانه يدوم إلى أبد الآبدين. إنّه ينقذ عباده وينصرهم، ويجري معجزات وخوارق في السماوات والأرض، وهو الّذي أنقذ دانيال من سطوة الأسود».

وظلّ النبي دانيال متألقا طيلة حُكم الملك داريوس وحُكم الملك كورَش الفارسيّ، وكان من المفلحين.

رؤيا النبي دانيال الأولى: الحيوانات الأربعة[2]

ولقد كان للنبي دانيال في السنة الأولى من حُكم الملك بَلشاصَّر رؤى تأتيه في منامه، ثمّ سجّل محتواها بعد ذلك بكلّ تفصيل:

"رأيتُ في تلك الليلة الليلاء رياحًا، تهبّ من الاتجاهات الأربعة وتجتاح البحر الواسع اجتياحا، وطلعت من البحر أربعة حيواناتٍ ضخمة الواحد تلو الآخر، ويختلف كلّ واحد عن الآخر. أوّلها كالأسد له جناحان كأجنحة العقبان، وسرعان ما اقتُلِعَ منه الجناحان، بينما أنا أتأمّل الأمر، ثمّ ارتفع عن الأرض ووقف على رِجلَيه مثل إنسان، وحصل على عقل البشر. ثمّ رأيتُ حيوانًا آخر كالدبّ جنباه أحدهما

(1) ذكر ابن كثير هذا الحدث مبنيا على رواية ابن أبي الدنيا إذ قال: "قال ضرا بختنصر أسدين فألقاهما في جب، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه، فمكث ما شاء الله".

(2) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 7: 1-14.

أعلى من الآخر، وكان بين أنيابه ثلاثة أضلع هي له طعام، وسمعتُ صوتًا يأتيه بأمر: ”هيّا كُلْ مزيدًا من لحم البشر!“ وثالث هذه الحيوانات كالفهد، نبتت على ظهره أربعة أجنحة كأجنحة الطّيور. وكان له أربعة رؤوس، ثمّ استلم سلطانًا عظيمًا. أمّا رابع هذه الحيوانات فكان صلبًا فظيعًا مريعًا. وكان يفترس ضحاياه ويسحقهم بأنيابه الحديدية الضخمة سحقًا شنيعا، ثمّ يدوس رفاتهم برجلَيه دوسا فظيعا. ويختلف هذا الحيوان عن سائر الحيوانات الّتي قبله وكان لديه عشرة قرون. وبينما كنتُ شاخصا إلى هذه القرون، إذا بقرن آخر صغير يطلع بينها، فيزحزح ثلاثة من القرون الأولى منها ويحتلّ مكانها في الحين، وكان لهذا القرن عيون كعيون البشر وفم ينطق بغطرسة وتكبّر. وبينما كنتُ أنظر إلى هذا المشهد العجيب، نُصِبت عروش، واستوى صاحب الأزل المهيب، وتحلّى بحُلة ناصعة البياض كالثّلج، وكان شعر رأسه نقيًّا كالصوف، وعرشه يتوهّج كاللهيب، وتنبعث منه نار متوهّجة، وكان ملايين الملائكة حافّين بعرشه يخدمونه، ويقف بين يديه مئات الملايين من البشر ينتظرونه. وانعقدت جلسة القضاء في حضرة العزيز الجبّار، وفُتِحت الكتب والأسفار.

وقُتل الحيوان الرابع ورُمي في النار المتّقدة، واحترق بسبب ما نطق به قرنه من تكبّر وغطرسة. أمّا بقية الحيوانات فانتُزِع منها المُلك والسّلطان، وسُمح لها أن تبقى على قيد الحياة إلى أجل مسمّى من الزّمان.

ورأيتُ في الليلة نفسها، ما يُشبه الإنسان، قادمًا في ظُلَلٍ مِن الغَمام. وأقبل على صاحب الأزل فأدنوه من حضرته وقرّبوه. فمنحه سلطانًا وجلالاً وقوّةً ملكيّة حتّى يخدمه الناس من كلّ الشعوب والأمم واللغات. سلطانه لا يحدّه حدّ، ويدوم ملكه إلى الأبد، ومملكتُه لا تُدمّر وحُكمه لا يقهر.(1)

(1) اختار السيد المسيح أن يشير إلى نفسه بلقب ”ابن الإنسان“ (هنا ”ما يُشبه إنسان“) يعني سيد البشر، لكي يدلّ على شمولية رسالته وسلطانه. وعندما سأله كبير الأحبار في المحكمة أمام المجلس الأعلى لليهود إذا كان حقًّا هو المسيح المنتظر، فردّ بالإيجاب قائلا: ((أجَل، أنا هو، وسَوفَ تَرَونَ سَيِّدَ البَشَرِ جالسًا عَن يَمينِ اللهِ القَديرِ، وسَتَرَونَهُ قادِمًا في ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ مِنَ السَّماءِ)) [الإنجيل، مرقس 14: 62].

تفسير الرؤى[1]

"أمّا أنا دانيال، فقد اضطربتُ كثيرًا وأفزعتني هذه الرؤى، فأقبلتُ على أحد الحاضرين، وسألتُه عن معنى ما جرى، فشرح لي قائلاً: إنّ هذه الحيوانات الأربعة الضخمة ترمز إلى أربعة ممالك ستحكم في الأرض في قادم الأزمان، ولكنّ عباد الله الصالحين سيفوزون بالمملكة الموعودة في نهاية المطاف وسيدوم حُكمهم إلى أبد الأبدين".

ورغبتُ في الاطّلاع على حقيقة الحيوان الرابع ومعناه، فقد كان يرمز إلى مملكة تختلف كثيرًا عن بقية الحيوانات التي رأيتُها وكان مفزعا جدّا، فقد افترس هذا الحيوان ضحاياه، بأسنان من حديد وأظفار من نحاس ثمّ داس بأقدامه جثثهم. وأردتُ أن أعرف أكثر عن القرون العشرة الّتي نبتت في رأس هذا الحيوان، وخاصّةً عن القرن الصغير الّذي ظهر ونزع القرون الثلاثة، ويبدو أنّ هذا القرن كان أهمّ القرون، إذ كان يحمل عيونًا بشريّة وفمًا ينطق بتكبّر مبين، ورأيتُ هذا القرن يحارب عباد الله المنذورين ويردّهم مهزومين، حتّى جاء صاحب الأزل الحي القيّوم بإنصافه وعدله لعباد الله المصطفين، فقد آن الأوان أن يفوزوا بمملكة الله الأبدية الموعودة للصالحين.

وجاءني هذا التفسير أيضا: «هذا الحيوانُ الرابع رمز المملكة الرابعة الّتي ستهيمن على الأرض، وهي تختلف عن سائر الممالك، إنّ فيها جبّارين، سيلتهمون الدنيا بأكملها وسيدوسون كلّ ما يعترض طريقهم ساحقين. وترمز القرون العشرة إلى عشرة ملوك يهيمنون على تلك المملكة ويحكمون. وسيأتي بعدهم ملك آخر يختلف عن الّذين سبقوه، وسيطيح بثلاثة منهم ولن يوقفوه، وسيستخفّ بالله تعالى ويضطهد عباده الصالحين، وسيسعى إلى تغيير أعيادهم وشرائعهم، وطيلة ثلاث سنوات ونصف يقع في سطوته الصالحون. وبعدها تُصدر جلسةُ القضاء الربّانيّ أحكاما، فيُنزع منه سلطانه ويهلك ويُباد تمامًا. ويمنح الله تعالى المُلك الأعظم

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 7: 15–28.

والسّلطان العظيم، لمن كانوا له منذورين، ويدوم مُلكهم إلى الأبد، ويخضع لهم جميع السلاطين ويخدمونهم صاغرين.

هكذا انتهت رؤياي، وقد أفزعتني كثيرًا حتّى اصفرّ فيها وجهي، وقد فضلتُ أن أجعل كلّ هذه الأمور في قلبي طي الكتمان».

الكبش والتيس في رؤيا للنبي دانيال(1)

يقول النبي دانيال عليه السلام: «وفي السنة الثالثة من حكم الملك بَلشاصَّر، رأيتُ رؤيا ثانية. إذ وجدتُ نفسي فجأةً أقف على ضفاف نهر أُولاي، في قلعة شوشة في ولاية عيلام. فنظرتُ حولي عند النهر فرأيتُ كبشًا له قرنان طويلان، أحدهما أطول من الآخر، رغم أنّه طلع بعده. وكان الكبش ينطح نحو جهات ثلاث غربًا وشمالاً وجنوبًا ولا حيوان يضاهيه، ولا تنجو ضحاياه من سطوته فلا يفعل إلا ما يُرضيه، ولم يزدد بذلك إلاّ تكبّرًا عجيبا.

"وبينما انشغلتُ بما أرى، أقبل فجأةً تيسٌ من جهة الغرب سريعا كالهواء، واجتاز المسافة بسرعة حتى كاد يطير فوق الثّرى، وكان يحمل بين عينيه قرنًا بارزًا. فأسرع إلى الكبش العظيم، الّذي رأيته عند ضفاف النهر وهجم عليه بشراسة وقوّة لا تلين. ورأيتُه يصدم الكبش ويكسر له قرنيه. ولم يقدر الكبش أن يتحمّل الضربة، فسقط أرضًا وداسه التيس، ولم يتدخّل أحد لإنقاذه. وازداد التيس غطرسة وتكبّرا، ولكنّ قرنه الكبير انكسر في ذروة عظمته، وبرزت مكانه أربعة قرون اتّجهت نحو جهات الأرض الأربع.

"وخرج من بين أحد القرون الأربعة قرن صغير، ثمّ امتدّ سلطانه نحو الجنوب والشرق وأرض الميعاد المجيد. واشتدّت قوّته حتى هاجم نجوم السماء، وأوقع إلى الأرض نجوما وكواكب فداسها التيس القدير. وتكبّر وتجبّر حتّى تحدّى الله العزيز القدير، فمنع الأضاحي اليومية ودنّس بيت الله دَنَسَ الوثنيّة، وطرح الحقّ

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 8: 1–14.

أرضا، ونجح القرن الصّغير في كلّ ما أراده من تدبير، وسمعتُ ملاكا يسأل ملاكا آخر: حتّاما تستمرّ هذه المعاصي؟ متى يعود النّاس إلى بيت الله وتقديمهم اليومي للأضاحي؟ متى يطهّر حرم بيت الله من النّجاسة؟ متى تنتهي مذلّة عباد الله ودوس الحرم الشريف؟ فأجابه الملاك الآخر: ''يمضي ألفان وثلاث مئة يوم على هذا الحال حتّى نهايته، ثمّ يعود بيت الله المقدّس إلى طهارته''.

الملاك جبريل يفسّر الرؤيا[1]

وقال النبي دانيال: «وعند انتهاء الرؤيا، حاولتُ أن أفهم ما جاء في المنام ومعناه، وسعيت إلى إدراك كنهه ومغزاه، لكنّي رأيتُ أمامي فجأةً كائنًا على هيئة رجل، وسمعتُ صوت إنسان ينادي من جوار نهر أُولاي: «يا جبريل فسّر لهذا الرجل رؤياه». فأقبل جبريل ووقف إلى جانبي، فارتعبتُ ووقعتُ أرضًا. فقال لي: يا ابن آدم، افهم أنّ كلّ الأحداث الّتي جاءت في رؤياك تتعلّق بنهاية الزّمان.

''وأغمي عليّ وهو يخاطبني فوقعتُ أرضًا على وجهي، وأمسكني جبريل وأوقفني على قدميّ، وقال لي: ''اِسمع، أيّها الإنسيّ، سأخبرك بالأحداث الّتي ستسبق نهاية العصر الحاليّ. إنّ غضب الله سيستمرّ إلى أن يتحقّق الموعود في أجله المسمّى. إنّ الكبش صاحب القرنين يرمز إلى مملكة ماداي ومملكة الفرس. ويرمز التيس إلى مملكة اليونان، ويرمز القرن الكبير الّذي يحمله بين عينيه إلى ملك اليونان الأوّل. أمّا القرون الأربعة الّتي طلعت بعد انكسار القرن الأوّل، فهي ترمز إلى ممالك أربع تقوم بعد تقسيم مملكة اليونان، ولكنّها لن تبلغ قوّتها في الحكم والسّلطان. وفي أواخر أيّام حُكمها، وعند اشتداد عصيان رجالها، يقوم ملك شرس شديد المكر، ويصبح قويًّا، ولكن مصدر القوّة ليس منه، وينجح في إحلال الدمار الرهيب، ويقضي على العظماء، ويقهر عباد الله الصالحين. ويزداد تكبّره، فهو ماهر في مكر الناس والقضاء عليهم وهم غافلون. ويصل تكبّره درجة تحدّيه لربّ الأرباب، لكنّ الله سيكسر شوكته بقوّة غير قوّة البشر.

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 8: 15-27.

وسيتوقّف تقديم الأضاحي لا ريب على مدى ألفين وثلاث مئة يوم كما جاء في الرؤيا، وإنّ هذا سيتحقّق في المستقبل البعيد، وعليك الآن كتمان هذه الرؤيا الكتمان الشديد».

ويضيف النبي دانيال: «وبعد انتهاء الرؤيا، أصبت عدّة أيّام بالوهن والعياء. ثمّ تعافيت وقمتُ لعملي في خدمة الملك، ولكنّي بقيت في اندهاش من الرؤيا عاجزا عن فهمها وتفسيرها».

تضرّع النبي دانيال[1]

يقول النبي دانيالعليه السلام: «وحينما اعتلى داريوس بن حَشْوير من بلاد ماداي عرش مملكة بابل في سنته الأولى، وبينما كنتُ أتقصّى قراءة الكتب التي أنزلها الله من السماء وأوحى، عثرتُ في الوحي الّذي جاء على لسان النبيّ إرميا، أنّه قد آن للعقاب الّذي حلّ على القدس أن ينهى، إذ قد قضى الله أن تظلّ لمدّة سبعين سنة في الردى. فتوجّهتُ بالتضرّع والدعاء وبالصوم إلى الله مولاي المجيد، ولبستُ الخيش ووضعتُ الرماد على رأسي من حزني الشديد. وفي دعائي اعترفتُ بآثام قومي وبكلّ الذنوب، فقلتُ: «اللهمّ، يا مولانا العظيم المهيب، إنّك لميثاقك دائم الوفاء، وإخلاصك وسع كلّ الّذين يحبّونك والّذين هم بوصاياك عاملون. أمّا نحن يا ربّ فقد أذنبنا وأثمنا وارتكبنا الشرّ، وكنّا عليك متمرّدين، وعن وصاياك وأحكامك زائغين، وأبينا أن نسمع لعبادك الأنبياء، الّذين بلّغوا رسالتك إلى ملوكنا وآبائنا ولكلّ الزعماء، وغيرهم من أهل أرضنا أجمعين. أيّها المولى، لقد عاملتَنا بكلّ إخلاص، أمّا نحن فلنا سواد الوجه إلى يومنا هذا، وهذه العاقبة تشملنا جميعًا من أهل يَهوذا وسكّان القدس وكلّ بني إسرائيل المشتّتين، والذين دفعتهم في جميع البلدان والأرجاء، عقابًا على أنّهم كانوا لك جاحدين. أجل يا الله، سواد الوجه لنا ولملوكنا وزعمائنا وآبائنا الأوّلين، لأنّنا في حقّك مذنبون، إنّما أنت يا ربّنا وإلهنا فإنّك واسع الرحمة والغفران مع أنّنا أمامك عصاة، وانحرفنا عن الإيمان والطاعات، عندما أمرتَنا أن نتبّع الشرائع

(1) ستنادا إلى كتاب النبي دانيال 9: 1–19.

الّتي أوحيتَ بها لعبادك الأنبياء. وجميع بني إسرائيل عَصَوا شريعتك وزاغوا عنها، وتمرّدوا عليك جاحدين، فحلّت علينا اللّعنات، تلك الّتي توعّدتَنا بها بكلّ صرامة في كتاب عبدك النبي موسى. فحقّقتَ إنذارك الموحى وأصابنا كما أصاب كلّ الزّعماء، فأنزلتَ على القدس عقابًا شديدًا لم ير النّاس له مثيلا عبر الأزمان. وهكذا حلّت علينا جميع المصائب التي وردت في كتاب النبي موسى وجميع اللعنات، ورغم ذلك كلّه رفضنا السعي إلى مرضاتك، ورفضنا الاعتراف بوفائك ورفضنا أن نكون تائبين. يا الله، إنّك على آثامنا ومعاصينا رقيب. وحينما عاقبتنا، أرسلتَ علينا كلّ هذا البلاء، لأنّنا نستحقّه بسبب ما اقترفنا من ذنوب، فأنت العدل الحق الحسيب.

ويضيف النبي دانيال: «يا الله يا مولانا، يا مَن أعليت ذكرك عاليًا حين أخرجتَ قومك من مصر بيد قديرة، ودام صيتك إلى هذا اليوم، لقد وأذنبنا وارتكبنا أعمالا شريرة. فيا ربّ، إنّك تعاملنا بما يليق بوفائك بالوعود، فعن القدس رُدّ غضبك الشديد، وعن الجبل المقدّس المجيد! انظر يا الله إلى من حولها من الأمم والشعوب، انظر إليهم إنّهم منها يسخرون، ومن أمّتك المصطفاة يستهزئون، بسبب آثامنا وآثام آبائنا الأوّلين! اللهمّ اسمع دعائي! اللهمّ استجب لندائي! اللهمّ انظرْ بعين الرضى إلى حرمك المقدّس الّذي تحوّل إلى خراب مريع، اللهمّ أعد بناءه واجعل مقامه المقام الرفيع. يا إلهي إنّك أنت العليّ السميع، فاسمعْ دعائي. وأنت البصير فانظر إلى معاناتنا وإلى الخراب الّذي حلّ على المدينة المصطفاة. إنّا نسألك الرحمة لا لأنّنا لها أهل، بل لأنّك أرحم الراحمين. يا ربّ اِسمعْ دعائي! يا ربّ اِغفر لنا! يا ربّ عجّل لنا برحمتك! أنزل علينا يا ربّ لطفك ورضاك! إنّك اصطفيت القدس مدينتك واصطفيت هؤلاء القوم ليرفعوا قدرك في العالمين!»

الملاك جبريل يفسّر النبوءة(1)

يقول النبي دانيال عليه السلام: «وبينما كنتُ مأخوذًا في الصلاة والدعاء، والإعتراف بذنوبي وذنوب قومي بني يعقوب الآثمين، موجّهًا تضرّعاتي إلى الله مولاي لأجل إعادة بناء

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 9: 20-27.

بيته المقدّس في القدس، جاءني الملاك جبريل الّذي رأيته من قبل في الرؤيا، يقبل عليّ طائرًا مسرعا، وكان ذلك في وقت تقديم أضحية العصر، وقال لي: «يا دانيال، إنّي جئتُ إليك لأفسّر لك الرؤيا. إنّ الله استجاب لك حين بدأت تضرّعاتك تصعد إليه، وأُرسلتُ لأخبرك بالوحي فأنت عند الله حبيب عزيز. فتأمّل فيها بينما أكشف لك عن معناها المكنون.»

وأضاف الملاك جبريل: «إنّما حدّد الله على شعبك ومدينتك المقدّسة سبعة أضعاف لسبعين سنةً تمضي كلُّها للقضاء على المعصية وإنهاء إثم العصيّ، ويتمّ التكفير عن الذنب وإقامة الإنصاف الأبديّ، تصديقًا لما جاء في رؤيا إرميا النبيّ، ثمّ يُدشَّن بيت الله المقدّس من جديد. اِسمع يا دانيال واِفهم أنّه منذ صدور الأمر بإعادة بناء القدس إلى حين مجيء المسيح الملك العظيم، تمضي سبع سنين سبع مرّات ثمّ سبع سنين اثنتين وستّين مرّةً، فتعود لتُبنى المدينة من جديد بشوارع وسور منيع شديد، رغم كلّ الشدائد الّتي ستمرّ عليها. وبعد مرور سبع سنين اثنتين وستّين مرّةً يُقتل المسيح المختار وكأنّه لم يوفق في شيء، ثمّ يأتي حاكم جبّار، فتخرّب جيوشُه المدينة وبيت الله المقدّس، فتأتي النهاية مثل سيل عظيم، بحرب تدوم وخراب محتوم. ويقطع هذا الحاكم عهدًا متينا مع الناس لمدّة سبع سنواتٍ، وفي منتصف هذه الفترة يأمر بوقف تقديم الأضاحي في الحرم المقدّس، ويبلغ كُفرُهُ إلى أن تحلّ في بيت الله النجاسةُ والخرابُ المدنّسُ.[1] وفي النهاية يلقى هذا المجرم من الله مصيره المحتوم».

(1) تحققت هذه النبوءة من النبي دانيال من خلال الأعمال الشنيعة التي ارتكبها الملك الوثني أنتياخوس أبيفانيس الرابع، الذي حوّل بيت الله في القدس إلى معبد وثني، حيث قدّم الأضاحي إلى الإله زيوس. وتحقّقت هذه النبوءة مرّة أخرى، فسيدنا المسيح اقتبس من كلام النبي دانيال هذا بعد مرور مئات السنين، ومن خلاله أشار إلى دمار القدس من قبل الجيوش الرومانية التي دنّست بيت الله (انظر الإنجيل، متّى 24: 15).

آخر الأيّام[1]

ثم قال الملاك: «وينهض ميخائيل كبير الملائكة الّذي يحرس قومك في ذلك الحين، فيحلّ عليكم زمن شديد لم تروا له مثيلا في سالف العهود. ولكنّ مَن يُسجّل اسمه من قومك في كتاب النجاة يكون من الناجين، وتُبعث من تحت التراب الحشود، ليفوز بعضهم بحياة الخلود وينال بعضهم الآخر الخزي والذلّ وفيهما يُخلَّدون.[2] ويظهر نور أهل الفهم والحكمة كضياء الأفلاك في السماء، والّذين أرشدوا الناس وجعلوهم من المستقيمين، ينيرون السماء كالنجوم إلى أبد الآبدين. والآن يا دانيال، احفظ هذا الوحي واجعله في كتاب مكنون إلى حين حلول الزّمن الأخير، واعلم أنّ الناس ستضيق بهم سبل التفسير، رغم ازدياد المعرفة والتنوير».

رؤيا النبي دانيال بجوار النهر[3]

وأضاف النبي دانيال قائلا: «ثمّ نظرتُ من حولي، ولمحتُ ملاكين آخريْن، يقف كلٌّ منهما على ضفّة من ضفّتَي النهر متقابليْن. وسأل أحدهما الملاك الآخر الّذي يرتدي الكِتّان، الواقف عند مجرى النّهر وقال له: «حتّام هذه الأمور الغريبة، وهذه الأحداث العجيبة؟» فرفع الملاك المتسربل بالكتّان إلى السماء يُمناه ويُسراه، وأقسم بالحيّ الّذي لا يموت: «هذه الأحداث العجيبة تدوم ثلاث سنوات ونصف وهذا كل مداها. فعندما يتمّ تكسير شوكة قوم المنذورين تنتهي هذه الأمور وتبلغ أقصاها». ومع أنّي سمعتُ كلمات الملاك، إلاّ أنّني لم أفهم معناها، فقلتُ: «يا سيّدي، ما مآل هذه الأمور وما منتهاها؟» فأجاب الملاك: «لا عليك يا دانيال، اِذهب في أمان الله، وما كشفتُه لك اجعله طيّ الكتمان إلى حين حلول نهاية الزمان. وستطهّر هذه الشدائد الناس وتنقّيهم، أمّا الأشرار فيظلّون في شرورهم قابعين، ولا أحد منهم يفهم سبب هذه الأحداث وبمآلها جاهلون، وأمّا أهل الحكمة فلمعناها يدركون. وستمرّ ألفٌ

(1) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 12: 1-4.
(2) انظر سورة الحجّ: 7.
(3) استنادا إلى كتاب النبي دانيال 12: 5-13.

ومئتان وتسعون يومًا من زمن منع تقديم الأضاحي وتشييد المقام الوثنيّ النجس. فهنيئًا للصامدين، الّذين هم على إيمانهم ثابتون، حتّى ينقضي ألف وثلاث مئة وخمسة وثلاثون يومًا! أمّا أنت يا دانيال النبيّ، فكن مخلصًا حتى يأتي الأمر النهائيّ! ثمّ تموت وتُدفن، وبعدها تُبعث من مَرقدك حيًّا لتنال ثوابك عند انقضاء الأيّام».[1]

(1) قارن تشبيه الوفاة بالنوم الذي ورد في سورة يس: 52.

الأنبياء عليهم السلام

أجمل أقوال الأنبياء

بسم الله تبارك وتعالى

أجمل أقوال الأنبياء

هذه مقتطفات لأجمل أقوال الأنبياء وخاصّة الأنبياء الذين لم نعرض قصصهم في هذا الكتاب.

وقع كلام الله

من كتاب النبي إرميا عليه السلام[1]

قال الله تعالى: «ألا تدركون أنّ كلامي حقّ ووقعه فيكم كالنّار المتوهّجة؟ ألا إنّه فعّال كمطرقةٍ ضخمة وهي تهوي على الصّخور فتحطّمها!»

وفاء الله لا ينقطع

من كتاب مراثي النبي إرميا[2]

وفاء الله لا ينقطع

أجل، إحسانه باق إلى الأبد

اللهمّ ما أعظم إخلاصك

فهو يتجدّد مع كلّ صباحٍ

(1) استنادا إلى كتاب النبي إرميا 23: 29.

(2) استنادا إلى مراثي النبي إرميا 3: 22-24.

فأناجي نفسي
لأنّك يا الله ثروتي ونصيبي، وعليك أتوكّل.

حكم الله على قادة بني إسرائيل الفاسدين
من كتاب النبي حزقيال (ذو الكفل) عليه السلام[1]

أوحى الله إليّ: «يا ابنَ آدم، إنّي أوحي إليك الآن، فانقل هذا الوحي إلى قادة بني يعقوب الذين يرعون القوم، وبلّغهم هذه الرسالة من الله ربّكم: «الويل لكم يا رعاة بني يعقوب، يا من لا ترعون إلاّ أنفسكم. أليس من واجب الراعي أن يعتني برعيته؟ إنّكم تشربون اللّبن وتلبسون الصوف وتذبحون السمين من الخرفان ولكنّكم لا ترعون الرعية. فالضّعيف منها لا تُقوّونه، والمريض لا تداوونه، والمكسور لا تجبرونه، والشّارد لا تردّونه، والمفقود لا تسعون وراءه، وإنّما تتسلّطون على رعيتي بقسوة وجور. لذلك تشتّتت وصارت من دون راعٍ وأصبحت عرضة لكُلّ الوحوش، وبين الجبال والتلال تاهت رعيتي، وهامت على وجهِ الأرض، وما من سائل وما من مجيب.

لذلك أيّها القادة اسمعوا وحي الله إليكم: قال تعالى: «أقسم بذاتي، أيّها القادة، لقد أقمتكم رعاةً على قوم ميثاقي، ولكنكم لم تعتنوا إلا بأنفسكم! فهلكت رعيتي لأنّه ما من راعٍ يقودها، لذلك أيّها القادة اسمعوا رسالة الله: أنا أصدكم أيها الرعاة عن رعيتي، فأخلّصها من قبضتكم وأمنعكم من العناية بها أبدا ولن أسمح لكم بهذه الأنانية. نعم، سأنقذ رعيتي منكم، ولن تقع فريسة لكم بعدئذ. وقال الله ربّكم: «وكما يعتني الرّاعي بقطيعه المشتّت، سأعيد إليّ رعيتي، فأعتني بها وأُنقذها في كلّ مكان تاهت فيه في يوم مظلم عصيب، وأُخرجها من بين الأمم وأجمعها من البلدان وآتي بها إلى أرضٍ ائتمنتها عليها،[2] وأرعاها على جبال بلاد بني يعقوب وأوديتها وفي كلّ مكان عامر. وفي المراعي الخصبة أرعاها، فتستريح في مرتفعات جبال بلاد بني يعقوب. وتقيم

(1) استنادا إلى كتاب النبي جزقيال 34: 1–24.
(2) انظر سورة المائدة: 21.

هناك في مكان مريح، وترعى في مراعي جبال بلاد بني يعقوب الخصبة. إنّي أنا ربّكم الرزّاق أرشد رعيتي، وأمنحها مستقرّا تستكين فيه. وأنا الرشيد سأبحث عن الضالين منها، فأَردّ التّائهين وأَجبرُ المكسورين، وأُقوّي الضعفاء الجرحى، وأبيد السمان والأقوياء، وأرعى الرعية بالقسط والعدل.

وأنتم يا رعيتي، سأحكم بين أفرادكم، بين الكباش والتيوس. أمَا كفى بعضكم أن يرعى في المراعي الخصيبة؟ فلماذا تدوسون بقية المراعي؟ أما كفاكم أن تشربوا من المياه الصافية؟ فلماذا تعكّرون بأرجلكم ما تبقّى منها؟ فيضطر غيرهم من رعيتي أن يرعى ما ديس من المراعي ويشرب ما تعكّر من المياه.

لذلك قال الله ربّكم لقادة القوم وشيوخهم: «سأحكم بين الغثّ والسمين منكم، لأنّكم دفعتم الضعاف بالجنب والكتف، ونطحتموها فتشتّتت في بلاد بعيدة. لذلك سأنقذ رعيتي ولن تتعرّض للنهب أو الانتهاك بعد الآن، وأحكم بين أفرادها، وأُقيم عليها راعيا واحدا نظيرا لعبدي داود، فيرعاها بعدل وإخلاص ويكون لها راعيا صالحا. وأنا الله أكون ربّهم ويكون الرّاعي نظير عبدي داود حاكمًا عليها. أنا الله وقد أصدرتُ حُكمي هذا أمرا مقضيّا.»[1]

(1) تنبأ النبي حزقيال في هذا السياق بمجيء سليل للنبي داود ليرعى قومه. وعندما رأى سيدنا عيسى المسيح الجماهير مقبلة عليه ليستمعوا إليه ((أشفَقَ عليهِم إذ أحَسَّ أنّهُم كغَنَم بلا راع)) [الإنجيل، مرقس 6: 34]. وبعد قليل من الزمن أضاف قائلا: ((أمّا أنا فإنّي ذاكَ الرّاعيَ الصّالحُ، الّذي يَعرِفُ أتباعَهُ وهم يَعرِفونَهُ، مِثلَما أعرِفُ اللهَ الأبَ الرَّحيمَ وهو يَعرِفُني. أنا أُضحِّي بحَياتي لأنقِذَ أتباعي. ولي أتباعٌ آخرونَ مِن غَيرِ هذا الشَّعبِ، عليّ أن أضُمَّهُم إلى رَعيَّتي أيضًا، إنّهُم سيُصغونَ إلى صَوتي كَما أصغى إليّ المؤمِنونَ بي قَبلَهُم، فتُصبِحُ الرَّعيّة رَعيّةً واحدةً ولها راعٍ واحدٌ. وأقولُ لكُم إنَّ اللهَ الأبَ الرَّحيمَ يُحِبُّني لأنّني أُضحّي بحَياتي حتّى أنالَها ثانيةً. وما مِن أحَدٍ يَنتَزِعُ حَياتي مِنّي، بل أنا أُضحّي بها بمِلْءِ إرادتي وساعةَ أشاءُ، ولقد أوصاني اللهُ أبي الصَّمَدُ بهذا، وأعطاني حَقَّ أن أُضحِّي بها وحَقَّ أن أنالَها ثانيةً)) [انظر الإنجيل، يوحنّا 10: 14–18].

وعد الله بحلول الروح

من كتاب النبي حزقيال (ذو الكفل)عليه السلام[1]

قال الله تعالى: «إنّي أجمعكم من بين الأمم وألمّ شتاتكم من كلّ البلدان وأُحضركم إلى الأرض التي ائتمنتكم عليها. وأرشُّكم بماء طهور، فتتطهّرون، وأخلّصكم من أصنامكم ومن كلّ نجاساتكم. وأُعطيكم قلوبا جديدة وأبعث فيكم روحا جديدة وأنزع منكم القلوب المتحجّرة وأُعطيكم أخرى ليّنة مطيعة. وأعطيكم من روحي وأجعلكم تقتدون بفرائضي وتحفظون أحكامي وتعملون بها. وتسكنون في الأرض الّتي ائتمنت عليها آبائكم الأوّلين، وتكونونَ أمّتي وأكون لكم ربًّا. وأخلّصكم من رجسكم وأرزقكم في حقولكم وفير الحنطة، حتّى لا تصيبكم المجاعات في قادم السنين.

إحياء العظام

من كتاب النبي حزقيال (ذو الكفل)عليه السلام[2]

قال النبي حَزقيال: «وأخذني الله بقدرته العظيمة، وبروحه حملني إلى وادٍ مُلِيَءَ عظامًا ورفاة، وبين هذه العظام الكثيرة اليابسة جعلني أمرّ وأحوم. فأوحى الله إليّ: «يا ابن آدم، هل تحيي العظام وهي رميم؟» فقلتُ: «اللهمّ يا ربي، أنت العليم.» فأوحى إليّ من جديد: «بلّغ هذه العظام بما أوحي إليك: أيُّها الجسد الرّميم اسمع ما أوحى به الله! هكذا قال الله مولاي لهذه العظام: سأنفخ فيكِ من روحي فتبعثين، وأكسوكِ عصبًا ولحمًا وأبسط عليكِ جلدا وأنفخ فيكِ من روحي، فتبعثين وتعلمين أنّي أنا الله ربّ العالمين.»[3]

وكما أمرني الله، بلّغتُ. وبينما كنتُ أبلّغ سمعتُ خشخشة، فإذا العظام تلتحم، كلّ

(1) استنادا إلى كتاب النبي جزقيال 36: 24–29.

(2) استنادا إلى كتاب النبي جزقيال 37: 1–14.

(3) قارن سورة البقرة: 259.

عظم يقارب الآخر. ورأيتُها تكتسي بالعصب واللّحم والجلد، ولكن لا وجود للروح فيها. ثمّ جاءني الوحي: «يا ابن آدم، بلّغ الرّوح بأمر من الله، بلّغها،[1] وقُل لها: هكذا قال الله مولاي: أقبلي أيّتها الرّوح من كلّ اتّجاه وانفخي في هؤلاء الموتى فيبعثون. وكما أمرني الله بلّغتُ، فبُعِثت الرّوحُ فسرت فيهم، وقاموا على أرجلهم وإذا بهم جيش عظيم.

فأوحى الله إليّ: «اعلم يا ابن آدم أنّ هذه العظام هي قوم بني يعقوب جميعا. هم يقولون: يبست عظامنا وخاب أملنا وقُطع دابرنا! لذلك بلّغهم هذا الوحي مني: قال الله مولاي: يا قوم ميثاقي سأفتح قبوركم، ومنها أبعثكم أحياء، وأحضركم إلى أرض آل يعقوب. فتعلمون حينها أنّي أنا الله ربّ العالمين. ومن روحي أنفخ فيكم فتبعثون وتستقرّون في الأرض التي ائتمنتكم عليها، فتعلمون أنّي أنا الله أصدرتُ وعدي ولا رادّ له.»

شفاء الله المنتظر

من كتاب النبي هوشع عليه السلام[2]

هلّموا نَرجع إلى الله مُنيبين، فهو بسبب ذنوبنا سمح للأعداء بتمزيقنا، ولكنّه الآن خير شافٍ لنا، وهو الذي سمح بجراحنا فيما مضى، ولكنّه الآن مضمّدٌ لها. فبعد يومين أو ثلاثة يُقيمنا أحياء، فنحيا في محضره العظيم. فهيّا نسعى وإلى ربّنا نعود ونكون له من العارفين! ألا إنّه المجيب لا ريب وسيتجلّى لنا كالفجر، ويحلّ علينا برحمته حلول المطر، وسيَروي بلادنا كغيث الربيع.

(1) قارن سورة الإسراء: 85.
(2) استنادا إلى كتاب النبي هوشع 6: 1-3.

اجعلوا العدل كسيل لا ينقطع

من كتاب النبي عاموس عليه السلام(1)

قال الله تعالى: «أبغض أعيادَكم وأرفضها، ولا أرضى بشعائركم الدينيّة. وكلّ ما تقدّمونه لي من أضاحٍ وقرابين لا أقبله، ولا أرضى بالذبائح الّتي تمنحونها باسم التقارب والمصالحة فيما بينكم. ابعدوا عنّي صخب أناشيدكم، فما أنا بسميع لها. ولكنّي أدعوكم أن تقيموا العدل وتجعلوه بينكم كفيض من المياه، وأن تتّبعوا الاستقامة دائما، فتنساب فيكم كنهرٍ لا ينقطع سيله.»

لا فرق عند الله بين بني يعقوب والأغراب

من كتاب النبي عاموس عليه السلام(2)

قال الله تعالى: «يا بني يعقوب، هل أنتم أرفع مقاما عندي من أهل كوش؟ أجل، أنا الذي أُخرجتكم من أرض مصر، ولكنّي أخرجت من قبلكم أهل فلسطيا من بلاد كفتور والآراميّين مِن بلاد قير.»

وعد الله بنهاية الحروب

من كتاب النبي ميخا عليه السلام(3)

يحكم ربّكم بين شعوب كثيرة
ويصالح بين الأمم الأشدّاء،
القريب منها والبعيد،
فلا حاجة لأسلحتهم بعد الآن،

(1) استنادا إلى كتاب النبي عاموس 5: 21-24.
(2) استنادا إلى كتاب النبي عاموس 9: 7.
(3) استنادا إلى كتاب النبي ميخا 4: 3-4.

فيحوّلون سيوفهم إلى سككٍ

ورماحهم إلى مناجل،

فلا يُرفع سيفٌ بين أمّة وأمّة

ولا مجال لاستنفار الحرب بعدئذ.

وحينها سينعم كلّ واحد منكم بالراحة فيستظلّ تحت كرمته

أو تينته ولا خوف عليه أبدا.

إنّ هذا وعدٌ من الله العزيز القدير.

الحَكَم العادل من بيت لحم

من كتاب النبي ميخا عليه السلام(1)

يا بيت لحم في بلاد أفراتة،

مع أنّكِ أصغر مدن يَهوذا وقُراها

لكنّي منكِ أقيم حَكَما على بني يعقوب

وأصله ضارب في القدم،

منذ غابر السنين.(2)

التضحية المقبولة عند الله

من كتاب النبي ميخا عليه السلام(3)

أيّها الإنسان، إنّك تضمر قائلا: «ماذا تراني أُقدّم حين أَمثل أمام الله، وحين أسجد

(1) استنادا إلى كتاب النبي ميخا 5: 2.

(2) لقد كان قادة اليهود في زمن ميلاد السيد المسيح على علم بأنّ المسيح المنتظر سيولد في قرية بيت لحم استنادا إلى هذه النبوءة على لسان النبي ميخا (انظر الإنجيل، متّى 2: 1-6).

(3) استنادا إلى كتاب النبي ميخا 6: 6-8.

في محضره تعالى؟

فهَل تراني أُقدّم له القرابين

وخير العجول الحوليّة؟

أيرضى بألوف الكباش

أم بفيض غامر من أجود الزّيوت؟

هل يرضى أن أقدّم له بكري تكفيرًا عن معصيتي،

هل يقبل حقّا فِلذة كبدي مقابل خطيئتي؟»

يا أيّها الناس، إنّ ربّكم يبلّغكم بما فيه الصلاح والرضوان

ويطلب منكم:

أن تقيموا العدل وتتحلّوا بالرّحمة

وتسلكوا سبيل ربّكم بكلّ تواضعٍ.[1]

ستمتلئ الأرض بالعارفين بالله

من كتاب النبي حبقوق عليه السلام[2]

قال الله تعالى: كما «تغمر المياه البحر، ستمتلئ الأرض بالعارفين بالله، أولئك الذين يجلّونه ويعظّمونه.»

(1) قارن سورة الفرقان: 63. انظر أيضا ما جاء في الحديث: "إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ". صحيح مسلم، 2865.

(2) استنادا إلى كتاب النبي حبقوق 2: 14.

الله بهجتي في الشدائد

من كتاب النبي حبقوق عليه السلام[1]

قال النبي حَبَقوق:

"أثمر التّين أو لم يُثمِر

أخرجتِ الكروم عنبًا أو لم تُخرج،

حملت أغصان الزّيتون أو لم تَحمِل

أعطتِ الحقول طعامًا أو لم تُعطِ،

هلك الغنم أو ظلّ سالما في المراعي

اكتظت الحظيرة بالبقر أو خلت منه

كلّ هذا سيانٌ.

رغم كلّ هذه الشدائد، فإنّ بهجتي بالله لا تنقطع

ولا يكون فرحي إلاّ بالله ربّي ونصيري.

فلا حول ولا قوّة لي إلاّ بالله ربّي

فهو الذي يجعلني كالوعل ثابت القدم

ويحفظني آمنًا في قمم الجبال.»

الله يعاقب الظالمين

من كتاب النبي زكريّا بن بركيّا عليه السلام[2]

أوحى الله إلى النبي زكريّا: «أنا العزيز القدير، أنزلت منذ القدم هذه الأوامر إلى

(1) استنادا إلى كتاب النبي حبقوق 3: 17–19.

(2) استنادا إلى كتاب النبي زكريّا 7: 8–14.

آبائكم الأوّلين: احكموا بالعدل وليُبدِ كلٌّ منكم إحسانا ورحمة لأَخيه. لا تظلموا أرملة ولا يتيما ولا غريبا ولا مسكينا، ولا يُضمر أحدكم شرّا لأخيه. لكنّ آباءَكم رفضوا الإصغاء لتعاليمي جاحدين، وألقوا بكلامي مُدبرين، وسدّوا آذانهم لئلاّ يسمعوا متعنّتين، بل جعلوا عقولهم متكلّسة لئلاّ يصغوا للتعاليم والإرشادات التي أوحى بها العزيز القدير بروحه على ألسنة أنبيائه الأوّلين، فحلّ عليهم غضب شديد من الله عزّ وجلّ.

فقال الله العزيز القدير: «أنتم لم تستجيبوا لندائي، كذلك تبدّد نداؤكم عندما ناديتموني فما كنتُ لكم سميعا ولا مجيبا، بل بدّدتُكم كزوبعة بين أمم غريبة، وبعد رحيلكم أقفرتِ الأرض، فلا عابر فيها ولا عائد إليها، وأَضحت تلك الأرض المبهجة خلاء مقفرا».

الملك يأتي مسالما وديعا

من كتاب النبي زكريّا بن بركيّا عليه السلام[1]

قال الله تعالى: «يا قدس، ابتهجي أيّتها المحروسة، أجل، اهتفوا يا أهل القدس، فهذا ملككم يأتي إليكم بالعدل، إنّه منصورٌ وديعٌ مسالمٌ يعتلي ظهر جحش.»[2]

توبة أهل القدس على من طعنوه

من كتاب النبي زكريّا بن بركيّا عليه السلام[3]

قال تعالى: «سأفيضُ بروحي على آل داود، وعلى سكّان القدس، سأغمرهم بروح

(1) استنادا إلى كتاب النبي زكريّا 9: 9.

(2) تحققت هذه النبوءة حين دخل السيد المسيح مدينة القدس على ظهر جحش (انظر الإنجيل، متّى 21: 1–5). وعندما يدخل الملك مدينة وهو يمتطي حصانا يكون ذلك دليلا على استعداده للحرب، أمّا إذا دخلها وهو يركب دابّة فهذا دليل على إعلانه للسلام. ونرى أنّ السيد المسيح عندما دخل القدس كان يركب جحشا معلنا السلام على سكّانها.

(3) استنادا إلى كتاب النبي زكريّا 12: 10.

الحنان والرحمة وحين ينظرون إلى مَن طعنوه،[1] سيندبونه كما يندب الأب ابنه الوحيد الفقيد. نعم، سينوحون عليه مناحتهم على فقدان البكر.»

قول الله في الطلاق

من كتاب النبي ملاكي عليه السلام[2]

قال النبي ملاكي: «إنّكم تتساءلون: لماذا لا يرضى الله بعباداتنا؟ فأقول لكم: لأنّ الله كان شاهدا على العهد الذي قطعته بينك وبين زوجتك التي اقترنت بها منذ شبابك وكيف كنتَ تخونها، مع أنّها شريكة حياتك وقد عاهدتَها على الوفاء والإخلاص. قل: إنّ الله هو الّذي جعلكما واحدًا باقترانكما في الجسد والروح! والله تعالى يبتغي من اقترانكما نسلا يسعون إلى مرضاته. فانتبهوا، فلا يغدر أحدكم بزوجته الّتي اقترن بها منذ شبابه. قال الله الّذي يعبده بنو يعقوب: إنّي أَمقتُ الطّلاق، وإنّ نساءكم لباسٌ لكم، ومَن يسبغ العنف على لباسه أمقتُه. قال العزيز القدير: انتبهوا جيّدا وحذاري! لا تخونوا زوجاتكم.

سيّدكم آت

من كتاب النبي ملاكي عليه السلام[3]

قال الله العزيز القدير: «ها أنا أبعثُ رسولي ليمهّد الطّريق أمامي،[4] ويأتي سيّدُكم الّذي تنتظرونه إلى بيته المقدّس فجأةً، أجل، آتٍ هو رسول الميثاق الّذي تنتظرونه بلهفة. فمَن منكم يقوى على تحمّل رهبة يوم حلوله؟ ومَن منكم يصمد أمام ظهوره

(1) جاء في الإنجيل الشريف أنّ هذه النبوءة تحققت عندما ضحّى سيدنا المسيح بحياته (انظر الإنجيل، يوحنّا 19: 37).

(2) استنادا إلى كتاب النبي ملاكي 2: 14–16.

(3) استنادا إلى كتاب النبي ملاكي 3: 1–4.

(4) قال السيد المسيح أنّ الرسول المشار إليه على لسان النبي ملاكي كان في الحقيقة النبي يحيى بن زكريا، الذي مهّد الطريق لقدوم المسيح المنتظر (انظر الإنجيل، متّى 11: 10).

العظيم؟ إنّه لقلوبكم مطهّر كما تُنقّى المعادن أو تُبيّض الملابس. ويجلس ليطهّر الناس كمَن يُمحّص الفضّة ويُنقّيها، فيُنقّي رجال الدين المنحدرين من بَني لاوي ويُصفّيهم كالذّهب والفضّة، حتّى يستطيعوا أن يقدّموا أضاحي وقرابين ترضي الله. وحينها سيرضى الله من جديد بالأضاحي والقرابين التي يقدّمها أهل يَهوذا والقدس، كما رضي بها في سالف الأيّام وفي السّنين الغابرة.»

وعد الله برجوع النبي إلياس من غيبته

من كتاب النبي ملاكي عليه السلام[1]

قال الله تعالى: «ها أنا أُرسل إليكم النّبيّ إلياس، قبل حلول يوم الله العظيم المهيب. فيعيد الألفة والمحبّة بين الآباء والبنين، لئلّا آتي بضربة للأرض ومن الأرض تُحرمون».[2]

(1) استنادا إلى كتاب النبي ملاكي 4: 5-6.

(2) أعلن الملاك جبريل لزكريا أنّه سينجب ولدا ويسمّيه يحيى استجابة لدعائه، وأضاف أنّ النبي يحيى سيمضي أمام مولاه المسيح ((بروح النبي إلياس وقوّته، ليعيد الألفة والمحبّة بين الآباء والأبناء)). ولم يذكر جبريل حكم الله على الأرض المذكور على لسان ملاكي، لأنّه بمجيء النبي يحيى تحققت نبوءة عودة النبي إلياس من الغيب التي تنبأ بها النبي ملاكي هنا، فلا حاجة إذن إلى ضرب الأرض بسبب ضلال سكّانها (انظر الإنجيل، لوقا 1: 17).

عيسى

سلامه علينا

أضواء على سيرة السيّد المسيح

مدخل إلى سيرة السيد المسيح

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: 45]

نقدم في هذا الفصل مقاطع وجيزة من سيرة حياة السيد المسيح، وقد اعتمدنا على بعض المقتطفات من كتاب «المعنى الصحيح لإنجيل المسيح»، وهو متوفر على شبكة الإنترنت: www.asraarulinjeel.com.

يعتبر سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام فريدا في مولده وفي حياته وفي رحيله عن هذه الدنيا. وهو فريد حتى قبل مولده بما أن عددا من الأنبياء القدامى تنبؤوا بمجيئه إلى هذا العالم.

مولده

ولد السيد المسيح بطريقة فريدة في الكون، وقد كتب عنه أمير الشعراء أحمد شوقي: «ولد الرفق يوم مولد عيسى». وكان ميلاده من بنت عذراء، وهو الوحيد في تاريخ البشرية الذي ولد بهذه الطريقة. ويضاهي في مولده الفريد طريقة خلق آدم الإنسان الأول، الذي خلق أيضا بطريقة فريدة. لهذا السبب كتب الحواريون عن السيد المسيح

باعتباره آدم الثاني. وبشرت الملائكة بمولده العجيب وأعلنت أنه المنقذ المنتظر.

تعاليمه

وتميز السيد المسيح بتعاليمه الفريدة، وقال عنه أعداؤه: ((لم نر أحدا تكلم بمثل ما يتكلم به هذا الرجل أبدا!)) [الإنجيل، يوحنا 7: 46]. ويعترف الناس حول العالم (ولا نستثني الملحدين منهم) أنّ سيدنا عيسى المسيح هو من أعظم معلمي الأخلاق في تاريخ البشرية.

خلافته الروحانية

إن جوهر تعاليم السيد المسيح يكمن في إعلانه تأسيس المملكة الربانية، أي الخلافة الروحانية الحقيقية التي أنزلها الله في البداية على آدم وذريته، إلّا أنها تلاشت منهم بسبب عصيانهم.

وحصل النبي داود على الخلافة من جديد، لكنه قصّر في هذه المسؤولية فانهارت مملكته. لكن الله تعالى جدّد مملكة النبي داود بمعنى حقيقي ثابت مستقيم من خلال تجلّي السيد المسيح، ألا وهو الوريث الحقيقي الخالد لخلافة النبي داود، ومملكته الجديدة ليست حكرا على بني يعقوب بل تشمل جميع الأمم والشعوب.

معجزاته

إن المعجزات التي أجراها السيد المسيح خارقة وفريدة، إذ شفى الأعمى وعالج الأبرص وأحيا الموتى ونال علم الغيب بإذن الله (انظر سورة آل عمران: 49).

تضحيته بحياته

وكان ختام حياة السيد المسيح فريدا أيضا إذ ضحّى بحياته وأقامه الله من الموت فظهر لرفاقه. وجاء على لسانه في القرآن: ﴿وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيًّا﴾ [سورة مريم: 33]. وكان سيدنا المسيح فريدا، إذ سلّم حياته للموت فدية للآخرين، وتنبأ بتضحيته بحياته ثلاث مرات قبل حدوثها (انظر مثلا

الإنجيل، لوقا 8: 44–45). وتنبّأ الأنبياء الأولون بموته أيضا (انظر مثلا كتاب الزبور، المزمور 22، وكتاب النبي أشعيا، الفصل 53).

انبعاثه ونصره

أنصف الله تعالى السيد المسيح وأظهر رضوانه عليه وعلى التضحية بحياته من خلال بعثه من الموت. وآمن اليهود في ذلك الزمن أنّ الله سيحيي عباده الصالحين عند قيام الساعة (انظر كتاب النبي دانيال 12: 2). ولكنّ الله بعث سيدنا عيسى المسيح حيا قبل يوم القيامة فهو رائد أهل القيامة. وفي قيامته نعلم علم اليقين أن البعث حق ودار الخلود حقيقة لجميع الصالحين.

نزوله في آخر الزمان

وبعد أن بُعث سيدنا عيسى حيا، صعد إلى السماء. وفي آخر الزمان سينزل من هناك إلى الأرض. ويشير القرآن إلى نزوله في هذه الآية: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 61]. يرى المفسرون أن هذه الآية تتعلق بظهور عيسى كدليل على مجيء الساعة. إنه يأتي لكي يقضي على الدجّال وليحكم حَكَما عادلا، فيملأ الأرض قسطا وعدلا بعد أن مُلئت ظلما وعنفا وفسادا. سيأتي بمملكة الله الموعودة ويقيمها في الأرض، حيث تدوم إلى أبد الآبدين.

بسم الله تبارك وتعالى

أضواء على سيرة السيّد المسيح

البشرى لمريم بميلاد السّيّد المسيح[1]

ولمّا بَلَغت أَليصاباتُ شَهرَها السّادِسَ مِنَ الحَملِ، أرسَلَ اللهُ المَلاكَ جِبريلَ إلى بَلدةِ النّاصِرة في الجَليلِ، إلى فَتاةٍ عَذراءَ اسمُها مَريمُ كانَ قِرانُها قد عُقِدَ لِرَجُلٍ مِن سُلالةِ النّبيِّ داوُدَ، اسمُهُ يوسفُ.[2] فجاءَها قائلًا: «السَّلامُ عليكِ يا مَن أنعَمَ اللهُ عليها مِن بَينِ النِّساءِ، مُبارَكةٌ أنتِ بَينَهُنّ، مَولانا مَعَكِ!»[3] فاضطَرَبت مَريمُ مِن كَلامِهِ، وتَساءَلت في نَفسِها عن مَعنى هذِهِ التَّحيّةِ، فَبَدّدَ المَلاكُ اضطِرابَها مُجيبًا: «لا تَخافي يا مَريمُ، فإنّ اللهَ تَعالى قد رَضِيَ عنكِ، وستَحملينَ بِطِفلٍ تَلدينَهُ وتُسَمّينَهُ عيسى[4]

(1) لإنجيل الشريف، عن لوقا 1: 26–38.

(2) وهو ينحدر من سلالة النبي داود الذي كان يُعتبَر من أعظم ملوك بني يعقوب. وقد تنبّأ النبي أشعيا وآخرون من الأنبياء (وذلك بعد وفاة النبي داود) بأنّ المسيحَ سيكون من سلالة النبي داود.

(3) تشير جملة ”مولانا معك“ إلى نوع من التحيّة وهي الأولى من نوعها في ذلك الزمن، وتوحي بوجود السيد المسيح مع مريم العذراء(عليها السّلام) لتأييدها ومساندتها، ممّا جعلَها تضطرب عند سماعها لهذه التحيّة. ولكنّ هذه التحيّة أصبحت فيما بعد متداولةً بين جميع المؤمنين مِن أتباع السيد المسيح.

(4) واسمه بالعبرية هو ”يشوع“ الذي معناه ”إنقاذ“ أو ”نجاة“.

ويَكونُ شأنُهُ عَظيمًا، وسيَحظى بلَقَبِ الابنِ الرُّوحيِّ للهِ العَليِّ،[1] ويُوَلّيهِ اللهُ عَرشَ سَلَفِهِ النَّبيِّ داودَ فيَكونُ مَلِكًا على بَني يَعقوبَ وتَدومُ مَملَكَتُهُ إلى الأبَدِ».

وسألَت مَريمُ(عليها السّلام) المَلاكَ جبريلَ قائلَةً: «كَيفَ أَحمِلُ بِوَلَدٍ ولم يَمسَسْني بَشَرٌ؟ وأنا عَذراءُ بَتولٍ؟!» فأجابَها جِبريلُ: «سَتَنعَمينَ بحُلولِ رُوحِ اللهِ عليكِ، وستَكونينَ مَحميةً مُظَلّلَةً بقوّةِ اللهِ ورِعايتِهِ. ولِهذا السَّبَبِ سيُدعَى مَولودُكِ المَنذورُ الابنَ الرُّوحيَّ للهِ، وما هذا على اللهِ بِعَسيرٍ، فها هي قَريبتُكِ أَليصاباتُ قد مَنّ اللهُ عليها بالذُّرّيّة وهي عَجوزٌ عاقِرٌ، وهي الآنَ في الشَّهرِ السّادسِ مِن حَملِها، فإنّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ». فقالَت مَريمُ(عليها السّلام)، مُسَلِّمةً لله: «إنّي أَمَةُ اللهِ راضيةٌ بمَشيئَتِهِ». وحينئذٍ تَرَكَها جِبريلُ ومَضى.

الميلاد الشريف للسّيّد المسيح[2]

وانقَضَت بَعدَ هذِهِ الأحداثِ فَترةٌ مِن الزَّمَنِ، قامَ فيها القَيصرُ أَغُسطُس[3] بإصدارِ مَرسومٍ لإحصاءِ سُكّانِ إمبراطوريّتِهِ،[4] وتَمَّ إجراؤهُ قَبلَ زَمَنِ وِلايةِ كِيرينيُوسَ الرُّومانيِّ على بِلادِ الشّامِ. ووُجِّهَ كُلُّ فَردٍ إلى بَلَدِ أسلافِهِ لأجلِ الإحصاءِ، وتَرَكَ يُوسفُ وهو مِن آلِ داودَ، لهذا السَّبَبِ النّاصرةَ في الجَليلِ مُتَوَجِّهًا إلى بَيتَ لَحمَ في مِنطقةِ يَهوذا، بَلدةِ النَّبيِّ داودَ(عليه السلام) مَعَ خَطيبَتِهِ مَريمَ(عليها السّلام)[5] وقد كانَت تَحمِلُ أمرَ اللهِ

(1) ستَرِد هذه العبارةُ كثيرًا وهي تقابل "ابن الله" في الترجمات العربية التاريخية، ولكنّها لا تشير مطلقًا إلى التناسل. حاشا لله! إنّما هذا لقب مجازي يشير إلى الملك المختار الذي يجب أن يكون من سلالة النبي داود. هذا ما قصده لوقا الذي سجّل الوحيَ وهذا أيضًا ما كان يفهمه السامعون من اليهود آنذاك. لمزيد من المعلومات حول هذا اللّقب، يُمكن العودة إلى فهرس المصطلحات والأسماء.

(2) الإنجيل، عن لوقا 2: 1–20.

(3) كان أغسطس امبراطور روما حين ولادة سيدنا عيسى(عليه السلام). وقد كان الرومان في زمنه يسيطرون على معظم مناطقِ حوضِ البحر المتوسط.

(4) وذلك لإجبار كل شخص ممّن شمله الإحصاء على دفع الجزية.

(5) كان من عادة اليهود في تلك الأيّام أن يُعقد قران الرجل على البنت قبل الزّفاف بوقت. وحسب الوحي الذي سجّله متّى، فإنّه عندما علم يوسف النجّار (وهو غير النبي يوسف(عليه السلام) الذي عاش بين حوالي 1700 و1500 عام قبل الميلاد) بحمل خطيبته قبل أن يدخل بها، أراد أن يطلّقها سرًا

في أحشائِها. وحانَ وَقتُ وَضعِها وهُما في بَيتَ لَحم. فوَضَعَت بِكرَها ثُمّ لَفّتهُ وأنامَتْهُ في مِعلَفٍ لأنّ غُرفةَ الضُّيوفِ ضاقَت بِهِم.[1]

وكانَ في مِنطقةِ بَيتَ لَحمَ رُعاةٌ يَبيتونَ في المَراعي لِيَحرِسوا قُطعانَهُم في اللّيلِ. وفَجأةً ظَهَرَ لهُم مَلاكٌ وغَمَرَهُم نورٌ مِن اللهِ وجَلالٌ، فارتاعوا مِن ذلِكَ، ولكنّ المَلاكَ طَمأنَهُم قائلاً: «لا تفزَعوا فإنّما جِئتُ لأُبَشِّرَكُم بهذا النّبأ العَظيمِ الّذي سيَفرَحُ بِهِ كُلُّ الشَّعبِ! اليَومَ وُلِدَ مُنقِذُكُم في بَلدةِ النَّبيِّ داودَ! وُلِدَ المَسيحُ المُنتَظَرُ مَولاكُم،[2] وسأدُلُّكُم عليهِ، إنّهُ مَولودٌ مُقَمَّطٌ مَوضوعٌ في المِعلَفِ». ثُمّ بَدَا فَجأةً مَعَ هذا المَلاكِ طائفةٌ مِن المَلائكةِ آخَرونَ يُسَبِّحونَ اللهَ رَبَّ العالَمينَ قائلين: «سُبحانَ اللهِ في عُلاهُ، وسَلامُهُ على النّاسِ في الأرضين، ورِضاهُ على مَن نالَ مِنهُ الرِّضَى».

وعادَ المَلائكةُ إلى السَّماءِ فأخَذَ الرُّعاةُ يَتَناجَونَ فيما بَينَهُم قائلينَ: «لِنَذهَبْ إلى بَيتَ لَحمَ ونَرَ هذا الحَدَثَ الّذي أنبأنا اللهُ بِهِ». وأسرَعوا إلى بَيتَ لَحمَ، فوَجَدوا مَريمَ (عليها السّلام) ويُوسفَ ومَعَهُما الطِّفلُ نائمًا في المَعلَفِ. فتَوَجَّهوا إلى النّاسِ مُخبِرينَ بنَبأ هذا

لكي لا يفضحها. لكنّ الله أرسل إليه ملاكا يأمره بأن يُبقي على مريم كزوجة له ويضمّها إلى داره ولكن دون أن يدخل بها كزوجة حتّى تلد ابنها البكر.

(1) الكلمة اليونانية التي تُترجم بـ"غرفة الضيوف" قد تترجم أيضا بكلمة "فندق" أو "نَزَل" كما في بعض ترجمات الإنجيل. مع ذلك، يفضّل علماء الإنجيل أن يترجموا الكلمة اليونانية بـ"غرفة الضيوف" في هذا السياق، لأنّها تلائم العادات والتقاليد في تلك الأيّام.

(2) «المسيح" هو لقب يعني (الممسوح بالزيت) ويعني أيضًا (المختار). فقد كان الناس في زمن بني يعقوب يسكبون الزيت على رأس الرجل الذي كان مختارًا لخدمة الله وأمّة بني يعقوب. وعلى سبيل المثال فقد يُدهن كلّ من رجال الدين الأحبار والأنبياء والملوك بالزيت. وعملية سكب الزيت على رؤوسهم كانت ترمز إلى سكب أو حلول روح الله على هؤلاء الناس لتقويّتهم لخدمة الله. وورد في التوراة كما في كتب الأنبياء بأن مَن يُدعى المسيح سيكون في الغالب الملك المختار من سلالة النبي داود. وجاء واضحًا في عدد من الأناشيد في الزبور (المزامير) حول ملك بني يعقوب أنّ المسيح باعتباره مختارا من الله "الابن الرّوحي لله" سيكون مسؤولا عن إقامة عدالة الله وسلامه على الأرض. وهذا يعني إنصاف المقهورين والمظلومين، وخاصّة الفقراء منهم. وكان وعد الله للنبي داود الملك بأن يكون الملك في سلالته دائمًا. ولكن كانت نهاية مملكة النبي داود وسلالته بعد تدمير مدينة القدس في العام 586 ق.م. غير أنّ بني يعقوب توقّعوا أن يستمرّ الله في وعده لهم بحفظ المملكة لسلالة داود من خلال تكليف المسيح بإقامة العدالة على الأرض إلى الأبد.

الطِّفلِ الّذي زَفَّهُ إليهِم المَلاكُ، فأخذَت الدَّهشةُ كُلَّ الحاضِرينَ. إلاّ أنّ مَريمَ (عليها السّلام) احتَفَظَت في نَفسِها بِكُلِّ ما مَرَّ بها وكانَت دائمًا تَستَرجِعُهُ مُتأمّلةً، وعادَ الرُّعاةُ أدراجَهُم مُرَدِّدينَ: «الحَمدُ للهِ على ما سَمِعنا ورَأينا، فقد كانَ ما أنبأنا بِهِ المَلاكُ حقًّا».

تغطيس السّيّد المسيح(1)

وبعدَ فترةٍ، بَدأت بِشارة يَحيى بن زكَريّا عليه السلام في بَراري مِنطَقةِ يَهوذا(2) فقالَ مُبَشِّرًا: «يا أيُّها النّاسُ تُوبوا إلى اللهِ، فقد آنَ أوانُ قيامِ مَملكةِ الله المَوعودةِ على الأرضِ!» والنَّبيُّ يَحيى هو الّذي تَحدَّثَ عَنهُ النَّبيُّ أشعيا في قَولِهِ: «صَوتُ مُنادٍ في البَراري يَقولُ: عليكُم أن تُهَيّئوا نُفوسَكُم لمَولاكُم، مِثلَما تُمَهَّدُ السُّبُلُ لمَقدَمِ مَلِكٍ عَظيمٍ». وكان يَحيى عليه السلام يَعيشُ حياةَ زُهدٍ وتَقَشُّفٍ إذ كانَ يَرتَدي ثَوبًا مِن وَبرِ الجِمالِ ويُحيطُ وَسَطَهُ بحِزامٍ جِلديّ. ولم يَكُن قُوتُهُ إلاّ الجَراد والعَسَل البرّي. وكانَ النّاسُ يأتونَهُ مِن القُدسِ ومِن كُلِّ أنحاءِ مِنطَقةِ يَهوذا وأرجاءِ وادي نَهرِ الأُردُنّ للإصغاءِ إليهِ، وبَعدَ اعتِرافِهِم بآثامِهِم يَقومُ بتَغطيسِهِم في مياهِ الأُردُنّ دَليلاً على تَوبتِهِم.(3) وقد رأى النَّبيُّ يَحيى عليه السلام أنّ كَثيرينَ مِن طائفةِ المُتَشَدِّدينَ ومِن الصَّدّوقيّينَ قد وَفَدوا عليهِ لغايةِ التَّطَهُّرِ، فالتَفَتَ إليهِم قائلاً: «أيُّها الماكِرونَ الخُبَثاءُ كالأفاعي، أتَظُنّونَ أنّكُم بمُجَرَّدِ تَطَهُّرِكُم بالماءِ تَفِرّونَ مِن غَضَبِ اللهِ؟ اعلَموا أنّكُم إن أرَدتُم ذلِكَ فلا بُدَّ أن تَدُلَّ أعمالُكُم الصّالِحةُ على تَوبتِكُم عن آثامِكُم تَوبةً نَصوحًا، وإيّاكُم أن تَركُنوا إلى القَولِ: «نَحنُ شَعبُ اللهِ المُختارُ وأحِبّاؤهُ، وإنّنا نَنحَدِرُ مِن سُلالةِ النَّبيِّ إبراهيمَ». فإنّ هذا لن يُفيدَكُم بشَيءٍ، لأنّ اللهَ قادِرٌ أن يَجعَلَ مِن هذِهِ الحِجارةِ ذُرّيّةً لإبراهيمَ بَدَلاً مِنكُم! واحذَروا غَضَبَ اللهِ فإنّهُ كالفأسِ الّتي تُوشِكُ أن تَهوي على جُذوعِ الأشجارِ الّتي لا تُؤتي أُكلاً طَيّبًا لتُحيلَها حَطَبًا يُلقى في النّارِ. إنّكُم وهذِهِ الأشجارَ سَواء! ولئن طَهّرتُكُم بالماءِ دَلالةً على تَوبتِكُم، فإنّ القادِمَ مِن بَعدي أرفَعُ مِنّي مَقامًا، حتّى أنّي لَستُ أهلاً لأن أكونَ

(1) الإنجيل، عن متّى 3: 1–17.

(2) كان النبي يحيى بن زكريا يسير على خطى النبي إلياس وغيره من الأنبياء الذين توجّهوا إلى البريّة طلبا للعزلة بسبب جحود شعبهم الشديد. وتقع تلك البراري بين القدس والبحر الميت. وكان النبي يحيى ينشر دعوته ويطهّر الناس بالماء على الضفّة الشرقية من نهر الأردن.

(3) عندما اعتنق الوثنيّون الديانة اليهوديّة، كان عليهم التوبة والتطهّر في الماء، وكان على الذكور منهم الختان. وهنا يقول النبي يحيى عليه السلام بأنّ هؤلاء اليهود أصبحوا كأنهم وثنيّون، وأنهم بحاجة إلى الأوبة إلى الله والرجوع إليه بصورة شاملة مرّة ثانية. وبيّن النبي يحيى بأنّ الله لا ينحاز إلى اليهود بسبب انحدارهم من سلالة النبي إبراهيم عليه السلام.

عَبدَهُ وأَحُلَّ رِباطَ نَعلَيْه. فهو الّذي سيُطَهِّرُ برُوحِ اللهِ التّائبينَ، بَينَما يُلقي الآثِمينَ في النّارِ! وهو الّذي سيَفصِلُ بَينَ النّاسِ كَما يُنَقّي الفَلاّحُ بُذورَهُ إذ يَحتَفِظُ بالصّالِحةِ مِنها في دارِ البَقاءِ ويَطرَحُ القُشورَ في نارٍ لا يَنطَفِئ أوارُها».

ثُمّ قَدِمَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام مِنَ الجَليلِ إلى ضِفافِ نَهرِ الأُردُنّ بُغيَةَ التَّطَهُّر بمياهِهِ على يَدِ النَّبيِّ يَحيى عليه السلام. ولكنّ النَّبيَّ يَحيى أحجَمَ عن ذلِكَ والتَفَتَ إلى عيسى عليه السلام قائلاً: «بل أنا الّذي يَحتاجُ إليكَ لأَتَطَهَّرَ، فكَيفَ تَطلُبُ مِنّي أن أُطَهِّرَكَ؟!» فأجابَهُ مؤكِّدًا: «بَلى افعَلْ ما جِئتُكَ مِن أجلِهِ تَحقيقًا لمَرضاةِ اللهِ». فأذعَنَ يَحيى عليه السلام لأمرِ سَيِّدِنا عيسى.[1] وما إن خَرَجَ عيسى عليه السلام مِنَ الماءِ حتّى انشَقَّت السَّماءُ، فرأى هُبوطَ رُوحِ اللهِ مِثل حَمامةٍ واستَقَرَّت عليهِ، وأقبَلَ مِنَ السَّماءِ صَوتٌ يَقولُ: «هوذا الحَبيبُ، الابنُ الرُّوحيُّ لي، وقد رَضِيتُ عَنهُ كُلَّ الرِّضى».[2]

(1) تقبّلُ الناس التطهّرَ في الماء على يد النبي يحيى كدليل على استعدادهم للإيمان بالمسيح المنتظر قدومُه من بعده. وكان يجب عليهم أن يتوبوا عن خطاياهم وذنوبهم كشرط لتطهّرهم بالماء. ورغم أنّ سيّدنا عيسى عليه السلام لم يكن له ذنوب وخطايا حتى يطلب التوبة، لكنّه تطهّر بالماء ليعلن استعداده لتولّي منصب المسيح الملك من الله تعالى.

(2) وردت عبارة ''الابن الرّوحيّ لله'' كثيرًا في هذا الكتاب. وهي تقابل في الترجمات العربية التاريخية ''ابن الله''. ولا تشير مطلقًا إلى البنوّة ذات الطبيعة البشريّة. حاشا لله! إنّما كان هذا لقبا يشير إلى الملك المختار الذي يجب أن يكون من سلالة النبي داود عليه السلام. وعندما نزلت روح الله على سيّدنا عيسى، بيّن الله أنه قد اختاره ليكون المسيح الملك على المملكة الرّبّانيّة. أمّا جلوس السّيّد المسيح على العرش فسيحدث بعد ثلاث سنوات ونصف أي عند قيامته من بين الأموات. ويشير الصوت القادم من السماء إلى كلمات الله الموجّهة إلى الملك المختار (انظر كتاب الزبور، المزمور الثاني)، كما يشير في الوقت ذاته إلى نبوءة أشعيا عن المسيح المنتظر (انظركتاب النبي أشعيا، الفصل 42). ويشير هذا اللقب إلى الصلة الحميمة بين الله والسّيّد المسيح، وعلى هذا الأساس يمنح المسيح أتباعه الحقّ ليكونوا أهل بيت الله. وإنّه كلمة الله التي ألقاها إلى مريم العذراء فأصبحت إنسانًا بقوّة روح الله. وحسب الإنجيل، فإنّ كلمة الله هي صفة قائمة في ذاته تعالى. ومن هذا المنطلق يمكننا فهم كيفية تمتّع السّيّد المسيح عليه السلام بسلطة على بيت الله كسلطة الابن البكر عند الناس.

السيّد المسيح الذّبح العظيم(1)

وفي اليومِ التّالي رأى النّبيُّ يَحيى عليه السلام سَيِّدَنا عيسى عليه السلام مُقبلاً عليهِ فقالَ لِمَن حَولَهُ: «اُنظُروا، هو ذا الذِّبحُ العَظيمُ المُرسَلُ مِن اللهِ لِيُزيلَ عن البَشَرِ ذُنوبَهُم، هو ذا مَن حَدَّثتُكم عَنهُ عِندَما قلتُ: يَجيءُ مِن بَعدِي مَن هو أرفَعُ مِنّي شأنًا، فهو المَوجودُ قَبلي،(2) وإنّني لم أكُن أعرِفُ مَن سيكونُ، ولكنَّ اللهَ أرسَلَنِي لِتَطهيرِ النّاسِ بالماءِ في انتِظارِ أن يَكشِفَ هويّتَهُ لي، حتّى أكشِفَها لِبَني يَعقوبَ».(3)

وتابَعَ النَّبيُّ يَحيى عليه السلام شَهادتَهُ قائلاً: «رأيتُ هُبوطَ رُوحِ اللهِ مِنَ السّماءِ كحَمامةٍ لتَستقِرَّ على عِيسَى عليه السلام، ولم أكُن أدري أنّ هذا الشَّخصَ هو المَسيحُ المُنقِذُ، إلاّ أنّ اللهَ الّذي أرسَلَني لِتَطهيرِ النّاسِ بالماءِ أوحَى إليّ: «عِندَما تَرى رُوحَ اللهِ تَنزِلُ على شَخصٍ وتَحِلُّ فيهِ، فاعلَم أنّهُ مَن سيُطَهِّرُ النّاسِ بِرُوحي المُقَدَّسة». وقد تَحقّقتُ مِن ذلِكَ بنَفسي، لذا أشهَدُ أنّهُ صَفيّ اللهِ».(4)

إغواءات إبليس للسّيّد المسيح(5)

وتَوَجَّهَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام إلى البَراري مُنقادًا بِرُوحِ اللهِ لِيَتَعَرَّضَ لإغواءاتِ إبليسَ. وبَعدَ أربَعينَ يومًا بلياليها قَضاها صائمًا أخَذَ الجُوعُ مِنهُ كُلَّ مأخذٍ،(6) أتاهُ إبليسُ

---

(1) الإنجيل، عن يوحنّا 1: 29–34.

(2) هناك علاقة قربى بين النبي يحيى عليه السلام وسيدنا عيسى عليه السلام. ولأن يحيى كان يكبر عيسى بستّة أشهر، وهذا كان يعني أنّه أرفع منه قدرًا في نظر الناس. إلاّ أنّ النبي يحيى يشير هنا إلى أنّ سيدنا عيسى يستحقّ أن يكون أرفع شأنًا منه لأنّه كلمة الله الأزلية الموجودة قبل ولادة النبي يحيى.

(3) تقبّل الناس التطهّر على يد النبي يحيى كدليل على استعدادهم للإيمان بالمسيح المنتظر الآتي من بعده. وعليهم أن يتوبوا عن خطاياهم وذنوبهم كشرط للتطهّر بالماء.

(4) أشارت بعض المخطوطات القديمة إلى معنى صفيّ الله، بينما أشارت نصوص أخرى إلى المصطلح الذي تُرجم تاريخيّا بمصطلح ''ابن الله''، ولكن يبدو أنّ القراءة الأصلية تشير إلى أنّه صفيّ الله.

(5) الإنجيل، عن متّى 4: 1–11.

(6) صام النبي موسى عليه السلام أيضًا أربعين يومًا بلياليها قبل تلقّيه التوراة. وكذلك بقي شعب بني يعقوب في التيه في الصحراء أربعين سنة قبل دخولهم الأرض المقدّسة. ومن المواضيع الأساسيّة عند

مُوَسوِسًا: «أنتَ الابنُ الرُّوحيُّ للهِ، قُل لهذِهِ الحِجارةَ فتَصيرَ خُبزًا تَرُدُّ بِهِ الجوعَ عنكَ». فأجابَهُ عليه السلام قائلاً: «جاءَ في التَّوراةِ: «لَيسَ بالخُبزِ وَحدَهُ يَحيا الإنسانُ، بل بطاعتِهِ لكُلِّ أمرٍ جاءَ مِن عِندِهِ تَعالى». إلاّ أنّ إبليسَ لم يَيأس، فقادَهُ إلى المَدينةِ المُقَدَّسةِ، حَيثُ وَقَفَ بِهِ على أعلى مَكانٍ في الحَرَمِ الشَّريفِ وقالَ لهُ: «أَلَستَ الابنَ الرُّوحيَّ للهِ، فألقِ بنَفسِكَ مِن هذا العُلوّ، ولا تَخَفْ، فقد جاءَ في كِتابِ الزَّبورِ أنّ اللهَ يوصِي ملائكتَهُ بكَ فيُسرِعونَ لِحَملِكَ بَينَ أيديهِم، كَي لا تَصطَدِمَ قَدَمُكَ بحَجَرٍ».[1] فأجابَهُ عيسى عليه السلام بالقَول: «لقد أمَرَنا اللهُ أيضًا في التَّوراةِ قائلاً: لا تَمتَحِنْ وَفاءَ اللهِ لوعودِهِ». ثُمّ اقتادَ إبليسُ عيسى عليه السلام إلى قِمّةِ جَبَلٍ عالٍ وأراهُ كُلَّ مَمالكِ الدُّنيا وبَهاءَها، وقالَ لهُ: «سيَكونُ ذلكَ رَهنَ يَديكَ شَرطَ أن تَركَعَ وتَسجُدَ لي».[2] فقالَ لهُ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام: «إليكَ عنّي أيُّها الشَّيطانُ، لقد جاءَ في التَّوراةِ: «اُسجُد للهِ رَبِّكَ، وكُن لهُ وَحدَهُ مِن العابِدينَ». وعِندئذٍ ابتَعَدَ عَنهُ إبليسُ وحَلَّت الملائكةُ مَحلَّهُ وقامَت على خِدمتِهِ.

السّيّد المسيح وشيخ الدّين[3]

وذاتَ يومٍ، جاءَ رَجُلٌ مِن قادةِ اليَهودِ إلى سَيِّدنا عيسى عليه السلام تَحتَ جُنحِ اللّيلِ، وقد كانَ يَنتمي إلى طائفةِ المُتشدِّدينَ، واسمُهُ نِقوديموسُ فقالَ لهُ: «أيُّها المُعلِّم، نَحنُ نَعلَمُ أنّ اللهَ أرسَلَكَ إلينا مُرشِدًا، إذ لَيسَ بمَقدورِ أحَدٍ القيامُ بتِلكَ المُعجِزاتِ الّتي تَقومُ بها إن لم يَكُن مؤيَّدًا مِن عِندِ اللهِ». فأجابَهُ قائلاً: «الحقَّ الحقَّ أقولُ لكَ، إن

الحواري متّى اعتباره السّيّد المسيح رمزا لشعب بني يعقوب ولكنّه يختلف عنهم في طاعته لله وهو الرسول الذي وعد به النبي موسى.

(1) اقتبس الشيطان ما ورد في كتاب الزبور اقتباس العارف، ولكن يبدو بوضوح في سياق هذه الآية، أن الله يرعى المؤمنين به عند شدائدهم، ولا يرعاهم بغضّ النظر عن أفعالهم كما بدا للبعض منهم.

(2) لا يملك إبليس الحقّ على ممالك الدنيا، ولكنه كان يسيطر على البشر كمغتصب لهذا الحقّ. وكان باستطاعته فقط مَنْحَ سيّدنا المسيح مركزًا رئاسيًا هو بمثابة منصب يمارس من خلاله الاضطهاد العنيف والسيطرة الحربيّة.

(3) الإنجيل، عن يوحنّا 3: 1–21.

لم يُعد خَلقُ الإنسانِ مِن جَديدٍ، فلن يَكونَ بمَقدورِهِ رؤيةُ المَملكةِ الرَّبّانيّة».[1] فقالَ نِقوديموسُ بدَهشةٍ: «وكَيفَ يولِدُ الإنسانُ مِن جَديدٍ بَعدَ أن بَلغَ مِنَ العُمرِ عِتيًّا؟ أيكونُ بمَقدورِهِ العَودةُ إلى بَطنِ أُمِّهِ ليُخلَقَ ثانيةً؟» فرَدَّ عليهِ عيسَى عليه السلام بقَولِهِ: «أقولُ لكَ الحقَّ اليَقينَ، إن لم يُخلَقِ الإنسانُ مِنَ الماءِ ومِن رُوحِ اللهِ، فلن يَكون باستِطاعتِهِ الدُّخولُ إلى مَملكتِهِ الّتي وُعِدَ بها.[2] فالإنسانُ يَملكُ طَبيعتَهُ البَشَريّةَ بالوِلادةِ مِن أُمٍّ وأبٍ، ولكن لا يَكونُ باستِطاعتِهِ تَجديدُ رُوحِهِ إلاّ بنَفحةٍ مِن رُوحِ اللهِ. ولا تَستَغرِبُنَّ قولي هذا، فعلى أرواحِكُم أن تَتجدّدَ، فكَما أنّكَ عِندَ سَماعِكَ صَوتَ الرِّياحِ لا تَدرِي مِن أيِّ جِهةٍ تَهُبُّ ولا إلى أيِّ جِهةٍ تَذهَبُ، كذلِكَ لَيسَ باستَطاعتِكَ تَفسيرُ كَيفَ خُلقَ مِن جَديدٍ هؤلاء الّذينَ سَرَتْ داخلهُم نَفَحاتٌ مِن رُوحِ اللهِ».

فقالَ نِقوديموسُ: «فكَيفَ يُمكِنُ لهذِهِ الأُمورِ أن تَحدُثَ للإنسانِ؟» فأجابَهُ عليه السلام: «أنتَ مِن بَينِ مُرشِدي بَني يَعقوبَ، فكَيفَ تَجهَلُ هذِهِ الأُمورَ؟ إنّها لكَلِمةُ حقٍّ أقولُها لكَ: إنّنا نَتكَلَّمُ بما عَلِمنا، ونَشهَدُ بما رأينا، ولكنّكُم تَرفُضونَ مِنّا البَلاغَ المُبينَ. فإن كُنتُ قد حَدَّثتُكُم في أُمورِ الدُّنيا ولم تُعيروا كَلامي اهتمامًا، فكَيفَ تُصدِّقونَني إذا ما حَدَّثتُكُم في أُمورِ السّماءِ؟! فما صَعِدَ أحَدٌ إلى السَّماءِ فيُخبِرَ عنها، ولكنّ سَيِّدَ البَشَرِ أتى مِن السَّماءِ، وهو الّذي يَستَطيعُ أن يُحَدِّثَكُم عنها.

(1) منح الله تعالى النبي داود عليه السلام ثوابا على طاعته ووعَدَه بأن يكون الحاكمُ على بني يعقوب من ذريّته دائمًا. وكانت نهاية مملكة داود عند خراب القدس في العام 586 ق.م.، إلاّ أن بعض الناس كانوا يأملون أن تستعيد سلالة داود تلك المملكة. وقد بيّن الله عزّ وجلّ للنبي دانيال عليه السلام بأنّه سيأتي يوم يتمّ فيه تأسيسُ تلك المملكة التي ستضمّ جميع البشر وتملأ الأرض. إلاّ أنّ اليهود كان لهم فهْمٌ قومي متعصّب لعبارة "مملكة الله"، لذلك وضّح السيد المسيح ضمن تعاليمه للناس أنّ اهتمام الله يشمل جميع البشر على الأرض، ولا ينحاز إلى قوم بعينه.

(2) كان على الوثنيين المقبلين على الدين اليهودي التطهّر بالماء حتى يتركوا رجس الوثنية. ويعتبر المتطهِّر منهم كأنّه خُلق من جديد. وأكد سيدنا عيسى عليه السلام هنا، ما قاله النبي يحيى عليه السلام بشأن هؤلاء اليهود أن يتوبوا توبة نصوحًا ويعملوا الصالحات، وألاّ يظنوا أنّهم صالحون لمجرّد كونهم من ذريّة النبي إبراهيم عليه السلام، ولا يتوهّموا أنّ التوبة لا تجب عليهم حتّى يكونوا من أمّة الله. من هنا، يمكن القول إنّ ما قصد إليه سيدنا عيسى عليه السلام هو الولادة الروحية عن طريق التوبة، لا الولادة الجسدية.

فكما رَفعَ النّبيُّ موسى الحيّةَ في الصَّحراءِ على خَشَبةٍ،(1) كذلِكَ لا بُدَّ أن يُرفَعَ سَيِّدُ البَشَرِ على خَشَبةٍ، حتّى يَنالَ كُلُّ مَن يؤمِنُ بِهِ نَصيبَهُ في جَنّة الخُلدِ. لقد أحَبَّ اللهُ كُلَّ البَشَر حتّى إنّهُ ضَحّى بالابنِ الرُّوحيِّ الفَريدِ لهُ تعالى فِداءً لهُم، فلا خَوفَ على المؤمنينَ بِهِ مِن الهَلاكِ، لأنّ مَصيرَهُم دارُ الخُلدِ. ولم يُرسِل اللهُ الابنَ الرُّوحيَّ لهُ تَعالى إلى النّاسِ إلاّ مُنقِذًا ولم يُرسِلهُ رَقيبًا مُعاقِبًا، فمَن يؤمِنُ بِهِ لهُ النّجاةُ مِن عِقابِ اللهِ، أمّا مَن يَجحَدُ بِهِ فقد قَضى أمرُ الله بعِقابِهِ، لأنّهُ رَفَضَ الابنَ الرُّوحيَّ الفَريدَ لهُ تَعالى.

وهذا هو حُكمُ اللهِ: أشرَقَ نورُ اللهِ على الدُّنيا، إلاّ أنّ أهلَ الدُّنيا مَيّالونَ إلى الشَّيطانِ بأعمالِهِم، ومُعرِضونَ عن نورِ اللهِ. إنّهُم يَكرَهُونَ النُّورَ ويَكرَهونَ الخُروجَ مِن الظَّلام إليهِ، وذلِكَ لأنّ أعمالَهُم آثمةٌ وهُم يَخشَونَ أن يَكشِفَها النّورُ فيَحُلّ عليهِم غَضَبٌ مِن اللهِ. وأمّا مَن يَسلُكُ سُبُلَ الحقِّ، فإنّهُ يَنجذِبُ إلى النّورِ تِلقائيًا، ويَعلَمُ الجَميعُ أنّهُ إنّما يَعيشُ بطاعةِ اللهِ».

السّيّد المسيح والمرأة السّامريّة(2)

وسَمِعَت طائفةُ المُتَشَدِّدينَ بأنّ سَيِّدَنا عيسى عليه السلام يَجذِبُ إليهِ عَدَدًا أكبَرَ مِن أتباعِ يَحيى ويُطَهِّرُهُم بالماءِ، رَغمَ أنّ أصحابَ عيسى عليه السلام هُم مَن كانوا يَقومونَ بالتَّطهيرِ نيابةً عَنهُ. فعَلِمَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام بأنّ المُتَشَدِّدينَ اكتَشفوا ذلِكَ، وغادَرَ مِنطَقةَ يَهوذا صُحبةَ أتباعِهِ راجِعًا إلى الجَليلِ، مارًّا في طَريقِ عَودتِهِ بِمِنطَقةِ السّامِرةِ، إلى أن تَوَقَّفَ في بَلدةٍ سامِريّةٍ تُدعى سُوكار. وتَقَعُ هذِهِ البَلدةُ بالقُربِ مِن قِطعةِ الأرضِ الّتي فيها بِئرِ النَّبيِّ يَعقوبَ عليه السلام، والّتي وَهَبَها لابنِهِ يوسفَ عليه السلام. وإذ كانَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام قد أنهَكَهُ السَّفرُ، جَلَسَ وَحدَهُ عِندَ تِلكَ البِئرِ بَعدَ أن ذَهَبَ أتباعُهُ لابتياعِ الطّعامِ، وكانَ الوقتُ مُنتَصَفَ

(1) بعد أن أظهر اليهود تذمّرهم مِنَ النبي موسى عليه السلام وربّه في صحراء سيناء، أرسل الله عليهم أفاعي سامّةً عقابًا لهم على جحودهم. فذهبوا إلى موسى عليه السلام يطلبون منه التخلّص من الأفاعي، وبعد طلب المغفرة من الله، أوحى الله إليه أن يصنع حيّة من نحاس، ثم يرفعها على خشبة. فيأتي كُلُّ مَنْ لدغته أفعًى، فيشْخص ببصره إلى حيّة النحاس، فيَشْفَى.

(2) الإنجيل، عن يوحنّا 4: 1–42.

النّهارِ. حِينئذٍ وَرَدَتْ على البِئرِ امرأةٌ سامِريّةٌ مِن أجلِ الماءِ، فطَلَبَ مِنها سِقايتَهُ، فأخَذَتِ المَرأةَ الدَّهشةُ لأنّ مِن شأنِ اليَهودِ أن يَتَحاشَوا أدواتِ طَعامِ السّامريّين وشَرابِهِم، ولذلِكَ أجابَتْهُ: «كيفَ تَطلُبُ مِنّي ذلِكَ وأنتَ اليَهوديُّ وأنا السّامريةُ؟!» فأجابَها: «لو أنّكِ عَلِمتِ بما مَنَّ بِهِ اللهُ عليكِ، وعَرِفتِ الّذي يَطلُبُ مِنكِ شُربةَ الماءِ، لطَلَبتِ مِنهُ أنتِ فأعطاكِ ماءً طَهورًا يَبعَثُ فيكِ الخُلدَ». فقالَت لهُ المَرأةُ: «ولكنّكَ يا سَيّدي لا تَملِكُ دَلوًا والبِئرُ عَميقةٌ فأنّى لكَ أن تأتيَني بذاكَ الماءِ؟ لقد وَهَبَ لنا جِدُّنا النّبيُّ يَعقوبُ هذِهِ البِئرَ، وقد شَرِبَ مِنها هو وأولادُهُ وغَنَمُهُ، فهل تَزعُمُ أنّكَ أعظَمُ مِنهُ وأقدرُ؟ كَيفَ لكَ أن تَعطيَنا ماءً أجودَ مِن الماءِ الّذي وَهَبَهُ لنا؟» فأجابَها سَيّدُنا عيسى عليه السلام: «كُلُّ مَن يَشرَبُ مِن ماءِ هذِهِ البِئرِ يَعطَشُ ثانيةً، وأمّا مَن يَشرَبُ مِن الماءِ الّذي أمنَحُهُ، فلا يَعطَشُ أبدًا، بل يَظَلُّ هذا الماءُ مُتَدفِّقًا في داخلِهِ يَبعَثُ فيهِ الخُلودَ». فقالَت لهُ المَرأةُ: «فأَعطِني يا سَيّدي مِن هذا الماءِ، فلا أعطَشَ أبدًا ولا أحتاجَ لوُرُودِ هذِهِ البِئرِ ثانيةً». فأجابَها عليه السلام: «اذهبي وعودي رِفقةَ زَوجِكِ». فقالَت: «لَيسَ لي زَوجٌ». فقالَ لها: «أنتِ مُحقّةٌ، لَيسَ لكِ زَوجٌ الآن، وقد كُنتِ على عِصمةِ خَمسةِ أزواجٍ على التّوالي، والّذي تَعيشينَ مَعَهُ الآن لَيسَ زوجَكِ، وقد صَدَقتِني القَولَ في ذلِكَ». فأجابَتهُ المَرأةُ: «يا سَيّدي، إنّكَ نَبيٌّ بلا شَكٍّ! لقد عَبَدَ آباؤنا الأوّلونَ اللهَ هُنا في هذا الجَبَلِ، جَبَل جِرزيم، أمّا أنتُم مَعشرَ اليَهود فعلامَ تدّعُونَ أنّ المَكانَ الوحيدَ الّذي تُقبَلُ فيهِ العِبادةُ هو القُدس؟» فقالَ لها عليه السلام: «تيَقّني يا سَيّدَتي مِمّا سأقولُ لكِ، سيأتي وَقتٌ لا فَرقَ فيهِ بَينَ أن تكونَ عِبادةُ اللهِ الأبِ الصَّمَدِ في القُدسِ أو على هذا الجَبَلِ أو في أيِّ مَكانٍ آخَرَ! وقد حانَ هذا الوَقتُ الّذي سيَعبُدُ فيهِ النّاسُ اللهَ ويُمجّدونَهُ في كُلِّ مَكان، وهؤلاء هُمُ الّذينَ اصطَفاهُمُ اللهُ الأبُ الرّحمنُ مِن بَينِ عِبادِهِ، وهُمُ الّذينَ يَتَقرّبونَ إليهِ تَعالى مُنقادينَ بروحِهِ وحقِّهِ. ألاَ إنّ اللهَ يَسَعُ السَّماواتِ والأرضَ وعِبادتُهُ الحقُّ لا تَقتَصِرُ على مَكانٍ. أنتُم أهلَ السّامرة لا تَعرِفونَ اللهَ الّذي تَعبُدونَهُ حقَّ مَعرفتِهِ، أمّا نَحنُ بَني يَعقوبَ فنَعرِفُهُ، ومِنّا يَخرُجُ المُنقِذُ المُنتَظَرُ». وهُنا قالَت المَرأةُ: «أعلَمُ أنّ المَسيحَ آتٍ، وهو مَن سيُبَيّنُ لنا كُلَّ شيءٍ». فأجابَها: «ألا إنّي أنا المَسيحُ هذا الّذي يُكَلِّمُكِ». ووَصَلَ الحَواريّونَ فتَعَجّبوا مِن حَديثِهِ مَعَ امرأةٍ غَريبةٍ. ورَغمَ ذلِكَ، لم

يَسألهُ أحَدٌ عن ذلِكَ. وهُنا قامَت المَرأةُ تاركةً جَرّةَ الماءِ، مُنطلِقةً إلى بَلدتِها تُحَدِّثُ النّاسَ قائلةً: «هَلُمّوا إليّ لتَروا رَجُلاً حَدَّثَني بكُلِّ ما جَرى لي مِن أُمور! أتُراهُ المَسيحُ المُنتَظَر؟!» وانطلقَ كُلُّ مَن سَمِعَ قولَها، متوَجِّهًا إلى عيسى عليه السلام.

وأثناءَ ذلِكَ، كانَ الحَواريّونَ يُلِحُّونَ على سَيِّدِنا عيسى عليه السلام أن يَتَناوَلَ طَعامًا، ولكنّهُ أجابَهُم: «إنّ لي طَعامًا خاصًّا أقتاتُهُ لا تَعلَمونَهُ». فأخَذَ الحَواريُّونَ يَتَساءلونَ: «هل جاءَهُ أحَدٌ بطَعامٍ؟» فتابَعَ عليه السلام يَقولُ: «إنّما طَعامي أن أعمَلَ ما يُرضي اللهَ وأُتمِّمَ ما أرسَلَني مِن أجلِهِ. ألا تَتَداوَلونَ فيما بَينَكُم المَثَلَ القائل: «بَعدَ أربَعة أشهُرٍ يَحينُ الحَصادُ»؟ ولكنّني أقولُ لكُم: قد آنَ وَقتُ الحَصادِ! فافتَحُوا أعيُنَكُم وأبصِروا. هؤلاء السّامريُّونَ المُقبلونَ علينا، مُتَهَيِّئونَ للإيمانِ بي في يَومٍ واحدٍ![1] فكما يَجمَعُ الحَصّادُ مَحصولَهُ، كذا أنتُم تَجمَعونَ النّاسَ وتُرشِدونَهُم بتَعاليمي الّتي تؤدِّي بِهِم إلى جِنانِ الخُلد. والعامِلُ يَحصُلُ على أجرِهِ مُقابِلَ عَمَلِهِ في الحَصادِ، وكذلِكَ أنتُم، سيَمنَحُكُم اللهُ أجرًا مُقابِلَ جهدِكُم في نَشْرِ هذِهِ الدَّعوةِ. يومئذٍ يَفرَحُ الزّارِعُ والحَصّادُ معًا. ويَصدُقُ المَثَلُ القائلُ: «النّاسُ صِنْفانِ زارِعٌ وحَصّادٌ». وها أنا أُرسِلُكُم لحَصادِ ما لم تَتعَبوا في زَرعِهِ، بل تَعِبَ فيهِ غَيرُكُم، فأنتُم المُنتَفِعونَ بِثِمارِ جَهدِهِم».

وأقبَلَ على سَيِّدِنا عيسى عليه السلام، مِن تِلكَ البَلدةِ، عَدَدٌ كَبيرٌ مِنَ السّامريّينَ وآمَنوا بِهِ بَعدَ أن سَمِعوا ما أَخبَرَت بِهِ تِلكَ المَرأةُ عَنهُ عِندَما كَشَفَ لها ما أخفَتْهُ عن النّاسِ. ودَعَوهُ أن يُقيمَ عِندَهُم، فاستَجابَ لطَلَبِهِم وأقامَ بَينَهم يومَيْنِ، يَشرَحُ لهُم رِسالتَهُ، فازدادَ عَدَدُ المؤمنينَ بِهِ. فقالوا للمَرأةِ: «لم نؤمن بِهِ لأنّكِ أخبَرتِ عَنهُ فحَسب، ولكنّنا آمنّا بِهِ لأنّنا سَمِعناهُ. وعَرَفنا أنّهُ ولا رَيبَ مُنقِذُ البَشَرِ أجمَعينَ».

---

(1) يبدو أنّ الناس في ذلك الزمن كان يضربون هذا المثل للإشارة إلى ضرورة تأجيل النظر في بعض المسائل، ولكنّ السيد المسيح يُقِرّ أنّ الأوان قد حان للإيمان به دون مماطلة. ومن الممكن أن عليه السلام قد تحدّث بشكل مجازي عن الحصاد، مشيرًا إلى السامريين الذين كانوا يرتدون لباسهم الأبيض الشبيه بلون حصاد القمح.

السّيّد المسيح والقعيد[1]

ومَضى سَيِّدُنا عيسى عليه السلام يُبَلِّغُ تَعاليمَهُ في بَيتٍ مِن البُيوتِ، بحُضورِ جَماعةٍ مِن المُتَشَدِّدينَ[2] ومِن عُلَماءِ التَّوراةِ الّذينَ قَدِموا مِن كُلِّ قُرى الجَليلِ ومِن مِنطقةِ يَهوذا والقُدسِ الشَّريفِ، يَنظُرونَ في هذا الّذي لَدَيهِ قوةٌ مِن اللهِ لِشفاءِ المَرضى. في تِلكَ الأثناءِ قَدِمَ إليهِ نَفَرٌ يَحمِلونَ فِراشًا، عليهِ مَريضُهُم القَعيدُ، فحاوَلوا الاقتِرابَ مِن عيسى عليه السلام والدُّخولَ إلى البَيتِ الّذي هو فيهِ، فتَعَذَّرَ عليهِم ذلِكَ بسَبَبِ الحُشودِ الغَفيرةِ المُجتَمِعةِ هُناكَ، فما كانَ مِنهُم إلاّ أن صَعِدوا إلى سَطحِ البَيتِ فأحدَثوا فيهِ ثُغرةً ودَلّوا مِن خِلالِها مَريضَهُم على فِراشِهِ لِيُصبِحَ أمامَ سَيِّدِنا عيسى عليه السلام. فعِندَما رأى عليه السلام قوّةَ إيمانِهِم بِهِ، خاطَبَ القَعيدَ قائلاً: «أيُّها الرَّجُلُ، مَغفورةٌ لكَ ذُنوبُكَ وخَطاياكَ!» وأثارَ ذلِكَ استِنكارَ عُلَماءِ التَّوراةِ والمُتَشَدِّدينَ الحاضِرينَ، فأخذوا يُسِرّونَ في أنفُسِهِم قائلينَ: «ها هوذا يَنطِقُ كُفرًا، فمَن غَيرُ اللهِ يَغفِرُ الذُّنوبَ والخَطايا؟» وعَلِمَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام سَرائرَهُم، فقالَ لهُم: «تُسِرّونَ في أنفُسِكُم ما لا تُعلِنونَ؟ أنتُم تَظُنّونَ أنّهُ مِن المُستَحيلِ عليَّ مَغفِرةُ الذُّنوبِ، كما تَظُنّونَ أنّ شِفاءَ المُقعَدِ مُستَحيلٌ. ها أني سأُقَدِّمُ لكُم بُرهانًا يَجعَلُكُم تُوقِنونَ بأنّ سَيِّدَ البَشَرِ[3] هو الّذي وَكَّلَهُ اللهُ على الأرضِ لِيَغفِرَ الذُّنوبَ». فما كانَ مِنهُ إلاّ أن تَوَجَّهَ إلى القَعيدِ بقَولِهِ: «أيُّها الرَّجُلُ، قُم واحمِل فِراشَكَ وامضِ إلى بَيتِكَ ماشيًا على قَدَمَيكَ». فقامَ القَعيدُ بسُرعةٍ مِن بَينَ الجُموعِ، كَما أمَرَهُ

---

(1) الإنجيل، عن لوقا 5: 17–26.

(2) المتشدّدون هم جماعة من اليهود، ويعني هذا الاسم في اللغة العبرية "المنفصلون". وكانت هذه الجماعة ترغب في تجديد الدين اليهودي وحمايته من خلال جعل جميع أفراد الشعب اليهودي وعلى نحو صارم يتّبعون شرائع السبت، والصيام، والتطهّر من الطعام النجس. وكانت هذه الجماعة تعلّم أحكام التوراة بما في ذلك العادات والتقاليد التي لم يرد ذكرها في التوراة.

(3) كان سيّدنا عيسى يفضّل إطلاق لقب "سيّد البشر" على نفسه، ويعني حرفيا في اللغة اليونانية "ابن الإنسان". وفي هذا إشارة إلى النبوءة التي أشار إليها النبي دانيال في قوله: "ونظرتُ في الرؤيا في اللّيل فرأيتُ شخصًا يُشبه ابن إنسان قادمًا في ظُلَلٍ مِنَ الغَمَام وأقبل إلى الله صاحب الأزل فأعطاه سلطة وجلالاً وقوّة ملكية، ليطيعه كلّ الناس من مختلف الشعوب والأمم واللغات. سلطانه سلطان أبديّ لا يزول، ومملكته لا تَفنَى" وهذه النبوءة عن "ابن الإنسان" إشارة إلى المنقذ الذي يختاره الله ليحكم الناس في جميع أنحاء الأرض.

، حامِلاً فِراشَهُ ماضيًا على قَدَمَيهِ إلى بَيتِهِ ولِسانُهُ يَلهَجُ بالتَّسبيحِ للهِ وبحَمدِهِ، مِمّا أثارَ ذُهولَ الحاضِرينَ الّذينَ امتلأت نُفوسُهُم بالخُشوعِ للهِ فقالوا مُتَمتِمينَ: «إنّ ما رأيناهُ بأعيُنِنا اليومَ عَجيبٌ!!»

السّيّد المسيح والعاصفة[1]

وعِندَ المَساءِ، طَلَبَ سَيِّدُنا عِيسَى مِن حَوارِيِّيهِ العُبورَ إلى الضِّفةِ الأُخرى مِن بُحَيرة طَبَرِيّا، وجَلَسَ هُناكَ في القارِبِ بَعدَ أن تَرَكَ الحُشودَ على الشّاطِئِ، وسارَ بِهِ القارِبُ وتَبِعَتْهُ قَوارِبُ أُخرى. وفَجأةً هَبَّت عاصِفةٌ شَديدةٌ وأخَذَتِ الأمواجُ تَضرِبُ القارِبَ حَتّى كادَ يَمتَلِئُ ماءً. إلاّ أنّ عِيسَى عليه السلام استَمَرَّ في نَومِهِ ورَأسُهُ على وِسادةٍ حَتّى أيقَظَهُ حَوارِيّوهُ بفَزَعٍ قائِلينَ: «يا فَضيلَةَ المُعَلِّمِ، أما يَهُمُّكَ أنّنا نَكادُ نَهلِكُ؟!» فما كانَ مِنهُ إلاّ أن نَهَضَ، وأَمَرَ الرِّياحَ والأمواجَ قائِلاً: «اِهدَئي أيَّتُها الرِّياحُ واُسكُني أيَّتُها الأمواجُ!» فَكَفَّت الرِّياحُ وسَكَنَتِ الأمواجُ وهَدأتِ العاصِفةُ وسادَ الجَوَّ سُكونٌ عَميقٌ. ثُمّ تَوَجَّهَ إلى أتباعِهِ قائِلاً: «ما لكُم خائفونَ؟ ألَم تُؤمِنوا بي بَعدُ؟»

ولكِنَّهُم كانوا ذاهِلينَ، وأَسَرَّ بَعضُهُم إلى بَعضٍ قائِلينَ: «ما سِرُّ هذا الإنسانِ الّذي يَأمُرُ الرِّياحَ فتُطِيعُهُ، ومِياهَ البُحَيرةِ فَتُجيبُهُ؟!»

السّيّد المسيح وطرد الجنّ من رجل ممسوس[2]

ولمّا وَصَلَ سَيِّدُنا عِيسى وأتباعُهُ إلى الشّاطِئِ المُقابِلِ لِبُحيرةِ طَبَرِيّا، نَزَلوا في مِنطقةٍ يَسكُنُها الوَثَنيّونَ تُسمّى الجِراسيّينَ. وعِندَ نُزولِهِ عليه السلام مِنَ القارِبِ فَجأةً دَنا مِنهُ رَجُلٌ خارِجٌ مِن مِنطقةِ المَقابِرِ، غَريبُ الأطوارِ تَسكُنُهُ الجانّ، خَطيرةٌ أعمالُهُ، يُقَيِّدُهُ النّاسُ، فيَكسِرُ أعتى القُيودِ والسَّلاسِلِ، ولا أحَدَ يَقوى على لَجمِهِ، كانَتِ القُبورُ لهُ مَسكنًا يَترَدَّدُ بَينَها وبَينَ الجِبالِ ليلَ نَهارَ، ويَهيمُ صائِحًا مُدَوِّيًا، مُجَرِّحًا جَسدَهُ بالحِجارةِ. فلمّا شاهَدَ سَيِّدَنا عِيسى عليه السلام عَن بُعدٍ، أسرَعَ إليهِ، غَيرَ أنّ السَّيِّدَ المَسيحَ تَوَجَّهَ إليهِ وخاطَبَ

(1) الإنجيل، عن مَرقُس 4: 35–41.
(2) الإنجيل، عن مَرقُس 5: 1–20.

الجِنَّ الّذي يَسكُنُهُ قائلاً: «اُترُكْ أَيُّها الجِنيُّ جَسَدَ هذا الرَّجُلِ!» فما كانَ مِنَ الجِنيِّ السّاكِنِ الرَّجُلَ إلاّ أنِ انحَنى بَينَ يَدَيهِ صائِحًا بأعلى صَوتِهِ، على لِسانِ الرَّجُلِ، قائلاً: «يا عِيسَى، أيُّها الابنُ الرُّوحيُّ للهِ العَليّ، دَعني وشأني! أستَحلفُكَ باللهِ ألاّ تُعَذّبَني!» فسألَهُ سَيِّدُنا عِيسَى: «ما اسمُكَ؟» فأجابَ: «اسمي كَتيبةٌ، لأنّنا كَثيرونَ. فأرادَ سَيِّدُنا عِيسَى أَن يأمُرَهُ والباقينَ بِمُغادَرةِ الرَّجُلِ. إلاّ أنّ الجِنَّ تَوسَّلوا إليهِ أن يَترُكَهُم في تِلكَ المِنطقةِ وألاّ يَطرُدَهُم مِنها، مُفَضّلينَ الحُلولَ في الخَنازيرِ الّتي تَرعى على مُنحدَرِ الجَبَلِ هُناكَ، فأذِنَ سَيِّدُنا عِيسَى لهُم بذلِكَ. وهكذا حَلَّتِ الجِنُّ في الخَنازيرِ الّتي ناهَزَتْ الألفينِ عَدَدًا. بَيدَ أنّ تِلكَ الخَنازيرَ تَدافَعت تَدافُعًا أسقطَها مِن أعلى المُنحَدَرِ إلى وَسَطِ البُحَيرةِ حَيثُ غَرِقَتْ. وشَهِدَ الرُّعاةُ الّذينَ كانوا هُناكَ الحادِثةَ، فنَشَروا الخَبَرَ بَينَ النّاسِ في القَريةِ والأريافِ المُجاوِرةِ فأقبَلَ النّاسُ مِن أنحاءِ تِلكَ المِنطقةِ ليَرَوا بأعيُنِهم ما جَرى ويتحَقَّقوا مِنَ الحادِثِ، فرأوا الرَّجُلَ الّذي كانَتِ الجِنُّ تَسكُنُهُ، جالِسًا بِهُدوءٍ مُعافىً لابِسًا ثِيابَهُ سَليمَ العَقلِ. فاستبَدَّ بِهِمُ الخَوفُ، بَعدَ أن عَرَفوا مِن شُهودِ عِيانٍ ما قامَ بِهِ سَيِّدُنا عِيسَى عليه السلام بِخُصوصِ الرَّجُلِ والخَنازيرِ.

فأخَذَ الجُمهورُ يَتوسَّلُ إليهِ لِيَرحَلَ عَن دِيارِهِم، فاستَجابَ لَهُم،[1] وبَينَما هو في قارِبِهِ لَحِقَ بِهِ الرَّجُلُ الّذي كانَت تَسكُنُهُ الجانُّ وطَلَبَ مِنهُ الرَّحيلَ مَعَهُ، ولكنّ سَيِّدَنا عِيسى أمَرَهُ بالبَقاءِ قائلاً: «اِذهَبْ إلى بَيتِكَ وأهلِكَ وابقَ مَعَهُم، وأخبِرْهُم بكُلِّ ما عَمِلَهُ اللهُ لكَ وبرَحمتِهِ عليكَ». فانطَلَقَ الرَّجلُ، يَطوفُ بَينَ أنحاءِ المُدُنِ العَشرِ[2] مُعلِنًا ما صَنَعَهُ لَهُ سَيِّدُنا عِيسَى عليه السلام، فكانَ ذلِكَ مَثارَ تَعَجُّبِ النّاسِ ودَهشَتِهِم.

السّيّد المسيح يُحيي ميتا[3]

وكانَ في قَريةِ بَيتِ عَنْيا رَجُلٌ مَريضٌ هو لَعازَرُ شَقيقُ مَرْثا ومَريمَ، وهي المَرأةُ

(1) وذلك لِما جال في خاطر هؤلاء الوثنيين بأنّه إنّما استطاع طرد الجان بقوّة السحر.
(2) كانت المدن العشر مجموعة مدن إغريقية تتبّع الديانة الوثنية (ومن بينها دمشق وعمّان) وتقع في منطقة الضفة الشرقية من الأردن وتحديدا في ناحية بلاد الشام.
(3) الإنجيل الشريف، عن يوحنّا 11: 1-44.

الّتي ستسكُبُ فيما بَعدُ العِطرَ على قَدَمَي عيسى عليه السلام وتَمسحُهُما بشَعرِها. فأرسَلَت الشَّقيقتانِ إلى سَيِّدِنا عيسى تَقولانِ: «يا سَيِّدَنا، إنّ مَن تُحِبُّ مَريضٌ». ولمّا بَلَغَهُ عليه السلام استِنجادُهُما قالَ: «لن يُؤدّي مَرَضُ لَعازَر إلى موتِهِ فحَسبُ، وإنّما سيكونُ لرَفعِ ذِكرِ اللهِ أيضًا، إذ بِهِ يُرفَعُ ذِكرُ الابنِ الرُّوحيِّ للهِ». ورغمَ أنّهُ عليه السلام كانَ يُحِبُّ أفرادَ هذِهِ العائلةِ فإنّهُ لم يَهرع إليها عِندَ سَماعِهِ بمَرَضِ لَعازَر بل مَكَثَ يومَيْنِ قَبلَ أن يَقولَ لأتباعِهِ: «آنَ أوانُ العَودةِ إلى يَهوذا». فاعترَضَ أتباعُهُ على ذلِكَ قائلينَ: «أيا سَيِّدَنا، كَيفَ تَرجِعُ إلى يَهوذا، وقد حاوَلَ قادتُها رَجمَكَ؟!» فقالَ لهُم عليه السلام: «ومِثلَما جعَلَ اللهُ للنّهارِ اثنتَي عَشرَةَ ساعةً، وكُلُّ مَن يَسيرُ فيها لا يَعثرُ لأنّهُ يَمشي في ضَوئِهِ، كذلِكَ حَدَّدَ لي وَقتًا لأقومَ فيهِ بأعمالي. ومَن لا يَسيرُ في نورِ اللهِ فسيَعثُرُ كأنّهُ تائهٌ في عَتمَةِ اللّيلِ». ثُمّ أخبرَهُم: «نامَ لَعازَرُ حَبيبُنا، وأنا ذاهِبٌ إليهِ لأوقِظَهُ». فأجابَهُ أتباعُهُ: «يا سَيِّدَنا، إن كانَ قد نامَ، فعَمّا قَريبٍ سيَتِمُّ لهُ الشِّفاءُ». ولقد أشارَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام بالنَّومِ إلى المَوتِ، ولكنّ أتباعَهُ لم يَفطِنوا إلى إشارتِهِ. فقالَ مُوَضِّحًا مَقصَدَهُ: «لقد ماتَ لَعازَرُ، وإنّي لَمَسرُورٌ إذ لم أكُن هُناكَ، لأنَّ هذا سيَمنَحُكُم فُرصةً أُخرَى حتّى يَرسُخَ إيمانُكم بي. فلنَذهَبْ إليهِ». فقالَ توما الّذي لُقِّبَ بالتوأمِ لباقي زُملائِهِ: «لنُرافِقْهُ، حتّى إذا قتَلَهُ أهلُ يَهوذا، نَموتُ نحنُ أيضًا مَعَهُ».(1)

وعِندَ وُصُولِهِ عليه السلام، عَلِمَ أنّ لَعازَرَ قد دُفِنَ مُنذُ أربعَةِ أيّام. وكانَت قَريةُ بَيتِ عَنيا تَبعُدُ تَقريبًا مَسافةَ ميلَينِ عَنِ القُدس، وقد وَجدَ عليه السلام عَدَدًا كَبيرًا مِنَ النّاسِ جاؤوا لتَقديمِ التَّعازي للشَّقيقَتَينِ عن أخيهِما لَعازَرَ، وعِندَما عَلِمَت مَرثا بقُدُومِهِ عليه السلام، أسرَعَتْ لِلقائِهِ، في حينِ مَكَثَت مَريمُ في الدّارِ. وقالَت مَرثا لسَيِّدِنا عيسى عليه السلام: «سَيِّدي، لو كُنتَ مَعَنا لَظَلَّ أخي على قَيدِ الحياةِ، ولكنّني رَغمَ موتِهِ، على ثِقةٍ، بأنّ اللهَ يُعطيكَ كُلَّ ما تَطلُبُهُ!» فأجابَها مؤكّدًا: «سيَقومُ أخوكِ حَيًّا». فقالَت لهُ مَرثا: «نعم، يا مَولاي، عِندَما يُبعَثُ كُلُّ المَوتى في اليومِ الآخِرِ!» فقالَ لها: «أنا القِيامةُ والحَياةُ، مَن آمَنَ بي ولو ماتَ فستَكونُ لهُ حَياةُ الخُلودِ، وكُلُّ مَن يَحيا مؤمنًا بي سيَعيشُ خالدًا عِندَ رَبِّهِ. فهل

(1) يشير توما هنا إلى الذين كانوا يرغبون في رجم سيّدنا عيسى عليه السلام في منطقة يهوذا سيسعون إلى نفس الهدف عند عودته إلى هناك.

تُؤمنينَ؟!» فقالَت لهُ: «أجل يا مَولاي، ما زِلتُ على عَهدي مُؤمِنَةً بأنّكَ أنتَ المَسيحُ الابنُ الرُّوحيُّ للهِ، الّذي كُنّا نَنتَظِرُ مَجيئَهُ إلى هذا العالَم».

ثُمَّ ذَهَبَت مَرثا إلى أختِها وهَمَسَت إليها: «المُعَلِّمُ هُنا ويُريدُ لقاءَكِ». فقامَت مَريمُ وتَوَجَّهَت إليهِ على عَجَلٍ. ولكنّهُ عليه السلام لم يَكُن قد وَصَلَ إلى القَريةِ بَعدُ، إذ كانَ لا يَزالُ حَيثُ قابلَتْهُ مَرثا. وعِندَما رأى النّاسُ الّذينَ جاؤوا للعَزاءِ عَجَلَةَ مَريمَ، ظَنُّوا أنّها تَوَجَّهَت إلى قَبرِ أخيها لتَبكيَ هُناكَ. فخَرَجوا وَراءَها، وعِندَ وُصولِهِم جَميعًا إلى حَيثُ كانَ عيسى عليه السلام، رَمَت مَريمُ بنَفسِها عِندَ قدمَيهِ، باكيةً قائلةً: «يا مَولاي، لو كُنتَ مَعَنا لَما ماتَ أخي». ولمّا رأى سَيِّدُنا عيسى عليه السلام بُكاءَها ونَشيجَ مَن مَعَها، جاشَت عَواطِفُهُ وقالَ: «أينَ دَفَنتُموهُ؟!» فقالوا لهُ: «تَعالَ يا سَيِّدَنا، وانظُر إليهِ». فبَكى عليه السلام مِن شِدَّةِ تأثُّرِهِ، وقالَ مَن كانَ حَولَهُ: «انظُروا إليهِ كَم كانَ يُحِبُّ لَعازَرَ!» وقالَ آخَرونَ: «لقد أعطى الكَفيفَ بَصرًا، أفما كانَ يَقدِرُ أن يَرُدَّ الموتَ عن لَعازَرَ؟!» وجاشَت عَواطِفُهُ مُتأثِّرًا مَرّةً ثانيةً. بَعدَ ذلِكَ وَصَلَ إلى القَبرِ الّذي لم يَكُن سِوى مَغارةٍ يَسُدُّ مَدخلَها حَجَرٌ.

والتَفَتَ عليه السلام إلى مَن حَولَهُ قائلاً: «أزيحوا الحَجَرَ!» فقالَت مَرثا: «يا مَولاي، لقد طَغَت رائحةُ جُثمانِهِ على الهَواءِ إذ قد مَضَت أربَعَةُ أيّامٍ على وفاتِهِ!» فأجابَها عليه السلام: «ألم أُخبِركِ أنّكِ إن آمَنتِ بي فستَشهَدينَ تَجليّاتِ اللهِ؟!» وأزاحُوا الحَجَرَ، ورَفَعَ عليه السلام بَصَرَهُ إلى السَّماءِ مُخاطِبًا رَبَّهُ: «لكَ الحَمدُ يا اللهُ، أيُّها الأبُ الرَّحيمُ على فَضلِ جَوابِكَ لي. وإنّي على يَقينٍ أنّكَ تَستَجيبُ لي دائمًا وما أقولُ ذلِكَ على المَلأ المُجتَمِعِ حَولي إلاّ ليُوقِنوا أنّكَ أنتَ الّذي أرسَلتَني». ثُمّ صاحَ بأعلى صَوتِهِ: «أُخرُج يا لَعازَرُ!» فخَرَجَ لَعازَرُ وقد قُيِّدَ بالأكفانِ وعُصِبَ وَجهُهُ بِمنديلٍ. فقالَ لهُم سَيِّدُنا عيسى: «فُكّوا عَنهُ قُيودَ المَوتِ ودَعُوهُ يَذهَبُ».

السّيّد المسيح يتنبّأ بموته(1)

وفي أوّلِ يومٍ مِن عيدِ الفِصحِ، أي اليوم المُمَهِّدِ لِعيدِ الفَطيرِ، أقبَلَ على سَيّدِنا عيسى

(1) الإنجيل، عن متّى 26: 17–30.

عليه السلام أتباعُهُ مُتَسائلينَ: «أينَ تُريدُ أن يَكونَ عَشاءُ العِيدِ فنُجَهِّزَهُ لكَ؟» فرَدَّ عليهِم بقَولِهِ: «اذهبوا إلى المَدينةِ المُقَدَّسةِ حَيثُ فُلانٌ وقولوا لهُ: «يُخبِرُكَ المُعَلِّمُ قائلاً: «إنَّ وَقتي قد حانَ، وسأقومُ بالاحتِفالِ مَعَ أتباعي بعِيدِ الفِصحِ في دارِكَ». فذَهَبَ أتباعُهُ عليه السلام، وقاموا بتَجهيزِ العَشاءِ حَيثُ أشارَ. وعِندَ حُلولِ المَساءِ، جَلَسَ عليه السلام مَعَ حَوارِيّيهِ الاثني عَشَر، وبَينَما هُم يأكُلونَ، التَفَتَ إليهِم قائلاً: «الحَقَّ أقولُ لكُم، سيَغدُرُ أحَدُكم بي». فأصابَهُم حُزنٌ شَديدٌ، وأخَذَ كُلُّ واحِدٍ مِنهُم يَتَساءل: «أكيد لَستُ أنا يا سَيِّدي؟» إلاّ أنّهُ أجابَهُم: «خائني هو واحِدٌ مِنكُم، أنتُم الّذينَ غَمَستُم يَدَكُم مَعَ يدي في هذا الطَّبَقِ. وسيَموتُ سَيِّدُ البَشَرِ كَما جاءَ في الكُتُبِ السَّماويّةِ، ولكنّ الوَيلَ لذاكَ الرَّجُلِ الّذي يُسَلِّمُهُ! فخَيرٌ لهُ لو لم يُولَد». وانبَرى يَهوذا الخائنُ قائلاً: «هل هو أنا أيُّها المُعَلِّم؟» فأجابَهُ عليه السلام: «هو ما تَقولُ».

وأثناءَ تَناوُلِهِم للعَشاءِ، أخَذَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام خُبزًا وحَمِدَ اللهَ على النِّعمةِ وقَسَّمَهُ وأعطى أتباعَهُ قائلاً: «خُذوا مِنهُ، فهذا الخُبزُ بمَثابةِ جَسَدي». ثُمّ تَناوَلَ الكأسَ وحَمِدَ اللهَ على نَعمائِهِ وناوَلَها لأتباعِهِ قائلاً: «اشرَبوا مِنها كُلُّكُم، فما في هذِهِ الكأسِ رَمزٌ إلى دَمي الّذي سيُراقُ لأجلِ غُفرانِ ذُنوبِ كُلِّ النّاسِ، تَثبيتًا لميثاقِ اللهِ الجَديدِ، وإنّي لمُنذِرُكُم أنّي لن أتَذَوَّقَ بَعدَ الآنَ عَصيرَ العِنَبِ، إلى ذاكَ اليومِ الّذي أشرَبُ فيهِ شَرابًا طَهورًا في المَملكةِ الرَّبّانيّةِ، مَملكةِ اللهِ الأبِ الأحَدِ الصَّمَدِ». ثُمّ أخَذَ الجَميعُ يُرَتِّلونَ آياتٍ مِنَ الزَّبور. وغادَروا بَعدَ ذلِكَ مُتَوَجِّهينَ إلى جَبَلِ الزَّيتونِ.

القبض على عيسى عليه السلام[1]

وغادَرَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام بَعدَ ابتِهالِهِ صُحبَةَ حَوارِيِّيهِ ذلِكَ المَكانَ، ليَجتازوا مَعًا وادي قيدرونَ، ودَخَلوا فيهِ إلى بُستانٍ مِن شَجَرِ الزَّيتونِ. وكانَ يَهوذا الّذي سيَغدِرُ بسَيِّدِنا عيسى يَعرِفُ ذلِكَ البُستانَ لأنّ عيسى عليه السلام اعتادَ أن يَجتَمِعَ فيهِ بأتباعِهِ. فاصطَحَبَ يَهوذا إلى ذلِكَ المَكانِ جَماعةٌ مِن عَسكَرِ الرُّومان[2] ومَجموعةٌ مِن حَرَسِ بَيتِ اللهِ

(1) الإنجيل، عن يوحنّا 18: 1 – 19: 16.

(2) كان الجنود الرومان يرابطون في قلعة "أنطونيا" داخل القدس وذلك لضبط النظام في المدينة.

الّذينَ أرسَلَهُم رؤساءُ الأحبارِ والمُتَشَدِّدونَ، وكانَ بِحوزَةِ المَوكِبِ مَصابيحُ ومَشاعِلُ وسِلاحٌ.

وكانَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام يَعلَمُ بما سيَحُلُّ بِهِ، فخَرَجَ إليهِم قائلاً: «مَن هذا الّذي جِئتُم في طَلَبِهِ؟!» فأجابوهُ قائلينَ: «إنّهُ عيسى النّاصِريّ». فقالَ لهُم: «أجل، أنا عيسى النّاصريّ». وكانَ يَهوذا الخائنُ واقِفًا مَعَ الجُنودِ والحَرَسِ. وعِندَما أجابَهُم عليه السلام بأنّهُ هو، تَراجَعوا وسَقَطوا أرضًا! فسألَهُم ثانيةً: «مَن جِئتُم وَراءَهُ؟!» فأصَرّوا على طَلَبِهِم قائلينَ: «عيسى النّاصريّ». فقالَ لهُم: «أخبَرتُكُم أنّني أنا عيسى النّاصريّ، وأنا بَينَ أيديكُم فخَلّوا سَبيلَ أصحابي». وبهذا تَحقّقَ ما ذَكَرَهُ عِندَ ابتهالِهِ: «ما خَسِرتُ يا رَبُّ أحَدًا مِنَ الأتباعِ الّذينَ وَهَبتَهُم لي». وأثناءَ ذلِكَ، استَلَّ صَخرٌ سَيفًا كانَ مَعَهُ وقَطَعَ الأُذُنَ اليُمنى لأحَدِ عَبيدِ كَبيرِ الأحبارِ، وكانَ اسمُه مالِك.[1] والتَفَتَ عليه السلام إلى صَخر قائلاً: «أعِدْ سَيفَكَ إلى غِمدِهِ، أفلا أشرَبُ كأسَ الآلامِ الّتي قَدَّرَها لي اللهُ الأبُ الرَّحيمُ!؟»

وهكذا قامَ العَسكَرُ الرُّومانُ مَعَ ضابِطِهِم، ومَجموعَةُ الحُرّاسِ بالقَبضِ على عيسى عليه السلام فقَيَّدُوهُ وساقوهُ في البدايةِ إلى حَنّا حَمي قَيافا الّذي كانَ كَبيرَ الأحبارِ في تِلكَ الفَترةِ.[2] وقَيافا هو الّذي نَصَحَ زُملاءَهُ مِن قادةِ اليَهودِ قائلًا: خَيرٌ أن يَموتَ رَجُلٌ واحدٌ فِداءً للأُمّةِ مِن أن تَهلِكَ الأُمّةُ بأكمَلِها.

ومن الممكن أن يكون كبار الأحبار والمتشدّدون قد أقنعوا هؤلاء الجنود بالقبض على سيدنا عيسى عليه السلام مدّعين أنّه رجل متمرّد خطير.

(1) من المرجح أن يكون اسم مالك المشار إليه هنا، اسم عربي من مملكة الأنباط الواقعة في الأردن وجنوب سوريا اليوم. ويعبّر عن هذا الاسم في اللغة اليونانية بـ"ملخس".

(2) كان حنا كبير الأحبار من سنة 6 للميلاد إلى أن أقاله الرُّومان سنة 15 للميلاد. وينصّ القانون اليهُودي على أن يكون كبير الأحبار حاكمًا طول حياته. لذا اعتبر اليهودُ قرارَ الرُّومان بإقالة حنّا غيرَ نافذ فظلّ الشعب يحترمه. وكان حنّا ثريًّا يتمتّع بنفوذ كبير، لأنّ منصب كبير الأحبار هو أعلى المناصب الدينية إلى حين مجيء الاحتلال الروماني. ومن المفترض أن يكون حكم الإعدام قد صدر عن مجموع من القضاة، إذ لا يملك القاضي وحده صلاحية إصدار مثل هذا الحكم. لكنّ ذلك لم يمنع حنّا مِن ممارسة سلطته في استجواب سيدنا عيسى عليه السلام الذي حُكم عليه بالإعدام فيما بعد.

ومَضى في إثرِ سَيِّدِنا عيسى عليه السلام بُطرُس الصَّخر وحَواريٌّ آخرُ كانَت لهُ صِلةٌ بكَبيرِ الأحبارِ، فدَخَلَ الحَوارِيُّ الثّاني مَعَ سَيِّدِنا عيسى عليه السلام إلى باحةِ قَصرِ كَبيرِ الأحبارِ، وظَلَّ بُطرُس بِدَورِهِ واقفًا عِندَ البابِ. وتَوَسَّطَ ذاكَ الحَوارِيُّ لَدى فَتاةٍ كانَت تَحرسُ البوّابة لِيَدخُلَ بُطرُس. فسألَتهُ: «هل أنتَ أيضًا مِن أتباعِ هذا الرَّجُلِ؟» فأنكَرَ بُطرُسُ ذلِكَ بقولِهِ: «كَلاّ، لَستُ مِن أتباعِهِ». ولمّا كانَ البَردُ شَديدًا، أوقدَ العَبيدُ والحُرّاسُ النّارَ والتَفُّوا حَولَها يَتدفَّؤُونَ، واقترَبَ مِنهُم بُطرُس يَتدَفأ.

وتَوَجَّهَ كَبيرُ الأحبارِ إلى سَيِّدِنا عيسى عليه السلام يَستَجوِبُهُ عَن أتباعِهِ والتَّعاليمِ الّتي يُنادي بها، فأجابَهُ عليه السلام: «إنّما بَشَّرتُ بتَعاليمي جَهرًا، على رُؤوسِ الأشهادِ في بُيوتِ العِبادَة والحَرَمِ الشَّريفِ حَيثُ يَجتَمِعُ كُلُّ اليَهودِ. فلِمَ تَسأَلُني أنا؟ اسألْ هؤلاء الّذينَ سَمِعوا ما ذَكَرتُ، إنّهُم يَعلَمونَ كُلَّ ذلِكَ». فلَطَمَهُ أحَدُ الحُرّاسِ على خَدِّهِ قائلاً: «أهكذا تُخاطِبُ كَبيرَ الأحبارِ؟!» فأجابَهُ عليه السلام: «إن كُنتُ قد أخطأتُ في جَوابي فأَثبِتْ ذلِكَ بِشُهودٍ، وإن نَطَقتُ صَوابًا، فلِمَ تَلطِمُني؟!» وأرسَلَ حَنّا عيسى عليه السلام مُقَيَّدًا إلى قَيافا كَبيرِ الأحبارِ.[1]

وفي ذلِكَ الحِين، كانَ بُطرُسُ يَتدفّأ مَعَ الحُرّاسِ، فسألوهُ: «هل أنتَ أيضًا مِن أتباعِهِ؟!» فأجابَهُم بُطرُس مُنكِرًا: «كَلاّ، لَستُ مِنهُم». فالتَفَتَ إليهِ أحَدُهُم وقد كانَ عَبدًا عِندَ كَبيرِ الأحبارِ، وهو مِن أقارِبِ مَن قَطَعَ بُطرُسُ لهُ أذُنَهُ، وقالَ لهُ: «أما شاهَدتُكَ برِفقةِ عيسى في ذلِكَ البُستانِ؟!» فأنكَرَ بُطرُسُ ذلِكَ مَرّةً ثالثةً، وقد تَزامَنَ ذلِكَ الإنكارُ مَعَ صِياحِ الدِّيك.

واُقتيدَ عليه السلام بَعدَ انتهاءِ مُحاكمتِهِ فَجرًا مِن عِندِ كَبيرِ الأحبارِ قَيافا إلى قَصرِ الحاكِمِ الرُّومانيّ، وامتَنَعَ اليَهودُ عَن دُخولِ القَصرِ حتّى لا تُصيبَهُم النَّجاسةُ فيُحرَموا مِن تَناوُلِ عَشاءِ عِيدِ الفِصحِ.[2] لذا خَرَجَ الحاكِمُ بيلاطُس إليهِم لِيَسألَهُم قائلًا: «ماهي التُّهمةُ الّتي تُوجِّهونَها إلى هذا الرَّجُلِ؟» فأجابوهُ: «لو لم يَكُن مُجرِمًا لَما سَلَّمناكَ

(1) حنّا هو كبير الأحبار الذي سبقت الإشارة إليه. وهو الذي استجوب سيدنا عيسى عليه السلام ثم أرسله إلى قيافا كبير الأحبار الذي يعترف به الرومان.

(2) كان اليهود يعتقدون أنّ كل من يدخل بيت أجنبي غير يهودي تصيبه النجاسة.

إيّاهُ». إلاّ أنّ بيلاطُس قالَ لهُم: «خُذوهُ وحاكِموهُ حَسَبَ شَريعتِكُم». فانبَروا قائلينَ: «كَيفَ وقد سَلَبَ الرُّومانُ مِنّا صَلاحيَّةَ الحُكمِ بالإعدامِ؟» فتحَقّقَت بذلِكَ نبُوءةُ سَيِّدِنا عيسى عليه السلام حَولَ طَريقةِ مَوتِه.(1)

وعادَ بيلاطُسُ إلى القَصرِ، واستَدعى عيسى عليه السلام ليَسألَهُ: «هل أنتَ مَلِكُ اليَهودِ؟!»(2) فأجابَهُ: «أهذا سُؤالٌ خَطرَ ببالِكَ فألقَيتَهُ عليَّ، أم هو مِمّا بَلَغَكَ عنّي مِنَ الآخَرينَ؟!»(3) إلاّ أنّ بيلاطُسَ أجابَهُ: «وهل أنا يَهوديٌّ حتّى يَهُمَّني كُلُّ ذلِكَ؟ فقد سَلَّمَكَ إليَّ شَعبُكَ ورُؤساءُ الأحبارِ! فما الّذي ارتَكبتَهُ؟!» فأجابَهُ عليه السلام: «لَستُ مَلِكًا دُنيويًّا، ولو كانَ كذلِكَ لدافعَت حاشيَتي نَفسُها عنِّي فلا يَقبِضُ اليَهودُ عليّ. ولكنّ مَملكتي لَيسَت مِن هذا العالَم». فقالَ لهُ بيلاطُسُ: «أنتَ مَلِكٌ إذَن!» فأجابَهُ عليه السلام: «نَطقتَ صَوابًا، أنا مَلِكٌ، وقد وُلدتُ وبُعِثتُ إلى هذا العالَمِ لأشهَدَ للحَقّ، فكُلُّ مَن يُحِبُّ الحَقَّ يُطِيعُ تَعاليمي». فسألَهُ بيلاطُسُ: «وما هو الحَقُّ؟» ثُمّ خَرَجَ إلى الحُشودِ وقالَ لهُم: «لَستُ أرى لهُ جَريمةً ارتكَبَها. قد جَرَتِ العادةُ بَينَكُم على أن أُطلِقَ لكم سَجينًا واحدًا مِن سُجنائِكُم في عِيدِ الفِصحِ، فهل لدَيكُمُ الرَّغبةُ في إطلاقِ مَلِكِ اليَهودِ؟» فَعَلَت أصواتُهُم ورَدّوا قائلينَ: «لا تُطلِق سَراحَهُ، بل أطلِقْ سَراحَ باراباس!» وقد كانَ بارابَاسُ هذا مُجرِمًا مُتَمَرِّدًا على الرُّومان.

وهَكذا أمَرَ الحاكمُ بيلاطُسُ بِجَلدِ سَيِّدِنا عيسى عليه السلام، فصَنَعَ الجُنودُ تاجًا مِنَ الشَّوكِ المَجدولِ، ووَضَعوهُ على رأسِهِ وألبَسوهُ رِداءً مَلَكِيًّا ذا لَونٍ أُرجوانيّ،(4) ثُمَّ حَيَّوهُ

(1) لم يكن يُسمح لغير الرومان بتنفيذ الحكم بالإعدام، لذا تحقّقت نبوءة سيدنا عيسى عليه السلام في أنّه سيموت صلبًا تبعًا لطريقة الرومان في تنفيذهم حكم الإعدام، أمّا طريقة اليهود في تنفيذ الإعدام، فكانت الرجم.

(2) في حال اعترف المسيح عليه السلام بأنّه ملك، فإنه يحاكم على أنّه متمرّد وبالتالي يحكم عليه بالصلب.

(3) سؤال بيلاطس هنا ملتبس. لذلك سأله السيد المسيح ليعرف الهدف من سؤاله عن طبيعة مُلكه، لأنّ المسيح عليه السلام لم يكن يدّعي المُلك على مقاطعة من مقاطعات الرومان، إنّما كان قصده المُلك الروحي الشامل.

(4) كان اللون الأرجواني لونا خاصا بملابس الملوك وأثرياء القوم فقط لغلاء ثمنه. ولكنّ الجنود ألبسوا السيد المسيح هذا الرداء الأرجواني ليسخروا منه.

ساخِرينَ: «عاشَ مَلِكُ اليَهودِ!» وكانوا يَتَناوَبونَ عليهِ صَفعًا ولَطمًا. ثُمَّ خَرَجَ الحاكِمُ بيلاطُسُ إلى الحُشُودِ وقالَ لهُم مَرّةً أُخرَى: «اِعلَموا أنّي سأُعِيدُهُ إليكُم، وأنا لا أجِدُ سَبَبًا لإدانتِهِ». وخَرَجَ عيسى عليه السلام وقد عَلا رأسَهُ تاجٌ مِنَ الشَّوكِ مُرتَديًا ثوبًا أُرجوانيَّ اللَّونِ. والتَفَتَ بيلاطُسُ إلى المُحتَشِدينَ قائلاً: «ها هوذا الرَّجُلُ». وصَرَخَ رُؤساءُ الأحبارِ وحُرّاسُ بَيتِ اللهِ عِندَ رُؤيتِهِ: «اُصلُبْهُ، اُصلُبْهُ!» ولكنّ بيلاطسَ أجابَهُم: «خُذُوهُ أنتُم واصلُبُوهُ، فإنّي لم أجِدْ لهُ ذَنبًا لإدانَتِهِ». فقالَ قادةُ اليَهودِ: «شَريعَتُنا تَقضي بِموتِهِ لأنّهُ ادَّعى بأنّهُ الابنُ الرُّوحيُّ للهِ». واشتَدَّت رَهبةُ بيلاطسَ بَعدَ سَماعِ كَلامِهِم[1] فعادَ إلى قَصرِهِ وسأَلَ سَيِّدَنا عيسى عليه السلام: «مِن أينَ أنتَ؟!» إلاّ أنّ عيسى عليه السلام لم يُجِبْهُ. فتابَعَ بيلاطسُ كَلامَهُ قائلاً: «أترفُضُ الإجابةَ؟ ألا تَدري أنّي صاحِبُ السُّلطةِ، إن شِئتُ أطلَقتُ سَراحَكَ وإن شِئتُ صَلبتُكَ؟» فأجابَهُ عليه السلام: «لم تَكُن لكَ تِلكَ السُّلطةُ عليّ لو لم يَمنَحكَ إيّاها اللهُ، ولكنّي أقولُ: إنّ إثمَ مَن سَلّمَني إليكَ أعظَمُ مِن إثمِكَ». ولمّا سَمِعَ بيلاطُسُ كَلامَهُ حاوَلَ إطلاقَ سَراحِهِ. إلاّ أنّ قادةَ اليَهودِ احتَجُّوا صارِخينَ: «إن أطلَقتَ سَراحَهُ فهذا يَعني أنّكَ تَخونُ القَيصرَ، لأنّ كُلَّ مَن يَزعُمُ أنّهُ مَلِكٌ يَتَمَرَّدُ عليهِ».[2] فلمّا سَمِعَ بيلاطسُ كَلامَهُم هذا، أخرَجَ عيسى عليه السلام، وأوقَفَهُ أمامَ مِنصَّةِ القَضاءِ في مَكانٍ اسمُهُ البَلاطُ ويُقابِلُ جَباثا بالعِبريةِ، وكانَ ذلِكَ نَحوَ ظَهيرةِ يومِ التَّهيئَةِ لِيَومِ عِيدِ الفِصْحِ، وخاطَبَ بيلاطُسُ اليهودَ بقولِهِ: «هُوَ ذا مَلِكُكُم!» ولكنّهُم صَرَخوا قائلينَ: «اُقتُلْهُ! اِقْضِ عليهِ! اُصلُبْهُ!» فأجابَهُم بيلاطُسُ: «وهل أصلُبُ مَلِكَكُم؟» فأجابَهُ رؤساءُ الأحبارِ: «لَيسَ مِن مَلِكٍ علينا سِوى القَيصرِ».[3] ونَزَلَ بيلاطسُ في النِّهايةِ عِندَ رَغبةِ

(1) أصابت الرهبة بيلاطس سابقا بسبب الأقوال التي سمعها من السيد المسيح عليه السلام. ولكنّ خوفه اشتدّ عند سماعه لهذه الكلمات من جديد، لأنّ القيصر الروماني اتّخذ لنفسه لقب ابن الله، وأيّ شخص آخر يتّخذ هذا اللقب يرتكب الخيانة العظمى وعقابها الإعدام.

(2) يحاول اليهود توعّد بيلاطس بإبلاغ أمره إلى القيصر، وقد وجهّوا إليه تهمة إخلاء سبيل رجل متّهم بالخيانة.

(3) ذُكِر مرارًا في كتب الأنبياء أنَّه لا مَلِكَ لبني يعقوب إلا الله. وحتّى الملوك من سلالة النبي داود عليه السلام لم يحْظ مُلكهم بالشرعية، إلاّ إذا سلّموا أمرهم لله معترفين بأنّه الملك العلي العظيم. وبإصرار قادة اليهود على أنّ ملكهم هو القيصر دون غيره، فإنّهم بذلك يرفضون حكم الله

قادةِ اليَهودِ وسَلّمَ إليهم عيسى عليه السلام ليُصلَبَ.

صلب السّيّد المسيح وقتله[1]

وفيما كانَ عليه السلام يُساقُ للإعدام، صادفَ مُرورُ رَجُلٍ آتٍ مِن الرِّيفِ إلى المَدينةِ اسمُهُ سِمعانُ مِن مَدينَةِ قورينا في ليبيا. فأمسَكَ الجُنودُ بِسمعانَ وأجبَروهُ على حَملِ الصَّليبِ والسَّيرِ خَلفَ سَيِّدِنا عيسى عليه السلام.[2] وهكذا ساروا وخَلفَهُم حَشدٌ غَفيرٌ مِن النّاسِ، بَينَهُم نِسوةٌ بَدأنَ في البُكاءِ والنّواحِ حُزنًا عليهِ عليه السلام، فالتَفَتَ عيسى إليهِنّ قائلاً: «يا نِساءَ القُدسِ، لا تَبكينَ عليّ بَل على أنفُسِكُنَّ وأولادِكُنَّ، لأنّهُ سيأتي وَقتٌ يَكونُ فيهِ خَرابُ القُدسِ وحِينئذٍ سيُقال، «هَنيئًا للعاقِرِ الّتي لم تَحمِل ولم تَلِد ولم تُرضِع!» وسيَقولُ النّاسُ مِن شِدّةِ هَلَعِهِم: «فلتُدَكَّ علينا الجِبالُ، ولتُوارنا التّلالُ في أعماقِها كي نَموتَ فنَستريحَ مِن هذا العَذاب!» فإن كُنتُ أنا، الغُصنَ الأخضَرَ، قد حَلَّ بي مِن العَذابِ والهَوانِ ما تَرونَ، فَما عَساهُ يَحُلَّ بكُم، وأنتُم غُصونٌ يابِسةٌ؟»[3] وهكذا ساقوهُ عليه السلام مَعَ اثنَينِ مِن المُتَمَرِّدينَ للإعدامِ. وعِندَ بُلوغِهِم تَلَّ الجُمجُمة، قاموا بِصَلبِهِ بَينَ هذينِ الاثنَينِ، أحَدُهُما عَن اليَمينِ والآخَرُ عَن اليَسارِ.[4] فرَفَعَ رأسَهُ إلى السَّماءِ بالدُّعاءِ قائلاً: «اللهُمَّ، أيُّها الأبُ الرَّحمَنُ، اغفِر لهؤلاءِ ذُنوبَهُم، لأنّهُم يَجهَلونَ ما يَفعَلونَ». وكانَ الجُنودُ يَتنازَعونَ ثيابَهُ بَينَهُم بالقُرعَةِ.

وبَينَما النّاسُ وُقوفٌ شاخِصينَ بأبصارِهِم إلى هذا المَشهَدِ الرَّهيبِ، انبَرى بَعضُ

وشخص المسيح الملك المنتظر.

(1) الإنجيل، عن لوقا 23: 26–56.

(2) يجبر الرجل المحكوم بالموت صلبا في العادة على حمل خشبة من أخشاب الصليب (التي كان وزنها تقريبا 20 كيلوغرام) إلى مكان الإعدام. وفي ذلك الوقت كان سيدنا عيسى منهكا تحت تأثير التعذيب ولا يستطيع أن يحمل خشبة الصليب، فأجبر الجنود أحد الموجودين هناك على حملها.

(3) (٢) ربّما يعني القولَ التالي: "إذا كان هذا يحصل مع الرجل البريء، فماذا يحصل مع الرجل المذنب برأيكم؟"

(4) (٣) نفّذ الرومان حكم الإعدام صلبا على العبيد فقط وعلى أدنى المجرمين الذين لم يحظوا بالجنسية الرومانية. وعلّقوهم على الصلبان بمسامير كبيرة في معاصمهم وكعوبهم.

رِجالِ اليَهودِ النّافِذينَ يَقولونَ استِهزاءً: «لطالما أنقَذَ الآخرينَ، وآن الأوانُ لِيُنقِذَ نَفسَهُ إن كانَ هو المَسيحَ المَلِكَ المُختارَ، المُرسَلَ مِن عِندَ اللهِ حقًّا!» ثُمّ أخَذَ الجُنودُ الساخِرونَ يُقَدِّمونَ إليهِ نوعًا رَديئًا[1] مِن الخَمرِ، ويَتَصايحونَ قائلينَ: «إن كُنتَ مَلِكَ اليَهودِ حقًّا، فهَيّا أنقِذْ نَفسَكَ!» ثُمّ عَلَّقوا فَوقَ رأسِهِ في أعلى الصَّليبِ لَوحًا كُتِبَ عليهِ: «هذا هو مَلِكُ اليَهودِ».[2] وأخَذَ أحَدُ المُتَمَرِّدَيْنِ اللذَينِ صُلبا مَعَهُ يُهينُهُ قائلًا: «هل أنتَ حقًّا المَسيحُ المُنقِذُ لشَعبِنا؟ إذن قُم بإنقاذِ نَفسِكَ وإنقاذِنا إن كُنتَ مِن الصّادِقينَ!» ولكنّ المُتَمَرِّدَ الآخرَ قالَ مُعتَرِضًا: ألا تَخافُ اللهَ، حتّى وأنتَ على وَشَكِ المَوتِ؟ نَحنُ نَستَحِقُّ ما نَلقاهُ، إلاّ أنّ هذا الرَّجُلَ لَيسَ بآثمٍ!» ثُمّ التَفَتَ إلى عيسى عليه السلام وقالَ: «يا سَيِّدي عيسى، اذكُرني عِندَما تَجلِسُ على عَرشِكَ في مَملَكَةِ اللهِ!» فأجابَهُ عيسى عليه السلام: «الحقّ أقولُ لكَ، لَتَكونَنَّ اليومَ مَعي في فِردوسِ النَّعيمِ».

وفي ظَهيرةِ ذلِكَ اليَومِ، احتَجَبَت الشَّمسُ فخَيَّمَ ظَلامٌ كَثيفٌ استَمَرَّ يَغمُرُ الأرضَ حتّى العَصرِ، ثُمّ انشَقَّ فَجأةً حِجابُ بيتِ اللهِ الصَّفيقِ إلى شَطرَين. فصاحَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام: «يا اللهُ، أيُّها الأبُ الرَّحيمُ، هذِهِ روحي مِنكَ إليكَ، أستَودِعُها بَينَ يَديكَ!» ولَفَظَ نَفَسَهُ الأخيرَ.

وعِندَما رأى الضّابطُ الرُّومانيُّ الواقِفُ على إعدامِهِ ما جَرى، سَبَّحَ اللهَ وقالَ: «لقد كانَ هذا الرَّجُلُ صالِحًا بَريئًا».[3] أمّا الجُموعُ المُحتَشِدةُ الّتي جاءَت خِصّيصًا لحُضورِ ذلِكَ المَشهَدِ، فقد عادَت إلى بُيوتِها لاطِمةً نادِبةً عِندَما رأت ما جَرى. وظَلَّ أصحابُهُ عليه السلام والنِّساءُ اللّواتي تَبِعنَهُ مِن الجَليلِ واقِفينَ عن بُعدٍ يُشاهِدونَ ما يَحدُثُ.

---

(1) (٤) هذا النوع من الخمر حامض ورخيص ولم يكن يشربه سوى الفقراء من الناس.

(2) (٥) كانت العادة تقضي، كلّما نفّذ الرومان حكم الإعدام على أحدهم، أن تُكتَب جريمته على لوح يُعلَّق فوق رأسه على الصليب. ولأنّ السيد المسيح لم يكن مذنبًا، فقد كتبوا: "هذا هو ملك اليهود".

(3) في هذا المقطع، فسّر لوقا معنى ما سجّله متّى ومرقس بأنّ الضابط الروماني صرّح بأنّ السيد المسيح هو الابن الروحي لله. وفي الوحي الذي سجّله لوقا كلمة تستعمل في أحد المعنيين: إما أنه "صالح" وإمّا أنه "بريء". وقد تعمّد لوقا توضيح أن الضابط قد أقرّ بأن سيدنا عيسى بريء وقد عانى من الظُلم.

وكانَ رَجُلٌ صالِحٌ مِن أعضاءِ المَجلِسِ الأعلى مِن بَلدةِ الرّامة في مِنطقةِ يَهوذا اسمُهُ يوسفُ، يَنتَظِرُ ظُهورَ المَملَكةِ الرَّبّانيّةِ، وقد استنكَرَ كُلَّ ما صَدَرَ عن رِجالِ المَجلِسِ مِن قَراراتٍ وأعمالٍ. فتَوَجَّهَ بَعدَ مَوتِ عيسى إلى بيلاطُسَ طالِبًا مِنهُ إعطاءَهُ جُثمانَ عيسى عليه السلام.[1] وهكذا أنزَلَ يُوسفُ الجُثمانَ مِن على الصَّليبِ وأخَذَهُ وكَفَنَهُ بقُماشٍ مِن كَتّانٍ وأودعَهُ قَبرًا مَحفورًا في الصَّخرِ لم يُدفَن فيهِ أحَدٌ مِن قَبلُ. وكانَ ذاكَ اليَومُ يَومَ الإعدادِ لراحةِ السَّبتِ، الواقِعِ قَبلَ مَغيبِ الشَّمسِ وبَدءِ يومِ العِيدِ المَجيد.

وأمّا النِّسوةُ الجَليليات، فأخَذنَ يُتابِعنَ يوسفَ فشاهَدْنَهُ يُودِعُ الجُثمانَ في القَبرِ. وهكذا ذَهَبنَ بَعدَ ذلِكَ إلى البيتِ وجَهَّزنَ طِيبًا وحَنوطًا لِيَدهَنَّ بِهِ الجُثمانَ بَعدَ انقِضاءِ السَّبتِ. وعِندَ غُروبِ الشّمسِ امتَنَعنَ عن العَمَلِ طَوالَ ذلِكَ اليومِ تَنفيذًا لِما جاءَ في كِتابِ اللهِ.[2]

انبعاث السّيّد المسيح حيًّا[3]

وفيما هم يَتكَلَّمونَ، ظَهَرَ سَيِّدُنا عيسى عليه السلام في وَسَطِهِم قائلاً: «السّلامُ عليكُم!» فاستبَدَّ بِهِم الذُّعرُ وقد حَسَبوهُ طَيفًا. فسألَهُم: «لماذا أنتُم مُضطَرِبونَ؟ وبي تَشُكّونَ؟ أنظُروا إلى يَدَيّ وقَدَمَيّ لتَتَحقّقوا بأنّني عيسى! وتَحَسَّسوا جَسَدي لتتأكّدوا بأنّني مِثلَكُم لَحمًا وعَظمًا ولَستُ طَيفًا، فالطَّيفُ لا جَسَدَ لهُ!» وأراهُم عليه السلام يَدَيهِ وقَدَمَيهِ لِيَتَحَقَّقوا. ولِفَرطِ فَرحَتِهِم بظُهورِهِ وَقَفوا حائِرينَ مُندَهِشينَ غَيرَ مُصَدِّقينَ. فقالَ لهُم: «ماذا لَدَيكُم مِن طَعامٍ؟!» فناولوهُ قِطعةً مِن السَّمك المَشويِّ، فأكَلَها وهُم يُراقِبونَهُ.[4] ثُمّ قالَ: «كُنتُ قد أنبأتُكُم عِندَما كُنتُ بَينَكُم بأن ما جاءَ عَنّي في تَوراةِ موسى وكُتُبِ الأنبياءِ والزَّبورِ لا

(1) خاطر يوسف بمركزه باعتباره عضوا في مجلس اليهود من خلال إجراء مراسم دفن تليق بسيدنا عيسى عليه السلام.

(2) كان السبت يوم راحة اليهود، ويبدأ مع غروب يوم الجمعة، وفيه لا يُجرى أي عمل بما في ذلك عملية دفن الموتى ومسح جثامينهم بالطيب والحنوط.

(3) (٩) الإنجيل، عن لوقا 24: 36–53.

(4) (١) أكل سيّدنا المسيح الطعام حتى يثبت أنّه ليس شبحًا.

بُدَّ أن يَتحقَّق». [1] ثُمّ بَثَّ في أذهانِهم نورًا شارِحًا مُفسِّرًا ما جاءَ في الكُتُبِ السَّماويّةِ، وقالَ: «جاءَ في كِتابِ اللهِ أنّ على المَسيحِ المُنتَظَرِ أن يُقاسيَ آلامًا كَثيرةً ثُمّ يَموتَ ثُمّ يُبعَثَ حيًّا بَعدَ ثلاثةِ أيّامٍ. وستُزَفُّ إلى كُلِّ الأُممِ رِسالةُ التَّوبةِ وبَشائرُ غُفرانِ الذُّنوبِ لِكُلِّ مَن يُؤمنُ بي ويَدعو باسمي، بَدءًا مِن القُدسِ. وأنتُم الآنَ شُهودُ عِيانٍ على كُلِّ هذِهِ الأُمورِ، وسأُرسِلُ إليكُم رُوحَ اللهِ كَما وَعَدَ اللهُ أبي الصَّمَدُ، فامكُثوا في المَدينةِ المُقَدَّسةِ حتّى أوانِ حُلولِ الرُّوحِ عليكُم فتَغمُرُكُم قوّةٌ سَماويّةٌ».

ثُمّ اقتادَهُم سَيِّدُنا عيسى عليه السلام إلى مَكانٍ على مَقرُبةٍ مِن بَيتِ عَنْيا ورَفَعَ يدَيهِ وبارَكَهُم، وهُنا رَفَعَهُ اللهُ إلى السَّماءِ أمامَ عُيونِهِم. فخَرُّوا أمامَهُ إجلالاً وتَعظيمًا، ثُمّ عادوا إلى بيتِ المَقدِسِ وقد عَمَّهُم الفَرَحُ العَظيمُ. وهكذا ظَلّوا عاكِفينَ مُتَعَبِّدينَ في حَرَمِ بيتِ اللهِ مُسَبِّحينَ بحَمدِهِ بالعَشيِّ والإبكارِ.

رؤيا لنزول سيدنا عيسى [2]

هي ذي الأسرار الّتي كشفها الله لسيّدنا عيسى المسيح حتّى يرى عباده أمورا لا بدّ من حدوثها عاجلاً، فأرسل ملاكه إلى عبده يوحَنّا الّذي أخبر بكلّ ما رآه من ربّ العالمين، رسالة وبيانا من سيّدنا عيسى المسيح عليه السلام.

التنبيه بقدوم مولانا [3]

انظُرُوا! ها مَولانا قادِمٌ في ظُلَلٍ مِن الغَمامِ، وسيُبصِرُهُ الجَميعُ، حَتّى الّذينَ طَعَنوهُ. وستَنوحُ عليهِ عَشائِرُ الأرضِ كُلُّها بِسَبَبِ الآلامِ الّتي تَعَرَّضَ إليها. [4] نعم، لِيَكُنْ كَذلِكَ

(1) (٢) أشار السيّد المسيح إلى مجموع الكتب السماوية الثلاثة في زمنه، وهي التوراة وكتب الأنبياء والزبور. أمّا المجموعة الثالثة، وهي "الكتابات" فقد كانت تعرف أيضًا باسم الزبور، لأنّ السفر الأوّل فيها كان كتاب الزبور أو المزامير، وأخذت المجموعة كلّها هذا الاسم.

(2) من كتاب الرؤيا للحواري يوحنّا، 1: 1–2.

(3) من كتاب الرؤيا، 1: 7–8.

(4) تشير هذه الكلمات إلى رؤيا النبي دانيال (7: 13) التي يظهر فيها السيد المسيح آتيا مع الغمام ليأخذ مكانه باعتباره ملكا، كما أشارت إلى ذلك نبوءة النبيّ زكريّا بن بَرَكيّا (12: 10).

يا رَبُّ، آمينَ. قالَ المَولى عِزَّ وجَلَّ: «أنا الألِفُ والياءُ، الحَيُّ مُنذُ الأزلِ والآنَ وإلى الأبَدِ، وإنّي على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ».

نزول عيسى[1]

فُتِحتِ السَّماءُ فرأيتُ فَرَسًا أبيَضَ يَمتَطيهِ سَيِّدُنا عيسى، الصّادِقُ الأمينُ، فَهوَ الّذي لا يَجورُ في حُكمِهِ ولا يُحارِبُ إلاّ بِالعَدلِ المُبينِ.

وعَيناهُ لَهيبُ نارٍ، ورأسُهُ مُكَلَّلٌ بِعَدَدٍ كَبيرٍ مِن التِّيجانِ، وكانَ يَحمِلُ اسمًا لا يَعرِفُهُ أحَدٌ سِواهُ،[2] وكانَ يَلبَسُ ثَوبًا مُسرَبَلًا بِالدَّم، واسمُهُ «كَلِمةُ اللهِ». وكانَت جُيوشُ المَلائِكةِ تَتَراكَضُ وَراءَهُ على جِيادٍ بَيضاءِ، وكانوا يَرتَدونَ ثِيابًا نَقيَّةً ناصِعةَ البَياضِ، وانبَجَسَ مِن فَمِهِ سَيفٌ صَقيلٌ، هُو دَليلٌ على سُلطانِهِ في الأرضِ، وبِهِ يَنتَصِرُ على الأُمَمِ الّتي تَمَرَّدَت على اللهِ. فَهوَ الّذي سَيَحكُمُها بِعَصًا مِن حَديدٍ، ويأتي بِعِقابِ اللهِ وغَضَبِهِ على الأشرارِ، كَما يَدوسُ النّاسُ الأعنابَ في المِعصَرةِ. وقد كُتِبَ على رِدائِهِ وعلى فَخِذِهِ هذا الاسمُ: «مَلِكُ المُلوكِ وسَيِّدُ الأسيادِ».

القضاء على الدجّال وغيره من الأشرار[3]

ثُمّ أبصَرتُ وَحشَ البَحرِ اللَّعينِ، ومُلوكَ الأرضِ وجُيوشَهُم وقد احتَشَدوا جَميعًا لِيُحارِبُوا سَيِّدَنا عيسى صاحِبَ الفَرَسِ الأبيَضِ وجُيوشَهُ. وأمسَكَ سَيِّدُنا عيسى بِهذا الوَحشِ، وبِالمُتَنَبِّئِ الدَّجّالِ، صاحِبِ العَمَلِ الخارِقِ الّذي أتاهُ نِيابةً عَنِ الوَحشِ، وأضَلَّ بِهِ الّذينَ قَبِلوا عَلامةَ الوَحشِ وسَجَدوا لِتِمثالِهِ، وألقاهُما سَيِّدُنا عِيسى وهُما

---

(1) من كتاب الرؤيا، 19: 11–16.

(2) في فترة حياة يوحنّا كان بعض الملوك يضعون عددا من التيجان، كل تاج يمثل رمزا للبلاد التي يحكمها. أمّا الاسم المجهول الذي يحمله السيد المسيح، فيمكن أن نفسّره كما يلي: ادّعى السحرة في تلك الفترة أنّ باستطاعتهم إجبار الكائنات غير المرئية على القيام بما يريدونه من خلال استعمال أسمائهم، وعندما قال يوحنّا في هذا المقطع أنّه لا أحد يعرف اسم سيدنا عيسى، فربّما قصد بذلك أنّه لا أحد يملك سلطة عليه عليه السلام، وقد تكون تلك طريقة للقول بأنّ معنى اسمه يفوق فهم البشر ومداركهم.

(3) من كتاب الرؤيا، 19: 19–21.

لا يَزالانِ على قَيدِ الحَياةِ في بُحيرةِ النّارِ المُشتَعِلةِ بِحِجارةِ الكِبريتِ.

الحساب[1]

ثُمّ تجَلّى عَرشٌ أبيَضُ عظيمٌ، ورأيتُ بَهاءَ رَبِّ العَرشِ، وقد اختَفَت السَّماءُ والأرضُ مِن حَضرتِهِ، ولم يَعُد لهُما أثرٌ بَعدَ ذلِكَ. ثُمّ رأيتُ الأمواتَ يَقِفونَ أمامَ عَرشِ اللهِ، سَواءٌ عَظُمَ شأنُهم أو قَلَّ. وفتَحَ المَلائِكةُ سِجِلّاتِ جَميعِ الواقِفينَ، وبَعدَها فَتَحوا سِجِلاًّ آخَرَ هُو سِجِلُّ الخُلدِ. وحاسَبَهمُ اللهُ حَسَبَ أعمالِهِم المُسَجَّلةِ في تِلكَ الكُتُبِ. أجل، لقد لَفَظَ البَحرُ ما فيهِ مِن أمواتٍ، وأخرَجَ القَبرُ والَموتُ ما فيهِما مِن أمواتٍ، ثُمّ حَكَمَ عليهِم اللهُ جَميعًا حَسَبَ ما أتوهُ مِن حَسَناتٍ وسَيئاتٍ.

ظهور الخلق الجديد[2]

وقد تَجَلَّت أمامي سَماءٌ جَديدةٌ وأرضٌ جَديدةٌ، بَعدَ اختِفاءِ السَّماءِ الأُولى والأرضِ الأُولى، وغابَ البَحرُ عنِ الأرضِ الجَديدةِ. ورأيتُ المَدينةَ المُقَدَّسةَ، وهِي المَكانُ القُدسِيُّ الجَديدُ، تَنزِلُ مِن السَّماءِ مِن عِندِ اللهِ كعَروسٍ تَبَرَّجَت وتَهَيّأت لِلِقاءِ زَوجِها. وسَمِعتُ صَوتًا عاليًا لهاتِفٍ انبَعَثَ مِن قُربِ عَرشِ اللهِ المَجيدِ قائِلاً: «الآنَ يَتَجَلّى اللهُ بَينَ العالَمينَ ويَحِلُّ بَينَهُم، ومِن الآنَ تُصبِحُ شُعوبُ العالَمِ كُلِّها عِبادَهُ الصّالِحينَ، إنّ اللهَ رَفيقُهُم الأعلى. ومِن عُيونِهِم يُكَفكِفُ تعالى كُلِّ دَمعةٍ. فلا مَوتَ يَتَسَلَّطُ عليهِم بَعدَ الآنَ، ولا بُكاءَ ولا ألَمَ يُصيبُهُم ولا هُم يَحزَنونَ، فكُلُّ ما مَضى، قدِ انتَهى وانقَضى».

وأوحى إليّ رَبُّ العَرشِ: ”إنّي خالِقٌ الآنَ كُلَّ شَيءٍ مِن جَديدٍ“. ثُمّ أوحى إليّ ثانيةً: ”أُكتُبْ ما يَلي: إنّ هذا كَلامُ صِدقٍ وحقٍّ مُبينٍ“. وقالَ أيضًا: ”لقد قُضِيَ الأمرُ. أنا الألِفُ والياءُ، البِدايةُ والنِّهايةُ. أروي كُلَّ ظَمآنٍ مِن يَنبوعِ ماءِ الخُلدِ بِلا حِسابٍ. إنّ هذا جَزاءُ الفائِزينَ، وأنا أكونُ رَبَّهُم، وهُم يَكونونَ أهلَ بَيتي الأحِبّاءَ.

(1) من كتاب الرؤيا، 20: 11–15.

(2) من كتاب الرؤيا، 21: 1–7.

فهرس
شروح لبعض المصطلحات والأسماء

أ

الأسر (السبي): سُبِيَ بنو يعقوب (بنو إسرائيل) إلى بابل في الفترة التي تمتد بين 597 ق. م. و539 ق. م. وعندما استولى البابليون على مملكة يهوذا (الجنوبية) وعاصمتها القدس أخذوا سكّانها أسرى إلى بابل. وقد أخذت قبل ذلك الإمبراطورية الأشورية عشرة عشائر بني يعقوب أسرى من مملكة السامرة (الشمالية) وسبوهم إلى بلاد أشور سنة 722 ق. م.

أكّد،الأكاديون: كان الأكاديون شعبا من البلاد التي كانت تقع في ما بين النهرين، وكانت الإمبراطورية الأكادية قبل زمن إبراهيم عليه السلام قوية.

الأموريون: شعب وثني سكن في منطقة فلسطين قبل عصر النبي إبراهيم.

أشّور: كانت الإمبراطورية الأشورية من أعظم الامبراطوريات في الشرق الأدنى القديم. حكمت في بلاد الرافدين وكانت من أشدّ أعداء مملكتي بني يعقوب.

أخنوخ: راجع إدريس.

أرارات: يقع جبل أرارات في المنطقة المجاورة لبحيرة وان في شرق تركيا، وورد ذكر هذه المنطقة في الكتابات الأشورية القديمة. وبعض المفسّرين يرون أنّه

الجبل المسمّى باسم جودي في القرآن (انظر سورة هود، الآية 44).

أرض موريّة: منطقة جبلية في فلسطين. ذكرت في قصّة النبي إبراهيم عندما أراد تقديم ابنه أضحية لله (التوراة، سفر التكوين، الفصل 22). ويسمّى الجبل الذي بُني عليه بيت الله في القدس بهذا الاسم أيضا (انظر كتاب أخبار الأيام الثاني 3: 1). ويعتقد بعض الدارسين أن موقع تضحية ابن النبي إبراهيم أصبح فيما بعد موقع بيت الله.

أبرام: هو الاسم الأول للنبي إبراهيم. وقد غير الله هذا الاسم فيما بعد ليصبح إبراهيم. ويعني اسم أبرام «الأب رفيع المقام»، بينما يعني اسم إبراهيم «أب لكثيرين».

أور الكلدانيين: مدينة جاء ذكرها في التوراة وهي مسقط رأس النبي إبراهيم. وكانت تقع فيما يعرف بجنوب العراق اليوم.

أدوم: مملكة وثنية قديمة وقعت في جنوب الضفة الشرقية لنهر الأردن، واتّسعت حتى تشمل جنوب فلسطين في فترات من الزمن.

أسنات: زوجة النبي يوسف المصرية.كانت بنت رجل دين مصري. وأنجبت له ولدين هما منسّى وأفرايم.

أفرايم: راجع السامرة.

الأسباط: الاسم التقليدي لعشائر بني إسرائيل الاثنتي عشرة. وهو اسم يتردّد في القرآن كذلك انظر مثلا سورة البقرة، الآية 140.

أضحية: هو حرق بعض الذبائح كُليًا أوجزئيًا، وما يبقى من الأضحية التي تحرق جزئيّا يأكله المتعبدون ورجال الدين.

إحراق البخور: سادت في القديم عادة إحراق البخور كوسيلة لعبادة الآلهة، وجاء في الوحي إلى الأنبياء الأقدمين أنّ الله وحده يستحق هذه الشعيرة في العبادة.

إسرائيل: وهب الله هذا الاسم للنبي يعقوب بواسطة ملاك، ومعناه «إصرار الله» أو «الله يحكم».

إدريس: جاء في الجيل السابع بعد آدم وحواء، وسلك في نهج الله ثمّ توارى لأنّ الله رفعه إليه (انظر التوراة، سفر التكوين 5: 18-24، وسورة مريم، الآيتين 56-57). ويدعى في التقليد اليهودي والمسيحي باسم أخنوخ.

الآرامية: لغة سامية تشبه اللغة العبرية. وفي زمن السيد المسيح، تكلّم اليهود اللغة الآرامية، وتكلم سيدنا عيسى اللغة ذاتها. أنزل الله بعض الآيات للأنبياء بهذه اللغة، مثلاً: عزرا 4: 8 - 6: 18، 7: 12-26، ودانيال 2: 4ب-7: 28. كما أنزل الله بعض أقوال السيد المسيح باللغة الآرامية، انظر مثلا، متّى 27: 46، ومرقس 5: 41.

الإمبراطورية الرومانية: سادت هذه الإمبراطورية وعاصمتها روما على حوض البحر الأبيض المتوسط زمن سيدنا المسيح.

ب

بيت إيل: جاء ذكر هذا المكان في قصّة النبي إبراهيم، إذ بنى فيه مكانا لتقديم الأضاحي. وفيه رأى حفيده النبي يعقوب رؤيا إذ تجلّى الله له في المنام، فخصّص المكان لعبادة الله. ومع مرور الزمن جعل بنو يعقوب هذا الموقع مكانا يمارسون فيه عباداتهم. ويعتقد بعض الباحثين أنّ بيت إيل كان يقع على بعد 5 كيلومترات من شمال رام الله في الضفة الغربية حيث موضع قرية بيتين اليوم.

بابل: إمبراطورية كبيرة كانت تقع في ما بين النهرين وعاصمتها مدينة بابل في عصور ما قبل الميلاد. تغلّب جيش بابل على مملكة يهوذا (الجنوبية) في عام 586 ق. م. وهُجّر عدد كبير من بني يعقوب إلى بابل، حيث سكنوا سبعين سنة، كما وعد الله على لسان النبي إرمياعليه السلام.

البرص: تشمل هذه الكلمة أنواعا كثيرة من الأمراض الجلدية ومنها البرص (الجذام). اعتبر المصاب بالبرص نجسًا عند اليهود وكان يُحرم من العبادة.

البشرى، البشارة: الكلمة اليونانية «يوانجيليون» تمّ تعريبها في اللغة العربية بكلمة «إنجيل» ومعناها «الخبر السّارّ» أو «البشرى» أو حتى «البيان». وهي الخبر المفرح ويتعلق بمجيء مملكة خليفة الله، أي مجيء سيدنا عيسى إلى العالم حتى يؤسّس مملكته ويَفْدِي البشر.

بطرس الصخر، سمعان: كان اسمه الأصلي سمعان بن يوحنّا، ولكن السيد المسيح سمّاه بطرس، أي الصخر باليونانية. ترعرع في منطقة الجليل وكان صيادا للسمك مع أخيه أندراوس، ثم انضما إلى الحواريين وكان بطرس قائدهم.

بيت الله: مبنى اليهود الرئيسي للعبادة في القدس الذي اختاره الله من بين كل أماكن العبادة في العالم.

بيت العبادة: مكان اجتمع فيه اليهود في عصر السيد المسيح يوم السبت للعبادة والصلاة والدعاء والتعليم الديني وقراءة التوراة والزبور وصحف الأنبياء. أقام اليهود بيوت العبادة في كل مدينة وفي كل حي سكنوا فيه. وكان لكل بيت عبادة مسؤول يساعده خادم (لوقا 8: 41)، أو لجنة من المسؤولين. لا تُقدم فيه الذبائح، بل كانت تُقدم فقط في حرم بيت الله في القدس.

بيلاطس: بيلاطس البنطي، الوالي الروماني على محافظة يهوذا التي كانت تضم مناطق يهوذا والسامرة وأدومية (26–36 للميلاد).

بعل: كان أحد آلهة الوثنيين في بلاد الشام، وهو إله الخصوبة والعواصف. وتخيّله الوثنيون كإنسان محارب لديه كل الصفات البشرية. وكان لديه صاحبة اسمها أنات، إلهة الحرب والجنس. وفي زمن النبي إلياس مال بنو يعقوب إلى عبادة البعل دون الله.

بنو سبأ: جاء ذكرهم في قصة النبي أيوب، وهم عشائر من تيما في شمال الجزيرة العربية.

بنو لاوي، اللاويون: راجع خدام بيت الله.

برج بابل: بعد عصر النبي نوح والطوفان الكبير، زاغ الناس في إثمهم وتمردوا على الله، وقرروا بناء برج يمتدّ من الأرض إلى السماء. لكن الله بلبل لغتهم إلى لغات كي لا ينجزوا مرادهم، ثم شتّتهم في أنحاء العالم.

بلّوطة المعلّم: قد تكون هذه الشجرة مكانا مقدسا عند أهل كنعان في زمن النبي إبراهيم.

البكورية: في الشرق الأدنى القديم ساد اعتقاد عند كثير من الشعوب أن البكر يتمتّع بمكانة خاصة وينال حصّتين من الميراث عند وفاة الأب. وفي غالب الأحيان يصبح البكر كبير الأسرة ومسؤولا على كل أفراد عائلته.

بلهة: جارية لابان وأعطاها لابنته راحيل عند زواجها من يعقوب عليه السلام. ثم تزوجها النبي يعقوب عندما لم تتمكن راحيل من الإنجاب. وأنجبت له ولدين هما دان ونفتالي.

بنو عماليق: انحدر بنو عماليق حسب التوراة من عماليق حفيد العيص. ويبدو أنّ هذا الشعب قد عاش حياة بدوية على أطراف الأراضي الزراعية في جنوب فلسطين.

بنو يعقوب: اسم للشعب المنحدر من النبي يعقوب وأبنائه الاثنا عشر. ومنه خرجت العشائر (الأسباط) لبني يعقوب. ووردت بعض المرادفات لهذا الاسم في التوراة وغيرها من كتب الأنبياء، مثل «بني إسرائيل»، «إسرائيل»، و«يعقوب».

بنو إسرائيل: راجع بنو يعقوب.

ابن الله: راجع الابن الروحي لله.

الابن الروحي لله: مصطلح «الابن الروحي لله» هو تعريب للمصطلح الذي يُترجم عادة بـ«ابن الله». ولكن لا علاقة لمعناه مطلقا في لغة الوحي

اليونانية بعملية الإنجاب المألوفة؛ معاذ الله! بل هو لقب للملك المختار الذي يجب أن يكون من سلالة النبي داود، فهذا اللقب يشير إلى الصلة الحميمة بين الله والسيد المسيح، وعلى هذا الأساس يمنح المسيح أتباعه الحقَّ ليكونوا أهل بيت الله. وهذا اللقب يعني أيضا أنّه المسيح المنتظر الذي يحكم المملكة الأبدية التي وعد الله بها عباده الصالحين. وهو كلمة الله التي ألقاها إلى مريم العذراء وأصبحت إنسانًا بقوّة روح الله. وحسب الإنجيل، كلمة الله هي صفة قائمة في ذاته تعالى. ومن هذا المنطلق نستطيع أن نرى كيف يكون لدى المسيح عليه السلام سلطة على بيت الله كسلطة الابن البكر عند الناس.

ابن داود: راجع وريث مملكة النبي داود.

ابن الإنسان: راجع سيد البشر.

ت

التلاميذ: أتباع السيّد المسيح الذين تعلموا منه وتبعوه (راجع الحَواريون).

التوراة: تشير الكلمة إلى ثلاثة معاني: 1) كتب النبي موسى الخمسة وهي التكوين والخروج واللاويون والعدد والتثنية. 2) جميع ما أوحى به الله إلى أسباط بني يعقوب، أي العهد القديم. 3) شريعة الله، وخاصة الوصايا العشر التي كتبها الله على لوحين من حجر (راجع التوراة، سفر الخروج 20 وسفر تثنية 5). واعتبر اليهود تعاليم شيوخهم جزءامن الشريعة. أمّا سيدنا المسيح فقد وجه انتقادًا شديدًا لهؤلاء اليهود لأنهم وضعوا تعاليمهم البشرية فوق كلمة الله في الشريعة.

التغطيس: راجع التطهّر بالماء.

تابوت العهد: راجع صندوق الميثاق.

ج

الجليل: القسم الشمالي من فلسطين. كان اليهود يحتقرون أهل الجليل لأنّهم كانوا بسطاء وغير متديّنين كما كان جزء منهم خليطا من نسل يهودي ووثني.

الجن، الشياطين: أشار اليونانيون الوثنيون بهذه الكلمة إلى الكائنات العاقلة غير البشرية صالحة أو شريرة، غير أنّ سيّدنا عيسى والأنبياء من قبله علّموا بأن جميع الجن والشياطين أشرار.

جبل سيناء، طور سيناء: جبل في منطقة سيناء الجبلية حيث أنزل الله الشريعة على النبي موسى. وهو معروف أيضا باسم جبل حوريب.

جبل تصيون: الجبل الذي بُني عليه بيت الله المقدس ومدينة القدس التي حوله.

جلعاد: منطقة جبلية في الضفة الشرقية من نهر الأردن.

جاسان: اسم قديم في زمن النبي يوسف لمنطقة خصبة في دلتا نهر النيل.

ح

حبر، أحبار: رجل الدين اليهودي وهو من نسل هارون أخي موسى عليه السلام، الذي اختار الله تعالى من بيته أحبارا. قاد الأحبار العبادة في بيت الله، وكان لكل واحد منهم الحق في المشاركة في العبادات والشفاعة في بيت الله في القدس، بما فيها نحر الذبائح وإحراقها. وفي وقت تقديم الذبائح، صباحا وعصرا، يقوم الأحبار باختيار واحد منهم بالقرعة ليدخل المحراب المقدّس في بيت الله ويحرق فيه البخور. وكان عملهم في الشفاعة رمزًا لشفاعة المسيح الموعود.

المحراب المقدّس: القسم الرئيسي داخل خيمة العبادة في أيام النبي موسى، ثم صار داخل بيت الله الذي بناه النبي سليمان في القدس، ولا يُسمح لغير الأحبار بدخوله. نجد في هذا القسم مائدة الخبز المقدم قربانا لوجه الله وموقد البخور والمنارة الذهبية للمصابيح. يدخل الحبر بكرةً وأصيلاً كل يوم لكي يحرق البخور على موقد

خاص في هذا المكان المقدّس.

المحراب الأقدس/ الداخلي: وراء ستار سميك في المحراب المقدّس كان المحراب الداخلي في الخيمة المقدسة التي حملها معهم بنو يعقوب حين انتقلوا مع النبي موسى عليه السلام في صحراء سيناء ثم في بيت الله الذي بناه النبي سليمان في مدينة القدس، وفي هذا القسم نجد صندوق الميثاق، وفوقه شكلان لاثنين من حملة العرش يظللان بأجنحتهما الغطاء. وكان دخول هذا المكان محرّما إلا لكبير الأحبار الذي يدخله يوما في السنة، وتحديدا يوم الكفارة، كما جاء في التوراة.

الحرم الشريف، حرم بيت الله: المنطقة المحرّمة لبيت الله أي الحرم الشريف أو الديار المقدسة، أي الباحات حول المعبد المركزي.

الحَواريون: أتباع سيدنا عيسى الاثنا عشر الذين اصطفاهم ليرافقوه ويتعلموا منه ويساعدوه بالدعوة ويعاينوا حياته وموته وبعثه المجيد. هم في ترجمات أخرى «الرسل»أو «رسل المسيح.» أما بولس الذي رأى المسيح عندما ظهر له في طريقه إلى دمشق، فقد انضم إلى جماعة حواريي المسيح أيضًا. أسماء الحواريين مدرجة في الإنجيل، (انظر متّى 10: 2-4، مرقس 3: 16-19، لوقا 6: 14-16، وسيرة الحواريين 1: 12-13). وصار الحواريون قادة إخوتهم في الإيمان بعد صعود سيدنا عيسى إلى السماء.

الحِثيّون: قطن الحثيون منطقة تركيا المعاصرة وأسّسوا إمبراطورية عظيمة امتدّت إلى بلاد الشام. وسقطت مملكتهم أمام تصاعد الإمبراطورية الآشورية في القرن 12 قبل الميلاد.

حويلة: اسم قديم لبلاد لا نعرف موقعها اليوم على وجه التحديد. ويرجّح الباحثون

أنها كانت تقع في شبه الجزيرة العربية وتحديدا في الحجاز.

حملة العرش: الملائكة التي تحمل عرش الله، وهي معروفة باسم الكروبيم.

حاران: مدينة كبيرة كانت تقع في شمال بلاد الرافدين. وسكن تارح والد النبي إبراهيم في حاران بعد أن ترك أور الكلدانيين التي كانت تقع في جنوب العراق اليوم.

حبرون: مدينة تقع قرب مدفن النبي إبراهيم وأسرته في مغارة المكفيلة، وتدعى اليوم مدينة الخليل.

حوريب: راجع جبل سيناء.

الحكّام المناصير: بعد زمن النبي موسى وخليفته يوشع بن نون، لم يكن هناك حاكم على قوم بني يعقوب، وفي بعض الأوقات العصيبة أرسل الله الحكّام المناصير لكي يقودوا بني يعقوب وينصروهم في محاربة أعدائهم. أمّا في زمن النبي صموئيل فقد طالب بنو إسرائيل الله بأن يعطيهم ملكا شأن بقية الأمم. وأوحى الله إلى نبيه صموئيل أنّ هذا الطلب بمثابة رفضهم لله ملكا عليهم.

الحج: جاءت في التوراة وصايا تتعلق ببعض الأعياد لبني إسرائيل، وفي ثلاثة منها (عيد الفصح، عيد الخمسين وعيد الخيام) كان عليهم الحج إلى بيت المقدس لكي يشاركوا في الاحتفالات وتقديم الأضاحي هناك. وكان هذا فرضا على كل الناس من بني يعقوب المقيمين في بلاد فلسطين.

خ

الختان: هو علامة جسدية يصطفي من خلالها الله بني يعقوب. وقد أمر الله النبي إبراهيم أن يُختن هو ونسله، وأكّد الله هذا الأمر مرّة أخرى للنبي موسى في التوراة. وعادة ما يتمّ ختان الذكر بعد أسبوع من ولادته. غير أنّ اليهود شوّهوا هذه العادة فصارت عندهم ذات توجهات عنصرية.

خدام بيت الله: أي اللاويون. وهم جماعة من رجال الدين من عشيرة لاوي بن يعقوب عليه السلام، وكانوا مسؤولين عن حراسة بيت الله وضبط النظام فيه وفي كامل

الحرم الشريف في القدس. وساعد بنو لاوي الأحبار أيضا على نحر الذبائح أثناء العبادات في بيت الله. ولم يعطهم الله نصيبا من الأرض في بلدهم، بل أعطاهم مدنا مشتتة في أراضي العشائر الأخرى.

الخيش: نسيج خشن من شعر الماعز كان يلبسه الناس قديمًا علامة على الندمو الحزن الشديد.

خيمة بيت الله: أمر الله النبي موسى أن يصنع هذه الخيمة بمساعدة قومه بني يعقوب. وكانت هذه الخيمة بمثابة المكان المخصّص للعبادة عند بني يعقوب إلى حين بناء بيت الله في القدس في عهد النبي سليمان.

الخروج: عاش قوم بني يعقوب تحت طغيان فرعون، وقد حرّرهم الله من العبودية بقيادة النبي موسى، فأخرجهم من بلاد مصر إلى صحراء سيناء حيث أنزل عليهم التوراة في جبل سيناء. وتاهوا في الصحراء أربعين سنة بسبب جحودهم وقلّة إيمانهم بالله.

خليفة الله: خلق الله آدم وحواء وذريتهم وجعلهم خلفاء في الأرض. ويعني هذا المصطلح المسؤول على الأرض والمخلوقات التي فيها، فيعتني بها ويحفظها. لكن آدم عصى ربّه وأخلّ بهذه المسؤولية. ومع مرور الوقت أكرم الله نبيّه داود فاختاره حاكما على قوم ميثاقه بني يعقوب، وجعله خليفة، غير أنّ النبي داود فشل أيضا في هذا الأمر. وفي الإنجيل نرى كيف أرسل الله السيد المسيح لكي يكون حكما عادلا على الخلافة الربانية الروحية التي وعد الله بها.

د

ذ

مذبح: أمر الله تعالى قومه في التوراة أن يقدّموا الذبائح ليكفّروا عن ذنوبهم، ثم

أمرهم بإحراقها (جزئياً أو كُلياً) على المذبح النحاسي في باحة بيت الله. وكان المذبح على شكل مصطبة أو منصة.

ر

رسل المسيح: راجع الحَواريون.

روح الله: هي روح الله الطاهرة الأزلية وليست الملاك جبريل. وهي الروح التي نفخ منه االله إلى السيدة مريم أمّ عيسى المسيح، وهي الروح ذاتها التي ينزلها الله على قلوب المؤمنين، وهي تعادل في بعض الترجمات الأخرى «الروح القدس».

راحيل: هي زوجة النبي يعقوب التي أحبّها وأنجبت له يوسفعليه السلام وبنيمين.

رفقة: زوجة النبي إسحقعليه السلام وأمّ يعقوب والعيص. وهي بنت بتوئيل ابن أخ إبراهيمعليه السلام.

ز

الزبور: كتاب يحتوي على أدعية وابتهالات وأناشيد، أنزله الله على عشائر بني يعقوب وخاصّة على النبي داودعليه السلام. ورتّل المؤمنون بعض هذه الأدعية في عباداتهم. وتعبّر بعض هذه الأدعية عن الشكر والثناء، وبعضها الآخر فيها طلب للتعزية أو الرحمة أو الانتقام. ويُعرف هذا الكتاب بالمزامير.

زلفة: كانت زلفة جارية ليئة زوجة النبي يعقوب. وعندما لم تتمكن ليئة من الإنجاب، قدّمت جاريتها زلفة ليعقوب حتى يتزوّجها وتنجب له أولادا. وفعلا أنجبت زلفة ولدين، جاد وأشير وهما من أبناء يعقوب الاثني عشر.

زليخة: جاء هذا الاسم في التراث العربي وهو اسم لزوجة عزيز مصر فوطيفار. وقد حاولت الإيقاع بالنبي يوسف لكي يزني معها.

س

السبت: وهو يوم مخصص للاستراحة والعبادة عند اليهود، حيث لا يُسمح لهم بالعمل

فيه وفقًا لما أمر الله به النبي موسى. وكان اليهود يجتمعون يوم السبت في بيوت العبادة لقراءة التوراة وغيرها من كتب الأنبياء الأولين وليسبّحوا بحمد الله تعالى.

سدوم وعمورة: مدينتا قوم لوطعليه السلام وجاء ذكرهما في القرآن بـ«المؤتكفات» (انظر سورة التوبة، الآية 70، وسورة الحاقة، الآية 9). وقد أمطر الله عليهما ناراً وحجارة مشتعلة عقابا على شر سكّانهما.

السامرة: اسم تاريخي للمنطقة التي تتوسّط فلسطين، وكانت عاصمتها مدينة السامرة.

السامريون: شعب عاش في المنطقة الوسطى من أرض فلسطين. وعبد السامريون الله دون غيره. وكانت بينهم وبين اليهود عداوة شديدة لأنّهم لم يعترفوا ببيت الله في القدس كمركز ديني. وكانوا ينحدرون من خليط يجمع بين نسل وثني ويهودي. واعتبرهم اليهود نجسين ومنبوذين.

سيد البشر: كان سيّدنا عيسى يفضّل إطلاق لقب «سيّد البشر» على نفسه، ويعادل معناه الحرفي في اللغة اليونانية «ابن الإنسان». وفي هذا تلميح إلى النبوءة التي أشار إليها النبي دانيال في قوله: «ورأيتُ في الليلة نفسها، ما يُشبه الإنسان، قادِمًا في ظُلَلٍ مِن الغَمام. وأقبل على صاحب الأزل فأدنوه من حضرته وقرّبوه. فمنحه سلطانًا وجلالاً وقوّةً ملكيّة حتّى يخدمه الناس من كلّ الشعوب والأمم واللغات. سلطانه لا يحدّه حدّ، ويدوم ملكه إلى الأبد، ومملكتُه لا تُدمّر وحُكمه لا يقهر». (كتاب النبي دانيال 7: 13-14). وهذه النبوءة عن «ابن الإنسان» إشارة إلى المنقذ الذي يختاره الله ليحكم الناس في جميع أنحاء الأرض.

سعير: منطقة جبلية تقع في الضفة الشرقية، بين غور البحر الميت وخليج العقبة. قطن العيص (أخ النبي يعقوب) وذريته في هذه المنطقة حسب التوراة. وصارت هذه المنطقة مع مرور الزمن مملكة مؤاب.

ش

المتشدّدون: أي الفرّيسيون. طائفة يهودية محافظة دينيا وسياسيا وُجدت في القرن الأول للميلاد. وشغل المتشدّدون النصيب الأكبر في المجلس الأعلى اليهودي تحت الاحتلال الروماني. انتقدهم السيد المسيح بصرامة بسبب نفاقهم.

الشريعة: راجع التوراة.

شكيم: كانت مدينة شكيم تقع بجوار مدينة نابلس في الضفة الغربية اليوم.

شور: يرى الباحثون أنّ منطقة شور كانت تقع في شمال صحراء سيناء على الساحل بين مصر وفلسطين. وكان المسافرون يضطرّون للمرور عبرها عند سفرهم بين فلسطين (كنعان) ومصر.

شعيب: راجع يثرون.

شيلوه: هي بلدة كانت تقع في المنطقة التي تعرف اليوم بالضفة الغربية، وكانت تقع بين رام الله ونابلس. ووضع بنو يعقوب خيمة بيت الله في هذا المكان بعد زمن النبي موسى، تحت قيادة يشوع بن نون. وصار شيلوه مكانا مقدسا ومقصدا يحجّ إليه الناس للعبادة، ولكن مع الوقت قضى الله بتدمير هذا الموضع بسبب شرور بني يعقوب.

شاليم: اسم قديم لمدينة القدس.

شاول: راجع طالوت.

ص

الصدّوقيون: حزب يهودي ديني أراد المحافظة على نظام مؤسسة حرم بيت الله في القدس في القرن الأول للميلاد، وانتمى إليه كبار الأحبار. وكان يمثّل الحزب الثاني في المجلس اليهودي الأعلى، وكان الصدّوقيون أصدقاء ولاة السلطة الرومانية ورؤساء الأحبار، وهم لا يؤمنون بالقيامة ولا

بالملائكة ولا بالأرواح. اختلفوا دائما مع المتشدّدين، ولكنهم اتفقوا معهم على مقاومة السيد المسيح وقتله. واسم الصدّوقيون لا يعني أنهم صادقون.

صلب/ الصليب: كان الصلب أبشع طرق الإعدام عند الرومان، في حين كان اليهود يعدمون المجرمين رجما، وأحيانًا يعلّق الرومان جثّة المجرم على شجرة بعد رجمه ليهينوه. وكان الرومان يحتلّون بلاد فلسطين زمن السيد المسيح، ومنعوا اليهود من تنفيذ حكم الإعدام. وقد حرّض قادة اليهود الوالي الروماني بيلاطس على إعدام السيد المسيح صلبا. لذلك فاليهود لم يصلبوا سيدنا عيسى ولم يقتلوه، بل قتله الرومان، بل الرومان لم يقتلوه في الحقيقة، لأنّ سيدنا عيسى سلّم نفسه للموت بإرادته حتى يفدي بني آدم بذبح عظيم.

الصيام: كان الناس يصومون في زمن السيد المسيح لأهداف مختلفة. وكان هناك صوم جماعي يُفرض في يوم معين من السنة وهو يوم الكفارة. وصام اليهود أيضًا باختيارهم أفرادًا وجماعات تعبيرا عن الحزن أو التوبة أو التواضع أو للاستعانة أو طلب الإرشاد لأنفسهم أو لغيرهم. وعادةً ما يصومون دون أكل وشرب يوما كاملا ليل نهار، وأحيانًا يتجاوزون اليوم الواحد إلى ثلاثة أيام دون أكل وشرب ليل نهار (راجع سفر أستير 4: 16). وأنّب سيدنا عيسى المتشددين لأنهم صاموا رياء كي يمدحهم الناس. فقال السيد المسيح إن الصيام يجب أن يكون لوجه الله فقط (متّى 6: 16–18). وقبل بداية نشر رسالته، صام سيدنا عيسى أربعين يوما ليل نهار.

صندوق الميثاق: أمر الله النبي موسى في جبل سيناء بإقامة خيمة بيت الله للعبادة، وأن يضع فيها صندوقا مصنوعا من خشب مغطّى بالذهب. ويحتوي هذا الصندوق على إناء من ذهب فيه بضع من المنّ الذي أنزله الله طعاما لبني إسرائيل في صحراء سيناء، كما يحتوي على عصا هارون ولوحين من حجر نُقشت عليهما وصايا الميثاق.

وبينما كان بنو يعقوب في صحراء سيناء حمل رجال من عشيرة لاوي الصندوق عند ترحالهم من مكان إلى آخر.

صورة الله: راجع ظل الله.

صحراء فاران: منطقة صحراوية قريبة من خليج العقبة ومن مدينة العقبة اليوم.

صفّورة: ابنة رجل دين في بلاد مدين واسمه يثرون، وصارت زوجة النبي موسى.

ض

الضالون، غير المتدينين: اعتبر المتشددون غير المتدينين «ضالين» أو «خاطئين» لعدم التزامهم بالطقوس والتقاليد الدينية الخاصّة بالمأكولات المحرّمة ويوم السبت ومعاشرتهم لغير اليهود (الذين اعتبرهم المتشددون نجسين). أمّا سيدنا عيسى فتقرّب من هؤلاء، لأنّ دعوته موجّهة «للمرضى» بشكل خاص وليست خاصة بالمتديّنين الذين يفتخرون بعلوّ مقامهم عند الله. قال سيدنا عيسى إنّهم فعلا بعيدون عن الله لأنّهم رفضوا التوبة.

الذبح العظيم: قال النبي يحيى بن زكريا عن سيدنا المسيح، «هوذا الذِّبحُ العَظيمُ المُرسَلُ مِن اللهِ ليُزيلَ عن البَشَرِ ذُنوبَهُم» (يوحنا 1: 29). ويتضمّن هذا الكلام أنّ السيد المسيح سيحقق وعود الله بفداء الناس أجمعين بتضحيته بنفسه على الصليب من أجلهم. وكان قوم بني يعقوب يذبحون الغنم في عيد الكفارة ليزيلوا بهذا الذبح خطاياهم وذنوبهم. وقدّموا الذبائح كل سنة، لأنّ مفعولها لا يدوم. أمّا تضحية السيد المسيح فقد كانت قوية مقبولة عند الله لكفارة ذنوب المؤمنين به إلى الأبد.

الأضاحي والقرابين: قدَّم اليهود ذبائح وكميات من الحبوب والفواكه والبهارات من محصولهم شكرا لله، أو طلبا للمغفرة أو بركة من الله،

كما قدّموها تكفيرا عن ذنوبهم. وتُحرق الذبائح كُليًا أو جزئيًا ويُسمح للمتعبّدين ورجال الدين بالأكل من بقية الذبائح التي أُحرق جزء منها (راجع مذبح).

ط

التطهّر بالماء: تطهّر اليهود بالماء لأسباب مختلفة. وكان معظم اليهود يعتبرون أنّ الإنسان لا يمكنه الانتماء إلى الشعب اليهودي - بنظرهم شعب اللّه المختار - إلاّ من خلال الختان (للذكور) والتطهّر بالماء (للذكور والإناث). أمّا النبي يحيى بن زكريا عليه السلام فقد دعا الناس إلى التطهّر بالماء كعلامة للتوبة استعدادًا لمجيء السيد المسيح الملك وتكوينه لأمّة الله من جديد. ويساوي هذا الاصطلاح «صبغة الله» (انظر سورة البقرة، الآية 138).

الطوفان: جاء في التوراة أنّ الله قضى بدمار الأرض تحت مياه طوفان عظيم زمن النبي نوح، بسبب معاصي الناس وكثرة فسادهم. ووردت قصص مشابهة لقصّة الطوفان في التوراة عند بعض الشعوب القدامى.

طالوت: الملك الأول لقوم بني يعقوب، وقد عيّنه النبي صموئيل ملكا من خلال مسح رأسه بالزيت. ولكنه لم يطع الله فنزع عنه تعالى الملك في النهاية وجعل النبي داود عليه السلام ملكا بدلا عنه. ولكنّ النبي داود لم يعتل عرش المملكة في ذلك الزمن، فبقي طالوت ملكا طاغية على القوم سنين طويلة إلى أن لقي مصرعه في معركة ضد الوثنيين من بلاد فسلطيا.

ظ

ظل الله: جاء في بعض النصوص أنّ الله خلق الإنسان «على صورته»، ولكنّ المفسّرين يجمعون على أنّ هذا التعبير مجازي ويشير إلى السلطة والحكم. وفي العالم القديم اعتبر الملوك أنفسهم ظلّ الله في الأرض، بينما أوحى

الله تعالى أنّ هذه الميزة خصّ بها كلّ البشرية، ابتداء من آدم عليه السلام. وبذلك تكون البشرية جمعاء خليفة الله في الأرض (انظر سورة البقرة، الآية 30، وسورة الأنعام، الآية 165).

ع

عشتروت: آلهة كان يعبدها أهل صيدا وتُعرف أيضا باسم أشيرة.

العبرية: هي اللغة التي أنزل الله بها التوراة والزبور ومعظم كتب الأنبياء الأولين. وكان أغلب بني يعقوب يستعملون هذه اللغة حتى زمن أسرهم في بابل. وبعد رجوعهم من بابل، ازداد عدد اليهود المتكلّمين باللغة الآرامية عوض اللغة العبرية. وفي أيّام سيّدنا عيسى تكلّم اليهود في فلسطين اللغة الآرامية، أمّا اللغة العبرية فظلت لغة الدين، في حين كانت اليونانية لغة التجارة وهي الأكثر انتشارا في حوض البحر الأبيض المتوسط.

عدن: اسم يرتبط بالجنة التي خلقها الله في البداية لآدم وحواء. ويرى بعض الدارسين أنّ هذا الاسم قديم ويعني «مثمر» و«خصيب».

علماء التوراة: فقهاء في الدين اليهودي مختصين في الكتب السماوية والشريعة والتقاليد الدينية. وشرح هؤلاء العلماء ما جاء في التوراة للناس، ويعرفون أيضاً بالنُّساخ انتمى أغلبهم إلى حزب المتشدّدين.

عيد الخمسين: هو عيد يلي أوّل أيام الحصاد بخمسين يوما أو سبعة أسابيع. وهو أيضا اليوم الذي بُعث فيه السيد المسيح حيًّا. وكان اليهود يحجّون إلى بيت الله في القدس ليشكروا الله على الحصاد وليحيوا ذكرى نزول الشريعة على جبل سيناء. وفي هذا اليوم أيضا نزلت روح الله على أتباع سيدنا عيسى بعد صعوده إلى السماء (انظر سيرة الحواريين 2: 1-4).

عيد الخيام: هو عيد يحتفل به اليهود في فصل الخريف ويعيش حجاج بني يعقوب في خيام خلال أيّام العيد.

عيد الفصح: هو عيد يحتفل فيه اليهود بنجاتهم من ملاك الموت، وذلك قبل هروبهم من بطش فرعون بقيادة النبي موسى. وكان اليهود يذبحون الخراف كل سنة إحياء لذكرى احتفالهم الأول في عهد النبي موسى بهذا العيد. وفيه تذكّر اليهود كيف وضع آباؤهم الدماء على عتبات بيوتهم كعلامة لملاك الموت كي يجتاز عن بيوتهم ولا يدخلها ليقتل الأبناء الأبكار. (انظر سفر الخروج، الفصل 12).

عيد الفطير: عيد يلي عيد الفصح ويمتد على سبعة أيام، لا يأكل فيه بنو يعقوب خبزاً بالخميرة بل فطيراً، كذكرى لتحرّرهم من العبودية في مصر ومن فرعون وطغيانه. وذلك لأنّهم لمّا خرجوا من مصر مسرعين لم يختمر العجين فأكلوه فطيراً.

عيد الكفّارة: يعتبر هذا اليوم أهم الأعياد والمواسم عند بني يعقوب. وكان قوم بني يعقوب يذبحون الغنم في هذا العيد ليزيلوا بهذا الذبح خطاياهم وذنوبهم. ومرة واحدة في السنة فقط، تحديدا في هذا اليوم، دخل كبير الأحبار إلى المحراب الأقدس الداخلي في بيت الله ورش دم الذبائح ليكفّر عن سيئاته وسيئات شعبه. وفي الإنجيل هذا يرمز إلى تضحية السيد المسيح بنفسه الذي تكفر بالمؤمنين بشكل نهائي.

عمران: هو والد النبي موسى وهارون وأختهما مريم. وهو من عشيرة لاوي، تزوّج امرأة اسمها يوكابَد. وورد في الإنجيل مدح له ولزوجته بسبب إيمانهما العميق (انظر رسالة العبرانيين 11: 23).

عيلام: حضارة قديمة وُجدت في الساحل الشمالي للخليج العربي. وكانت الممالك العيلامية من أبرز القوى في الشرق الأدنى القديم أثناء عصر النبي إبراهيم وبعده.

عهد الله: راجع ميثاق الله.

العيص: الابن البكر للنبي اسحق عليه السلام، وهو توأم ليعقوب عليه السلام. مع أنه حظي بحق الابن

البكر، لكنّه لم يحترم هذه الميزة وفرّط فيها لأخيه يعقوب وفقا لما أوحى به الله لأمّه عند ولادته. ومنه انحدر الشعب الأدومي الذي صار عدوا لشعب بني إسرائيل.

ف

فيشون: اسم لأحد الأنهر الأربعة في جنة عدن، وكان يمرّ بأرض الحويلة. وذكر بعض الدارسين أن هذا النهر ربما كان قد جرى من الحجاز في الجزيرة العربية إلى بلاد الكويت.

فنوئيل: مكان يقع في الضفة الشرقية لنهر الأردن وتحديدا في الضفة الجنوبية لنهر يبوق (نهر الزرقاء اليوم). وفيه تصارع النبي يعقوب مع الملاك.

فوطيفار: اسم لعزيز مصر الذي كان سيد النبي يوسف.

فلسطيا: تقع في ساحل جنوب كنعان (فلسطين)، سكنها شعب وثني من أصل جزيرة كريت. وكان هذا الشعب في صراع مستمر مع الشعوب المجاورة وخاصّة بني يعقوب.

الفريسيون: راجع المتشدّدون.

ق

القبر: «شيول» في اللغة العبرية، وكان القدامى يشيرون بهذه الكلمة إلى عالم ما بعد الموت، وفي اعتقادهم ينتقل الإنسان بعد موته إلى مكان مظلم تحت الأرض، لا رجوع منه.

القيصر: لقب أطلق على الملك الروماني في أيام السيد المسيح.

قبة السماء: اعتقد القدامى في زمن النبي موسى وما قبله أنّ السماء عبارة عن حاجز يحبس المياه ويمنعها من السقوط، إلاّ إذا فُتحت نوافذ فيهذا الحاجز فيسقط الماء عندئذ على الأرض في شكل مطر.

قطورة: زوجة النبي إبراهيم التي اقترن بها بعد وفاة زوجته سارة. وأنجبت قطورة ستّة أولاد ومنهم انحدرت بعض العشائر في الجزيرة العربية.

القضاة: راجع الحكام المناصير.

ك

كبير الأحبار: هو رجل دين في أعلى منصب في نظام بيت الله. وكان كبير الأحبار رئيس مجلس اليهود الأعلى في عصر السيد المسيح. ويدخل مرة واحدة في السنة، وتحديدا في يوم الكفارة، إلى المحراب الأقدس الداخلي في بيت الله ويرش دم الذبائح ليكفّر عن سيئاته وسيئات شعبه.

كنعان: هي منطقة في بلاد الشام تضمّ فلسطين وغزة ولبنان وجنوب سوريا. ويشير هذا الاسم أحيانا إلى فلسطين فقط.

كروبيم: راجع حملة العرش.

كورش: هو ملك، أسّس أول إمبراطورية فارسية امتدت في الشرق الأدنى وانتصرت على الدول السابقة. وكانت إمبراطوريته أعظم إمبراطورية شهدها العالم في ذلك الزمن. وحسب النبي أشعيا أقام الله كورش ملكا لتنفيذ مقاصده الكريمة في العالم ولمصلحة عباده المختارين.

ل

لامك: انحدر لامك من نسل قابيل، وهو أول رجل يتزوج أكثر من زوجة واحدة حسب التوراة. وعُرف بوحشيّته إلى درجة أنّه ادّعى لنفسه الحق في أن ينتقم لنفسه 77 مرّة، وهذا يعني مجازيا أنه سعى إلى الانتقام بلا نهاية. وأشار السيد المسيح إلى وحشية لامك عندما حثّ أتباعه أن يسامحوا من أخطأ في حقهم 77 مرّة (أي أن يسامحوا بلا حدود).

لابان: أحد أقارب النبي إبراهيم، وهو أخو رفقة زوجة النبي إسحاق.

ليئة: بنت لابان وأخت راحيل. وأصبحت زوجة للنبي يعقوب وأمّ لستّة من أبنائه الاثني عشر.

لفظ الجلالة: تجنّب اليهود في زمن السيد المسيح نطق اسم الجلالة وقاراً وورعاً. لذلك تكلموا عن الله وكتبوا عنه في صيغة المبني للمجهول أو استبدلوا اسمه تعالى بتعبير مجازي مثل «السماوات». وفي هذه الترجمة تعمدنا ذكر اسم الله في الأماكن التي حُذف منها.

م

مَثَل: هو تعبير موجز يميل إلى الحكمة وقد استعمله السيد المسيح كثيرًا في تعاليمه، واستعمله قبله النبي سليمان.

مديَن: مكان يقع في صحراء السعودية الآن وتحديدا قرب خليج العقبة.

المُرّ: عنصر يستخرج من النبات ويُستخدم في العطورات. استعمله القدامى كهدية رفيعة أو دواء لتخفيف الألم أو لتحنيط الموتى قبل دفنهم.

المسيح، مسح: كان اليهود يمسحون بالزيت على رأس الملك أو الحبر أو النبي عند تنصيبه أو تعيينه، ولذلك كان الناس يسمّون ذلك الشخص «مسيح» أي «ممسوح/ مختار». والله عز وجل سمّى سيدنا عيسى بالمسيح لأنه تعالى اصطفاه وعيّنه ليكون الملك المرتجى من نسل داود يستوي على عرشه. والسيد المسيح هو النبي الموعود به والمفتدي وسيد كل البشر. وكان اليهود يحملون مفهوما خاطئا عن شخصية المسيح المنتظر، لأنّهم توقّعوا أن الله من خلاله سيدمّر الرومان المستعمرين وينقذ قومه من أعدائهم، لذلك تجنّب سيدنا عيسى إطلاق هذا التعبير على نفسه.

مملكة الله، المملكة الربانية: بعد إزالة المُلك من بني يعقوب، أوحى الله إلى الأنبياء أنه سيقيم عرش النبي داود من جديد ويجعل واحدا من سلالته يملك في مكانه (كتاب النبي إرميا 33:

17، كتاب النبي عاموس 9: 11). ووعد الله عباده أنه سيُنشئ مملكة تدوم إلى الأبد ليس فيها ظلم أو شرّ. وتوقّع اليهود من هذا التعبير أن الله سيُؤسس مملكة دنيوية خاصة بهم تقهر الأمم الوثنية وتجعل اليهود أسياد البشر. ولكنّ السيد المسيح في تعليمه ذكر أن هذه المملكة مفتوحة لكل البشر الذين آمنوا به عليه السلام.

ملكة سبأ: ملكة من اليمن زارت النبي سليمان حتى ترى مجده. وتُعرف في التراث العربي باسم «بلقيس».

موآب: مملكة قديمة كانت تقع في الاتجاه الشرقي من البحر الميت، وتحديدا في دولة الأردن اليوم. وكان سكّان هذه المملكة وثنيين ومن أعداء قوم بني يعقوب.

الملأ الأعلى: الملائكة المقرّبون من الله.

مغارة المكفيلة: اشترى إبراهيم عليه السلام هذه المغارة من سكّان منطقة الخليل في الضفة الغربية، حتى تكون مدفنا لزوجته الراحلة سارة، ومع مضي الوقت صارت مدفنا له أيضا، ولابنه اسحق وزوجته رفقة، وحفيده يعقوب وزوجته ليئة. ويُعرف هذا المكان اليوم بالحرم الإبراهيمي.

الملك صادق: هو ملك مدينة ساليم وهو حبر (أي رجل دين) لله العلي العظيم. وأكرم هذا الملك النبي إبراهيم بعد انتصاره على جماعة من الغزاة، ودعا له بالبركات.

متوشالح: هو ابن النبي إدريس عليه السلام. وقد عاش 969 سنة وهو أطول الأعمار المذكورة في التوراة.

مريم أخت موسى وهارون: ليست السيدة مريم أمّ السيد المسيح.

المنّ وطيور السلوى: أنزل الله هذا الطعام لبني إسرائيل في الصحراء عندما طلبوا طعاما من الله ليسدّوا رمق جوعهم. وكان لون المنّ كبذور الكُزبرة، وطعمه طعم القطائف المحلاة عسلا.

منسّى: الابن البكر للنبي يوسف عليه السلام من زوجته أسنات. ويعني هذا الاسم «المُنسي».

المزامير: راجع الزبور.

المنجذبون بالروح / المتصوفون: رجال ينتمون إلى جماعة دينية تحت إشراف نبي، وفي بعض الأحيان عاشوا حياة جماعية وتناولوا الطعام معا. ربما النبي صموئيل كان أول من نظّم جماعات المنجذبين بالروح.

الميثاق: اختار الله أن يراعي ضعف عباده فاستعمل معهم أسلوب المواثيق السائدة آنذاك بين القدامى. فأكّد للنبي نوح والنبي موسى وغيرهم من الأنبياء مقاصده لبركة العالمين من خلال إبراهيم وذرّيته.

مدينة داود: منطقة كانت تقع في مدينة القدس.

المنشدون: جماعات من رجال الدين في زمن النبي داود مهمّتهم الإنشاد في حرم بيت الله.

ميثاق: هو اتّفاق بين شخصين أو اتّفاق بين الله تعالى وشخص يختاره (مثل النبي نوح في سفر التكوين 9: 8–17 أو النبي إبراهيم في سفر التكوين 17: 1–8) أو اتّفاق بين الله وشعب معيّن مثل بني يعقوب في زمن النبي موسى (انظر التوراة، سفر الخروج 24: 4–8).

ن

نبوخذ نصر: ملك إمبراطورية بابل وقد امتدّ حكمه من سنة 605 ق. م إلى 562 ق. م. وقد حاصر مدينة القدس وأمر جيشه بهدم أسوارها وحرق مبانيها، وأخذ سكّانها سبايا في بلاده. جاء وصفه كملك متغطرس وظالم في كتاب النبي دانيال، لكنّ الله أذلّه حتى اعترف بعظمته تعالى وسلطانه الذي لا يحدّ.

النبي إلياس: عاش في القرن التاسع قبل الميلاد، وقاوم شرّ الملك أخاب والملكة

إيزابال. وعُرف بالمعجزات التي جرت على يديه. عرج إلى السماء وانتقل إلى الغيب دون أن يموت (انظر كتاب الملوك الثاني 2: 11). انتظر اليهود رجوعه قبل يوم الدين تمهيدًا لمجيء المسيح المنتظر حسب وعد الله للنبي ملاكي (انظر الإنجيل، متّى 17: 10–11 ومرقس 9: 11–12). قال سيدنا عيسى إنّ النبي يحيى حقّق ما جاء في هذه النبوءة عن النبي إلياس، إذ جاء بروح إلياس وقوّته.

النبي يحيى بن زكريا: وُلد قبل سيدنا عيسى بستّة أشهر. ولكي يمهّد الطريق للسيد المسيح أنذر الشعب اليهودي بضرورة التوبة، ودعاهم إلى التطهّر بالماء علامة على توبتهم، ولذلك سمّاه الناس «يحيى المغطِّس». وكان من أقارب أمّ سيدنا عيسى.

النبي أَلِيسَعَ: انظر المدخل إلى قصّة النبي إلياس والنبي أليسع.

النبي يونس: انظر المدخل إلى قصّة النبي يونس.

النصارى: اسم قديم لأتباع السيد المسيح، الذي ترعرع في مدينة الناصرة في الجليل (انظر سيرة الحواريين 24: 5).

النوبَة، مملكة النوبة: منطقة في افريقيا الشمالية الشرقية (مصر والسودان الآن).

ه

و

وريث مملكة النبي داود: لقب يعادل تعبير «ابن داود» وهو لقب المسيح المحرِّر المنتظَر، لأنّ الله وعد الأنبياء أنّ المسيح سيكون من نسل النبي داود ويرث عرشه.

موقد البخور: مبخرة لتقديم البخور وإحراقه في المحراب المقدّس في بيت الله كما جاء في التوراة. (انظر التوراة، سفر اللاويين 16: 12 وما يليها).

الوضوء: أمر الله رجال الدين الأحبار الذين خدموا في حرم بيت الله أن يتوضؤوا في حوض مخصّص لذلك قبل قيامهم بأعمالهم في الحرم. وفي زمن السيد المسيح كان المتشدّدون يعلّمون عامّة الشعب اليهودي بضرورة الوضوء وهذا لا ينطبق على رجال الدين فقط، بل على كل العباد.

ي

يهودي: الشخص الذي ينتسب إلى المواطنين من مملكة يهوذا، وكان أكثرهم من بني يهوذا بن يعقوب عليه السلام. ومع مرور الزمن صار هذا الاسم ينطبق على كل الناس من شعب بني يعقوب (بني إسرائيل).

يهوذا: 1) أحد أبناء النبي يعقوب 2) بني يهوذا بن يعقوب 3) منطقة عشيرة يهوذا في الجبال حول القدس 4) منطقة فلسطين الجنوبية عاصمتها القدس. كانت في القديم منطقة عشيرة يهوذا من شعب بني يعقوب، ثم أصبحت مملكة مستقلّة بعد انشقاق مملكة النبي سليمان في القرن التاسع قبل الميلاد.

يهوذا الإسخريوطي: أحد حواريي السيد المسيح الذي خانه فيما بعد. ينتمي إلى بلدة قريوت قرب القدس في منطقة يهوذا.

اليونانية: اللغة الشائعة في حوض البحر الأبيض المتوسط في زمن السيد المسيح، وقد أنزل الله الإنجيل الشريف بهذه اللغة.

يشوع بن نون: كان مساعدا للنبي موسى عليه السلام خلال تيه بني إسرائيل في صحراء سيناء إلى أن وصلوا إلى مشارف أرض كنعان. وصار قائدا لقومه بعد وفاة النبي موسى في جبل نيبو في الضفة الشرقية لنهر الأردن.

يوكابد: والدة النبي موسى عليه السلام وكانت زوجة عمران. وبسبب إيمانها وزوجها بالله لم يسلما ابنهما إلى سطوة فرعون الطاغية عندما أمر بقتل كل مولود ذكر من بني يعقوب.

يثرون: كان رجل دين لشعب مدين، وزوّج ابنته صفّورة للنبي موسى عندما هرب من فرعون مصر والتجأ إلى بلاد مدين.

يوناثان: ابن الملك طالوت، وأصبح صديقا حميما للنبي داود عليه السلام واعترف بحق النبي داود أن يعتلي العرش مكان أبيه. توفّي يوناثان مع أبيه في معركة عنيفة ضد الوثنيين من بلاد فسلطيا.

يَبوس: اسم قديم لمدينة القدس.

يسّى: والد النبي داود عليه السلام.

الفهرس